المركز القومى للترجمة

مارجريت أتوود

القاتل الأعمى

ترجمة وتقديم
عزة مازن

1363

المشروع القومى للترجمة

مكتبة ٣٣٣

الإبداع
القصصى

القاتل الأعمى
مكتبة

مكتبة | 333

القاتل الأعمى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

مكتبة ٢٠١٨١٢١٦

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- ١٣٦٣
- القاتل الأعمى
- مارجريت أتوود
- عزة مازن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

The Blind Assassin

By: Margaret Atwood

© O.W. Toad Ltd 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. . Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

القاتل الأعمى

(رواية)

تأليـــف: مارجريت أتوود

ترجمة وتقديم: عزة مازن

مكتبة 333

٢٠٠٩

telegram @ktabpdf

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أتوود، مارجريت
القاتل الأعمى (رواية)/ تأليف: مارجريت أتوود،
ترجمة وتقديم: عزة مازن؛
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٦٥٢ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) مازن، عزة (مترجم ومقدم)
٢ - العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٣٥٣١ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 - 977 - 479 – 453 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مكتبة القاتل الأعمى

المحتويات

مقدمة المترجمة.................... 11

الفصل الأول

الجسر.................... 19

تساؤلات حول وفاة بالمدينة.................... 23

القاتل الأعمى تأليف لوراتشاس.................... 24

الفصل الثانى

القاتل الأعمى: البيضة المسلوقة.................... 29

العثور على جريفين فى قارب شراعى.................... 35

القاتل الأعمى: مقعد الحديقة.................... 36

وفاة ابنة أخت مؤلفة رواية إثر سقوطها.................... 41

القاتل الأعمى: البسط.................... 42

القاتل الأعمى: قلب بأحمر الشفاه.................... 47

نشرة مدرسة كولونيل بارك مان العليا ورابطة الخريجين فى بورت
تيكونديروجا مايو ١٩٩٨.................... 56

منح جائزة لوراتشاس التذكارية.................... 56

الفصل الثالث

العرض.................... 59

الصندوق الفضى.................... 68

مصنع الأزرار.................... 75

أفيليون.................... 84

جهاز العروس.................... 95

الجراموفون........ 105
يوم الخبز........ 113
الشرائط السوداء........ 127
الصودا........ 131
الفصل الرابع
المقهى........ 139
تشاس يساهم فى إجراءات الإغاثة........ 143
القاتل الأعمى: غطاء الشنيل........ 144
تحية لبينيت: خاص للميل أندامبير........ 149
القاتل الأعمى: الرسول........ 150
الجيش يقمع إضرابًا عنيفًا فى بورت تيكونديروجا........ 157
القاتل الأعمى: جياد الليل........ 158
أخبار الناس فى تورنتو فى عز الظهر........ 163
القاتل الأعمى: الجرس البرونزى........ 163
الفصل الخامس
معطف الفراء........ 171
الجندى المنهك........ 181
مس فيولنس........ 190
مسخ الكائنات لأوفيد........ 201
نزهة طعام فى مصنع الأزرار........ 211
مانحات الطعام........ 224
التلوين اليدوى........ 238
القبو البارد........ 250
العلية........ 264
القاعة الإمبراطورية........ 275

القاعة الأركادية.. 283
التانجو... 296

الفصل السادس
القاتل الأعمى: الحلة ذات المربعات........................ 309
القاتل الأعمى: نسيج أحمر مقصب........................... 314
تم العثور على إحدى فتيات المجتمع سالمة.................. 321
القاتل الأعمى: السير فى الشارع........................... 322
القاتل الأعمى: حارس البوابة.............................. 329
أخبار المجتمع فى تورنتو فى عز الظهر.................... 339
القاتل الأعمى: غريب على الجليد.......................... 340

الفصل السابع
الحقيبة الكبيرة... 351
المحرقة... 359
بطاقة بريدية من أوروبا.................................... 371
القبعة فاتحة الصفرة....................................... 383
مفتون... 391
صنى صايد.. 400
قصة قديمة... 404
إكسانادو.. 409

الفصل الثامن
حكايات اللواحم.. 423
بحثا عن وصف... 434
القاتل الأعمى: نساء خوخيات فى آى آى..................... 436
جريفون يحذر من الشيوعيين فى إسبانيا..................... 447
القاتل الأعمى: مطعم القبعة العالية للمشويات.............. 448

الفصل التاسع

الغسيل.. 457

منفضة السجائر.. 465

الرجل ذو الرأس المحترق.. 475

شجرة القسطل.. 494

الفصل العاشر

الرجال السحالى من إكسينور.. 499

أخبار الناس فى تورنتوفى عز الظهر... 504

القاتل الأعمى: البرج... 507

ثأر أحمر فى برشلونة.. 511

القاتل الأعمى: محطة يونيون.. 512

الفصل الحادى عشر

وحدة دورة المياه... 517

القطيطات... 521

منظر جميل... 530

القمر يتألق ساطعًا... 537

مطعم بيتى للوجبات السريعة.. 545

الرسالة... 555

الفصل الثانى عشر

جريفون يشيد باتفاق ميونخ.. 563

أبهة الحياة الملكية فى حفل بالحديقة الملكية.. 565

القاتل الأعمى: حجرة المغضبات... 566

القاتل الأعمى: الستائر الصفراء.. 573

القاتل الأعمى: البرقية... 576

القاتل الأعمى: تدمير سايكل نورن.. 578

الفصل الثالث عشر

القفاز.. 585

نيران المنازل.. 590

ديانا سويتس.. 596

جرف وعر.. 607

الفصل الرابع عشر

الخصلة الذهبية.. 617

النصر يجيئ ويذهب.. 622

كومة الحصى.. 631

الفصل الخامس عشر

القاتل الأعمى: كلمة الختام، اليد الأخرى العتبة........................... 641

العتبة.. 643

مقدمة المترجمة

قبل أن تقرأ

رسخت مارجريت أتوود، مكانتها الأدبية المرموقة فى الأدب الكندى المعاصر، كروائية وكاتبة للقصة القصيرة وشاعرة، وناقدة أدبية، بالإضافة إلى إسهاماتها فى الكتابة للأطفال. ووصلت أعمالها منذ بدأت النشر عام ١٩٦١ إلى أكثر من ثلاثين كتابًا، تُرجم كثير منها إلى أكثر من ٣٥ لغة عالمية، كما أدرجت ضمن مناهج دراسة الأدب فى المدارس والجامعات، وأصبحت مادة للحوارات الأدبية والمراجعات النقدية وأبحاث التخرج فى أقسام الأدب حول العالم. وحازت العديد من الجوائز الأدبية المرموقة. ومنها جائزة البوكر الأدبية عام ٢٠٠٠ عن روايتها "القاتل الأعمى" المترجمة هنا.

تعد روايتها "القاتل الأعمى" رائعة أدبية وملحمة إنسانية بديعة. فى مستهل الرواية تسترجع أيريس تشاس ذكرياتها عن حادثة سقوط أختها لورا من فوق الجسر عام ١٩٤٥ . يتبعها تقرير صحفى عن الحادثة. ولكن بمجرد أن يستعد القارئ للاستغراق فى قصة لورا، تنقله أتوود إلى رواية أخرى بعنوان "القاتل الأعمى"، متضمنة فى الرواية الأساسية، وهى من نوع الخيال العلمى يرويها عاشقان فى حجرات معتمة بالشوارع الخلفية. وعندما نعود إلى أيريس يكون عام ١٩٤٧ فى مقال صحفى عن اكتشاف قارب بحرى يحمل جثة زوجها المتوفى، رجل الصناعة المعروف ريتشارد جريفون. وبذلك تلقى أتوود فى مستهل الرواية بخيوط السرد الرئيسية لتشحذ ذهن القارئ للبحث عن العلاقة بينها. "القاتل الأعمى" رواية متعددة الطبقات بسخاء وتميز. تتشابك فيها الخطوط والأحداث متتابعة فى سرعة. وبمجرد أن تتلاقى الأحداث والخطوط يكتشف القارئ أن ما ترويه أتوود ليس ما يبدو عليه ولكنه يفوق ذلك بكثير.

telegram @ktabpdf

لا تضم الرواية حكاية واحدة؛ إنما خطوطاً متشابكة نسجت معا بمهارة فائقة لتشكل نسيجًا واحدًا. فأتوود تستخدم ثلاث حبكات روائية متداخلة تحمل كل منها عنوان "القاتل الأعمى". تتناول الحبكة الخارجية الإطار العام للرواية، والتى تحكى عن أيريس، وهى سيدة مسنة تكشف أسرار حياتها فى أسلوب معقد مثير. فتركز ذكرياتها الواقعية الخارجية على سنوات الطفولة والنضج مع أختها لورا المتوفاة، والتى يتضح أنها كتبت رواية نشرتها أيريس بعد وفاتها. وأحداث تلك الرواية هى الحبكة الوسطى التى تحمل عنوان "القاتل الأعمى" وتدور حول قصة حب محظورة فى فترة الكساد الاقتصادى فى كندا بين شاب من الثوار السياسيين وفتاة من الطبقة الراقية، كلاهما بلا اسم. وفى مواعيدهما الغرامية المختلسة تنشأ حلقات الحبكة الثالثة التى تحمل أيضاً عنوان "القاتل الأعمى". وهى حكاية من الخيال العلمى يحاول بها الحبيب إثارة انتباه حبيبته وكأنه الجانب المذكر من شهرزاد. وتدور هذه الحكاية الثالثة فى مدينة خيالية فوق كوكب خيالى يدعى ذيكرون يحكمها طاغية. وتتخلل تلك الحبكة الثالثة قصة حب أخرى تتوازى مع الحبكتين الأخريين. وكما حدث فى روايتها حكاية خادمة؛ استخدمت أتوود الخيال العلمى فى روايتها القاتل الأعمى لتحليل الواقع التاريخى والاجتماعى، ولتقدم للقارئ حكاية رمزية تطلق صيحة تحذير للمستقبل. واختارت أتوود أن تمنح الحبكة الروائية الوسطى "القاتل الأعمى" عنوان الرواية كلها، لأن تلك الرواية المتضمنة تنسحب بظلالها على الأحداث، ويصبح القاتل الأعمى ليس هو بطل الرواية الخيالية المتضمنة وحدها؛ إنما ينطبق هذا الوصف على كثير من الشخصيات المحورية فى رواية أتوود بمن فيهم أيريس نفسها.

الراوى الأساس فى الرواية هى أيريس تشاس جريفون، سيدة مسنة تجاوزت الثمانين، تعود إلى طفولتها وصباها بأسلوب الفلاش باك. فهى تكتب مذكرات تتمنى أن تقرأها حفيدتها سابرينا بعد رحيلها. لم ترَ أيريس سابرينا التى صارت شابة فى ذلك الوقت – منذ أن كانت طفلة. ونعلم أن هناك شرخا فى العلاقة بينهما. لكن بعد فـترة يزداد اللغـز غموضاً. وتظل أتوود لفترة من الوقت تمنحنا لغزاً وراء آخر. ومع أن جانبا من الأحداث تضيئه لنا قصاصات الصحف

التى تتناثر بين صفحات السرد، إلا أن تلك القصاصات نفسها تسهم فى تعميق اللغز أحياناً. ويتقافز العمل بين مذكرات أيريس وقصاصات الصحف وفصول من رواية "القاتل الأعمى" التى نسبت كتابتها إلى لورا تشاس ونشرت عام ١٩٤٧ بعد وفاتها. ولكن أثناء السرد يتسرب الشك إلى نفس القارئ فيما إذا كانت لورا هى حقا صاحبة تلك الرواية المتضمنة، إلى أن تتكشف الحقيقة فى نهاية الرواية.

منذ ميلاد الأختين تشاس أثناء الحرب العالمية الأولى، وذروة الرواية عند نهاية الحرب العالمية الثانية، تتلون الرواية والأحداث بألوان الأحداث التاريخية والاجتماعية بين الحربين. وتعشق أتوود تلك التفاصيل فى نسيجها الروائى تعشيقاً ماهراً رائعاً. فيطالعنا حس التفاؤل والرفاهية فى العشرينيات، ثم الخوف والجوع والبؤس فى الكساد الكبير، والحماس والقلق والاضطراب السياسى فى أوقات الحرب ونهاية الأربعينيات. وتطعم أتوود عملها بتفاصيل حية من الطعام وأنماط الملابس واتجاهات الحياة العامة، ورغم كثافة تلك التفاصيل أحيانا لا يشعر القارئ بثقلها حيث غزلت خطوطها جيدا فى النسيج العام. وفى ثنايا العمل تلقى أتوود على لسان الراوية أيريس تشاس ببعض من النقد الاجتماعى. كما يبدو فى الرواية جانب من انشغال أتوود بجدوى الكتابة وأسباب افتتان الناس بتخليد ذكراهم بأن ينقشوا أسماءهم وآراءهم على جدران الشوارع ودورات المياه، وتخرج من ذلك بأن الكتابة من أهم السبل التى يلجأ إليها البشر لتخليد ذكراهم، فهم يتركون كلماتهم مدونة على الجدران، ومذيلة بأسمائهم لتبقى شاهداً على أنهم عاشوا يوماً فى هذا العالم. وربما كان ذلك أيضاً من أسباب رغبة أيريس تشاس فى كتابة مذكراتها، ووراء نشر رواية لورا تشاس "القاتل الأعمى"(١). ولا تنسى أتوود نزعتها النسوية التى تتعاطف مع المرأة المقهورة فنلمح ذلك فى كثير من العلاقات المتشابكة بين النساء والرجال فى الرواية وخاصة تفاصيل العلاقة بين أيريس وزوجها جريفون. وتعد رواية "القاتل الأعمى" نموذجاً رائعاً لرواية تعبر فيها الشخصيات النسائية عن درجات متفاوتة من الموقف النسوى فى الحياة دون استغراق عاطفى مبتذل.

---

(١) تعرضت أتوود لقضية جدوى الكتابة فى كتاب لاحق لها بعنوان "مفاوضات مع الموتى" ترجمة كاتبة هذه السطور.

وفوق ذلك تحمل الرواية ملمحا تاريخيا له مذاقه الخاص، فتنتقل الأحداث من كندا إلى شمال أمريكا وأوروبا على خلفية تاريخية من المشهد العالمى قبل وأثناء وبعد الحربين العالميتين بما يتخلل تلك الفترات من التزامات ومعاهدات سياسية وانقلابات اقتصادية وتحولات اجتماعية. وتحاول أيريس أن تدون كل ذلك، ولكن من منظورها الخاص وعلى خلفية كندا المعاصرة وتأثرها بالأحداث العالمية التاريخية، ومع ذلك لا تأتى الأحداث التاريخية تسجيلية مجردة، مركزة فى الزمان والمكان، إنما يتسع مدلولها ليشمل الإنسان فى كل عصر وأوان، ويحكى عن أوزار الحرب، فى شتى البقاع والأزمان. وفى ثنايا ذلك تكتب أيريس تاريخها الخاص الذى يخرج فى دلالته عن إطار الذات ليصبح ملحمة إنسانية عامة.

ورغم تعقد حبكة الرواية وتشابك خطوطها وتعدد مستويات الحكى، إلا أن أتوود استطاعت فى النهاية أن تجذب الخطوط جميعا وتستجمعها معاً فى سهولة ويسر. ومع ضخامة حجم الكتاب والتى قد تجعل القارئ يشفق على نفسه من الضياع فى دهاليز التفاصيل، إلا أن الكاتبة استطاعت بمهارة فائقة أن تجعل قارئها متيقظاً مستمتعاً يشحذ فكره حتى آخر سطور الرواية، وأن تجعل كل صغيرة من تفاصيل السرد تتغلغل إلى الوجدان وتحفز على مزيد من الفكر والحرص على مواصلة القراءة. ساعدها فى ذلك استفادتها من تقنيات متعددة للسرد الروائى؛ منها استخدام أسلوب كتابة المذكرات وهى الخيط الأساسى الذى يجمع أجزاء الرواية فى كل واحد، والاستفادة من أدب الخيال العلمى، أو ما تفضل أتوود أن تسميه بأدب النبوءة، وذلك فى رواية "القاتل الأعمى" المتضمنة داخل الرواية الأساسية والتى تلقى بظلالها عليها فى ذات الوقت. كما استعانت بتقنية التوثيق الصحفى التى تضفى مصداقية على الأحداث، وذلك فى القصاصات الصحافية التى تضىء أحداث الرواية أحيانًا، وتضفى عليها شيئاً من الغموض أحياناً أخر، وكذلك استخدامها لتقنية ما وراء الرواية فى مخاطبة أيريس للقارئ والاستشهاد به أثناء السرد.

يجمع الكتاب بين ملامح القصة البوليسية والتفاصيل التاريخية والحكى الكلاسيكى والخيال العلمى والفانتازيا، ويُخرج من تلك الفسيفساء عملاً جديداً يفوق مهارة الحكى ويتجاوز الرواية البوليسية ويتخطى الخيال العلمى. فهو كتاب يمكن قراءته من عدة مستويات، فهو رواية اجتماعية، تاريخية، إنسانية، نسوية، وأيضا فلسفية تبحث فى جدوى الحياة. إنها رواية تبقى شخصياتها المحورية عالقة فى الوجدان بعد الانتهاء من قراءتها بزمن طويل. إنها رواية استمتعت بقراءتها أيما استمتاع، كما هو الشأن مع روايات أتوود فى معظمها. ومن ثم قررت أن أعمل على نقل هذه المتعة لقارئ العربية مستهينة بالوقت والجهد لما عانيته مع الطبقات المتعددة للسرد الروائى وخيوطه المتشابكة، ومع أسلوب أتوود الخاص الذى يتعامل بدقة وحساسية شديدة مع اللغة الإنجليزية والغوص بعيداً فى تراثها الأدبى والشعبى، إضافة إلى ما تضفيه الثقافة الكندية على هذه اللغة من خصوصية.

عزة مازن

أغسطس ٢٠٠٨

مكتبة

الفصل الأول

الجسر

بعد انتهاء الحرب بعشرة أيام سقطت أختى لورا بسيارتها من فوق الجسر. كان الجسر قيد الإصلاح فاخترقت بسيارتها اللافتة المحذرة من الخطر. سقطت السيارة مائة قدم فى الوادى الضيق متحطمة بين قمم الأشجار الوارفة، ثم انفجرت محترقة تتناثر منها ألسنة النيران بينما تتدحرج فى جدول الماء الضحل ساقطة نحو السفح. وسقطت فوقها كتل من الجسر. فلم يبق شىء منها سوى شذرات متفحمة.

علمتُ بالحادث من أحد رجال الشرطة، فقد كانت السيارة سيارتى، ومن ثم وصلوا إلىَّ عن طريق رخصة القيادة. كان الرجل يتحدث باحترام فلابد أنه يعرف اسم ريتشارد. قال إن الإطارات ربما انحشرت فى قضبان السكة الحديدية أو ربما تعطلت الفرامل، لكنه شعر بضرورة أن يخبرنى بأن هناك شاهدين على الحادث يعتد بهما، وهما محام وصراف بأحد البنوك، قالا إنهما شاهدا التفاصيل كافة، وأكدا أن لورا انحرفت بالسيارة بحدة وعن عمد فسقطت من فوق الجسر فى سرعة خاطفة. لقد لاحظا يديها فوق عجلة القيادة بسبب القفاز الأبيض الذى كانت ترتديه.

قلت فى نفسى ليس الأمر بسبب الفرامل، فلها أسبابها الخاصة، والتى تختلف عن أسباب أى شخص آخر. فقد كانت لا تعرف الهوادة فى هذا الأمر إطلاقًا.

وقلت "أعتقد أنكم تريدون من يتعرف عليها، سأنزل بأقصى ما أستطيع." كنت أسمع صوتى خافتًا وكأنه يأتينى من بعد. وحقيقة لم أكن أستطيع النطق بالكلمات، فشعرت بفمى قد تخدر ووجهى تصلب من الألم. وشعرت وكأنى قادمة لتوى من عيادة طبيب الأسنان. كنتُ غاضبة من لورا لما فعلت، ومن الشرطى لإلماحه بأنها فعلت ذلك. كانت رياح ساخنة تلفح رأسى، ترتفع معها خصلات شعرى وتدور فى دوامات مثل الحبر المسكوب فى الماء.

قال الشرطى "قد تكون هناك بعض التحريات يا مسز جريفين"

فقلت "بالطبع، لكنها كانت حادثة فأختى لم تكن تجيد القيادة بحال"

أتخيل وجه لورا البيضاوى الناعم، وشنيون شعرها المثبت بعناية، والرداء الذى كانت ترتديه: مخيط من الوسط وله ياقة مستديرة، لونه وقور، ربما أزرق غامق أو رمادى فاتح أو أخضر فى لون أروقة المستشفيات. ألوان تشى بالشعور بالذنب والتكفير عن الخطيئة – إنها ألوان تحبس نفسها فيها أكثر من أن ترتديها. نصف ابتسامتها الوقورة، رفعها لحاجبيها فى دهشة وكأنها معجبة بالمنظر الذى أمامها.

القفاز الأبيض، تلك الإشارة الخاصة وكأنها تغسل يديها منى ومنا جميعًا.

ترى فيم كانت تفكر والسيارة تسقط من فوق الجسر، ثم تظل معلقة فى شمس الضحى مثل يعسوب فى تلك اللحظة التى تنحبس فيها الأنفاس قبل السقوط المفاجئ؟ هل كانت تفكر فى أليكس، فى ريتشارد، فى سوء النية، فى والدنا وما حدث له من دمار؛ ربما كانت تفكر فى الرب، وصفقتها الثلاثية المميتة. أو ربما كانت تفكر فى كومة دفاتر التدريبات المدرسية الرخيصة، التى أخفتها ذلك الصباح فى درج خزانة الملابس الذى كنت أحتفظ فيه بجواربى وهى على علم بأنى من سوف تجدها.

عندما ذهب الشرطى صعدت إلى أعلى لاستبدال ملابسى. أحتاج إلى قفاز وقبعة ذات رداء ينسدل على الوجه ليغطى العينين. فربما كان هناك بعض الصحفيين. لابد من استدعاء سيارة أجرة. وعلىَّ أيضًا أن أخبر ريتشارد فى مكتبه، فربما أراد أن يحضر كلمة رثاء. دخلت حجرة ارتداء الملابس، سأحتاج إلى ثوب أسود ومنديل.

فتحت الدرج ورأيت الدفاتر. حللت رباطها المعقود على هيئة صليب بشريط من ذلك المستخدم فى المطابخ. لاحظت أسنانى تصطك وبرودة تسرى فى جسدى. فعرفت أننى فى حالة صدمة.

وهنا تذكرت رينى التى كانت تربط لنا الجروح والإصابات الصغيرة. كانت أمنا تستريح أو تقوم ببعض الأعمال فى مكان آخر، بينما رينى دائمًا معنا. كانت تحملنا من الأرض لتجلسنا على منضدة المطبخ المصقولة البيضاء، إلى جانب عجين الفطائر التى كانت تفردها أو الدجاجات التى كانت تنظفها أو السمك الذى تُخرج أحشاءه، وتعطينا قمعا من السكر البنى حتى نغلق أفواهنا. كانت تقول "قولوا أين الألم. كفوا عن العويل. اهدأوا وأرونى موضع الألم".

ولكن بعض الناس لا يستطيعون تحديد موضع الألم. لا يمكنهم الهدوء ولا يمكنهم الكف عن النواح أبدًا.

تورنتو ستار – ٢٦ مايو ١٩٤٥

تساؤلات حول وفاة بالمدينة

خاص لستار

جاء تقرير الطب الشرعى عن حادث وفاة الأسبوع الماضى بشارع سانت كلير أفينو بأنه حادث مفجع. كانت الآنسة لورا تشاس تقود سيارتها غربًا بعد ظهر ١٨ مايو حين انحرفت السيارة مصطدمة بالحواجز المحيطة بموقع للإصلاح على الجسر، فتحطمت عند سفح الوادى واندلعت فيها النيران. ولقيت الآنسة تشاس مصرعها على الفور. وقد أوضحت مسز ريتشارد إى جريفون، زوجة رجل الصناعة البارز، أن الآنسة تشاس كانت تعانى من صداع شديد يؤثر على الرؤية لديها. وردًا على ما وجه إليها من أسئلة نفت أدنى احتمال للسكر حيث إن الآنسة تشاس لا تشرب الخمر.

وكان ما أكده البوليس من انحشار أحد إطارت السيارة فى عمود بارز من أعمدة السكك الحديدية من العوامل المؤيدة لذلك، مما أثار جدلاً حول مدى كفاية إجراءات السلامة التى تتخذها المدينة، إلا أن الشهادة المتخصصة التى أدلى بها المهندس المدنى جوردن بيركينز استبعدت تلك المزاعم.

وقد تسبب الحادث فى تكرار الاعتراض على إقامة الدولة سكة حديد فى ذلك الجانب من الطريق السريع. وصرح السيد هيرب تى توليف، ممثل دافعى الضرائب المحلية، لمحررى ستار بأن تلك ليست المرة الأولى التى تسفر فيها القضبان الحديدية المهملة عن حادث. ولابد من تنبيه مجلس المدينة إلى ذلك.

القاتل الأعمى تأليف لورا تشاس

رينجولد و جينز وموريو، نيويورك، ١٩٤٧

استهلال: نباتات معمرة لحدائق صخرية

لديها صورة واحدة له. دستها في مظروف بنى كتبت عليه ملصقات وأخفت المظروف بين صفحات رواية "نباتات معمرة لحدائق صخرية" حيث لا يمكن لشخص آخر أن ينظر إليها.

حافظت على الصورة بشدة، فهى كل ما تبقى لها منه. كانت الصورة بالأبيض والأسود، تم التقاطها بكاميرا صندوقية ذات فلاش كبير تعود إلى زمن ما قبل الحرب ولها فوهة تشبه طيات الأوكرديون، وغطاؤها مصنوع من الجلد الجيد ويشبه خطم الحيوان وقد عقدت حوله السيور الجلدية متشابكة. كانت الصورة لهما معًا، هى وذلك الرجل، فى رحلة خلوية. كتبت كلمة "رحلة" على ظهر الصورة بالقلم الرصاص – لم يكن اسمها أو اسمه مكتوبا، إنما فقط كلمة "رحلة". إنها تعرف الأسماء لكن لم تشعر بحاجة إلى كتابتها.

كانا يجلسان تحت شجرة، لعلها شجرة تفاح؛ فلم تلحظ التفاح كثيرًا حينئذ. كانت ترتدى بلوزة مشمرة الأكمام حتى المرفقين وجونلة واسعة تنتهى عند الركبتين. لابد أنه كان هناك هواء، فقد بدا ذلك من الطريقة التى يهفهف بها القميص عليها، أو لعله لم يكن يهفهف إنما يلتصق بها، ربما كان الجو حارًا. لعله كان حارًا بالفعل. كانت تمسك بالصورة بيديها فشعرت بالحرارة تنبعث منها، مثلما تنبعث الحرارة فى منتصف الليل من حجر أدفأته الشمس.

كان الرجل يرتدى قبعة فاتحة اللون تميل منخفضة فى زاوية فوق رأسه تخفى جزءًا من وجهه. كان وجهه يبدو وقد لوحته الشمس أكثر من وجهها. وكانت هى تميل نحوه بعض الشيء وتبتسم بطريقة لا تذكر أنها ابتسمت بها لأحد آخر منذ ذلك الوقت. كانت تبدو صغيرة السن فى الصورة، بل بالغة الصغر، مع أنها لا تذكر أنها كانت صغيرة إلى هذا الحد فى ذلك الــوقت. كان هو الآخــر يبتسم – بدا بياض أسنانه وكأنه عود ثقاب يتوهج – لكنه كان يرفع يده وكأنما ليتقيها مداعبًا، أو ربما ليتحاشى الكاميرا، أو ذلك الشخص الذى يلتقط الصورة، أو ربما ليتحاشى أولئك الذين قد ينظرون إليه فى المستقبل، يتطلعون إلى هيئته تطل من تلك النافذة المربعة من الورق المصقول. بدا كأنه يتحاشاها أو يحميها. وكان عقب سيجارة يتدلى من يده المرفوعة على هذا النحو.

عندما تكون بمفردها تخرج المظروف البنى وتسحب الصورة من بين قصاصات الجرائد. وضعتها فوق المنضدة وانحنت تحملق فيها، وكأنما تحدق فى بئر أو بحيرة. كانت تبحث وراء صورتها عن شيء آخر، ربما فقدته أو سقط منها فأصبح بعيدًا عن متناول يديها لكنه لا يزال مرئيًا، يضوى مثل قطعة من الحلى فوق الرمال. راحت تتفحص كل تفصيلة صغيرة. أصابعه التى حال لونها بفعل الفلاش أو ضوء الشمس، طيات أثوابهما، أوراق الشجر وتلك الأشياء المستديرة الصغيرة المتدلية منها– هل كانت ثمار التفاح بالفعل؟ بدا العشب الجاف فى المقدمة. وكان العشب مصفرًا مما يؤكد أن الجو كان جافًا.

وفى جانب من الصورة لا تلحظه العين للوهلة الأولى ظهرت يد قصت من الرسغ، وكانت تتكئ على العشب وكأنها مستبعدة تركت لحالها.

كانت السحب منتشرة فى السماء الصافية مثل قطع الآيس كريم فوق الكروم، وأصابعه ملطخة بأثر الدخان. وبدا الماء لامعًا عن بعد. لقد تلاشى كل شيء الآن. تلاشى لكنه لا يزال يضوى.

الفصل الثانى

قال: ماذا سيحدث عندئذ؟ بدلة سهرة وقصة حب، أم تحطم السفينة فوق شاطئ عار؟ بوسعك أن تختارى: غابات أم جزر استوائية أم جبال. أم مكان بعيد فى الفضاء – هذا ما أحبذه.

"أحقًا! مكان بعيد فى الفضاء!"

"لا تهزئى بى، إنه عنوان عملى. كل ما تحبينه يمكن أن يحدث هناك. سفن فضاء وملابس تلتصق بالجسد، بنادق شعاعية، كائنات من المريخ ذات أجساد رخوية عملاقة، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

قالت: لك أن تختار، فأنت محترف. ما رأيك فى الصحراء؟ لطالما وددت أن أزور صحراء. وأن تكون هناك واحة بالطبع. فبعض من نخيل البلح قد يضفى على الأمر روعة. كانت تقطع القشرة الخارجية للسندوتش الذى معها. فهى لا تحب القشور.

ليس هناك الكثير فى الصحراء. فليست بها معالم كثيرة، إلا إذا أضفنا بعض المقابر. عندئذ نجد العديد من النساء العراة الذين ماتوا منذ ثلاثة آلاف عام، أجسادهن ممشوقة القوام جميلة المنحنيات، وشفاههن ياقوتية الحمرة، أما الشعور ففى زرقة السماء تسبح فى زبد من الخصلات المتماوجة، وعيونهن حفر ملأتها الثعابين. لكنى لا أعتقد أنى سأمنحك إياهن. فهذا النوع الصارخ ليس طرازك.

وما أدراك، فلربما رقن لى!

أشك فى ذلك. فهن من أجل الجماهير المحتشدة. هكذا كتب على الغطاء الخارجى. فإذا أمسك بهن شخص يلتوين ولابد من زجرهن بأطراف البنادق.

هل لى فى مكان آخر بعيد فى الفضاء، والمقابر والنساء الموتى أيضا من فضلك؟

إنه طلب عزيز المنال. لكنى سأرى ما بوسعى أن أفعل. يمكننى إضافة بعض العذارى الضحايا والصحون على شكل أثداء وسلاسل فضية تكبل بها

الكواحل، وأيضًا أردية من قماش شفاف. إضافة إلى حفنة من الثعالب المفترسة الضارية.

أرى أنك لا تنسى شيئًا.

إنك تريدين بدلاً من ذلك ملابس السهرة، سفن الرحلات، المفارش البيضاء، تقبيل اليدين والنفاق فى إبداء الود المبالغ فيه؟

لا. اتفقنا، فلتفعل ما تراه الأفضل.

هل تدخنين سيجارا؟

هزت رأسها علامة النفى. فأشعل هو سيجارته، بعد أن أشعل عود الكبريت بظفر سبابته.

قالت: ستشعل النار فى نفسك.

لم يحدث ذلك أبدًا حتى الآن.

نظرت إلى كم قميصه المشمور إلى أعلى، ذى اللون الأبيض أو الأزرق الفاتح، ثم إلى معصمه. كانت بشرة يده مائلة إلى السمرة، بينما تنبعث منه بعض الأشعة، ربما كان ذلك بفعل انعكاس الشمس. لماذا لا يحدقون جميعًا؟ بدا شديد الوضوح يمكن ملاحظته بيسر حتى كأنه لا يجلس فى الهواء الطلق. كان حوله آخرون يجلسون على العشب أو يتكئون عليه بالمرافق - متنزهون آخرون فى ملابسهم الصيفية الفاتحة. إنها جميعًا مناسبة. ومع ذلك تشعر بأنهما وحدهما معًا ؛ وكأنما شجرة التفاح التى يستظلون بها ما هى إلا خيمة؛ وكأنما أحاطتهما دائرة مرسومة بالطباشير، يتواريان داخلها عن الأنظار.

قال: الفضاء إذن. مقابر وعذارى وثعالب - ولكن بالتقسيط على دفعات، موافقة؟

"بالتقسيط على دفعات!" ماذا تقصد؟

مثل شراء الآثاث.

فتضحك.

كلا فأنا جاد، ولا يمكنك أن تضنى علىّ، قد يستغرق الأمر أيامًا. فعلينا أن نلتقى ثانية.

ترددت وقالت: اتفقنا إذا كان ذلك بمقدورى. إذا استطعت تدبر الأمر.

فقال: حسن. الآن علىّ التفكير. وأظهر فى صوته نبرة عدم اكتراث، فلربما لو أظهر مزيدًا من الاهتمام لأثناها عن ذلك.

وفوق كوكب... دعنا نرى أى الكواكب. فلنقل "توت ساتورن"، لكنه شديد القرب. فوق كوكب ذيكرون فى مكان آخر بعيد من الفضاء حيث يتناثر الحصى فى سهل ممتد. يحده من الشمال محيط بنفسجى اللون، وفى الغرب تمتد سلسلة من الجبال يقال إنه بعد غروب الشمس يجوبها ساكنو المقابر المتداعية هناك، بالإضافة إلى الموتى من الإناث. أرأيت، لقد أتيت بالمقابر دون أدنى تفكير.

قالت: يالك من رجل يقظ الضمير

أنا ألتزم بصفقاتى. وإلى الجنوب بقايا رمال محترقة، أما إلى الشرق فتمتد بعض وديان شديدة الانحدار، لعلها كانت يومًا أنهارًا.

أليس بها قنوات مثل كوكب المريخ؟

بلى بالطبع، بها قنوات وأشياء كثيرة من هذا القبيل. فبها آثار كثيرة لحضارة متطورة قديمة، مع أن هذه المنطقة الآن يسكنها مجموعات متجولة من قبائل بدائية فى مناطق متباعدة. وفى منتصف السهل كومة هائلة من الحصى تحيط بها منطقة جرداء تتناثر بها بضع شجيرات غير مهذبة. إنها ليست صحراء بالضبط، لكنها قريبة من هذا المعنى بعض الشىء. هل بقى معك سندوتش جبنة؟

فتشت فى الحقيبة الورقية. وقالت: كلا ولكن معى بيضة مسلوقة. لم تشعر بمثل هذه السعادة من قبل. لقد عاد كل شىء جديدًا كما كان ولا يبقى إلا تنفيذه.

قال: هذا ما وصفه الطبيب تمامًا. زجاجة ليمون، بيضة مسلوقة وأنتِ. كوَّر البيضة بين كفيه ليكسر قشرتها، ثم قشرها. أخذت تراقب فمه، وفكه وأسنانه.

قالت: أضف إلى ذلك غنائى فى الحديقة العامة. إليك الملح من أجل البيضة.

أشكرك. لقد تذكرت كل شىء.

وواصل: لا يطالب بهذا السهل كل الناس. أو لعل خمس قبائل مختلفة تدعى لنفسها الحق فيه، ولكن ليس بينها قبيلة قوية بما يكفى لإبادة الآخرين. جميع القبائل تتجول عابرة جبل الحصى من وقت لآخر سواء لترعى ماشيتها التى تطلق عليها thulks وهى كائنات تشبه الماشية الزرقاء وحشية الطباع، أو تنقل بضائع تجارية زهيدة القيمة فوق ظهور دواب الحمل التى تملكها، وهى نوع من الجمال ثلاثية العيون.

وتطلق لغاتهم المتعددة أسماء مختلفة على كومة الحصى، فهى "مصيدة الثعابين الطائرة"، و"كومة الحصى" و"مقام الأمهات النائحات"، و"باب النسيان" و"حفرة العظام المقضومة". وتحكى كل قبيلة قصة متشابهة عنها. فيقولون إن هناك ملكًا مجهول الاسم، مدفونًا تحت الأحجار. وليس الملك وحده المدفون هناك؛ لكن أيضًا بقايا المدينة الرائعة التى كان يحكمها ذلك الملك فى يوم من الأيام. فقد دُمرت المدينة فى إحدى الحروب وتم أسر الملك وشنقه معلقًا فى نخلة دليلاً على النصر. وعند بزوغ القمر كان جسد الملك قد قطع ودفن وكوم فوقه الحصى لتمييز المكان. أما سكان المدينة فقد قتلوا جميعًا، حيث ذبح الرجال والنساء والأطفال والرضع وحتى الحيوانات. قطعوهم جميعًا بالسيف إربًا ولم يبقوا على كائن حى.

إنه شىء فظيع.

امسكى جاروفًا واجرفى أى مكان من الأرض تتكشف لك أشياء بشعة هنا وهناك. إننا نثرى العمل بذلك. فلولاهم ما كانت لدينا حكايات. هل لديك مزيد من عصير الليمون؟

قالت: لا! لقد شربناه كله. هيا أكمل!

محا الغــزاة اسم المدينة، ولذلك، كما يقول الرواة، يعرف المكان الآن باسم ما حدث به من تدمير. فكومة الحصى إذن دليل على فعل التذكر المتعمد وفعل النسيان المتعمد. فأهل المنطقة مغرمون بالمفارقات. تدعى كل واحدة من القبائل الخمس أنها كانت المهاجم المنتصر. كل منها يحكى عن المذبحة بشىء من الاستمتاع. وتعتقد كل قبيلة أن ما أصاب المدينة انتقام عادل من الإله عقابًا على ما ارتكبه أهلها من فواحش. فهم يقولون إن الشر لا يمحوه إلا الدم. وفى ذلك اليوم سال الدم كالماء، فلابد أن أصبحت البلاد بالغة النظافة.

يضيف كل من يمر بالمكان من رعاة وتجار حصاةً إلى الكومة. فهى عادة قديمة – يفعلونها تذكرًا لموتاهم – لكن حيث إنه لا أحد يعلم الموتى الراقدين تحت تل الحصى، فهم جميعًا يتركون حصواتهم لعل وعسى. إنهم يتحايلون على الموضوع بالقول بأن ما حدث هناك لابد وأنه كان مشيئة إلههم، ومن ثم فوضعهم للحصاة إنما هو تبجيل لتلك المشيئة.

هناك قصة أخرى تقول إن المدينة لم تدمر على الإطلاق. ولكن بفضل نوع من السحر لا يعرفه إلا الملك أزيلت المدينة بسكانها وحل محلهم أشباح تمثلهم، وهذه الأشباح هى التى تم حرقها وذبحها. أما المدينة الحقيقية فقد انكمشت لتصبح فى غاية الصغر، وتم وضعها فى كهف تحت تل الحصى. وبقى بها كل ما كان هناك من قبل، بما فى ذلك القصور والحدائق الغناء بأشجارها وزهورها؛ والناس أيضًا الذين صاروا فى حجم النمل لكنهم يمارسون حياتهم كذى قبل – فيرتدون ملابس بالغة الصغر ويلتفون حول مآدب بالغة الصغر، ويروون حكايات بالغة القصر، ويغنون أغنيات بالغة القصر أيضًا.

يعلم الملك ما حدث، وتنتابه الكوابيس لذلك، أما الآخرون فلا يعلمون شيئًا. إنهم لا يعرفون أنهم صاروا بالغى الصغر. لا يعرفون أنه من المفترض أن يكونوا بين الموتى. بل لا يعرفون أيضًا أنه تم إنقاذهم. إنهم يرون السقف الحجرى وكأنه السماء؛ فالضوء يتسلل إلى الداخل عبر ثقب بين الحصوات، فيظنونه الشمس.

حفحفت أوراق شجرة التفاح. فنظرت إلى أعلى نحو السماء ثم إلى ساعتها. وقالت: أشعر بالبرد وأيضًا أنى تأخرت. ممكن تتخلص من الدليل؟ جمعت قشر البيض وطوت مفرش المشمع.

لا داعى للعجلة؟ ليس الجو باردًا هنا.

قالت: بعض النسمات تهب من الماء، لابد أن الرياح غيرت مسارها. وانحنت إلى الأمام تستعد للوقوف.

فقال: لا تذهبى هكذا بسرعة.

لابد أن أفعل. سيبحثون عنى. وإذا بالغت فى التأخير سيصرون على معرفة أين كنت.

سوت تنورتها إلى أسفل واحتوت جسدها بذراعيها واستدارت ذاهبة ترقبها ثمرات التفاح الصغيرة كالعيون.

الجلوب أند ميل، ٤ يونيو، ١٩٤٧

العثور على جريفين فى قارب شراعى

خاص للجلوب أند ميل

بعد غياب غير مبرر لمدة سبعة أيام، تم العثور على جثة رجل الصناعة ريتشارد إى جريفين، البالغ من العمر سبعة وأربعين عامًا بالقرب من منزله فى مصيف أفيلون فى بورت تيكونديروجو حيث كان يقضى إجازته. ومن الشائع أن السيد جريفون كان من أقرب مرشحى المحافظين التقدميين لسباق الفروسية الذى يقيمه نادى سانت ديفيد فى تورنتو. وقد تم العثور على السيد جريفون فى قاربه الشراعى "واتر نيكسى" الذى كان مربوطًا فى مينائه الخاص على نهر جوج. ومن الواضح أنه تعرض لنزيف فى المخ. وتنفى الشرطة وجود شبهة جنائية فى الموضوع.

يحتل السيد جريفون مكانة مرموقة فى الإمبراطورية التجارية التى تشمل عدة مجالات؛ منها صناعة المنسوجات والملابس والصناعات الخفيفة، كما يذكر له بالفضل جهوده فى إمداد جيوش الحلفاء بمستلزمات الزى العسكرى ومكونات الأسلحة أثناء الحرب. وهو ضيف دائم فى اجتماعات ذوى الشأن والنفوذ التى تقام فى منزل بوجواش الذى يملكه رجل الصناعة سيروس إيتون، وهو أيضًا شخصية قيادية فى نادى الإمبراطورية ونادى الجرانيت. وكان أيضًا لاعب جولف بارعًا وشخصية معروفة فى نادى اليخت الكندى الملكى. وفى حديث تليفونى معه فى ضيعته فى كينكسوير علق رئيس الوزراء بقوله: "كان السيد جريفون من رجال البلد ذوى الكفاءات الخاصة. وستؤثر خسارته علينا تأثيرًا كبيرًا".

السيد جريفون هو زوج أخت الراحلة لورا تشاس، التى قدمت نفسها كروائية لأول مرة بروايتها المنشورة بعد الوفاة ربيع هذا العام، كما أنه أخو السيدة وينفريد (جريفون) بريور، سيدة المجتمع المعروفة، وزوج السيدة أيريس (تشاس) جريفون، وله ابنة فى العاشرة من عمرها تدعى إيمى. وستقام الجنازة يوم الأربعاء بكنيسة سانت سيمون الرسول فى تورنتو.

لماذا يوجد أناس على كوكب ذيكرون؟ أقصد بشرًا مثلنا. فإذا كان هو كوكبًا في بعد آخر من الفضاء، أفلا يجب أن يكون سكانه نوعًا متطورًا من السحالى أو شيئًا من هذا القبيل؟

قال: إنهم كذلك فقط فى جوهرهم. وكله من صنع الخيال. أما فى الواقع فالأمر كالتالى: كان أهالى ذيكرون يحتلون الأرض وقد طوروا قدرتهم على السفر من بعد فضائى إلى آخر فى زمن يتقدم على زمننا آلاف السنين. وقد وصلوا هنا منذ ثمانية آلاف عام. وأحضروا معهم كثيرًا من البذور الزراعية، وهذا هو السبب فى أن لدينا تفاحًا وبرتقالاً، ناهيك عن الموز – فالمرء ينظر إلى الموزة فيعرف أنها جاءت من الفضاء الخارجى. وقد أحضروا معهم الحيوانات أيضًا من أحصنة وكلاب وماعز، وما إلى ذلك. إنهم بناة مدينة أطلانطيس. فكانوا فى غاية المهارة حتى إنهم فجروا أنفسهم. أما نحن فننحدر ممن تبقى منهم.

قالت: ياه. هكذا اتضح الأمر. فكم يناسبك ذلك.

إذا اقتضى الأمر. أما عن التفاصيل الأخرى لكوكب ذيكرون، فبه سبعة بحور، وخمسة أقمار، وثلاث شموس، وكلها متفاوتة القوى والألوان.

أى ألوان؟ شكولاتة، فانيلا، وفراولة؟

إنك لا تأخذينى على محمل الجد.

آسفة. ومالت برأسها نحوه. الآن أنا منصتة إليك.أرأيت؟

قال: اشتهرت قبل تدميرها، أى المدينة – فلنسمها باسمها السابق، ساكيل نورن، ويمكن ترجمتها تقريبًا بـ "درة المصير" – بأنها أعجوبة العالم. حتى أولئك الذين يزعمون أنهم أجدادهم هم الذين دمروا المدينة يسعدهم وصف جمالها. فقد أعدت الينابيع الطبيعية لتنبثق خلال نافورات مزينة بنقوش محفورة تنتشر فى الأفنية المبلطة والحدائق المنتشرة فى القصور العديدة. وتزخر الحدائق بالزهور

ويعبق الهواء بنغمات الطيور المغردة. وعلى مقربة من المكان تمتد سهول غنية بالحشائش ترعى فيها قطعان من الماشية السمينة، كما تكثر بساتين الفواكه والغيطان وغابات الأشجار الطويلة التى لم يقطعها تجار بعد ولم يحرقها أعداء حاقدون. فالوديان العميقة لم تكن سوى أنهار تمتد منها القنوات لتروى الحقول المحيطة بالمدينة، وكانت التربة عالية الخصوبة حتى إن طول حبة القمح وصل إلى ثلاث بوصات.

أما الطبقة الأرستقراطية فى سيكل نورن فكانت تسمى سنيل فاردس. وقد برعوا فى الأعمال المعدنية، كما اخترع بعضهم آلات ميكانيكية مبتكرة، احتفظوا بسر صناعتها بعناية. فى تلك الفترة كانوا قد اخترعوا الساعة وقوس رمى السهام والمضخة اليدوية، مع أنهم لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى محرك الاحتراق الداخلى ومازالوا يستخدمون الحيوانات فى الانتقال.

كان الرجال من طبقة السنيل فاردس يرتدون أقنعة من البلاتين المنسوج يتحرك مع حركة الوجه لكنه يفيد فى إخفاء مشاعرهم الحقيقية. أما النساء فيخفين وجوههن بقماش يشبه الحرير، مصنوع من شرنقة نوع من الفراشات يسمى تشاز. وأن يغطى المرء وجهه دون أن يكون من طبقة السنيل فارد جريمة عقوبتها الموت، وذلك أن تكتم المشاعر والتخفى واللجوء إلى الحيلة من صفات النبلاء وحدهم. ويرتدى السنيل فارد الملابس الفخمة وهم من هواة الموسيقى ومتذوقيها، ويعزفون على عدة آلات لإظهار ذوقهم وبراعتهم. وهم ينغمسون فى حياكة الدسائس بالبلاط الملكى ويتوسعون فى العلاقات الغرامية بينهم وزوجات بعضهم البعض. ولطالما أقيمت المبارزات لهذا السبب، إلا أنه من الأفضل أن يتظاهر الزوج بعدم معرفته بالأمر.

أما صغار الملاك، ومستأجرو الأرض والعبيد فيطلق عليهم يجنيرودز. وهم يرتدون رداء رماديًا كالحًا يكشف أحد الكتفين، أما المرأة فرداؤها يكشف أحد صدريها، ولا حاجة للقول إن نساء هذه الطبقة كن ألعوبة لرجال السنيل فارد. كان اليجنيرودز حانقين على نصيبهم فى الحياة، لكنهم كانوا يخفون ذلك بتظاهرهم

بالغباء. وبين حين وآخر يشعلون ثورة سرعان ما يتم إخمادها بضراوة. أما أحط درجات هذه الطبقة فكانوا العبيد الذين يمكن شراؤهم والاتجار فيهم، وأيضًا قتلهم حسب الرغبة. ومع حظر القراءة عليهم بأمر القانون، إلا أنه كان لهؤلاء رموزهم الخاصة التى يحفرونها فى الطمى بقطع الحجارة. واعتاد السنيل فارد على ربط هؤلاء العبيد بالمحراث.

إذا أفلس أحد من السنيل فارد قد يهبط إلى درجة يوجنيرود. أو لعله يتحاشى هذا المصير بأن يبيع زوجته أو أطفاله ليسدد دينه. وقلما يرتفع أحد من اليوجنيرود إلى السنيل فارد، حيث إن الطريق لأعلى أكثر مشقة من الطريق إلى أسفل: حتى لو استطاع جمع المال المطلوب والزواج بعروس من السنيل فارد أو تزويج ابنه من هذه الطبقة فالأمر يحتاج إلى قدر من الرشوة، وقد يمر وقت طويل قبل أن يقبله مجتمع السنيل فارد.

قالت: أعتقد أن توجهاتك البولشوفية تخرج للوجود. كنت أعلم أنك ستصل إلى هذا عاجلاً أو آجلاً.

كلا، على العكس، فالحضارة التى أصفها أساسها بلاد ما بين النهرين القديمة. إنها مذكورة فى مدونة حمورابى وقوانين حتيتى وغيرها، سواء كلها أو بعض منها، خاصة ذلك الجزء المتعلق بالنقاب وبيع الزوجة. وبوسعى أن أذكر لك فصولاً كاملة وأبياتًا بهذا الخصوص.

لا تذكر لى فصولاً ولا أبياتًا فلا طاقة لى بذلك اليوم، إذ أشعر بتعب ووهن شديد.

كان ذلك فى شهر أغسطس والجو شديد الحرارة، والرطوبة تتراكم فوقهما فى سديم غير مرئى. وكانت الساعة الرابعة عصرًا والضوء فى لون الزبد المنصهر، وهما جالسان على مقعد بالحديقة غير متقاربين تمامًا، تظللهما شجرة إسفندان منهوكة الأوراق، والطمى المتشقق تحت أقدامهما وحولهما حشائش ذابلة وعصافير تلتقط قطع خبز وأوراق متغضنة. لم يكن ذلك هو المكان الأفضل. ذلك

إضافة إلى قطرات الماء تتساقط من صنبور للشرب بجواره ثلاثة أطفال رثو الهيئة منهم فتاة في رداء كاشف للظهر والذراعين وصَبيان في سروال قصير.

وكانت هي ترتدى ثوبًا أصفر فاتحًا، وذراعاها عاريان أسفل المرفقين تغطيهما شعيرات خفيفة فاتحة. وقد خلعت قفازها القطني وكورته بيدين متوترتين. لم يلق بالاً إلى توترها، فهو يحب أن يشعر أنه يكلفها شيئًا. كانت ترتدى قبعة مستديرة من القش مثل تلك التي ترتديها التلميذات، وقد عقصت شعرها إلى الخلف إلا أن خصلة رطبة فلتت منه. اعتاد الناس قص خصلات من الشعر سواء للاحتفاظ بها أو ارتدائها في قلادة، أو ليحتفظ بها الرجال قريبًا من القلب. لم يكن يعرف لذلك سببًا من قبل.

سألها: أين كنتِ؟

أتبضع. انظر إلى حقيبة المشتريات. لقد اشتريت بعض الجوارب؛ إنها من نوع جيد – أفضل أنواع الحرير، وكأنني لا أرتدى شيئًا. وابتسمت ابتسامة خفيفة. لديَّ خمس عشرة دقيقة فقط.

أسقطت فردة قفاز. فسقطت عند إحدى قدميها. كان يراقبها. فإذا ذهبت ونسيتها، سيأخذها ليستنشق رائحتها في غيابها.

سألها: متى أراكِ؟ هزت نفحات الهواء الساخنة أوراق الشجر فتسلل الضوء خلالها، فبدت محاطة بحبوب اللقاح أو كأنها سحابة ذهبية. لكنها لم تكن في الواقع سوى ذرات من الغبار.

قالت: أنت تراني الآن.

قال: لا تكوني هكذا. أخبريني متى. التمعت طبقة رقيقة من العرق فوق مساحة جسدها البادية من فتحة الثوب عند الرقبة.

قالت: لا أدرى حتى الآن. ونظرت خلفها تمسح الحديقة بعينيها.

قال: لا أحد حولنا. لا أحد تعرفينه.

قالت: لا نعرف أبدًا متى يحدث ذلك. لا نعرف أبدًا من نعرف.

قال: عليك بإحضار كلب.

ضحكت وقالت: كلب؟ لماذا؟

عندئذ يكون لديك العذر. يمكنك أن تصحبيه للفسحة. أنا والكلب.

قالت: سيشعر الكلب بالغيرة منك. وأنت ستعتقد أننى أفضل الكلب عليك.

قال: لكنك لن تفضلى الكلب علىَّ. أليس كذلك؟

اتسعت حدقتاها دهشة وسألته: لماذا لا أفعل؟

قال: الكلاب لا تتكلم.

تورنتو ستار، ٢٥ أغسطس، ١٩٧٥

وفاة ابنة أخت مؤلفة روائية إثر سقوطها

خاص لستار

تم العثور على إيمى جريفون، ٣٨ عامًا، ميتة فى شقتها بالدور الأرضى بشارع الكنيسة يوم الأربعاء، وذلك بسبب انكسار العنق إثر سقوطها، وكان قد مر على الوفاة يوم على الأقل. وإيمى جريفون هى ابنة رجل الصناعة الراحل المعروف إى جريفون، وابنة أخت المؤلفة لورا تشاس. وقد كشف الوفاة الجاران جوس وبياتريس كيلى بعد أن نبهتهما إلى ذلك سابرينا، ابنة ميس جريفون والبالغة من العمر أربعة أعوام، والتى غالبًا ما كانت تأتى إليهما من أجل الطعام فى غياب والدتها.

ومن الشائع أن ميس جريفون مرت بصراع طويل مع إدمان الكحوليات والمخدرات، وقد دخلت المستشفى للعلاج فى مناسبات كثيرة. وقد تم وضع ابنتها تحت رعاية السيدة وينيفريد بريور عمة والدتها، فى انتظار انتهاء التحقيقات. ولم يمكن العثور على مسز بريل ولا والدة إيمى جريفون، مسز إيريس جريفون القاطنة بورت تيكوندروجا للتعليق.

ويعد هذا الحادث المؤسف مثلاً آخر على تهاون جهاز الشئون الاجتماعية الحالى، والحاجة إلى إصدار تشريع معدل لتكثيف حماية الأطفال المعرضين للخطر.

مكتبة

الخط يزن ويخشخش. هل بسبب الرعد أم أن هناك من يسترق السمع؟ لكنه هاتف عمومى، فلا يمكنهم تتبعه.

قالت: أين أنت؟ لا يمكنك الاتصال هنا.

لا يمكنه سماع أنفاسها. يريدها أن تقرب السماعة من فمها، لكنه لن يطلب منها ذلك، ليس الآن. قال: أنا بالقرب من البناية. أبعد عنها بنايتين. أستطيع دخول الحديقة، تلك الحديقة الصغرى التى بها الساعة الشمسية.

يا خبر، لا أعتقد...

تسللى خارجه. قولى إنك بحاجة لاستنشاق الهواء. وانتظرينى سأحاول.

عند مدخل الحديقة بوابة ذات عمودين حجريين رباعيى الجوانب، ومشطوبين عند القمة على الطراز المصرى. لا يحمل العمودان رسومًا غائرة تحكى عن انتصارات، ولا رسومًا محفورة تصور الأعداء مكبلين فى الأغلال وهم راكعون. إنما نقش عليهما عبارة "ممنوع التسكع ولا تطلق الكلب من مقوده".

قال: تعالى هنا بعيدًا عن ضوء الشارع.

لا أستطيع البقاء طويلاً

أعرف. تعالى هنا فى الخلف. وأمسك بذراعها يقودها إلى المكان؛ كانت ترتعد مثل سلك كهربائى فى ريح عاصفة.

هنا. لا يستطيع أحد رؤيتنا. ولا توجد نساء عجائز ينزهن كلابهن البودل.

قالت: ولا رجال شرطة يحملون عصاهم الليلية. وضحكت باقتضاب. وكان ضوء المصابيح يتسرب متسللاً من بين الأشجار فينعكس متلألئًا على بياض عينيها. قالت: لا يصح أن أكون هنا. إنها مخاطرة كبيرة.

كان هناك مقعد حجرى يندس بين بعض الشجيرات. وضع سترته حول كتفيها. سترة قديمة من قماش التويد، تفوح منها رائحة التبغ القديم، ورائحة

احتراق. وإحساس خفى بالملوحة. كان جسده هنا فى هذه السترة التى تضم الآن جسدها.

ستشعرين بالدفء. والآن فلنتحدى القانون. سنتسكع.

وماذا عن الاحتفاظ بالكلاب فى مقودها؟

سنتحدى هذا أيضًا. ولم يضع يده حولها. وهو يعرف أنها تريده أن يفعل ذلك. إنها تتوقعه، تشعر بلمسته مقدمًا، مثلما تشعر الطيور بالظل. أخرج سجائره، قدم لها واحدة، فأخذتها هذه المرة. توهج الثقاب سريعًا بين كفوفهما المقوسة حوله وأطراف أصابعهما المحمرة.

قالت فى نفسها: شعلة أخرى ونرى العظام. إنها مثل أشعة إكس. فما نحن إلا ضباب، مجرد مياه ملونة. المياه تفعل ما تشاء. وهى دائمًا تهبط الجبال. وامتلأ حلقها بالدخان.

والآن سأحكى لك عن الأطفال.

الأطفال؟ أى أطفال؟

الجزء الثانى. عن ذيكرون وعن سكيل نورن.

آه، حقًا.

هناك أطفال فى الحكاية.

لم نقل شيئًا عن الأطفال.

إنهم أطفال عبيد. وهم مطلوبون فى الحكاية، ولا يمكننى المضى دونهم.

قالت: لا أعتقد أنى أريد أطفالاً فى الحكاية.

بوسعك دائمًا أن تطلبى منى التوقف، لا أحد يجبرك، فأنت حرة فى الذهاب إذا صادفك الحظ، كما تقول الشرطة. واحتفظ بمستوى صوته ولم يرفعه، وهى لم تتحرك بعيدًا.

سيكل نورن الآن كومة من الحصى، ولكنه كان يومًا مركزًا مزدهرًا للتجارة والمعاملات التجارية. فقد كان موقعه عند ملتقى ثلاثة طرق برية، أحدها من الشرق، والآخر من الغرب، أما الثالث فمن الجنوب. ومن الشمال كان يتصل بقناة واسعة تربطه بالبحر حيث يضم ميناء بالغ التحصين. لم يبق أثر لتك الحفريات أو الأسوار الحصينة: فبعد تدمير الكوكب حمل الأعداء أو الغرباء القوالب الحجرية لاستخدامها فى حظائر حيواناتهم، وأحواض مياههم، وحصونهم البدائية، أو لعلها دفنت تحت الرمال المنجرفة بفعل الأمواج والرياح.

بنى العبيد القناة والميناء، ولا عجب فى ذلك: فبفضل العبيد حقق سيكل نورن روعته وقوته. كما عرف الكوكب أيضًا بالمهارات الحرفية وخاصة النسيج. وقد احتفظ الحرفيون بأسرار صناعة الأصباغ التى اشتهروا بها. فكانت الأقمشة تلمع وكأنها عسل سائل، أو عنب قرمزى مطحون، أو كوب من دم ثور سال تحت الشمس. أما نقاب الوجه فكان رقيقًا مثل نسيج العنكبوت، والبسط فى غاية النعومة والخفة حتى إنك تشعر وكأنك على هواء أعد ليشبه الزهور والمياه المتدفقة.

قالت: ياللشاعرية، لقد أدهشتنى.

قال: انظرى إليها كمتجر متعدد الأقسام. فتلك بضائع تجارية من أجل الرفاهية، ومن ثم فهى أقل شاعرية مما ترين.

كان العبيد من الأطفال على شتى صورهم هم من ينسجون البسط، وذلك لأن أصابع الأطفال وحدها من الصغر بحيث يمكنها إنجاز هذا العمل الدقيق. ولكن ما أن يصل الأطفال إلى عمر الثامنة أو التاسعة إلا ويكونوا قد أصيبوا بالعمى نتيجة ما كان يطلب إليهم من عمل محكم متواصل بلا انقطاع فى هذا المجال، وكانت إصابتهم مقياسًا يقيم به البائع بضاعته من البسط ويطرى عليها: كأن يقول تسبب هذا البساط فى إصابة عشرة أطفال بالعمى، وذاك سبب العمى لخمسة عشر طفلاً وهذا لعشرين، وهكذا. حيث إن السعر يرتفع وفقًا لذلك، فالبائعون دائمًا يبالغون. ومن عادة المشترى السخرية من أقوالهم. كأن يقول وهو يتحسس البساط

بأصابعه: بالتأكيد لقد سبب هذا البساط العمى لسبعة أطفال، وهذا لأحد عشر طفلاً، وذاك لستة عشر طفلاً. إنه فى خشونة منشفة الأطباق، إنه لا يصلح غطاء لشحات، وما صنعه إلا كلب.

وما أن يفقد الأطفال بصرهم يتم بيعهم لأصحاب بيوت الدعارة، سواء منهم الصبية أو الفتيات. ويدر استخدام الأطفال فى ذلك مبالغ كبيرة. فقد شاع أن لمستهم رقيقة ماهرة، وتحت أصابعهم يشعر المرء بأن أزهارًا تتفتح فى جسده ومياهًا تتدفق منه.

وهم أيضًا على مهارة فى كسر الأقفال. ومن يهرب منهم يمتهن حرفة القتل فى الظلام، ومن ثم يشتد الطلب عليهم كقتلة أجراء. وهم مرهفو السمع، فيمكنهم السير دون أدنى صوت والانحشار فى أضيق الفتحات؛ ويمكنهم أيضًا استشعار الفرق بين الغرق فى النوم ومن يتقلب قلقًا فى حلمه. إنهم يقتلون فى نعومة مثل فراشة تهف على العنق. فيخشاهم الناس أشد خشية ويرونهم كائنات تجردت من الشفقة والرحمة.

أما الحكايات التى يهمس بها الأطفال المبصرون لبعضهم البعض بينما هم يجلسون ينسجون بسطهم التى لا تنتهى، فكلها تدور حول هذا المستقبل المحتمل. ويشيع القول بينهم بأن العميان وحدهم هم الأحرار.

همست: إنه أمر بالغ الحزن، لماذا تحكى لى تلك الحكاية الحزينة؟

تتسع رقعة الظل فوقهما الآن وقد طوقها بذراعيه أخيرًا. وأخذ يفكر لابد أن يهدأ ولا يأتى بحركات مفاجأة إنما يركز على أنفاسه.

قال: أحكى لك القصص التى أجيدها، والتى ستصدقينها. فأنت لا تصدقين التفاهات الحلوة، أليس كذلك؟

كلا. فأنا لا أصدقها.

أضيفى إلى ذلك أنها ليست قصة حزينة تمامًا، فبعض منها يفلت من هذا المصير.

ولكنهم صاروا قاطعى رقاب.

ليس لديهم خيار فى ذلك، أليس كذلك؟ لم يسعهم أن يصبحوا تجار أبسطة أنفسهم أو أصحاب بيوت للدعارة. ولأنهم لا يملكون رأس المال فهم مضطرون لممارسة الأعمال القذرة. إنهم تعيسو الحظ.

قالت: كف عن ذلك. إنه ليس خطئى.

ولا خطئى أنا أيضًا. فلنقل إنه لا فكاك لنا من خطايا الآباء.

قالت ببرود: إنها قسوة لا داعى لها.

قال: ومنذ متى كان للقسوة داعيها؟ وما قدرها؟ اقرئى الصحف. فأنا لا أخترع عالمًا. على كلٍ فأنا إلى جانب قاطعى الرقاب. فإذا اضطررت للاختيار بين قطع رقبة أو الموت جوعًا فأيهما تختارين؟ أو لعلك لا تكفين عن الجهد والسعى من أجل لقمة العيش، فهناك من يفعل ذلك دائمًا.

ها هو قد تمادى كثيرًا وترك غضبه يظهر. انسحبت مبتعدة عنه. قالت: ها هى قد أتت، لابد أن أبتعد. وتحركت أوراق الأشجار حولهما فى غير انتظام. فمدت يدها باسطة كفها: هناك بضع قطرات من المطر. الرعد يقترب الآن. وأزاحت سترته من حول كتفيها. لم يقبلها؛ لن يفعل، ليس الليلة. شعرت كأنه يمهلها بعض الوقت.

قال: اخرجى للنافذة. نافذة حجرة نومك. اتركى النور مضاء. فقط اخرجى إليها.

قالت وقد أجفلها منه ذلك: لماذا؟ أى شىء على وجه الأرض يضطرنى لذلك؟

فأضاف: أريدك أن تفعلى لأتأكد أنك فى أمان، مع أن الأمان لا علاقة له بذلك.

قالت: سأحاول. لدقيقة واحدة فقط. وأنت أين ستكون؟

تحت الشجرة. شجرة الفستق. لن ترينى لكنى سأكون هناك.

وفكرت فى نفسها، إنه يعرف مكان النافذة، ويعرف نوع الشجرة. لابد أنه كان يعسس ويراقبها. وأصابتها بعض الرجفة.

قالت:إنها تمطر. سيشتد هطول المطر وستبتل.

قال: الجو ليس باردًا: سأنتظر.

الجلوب أند ميل، ١٩ فبراير ١٩٩٨

رحلت بريور وينفريد جريفين عن عمر ٩٢ عامًا فى منزلها بروزدال بعد معاناة طويلة مع المرض. وبرحيل مسز بريور، سيدة الأعمال الخيرية الكبيرة، فقدت مدينة تورونتو واحدة من أخلص القائمين بأعمال البر وأكثرهم مثابرة فى هذا المجال. ومسز بريور هى أخت رجل الصناعة الراحل ريتشارد جريفين زوج أخت الروائية المعروفة لورا تشاس. وكانت مسز بريور ضمن مجلس إدارة أوركسترا تورنتو السيمفونى فى طور التشكيل، كما كانت فى وقت قريب ضمن اللجنة التطوعية لقاعة عرض أونتاريو للفنون والجمعية الكندية لمرضى السرطان. كما كان لها نشاط فى نادیی الجرانيت والهليكون، وأيضًا فى عصبة الأشبال ومهرجان الدومنيون للدراما. وقد تركت ابنة بنت أخيها سابرينا جريفون المسافرة حاليًا إلى الهند.

ستقام مراسم الجنازة صباح الثلاثاء فى كنيسة سانت سيمون الرسول تليها إجراءات الدفن فى مقابر مونت بليزانت. يرجى التبرع لمستشفى الأميرة مارجريت بدلاً من إرسال الزهور.

القاتل الأعمى: قلب بأحمر الشفاه

قال: كم لدينا من الوقت؟

قالت: الكثير. ساعتان أو ثلاث. فقد خرج الجميع إلى مكان ما.

ماذا يفعلون؟

لا أدرى. ربما يكسبون نقودًا، أو يشترون بعض الأشياء، أو يقومون ببعض الأعمال المفيدة. يفعلون ما يفعلون. ودست خصلة من شعرها خلف أذنيها واعتدلت فى جلستها. انتابها شعور بأنها فتاة تحت الطلب، يشار إليها، كم هو إحساس رخيص! قالت: لمن هذه السيارة؟

إنها لصديق. فأنا شخص مهم، لدى صديق يملك سيارة.

قالت: أنت تسخـــر منى. فلم يجبها. شدت أصابع القفاز. ماذا لو رآنا أحد؟

سيرون السيارة فقط. إنها سيارة هالكة لا يركبها إلا الفقراء. حتى لو نظروا إليك فلن يروك، لأن امرأة مثلك ليس مفروضًا أن يقبض عليها ميتة فى سيارة كهذه.

قالت: أحيانًا أشعر أنك لا تحمل لى كثيرًا من الود.

قال: لم أفكر فى ذلك مؤخرًا، ولكن الشعور بالود يحتاج بعض الوقت، فلا يسعنى الوقت كى أشعر بالود نحوك. لا أستطيع التركيز على ذلك.

لا، ليس هناك. انظر إلى اللافتة.

اللافتات لغيرنا من الناس. هنا، تعالى ننزل إلى هذا المكان. ولم يكن الطريق سوى أخدود. والمكان يكتظ بالمهملات من مناديل ملقاة، أغلفة لبان، وخزائن مستعملة مثل أحشاء السمك، زجاجات وحصى، وطمى جاف متشقق. لم يكن حذاؤها عالى الكعب مناسبًا لذلك. فأمسك بذراعها ليساعدها على الثبات. ولكنها تحركت لتفلت منه.

يبدو أنه مكان مفتوح. أخشى أن يرانا أحد.

أحد مثل من؟ إننا أسفل الكوبرى.

الشرطة. لا تفعل. ليس الآن.

قال: الشرطة لا تتطفل على الناس فى وضح النهار. إنما هم يسلطون كشافاتهم فى الليل بحثًا عن المنحرفين.

قالت: المتشردين والمجانين.

قال: تعالى هنا، بالأسفل، فى الظل.

هل بها لبلاب سام؟

لا شيء من ذلك على الإطلاق. وليس بالمكان متشردون ولا مجانين غيرى.

وما أدراك؟ كيف عرفت أنه لا يوجد لبلاب سام؟ هل أتيت هنا من قبل؟

قال: لا تقلقلى كثيرا. هيا ارقدى.

لا تفعل. ستمزقه. انتظر دقيقة.

سمعت صوتها. لم يكن صوتها إنما صوتًا لاهثا.

على الحائط الأسمنتى قلب مرسوم بأحمر الشفاه يحيط بأربعة حروف يربطها حرف "ح" ليشير للحب. وحدهم من يهمهم الأمر يعرفون لمن هذه الحروف – وأنهم كانوا هنا يفعلون نفس الشيء. يعلنون الحب ويمسكون عن التفاصيل.

ويحيط بالقلب أربعة حروف أخرى متقطعة تشير للجنس.

مذاق التبغ فى فمه ومذاق الملح فى فمها، تحيط بهما رائحة القطط والأعشاب المتكسرة تنبعث من الزوايا المهجورة. سارا نحو الضوء والطين الندى عالق بركبتى كل منهما، فكانا متسخين ومنتشيين، وبدا كأنهما نبات برى يتمطى نحو الضوء.

فى الأسفل حيث يرقدان، يصلهما صوت خرير الماء فى جدول صغير. وفوقهما فروع أشجار مورقة، وكرمات صغيرة ذات زهور قرمزية. ومن فوق ترتفع أعمدة الجسر، والعوارض الحديدية وتسير المركبات، وتظهر السماء الزرقاء من بين الشقوق، والتراب الجاف تحت ظهرها.

مسح بيده على جبهتها، ومر بإصبعه على إحدى وجنتيها. قال: لا تعشقينى لدرجة العبادة، فلست الذكر الوحيد فى العالم. وستعرفين ذلك يومًا.

قالت: ليست تلك هى المسألة. وعلى كل، فأنا لا أعبدك. ولكنه كان يدفعها بالفعل بعيدًا نحو المستقبل.

حسن، مهما كان الأمر، سيحدث هذا كثيرًا، بمجرد أن أكف عن إحراجك ومضايقتك.

ماذا تقصد بالضبط؟ أنت لا تحرجنى ولا تضايقنى.

قال: هناك حياة بعد الحياة. بعد حياتنا.

فلنتحدث فى شىء آخر.

اتفقنا، ارقدى ثانية. ضعى رأسك هنا. وأزاح قميصه المبتل بعيدًا. ولف ذراعه حولها، ويده الأخرى تفتش فى جيبه بحثًا عن سجائر، ثم أشعل الثقاب بظفر إبهامه. وكانت أذنها عند تجويف كتفه.

قال: والآن أين توقفنا؟

ناسجى البسط والأطفال الذين فقدوا بصرهم.

آه! حقًا تذكرت.

قال: كانت ثروة سيكيل نورن تعتمد على العبيد، خاصة العبيد من الأطفال الذين ينسجون الأبسطة الشهيرة. لكن كان ذكر ذلك يبعث الشؤم. فكان السنيلفارد يدعون أن ثروتهم لا تعتمد على العبيد، إنما جمعوها بفضل فضائلهم وصواب تفكيرهم – أى القرابين المناسبة التى يقدمونها للآلهة.

كان لديهم العديد من الآلهة. فالآلهة دائمًا ذات نفع، إنها تبرر أى شىء، ولا يستثنى من ذلك آلهة سيكيل نورن. فجميعها آكلة لحوم؛ ومن ثم فهى تحب أن تقدم لها الحيوانات قرابين، ولكنها تفضل الدم البشرى أيما تفضيل. وعند بناء المدينة من قديم الزمن شاعت أسطورة تقول إنه عند بداية تأسيس المدينة قدم تسعة آباء ورعين أطفالهم ليكونوا حراسًا مقدسين يدفنون تحت بواباتها التسع.

تتجه كل بوابتين من تلك البوابات نحو واحدة من الجهات الأربع، بوابة للخروج وأخرى للدخول: فأن يخرج الشخص من نفس البوابة التى دخل منها يعنى موتًا مبكرًا. أما باب البوابة التاسعة فلوح أفقى من الرخام فوق قمة تل فى مركز المدينة؛ وهو ينفتح دون حركة، ويتأرجح بين الموت والحياة، بين الجسد والروح. ومن هذا الباب تروح الآلهة وتجيئ: فهى لا تحتاج بابين مثل الفانين من البشر، إنما تستطيع الآلهة أن تكون عند جانبى الباب فى نفس الآن. وفى قول مأثور يتساءل رسل سيكل نورن: "ما هى أنفاس الإنسان الحقيقية – الشهيق أم الزفير؟" وتلك كانت طبيعة الآلهة.

وكانت البوابة السابعة أيضًا المذبح الذى يراق عليه دماء الضحية. فيقدم الأطفال من الذكور قرابين لإله الشموس الثلاثة، وهو إله النهار، الضوء الساطع، والقصور والأعياد والمحارق والحروب والشراب والكلمات. أما الأطفال من البنات فيقدمن لإلهة الأقمار الخمسة، راعية الليل، والضباب والظلال، والمجاعات، والكهوف، والميلاد، والخروج والصمت. فكانوا يشجون رؤوس الصبية من الأطفال ليخرجوا أمخاخهم فوق المذبح ويقذفوها فى فم الإله، مما يؤدى إلى محرقة هائلة. أما البنات فتقطع رقابهن وتصفى دماؤهن لإعادة الحياة للأقمار الخمسة الماحقة حتى لا تذوى وتخبو إلى الأبد.

كل عام يتم تقديم تسع فتيات تكريمًا للفتيات التسع المدفونات عند بوابات المدينة. ويطلق على أولئك الفتيات اللاتى يقدمن قرابين "فتيات الإلهة" وتقدم لهن الصلوات والزهور والبخور حتى يشفعن للأحياء. ويقال إن الشهور الثلاثة الأخيرة من العام شهور قاسية، فلا ينمو فيها زرع وتصوم الإلهة. وفى ذلك الوقت يبقى إله الشمس على سطوته فى إشعال الحروب والمحارق، وكانت الأمهات يلبسن أطفالهن الذكور ملابس الفتيات لحمايتهم.

ويقضى القانون بأن تقدم أرقى عائلات السنيفارد واحدة على الأقل من بناتها. ومن الإهانة للإلهة أن تقدم إليها فتاة بها عيب أو نقص، وبمضى الزمن لجأ السنيلفارد إلى تشويه بناتهن لحمايتهن من هذا المصير، وذلك ببتر إصبع أو شحمة

أذن أو غير ذلك من الإصابات الصغيرة، وسرعان ما صار التشويه رمزيًا مثل دق وشم أزرق عند عظمة الترقوة. وهى جريمة تستحق الإعدام أن تحمل امرأة تلك العلامة الخاصة دون أن تنتمى إلى طبقة السنيلفارد، لكن غالبا ما كان يلجأ أصحاب بيوت الدعارة الشغوفون بالتجارة إلى إحداث تلك العلامات بالحبر لأصغر العاهرات اللاتى يتظاهرن بالغطرسة والتكبر. فذلك يعجب الزبائن ممن يحبون الشعور بأنهم ينتهكون الدماء الزرقاء لأميرة من السنيلفارد.

وفى الوقت نفسه لجأ السنيلفارد إلى تبنى اللقيطات - ومعظمهن من نسل نساء العبيد وأسيادهم - واستبدالهن ببناتهم الشرعيات. كان ذلك ضربا من الخداع، لكن عائلات النبلاء كانت من القوة مما يجعل السلطات تغض بصرها عن الأمر.

وبعد ذلك توانى النبلاء عن تربية الفتيات وسط أسرهم، فعهدوا بهن إلى معبد الإلهة بعد دفع مبلغ كبير لإعالتهن. وكانت العائلة تنال شرف تقديم القربان حيث إن الفتاة تحمل اسمها. وبدا الأمر وكأنهم يربون فرسًا للسباق. وهذه الممارسة تقليد متدنٍ لما كان يفعله فى الأصل النبلاء ذوو الأخلاق النبيلة، لكن فى ذلك الوقت كان كل شيء مطروحًا للبيع فى سيكل نورن.

كانت فتيات القربان يحبسن داخل مبانى المعبد حيث يطعمن أفضل الأطعمة لتبدو عليهن مظاهر الصحة والنعمة، كما يتم تدريبهن تدريبات صارمة لإعدادهن لليوم العظيم - فيصبحن قادرات على إنجاز مهمتهن فى لياقة ورباطة جأش. فكان الرأى السائد أن الأسلوب المثالى لتقديم القربان لابد أن يكون مثل الرقص، مهيبًا ولطيفًا وشاعريًا. فهن لسن حيوانات ليذبحن بفجاجة، بل هن اللاتى يمنحن حياتهن فى حرية. تصدق الكثيرات ما يقال لهن بأن رفاهية المملكة جميعها تعتمد على إنكارهن للذات. فهن يقضين ساعات طويلة فى الصلاة ليدخلن فى الحالة النفسية المطلوبة. ويتعلمن المشى مع خفض البصر والابتسام بحزن رقيق وترديد أغنيات الإلهة التى تدور حول الغياب والصمت، والحب المحبط والندم غير المصرح والتخلى عن الكلمات - إنها أغنيات عن استحالة الغناء.

كان ذلك منذ زمن طويل. والآن لا يأخذ الآلهة مأخذ الجد سوى القليل من الناس، ومن يعلن ورعه وتمسكه بشعائر الآلهة يعتبره الآخرون وقد مسه قدر من

الجنون. ومع ذلك استمر المواطنون فى ممارسة طقوسهم القديمة لأنهم طالما مارسوها، ولكنها لم تعد شأنًا حقيقيًا جادًا من شئون المدينة.

ورغم عزلتهن، أدركت بعض الفتيات أنهن يقتلن استجابة لطقوس شعائرية بالية. فبعضهن حاول الفرار عند رؤية السكين. وبعضهن راح يصرخ عندما تم جذبهن من شعورهن وإلقاؤهن على ظهورهن فوق المذبح، وراحت أخريات يلعن الملك، الذى يقوم مقام الكاهن الأعلى فى مثل هذه المناسبات، بل إن إحداهن عضته. وكره العامة هذا التعبير المتصل عن الرعب والخوف، لما يتبعه، أو ما يمكن أن يتبعه، من سوء طالع مريع، معتقدين فى وجود الإلهة. وعلى كلٍ فهذه الانفجارات الغاضبة بوسعها أن تفسد الاحتفالات. وكانت احتفالات القرابين مصدر متعة لكل الناس بمن فيهم اليوجنيرود والعبيد فهو يوم عطلة يشربون فيه حتى الثمالة.

ومن ثم جرت العادة بقطع لسان الفتاة قبل موعد القربان بثلاثة أشهر. ويقول الكهنة إن ذلك ليس تشويهًا ولكنه إصلاح – فأى شيء أفضل من هذا لتتحلى به خادمات إلهة الصمت؟

وهكذا تصبح كل فتاة مقطوعة اللسان وقد ابتلعت كلماتها وفقدت النطق أبدًا، فتقاد متدثرة فى خمارها تكللها الزهور فى موكب نحو الموسيقى الجليلة لترقى الدرجات الحلزونية متجهة إلى الباب التاسع للمدينة. قد يراها الرائى اليوم فيحسبها عروسًا مدللة من بنات المجتمع الراقى.

اعتدلت جالسة وقالت: هذا بالفعل لا داعى له. إنك تريد استثارتى. فأنت تحب مجرد فكرة قتل أولئك الفتيات الفقيرات فى رداء العرس. أرى أنهن كن شقراوات.

لا أرغب فى إغضابك. فالأمر ليس كذلك. على كلٍ فأنا لا أخترع كل ذلك، فله أسس راسخة فى التاريخ، تاريخ الحيثيين...

أنا على يقين من ذلك، ولكنك تحـكى بمتـعة ولـهفة. فـأنت ترغب فى الانتقام، كلا، بل إنك تغار، والله وحده يعلم السبب. لا يهمنى الحيثيون ولا التاريخ ولا أى شىء من هذا القبيل، فكلها أعذار محضة.

انتظرى لحظة. لقد وافقت على التضحية بالفتيات العذارى، وضعتيهن على القائمة. وأنا فقط أنفذ الأوامر. ما الذى يغضبك – صوان الملابس؟ الكثير من نسيج التل؟

قالت: أرجوك لا تدعنا نتشاجر. وشعرت بأنها تغص بالبكاء، فشد على يديها حتى تكف.

لم أقصد إغضابك. تعالى الآن.

دفعت ذراعه بعيدًا. إنك لا تقصد إغضابى، ولكنك تحب أن تعرف أن بإمكانك أن تفعل.

اعتقدت أنى أسليك وأنا أمثل، أتلاعب بالصفات، أقوم بدور المهرج.

جذبت تنورتها إلى أسفل وأدخلت فيها البلوزة. فتيات يمتن فى أثواب العرس، وقد قطعت ألسنتهن. أى شىء فى ذلك يسلينى. لابد أنك ترانى حيوانًا شرسًا.

سأسحب ذلك. سأغيره. سأعيد كتابة التاريخ من أجلك. ما رأيك فى ذلك.

قالت: لا يمكنك ذلك. لقد خرجت الكلمات. لا يمكنك شطب نصف سطر منها. إنى راحلة. إنها الآن راكعة على ركبتيها استعدادًا للوقوف.

لدينا فسحة من الوقت. استلقى قليلاً. وأمسك بمعصمها.

كلا. اتركنى. انظر أين الشمس الآن. سيعودون. وقد أقع فى مشكلة، مع أنى أعتقد أن مثل هذا الأمر لا يسبب لك مشكلة على الإطلاق، فهو لا يهمك. فأنت لا تهتم على الإطلاق وكل ما تريده أن تحصل بسرعة على....

تعالى هنا! تكلمى ماذا تقصدين؟

قالت فى صوت مرهق: أنت تعرف ما أقصده.

ليس حقيقيًا. أنا آسف. فأنا الحيوان الشرس. إنها مجرد قصة.

أسندت جبينها على ركبتيه. وبعد دقيقة قالت: ماذا أفعل عندما لا أجدك هنا بعد؟

قال: ستتغلبين على الأمر. ستعيشين. ها أنا أصدك.

لا يجدى الأمر بمجرد الصد.

فلنغلق أزرار ملابسك. لا تحزنى.

نشرة مدرسة كولونيل بارك مان العليا ورابطة الخريجين فى بورت تيكونديروجا مايو ١٩٩٨

منح جائزة لورا تشاس التذكارية

كتبتها: ميرا ستيرجيس،

نائب رئيس رابطة الخريجين

تلقت مدرسة هنرى بارك مان العليا تبرعًا بجائزة جديدة قيمة، منحتها فى وصيتها السيدة الكريمة وينفريد جريفين بريور من تورنتو، ومما يذكر أن أخاها المعروف ريتشارد إى جريفين كان قد اعتاد على قضاء إجازاته هنا فى بورت تيكونديروجا حيث يستمتع بالإبحار فى نهرنا. والجائزة هى جائزة لورا تشاس التذكارية فى الكتابة الإبداعية، وقدرها مائتا دولار، وتمنح فى القصة القصيرة للفائز من بين طلاب السنة النهائية، ويقوم بالتحكيم ثلاثة من أعضاء رابطة الخريجين مع أخذ القيم الأدبية والأخلاقية فى الاعتبار. يقول رئيس الرابطة السيد إيف إيفانز: "تدين بالفضل والعرفان للسيدة بريور لتذكرها لنا ضمن أعمالها الخيرية."

وتمنح الجائزة تكريمًا لأديبتنا الشهيرة لورا تشاس، وستقدم للمرة الأولى فى حفل التخرج فى شهر يونيو. وقد تفضلت أختها السيدة أيريس جريفون من عائلة تشاس التى أنجزت الكثير لمدينتنا فى الماضى، بالموافقة على تسليم الجائزة للفائز سعيد الحظ، وحيث إنه تبقى على الموعد المحدد بضعة أسابيع فليشمر صغاركم سواعدهم الإبداعية ويبدأوا العمل!

ستقيم رابطة الخريجين حفلاً للشاى فى قاعة الرياضة بعد حفل التخرج، ويمكن الحصول على التذاكر من ميرا ستورجيس بقاعة جينجربريد، مع العلم بأن العائد من التذاكر سيتوجه لشراء ملابس رياضية جديدة لكرة القدم حيث الحاجة إليها. نرحب بالتبرعات من المخبوزات، ولا سيما تلك المحشوة بالبندق.

الفصل الثالث

القاتل الأعمى مكتبة

العرض

استيقظت هذا الصباح يجتاحنى شعور بالرهبة. لم أستطع تحديده فى البداية، إلا أننى تذكرت بعد ذلك، فقد كان اليوم موعد الاحتفال.

كانت الشمس مشرقة، والحجرة تفيض دفئًا. والضوء يتسلل إليها عبر الستائر الشبكية فتبدو ذراته معلقة فى الهواء كأنها رواسب فى بركة. شعرت برأسى مثل زكيبة من اللباب. وكنت مازلت فى رداء النوم فجذبت نفسى لأنهض من فراشى المشعث، يبللنى العرق من بعض الفزع الذى أزحته جانبًا مثلما ينحى المرء أوراقا خضرة ندية، وأجبرت نفسى على إتيان الطقوس المعتادة عند الفجر – إنها المراسم التى نؤديها لنبدو على قدر من القبول والاتزان فى نظر الآخرين. فلأصفف شعرى ليبدو منسابا فى سلاسة لا أثر فيه للرعب الذى جعله ينتصب على أطرافه أثناء الليل، ولأمحو من عينى أثر النظرة الشاخصة غير المصدقة. ولأفرش أسنانى لتعود إلى طبيعتها؛ فما أدرانى أى عظام كنت أقرضها أثناء نومى.

وبعدها خطوت تحت الدش وأنا أمسك بالعمود الذى أجبرتنى ماريا على استخدامه، مع حرصى على ألا أسكب الصابون: فقد كنت أخشى الانزلاق. لكن لايزال الجسد يحتاج أن يغتسل ليتخلص من رائحة ظلام الليل. أرتاب فى أن جسدى يبعث رائحة لا أستطيع أنا نفسى أن أميزها – رائحة نتنة للحم عفن أو بول آسن.

جففت جسدى ووضعت بعض اللسيون والبودرة ورششت العطر على جسدى مثلما يرش الفطر العفن، وبذلك استعدت نفسى بعض الشىء. لكن مازلت أشعر بانعدام الوزن أو بأننى أنزلق نحو جرف. وفى كل مرة أمد قدمى أتراجع فى حذر وكأن الأرض تنهار من تحتى، ولم يمسكنى فوقها سوى قشرة خارجية مشدودة.

وقد ساعدنى ارتداء ملابسى على التوزان، فلم أكن فى أفضل حالاتى دون مساعدة خارجية. (ومع ذلك فماذا حدث لملابسى الحقيقية؟ فتلك الملابس الباستيلية

الباهتة والحذاء الطبى تخص شخصًا آخر. ولكنها تخصنى، والأسوأ أنها تناسبنى الآن.)

وبعد ذلك جاء دور السلالم. اجتاحنى رعب أن أتعثر فوقها فأكسر عنقى، وأرقد منبطحة تظهر ملابسى الداخلية، ثم أنصهر إلى عجينة متقيحة قبل أن يفكر أحد فى العثور على. وياله من أسلوب أخرق للموت. هبطت درجات السلم بحرص أتوقف عند كل درجة برهة من الوقت وأنا أتعلق بالدرابزين. ثم مررت بالردهة فى طريقى إلى المطبخ، بينما أتحسس الجدران بأصابعى مثلما يفعل القط بشواربه (مازلت أستطيع الرؤية. لايزال بإمكانى أن أمشى. ستقول رينى فى ذلك "فلنشكر الرب على النعم الصغيرة" فتقول لورا "لماذا علينا أن نفعل؟ ولماذا هى صغيرة؟)

لم أرغب فى تناول الفطور. فاحتسيت كوبًا من الماء وأمضيت الوقت فى تململ. وفى التاسعة والنصف مر على والتر لاصطحابى. قال "أليس الجو حارًا عليك هنا؟" وهى جملته المعتادة لبداية الحديث، وفى الشتاء تكون "أليس الجو باردًا عليك هنا؟" أما "رطبًا وجافًا" فهو يستخدمهما فى الربيع والصيف.

وسألته كعادتى دائما: "كيف حالك يا والتر؟" فيرد كما يفعل دائما: "أبتعد عن المتاعب."

قلت: "هذا أفضل ما يمكن لكلينا" فابتسم ابتسامته المعهودة التى تبدو جعدة خفيفة على وجهه مثل الطين الجاف، وفتح لى باب السيارة ثم أقعدنى فى مقعد الركاب. وقال: "اليوم مشحون، أليس كذلك؟ اربطى الحزام وإلا قبضوا على" ونطق كلمة اربطى الحزام وكأنها نكتة، فقد بلغ به الكبر حتى إنه يذكر تلك الأيام الخوالى من الماضى البعيد، فقد كان من ذلك النوع من الشباب الذى يقود وقد ارتكن بأحد مرفقيه على نافذة السيارة ويده على ركبة صديقته. ربما تدهشنى فكرة أن هذه الصديقة كانت ميرا فى الواقع.

أوقف السيارة برفق إلى جانب الرصيف ونزلنا فى صمت. إن والتر رجل ضخم الجثة عريض المنكبين مثل قاعدة عمود له رقبة لا تشى بأنها رقبة بقدر ما تشبه كتفًا زائدة؛ تنبعث منه رائحة ليست كريهة لحذاء جلدى قديم وجازولين. ومن قميصه الكاروهات وقبعة البيسبول استنتجت أنه لا ينوى حضور حفل التخرج. فهو لا يقرأ الكتب مما يريح كلينا: فكل ما يعنيه أن لورا أختى، ومن المؤسف أنها ماتت، ولا شيء غير ذلك.

كان لابد أن أتزوج شخصًا مثل والتر يجيد العمل بيديه.

كلا: كان لابد ألا أتزوج أى شخص. وكنت وفرت على نفسى الكثير من المشاكل بذلك.

أوقف والتر السيارة أمام المدرسة العليا. إنها تعود إلى زمن ما بعد الحرب، عمرها خمسون عامًا لكنى مازلت أراها جديدة: فلا أستطيع اعتياد الفتور والتلطف، إنها تبدو مثل صندوق شحن مكتظ. بدا الشباب وذووهم يتدافعون فى موجات على الرصيف وفى الحديقة متجهين نحو البوابات الرئيسية وقد ارتدوا شتى ألوان الصيف. كانت ميرا فى انتظارنا تلوح إلينا من فوق درجات السلم وقد ارتدت فستانًا أبيض تغطيه وردات كبيرة حمراء. لا يصح أن ترتدى النساء ذوات الأرداف السمينة ملابس بنقوش كبيرة من الورود. وهناك ما أود قوله عن الحزام، ليس أننى أريد استعادته. كان شعرها مصففًا وقد ربطت خصلاته الرمادية فبدت مثل الشعر المستعار فوق رأس قاض إنجليزى.

قالت لوالتر: "لقد تأخرتما"

فرد والتر: "كلا لم نتأخر. ولو كنت تأخرت فمعنى هذا أن الآخرين قد أتو مبكرين. على كل دعيها تجلس تريح قدميها." وكانوا قد اعتادوا الحديث عنى بصيغة الغائب وكأنى طفلة أو حيوان أليف.

سلم والتر ذراعى لرعاية ميرا وصعدنا السلالم الأمامية معًا وكأننا فى سباق بين ثلاثة أرجل. شعرت بما يمكن أن تكون قد شعرت به يد ميرا: نصف قطر من الأوتار الهشة المغطاة بالثريد. ليتنى أحضرت عصاى، ولكنى لم أشأ أن أحملها معى فوق المسرح. فلربما تعثر فيها أحد.

اصطحبتنى ميرا خلف الكواليس وسألتنى ما إذا كنت أريد الذهاب إلى الحمام – فهى تجيد تذكر مثل هذه الأشياء – ثم أجلستنى فى حجرة الملابس. وقالت: "عليك فقط الجلوس هنا" وبعدها أسرعت خارجة تثب وتهز ردفيها.

كان الضوء حول مرآة حجرة الملابس على هيئة مصابيح صغيرة مستديرة كما فى المسارح، ينبعث منها ضوء يتملقك، ولكنى لم أنخدع بها: فبدوت مريضة هربت من بشرتى الدماء وكأننى قطعة لحم منقوعة فى الماء. هل كان ذلك بفعل الخوف أم أننى مريضة بحق؟ لا أستطيع أن أجزم تمامًا.

أخرجت مشطى وغرسته فى قمة رأسى دونما حماس. وظلت ميرا تهدد بأن تأخذنى إلى ابنتها فيما تشير إليه بأنه صالون تجميل – أما اسمه الرسمى فهو مركز تصفيف الشعر، مع إضافة عبارة للجنسين زيادة فى الترويج – لكنى داومت على المقاومة. فعلى الأقل مازلت أزعم أن شعرى يخصنى وحدى، مع أن أطرافه تتجمد وتتصلب واقفة، وكأننى صعقت بتيار كهربائى. وتحته تبدو أجزاء متفرقة من فروة الرأس فى لون وردى مشرب بالرمادى كلون أقدام الفئران. إذا صادفتنى رياح شديدة يتطاير كله وكأنه زغب منفوش لنبات الهندباء البرى ولا يبقى سوى دائرة صغيرة من رأس صلعاء تملؤها البثور.

تركت لى ميرا واحدة من كعكاتها البنية الخاصة، التى تم إعدادها لحفل الشاى المقام على شرف الخريجين – وهى مكعب من الشوكولاتة المغطاة بالسكر – إناء بلاستيكى ذو فوهة حلزونية من قهوتها الخاصة. لم أستطع الأكل أو الشرب، ولكن لم جعلت المراحيض؟ تركت بعض الفتات البنية للمصداقية.

اندفعت ميرا داخلة وأمسكتنى وقادتنى إلى الخارج، صافحنى العميد ورحب بوجودى، ثم انتقلت إلى نائب العميد، وهو رئيس رابطة الخريجين، ثم رئيس قسم اللغة الإنجليزية - وهى سيدة ترتدى بدلة - وممثل الغرفة التجارية الصغرى وأخيرًا النائب المحلى بالبرلمان. لم أر عرضًا لذلك الكم من الأسنان اللامعة منذ أن كان ريتشارد يعمل بالسياسة.

صحبتنى ميرا إلى حيث مقعدى ثم همست "سآتيك على جناح السرعة". وبدأ الأوركسترا المدرسى فى العزف وغنينا نشيد "كندا" الذى لا أتذكر كلماته أبدًا لأنهم يغيرونها باستمرار. ففى هذه الأيام يغنون جزءا منه بالفرنسية، التى لم نكن نسمع بها من قبل. وجلسنا بعد أن أكدنا على فخارنا المشترك بكلمات لا نعرف كيف ننطقها.

وبعدها تلا قس كنيسة المدرسة الصلوات، معرضًا على الرب ما يواجهه شباب اليوم من تحديات غير مسبوقة. ولابد أن الرب سمع مثل هذه الأشياء من قبل ولعله سأمها كما سأمناها. وتفاعل معه الآخرون بدورهم: ففى نهاية القرن العشرين، يقذف بالعجائز ويحتفى بالشباب رواد المستقبل. سمحت لعقلى أن ينجرف بعيدًا؛ كنتُ على يقين أن الشىء الوحيد المنتظر منى ألا أهين نفسى. قد أعود ثانية بجوار المنصة، أو فى عشاء طويل ممل، أجلس إلى جوار ريتشارد، وقد أخرست فمى. إذا وجه إلى سؤال، وهو قلما يحدث، دأبت على القول إن هوايتى البستنة. وهى نصف الحقيقة على أفضل تقدير، ومع بعثها على الضجر إلا أنها تفى بالغرض.

وبعد ذلك حان موعد تسليم الخريجين شهاداتهم. احتشدوا جميعًا واقفين فى وقار وتألق، بأحجامهم المختلفة، جميعهم على قدر من الجمال كما هو عهد الشباب دائمًا. فلا أحد منهم عاطل من الجمال، حتى من بهم مسحة من قبح أو شراسة أو سمنة أو يغطيهم النمش أو البثور، كانوا أيضًا على قدر من الجمال. ولكن ليس من بينهم من يفهم ذلك - إنهم جميعًا على قدر من الجمال. ولكنهم مع ذلك منزعجون.

فى وقفتهم هيبة وكأنهم هم القاعدة، ومن أغانيهم تلمس كم يبكون وينوحون، وكأنهم يتحملون الشدائد دون شكوى. إنهم لا يقدرون كم هم محظوظون.

قلما كانوا ينظرون إلى. فلربما بدوت فى أعينهم شيئًا غريبًا من أزمان بعيدة، ولكنه قدر الجميع أن يتحولوا إلى مجرد أشياء طريفة فى نظر أولئك الذين يصغرونهم. يستثنى من ذلك إراقة الدماء. فهم يحترمون الحروب، والأوبئة، والقتل وغيره من أنماط المصائب والعنف. فإراقة الدماء تعنى أننا كنا جادين فيما نفعل.

وبعدها حان وقت تسليم الجوائز فى مجالات شتى منها علوم الكمبيوتر، والفزياء، وإدارة الأعمال، والأدب الإنجليزى وغيرها من مجالات لم ألتقطها. وتقدم المتحدث باسم رابطة الخريجين فتنحنح وأثنى فى ورع متظاهر على وينفريد جريفين بريور وكيف أنه كان قديسًا على الأرض. كم يلجأ الناس إلى الرياء عندما يتعلق الأمر بالمال! أرى العجوز الشمطاء قد تصورت الأمر كله عندما كتبت وصيتها رغم شحها الشديد. كانت تعلم أنهم سيطلبون حضورى: فأرادت لى أن أتلوى تحت نظرات البلدة الحادة وحملقاتهم وهم يطرون سخاءها وجودها. "تحملى ذلك إكرامًا لذكراى". أكره أن أرضيها ولكنى لا أستطيع التملص من ذلك دون أن أبدو خائفة أو مذنبة، بل والأسوأ غافلة عن الذكرى.

وكان دور لورا التالى. فأخذ السياسى على نفسه أن يكون له هذا الشرف. استدعى الأمر بعض الكياسة. فقد ذكر بعض الشىء عن نشأة لورا المتواضعة، وشجاعتها وتكريس ذاتها لهدف اختارته" مهما كان يعنى ذلك. لم يذكر شيئًا عن طريقة موتها التى يرى سكان البلدة جميعًا أنها كانت أقرب إلى الانتحار، رغم ما انتهت إليه التحقيقات. ولم يذكر شيئًا البتة عن الكتاب الذى يعتقد البعض بالتأكيد أن الأفضل إغفاله. ورغم أن ذلك لم يحدث فى أماكن أخرى غير هذا المكان: فبعد خمسين عامًا لايزال يكتنفه جو من الحظر والتحريم. وهو أمر يصعب علىَّ فهمه، فقد أصبح تحريم رغبات الجسد شيئًا قديمًا، واللغة البذيئة شيئًا لا يمكن تجنب سماعه كل يوم على نواصى الشوارع، وأصبحت ممارسة الجنس شيئًا لائقًا مثل ممارسة الرقص، يخضع للنزوات وتقلب المزاج مثل أحزمة حمالة الجوارب.

الأمر بالطبع مختلف. فالناس لا يذكرون الكتاب نفسه بقدر ما يذكرون ما أثاره من ضجة: فقد أنكره رجال الكنيسة ووصفوه بأنه كتاب فاحش، ولم يحدث ذلك هنا فحسب بل حدث فى أماكن أخرى؛ فقد اضطرت المكتبة العامة إلى إنزاله من فوق رفوفها، ورفضته مكتبة البيع الوحيدة بالبلدة. وأشارت بعض الآراء بإخضاعه للرقابة. وقد اعتاد الناس على التسلل إلى ستراتفورد أو لندن بل وإلى تورنتو للحصول عليه فى الخفاء كما كان الحال حينئذ مع الواقى الذكرى. وحين العودة إلى منازلهم يسدلون الستائر ويقرأونه، بشىء من الرفض واللذة والنهم والإثارة أيضًا – حتى أولئك الذين لم يخطر ببالهم أن يقرأوا رواية من قبل. فما من شىء أفضل من ملء مجرفة بالقاذورات لتشجيع القراءة.

(ومع ذلك فقد عبر البعض عن شىء من التعاطف مع الكتاب. كأن يقولون: "لم يمكننى التوغل فيه، فقصته لم تجذبنى بما يكفى. ولكن الفتاة المسكينة كانت صغيرة للغاية. ربما كانت قد كتبت أفضل من هذا الكتاب لو لم يأخذها الموت." وكان هذا أفضل ما يمكن لهم قوله عن الرواية.)

ماذا كانوا يتوقعون منه؟ بعض الفسق، والكلام الفاحش، وغيره مما يؤكد أسوأ شكوكهم. ولعل بعضهم أراد، رغمًا عنهم أن يتعرضوا للغواية. ربما كانوا يبحثون عن العواطف؛ ربما غاصوا فى الرواية ينقبون فيها وكأنها طرد غامض – صندوق يحوى هدية وفى قاعه شىء طالما تاقوا إليه يختفى فى طبقات من الورق المخشش، ولكن لم يمكنهم أبدًا الحصول عليه.

ولكنهم أيضًا أرادوا أن يجدوا فيه أشخاصًا أخرين واقعيين غير لورا، فقد سلموا بالإطار الواقعى للرواية. إنهم يريدون أشخاصا من لحم ودم تنطبق صفاتهم على أولئك الذين استحضرتهم الكلمات. إنهم يريدون شبقًا حقيقيًا. وفوق ذلك يريدون معرفة من يكون الرجل. ذلك الذى كان فى الفراش مع الشابة الجميلة الميتة؛ والذى كان فى الفراش مع لورا. وقد اعتقد بعضهم أنهم يعرفونه بالطبع. فقد انتشرت الشائعات. وبالنسبة لأولئك الذين يجيدون نسج الحكايات حول أى اثنين

تصبح الأدلة واضحة. "كانت الفتاة ساذجة ويسهل قيادتها بسهولة. ولكن الزبد لا ينصهر بسهولة. تعرف من ذلك أنه لا يمكنك معرفة الكتاب من عنوانه."

ولكن لورا كانت بعيدة عن متناول أيديهم فى ذلك الوقت. وكنت أنا التى يستطيعون الوصول إليها. وبدأت الخطابات المجهولة. لماذا ساعدت على نشر هذه القطعة القذرة؟ وأين؟ فى نيويورك فى دار نشر سودوم الكبرى؟ أنشر هذه القاذورات؟ ألا أستحى؟ فقد جلبت العار على أسرتى – وهى على قدر كبير من الاحترام – ومعها البلدة كلها. لم تكن لورا سليمة العقل أبدًا، كان الجميع يشكون فى ذلك، وقد أثبته الكتاب. كان لابد أن أحمى ذكراها. كان لابد أن أشعل النار فى المخطوط. وبينما رحت أنظر إلى سحابة الرؤوس المتراصة بين المشاهدين شعرت كم تفوح منهم روائح الحقد القديم والحسد والاحتقار وكأنما تنبعث من مستنقع بارد.

أما الكتاب نفسه فلم يذكره أحد – فقد أخفوه بعيدًا عن الأنظار وكأنه قريب سيئ الخلق يجلب وجوده العار للعائلة. ذلك الكتاب الصغير الذى لا حيلة له. ذلك الضيف الذى لم يدعه أحد لتلك المأدبة العجيبة، يرفرف عند حواشى المسرح كعثة لا يشعر بها أحد ولا تأثير لها.

بينما كنت أهيم فى أحلام اليقظة، شعرت بشخص يقبض ذراعى ويرفعنى ووجدت الشيك فى ظرفه المربوط بشريط ذهبى وقد دس فى يدى. وتم الإعلان عن اسم الفائزة. لم ألتقط اسمها.

مشت الفتاة تجاهى تدق بكعب حذائها على المسرح. كانت طويلة؛ ففتيات اليوم كلهن طوال، لابد أنه شىء فى الطعام. بدا فستانها الأسود قاسيًا وسط ألوان الصيف، تزينه خيوط فضية، أو ربما بعض الخرز – إنه شىء يلمع. كان شعرها طويلاً قاتمًا. وجهها بيضاوى وقد صبغت شفتيها باللون الكرزى، تقطب جبينها قليلاً فى تركيز واهتمام. بشرتها صفراء شاحبة أو سمراء – لعلها هندية أو عربية أو صينية؟ فحتى فى بورت تيكونديروجا ترد مثل هذه الأشياء، فالناس منتشرون فى كل مكان اليوم.

شعرت بقلبى ينخلع: فقد تملكنى الحنين وسيطر على جسدى شيء كشد عضلى. وفكرت أنها ربما تكون حفيدتى – فربما تبدو سابرينا هكذا الآن. ربما نعم وربما لا؛ ما أدرانى؟ فلعلنى لا أستطيع التعرف عليها. فلقد أبعدوها عنى فترة طويلة. وماذا كان عساى أن أفعل؟

"مسز جريفون" همس بها رجل السياسة.

ترنحت ثم استعدت توازنى. الآن ماذا كنت أنوى أن أقول؟

"كانت أختى لورا ستسعد بذلك كثيرًا" قلتها وأنا ألهث فى مكبر الصوت بصوت هزيل، فقد شعرت أنى على وشك الإغماء. وأضفت: "فقد كانت تحب مساعدة الناس" وكان ذلك صحيحًا. فقد عاهدت نفسى ألا أقول غير الصدق.

"كانت مغرمة بالقراءة والكتب" وذلك أيضًا صحيح إلى حد كبير.

"كانت ستتمنى لكم أفضل الأمنيات فى المستقبل" وذلك صحيح بدوره.

وتمكنت من تسليم المظروف؛ وكان على الفتاة أن تنحنى. فهمست فى أذنها أو قصدت أن أهمس: "بارككِ الرب، كونى حذرة." فكل من يتعامل مع الكلمات يحتاج تلك المباركة وذلك التحذير. هل نطقت بالفعل أم أننى فتحت فمى وأغلقته مثل السمكة؟

ابتسمت الفتاة ولمع فى عينيها بريق ذكاء تلألأ ليضيء وجهها وينسحب إلى شعرها. لقد كانت خدعة نظر وخدعة أضواء المسرح التى كانت شديدة التلألؤ. كان لابد أن أرتدى نظارتى الداكنة. وقفت هناك أطرف بعينى. وبعدها وعلى غير توقع انحنت الفتاة وقبلتنى على وجنتى. ومن لمس شفتيها شعرت بنسيج بشرتى: ناعمة مثل جلد قفاز طفل، متجعدة، ضعيفة هشة وهرمة.

وقد همست هى أيضًا شيئًا بدورها، ولكنى لم ألتقطه تمامًا. هل كانت كلمات بسيطة؟ أم شيئًا آخر؟ ربما هذا أو ذاك وربما كانت تتحدث بلغة أجنبية.

واستدارت الفتاة عائدة إلى مقعدها. وكان الضوء المنبعث منها شديد التلألؤ حتى إننى أغمضت عينى. لم أسمع، ولم أتمكن من الرؤية. وازداد الظلام اقترابًا. اصمت صيحات الاستحسان أذنىّ وكأنها خفقات أجنحة تخفق. ترنحت وتعثرت خطواتى وكدت أسقط. وشعرت بحركة يقظة تلتقط ذراعى فى مهارة وتعيدنى إلى مقعدى، بل تعيدنى إلى العتمة وإلى حيث تلقى لورا بظلها الغامر، بعيدًا عن الخطر.

ولكن انفتح الجرح القديم وتدفقت الدماء غير المرئية. وسرعان ما يتصفى جسدى.

الصندوق الفضى

برزت زهرات التيوليب البرتقالية متجعدة مشعثة وكأنها جندى تخلف عن جيش عائد من الحرب. حييتها ببشاشة وكأنى ألوح لها من بناية فجرتها القنابل؛ وكانت مازالت تعرف أفضل طريق لها دون مساعدة منى. أحيانًا أفتش فى أنقاض الحديقة الخلفية، أزيح السيقان الجافة والأوراق المتساقطة، وهذا أقصى ما أستطيع الوصول إليه. فلم أعد أستطيع الركوع ولا يمكننى دس يدى فى التراب.

بالأمس ذهبت إلى الطبيب بسبب نوبات الدوار التى تصيبنى. فأخبرنى بأننى أصبت بما درج الناس على تسميته بالقلب. وكأن الأصحاء ليس لديهم قلوب. يبدو أننى لن أعيش أبدًا، بل سأظل أتضاءل وأتوغل فى المشيب مثل جنية فى زجاجة. كنت منذ زمن قد أسررت فى نفسى برغبتى فى الموت، وها أنا الآن أدرك أن تلك الأمنية ستتحقق عاجلاً وليس آجلاً. ولا يهم أننى غيرت رأيى حيال ذلك.

تدثرت بشال لأجلس بالخارج يظللنى الجزء المتدلى من سقف الشرفة الخلفية، وأمامى منضدة خشبية بها بعض الندوب كنت طلبت من والتر إحضارها من الجراج. وكان عليها الأشياء المعتادة، ما تبقى من الملاك السابقين: مثل مجموعة من علب ألوان جافة، وكومة من ألواح الأسفلت، وبرطمان مملوء

بالمسامير الصدئة، ولفة من سلك تعليق الصور، وعصافير محنطة، وجحور فئران من حشو المراتب. رشها والتر بمادة الجافيكس، ولكن مازالت بها رائحة الفئران.

أمامى قدح من الشاى، ودفتر من الورق المسطور باللون الأزرق مثلما كانت منامة الرجال فى يوم من الأيام. وقد اشتريت قلمًا جديدًا أيضًا، من النوع الرخيص فهو من البلاستيك الأسود وله سن دوار. أذكر أول قلم حبر اقتنيته، وكم كان ناعم الملمس، وكيف كان الحبر الأزرق يصبغ أصابعى. كان القلم من البكالايت بزخرفة فضية. وكان ذلك عام ١٩٢٩، وكنتُ فى الثالثة عشرة. استعارت لورا ذلك القلم كما كانت تستعير كل شىء - ثم سرعان ما كسرته. سامحتها بالطبع. وكنتُ دائمًا ما أفعل؛ ولا مناص لى من ذلك، فلم يكن هناك سوانا. نحن الاثنان فوق جزيرتنا التى تحيط بها الأشواك فى انتظار الإنقاذ؛ وعلى البر يقف كل الآخرين.

لمن أكتب هذا؟ هل أكتبه لنفسى؟ لا أعتقد ذلك. فلا أتصور نفسى أقرأه فى وقت لاحق، فلقد أصبح "الوقت اللاحق أمرًا مشكوكًا فيه". ربما أكتبه ليقرأه غريب فى المستقبل بعد موتى؟ لا أملك هذا الطموح ولا يراودنى هذا الأمل.

لعلنى أكتبه كى لا يقرأه أحد. أو ربما أكتبه لمن يكتب له الأطفال عندما ينقشون أسماءهم فى الثلج.

لم أعد بنفس السرعة التى كنت عليها. فقد تصلبت أصابعى وثقلت حركاتها، وصار القلم يترنح ويتذبذب فتستغرق الكلمات وقتًا طويلاً لصياغتها. ومع ذلك عقدت العزم وانكببتُ على العمل كأننى أنسج بضوء القمر.

عندما نظرت إلى المرآة لمحت سيدة عجوزًا، أو لعلها ليست بعجوز، فلم يعد أحد يحتمل ذلك الوصف بأنه عجوز. فلنقل سيدة مسنة إذن. أحيانًا ألمح سيدة مسنة قد تبدو مثل جدتى التى لم أعرفها أبدًا، أو مثل والدتى إذا كان قد قدر لها أن تبلغ هذه السن. وفى أحيان أخرى يطالعنى وجه فتاة شابة لطالما أمضيت وقتًا

طويلاً أعيد ترتيب ملامحه وأتأملها فى حزن، وقد غاص وسبح تحت وجهى الحالى الذى يبدو شديد الترهل والشفافية حتى إنى أستطيع خلعه مثل فردة جورب، خاصة فى المساء عندما ينحرف الضوء.

يقول الطبيب إننى أحتاج إلى السير يوميًا، فذلك مفيد لقلبى. ولكنى لا أحبذ ذلك. لا تزعجنى فكرة السير، إنما أكره الخروج، إذ أشعر أننى مادة للعرض يتفرج عليها الناس. فهل الهمسات والنظرات المحدقة من نسج خيالى؟ ربما نعم وربما لا. وعلى كلٍ فأنا جزء لا يتجزأ من المكان مثل مساحة فضاء تتناثر فوقها قوالب حجرية كانت يومًا لبناء شامخ.

يغرينى المكوث بالداخل؛ فأخلد إلى نوع من العزلة يزدريها أطفال الجيرة ويرمقونها بشىء من الرعب؛ فأدع الشجيرات والأعشاب الضارة تنمو، والأبواب تصدأ مفتوحة، وأستلقى فوق فراشى فى رداء فضفاض، وأترك شعرى يطول ويفترش الوسادة وأظافرى تنمو لتصبح مثل المخالب، بينما تتساقط قطرات فوق البساط. ولكنى منذ زمن فاضلت بين الكلاسيكية والرومانسية. أفضل أن أكون مستقيمة واضحة مالكة لذاتى – حرة فى ضوء النهار.

ربما لم يكن حتميًا أن أعود للعيش هنا. ولكن فى ذلك الوقت لم أفكر فى مكان آخر أذهب إليه. وعلى حد قول رينيه "الشيطان الذى تعرفه أفضل من غيره".

بذلت اليوم بعض الجهد. فخرجتُ وتمشيتُ قليلاً. سرتُ إلى المقابر. فالمرء يحتاج هدفًا يسير إليه، وإلا أصبح الأمر مجرد جولة حمقاء. ارتديت قبعتى القش ذات الحواف العريضة لتكسر أشعة الشمس ونظارتى الشمسية، كما اصطحبتُ عصاى لأتحسس حواف الأرصفة. وكانت معى أيضًا حقيبة مشتريات بلاستيكية.

عبرت شارع إيرى، مارة بمحل للتنظيف الجاف وآخر للتصوير الفوتوغرافى، وغيرها من المحال الرئيسية فى الشارع التى استطاعت البقاء بعد مشكلة الصرف التى سببتها التجمعات التجارية المقامة عند أطراف البلدة. ومررت

بمطعم بيتى الذى تغير مالكوه مرة أخرى: فسرعان ما ينتاب الملل مالكيه، أو يموتون أو ينتقلون إلى فلوريدا. وفى فناء مطعم بيتى الآن حديقة يجلس بها السائحون فى الشمس ويتحمصون؛ إنها بالخلف فى ذلك الميدان الصغير ذى الأبنية المتشققة حيث كانت توضع أوعية القمامة. وهم يقدمون التورتيلينى والكابتشينو، ويعلنون عنهما فى نافذة العرض الخارجية وكأنما من الطبيعى أن يعرفهما سكان البلدة. إنهم يعرفونهما الآن، فلقد جربوهما حتى وإن كان ذلك لاكتساب حقوقهم فى السخرية منهما. لا أحب ذلك الزغب على قهوتى. فهو يبدو مثل زغب كريم الحلاقة. فالمرء يبتلعه ويشعر بالزبد فى فمه.

كانت شطيرة الدجاج من أفضل ما يقدمه هذا المكان، ولكنها لم تعد متاحة الآن. هناك الهمبورجر، ولكن ميرا تنصح بالابتعاد عنه. فهى تقول إنهم يستخدمون فى صناعته الفطائر المجمدة والمصنوعة من نفايات اللحم. وهى، كما تقول، ما يتناثر فوق الأرض بعد تقطيع الأبقار المجمدة بالمنشار الكهربائى. فهى تقرأ العديد من المجلات عند مصفف الشعر.

ولمنطقة المقابر بوابة حديدية، فوقها زخرفة لفيفية متشابكة تعلو مدخلها المقوس وقد نقش عليها: "مع أنى أسير فى وادى ظلال الموت، إلا أنى لا أهاب شرًا، لأنك معى."

من الصعب ألا تلمح النصب التذكارى لعائلة تشاس، فهو يفوق كل ما حوله طولاً. يعلوه ملاكان من الرخام الأبيض متقنا الصنع، يعودان إلى العصر الفيكتورى، وهما ينتصبان على قاعدة حجرية مكعبة كبيرة مزخرفة الجوانب، ويصوران مشهدًا مؤثرًا. يبدو الملاك الأول واقفًا وقد انحنت رأسه إلى أحد الجوانب فى حزن، ويضع يده فى رقة على كتف زميله الآخر. والملاك الآخر يبدو جاثيًا على ركبتيه وقد ارتكن على فخذ زميله مرسلاً نظرات شاخصة إلى الأمام، وقد احتضن باقة من الزنبق. أما جسدا الملكين فقد نحتا فى هيئة زخرفية، وأحيطت منحنياتهما بطيات من معدن ناعم غير شفاف، ويبدو أن كليهما أنثى.

وبفعل الأمطار الحمضية، غامت أعينهما الحادة وانكسرت وبدت كأن بها مياها بيضاء. أو لعل ذلك ما يراه بصرى الكليل..

اعتدت أنا ولورا زيارة هذا المكان. كانت تصحبنا رينى، إذ كانت تعتقد أن فى زيارة مقابر الأسرة بعض النفع للأطفال، ثم أصبحنا نأتى بمفردنا بعد ذلك: كنا نفعل ذلك تظاهرًا بالتقوى، ثم إنه عذر مقبول للهروب. كانت لورا فى طفولتها تقول إن الملكين يمثلاننا نحن الاثنتين. فأخبرتها أن ذلك ليس حقيقيًا، فقد وضعت جدتنا الملكين قبل مولدنا. ولكن لورا لم تهتم أبدًا بذلك التفسير المنطقى. كانت أكثر اهتمامًا بالأشكال – بالأشياء فى ذاتها، وليس بما لم تكن عليه. كانت تبحث عن الجوهر.

دأبت على مدى السنوات على الحضور إلى هذا المكان مرتين على الأقل فى العام، لأرتب الأشياء، إن لم يكن لسبب آخر. قدت السيارة بنفسى مرة، لكن لم أعد قادرة على ذلك، فقد كلَّ بصرى. انحنيت بألم وجمعت الزهور الذابلة التى تراكمت هناك، والتى تركها معجبو لورا المجهولون، وحشوتها فى حقيبة المشتريات البلاستيكية. لقد قلت زهور التحية تلك عما كانت فيما مضى، ولكنها مازالت أكثر من اللازم. اليوم كان بعضها على قدر كبير من النضارة. وبين حين وآخر كنت أعثر على بعض أعواد البخور والشموع أيضًا، وكأنما يستحضرون بها روح لورا.

بعد أن انتهيت من باقات الزهور، درتُ حول النصب التذكارى أقرأ أسماء الراحلين من عائلة تشاس المحفورة على جوانب المكعب. "بنيامين تشاس وزوجته الحبيبة أديلا؛ نورفال تشاس وزوجته الحبيبة ليليانا؛ إدجار وبيرسيفال، أولئك لن يصيبهم الهرم كما يصيبنا نحن الأحياء."

ولورا الآن فى مكان ما بجوهرها وما تبقى من نفايات اللحم.

الأسبوع الماضى حملت الصحيفة المحلية صورة لها مع مقال تفصيلى عن الجائزة – كانت الصورة المعهودة المطبوعة على غلاف الكتاب، وهى صورتها

الوحيدة المطبوعة لأنها الصورة الوحيدة التى أعطيتها لهم. كان قد تم التقاطها لها فى استديو للتصوير، وقد استدارت بجزعها عن الكاميرا ثم أدارت رأسها نحو الخلف فى تقوس خفيف للرقبة. "أفضل قليلاً، الآن انظرى إلى أعلى، جميل جدًا، دعينى أرى ابتسامتك!" شعرها الطويل أشقر، مثل شعرى آنذاك – وهو الآن فاتح يميل نحو البياض، كأنما تلاشت منه الظلال الحمراء – الحديد والنحاس وكل المعادن الصلبة. كان لها أنف مستقيم، ووجه مثلث كالقلب، عيناها واسعتان متلألئتان مفعمتان بالصدق، والحاجبان مقوسان تنحنى أطرافهما الداخلية فى تعجب. وعلى الفك مسحة من عناد لا يراها إلا من يعرف ذلك عنها. لم تستعمل مساحيق التجميل على نحو يذكر مما يمنح الوجه مظهرًا عاريًا؛ فعندما تنظر إلى الفم تدرك أنك تنظر إلى لحم حى.

جميلة حسناء؛ نقية إلى حد مذهل. تبدو كإعلان عن صابون يحمل كل المكونات الطبيعية. يبدو الوجه أصم، يحمل تعبيرات فارغة صماء، كتومة مثل من أحسن تربيتهن من فتيات ذلك الوقت. كانت صفحة بيضاء تنتظر أن يكتب عليها.

الكتاب وحده الذى خلد ذكراها الآن.

عادت لورا فى صندوق فضى ملون صغير، مثل صندوق السجائر. كنت أعلم ما تقوله البلدة عن ذلك، وكأننى كنتُ أسترق السمع. "بالطبع ليست هى، إنما رمادها. لم يفكر أحد أن تحرق عائلة تشاس موتاها، فلم يحدث هذا من قبل أبدًا، فليس من اللائق أن يتدنوا إلى فعل هذا فى أوج مجدهم، لكن يبدو أنهم مضوا فى ذلك شوطًا وأنهوا العمل، وراحوا يتبينون ما إذا كانت أحرقت تمامًا. ومازال يراودنى إحساس بأنهم شعروا بضرورة دفنها مع العائلة. فلقد أرادوها عند ذلك النصب التذكارى العملاق مع الملكين. لم يشيد غيرهم ملكين، ولكن حدث هذا عندما كان لديهم فائض من الأموال يتحرقون لإنفاقه. فأرادوا التفاخر والإنفاق دون حساب، وتولى زمام القيادة كما يقولون، فتكون لهم السطوة. ومن المؤكد أنه كان لهم ذلك فى هذا المكان يومًا."

لطالما سمعت مثل هذه الأشياء بصوت رينى. فقد كانت هى من يفسر لى ولورا ما يدور حولنا فى البلدة. ومن سواها كنا نركن إليه؟

وبالجوار خلف النصب مساحة فضاء. أراها مقعدًا محجوزًا – محجوزًا على الدوام، مثلما كان يفعل ريتشارد فى مسرح ألكسندرا الملكى. ذاك هو مكانى، فبه سأوارى الثرى.

دفنت إيمى المسكينة فى تورنتو، فى مقابر مونت بليزانت بجوار آل جريفينز _ مع ريتشارد ووينفريد حيث الصخور الضخمة المبهرجة من الجرانيت المصقول. لقد سعت وينفريد إلى ذلك – لقد أعلنت حقها فى ريتشارد وإيمى بالمساومة على الفور وطلب الأكفان. وكانت هى التى دفعت لمتعهد الجنازات وتولت الصدارة. ولو استطاعت لمنعتنى من حضور جنازتيهما.

ولكن لورا كانت الأولى بينهم التى لم تتمكن وينفريد من إتمام إجراءات خطف جثمانها بعد. فقد قلت "ستذهب إلى البيت" وكان ذلك. نثرت الرماد على الأرض واحتفظت بالصندوق الفضى. ومن حسن الحظ أننى لم أدفنها: فلو فعلت لكان قد سرقها بعض المعجبين الآن. فأولئك الناس يسرقون كل شىء. فالعام الماضى أمسكت أحدهم ومعه برطمان مربى ومعول صغير يحك به الثرى من القبر.

يراودنى التساؤل حول سابرينا – أين سينتهى بها المطاف. فهى آخر سلالتنا. أرجح أنها مازالت على قيد الحياة: فلم أسمع ما ينفى ذلك. ويبقى أن نرى مع أى من طرفى العائلة ستختار أن تدفن، أم أنها ستفصل نفسها فى ركن بعيد عنا. وإن فعلت فلن ألومها.

عندما هربت فى المرة الأولى وكان عمرها ثلاثة عشر عامًا اتصلت بى وينفريد تليفونيًا وهى فى ثورة عارمة واتهمتنى بمساعدتها وتحريضها، مع أنها لم تذهب بعيدًا حتى نعتقد أنها خطفت. كانت تريد أن تعرف ما إذا كانت سابرينا قد حضرت إلىَّ.

قلت لها: "لا أعتقد أنى مضطرة أن أخبرك"، قلتها كى أعذبها. فالعدل عدل: فقد اقتنصت هى معظم الفرص السانحة لتعذيبى. فلطالما أعادت إلىَّ ما كنت أرسله إلى سابرينا من بطاقات وخطابات وهدايا أعياد ميلاد وقد كتبت عليها "يعود إلى المرسل" بخطها الديكتاتورى الكبير. وتابعت: "على كلٍ فأنا جدتها. وبوسعها أن تأتى إلى أنّى شاءت. فهى دائمًا على الرحب والسعة."

"لست بحاجة إلى أن أذكرك أنى الوصية الشرعية عليها."

"إذا لم تكونى بحاجة أن تذكرينى فلماذا تفعلين؟"

ومع ذلك لم تأتِ سابرينا إلىَّ، وما فعلت قط. وليس من الصعب تخمين السبب. فالله وحده يعلم ماذا قالوا لها عنى. وهم بالطبع لم يقولوا خيرًا.

مصنع الأزرار

اشتدت حرارة الصيف إلى ذروتها، وسكنت فوق المدينة مثل حساء الكريمة. كان مثل الجو مشبعًا بالملاريا فى يوم من الأيام وبالكوليرا فى آخر. وأصبحت الأشجار التى أسير تحتها مظلات ذابلة، والأوراق رطبة تحت أصابعى، والكلمات التى أكتبها يكسوها الزغب مثل أحمر الشفاة على فم عجوز. وبمجرد أن صعدت السلم نبت لى شارب من حبات العرق.

لا يجب أن أسير فى مثل هذه الحرارة فهى تزيد من ضربات قلبى. لاحظت ذلك بشىء من المكر. فيجب ألا أعرض قلبى لمثل تلك الظروف خاصة بعدما علمت بقصوره؛ ولكنى وجدت متعة غريبة فى فعل ذلك، وكأننى شخص قوى قاس يزدرى ضعف طفل ينوح ويبكى.

وفى المساء كانت السماء ترعد فتسمع ارتجاجها وارتطامها عن بعد مثل إله غاضب يعربد. أنهض إلى دورة المياه، ثم أعود إلى فراشى، فأرقد أتقلب فوق الملاءات الرطبة، أنصت إلى طنين المروحة الرطيب. تقول ميرا إنه لابد من شراء

مكيف هواء، ولكنى لا أريد ولا أملك تكاليفه. فأقول لها "من سيدفع ثمنه؟" لابد أنها تظن أنى أخفى زمردة فى جبينى مثل الضفادع الجبلية فى الحكايات الخرافية.

توجهت فى سيرى اليوم إلى مصنع الأزرار، حيث نويت احتساء قهوة الصباح. لقد حذرنى الطبيب من القهوة، ولكنه فى الخمسين من عمره فحسب، يسير متهاديًا فى سرواله القصير مستعرضًا ساقيه المشعرتين. وهو لا يعرف كل شىء، مع أن ذلك سيكون خبرًا جديدًا عليه. فإن لم تقتلنى القهوة، فسيقتلنى شىء آخر.

بدت الحركة بطيئة متكاسلة فى شارع إيرى حيث السائحون، ومعظمهم فى أواسط العمر، يدسون أنوفهم فى محال الهدايا ويتجولون فى مكتبات بيع الكتب متفحصين كل التفاصيل قبل أن يقودوا سياراتهم بعد الغذاء إلى مهرجان المسرح الصيفى القريب، من أجل ساعات قليلة من الاسترخاء يشاهدون فيها نماذج من الغدر والسادية والزنا والقتل. كان بعضهم يتخذ نفس وجهتى، إلى مصنع الأزرار لاقتناء بعض التحف الصغيرة المطرزة تذكارًا لليلة إجازة قضوها فى القرن العشرين. كانت رينى تطلق لفظ "جامعى النفايات" على مثل هذه الأشياء. وكانت تستخدم نفس التعبير لوصف السائحين أنفسهم.

سرت بصحبتهم إلى حيث ينحرف شارع إيرى إلى شارع ميل ويمتد عبر نهر اللوفتوا Loveteau. ففى بلدة بورت تيكونديروجوا Port Ticondroga نهران: الجوج Jogues واللوفتوا – والاسمان من بقايا أعمال التجارة الفرنسية التى أقيمت يومًا عند التقاء النهرين، وليس لأننا نحبذ استخدام الفرنسية فى هذه الأماكن: فنحن نطلق عليهما "الجوجز" Jogs و"لوفتو" "Lovetow". وقد جذب نهر اللوفتوا بتياراته الهادئة الطواحين الأولى وبعدها محطات توليد الكهرباء. ومن ناحية أخرى فنهر الجوج عميق وبطىء الجريان يصلح للملاحة مسافة ثلاثين ميلاً فوق بحيرة إيرى. وعبره كان ينقل الحجر الجيرى الذى كان الصناعة الأولى فى البلدة بفضل كثرة رواسبه المتخلفة عن تراجع البحار الداخلية. ومن هذا الحجر الجيرى بنيت معظم بيوت البلدة بما فيها منزلى.

ومازالت المحاجر المهجورة باقية عند ضواحى المدينة، وهى مربعات ومستطيلات عميقة محفورة فى الصخور وكأن بنايات كاملة نزعت منها تاركة أشكالها المفرغة وراءها. أحياناً أخال البلدة كلها تنهض من المحيط ما قبل التاريخى الضحل، تنتشر وتتفتح مثل حيوان شقيق البحر أو أصابع قفاز مطاطى عندما تنفخ فيه – تنتشر مرتجة مثل زهرات تتفتح فى أفلام الأبيض والأسود التى كانت تعرض فى ساحات السينما قبل العرض الأساسى. ينقب صائدو الحفريات فى المكان بحثًا عن أسماك منقرضة، نباتات قديمة، ولفائف من الشعب المرجانية، وإذا أراد المراهقون أن يمارسوا صخبهم ومجونهم فإلى هنا يأتون. فهم يوقدون النيران فى الهواء الطلق ويسرفون فى الشراب ويدخنون المخدرات ويتحسسون ملابس بعضهم بعضًا وكأنهم اخترعوها لتوهم ويحطمون سيارات آبائهم فى طريق عودتهم إلى المدينة.

تجاور حديقتى الخلفية نهر لفتوا جورج، حيث يضيق النهر ثم ينحدر. وانحداره شديد مما يسبب شيئًا من الرعب. فى العطلات الصيفية، يتمشى السائحون فى الطريق المجاور للجرف، أو يقفون عند الحافة ذاتها يلتقطون الصور. أرى قبعاتهم القماشية المزعجة وهم يسيرون. الجرف متصدع وخطر، ولكن البلدية لا تدفع من أجل إقامة سياج، فيبدو أنه مازال الرأى هنا أن من يأتى فعلاً أحمق يتحمل عواقبه. تنجرف الأقداح الكرتونية التى يلقيها محل المخبوزات بفعل التيار وتتجمع بالأسفل، ومن وقت لآخر تظهر جثة لشخص ما سواء دفعه أحد أو قفز هو، فمن الصعب معرفة الحقيقة إلا إذا كانت هناك بالطبع لافتة مكتوبة بذلك.

مصنع الأزرار على الضفة الشرقية من اللفتوا، على بعد ربع ميل من بداية نهر الجـوج. ظل المكان مهجورًا لبضعة عقود، محطم النوافذ يرشح سطحه بالماء، وترتع فيه الفئران ويتسكع السكارى؛ ثم أنقذته لجنة المواطنين النشطة من الخراب فحولته إلى مجموعة من البوتيكات. فأعادت إنشاء أحواض الزهور

وأزالت آثار عوادى الدهر وتخريب الماضى، وإن بقيت خطوط قاتمة من السخام تحيط بالنوافذ السفلى من أثر الحريق الذى نشب به منذ ستين عامًا.

يتخذ المبنى اللون الأحمر الطوبى المائل إلى البنى ونوافذه مسيجة كما كان مألوفًا آنذاك فى المصانع لزيادة الإضاءة. بتلك الهيئة بدا المصنع بالغ الهيبة كما يجب أن تكون المصانع: تزينه نقوش إكليلية يتوسط كل منها هرة حجرية، ونوافذ مثلثة على طراز الجملون، وسقوف مزدوجة الانحدار على طراز الجملون أيضًا من الأردواز الأخضر والقرمزى. ذلك إضافة إلى ساحة منظمة لصف السيارات، ترتفع عليها لافتة تقول: "مرحبًا بزائرى مصنع الأزرار" بأسلوب الكتابة الدائرى القديم، وأسفلها كتبت بحروف أصغر عبارة تقول: "ممنوع انتظار السيارات بالليل". وأسفل تلك اللافتة عبارة كتبت بخط غاضب سريع وبقلم أسود سميك تقول "أنت لست بإله والأرض ليست ممرًا خاصًا لسيارتك". إنها اللمسة المحلية الأصيلة.

وقد تم توسيع المدخل، وأضيف ممر منحدر للمقاعد المتحركة، واستبدلت الأبواب الثقيلة الأصلية بأخرى زجاجية: تضغط نحو الخارج وتسحب نحو الداخل على الطراز المستخدم فى أكبر مبانى القرن العشرين. وفى الداخل تصدح الموسيقى فتسمع مقطوعات ريفية للكمان وبعض من مقطوعات الفالس الرشيقة بالغة الحزن. وهناك كوة علوية يسقط منها الضوء الخارجى على مساحة فضاء مركزية مبلطة بحصى رصف اصطناعى بها مقاعد من ذلك النوع الموجود فى الحدائق وقد طليت حديثًا باللون الأخضر، ومناطق مزروعة بها بضع شجيرات حزينة. تحيط البوتيكات بتلك المنطقة فى شكل من أشكال التجمعات التجارية.

وقد زينت الأسوار الحجرية العارية بنسخ مكبرة من صور قديمة من أرشيف البلدة. ويتصدر ذلك اقتباس من إحدى الجرائد التى تصدر فى مونتريال وليس فى بلدتنا، يعود تاريخه إلى ١٨٩٩:

"هنا لا يعود المرء بخياله إلى الطواحين الشياطينية فى إنجلترا القديمة. فمصانع بورت تيكونديروجوا Ticonderroga تقع وسط مساحات خضراء ممتدة تتلألأ فيها الأزهار المبهجة، وتنساب فيها أصوات تيارات النهر المتدفقة؛ وهى نظيفة وجيدة التهوية يتسم العاملون فيها بالبهجة والكفاءة. وإذ يقف المرء ساعة

الغروب فوق جسر جوبيلى Jubilee Bridge المهيب الجديد الذى ينحنى مثل قوس قزح الموشى بالحديد المطروق فوق شلالات نهر اللفتوا المتدفقة، يلمح أرضًا ذات جمال أسطورى ساحر حيث تسطع أضواء مصنع تشاس للأزرار وتنعكس فوق صفحة المياه المتلألئة."

لم تشِ تلك العبارة بكثير من الكذب وقت كتابتها. فعلى الأقل ساد المكان الرخاء لبعض الوقت وكان هناك فائض من المال للإنفاق ببذخ.

وبعد ذلك تأتى صورة جدى فى معطف قصير وقبعة طويلة وشوارب بيضاء، ينتظر فى هيبة علية القوم آنذاك للترحيب بدوق يورك أثناء رحلته عبر كندا عام ١٩٠١. وبعده صورة والدى يحمل إكليلاً من الزهور أمام نصب الحرب التذكارى أثناء تكريمه – وقد بدا فارع القامة مهيب الملامح له شارب ويضع عصابة على إحدى عينيه؛ وفى مكان قريب بالأعلى تبدو مجموعة من النقاط السوداء. كنت أتراجع مبتعدة عنه لأرى ما إن كان سيظهر فى بؤرة الصورة – كنت أحاول أن أمسك بعينه السليمة – ولكنه لم ينظر إلىَّ، فقد كان يتطلع نحو الأفق بقامة مستقيمة وكتفين مشدودين إلىَّ الوراء، وكأنما يواجه فرقة عسكرية تطلق الرصاص. يشى مظهره بأنه مقاتل صنديد.

وتلى ذلك لقطة لمصنع الأزرارنفسه عام ١٩١١ كما يقول التعليق! تبدو فيها الآلات بمقابضها الثقيلة الصاخبة مثل قوائم حصادة الحشائش، وقوائمها المعدنية وعجلاتها المسننة ومكابسها التى ترتفع وتهبط لتحفر الأشكال، وتبدو أيضًا المناضد الطويلة يصطف حولها صفوف من العمال ينحنون إلى الأمام مشتغلين بشىء فى أيديهم. الآلات يديرها الرجال وقد بدوا فى قمصانهم مشمرة الأكمام وواقى الإبصار على عيونهم. أما الملتفون حول المناضد فمن النساء العاملات وقد بدون فى مآزرهن جامعات شعورهن إلى أعلى. فالعاملات من النساء يقمن بعد الأزرار ووضعها فى الصناديق أو تثبيتها على قصاصات من الورق المقوى طبع عليها اسم مصنع تشاس، تحمل كل منها ثمانى وحدات أو اثنتى عشرة.

وفى الأسفل عند نهاية المساحة الفضاء المبلطة بالحصى مكان للمشروبات يطلق عليه ساحة إينشيلادا Enchilada تعزف فيه الموسيقى أيام السبت وتقدم البيرة من أجود الأنواع المحلية. ويقوم تصميم المكان على المناضد الخشبية المرتفعة المقامة فوق ما يشبه البراميل وقد اصطفت بجوار بعضها البعض يفصل بينها حواجز من خشب الصنوبر فى تصميم يعود إلى الماضى. وتشمل قائمة الطعام المعلقة فى لوحة العرض أنواعًا تبدو غريبة لى. وهى، كما أخبرتنى ميرا، من المواد المشبعة بالدهون التى يفضلها الشباب من الطبقات الدنيا. فلقد اتخذت مقعدًا مستديرًا بجوار المدخل، فلا يفوتها حماقة يرتكبها أحد فى المكان. فهى تقول إن القوادين ومروجى المخدرات يذهبون لتناول الطعام بالمكان فى وضح النهار. وقد همست لى فى رعب وهى تشير إليهم. كان القواد يرتدى بذلة من ثلاث قطع ويبدو مثل سمسار البورصة، أما مروج المخدرات فله شارب أشيب ويرتدى بزة من قماش قطنى خشن مثل زعماء النقابات فى الماضى.

أما محل ميرا فهو جينجر برد هاوس Gingerbread House تبيع فيه المقتنيات والهدايا. تفوح منه رائحة حلوة نفاذة – نوع من رائحة القرفة التى ترش فى المنازل. يضم المحل أشياء عديدة مثل برطمانات المربى ووسادات على شكل قلب محشوة بنباتات حلوة الرائحة، صناديق معلقة فى غير ترتيب عليها نقوش حفرها حرفيون تقليديون، ألحفة منسوجة بخيوط المنونيت Mennonites، فرش تنظيف للمراحيض رؤوسها على شكل بط. ولميرا رأى خاص فيما يتصوره سكان المدينة عن حياة الريف، حياة أجدادهم الذين عاشوا فى قاع المدينة وأتوا من أصول ريفية – إنها جزء من التاريخ يحمله المرء معه. لم يكن التاريخ يومًا، حسبما أذكر، على مثل هذا النحو الأخاذ، خاصة أنه لم يكن بمثل هذه البراءة والخلو من المنغصات، ولكن الواقع لا يجد له سوقًا أبدًا، فيفضل معظم الناس ماضيًا لا تفوح منه رائحة.

تحب ميرا منحى هدايا من مقتنياتها الخاصة؛ أو تغرقنى بما لا يقبل عليه الزبائن فى محلها. فلدى إكليل من الأغصان المشذبة، ومجموعة غير كاملة من

حمالات خشبية للفوط مرسوم عليها فاكهة الأناناس، وشمعة غليظة تفوح منها رائحة مثل الكيروسين. وفى عيد ميلادى منحتنى زوجًا من قفازات الفرن على شكل مخالب سرطان البحر. إنى على يقين من حسن نواياها.

أو لعلها تلين جانبى، فهى مسيحية، وتريدنى أن أجد طريقى إلى الرب، أو يجدنى هو، قبل فوات الأوان. فمثل هذه الأمور لا تحدث فى عائلتها: فوالدتها رينى لم تقبل كثيرًا على الله. كان بينهما احترام متبادل، وإذا وقعت فى ضيق فهى بالطبع تلجأ إليه، كما يلجأ المرء إلى محامٍ؛ ولكن كما يحدث مع المحامين قد يؤدى الأمر إلى ضيق أكبر. وفيما عدا ذلك لم تبذل جهدًا للاقتراب منه أكثر. إنها بالطبع لا تريده فى مطبخها فهى كثيرة الانشغال، كما كان الأمر دائمًا.

بعد بعض المشاورات اشتريت من محل جرملين للكعك كعكة من الشوفان ورقائق الشكولاتة وقدح ستيروفوم Styrofoam من القهوة، وجلست على أحد مقاعد الحديقة، أرشف وألعق أصابعى، أريح قدمى، وأسمع الموسيقى المسجلة بألحانها المرحة والشجية.

كان جدى بينيامين هو الذى شيد مصنع الأزرار فى بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر. كانت هناك حاجة للأزرار، كما كانت هناك حاجة للملابس وما يتعلق بها؛ فقد كان سكان العالم يتزايدون بنسبة كبيرة – وكان يمكن صناعة الأزرار بتكاليف بسيطة وبيعها بأسعار رخيصة، وذلك (كما قالت رينى) كان جواز مرور لجدى، الذى رأى الفرصة سانحة وأعمل العقل الذى وهبه له الله.

نزح أسلافه من بنسلفانيا فى العشرينيات من القرن التاسع عشر للاستفادة من رخص الأراضى وفرص البناء، فالبلدة كانت قد احترقت عن آخرها أثناء حرب ١٨١٢ وكان لابد من كثير من أعمال البناء. جاء هؤلاء الناس من أصول جيرمانية وطائفية مهجنة مع الجيل السابع من البيوريتانيين – وهو خليط دءوب ومتحمس نتج عنه ثلاثة أجيال من الفرسان، وجيلان من مضاربى الأوراق المالية عديمى الخبرة وواحد من المختلسين التافهين – وهم من قناصى الفرص ذوى الخيال مع الاحتفاظ بعين على الواقع – ذلك بالإضافة إلى الجمع المعتاد من المزارعين المصابرين. كان

جدى يرى أن ما حدث نوع من المقامرة مع أن الشيء الوحيد الذى قامر عليه كان هو نفسه.

كان والده يمتلك طاحونة حديثة للحبوب، فى وقت كان كل شيء يدار بالماء، فكانت واحدة من أولى الطواحين فى بورت تيكوندروجو. وعندما وافته المنية بالسكتة الدماغية كان جدى فى السادسة والعشرين. فورث الطاحونة، واقترض بعض النقود واستورد آلات صناعة الأزرار من الولايات المتحدة. صنعت الأزرار فى البداية من الخشب والعظم، أما الأنواع الأكثر رفاهية فكانت تصنع من قرون الأبقار. كانوا يحصلون على العظام من عدد من المجازر، المجاورة أما الأخشاب فكانت ملقاة حول المكان تسد الطرق مما يضطر الناس إلى حرقها للتخلص منها. فكيف لا يحقق ازدهارًا مع رخص العمالة والمواد الخام واتساع السوق؟

لم تكن الأزرار التى تنتجها شركة جدى من النوع الذى تفضله فتاة مثلى. فليس بينها ما هو مصنوع من حبات اللؤلؤ الصغيرة، أو المكبوس برقة ومغطى بالجلد الأبيض لقفازات السيدات. ولكنها من النوع الذى يفى بغرض القفل وحسب، مثلما يقى الغطاء المطاطى الخارجى للأحذية القدم، أزرار عملية قوية بلا حس جمالى، تصلح للمعاطف وعفريتة العمال وقمصان العمل. يمكن تخيلها على الملابس الداخلية الطويلة لغلق حواشى فتحة الظهر، وعلى فتحة سراويل الرجال. إنها تخفى أشياء حساسة مخجلة – ذلك النوع من الأشياء الذى لا يملك العالم سوى احتقارها.

كم يشق على المرء أن يتصور أن السحر الخاص الذى أحاط بحفيدات رجل يصنع مثل تلك الأزرار، لم يكن لشيء سوى المال. ولكن المال أو انتشار الشائعات باقتنائه يلقى بضوء له بريق خاص، ولذلك نشأت أنا ولورا تحيط بنا هالة خاصة. ولم ير أحد فى بورت تيكونديروجو أن الأزرار التى تصنعها العائلة تبعث على السخرية والازدراء. كانوا يأخذون الأزرار مأخذ الجد: فكثير من الناس يعتمدون عليها فى وظائفهم.

وعلى مدى الزمن اشترى جدى طواحين أخرى وحولها إلى مصانع أيضًا. فكان لديه مصنع للتريكو لصناعة القمصان والفانلات الداخلية، وآخر للجوارب وثالث للصناعات الخزفية الصغيرة مثل منافض السجائر. وكان فخورًا بأحوال مصانعه: فكان يستمع إلى الشكاوى إذا تشجع أحد على بثها، ويأسف للإصابات عند علمه بها. وكان يواصل التحديث التقنى فى مصانعه فى شتى المجالات. فهو أول صاحب مصنع فى البلدة يدخل الضوء الكهربى. وكان يدرك أهمية أحواض الزهور فى رفع الروح المعنوية لدى العمال - فأكثر من زهور الزنيا وأنف العجل، فهى ليست مكلفة ولكنها جميلة المنظر وتعيش طويلاً. وكان يعلن أن أحوال النساء العاملات فى مصانعه على نفس القدر من الأمان وكأنهن فى غرف الجلوس بمنازلهن. (كان يسلم بأن لديهن غرفًا للجلوس وأنها آمنة. فكان يحب أن يحسن الظن بالناس جميعًا.) كان يرفض التسامح مع احتساء الخمور أثناء العمل، أو تبادل الألفاظ النابية أو السلوك الخليع.

أو هذا ما كتب عنه فى كتاب "تاريخ صناعات آل تشاس " The Chase Industries: A History وهو كتاب وضعه جدى عام ١٩٠٣ وطبعه على نفقته الخاصة فى غلاف جلدى أخضر نقش عليه بحروف ذهبية بارزة العنوان وتوقيع جدى بخط واضح ثقيل. وقد اعتاد على إهداء نسخ من هذا السفر التاريخى غير المجدى لشركائه فى العمل، الذين لابد وأن أدهشهم هذا العمل، أو ربما لم يدهشهم. فلابد وأنه كان عملاً مقبولاً اجتماعيًا، لأنه لو لم يكن كذلك ما سمحت له جدتى أديلا بكتابته.

جلست على مقعد الحديقة أقضم كعكتى. لقد كانت ضخمة مثل روث بقرة، كما أنهم يعدونها هذه الأيام كثيرة الدهن عديمة الطعم - يبدو أننى لن أكملها. فهى لم تكن الاختيار الصائب فى مثل هذا الجو الدافئ. شعرت أيضًا ببعض الغثيان ربما بسبب القهوة.

وضعت القدح بجانبى وانزلقت عصاى من فوق المقعد مقعقعة على الأرض. انحنيت جانبًا ولكن لم أستطع التقاطها، ثم فقدت توازنى وأطحت بقدح

القهوة. شعرت بها فاترة تتسلل من قماش تنورتى. وظهرت بقعة بنية عندما وقفت، وكأننى مصابة بسلس الغائط؛ هذا ما سيظنه الناس. لماذا نفترض فى مثل تلك اللحظات أن الناس جميعًا يحملقون فينا؟ عادة لم يفعل أحد ذلك؛ ولكن ميرا كانت تفعل. لابد أنها رأتنى قادمة؛ ولابد أنها كانت تراقبنى. فلقد خرجت مسرعة من محلها. وقالت "تبدين مثل البفتة البيضاء! تعالى، ادخلى. ولننظف ذلك أولاً! باركك الله، هل سرت كل هذه المسافة إلى هنا؟ لا يمكنك العودة سيرًا! فالأفضل أن أتصل بوالتر حتى يسرع بك إلى المنزل."

قلت لها: "أستطيع تولى الأمر. ليس بى مكروه. ولكنى تركتها تفعل.

أفيليـــون

أخذت عظامى تؤلمنى مرة أخرى، كما يحدث دائمًا فى الجو الرطب. إنها تؤلمنى مثل التاريخ: أشياء انتهيت منها من زمن لا يزال يتردد صداها مثل الألم. عندما يشتد الألم يحرمنى النوم. كل ليلة أتوق للنوم، أصارع من أجله، ولكنه يرفرف فوق رأسى مثل ستارة حالكة السواد. هناك الأقراص المنومة بالطبع، ولكن الطبيب حذرنى منها.

بالأمس وبعد ما عانيت ساعات طويلة من الاضطراب المحبط، نهضت، وتسللت حافية هابطة السلم، أتحسس طريقى فى الضوء الخافت المتسلل من مصابيح الشارع عبر نافذة بئر السلم. وبمجرد أن وصلت سالمة إلى أسفل، سرت متهدجة نحو المطبخ، ورحت أفتش فى الثلاجة. لم يكن بها الكثير مما أرغب فى تناوله: بقايا حزمة كرفس متسخة، وبقايا خبز حال لونه إلى الزرقة، وليمونة عطبة. وكان بها أيضًا بقايا جبن جاف مثل أظافر أصابع القدم ملفوف فى ورقة مدهنة. فلقد تعودت الوحدة، وصارت وجباتى خاطفة ونادرة. وجبات سريعة مستترة، أو وجبة لذيذة أحبها أو أخرى فى الهواء الطلق. اكتفيت ببعض زبد الفول السودانى، اغترفتها مباشرة بسبابتى من البرطمان: فلماذا ألوث ملعقة؟

وبينما كنت أقف هناك أحمل البرطمان فى يد وأصبعى فى فمى، انتابنى شعور بأن أحدًا سيدخل – امرأة أخرى، هى المالكة الشرعية الخفية – وستسألنى ماذا أفعل فى مطبخها؟ انتابنى ذلك الإحساس من قبل حتى أثناء عاداتى اليومية المألوفة – كأن أقشر موزة أو أفرش أسنانى– فدائمًا هناك من يتطفل علىَّ.

فى الليل شعرت أكثر بأننى فى منزل غريب. تجولت فى الحجرات الخارجية، حجرة الطعام، وحجرة الجلوس ويدى على الحائط لأحتفظ بتوازنى. كانت مقتنياتى العديدة تسبح فى بحيرات خاصة من الظلال منفصلة عنى تمامًا منكرة ملكيتى لها. تفحصتها بعينى لص، أقول ماذا تساوى مغامرة السرقة، فماذا سأترك ورائى. يسطو اللصوص على الأشياء الواضحة – مثل إبريق الشاى الفضى الذى كان يخص جدتى، وربما طقم الصينى ذو الرسوم اليدوية. وتبقى الملاعق الموشاة بالحروف الأولى من الاسم، وجهاز التلفاز. فلا أريد شيئًا منها فى الواقع.

فكل هذه الأشياء سيتخلص منها شخص أو آخر عند موتى. لا شك أن ميرا ستتولى الأمر، فهى تظن أنها ورثتنى من رينى. ويسعدها أن تقوم بدور الخادم الأمين للأسرة. لا أحسدها: فما الحياة إلا كومة من النفايات حتى عندما يعيشها المرء، وتزداد تفاهتها بعد الموت. ولكن إذا كانت كومة من النفايات فهى بالغة الصغر؛ فعندما تنظف المكان بعد المتوفى، تعرف كم هى قليلة أكياس القمامة الخضراء التى تشغلها أنت نفسك بدورك.

كسارة البندق على هيئة تمساح، والمشط على هيئة ضفضدعة ذات الأسنان المكسورة. والقداحة الفضية المكورة والفنجان بلا طبق، ووعاء التوابل الخالى. أوصال المنزل المتناثرة، الأسمال والبقايا. وأيضًا شقفة الخزف التى دفعتها الأمواج نحو الشاطئ من سفينة غارقة.

اليوم أقنعتنى ميرا بشراء مروحة كهربائية، من ذلك النوع المحمول على عمود طويل، أفضل من ذلك الشىء الصغير ذى الصرير الذى أعتمد عليه. أما النوع الذى تفكر فيه فكان معروضًا بتخفيض فى المجمع التجارى الجديد المقام عبر جسر نهر جوج Jogues River. قالت إنها ستوصلنى بسيارتها إلى هناك،

فهى ذاهبة على أى حال ولن يزعجها الأمر. إن طريقتها فى تعليل الأمور تبعث على الإحباط.

سرنا عبر أفيليون، أو ما كانت يومًا أفيليون، ولكنها الآن اختلفت اختلافًا يبعث على الحزن. أصبح اسمها الآن فالهالا. كم هو أبله بيوقراطى من اختار هذا الاسم لمدينة تحمل تراثًا قديمًا. فحسبما أذكر فإن "فالهالا" كانت حيث يذهب المرء بعد الموت وليس قبله. ولكن لعلهم يقصدون شيئًا من ذلك.

تحتل المدينة موقعًا متميزًا على الضفة الشرقية لنهر لوفيتوا عند التقائه بالجوج، وبذلك تجمع بين مشهد رومانسى للجوج وكونها مرفأ آمنا للمراكب الشراعية. يتميز المجمع التجارى بالضخامة ولكنه يبدو مزدحمًا فى تلك الساعة، وتحيط بأحد جوانبه منازل واهية ذات طابق واحد أقيمت وقت الحرب. كانت ثلاث سيدات مسنات يجلسن على العتبة الخارجية، إحداهن على كرسى متحرك تدخن بشراهة، مثلما تفعل المراهقات المشاغبات فى الحمامات. لابد أنهن سيتسببن فى إحراق المكان يومًا.

لم أدخل أفيليون منذ أن تغيرت؛ لابد أنها تفوح منها رائحة البول الحامض والبطاطس المسلوقة منذ يوم مضى. أذكر ما كانت عليه فى الماضى، فى الوقت الذى عرفتها فيه عندما كانت تمتلئ بكل ما هو رث وقديم – الردهات الواسعة الباردة والمطبخ الواسع المصقول والوعاء الصينى من سيفر الممتلئ بالزهور المجففة على منضدة خشبية صغيرة مستديرة فى الردهة الرئيسية. وبالطابق الأعلى فى حجرة لورا جذاذة من رف المدفأة، التى أسقطت منها أحد أعمدة حرق الخشب. أنا وحدى من يعلم ذلك. فمن حيث الشكل الخارجى يراها الناس رقيقة إذ ينظرون إلى بشرتها المشرقة وعنقها الذى يشبه عنق راقصات الباليه.

لم تُبن المدينة على الطراز المعهود للبناء بالحجر الجيرى. فلقد أراد بناءوها شيئًا غير معتاد، ومن ثم تم تشييدها من حصى رصف الشوارع المستدير بإلصاق وحداته معًا. يبدو المنظر للمشاهد عن بعد مثل جلد الديناصور أو آبار الأمنيات فى الكتب المصورة.

لم يكن منزلاً يتمتع بأناقة خاصة، فقد كان يراه بعض الناس مفروضًا على المكان - قصرًا لتاجر يؤدى إليه ممر للسيارات، وبرجًا صغيرًا على الطراز القوطى، وتراسًا واسعًا مستديرًا يطل على النهرين حيث كان يقدم الشاى للسيدات ذوات القبعات المزينة بالورود فى أمسيات الصيف الهادئة فى نهاية القرن. وهناك كانت تقام رباعيات العزف الموسيقى على الآلات الوترية، فقد كانت جدتى وصديقاتها يستخدمن هذا التراس كمسرح للهواة من الممثلين فى المساء حيث تحيط بهن المصابيح؛ وكثيرًا ما كنت أختبئ تحتها أنا ولورا. بدأ هذا التراس ينهار الآن ويحتاج إلى بعض أعمال الترميم والطلاء.

فى يوم من الأيام كان بالمكان تعريشة وحديقة مسورة للمطبخ؛ بها أحواض لنباتات الزينة وبركة صغيرة لنبات الزنبق وأسماك الزينة ودفيئة زجاجية، تلاشت الآن، كان ينمو بها نبات السرخس والليمون الطويل والنارنج. وكان هناك أيضًا حجرة للعب البلياردو وأخرى للاستقبال وثانية للاستقبال النهارى (المعيشة) ومكتبة بها تمثال للميدوزا اليونانية فوق المدفأة من طراز القرن التاسع عشر بنظرتها الجميلة المتحجرة، والثعابين تزحف خارجة منها، رؤوسها مثل الأفكار المعذبة. أما رف المدفأة فمن الطراز الفرنسى، وكان قد تم طلب قطعة أخرى عليها تمثال الإله الإغريقى دينوسيوس وعناقيد العنب، ولكن جاءتنا الميدوزا بدلاً منه، وحيث إن فرنسا كانت على مسافة بعيدة جدًا فلم يمكننا إعادتها.

وكان بالمنزل أيضًا حجرة طعام فسيحة قليلة الإضاءة جدرانها مغطاة بورق حائط من طراز وليام موريس، وثريا مضفرة بزهور زنبق برونزية، وبها ثلاث نوافذ عالية ذات زجاج معشق، تم شحنه من إنجلترا عن طريق البحر وقد رسمت عليه مشاهد من قصة تريستان وإسيولت Tristan and Iseult (جرعة الحب المقدمة فى كأس من الياقوت الأحمر، حيث الحبيب تريستان جاثيًا على إحدى ركبتيه، وإسيوليت تنحنى تجاهه بشعرها الأشقر المسترسل - وهو مشهد صعب تصويره على الزجاج؛ وفى مشهد آخر تظهر إسيوليت وحدها حزينة فى ثوب قرمزى وبجوارها آلة الهرب).

أشرفت جدتى أديلا على تصميم هذا المنزل ووضع ديكوراته. مع أنها قد توفيت قبل مولدى، إلا أنه مما سمعته عنها أنها كانت فى نعومة الحرير وبرودة الثلج، ولكن إرادتها حادة كالسيف. وكانت تهتم بالثقافة، مما منحها قدرًا مميزًا من السلطة الأخلاقية. لا يحدث هذا الآن، ولكن ساد الاعتقاد وقتها أن الثقافة تصقل شخصية المرء، فبوسعها أن ترفع مكانته، أو هكذا كانت تعتقد النساء. فلم يكن الناس فى ذلك الوقت قد شاهدوا هتلر فى قاعة الأوبرا.

كان اسم أديلا قبل الزواج مونتفورت. وكانت من عائلة ميسورة، أو ما كان يمكن اعتباره كذلك فى كندا. فهى من الجيل الثانى من الإنجليز المقيمين فى مونتريال مع بعض الأصول الفرنسية. كانت عائلة مونتفورد ميسورة فقد شيدت عددًا من السكك الحديدية؛ ولكن بسبب المغامرة فى المضاربات المالية والركود كانت الأسرة فى طريقها نحو الانهيار. ومن ثم عندما أوشكت أديلا أن يفوتها قطار الزواج دون أن يلوح فى الأفق العريس المناسب، تزوجت النقود – تلك النقود السائلة والمستثمرة فى الأزرار. وكان من المتوقع أن تكرر هى هذه النقود وتنقيها مثلما يكرر البترول.

(قالت رينى وهى تبسط عجينة كعكة الجنزبيل "إنها لم تتزوج إنما زوجوها". فقد رتبت الأسرة لهذا الزواج. وهو ما كان شائعًا بين العائلات فى ذلك الوقت، فهل هذا أفضل أو أسوأ من أن يختار المرء لنفسه لأمر تصعب الإجابة عليه. وعلى كلٍ فقد أدت أديلا مونتفورت واجبها، ومن حسن حظها أن واتتها تلك الفرصة، فقد كبر سنها فى ذلك الوقت – فلابد أنها كانت فى الثالثة والعشرين، وهى سن كبيرة بمقاييس ذلك الزمان)

مازلت أحتفظ بصورة فوتوغرافية لجدى وجدتى، مؤطرة فى إطار فضى وكانت التقطت لهما بعد زفافهما مباشرة. تظهر فى الخلفية ستارة بنفسجية ذات حاشية خارجية مطرزة وإصيصان من نبات السرخس على حامل. كانت جدتى أديلا تتكئ على عربة صغيرة، امرأة بهية الطلعة ممتلئة القوام، تبدو فى ثوب متعدد الطيات يزينه خطان طويلان من اللؤلؤ يمتدان إلى فتحة الصدر، ويبدو

ساعداها ناصعى البياض وكأنما نزعت عظامهما مثل الدجاج الملفوف. وفى الصورة يظهر جدى بنيامين بجانبها فى زيه الرسمى تبدو على هيئته عظمة الثراء، وعلى ملامحه بعض الارتباك، وكأنما اتخذ كامل زينته من أجل الصورة. وفى اللقطة بدا الاثنان مشدودى القوام.

عندما بلغت السن المناسبة – بين الثالثة والرابعة عشرة – كنت أنظر إلى أديلا برومانسية. فأتطلع من نافذتى ليلاً إلى القمر والمروج، فأرى أحواض نباتات الزينة وقد اكتست باللون الفضى، وأراها تتنزه فى الحديقة الممتدة فى ردائها الأبيض المطرز شاردة مع أفكارها. أضفيت عليها ابتسامة خفيفة يشوبها بعض السخرية. وسرعان ما أضفت حبيبًا ستقابله خارج منطقة المستنبت الدافئ، الذى كان مهجورًا آنذاك حيث إن والدى لم يكن يرغب فى زراعة أشجار النارنج المدفأة بالبخار، ولكنى أعدت رسمها فى خيالى وزودتها بزهور منزلية دافئة، مثل الأوركيد والكامليا. (لم أكن أعرف ما هى زهور الكامليا ولكنى قرأت عنها). ستختفى جدتى وحبيبها داخل ذلك المستنبت الزجاجى، لكن ماذا يفعلان؟ لا أدرى.

فى الحقيقة كانت فرص أديلا لاتخاذ حبيب منعدمة. فالبلدة متناهية الصغر تسود فيها المعايير الأخلاقية القروية، وهى ليست بحمقاء وأبعد ما تكون عن السقوط. ناهيك عن أنها لا تملك مالاً خاصًا بها.

أجادت أديلا فى إدارة المنزل والقيام بواجبات الضيافة. وكانت تفخر بذوقها ويذعن جدى لرأيها فى هذا الصدد، فذوقها الرفيع أحد الأمور التى تزوجها من أجلها. كان فى الأربعين من عمره آنذاك، اجتهد فى جمع ثروته ومن ثم أراد الحصول على ما يساوى قيمة أمواله، ويعنى ذلك أن يترك عروسه الجديدة تتولى شئون ملابسه وتهذب سلوكيات المائدة لديه. وبطريقته الخاصة كان أيضًا يريد الثقافة، أو على الأقل دلالاتها الملموسة. فقد أراد طقم الصينى الأصلى.

لقد حصل عليه ومعه آداب الطعام الاثنا عشر التى تأتى معه: الكرفس والجوز المملح أولاً، والحلوى فى النهاية. وأصناف طعام أظنها تقدم فى الفنادق الآن. زار رؤساء الوزارات بورت تيكونديروجا، فقد كانت البلدة فى ذلك الوقت تضم العديد من رجال الصناعة البارزين ممن يقدر تأييدهم للأحزاب السياسية،

وكانت أفيليون مقر إقامتهم. ومعلق بحجرة المكتبة ثلاث صور مؤطرة بالذهب لجدى بنيامين مع ثلاثة من رؤساء الوزارة على التوالى، وهم سير جون سبارو تومسون وسير ماكنزى باول وسير تشارلز تبر. فلابد أنهم كانوا يفضلون الطعام هناك عما يقدم سواه. كانت مهمة أديلا أن تعد لحفلات العشاء وتطلب الطعام، وبعدها تتجنب أن يروها تتطلع إليهم. فقد كانت تقتضى العادة أن تأكل ببطء وسط الناس: فالمضغ والبلع سلوك جسدى وقح. ولابد أن ترسل إليها مائدة خاصة فى حجرتها بعد ذلك حيث تأكل بأصابعها العشرة.

اكتملت بلدة أفيليون عام ١٨٨٩. وكانت أديلا من أطلقت عليها هذا الاسم. وقد اقتبسته من قصيدة للشاعر تنيسون يقول فيها:

وادى جزيرة أفيليون

حيث لا يسقط برد أو مطر أو ثلج

ولا تهب رياح عاتية أبدًا؛ ولكنها تقع

فى مروج سعيدة تنعم ببساتين الفاكهة

وتجويفات معرشة يتوجها بحر الصيف

وقد طبعت هذا الاقتباس على الجانب الأيسر من داخل بطاقات معايدة الكريسماس. (كان تنيسون قد مضى زمانه فى ذلك الوقت بمقاييس الشعر الإنجليزى – وأصبح أوسكار وايلد الموجة السائدة خاصة بين الشباب – لكن كان كل ما فى بورت تيكونيروجو قد مضى زمانه بعض الشىء فى ذلك الوقت.)

لابد أن هذا الاقتباس أثار سخرية سكان البلدة: وامتد ذلك إلى ذوى الخيلاء الاجتماعية فكانوا يشيرون إليها بصاحبة العصمة أو الدوقة، مع أنهم كانوا لا يطيقون ألا تدرج أسماؤهم على قوائم دعواتها. وفيما يتعلق ببطاقات المعايدة الخاصة بها فلابد أنهم كانوا يقولون: حسنا فلقد خانها الحظ فيما يتعلق بالبرد والثلج. لربما أخذت عهدًا على الله فى ذلك. أو ربما يقولون إذا مروا بالمصانع:

هل ترون هنا أيًا من تلك المروج وبساتين الفاكهة إلا على ذيل ردائها؟ أعرف أن أسلوبهم تغير كثيرًا وإن كنت أشك فى ذلك.

كانت أديلا تتباهى ببطاقات معايدة الكريسماس، ولكنى أعتقد أن فى الأمر ما هو أكثر من ذلك. فقد كانت أفيليون المكان الذى ذهب إليه الملك أرثر ليموت. وبالتأكيد كان اختيار أديلا للاسم يرمز إلى قنوطها فيما اعتبرته منفاها: فشعرت أنه ربما تستطيع بقوة الإرادة وحدها أن تحقق صورة باهتة من جزيرة سعيدة، ولكنها لم تكن أبدًا الأصل. لقد أرادت قاعات للندوات والمعارض وأناسًا ذوى ذوق فنى، وشعراء ومؤلفى موسيقى، ومفكرين علماء وما إلى ذلك مما شاهدته فى زياراتها لأبناء عمومتها من الدرجة الثالثة ذوى الأصل الإنجليزى، عندما كانت أسرتها لا تزال تملك المال. لقد أرادت حياة ذهبية ومروجًا واسعة.

ولكن لم يوجد أولئك الناس فى بورت تيكوندروجو وكان بنيامين يرفض السفر. فكان يقول إنه يرغب فى البقاء بالقرب من مصانعه. ومن الأرجح أنه لم يرغب أن يزج به وسط جمع من الناس يسخرون منه لصناعة الأزرار، وحيث تنتظره قطع من أدوات المائدة لا يعرفها، وحيث يكون مصدرًا لشعور أديلا بالخجل.

وكانت أديلا ممنوعة من السفر بدونه سواء إلى أوروبا أو أى مكان آخر. فلربما أغراها الأمر ألا تعود. لربما انجرفت بعيدًا تستنزف النقود ببطء مثل منطاد يفرغ من الهواء، فتقع فريسة للأنذال والأوغاد ذوى المظهر المغرى فتغوص فيما لا يمكن النطق به.

ومن بين أشياء أخرى كانت أديلا تعشق أعمال النحت. فعلى جانبى المستنبت الصناعى تمثالان لأبى الهول - كنت قد اعتدت أنا ولورا التسلق على ظهريهما - وتمثال لفون (إله الغابات الرومانى) يتطلع من خلف مقعد حجرى، وعند حوض الزنبق حورية من حوريات المروج، فتاة متواضعة لها نهدا مراهقة صغيرة وخصلة من شعر من الرخام تنسدل على أحد كتفيها، بينما تغوص إحدى

قدميها فى الماء. اعتدنا أن نأكل التفاح بجانبها ونرقب الأسماك الصغيرة تقرم أصابعها.

قيل إن هذه التماثيل "قطع أصلية" ولكن أصلية بأى معنى وكيف جاءت بها أديلا؟ أشك أن الأمر قام على بعض الخداع - كأن يكون أحد الوسطاء الأوربيين قد اشتراها بثمن بخس، وزيف منشأها! ثم أرسلها إلى أديلا من بلاد بعيدة ومن حيث إخفاء الاختلاف فقد رأى وهو مصيب فى ذلك أن أمريكية ثرية لم تشك فى الأمر.

وأديلا هى أيضًا التى صممت النصب التذكارى بمدافن الأسرة بالملكين الذين يرتفعان فوقه. أرادت أن يخرج جدى جثث أسلافه من مدافنها ويعيد دفنها فى هذا المكان لإعطاء الانطباع بأنها عائلة ملكية، ولكنه لم يخضع لها. ودار الزمن وكانت هى أول من دفن هناك.

هل تنفس جدى بنيامين الصعداء عندما رحلت أديلا؟ فربما أضناه التعب لعدم قدرته الوصول إلى مقاييسها الدقيقة، مع أنه كان واضحًا أنه شديد الإعجاب بها. لم يتغير شىء فى أفيليون، فعلى سبيل المثال، لم يتغير مكان صورة فيها، ولم تستبدل قطعة أثاث. فلربما اعتبر المنزل نفسه نصبها التذكارى الحقيقى.

تربينا أنا ولورا على يديها. فقد نشأنا فى منزلها؛ أى نشأنا داخل تصورها عن نفسها، وداخل تصورها لما يجب أن نكون عليه. ولكننا لم نصبح كما أرادت. وحيث إنها رحلت الآن فلا داعى للجدال.

كان أبى الأكبر بين ثلاثة أبناء، وقد منحت أديلا كلاً منهم اسمًا ذا رجع: فأسمتهم نورفال وإدجار وبيرسيفال، وذلك إحياء لذكرى عصر الملك أرثر مع لمحة من عصر فاجنر. لعلهم شعروا بالامتنان أن لم يطلق عليهم أسماء مثل أوثر أو سيجموند أو أولتريس. وكان جدى بنيامين شغوفا بأبنائه وقد أراد لهم أن يتعلموا العمل فى صناعة الأزرار، ولكن أديلا كانت تصبو إلى ما هو أكبر من ذلك. فقد أرسلتهم إلى مدرسة ترينتى العليا فى بورت هوب، حيث لا يغلظ طبعهم على يد

بنيامين وآلاته. كانت تقدر قيمة ثروة بنيامين، وتفضل أن تتغاضى عن مصدرها وتعتم عليه.

كان الأبناء يعودون إلى المنزل فى الإجازات الصيفية. وفى مدارسهم الداخلية وجامعاتهم تعلموا الازدراء المهذب لوالدهم الذى لا يقرأ اللاتينية ولو بتلعثم كما يفعلون. كانوا يتحدثون عن أناس لا يعرفهم، ويغنون أغنيات لم يسمع بها من قبل، ويقولون نكاتًا لا يفهمها. وكانوا يبحرون فى ضوء القمر فى يخته الصغير واتر نكسى، الذى أطلقت عليه أديلا هذا الاسم، وهو مظهر آخر من مظاهر الحنين إلى الفن القوطى. كان إدجار يعزف على المندولين وبيرسيفال على البانجو، ويشربون البيرة فى الخفاء. وكان ثلاثتهم يتجولون فى إحدى سيارتيه الجديدتين، غير مبالين بسوء أحوال الطريق حول البلدة لأكثر من نصف العام – فيكسوه الثلج ثم الطين وبعده الغبار – وذلك إذ لم يكن هناك الكثير من الطرق الأخرى المعبدة للسيارات. وانتشرت الشائعات بمرافقة الثلاثة، خاصة الولدين الأصغر، لفتيات خليعات وإغداق المال عليهن، فمن اللياقة الدفع لأولئك النسوة لتنظيم أمورهن، فمن يرد أبناء غير شرعيين يحملون اسم عائلة تشيس ويزحفون حولنا! لكن لم يكن أولئك الفتيات من بلدتنا ومن ثم لم يؤخذ ذلك على الأبناء؛ ومع ذلك أسفر الأمر عن تأثير عكسى، على الأقل بين الرجال. كان الناس يسخرون منهم قليلاً، لكن ليس كثيرًا: فكانوا يعرفون أنهم على شيء من الصلابة، وأنهم يتخلقون بأخلاق البلدة. اشتهر إدجار وبيرسيفال بإيدى وبيرسى، إلا أن والدى كان دائمًا نورفال، حيث إنه الأكثر خجلاً والأكثر احترامًا بين الثلاثة. اتسم الثلاثة بالوسامة، كما كانوا على شيء من العنف والشراسة كما يتوقع الناس من الصبية. لكن ما معنى العنف والشراسة بالضبط؟ أخبرتنى رينى "إنهم كانوا عابثين، ولكن ليسوا أوغادًا عديمى الخلق" وسألتها: "وما الفرق" فتنهدت وقالت "لا أتمنى أبدًا أن تكتشفى الفرق."

فى عام ١٩١٣ توفيت أديلا بمرض السرطان – ولم يكن يعرف له اسم فى ذلك الوقت، ولكن من المحتمل أنه كان من الأنواع المتعلقة بأمراض النساء. وفى

الشهر الأخير لمرضها جاءوا بوالدة رينى كمساعدة إضافية فى المطبخ ومعها رينى، وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها آنذاك، فتأثرت أيما تأثير بكل ما حولها. تقول رينى: "كانت أمك تتألم بشدة فيعطونها جرعة من المورفين كل أربع ساعات، والممرضات يحيطونها على مدى اليوم. ولكنها لم ترقد فى الفراش، بل تواجه الموقف فى شجاعة، فكانت دائما تنهض وتضع أبهى زينتها كعادتها، حتى يظن من يراها أنها فقدت عقلها. اعتدت أن أراها تتجول فى الحديقة فى ألوانها الفاتحة وعلى رأسها قبعة كبيرة ذات خمار. كانت قامتها جميلة ومشدودة أكثر من كثير من الرجال. وفى النهاية اضطروا إلى ربطها فى الفراش لمصلحتها. انكسر قلب جدك وخارت قواه." وبمرور الوقت اشتد عودى وأصبحت أكثر مقاومة للتأثر. أضافت رينى إلى قصتها صرخات مكتومة، وتأوهات وعهودًا تقطع على فراش الموت، رغم أنى لم أتأكد أبدًا من نواياها. هل كانت تخبرنى بذلك حتى أبدى أنا أيضًا مثل هذه الصلابة فأتحلى بمثل هذه الشجاعة والتحدى للألم، أم أنها كانت تستمتع بالتفاصيل المفجعة؟ لا شك أنهما الأمران معًا.

وقت وفاة أديلا كان الأولاد قد بلغا مرحلة النضج. فهل افتقدوا أمهم، هل حزنوا عليها؟ بالطبع. فكيف لا يعترفون بفضلها وتكريس حياتها لهم. لقد كانت شديدة السيطرة عليهم أو مسيطرة عليهم بأقصى ما تستطيع. ومن ثم شعروا ببعض الحرية بمجرد أن ووريت التراب.

لم يشأ أى من الأولاد العمل فى صناعة الأزرار، فقد ورثوا احتقار أمهم لهذا العمل، وإن لم يرثوا عنها نظرتها الواقعية. كانوا يعلمون أن النقود لا تنمو على الأشجار، لكن كانت لديهم بعض الأفكار البراقة للحصول عليها. ففكر والدى نورفال فى دراسة القانون ثم الاشتغال بالسياسة، كما كانت له خطط لتطوير البلدة. أما أخواه فأرادا السفر: فمجرد أن انتهى بيرسى من دراسته الجامعية، عزما على القيام بحملة تنقيب عن الذهب فى جنوب أمريكا. ولاح الطريق المفتوح مغريا براقا.

من إذن سيتولى إدارة مصانع تشاس؟ أسيختفى اسم تشاس وأولاده؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا كدح بنيامين كل هذا الكدح؟ ومن ثم أقنع نفسه بأنه فعل ذلك

لهدف أسمى ولأسباب بعيدة كل البعد عن طموحه الشخصى أو رغباته. لقد شيد تراثًا أراد له أن ينتقل من جيل إلى جيل.

لابد وأن نغمة اللوم هذه تدثرت فى ثنايا أحاديث حفلات العشاء فى أرجاء الميناء. ولكن صمد الأولاد بعناد. فما من شىء يجبر شابًا أن يكرس حياته لصناعة الأزرار إذا لم يرغب فى ذلك. لم يتعمدوا خذلان أبيهم، ولكنهم أيضًا لم يرغبوا فى حمل عبء مرهق مضن.

مكتبة

جهاز العروس

الآن تم شراء المروحة الجديدة. جاءت أجزاؤها فى صندوق من الورق المقوى، وجمعها والتر وركبها فقد أحضر صندوق عدته معه. وعندما انتهى من عمله قال: "ها هى قد أعدت." يشير والتر بصيغة الأنثى إلى كل الأشياء التى يعبث بها الرجال ويستخدمون مهارتهم لإعادتها إلى حالتها الطبيعية كالجديدة، ومن ذلك القوارب، ومحركات السيارات التالفة، والمصابيح المكسورة، وأجهزة المذياع العاطلة عن العمل. لماذا يشعرنى ذلك بالطمأنينة؟ ربما لأن يقينًا طفوليًا يملأ جانبًا من نفسى يجعلنى أعتقد أن والتر قد يخرج زرديته وطاقم عدته ويفعل الشىء نفسه بى!

وضعت المروحة القائمة فى غرفة النوم. وسحبت الأخرى القديمة إلى الرواق بالطابق السفلى حيث تتوجه خلف عنقى، وكأن يدًا لها ملمس الهواء البارد تلمس كتفى برقة. يمنحنى ذلك شعورًا بالمتعة ولكنه يبعث على الاسترخاء. وهكذا أجلس فى الهواء إلى منضدتى الخشبية أخربش بقلمى. كلا، لا أخربش – فأقلام اليوم لم تعد تخربش. فالكلمات تنساب فى نعومة وصمت عبر الصفحة؛ لكن يصعب أن تجعلها تتدفق عبر الذراع وتعتصر خارجة من بين الأصابع.

حلت ساعة الغسق الآن. لا هواء هناك؛ بينما ينساب الماء فى الجدول يغسل الحديقة محدثًا صوتًا كأنه شهيق طويل. تمتزج الزهور الزرقاء مع الهواء، وتبدو الحمراء سوداء، أما البيضاء فتتلألأ فى وميض فسفورى. ونشرت زهور التيوليب تويجاتها تاركة مدقاتها عارية – سوداء، تشبه الخضم، ذات إيحاء جنسى. وقد ذبلت الفاوانيا تقريبًا فتلوثت أوراقها، وتلوت مثل نسيج مبلل، بينما تفتح الزنبق والفلوكس. أما البرتقال الوهمى فقد سقطت زهراته ناشرة نثارها الأبيض فوق العشب.

فى شهر يوليو عام ١٩١٤ تزوجت أمى من أبى. شعرت بأن ذلك يحتاج تفسيرًا يتعلق بكل شىء.

وجدت ضالتى فى رينى. فعندما بلغت السن التى أهتم فيها بمثل هذه الأشياء – فى نحو العاشرة والحادية والثانية والثالثة عشرة – اعتدت الجلوس إلى مائدة المطبخ أعبث بمفاتيح رينى حتى أفتح خزائنها مثل قفل.

لم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد عندما حضرت إلى أفيليون للعمل بدوام كامل، وكانت من قبل تعيش فى بيت على أحد القوارب على الضفة الجنوبية الشرقية لنهر الجوج حيث يعيش عمال المصنع. قالت إنها أسكتلندية وأيرلندية، ولكنها ليست من الأيرلنديين الكاثوليك، تعنى أن جداتها كن كذلك. بدأت بالعمل حاضنة لى، لكن نتيجة لانقلاب الأوضاع أصبحت الآن دعامة المنزل الرئيسية. كم كان عمرها آنذاك؟ أمر لا يخص سواها. ولكنها ناضجة بما يكفى لتعرف أكثر منى، وهذا يكفى. وإذا استثرتها لتحكى عن حياتها وتقول "أحتفظ بنفسى لنفسى". كم بدا ذلك لى حصيفًا وقتها، وكم يبدو بائسًا الآن.

ولكنها تعرف تاريخ العائلة أو على الأقل شيئًا عنهم. ما كانت تخبرنى به كان يختلف باختلاف عمرى ومدى تشتتها فى ذلك الوقت. ومع ذلك فقد جمعت بهذه الطريقة شذرات من الماضى تكفى لإعادة تركيبها، وهى تتصل فى علاقتها بحقيقة الأشياء كما تتصل لوحة الفسيفساء بالأصل. لم أكن فى حاجة إلى الواقعية بأى حال. بل أردت أشياء صارخة الألوان بسيطة فى ملامحها الأساسية بعيدة عن

الغموض، وهو ما يرغب فيه معظم الأطفال عندما يتعلق الأمر بحكايات عن آبائهم. فهم يريدون مجرد بطاقة بريدية.

تقول رينى إن والدى خطب أمى فى حفل تزحلق على الجليد. فقد كان هناك خليج صغير أعلى الشلالات – هو فى الأصل بركة لطاحونة قديمة – تنساب فيه المياه شديدة البطء فى جريانها. وعندما يشتد برد الشتاء تتكون عليه طبقة من الجليد سميكة بما يكفى للتزحلق عليها. وهناك كانت جماعة شباب الكنيسة تقيم حفلات التزحلق والتى كانوا يطلقون عليها جولات تنزهية.

كانت والدتى من طائفة الميثودية، بينما والدى من الطائفة الإنجليكية: ومن ثم كانت والدتى تنتمى إلى طبقة اجتماعية أقل من تلك التى جاء منها أبى، وهى أمور كان الناس يهتمون بها فى ذلك الوقت. (وفى زمن لاحق خرجت بالرأى أنه لو كانت جدتى أديلا على قيد الحياة حينئذ ما سمحت بهذه الزيجة. فقد كانت سترى والدتى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى بالنسبة لها، كما كانت ستراها شديدة الإسراف فى الاحتشام والجدية والتطبع بأخلاق القرية. كانت أديلا ستسحب والدى بعيدًا إلى مونتريال، حيث تقدمه فى النهاية إلى فتاة من فتيات المجتمع الراقى مرتادى الحفلات، فتاة ذات ملابس أفضل من تلك التى ترتديها والدتى.)

قالت لى رينى إن والدتى كانت صغيرة لم تتجاوز الثمانية عشرة، ولكنها لم تكن فتاة طائشة هوجاء، فقد كانت تقوم بالتدريس فى المدارس؛ إذ كان بوسع المرء آنذاك أن يصبح مدرسًا ولم يتجاوز العشرين من عمره. لم تكن مضطرة للتدريس: فوالدها كان المحامى الأول لمجموعة مصانع تشاس، وكانوا على قدر من السعة واليسر. لكن أخذت أمى أمور الدين بجدية، وهى فى ذلك مثل والدتها التى توفيت وهى فى التاسعة. فكانت تعتقد فى ضرورة مساعدة الناس لمن هم أقل منهم حظًا فى الحياة. وذكرت رينى فى إعجاب أن أمى عملت بالتدريس كعمل من أعمال التبشير الدينى. (كثيرًا ما أعجبت رينى بأعمال كانت تقوم بها أمى وإن ظننتها أعمالاً حمقاء لا تحب القيام بها هى نفسها. فبما يتعلق بالفقراء فلقد نشأت بينهم واعتبرتهم قومًا مستهترين. بوسع المرء التدريس لهم حتى يبح صوته وتخور قواه،

ولكن معظمهم يدفع المرء إلى أن يضرب رأسه فى حائط حجرى. "ولكن والدتك رحمها الله لم تعتقد ذلك أبدًا".

فى صورة فوتغرافية تظهر والدتى فى المدرسة الأولية فى لندن بمقاطعة أونتاريو، مع فتاتين أخريين؛ يقف الثلاثة على الدرج الخارجى للمنزل الذى يقمن به وقد تشابكت أذرعهن والضحكة تعلو وجوههن. وتبدو ثلوج الشتاء متراكمة على الجانبين بينما تتساقط دلاة الجليد من السطح. كانت أمى ترتدى معطفًا من جلد الفقمة، ومن تحت قبعتها تبدو أطراف شعرها الناعم. لابد أنها كانت فى ذلك الوقت تستخدم النظارة المثبتة على العين دون ذراعين والتى سبقت ظهور النظارات بومية الشكل، فقد كانت مصابة بقصر النظر منذ وقت مبكر، ولكنها لا ترتديها فى هذه الصورة. وفى اللقطة أيضًا تبدو إحدى قدميها فى حذاء من البوت المغطى بالفرو عند طرفه العلوى، وقد أثنت كاحلها فى دلال. بدت شجاعة، مندفعة ومفعمة بالحيوية مثل قرصان بحر يافع.

بعد تخرجها التحقت أمى بالعمل فى مدرسة من حجرة واحدة فى أقصى الغرب الشمالى، وهو أقصى ضواحى المدينة فى ذلك الوقت. صدمتها التجربة – الفقر والجهل والقمل. فالأطفال هناك تخاط عليهم ملابسهم الداخلية فى الخريف ولا يخلعونها حتى الربيع، وبقى ذلك فى ذاكرتى كدليل على أقصى درجات القذارة. تقول رينى: "بالطبع لم يكن ذلك المكان ملائمًا لسيدة فاضلة كوالدتك."

ولكن والدتى كانت تشعر أنها تؤدى رسالة – تفعل شيئًا – وإن اقتصر الأمر على فئة قليلة من أولئك الأطفال الأقل حظًا، أو لعلها كانت تأمل فى ذلك. وفى عطلات الكريسماس كانت تعود إلى المنزل. أصبحت نحافتها وامتقاع لونها مثارًا للقلق والتعليق: فقد ذهبت الحمرة من خديها وازدادت شحوبًا. وهكذا كانت بصحبة والدى فى حفل التزحلق فوق بركة الطاحونة المتجمدة. بدأ الأمر بأن ربط لها زلاجة الجليد راكعًا على إحدى ركبتيه.

وكانا قد تعرفا على بعضهما لفترة من الوقت عبر والديهما. فسبق لهما الالتقاء فى إطار لائق مهذب. ومن ذلك أن مثلا معًا فى آخر مسرحية أقامتها أديلا

فى الحديقة، فلعب هو دور فرديناند وكانت هى ميراندا، وذلك فى نسخة منقحة من مسرحية "العاصفة" قلت فيها المشاهد الجنسية وتلك التى يظهر فيها كاليبان. تقول رينى إنها ظهرت فى ثوب قرنفلى اللون وإكليل من الزهور، تلقى كلماتها فى صحة ووضوح تام كأنها ملاك. ومنها "للعالم الجديد الشجاع الذى يضم مثل أولئك الناس!" ومن عينين صافيتين براقتين كانت ترسل نظرتها المحدقة التى لا تركز على شىء. كم بدا ذلك غاية فى الروعة.

كان بوسع والدى أن يبحث فى مكان آخر عن زوجة أكثر ثراء، لكن لابد وأنه أراد من عرفها وخبر صدقها، فلقد أراد امرأة يستطيع الاعتماد عليها. تقول رينى إنه رغم معنوياته المرتفعة وحسه المرح ـــ يبدو أن معنوياته كانت مرتفعة يومًا ـــ كان شابًا جادًا، ملمحة إلى أنه لو كان غير ذلك لرفضته أمى. كان كلاهما جادًا بطريقته، فقد أرادا تحقيق هدف نبيل وتغيير العالم نحو الأفضل؛ تلك المثل العليا الخلابة والمحفوفة بالمخاطر.

بعد أن تزحلقا معًا فوق البركة عدة مرات، طلب أبى أمى للزواج. أراه قد فعل ذلك بحرج وارتباك، ولكن الارتباك عند الرجال فى ذلك الوقت كان علامة الإخلاص. كانت الأكتاف والأفخاذ تتلامس لكن لم ينظر كلاهما إلى الآخر؛ كانا جنبًا إلى جنب، تتشابك أيديهما اليمنى من الأمام، واليسرى من الخلف. (ماذا كانت ترتدى حينئذ؟ تعرف رينى هذا أيضًا. كانت ترتدى وشاحًا وقبعة أسكتلندية منفوشة وقفازًا يتناسب معهما، وكلها من خيوط التريكو التى شغلتها بنفسها. ذلك إضافة إلى معطف شتوى طويل أخضر فى لون بدل الصيادين، ومنديل معقود فى كمها – وهو شىء لا تنساه أبدًا، على حد قول رينى، وذلك على عكس فتاة أخرى تستطيع ذكر اسمها.)

ماذا فعلت أمى فى تلك اللحظة الحاسمة؟ نظرت متمعنة فى الثلج. ولم ترد فى الحال. وكان ذلك يعنى الموافقة.

telegram @ktabpdf

اكتسى كل ما حولهما بالبياض، فأحاطت بهما الصخور المغطاة بالثلوج ودلاة الثلج البيضاء. وتحت أقدامهما كان الجليد الأبيض أيضًا، وتحته مياه النهر

بدواماتها ودفقاتها الارتجاعية، تغرق كلها فى الظلمة بعيدًا عن الأنظار. هكذا تصورت ذلك الوقت، قبل أن أولد وتولد لورا ــ زمنًا خاليًا بريئًا، يبدو صلدًا متماسكًا فى ظاهره، ولكنها طبقة رقيقة من الجليد. وتحت سطح الأشياء يكمن ما لم يقال وينضج على مهل.

وبعد ذلك جاء خاتم الزواج، والإعلان فى الصحف، ثم بمجرد أن أكملت أمى السنة الدراسية وهو ما كان التزامًا عليها، كانت هناك حفلات الشاى الرسمية. وهى حفلات جميلة تقام فى الهواء الطلق تقدم فيها شطائر الهليون وتلك التى تحتوى على جرجير الماء، إلى جانب ثلاثة أنواع من الكعك ــ السادة والمعجون بالشكولاتة والمحشو بالفواكه، أما الشاى نفسه فيقدم فى أطقم فضية تحيطه الورود على المنضدة فى ألوانها البيضاء والقرنفلية وربما الأصفر الفاتح، ولكن ليس من بينها زهور حمراء. فالزهور الحمراء ليست لحفلات الشاى التى تقام فى الخطبة. ولم لا؟ تقول رينى "ستعرفين فيما بعد."

وبعدها جاء جهاز العروس. تستمتع رينى بسرد التفاصيل فتصف قمصان النوم والأرواب ونوع الشرائط المزينة بها، وأغطية الوسائد المطرزة بالأحرف الأولى والملاءات والقمصان الداخلية. تحدثت عن خزانات الملابس وصوان الثياب ذى الأدراج والخزانات الخاصة بالمفروشات والملابس الكتانية، وأى الأشياء تحفظ فى كل منها وقد طويت بعناية. لم تذكر رينى شيئًا عن الأجساد التى أعدت لها كل هذه المنسوجات: فالزفاف فى نظرها ملابس أو هو كذلك على الأقل فى ظاهره.

ويتبع ذلك إعداد قائمة المدعويين وكتابة الدعوات واختيار الزهور وهكذا حتى يوم الزفاف.

وبعد الزفاف اندلعت الحرب. فالحب ثم الزواج ثم الكارثة. ترى رينى ذلك أمرا محتومًا.

بدأت الحرب فى أغسطس ١٩١٤، بعد زواج أبى وأمى بفترة قصيرة. طُلب الإخوة الثلاثة للتجنيد دفعة واحدة، ولا جدال فى ذلك. إذا تأملت هذا الأمر الآن يدهشنى أنه لم يثر شكًا أو جدلاً. يظهر الثلاثة فى صورة فوتغرافية بملابسهم

العسكرية، وشواربهم الخفيفة وعلى جباههم الصرامة والبراءة معًا، وعلى شفاههم ابتسامة غير مبالية بينما يطل الحزم من عيونهم وقد اتخذوا فى وقفتهم هيئة جنود لم يعرفوها من قبل. كان أبى أطولهم. وكان يحتفظ بتلك الصورة على مكتبه دائمًا.

التحقوا باللواء الملكى الكندى، وهو الذى يلتحق به أبناء تيكونديروجو. وعلى الفور تم إرسالهم إلى برمودا للإحلال محل اللواء الإنجليزى الموجود هناك، ومن ثم قضوا السنة الأولى للحرب يقضون أوقاتهم فى الاستعراض العسكرى ولعب الكريكيت. كما أصابهم الملل، أو هكذا تشى خطاباتهم.

كان جدى بنيامين يقرأ هذه الخطابات بنهم. لكن انتابه الانزعاج وعدم الاطمئنان إذ وجد الوقت يمر دون أن يتحقق النصر لأى من الجانبين. فلا يجب أن تسير الأمور على هذا النحو. ومن المفارقة أن ازدهرت أعماله. فقد توسع فى استخدام السليوليد والمطاط فى صناعة الأزرار مما زاد من الإنتاج، كما ساعدته أديلا باتصالاتها السياسية فى أن تتلقى مصانعه عددًا كبيرًا من طلبات الإمداد للجيش. وكان على أمانته المعهودة، فلم يورد بضائع رديئة الصنع، فهو فى هذا الصدد ليس من متربحى الحرب. ولا يمكن القول إنه لم يحقق أرباحًا.

تفيد الحرب تجارة الأزرار. يفقد الكثير من الأزرار فى الحروب ولابد من تعويضها، فتمتلئ الصناديق، وتحمل العربات بالأزرار فى كل مرة. فهى تتكسر وتغوص فى الأرض وتحترق. وينطبق الشىء نفسه على الملابس الداخلية. فمن الناحية المالية تعد الحروب نيرانا تأتى بالمعجزات: فهى حريق كيميائى كبير، يتحول دخانه المتصاعد إلى نقود. وهذا ما حدث مع جدى. ولكن لم يعد ذلك يبهج روحه أو يدعم شعوره بالأمانة والاستقامة، كما حدث فى تلك الأوقات السابقة التى كان فيها مفعمًا بالإعجاب بالذات والرضا عنها. لقد أراد استعادة أبنائه. مع أنه لم يكن قد تم إرسالهم إلى مواقع ذات خطورة بعد، فكانوا لا يزالون فى بيرمودا يجولون بخطواتهم العسكرية تحت الشمس.

بعد عودتهما من شهر العسل (فى فينجر لاكس بولاية نيويورك) أقام أبواى فى أفيليون حتى يتمكنا من إقامة مشروعهما التجارى، وبقيت والدتى هناك لإدارة

بيت جدى. لم تكن لديهما عمالة كافية، فالحاجة كانت كبيرة لكل العاملين المهرة سواء فى المصانع أو الجيش، ذلك إضافة إلى الشعور بضرورة أن تضرب أفيليون المثل فى اختصار النفقات. كانت والدتى تصر على الطعام البسيط، فتقدم المشويات أيام الأربعاء، والفاصوليا المحمصة فى أمسيات الآحاد؛ وكان ذلك يناسب جدى كثيرًا، فهو لم يسترح أبدًا مع قوائم الطعام الغريبة التى كانت تقدمها أديلا.

فى أغسطس عام ١٩١٥ جاء الأمر للواء الملكى الكندى بالعودة إلى هاليفاكس للاستعداد للرحيل إلى فرنسا. فبقى فى الميناء أسبوعًا للتزود بالمعدات والمؤن والمجندين الجدد، وأيضًا لاستبدال الزى العسكرى الملائم للمناطق الحارة بملابس أكثر دفئًا. ووزع على الرجال مدافع روس التى ستغوص بعد ذلك فى الطين لتتركهم عاجزين عن القتال.

استقلت أمى القطار إلى هاليفكس لتودع أبى. كان مكتظًا بالرجال فى طريقهم إلى الجبهة، فلم تجد مكانًا فى عربة النوم وسافرت جالسة. اكتظت الممرات بالأقدام والزكائب والمباصق، وعلا سعال السكارى وشخيرهم. وبينما كانت تتطلع فى وجوه الصبية حولها، شعرت بالحرب حقيقة واقعة وليست مجرد فكرة. فربما قتل زوجها الشاب وفسدت جثته أو تمزقت أشلاء؛ لقد أصبح واضحًا الآن أنه ربما يكون جزءًا من التضحية التى لابد من تقديمها. أراها مع هذا الإدراك انتابها يأس ورعب، ولكن لعلها شعرت أيضًا بقدر من الكبرياء المصمت.

لا أعرف كم من الوقت قضيا فى هاليفاكس ولا أين أقاما. فهل سكنا فندقًا محترمًا، أم لندرة الغرف أقاما فى حانة أو نزل رخيص بجوار الميناء؟ وهل قضيا بضعة أيام، أم ليلة أم بضع ساعات؟ ماذا حدث بينهما وماذا قالا؟ أرى أنها الأمور المعتادة، لكن أين كانا؟ لم يعد بالإمكان معرفة ذلك. وبعدها أبحرت السفينة وعليها الجنود – كان اسمها "إس إس كالدونيان" – ووقفت أمى مع غيرها من الزوجات على رصيف الميناء يلوحن ويبكين. أو لعلها لم تكن تبكى.

كتب أبى: "فى مكان ما فى فرنسا، لا يمكننى وصف ما يحدث هنا، ومن ثم فلن أحاول. إنما علينا اليقين بأن هذه الحرب من أجل الأفضل، فبها تصان

الحضارة وتتقدم. أعداد الجرحى (كلمة مكشوطة) لا تحصى. لم أعرف أبدًا قدرات الرجال. فما علينا تحمله يفوق (كلمة مكشوطة). كل يوم أفكر فيمن بالبيت جميعًا، خاصة أنتِ عزيزتى ليليانا."

وفى أفيليون بدأت أمى فى تنفيذ ما أرادته. فكانت تؤمن بالخدمة العامة، ومن ثم شعرت بأن عليها أن تشمر عن ساعديها وتقوم بعمل من أجل المجهود الحربى. فنظمت جماعة من أجل الإغاثة؛ تجمع النقود من بيع الأشياء القديمة، وتنفقها فى شراء علب صغيرة من التبغ والحلوى وترسلها إلى الجنود فى خنادق القتال. وبذلك فتحت أفيليون لمثل هذه الأعمال، والتى وجدت بعض الصعوبة فى تنفيذها (حسبما تقول رينى). وإلى جانب بيع الأشياء القديمة، كانت الجماعة تجتمع فى حجرة الاستقبال فى أمسيات الثلاثاء من كل أسبوع للحياكة من أجل الجيش، فالمبتدئات يحكن مناشف الوجه، والمتقدمات بعض الشىء يحكن الأوشحة، أما الخبيرات فيحكن أغطية الرأس والقفازات. وسرعان ما انضمت كتيبة أخرى من المنضمات الجدد يقمن بالحياكة أيام الخميس، وهن أكبر سنًا وأقل تعليمًا جئن من جنوب الجوج، ويستطعن الحياكة وهن نيام. وقامت تلك المجموعة بحياكة ملابس الأطفال للأرمن ممن لا يجدون قوت يومهم، ولمن أطلق عليهم "اللاجئون عبر البحار". وبعد ساعتين من الحياكة يقدم الشاى فى حجرة الطعام فى أطقم عليها تريستان وإيسيولت خافضا الرأس.

وعندما ظهر الجرحى فى الشوارع ومشافى البلدان المجاورة ذهبت أمى لزيارتهم، فلم تكن بورت تيكونديروجو قد أقيم بها مشفى بعد. وكانت تؤثر بزياراتها أولئك الجرحى ذوى الحالات الحرجة، وكانت تعود منهوكة القوى ومضطربة وربما تبكى فى المطبخ وهى تشرب الكوكا التى كانت رينى تعدها لها. قالت رينى إنها لم تكن ترحم نفسها، فدمرت صحتها. فكانت تقوم بما يفوق قدرتها خاصة فى مثل حالتها.

ما قيمة أن يقوم المرء بما يفوق قدرته، وألا يرحم نفسه وأن يدمر صحته؟! ما من أحد يولد بهذا القدر من إنكار الذات: ولكنها صفة نكتسبها بأكثر النظم

صرامة وقسوة، بأن نقمع الأهواء الطبيعية في النفس، وهو أمر لا يعرف جيلنا سره أو يقدر عليه. أو لعلنى لم أحاول إذ عانيتُ من آثاره على أمى.

أما لورا فلم تكن منكرة للذات، كلا على الإطلاق. ولكنها كانت مرهفة الحس، وهو أمر مختلف.

ولدتُ فى شهر يونيو عام ١٩١٦. وبعدها بفترة وجيزة قتل بيرسى فى قصف مكثف بالقنابل على يبريس سالينت Ypres Salient، وفى يوليو مات إيدى فى السوم. أو لعلهم سلموا بموته: حيث شوهد آخر مرة كان هناك انفجار بركانى كبير. كانت تلك الأحداث قاسية على أمى، ولكنها كانت أشد قسوة على جدى. ففى شهر أغسطس أصابته جلطة مدمرة أثرت على نطقه وذاكرته.

وبشكل غير رسمى تولت أمى إدارة المصانع. فقد تدخلت بين جدى – الذى قيل إنه كان فى دور نقاهة – والآخرين، فكانت تلتقى يوميًا بسكرتيره الخاص وعدد من مسئولى المصنع. وحيث إنها كانت الوحيدة التى تفهم ما كان يقوله جدى فأصبحت مترجمته؛ ولأنها كانت الوحيدة التى يسمح لها بأن تمسك يده، فكانت تساعده على التوقيع؛ ومن يجزم بأنها لم تكن تنفذ رأيها أحياناً؟

ولا يعنى ذلك أنه لم يكن هناك مشكلات. فعندما اندلعت الحرب كان سدس العاملين من النساء. وبانتهائها أصبحت النساء تمثل الثلثين. أما الرجال الباقون فكانوا إما مسنين، أو مصابين ببعض أنواع الإعاقة، أو لا يصلحون للحرب على نحو أو آخر. وكره هؤلاء الرجال أن تتقدم النساء، فأخذوا يتذمرون منهن ويطلقون عليهن نكاتًا بذيئة، وبدورهن عاملتهم النساء بسخرية مقيتة واعتبرتهم ضعفاء كسالى. فما وجدته أمى النظام الطبيعى للأشياء كان فى الحقيقة قلبًا للموازين. كانت الأجور لاتزال جيدة، والنقود تدير الآلات، وعلى كلٍ كانت أمى قادرة على إدارة الأمور بسلاسة كافية.

أتخيل جدى فى مكتبته فى الليل جالسًا إلى مكتبه المصنوع من خشب الماهوجنى على مقعده الجلدى الأخضر ذى الدبابيس النحاسية. وقد تشابكت أصابعه معًا فى التواء، سواء أصابع يده التى يشعر بها أو تلك التى لا يشعر بها.

أراه ينصت إلى شخص ما، بينما الباب مفتوح نصف فتحة يرى منها شبحًا بالخارج. يهم جدى بقوله: "تفضل" لكن لا أحد يدخل أو يجيب.

وتصل الممرضة غليظة الطباع. وتسأله فيم كان يفكر وهو يجلس وحيدًا فى الظلام هكذا؟ إنه يسمع صوتًا بدون كلمات إنما هو شيء كنعيق الغربان، فلا يجيب. تقبض على ذراعه وترفعه بسهولة من مقعده وتسحبه إلى الفراش. تصدر تنورتها البيضاء حفيفًا. ويسمع جدى صوت رياح الخريف الجافة تهب على الحقول كثيرة الأعشاب. ويسمع همس الثلوج.

هل كان يعلم بوفاة ولديه؟ هل كان يتمنى عودتهما بسلام إلى المنزل؟ هل كانت نهايته ستكون أكثر حزنًا إذا تحققت أمنيته؟ ربما – ولعلها كانت ستكون كذلك فى الغالب –لكن لا عزاء فى مثل هذه الأفكار.

الجراموفون

كعادتى شاهدت محطة الأرصاد البارحة. تجتاح الفيضانات أماكن متفرقة من العالم، فتقذف مياهًا بنية تسبح فيها الأبقار الممتلئة ويتشبث الناجون بالأسطح. وقد غرق الآلاف. يحدث ذلك بسبب ارتفاع درجة حرارة الأرض، ومن ثم ترتفع الأصوات تطالب الناس بالكف عن حرق الأشياء: فهم يحرقون الجاسولين والزيت وغابات بأكملها. ولكنهم لن يكفوا فالجشع والجوع أسواط مصلتة عليهم.

أين توقفت؟ أقلب الصفحة: مازالت الحرب مندلعة. فكلمة "مندلعة" هى الكلمة التى يستخدمونها مع الحروب ومازالوا حسبما أعلم. ولكن على هذه الصفحة الجديدة النظيفة سأدع الحرب تتوقف؛ سأفعل ذلك بمفردى بجرة قلمى الأسود البلاستيكى. كل ما على فعله أن أكتب: "١١ نوفمبر ١٩١٨: الهدنة".

هنا انتهت الحرب وصمتت البنادق، وتطلع من بقى حيًا من الرجال إلى السماء متسخى الوجوه مبتلى الثياب، وقد تسلقوا خارجين من خنادقهم وجحورهم،

يشعر كلا الجانبين بالخسارة. وراحت أجراس الكنائس تدق في البلدان والمدن وعبر المحيط. (أذكر رنين الأجراس. إنها من ذكرياتي الأولى. كانت غريبة، فقد تشبع الهواء بالصوت وفي الوقت ذاته كان فارغًا. صحبتني ريني إلى الخارج لأسمع، ودموعها تسيل على وجنتيها. وقالت "الحمد لله". كان يومًا باردًا وكرات الثلج على الأوراق الساقطة وطبقة رقيقة من الجليد تكسو حوض الزنبق فكسرتها بعصا. أين كانت أمي؟)

كان أبي قد جرح في السوم، ولكنه تعافى وترقى إلى ملازم ثان. وجرح مرة أخرى في فيمي ريدج، ولكن جرحه لم يكن خطيرًا، وترقى إلى رتبة نقيب. وجرح مرة ثالثة في بورلون وود، ولكنه كان جرحًا خطيرًا تلك المرة. وبينما كان يتماثل للشفاء في إنجلترا انتهت الحرب.

فاته الاستقبال الحافل للجنود العائدين في هاليفاكس من حيث مواكب النصر وغيرها، لكن كان له استقبال خاص في بورت تيكونديروجا. فعندما توقف القطار انطلقت صيحات التهليل وامتدت الأيدي لمساعدته على النزول، ولكنها ترددت. وظهر أبي بعين سليمة واحدة وقدم واحدة، ووجهه هزيل متجعد متقلص الملامح.

قد يكون الوداع مفجعًا، لكن من المؤكد أن العودة أسوأ. فالجسد لا يحتفظ بالملامح الحيوية البراقة للطيف الذي يلقيه الغياب. فالملامح الرئيسية يطمسها الزمن والبعاد؛ وفجأة يعود الحبيب وقت الظهيرة فيكشف الضوء الساطع في قسوة كل ندبة وجعدة وشعرة.

وبعد؛ كيف يمكن لأمي وأبي أن يتوافقا مع بعضهما البعض بعد أن أصاب كلا منهما كل هذا التغير؟ وإذا خذل أحدهما الآخر كيف يمر الأمر دون حقد أو ضغينة؟ كان كل منهما يحمل ضغينته في صمت وعن غير حق، فلا لوم على كليهما أو على شخص محدد. فالحرب ليست شخصًا. فهل يمكن أن نلوم الأعاصير؟

على رصيف محطة القطار وقفت الفرقة الموسيقية بالبلدة تعزف على الآلات النحاسية. ولاح هو فى زيه العسكرى تبدو أوسمته كأنها ثقوب أحدثتها طلقات نارية فى ملابسه ينعكس بريقها على جسده الشاحب. وإلى جواره كان أخواه غير ظاهرين – الصبيين المفقودين، الذى يشعر أنه فقدهما. وكانت أمى هناك فى أبهى أثوابها، رداء به طيات ويحده حزام عند الوسط، وعلى رأسها قبعة مزينة بشريط مجعد. وكانت تبتسم فى تردد واضطراب وكلاهما لا يدرى ماذا يفعل. صورتهما كاميرا الصحافة، فبدا محملقين كأنما بوغتا وهما يقترفان إثمًا. كان أبى يغطى عينه اليمنى بعصابة سوداء. أما عينه اليسرى فتحدق فى غضب وقسوة. وتحت العصابة التى لم تكن قد رفعت بعد شبكة عنكبوتية من ندب جروح باللحم، أما العنكبوت فهو عينه المفقودة.

وتصدر الخبر الصحف: "عودة وريث آل تشاس البطل". وهذا أمر آخر فلقد أصبح أبى الآن هو الوريث أى أنه فقد الأب والأخوة، وصارت المملكة بين يديه.

هل بكت أمى؟ ربما! لابد أنهما قبلا بعضهما فى حرج. فليست تلك هى المرأة التى يحملها فى ذاكرته، إنما هى امرأة منهوكة القوى، تدلى حول رقبتها نظارة بلا ذراعين مثبتة بشريط فضى، فبدت مثل العمات العوانس. لقد أصبحا الآن غريبين، وربما تراءى لهما أنهما كانا هكذا دائمًا. كم كان الضوء ساطعًا قاسيًا وكم تقدما فى العمر. فلم يبق أثر للشاب الذى انحنى على الجليد ليربط رباط الزلاجات لفتاته أو من المرأة الشابة التى قبلت هذا الحب فى طلاوة.

وقام بينهما شىء آخر مثل حد السيف. فبالطبع كان أبى قد اتصل بنساء أخريات من ذلك النوع الذى يحوم حول جبهات القتال مستفيدًا من الموقف. إنهن الغانيات، ولكنها كلمة لم تكن أمى لتنطقها أبدًا. لابد أنها شعرت بذلك من أول وهلة لمسها فيها، فلقد ذهب عنه التهيب والاحترام. لعله صمد للإغواء فى برمودا ثم فى إنجلترا وحتى الوقت الذى قتل فيه إيدى وبيرسى وجرح هو نفسه. وبعدها تعلق بالحياة وبما يمكن أن تصله يداه منها. فكيف يفوتها إدراك حاجته إلى ذلك فى ظل هذه الظروف؟

كانت تفهم ذلك أو على الأقل عرفت أنه من المفترض أن تفهم. لقد فهمت ولم تبح بشيء وتوسلت إلى الله أن يمنحها القدرة على الصفح، وبالفعل صفحت. ولكنه لم يجد العيش مع هذا الغفران يسيرًا. فالإفطار تكتنفه غلالة من الصفح: القهوة بالصفح، البودنج معجون بالصفحٍ، والصفح على شرائح الخبز بالزبد. انتابه شعور بالعجز حيال ذلك، فكيف ينكر شيئًا لم يتم البوح به؟ وكانت قد غضبت أيضًا من الممرضة أو الممرضات اللاتى كن يرعين أبى فى المشافى المختلفة. كانت تتمنى لو يدين بشفائه لها وحدها ولرعايتها وتفانيها الذى لا يعرف التعب. إنه الوجه الآخر لإنكار الذات: الاستبداد.

ومع ذلك لم يكن والدى صحيح البدن متعافيًا، بل كان فى الواقع حطامًا متناثرًا، يشهد على ذلك صرخاته فى الظلام وكوابيسه ونوبات الغضب المفاجئة التى تنتابه فيقذف بإناء أو زجاجة نحو الحائط أو على الأرض، ولكنه لم يقذفها أبدًا نحو أمى. لقد كان محطما ويحتاج بعض الإصلاح، ومن ثم ظلت ذات نفع. فكان بوسعها إحاطته بجو من الهدوء وإشباع رغباته وتدليله، فتضع الورود على منضدة إفطاره وتعد له طعامه المفضل على العشاء. فهو على الأقل ليس مصابًا بمرض خطير.

ومع ذلك فقد حدث ما هو أسوأ: فلقد أصبح والدى ملحدًا. ففوق الخنادق تنفجر فكرة الألوهية مثل بالون ولا يبقى منها شيء غير نفايات من النفاق. فلم يكن الدين سوى عصا يضربون بها الجنود، ومن يصرح بغير ذلك لا يملأ قلبه سوى ترهات تتدثر بالورع. فما جدوى بسالة بيرسى وإيدى وشجاعتهما، ألم يكن الموت البشع جزاءهما؟ ماذا حصدا من ذلك؟ قتلتهما حماقات زمرة من رجال مجرمين غير مؤهلين، ربما كانوا هم أيضا قد ذبحوا وتراكمت جثثهم على جانبى السفينة "إس إس الكلدونية". كان الحديث عن الحرب بأنها من أجل الله والحضارة يصيبه بالغثيان والاشمئزاز.

أفزعت هذه الأفكار أمى. فهل يعنى ذلك أن بيرسى وإيدى لم يمتا فى سبيل هدف سام؟ هل لقى كل هؤلاء الرجال المساكين حتفهم عبثًا دون جدوى؟ أما عن الله فمن سواه أحاطهما برعايته وقت المحنة والمعاناة؟ توسلت إليه أن يحتفظ

بأفكاره الملحدة داخل نفسه ولا يبوح بها. وبعدها انتابها خجل شديد من مجرد طلب ذلك – وكأنما ما يعنيها فى المقام الأول نظرة الجيران وليس موقف أبى الروحى من الله.

ومع ذلك احترم رغبتها، إذ شعر بضرورتها. وعلى كلٍ فهو لم يتفوه بهذه الأشياء إلا فى حالة سكره. لم يكن معتادًا على الشراب بانتظام قبل الحرب، فلم يكن معاقرًا للخمر ولكنه يفعل ذلك الآن. كان يشرب ويذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا يجر ساقه المعطوبة. وبعد برهة يبدأ فى الارتعاش. كانت أمى تحاول تهدئته ولكنه لم يكن يرغب فى أن يهدأ. كان يصعد إلى برج أفيليون الصغير متذرعًا برغبته فى التدخين. وما هى إلا حجة كى يبقى بمفرده. وهناك يحدث نفسه ويضرب الجدران ويشرب حتى يتخدر جسده. كان يترك أمى ليفعل ذلك لأنه لا يزال فى نظر نفسه رجلاً نبيلاً أو لعله كان يتمسك بأهداب المظاهر. فلم يشأ إخافتها. وأرى أنه علاوة على ذلك كانت رعاية أمى المفرطة له تثقل على نفسه كثيرًا.

خطوة خفيفة وخطوة ثقيلة، تتلوها خطوة خفيفة وأخرى ثقيلة مثل حيوان أعرج فى شرك. أثاث وصرخات مكتومة. زجاج يتكسر. كانت تلك الأصوات توقظنى فأرضية البرج كانت فوق حجرتى.

وبعدها أسمع خطواته يهبط الدرج؛ يتلوها صمت وخط أسود يلوح عبر المستطيل المغلق لباب حجرة نومى. لم أستطع رؤيته هناك ولكنى كنت أشعر به وحشا أعور دهمج يكتنفه حزن بالغ. كنت قد اعتدت على الأصوات، ولم أفكر أنه قد يؤذينى أبدًا، ومع ذلك تعاملت معه بحذر شديد.

لا أرغب أن أعطى انطباعا بأنه كان يفعل ذلك كل ليلة. وبمرور الوقت قلّت تلك الجلسات – أو ربما النوبات – وتباعد الزمن بينها. لكن يمكنك أن تشعر بقرب حدوث إحداها عندما تذم أمى شفتيها. كان لديها نوع من الردار ينبئها بمدى ارتفاع موجات غضبه.

هل أعنى القول بأنه لم يكن يحبها؟ كلا على الإطلاق. فقد كان يحبها ويخلص لها فى وجوه شتى. ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها، ونفس الشىء من

جانبها. فبدا الأمر وكأن كليهما تناول جرعة قاتلة من شراب سحرى يفرق بينهما إلى الأبد، مع حياتهما فى نفس المنزل وطعامهما على نفس المائدة ونومهما فى نفس الفراش.

لا أعرف أبدًا كيف يصبو المرء ويتوق إلى من لا يبرح ناظريه ليل نهار.

وبعد عدة أشهر بدأ أبى نزهاته الشائنة. لم يحدث هذا فى بلدتنا أو لعله لم يبدأ بها. فكان يستقل القطار إلى تورنتو لقضاء بعض الأعمال ويذهب للشراب والعبث. انتشر الخبر بسرعة مدهشة كما يحدث مع الفضائح غالبًا. ومن الغريب أن زاد ذلك من احترام أمى وأبى فى البلدة. فمن يلومه على ذلك؟ أما هى فمع كل ما كانت تحتمله، لم تنطق بكلمة شكوى واحدة. وهو ما كان يجب بالفعل.

كيف تأتى لى معرفة كل ذلك؟ فلم أكن أعرفهما كما يجب أن تكون المعرفة. لكن فى أسرة مثل أسرتنا يفصح الصمت عما هو أبلغ من الكلام – تعرف ذلك من ذم الشفتين وإشاحة الرأس والنظرة الجانبية السريعة. تنحنى الأكتاف إلى الأمام كأنما تنوء بحمل ثقيل. ولا عجب أن اعتدت أنا ولورا التصنت عند الأبواب.

كان أبى يعتمد فى سيره على مجموعة من العصى ذات المقابض الخاصة، سواء من العاج أو الفضة أو الأبنوس. فكان يصر على التأنق فى ملبسه. ولم يكن يتوقع أبدًا أن ينتهى به الأمر إلى إدارة أعمال العائلة، لكن بما أنه تولى المسئولية فلابد أن يقوم بها على خير وجه. كان بوسعه أن يبيع كل شىء، ولكن حدث أنه لم يجد مشتريًا أو لعله لم يجد من يشترى بالسعر الذى يحدده. علاوة على ذلك أنه شعر بأنه منوط بالتزام معين، إن لم يكن تجاه ذكرى والده، فمن أجل ذكرى أخويه المتوفيين. ومن ثم غير رأس الخطابات إلى تشاس وأولاده، وإن لم يبق منهم سوى ولد واحد. فقد أراد أن يكون له أولاد من صلبه، ويفضل أن يكونا اثنين ليعوضا الراحلين. لقد أراد صيانة تراث العائلة.

كان العاملون فى مصانعه يبجلونه. ولم يكن ذلك من أجل أوسمته وحدها. وبمجرد انتهاء الحرب تنحت النساء أو أزحن جانبًا ليحل محلهن من كان قادرًا

على العمل من الرجال العائدين. لكن لم تكن هناك أعمال كافية. فقد انتهت متطلبات الحرب. وانتشرت فى أنحاء البلاد تصفية الأعمال وتسريح العمال، ولكن لم يحدث ذلك فى مصانع أبى. فقد استأجر مزيدًا من العمالة، بل إنه استأجر بعض العائدين من الجندية. وكان يقول إنه من الحقارة ألا تعترف البلاد بالجميل وأن على رجال الأعمال رد بعض الدين. ومع ذلك فلم يفعل هذا سوى القليل منهم، وتغاضى معظمهم عن الأمر، أما أبى فلم يفعل. ومن ثم ذاع صيته على أنه أحمق مارق عن الجماعة.

أبدو للجميع أننى ابنة أبى، فأنا أشبهه كثيرًا، وقد ورثت عنه تجهمه وشكه الذى يلازمه. (وكذلك أوسمته فى النهاية، فقد تركها لى). عندما أبدو صعبة المراس أحرن على الانقياد تقول رينى إن لى طبعًا صعبًا تعرف من أين أتيت به. أما لورا فهى ابنة أمها. ورثت عنها الورع والتقوى فى بعض جوانبها؛ كما أنها تشبهها فى جبهتها العريضة الصافية.

ولكن المظاهر خداعة. فلم أستطع أبدا القيادة عبر جسر وكان أبى يستطيع ذلك، أما أمى فلا.

نحن الآن فى خريف عام ١٩١٩، نبذل ثلاثتنا بعض الجهد، أبى وأمى وأنا. كنا فى نوفمبر، وقت النوم تقريبًا، نجلس فى حجرة المعيشة فى أفيليون. وكان بالحجرة مدفأة تشتعل بها النار، إذ كان الجو يميل نحو البرودة. وكانت أمى تتماثل للشفاء من مرض غامض ألم بها حديثًا يقال إن له علاقة بالأعصاب. وكانت ترفو بعض الثياب وتصلحها. لم تكن بحاجة لأن تفعل ذلك، بل بوسعها أن تستأجر من يفعله، ولكنها كانت تحب أن تفعله بنفسها لتجد ما تشغل به يديها. فكانت تحيك زرًا تمزق عن أحد أثوابى: فقد شاع عنى أنى أسيىء التعامل مع ملابسى. وعلى منضدة مستديرة بجانبها سلة أدوات الحياكة المطرزة ببعض النباتات على الطريقة الهندية، بها المقص وبكر الخيط وبيضة الرفو الخشبية، مع نظارتها المستديرة الجديدة، وإن لم تكن بحاجة إليها للعمل الدقيق.

بدت أمى فى رداء أزرق سماوى له ياقة بيضاء عريضة وأساور بيضاء مزججة. أما شعرها فقد خطه الشيب قبل الآوان. ولكنها لم تفكر أبدًا فى صبغه كما لم يفكر المرء فى قطع يده، وبذلك كان لها وجه شابة يحيط به عش من زغب الشوك. فقد فرقته من المنتصف وسحبته إلى الوراء فى تموجات واسعة طبيعية لينعقد ملفوفًا خلف رأسها. (عند وفاتها بعد ذلك بخمس سنوات كانت قد جعلته بالغ القصر مسايرة للموضة، ولكنه كان أقل جاذبية). بدا جفناها مسدلين ووجنتاها مستديرتين وبطنها متكورًا. كانت ابتسامتها الخفيفة رقيقة، بينما يتألق وجهها فى نعومة تحت ظل قرمزى مشوب بالصفرة يلقيه المصباح الكهربائى.

وقبالتها جلس أبى على أريكة صغيرة متكئًا على الوسائد، لكنه بدا قلقًا وقد أسند إحدى يديه على ساقه المعطوبة، وراحت الساق تهتز إلى أعلى وإلى أسفل.

كنت أجلس إلى جواره، وإن لم أكن شديدة القرب، وكان يريح ذراعه على الأريكة خلف ظهرى دون أن يلمسنى. كان معى كتاب الهجاء أقرأ له منه لأريه أنى أستطيع القراءة، وإن لم يكن هذا حقيقيًا، فقد كنت أتذكر شكل الحروف والكلمات التى تناسب الصور. وفى أحد الأركان وضع جرامفون تخرج منه سماعة كبيرة على شكل زهرة كبيرة من المعدن. بدا لى صوتى مثل الصوت الذى يخرج منه أحيانًا، ضعيفًا ورفيعًا وبعيدًا؛ شيئًا يمكن إيقافه بلمسة إصبع.

أخذت أقرأ فى كتابى: "شطيرة التفاح الساخنة الطازجة، البعض يحصل منها على القليل ويحصل البعض على الكثير" ثم رفعت عينى نحو أبى لأرى ما إذا كان يعيرنى انتباهًا. فهو أحيانًا لا يسمع إذا حدثه أحد. فاجأنى وأنا أنظر إليه فابتسم لى ابتسامة خفيفة، وأخذت أستكمل القراءة: "طفل رقيق متورد الخدين صغير اليدين والقدمين".

ذهب أبى يتطلع من النافذة. (هل كان ينظر إلى نفسه خارج هذه النافذة؟ يتيمًا، منبوذًا إلى الأبد – هائمًا فى الليل؟ هل هذا ما كان يفترض أنه يحارب من أجله – تلك الحياة البسيطة الهادئة بجوار المدفأة، ذلك المشهد الذى تبدو فيه وسائل الراحة كأنما فى إعلان عن أحد منتجات القمح: الزوجة الصالحة الحنون ذات الوجنتين المستديرتين المتوردتين والطفلة المحبة المطيعة؟ ذلك الفتور المضجر؟ هل

كان يشعر ببعض الحنين إلى الحرب، رغم أنها مذبحة كريهة بلا جدوى؟ أمن أجل تلك الحياة الفطرية البسيطة؟)

وأخذت أتابع القراءة: "النار خادم مفيد، ولكنها سيد شرير، إذا تركتها وحدها تحرق سريعًا سريعًا."

وتظهر الصورة فى الكتاب رجلاً يقفز تندلع منه النيران فتخرج ألسنة اللهب من كعبيه وكتفيه بينما تخرج ألسنة صغيرة من رأسه. بدا الرجل عاريًا تماما ينظر خلفه بابتسامة عابثة غاوية. فلا النيران تؤذيه ولا يؤثر فيه. لذلك أحببت الرجل وأضفت إليه مزيدًا من ألسنة اللهب بقلم الطباشير الملون.

كانت أمى توخز إبرتها فى الزر وتقطع الخيط. وأنا أتابع القراءة بصوت يزداد توترًا. وكان أبى يحملق فى ألسنة اللهب يرقب الحقول والغابات والمنازل والبلدان والرجال والإخوة، كل شىء يتحول إلى دخان، وساقه المعطوبة تتحرك من تلقاء نفسها مثل كلب يجرى فى الأحلام. هاهو بيته، قلعته الحصينة، وهو حـــامى حماها. ومن النافذة بدت صفرة الشمس الغاربة تذوب لتتحول إلى اللون الرمادى. لم أكن أعرف بعد، ولكن لورا كانت على وشك أن تولد.

يوم الخبز

ذكر الفلاحون أن المطر لم يسقط بما يكفى. وبق الزيز يوخز الهواء بصيحاته اللافحة أحادية النغم، والغبار يدور فى دوامات على الطرق، وعلى الجوانب حيث تكثر رقع الأعشاب الضارة تنشط الجنادب وتدور. ومن أغصان أشجار القيقب تتدلى الأوراق مثل قفازات مرتخية مترهلة، وعلى رصيف الشارع يتكسر ظلى مطقطقا.

أخرج للسير مبكرة قبل اكتمال وهج الشمس. يستحثنى الطبيب على ذلك ويشجعنى: ويقول إنى أحرز تقدمًا. ولكن إلام أتقدم؟ أرى أن قلبى رفيقى فى مسيرة بلا نهاية مفروضة علينا، وقد ربط كلانا معًا فى حبل واحد لنكون كمتآمرين رغمًا عنا لتنفيذ مخطط أو مكيدة لا نفهمها ولا نملك مقاليدها. إلى أين نحن

ذاهبان؟ لليوم التالى. لا يفوتنى أن ما يبقينى على قيد الحياة هو نفسه ما سوف يقتلنى. وهو فى ذلك يشبه الحب أو نوعًا منه.

اليوم ذهبت ثانية إلى المقابر. لقد تَرك أحدهم باقة من زهور الزنيا البرتقالية والحمراء على قبر لورا، أزهار ساخنة الألوان أبعد ما تكون عن أن تبعث الراحة فى النفس. رغم ذبولها عند وصولى إلا أنها كانت مازالت تبعث رائحتها النفاذة. أشك أن أحد عشاق التزلق الرخيص أو المجانين المعتدلين قد سرقها من أحواض الزهور أمام مصنع الأزرار؛ ولكنه ذلك النوع من السلوك الذى كان يمكن للورا نفسها أن تفعله. فلم يكن لديها مفاهيم واضحة عن الملكية الخاصة.

وفى طريق عودتى توقفت عند متجر فطائر الدونت: فقد كان الجو حارًا بالخارج وأردت بعض الظل. يبعد المكان كل البعد عن أن يكون جديدًا، ويبدو بالغ التواضع فى مظهره رغم حداثته المتأنقة – من حيث الأرضية ذات اللون الأصفر الباهت، والمناضد البلاستيكية البيضاء المثبتة بالأرضية تحيط بها مقاعد نمطية الشكل. إنها تذكرنى ببعض المؤسسات؛ ربما بحضانة للأطفال فى أحد الأحياء الفقيرة أو مركز لمتحدى الإعاقة الذهنية. ليس هناك الكثير مما يمكن إلقاؤه أو استخدامه فى القطع: فحتى أدوات المائدة من البلاستيك. تنبعث من المكان رائحة زيت القلى الثقيل ممزوجة برائحة مطهر بعطر الصنوبر تغلفه مسحة من رائحة القهوة الفاترة.

اشتريت قدحًا صغيرًا من الشاى المثلج. وبعد أن رشفت نصفه اتجهت سيرًا على الأرض الزلقة نحو حمام السيدات. وفى طريقى كنت أجمع فى رأسى خريطة لكل الحمامات فى بورت تيجوندروجو التى يسهل الوصول إليها، وأيضًا ذلك الحمام فى محل فطائر الدونت والذى أفضله هذه الأيام. وذلك ليس لأنه أنظف من الآخرين أو أنه كثيرًا ما تجد فيه ورق تواليت، ولكن لأن به بعض الكتابات. يحدث ذلك فى كثير من الأماكن، ولكنه يغطى فى معظمها بالطلاء، ولكنها فى محل فطائر الدونت تبقى بادية للعيان فترة أطول. وبذلك لا يصبح هناك النص وحده ولكن التعليق عليه كذلك.

أما أفضل المتتاليات فى اللحظة الحالية فتلك المكتوبة فى الوحدة الوسطى. فالجملة الأولى مكتوبة بالقلم الرصاص بحروف مستديرة مثل تلك الموجودة على المقابر الرومانية، ومحفورة بعمق فى الطلاء: "لا تأكل شيئًا لست مستعدًا لقتله."

وبعدها بقلم الترقيم: "لا تقتل شيئًا لست مستعدًا لأكله." ويتلوها بالقلم الجاف: لا تقتل!" وبعدها بقلم الترقيم القرمزى: "لا تأكل!" وتحت ذلك كتبت الكلمة الأخيرة بحروف سوداء كبيرة: "اللعنة على النباتيين – "كل الآلهة يأكلون اللحوم" – لورا تشاس"

إذن لورا مازالت حية!

"تقول رينى إن لورا استغرقت وقتا طويلاً كى تولد فى هذا العالم. فبدا الأمر كأنها لم تحسم أمرها؛ ما إذا كانت تلك فكرة جيدة أم لا. وبعدها كانت مريضة فى البداية وكدنا نفقدها – أعتقد أنها كانت مازالت تتخذ القرار. لكن فى النهاية قررت أن تجرب، وبذلك تمسكت بالحياة وتحسنت صحتها."

تظن رينى أن الناس يقررون الموت عندما يحن الأجل، ولديهم بالمثل هاتف داخلى يخبرهم ما إذا كان عليهم أن يولدوا أم لا. وبمجرد أن بلغت السن التى أستطيع فيها الإجابة بتحد، تعودت أن أقول "لم أطلب أن أولد" وكأنها حجة مفحمة تحسم النقاش، وترد رينى فى سرعة وذكاء "لقد فعلتِ بالطبع، مثلما يحدث مع غيرك من الناس." وعلى حد تفكير رينى بمجرد أن نأتى إلى الحياة نتمسك بها.

بعد ميلاد رينى انتاب أمى مزيد من التعب. فتعكر مزاجها وخارت عزيمتها وصارت أيامها تمضى متثاقلة. وقال الطبيب إن عليها بمزيد من الراحة. "فهى ليست بصحة جيدة" هكذا قالت رينى لمسز هيلكوت التى كانت تأتى للمساعدة فى غسيل الملابس. بدا الأمر وكأن أمى السابقة خطفها الجان وحلت محلها تلك الأم الأخرى الأكبر سناً، الأكثر انحناء وشيبًا وإحباطًا. كنت فقط فى الرابعة من عمرى وقتها، وأفزعنى ذلك التغير فيها، وكنت أريد أن يضمنى أحد ويطمئنى، ولكن أمى لم يعد لديها طاقة لذلك. (لماذا أقول "لم تعد؟" فقد كان سلوكها كأم يركز على

التهذيب والتثقيف أكثر منه على الحدب والحنان. ففى داخلها ظلت معلمة فى مدرسة.)

وسرعان ما اكتشفت أننى لا يسمح لى بالبقاء فى نفس الحجرة مع أمى إلا إذا احتفظت بهدوئى دون إحداث ضجة لجذب الانتباه، وفوق ذلك إذا استطعت المساعدة – خاصة فيما يتعلق بالطفلة لورا، كأن أجلس بجانبها أرقبها وأهز مهدها حتى تنام، وهو ما لم يكن يحدث بسهولة أو لفترة طويلة. أما غير ذلك فهم يرسلوننى بعيدًا. ومن ثم كانت تلك هى التسوية التى أقوم بها: الهدوء والمساعدة.

كان لابد أن أصرخ، أن أثور غاضبة. وكما دأبت رينى أن تقول "وحدها العجلة ذات الصرير تحتاج إلى التشحيم".

(فى إطار من الفضة أبدو جالسة على منضدة صغيرة بجوار فراش أمى، فى ثوب داكن اللون له ياقة بيضاء مربوطة بشريط، ويدى البادية فى الصورة تقبض فى اضطراب على بطانية الرضيعة الكروشيه البيضاء وتمسكها فى عنف وخوف، بينما تتطلع عيناى إلى الكاميرا بنظرات تحمل اتهامًا للكاميرا أو لمن يمسكها. أما لورا نفسها فلا تظهر فى هذه الصورة. ولا يبدو منها سوى أعلى رأسها الصغير يغطيه زغب ناعم، وإحدى يديها الصغيرتين وقد تشابكت أصابعها حول إبهامى. هل كنت غاضبة لأنهم طلبوا منى أن أحمل الرضيعة، أم أننى كنت فعلاً أدافع عنها؟ أحميها – لا أريد أن أتركها؟)

كانت لورا رضيعة غير مستقرة، قلقة أكثر منها مشاكسة. وكانت أيضًا طفلة صغيرة قلقة؛ تزعجها ضلف صوان الملابس وأدراج الملابس الصغيرة؛ تنصت دائمًا إلى شيء يأتى عن بعد أو من تحت الأرض – شيء يقترب دونما صوت، مثل قطار صنع من هواء. كما كانت تعانى من أزمات لا تعليل لها – فتشرع فى البكاء لغراب ميت، أو قطة سحقتها سيارة، أو سحابة سوداء فى سماء صافية. ومن ناحية أخرى كانت لديها مقاومة بالغة للألم الجسدى فلا تبكى كعادة الأطفال إذا أحرقت فمها أو جرحت نفسها. إنما كانت تحزنها أحقاد العالم وضغائنه.

كان يزعجها بشكل خاص المشوهون من المحاربين القدماء على نواصى الشارع – مثل المتسكعين وبائعى الأقلام الرصاص وبائعى الأوانى، ممن أصابهم العجز والإحباط فلا يستطيعون العمل فى أى شىء. فتشرع فى البكاء لرؤية رجل متوهج الوجه مقطوع الساقين يدفع نفسه على عربة خشبية مسطحة. ربما كان ذلك بسبب الغضب الحانق فى عينيه.

وكما يفعل الأطفال دائمًا كانت لورا تعتقد أن الكلمات تحمل معانيها الظاهرة، ولكنها تتطرف كثيرًا فى التفسير. فلا يمكنك أن تقول لها "اذهبى ألقى نفسك فى البحيرة" دون عواقب. فكانت رينى دائمًا تعنفنى قائلة "ماذا قلت للورا؟ ألا تتعلمين أبدًا؟" ولكن رينى نفسها كانت لا تتعلم تمامًا. ففى مرة طلبت من لورا أن تبلع لسانها لأن ذلك يمنعها من إلقاء الأسئلة وبعد ذلك لم تستطع لورا المضغ لأيام.

والآن أذكر موت أمى. قد تكون عبارة مبتذلة ومستهلكة أن أقول إن هذا الحدث غير كل شىء. ولكنها صادقة أيضًا ولذلك سأكتبها: "لقد غير ذلك كل شىء".

حدث ذلك فى أحد أيام الثلاثاء. وهو يوم الخبز. ففى مطبخ أفيليون كنا نخبز دفعة واحدة كل ما نحتاجه من خبز للأسبوع كله. فرغم وجود مخبز صغير فى تيكونديروجو فى ذلك الوقت، كانت رينى تقول إن خبز المحلات للكسالى وإن الخباز يضيف الطباشير لزيادة حجم الدقيق ومزيد من الخميرة لنفخ الأرغفة بالهواء فيوهمنا بالحصول على المزيد. ومن ثم كانت تصنع الخبز بنفسها.

لم يكن المطبخ فى أفيليون مظلمًا مثلما كان الكهف الفكتورى الملوث بالسخام قبل ذلك بثلاثين عامًا. بل كان مطبخًا أبيض – جدرانه بيضاء، وبه موقد من الخشب الأبيض المقاوم للاحتراق، وأرضيته من البلاط الأبيض والأسود – وستائر صفراء فى لون النرجس تنسدل على النوافذ التى تم توسيعها حديثًا. (فقد أعيد إنشاء هذه النوافذ بعد الحرب كإحدى هدايا أبى البسيطة لاسترضاء أمى.) تعتبر رينى هذا المطبخ أحدث طراز، وظلت تحافظ عليه بالغ النظافة بعد ما علمته لها أمى عن الجراثيم وطرقها المقززة وأماكن اختبائها.

وفى أيام الخبيز تعطينا رينى بقايا العجين لنصنع منها رجالاً من الخبز، كما تعطينا الزبيب للأعين والأزرار. وبعدها تخبزه لنا. كنت آكل نصيبى أما لورا فكانت تدخره. وذات مرة عثرت رينى على صف كامل منها فى درج لورا العلوى ملفوف فى مناديلها وقد تيبس كالحجر فصار مثل مومياوات كعكية الأوجه. قالت رينى إنها تجذب الفئران ولابد من إلقائها مباشرة فى القمامة، لكن لورا صممت على إقامة جنازة ودفن جماعى فى حديقة المطبخ وراء شجيرة الراوند البستانى. وطالبت بإقامة الصلوات عليها، وإلا فلن تتناول عشاءها بعد ذلك. فقد كانت دائمًا شديدة التعنت فى المساومة بمجرد شروعها فى ذلك.

حفرت رينى الحفرة. كان ذلك فى يوم عطلة البستانى، فاستخدمت مجرافه، وكان غير مسموح لشخص آخر باستخدامه، ولكن كانت تلك حالة طارئة. وبينما كانت لورا تصف رجالها المصنوعين من الخبز فى صف متناسق قالت رينى: "اللهم ارحم زوجها، فهى عنيدة كخنزير."

وقالت لورا: "لن يكون لى زوج، بل سأعيش بمفردى فى الجراج."

وقلت: "وأنا أيضًا لن يكون لى زوج."

قالت رينى: "مستبعد أن يحدث ذلك. فأنت تحبين فراشك الناعم الوثير. وفى الجراج ستنامين على الأسمنت وتتغطين بالشحم والزيت."

قلت: "سأعيش فى المستنبت الزجاجى."

قالت رينى: "لم تعد به تدفئة، فستتجمدين حتى الموت فى الشتاء."

قالت لورا: "سأنام فى إحدى السيارات".

فى ذلك الثلاثاء المشئوم تناولنا فطورنا فى المطبخ مع رينى من عصيدة الشوفان والخبز المحمص ومربى البرتقال. أحيانًا كنا نتناوله مع أمنا، لكن فى ذلك اليوم كان التعب قد بلغ منها مبلغه. كانت أمى أكثر من رينى صرامة، فكانت تجعلنا نجلس منتصبى القامة ونأكل كسرات الخبز. كانت تقول: "تذكرا الجياع من الأرمنيين."

ربما لم يعد الأرمنيون جياعا فى ذلك الوقت. فقد انتهت الحرب منذ وقت طويل وعاد النظام. لكن بقيت أزمتهم فى عقل أمى كشعار، تعويذة ودعاء وصلاة. فلابد أن نأكل كسرات الخبز المحمص تخليدًا لذكرى أولئك الأرمنيين، مهما كانوا؛ فأن نرفض أكل تلك الكسرات لهو انتهاك للمقدسات. لابد أننا كنا أنا ولورا نفهم مدى تأثير هذه التعويذة، لأنها لم تفشل أبدًا.

فى ذلك اليوم لم تأكل أمى كسرات الخبز الخاصة بها. أذكر ذلك. فقد أخذت لورا تحثها على ذلك بقولها "وماذا عن كسرات الخبز، ماذا عن الأرمنيين الجياع؟"، حتى اعترفت أمى فى النهاية بأنها ليست على ما يرام. عندما قالت ذلك شعرت بقشعريرة تنساب فى أوصالى كتيار كهربائى، لأنى كنت أعرف. كنت أعرف طول الوقت.

كانت رينى تقول إن الله يصنع الناس بنفس الطريقة التى تصنع هى بها الخبز، ولذلك تنتفخ بطون الأمهات عندما يوشكن على إنجاب طفل: إنه انتفاخ العجين. كانت تقول إن غمازاتها بصمات أصابع الله، وإن لها غمازات ثلاثة بينما بعض الناس ليس لديهم أى منها، فالله لم يخلق الناس على شكل واحد، وإلا أصابه السأم من الأمر كله، ولذلك وزع الأشياء فى غير انتظام. قد يبدو الأمر ليس عدلاً ولكنه سيكشف عن عدل فى النهاية.

فى تلك الفترة التى أحكى عنها، كانت لورا فى السادسة من عمرها، بينما كنت أنا فى التاسعة. وكنت أعلم أن الأطفال لا يصنعون من عجين الخبز، فتلك قصة للصغار مثل لورا. لكن كنت لا أعرف تفسيرًا مفصلاً للموضوع.

فى ساعات الأصيل كانت أمى تجلس فى الشرفة تغزل بالتريكو. كانت تغزل سترة صغيرة، مثل تلك السترات التى كانت تغزلها للاجئين خارج البلاد. هل كانت تلك السترة لأحد اللاجئين أيضًا؟ أردت أن أعرف. كانت تقول وهى تبتسم: "ربما". وبعد فترة كان يغلبها النعاس، فتنغلق عيناها بثقل، وتسقط نظارتها المستديرة. كانت تقول لنا إن لها عينين فى مؤخرة رأسها، وبذلك تعرف عندما

نقترف خطأً. تخيلت تلك العينين مثل عدستى النظارة مسطحتين ولامعتين ولا لون لهما.

لم يكن من عاداتها أن تنام طويلاً فى ساعات الأصيل. كان هناك الكثير مما لم تعتده. لم يزعج ذلك لورا ولكنه كان يزعجنى. فقد كنت أستجمع الأمر مما يخبروننى به ومما أسترق السمع إليه. قالوا لى: "تحتاج أمك بعض الراحة، ولذلك عليك أن تأخذى لورا بعيدًا عنها." أما ما استرقت السمع إليه فما كانت تقوله رينى لمسز هيلكوت: "الأطباء ليسوا متفائلين. ربما يتساوى الأمر. بالطبع هى لم تذكر شيئًا لكنها ليست على ما يرام. بعض الرجال لا يجيدون أبدًا إصلاح الأمور." وبذلك عرفت أن أمى فى خطر ما، فهناك شىء يتعلق بصحتها، وآخر يتعلق بوالدى، مع أنى لم أكن على يقين مما عساه أن يكون ذلك الخطر.

ذكرت أن الأمر لم يزعج لورا، ولكنها كانت متعلقة بأمنا أكثر من المعتاد. فكانت تجلس متربعة فى المساحة الطرية من الشرفة عندما كانت أمى تأخذ قسطًا من الراحة، أو تجلس خلف مقعدها عندما كانت تكتب الخطابات. وعندما تكون أمى فى المطبخ كانت لورا تحب أن تكون تحت منضدة المطبخ. فقد سحبت وسادة إلى هناك وكتاب الهجاء الخاص بها، وهو الكتاب الذى كان لى من قبل.

ففى ذلك الوقت كانت لورا تستطيع القراءة، أو على الأقل بإمكانها قراءة كتاب الهجاء. وكان حرف "اللام" حرفها المفضل، لأنه الحرف الذى يستهل به اسمها، "لام لورا". أما أنا فلم يكن لى حرف مفضل يستهل به اسمى – "ألف أيريس" – ولكن الألف هو حرف لكل الناس.

"لام "ليلى"

نقية وبيضاء؛

تتفتح فى الصباح

وتغلق فى المساء"

مكتبة

تضم الصورة فى الكتاب طفلين فى قبعتين من القش قديمتى الطراز بجوار بركة زهور الليلى (زنبق الماء) تجلس عليها جنية عارية تمامًا ذات جناحين رقيقين متلألئين. وكانت رينى تقول إنها لو صادفت شيئًا كهذا لطاردته بمضرب الذباب. كانت تقول ذلك لى على سبيل الدعابة، ولكنها لم تقله للورا، لأنها قد تأخذه على محمل الجد وتغضب.

كانت لورا "مختلفة". كنت أعرف أن "مختلفة" بمعنى "غريبة" ولكنى كنت أمازح رينى بقولى "ماذا تعنين بأنها مختلفة؟" فكانت تجيب: "ليست كسائر الناس".

لكن لعل لورا لم تكن شديدة الاختلاف عن سائر الناس فى النهاية. فربما كانت مثلهم – لها بعض الصفات الغريبة التى يحرص معظم الناس على إخفائها، أما هى فلا، ولذلك يخشونها؛ وإن لم يكونوا يخشونها فهى تقرع جرس الإنذار لهم على نحو ما، ويزداد ذلك مع تقدمها فى العمر.

أعود إلى يوم الثلاثاء فى المطبخ. كانت رينى وأمى يعدان الخبز. كلا كانت رينى تعد الخبز وأمى تتناول قدحًا من الشاى. كانت رينى قد قالت لأمى ألاَّ تندهش إذا أرعدت السماء فى نهاية اليوم، فالهواء مشبعٍ، وعليها أن تخرج إلى الشرفة أو ترقد؛ ولكن أمى قالت إنها لا تحب ألا تفعل شيئًا. فذلك يجعلها تشعر باللا جدوى، ثم إنها تحب أن تبقى بجوار رينى.

كانت أمى لا تحب إصدار الأوامر إلى رينى. ولذلك جلست تحتسى الشاى بينما وقفت رينى عند المنضدة تفرد كومة عجين الخبز وتضغط عليها بكلتا يديها، تفرد وتلف وتضغط. وتغطت يداها بالدقيق فبدت وكأنها ترتدى قفازًا من الدقيق الأبيض. وتناثر الدقيق على مئزرها أيضًا. ورسم العرق نصف دائرة تحت إبطيها فدكن اللون الأصفر لزهور الأقحوان المرسومة على ردائها المنزلى. وكانت بعض الأرغفة قد أعدت وصارت جاهزة فى الوعاء وعلى كل منها منشفة أطباق نظيفة. وامتلأ المطبخ برائحة المشروم الرطب.

كان المطبخ حارًا لأن الفرن يحتاج فرشة جيدة من الفحم، وأيضًا لأنه كانت هناك موجة حارة. كانت النافذة مفتوحة، فانسابت منها حرارة الجو إلى الداخل. كنا

نأتى بدقيق الخبز من برميل كبير فى حجرة الخزين. لا يجب أبدًا أن يقفز أحد داخل هذا البرميل لأن الدقيق سيدخل إلى أنوفنا ويخنقنا. تعرف رينى طفلاً صغيرًا تعثر داخل برميل الدقيق بعد أن قلبه فيه إخوته وأخواته وكاد يختنق حتى الموت.

كنت أنا ولورا تحت منضدة المطبخ. كنت أقرأ كتابًا مصورًا للأطفال بعنوان "عظماء من التاريخ". كان نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هيلينا يقف على جرف واضعًا يده داخل معطفه. فكرت أنه لابد أنه كان يعانى من ألم بالمعدة. كانت لورا قلقة. فزحفت خارجة من تحت المنضدة لتشرب بعض الماء. فسألتها رينى: "هل تريدين بعض العجين لتصنعى رجلاً من الخبز؟" فقالت لورا: "كلا!" فقالت أمى بل تقولين: "كلا، شكرًا".

وزحفت لورا عائدة إلى أسفل المنضدة. ومن مكاننا كنا نرى أقدام الاثنتين، قدمى أمى الصغيرتين وقدمى رينى الكبيرتين فى حذائهما الخشن القوى، وكذلك ساقى أمى النحيفتين وساقى رينى المكتنزتين فى جوربهما الذى يجمع بين الوردى والبنى. كنا نسمع صوت إدارة عجين الخبز ودقه. وفجأة سقط قدح الشاى وتحطم وسقطت أمى على الأرض، وركعت رينى بجوارها وهى تقول: "يا إلهى! أيريس، اذهبى وأحضرى والدك."

هرعت إلى المكتبة. كان جرس التليفون يرن ولكن أبى لم يكن موجودًا. فصعدت السلالم إلى برجه الصغير، وهو عادة مكان محظور. كان الباب مفتوحًا وما فى الحجرة من شىء سوى مقعد وبعض منافض السجائر. لم يكن فى الردهة الخارجية، ولا فى حجرة المعيشة ولا فى الجراج. وفكرت أنه لابد أن يكون بالمصنع، ولكنى لم أكن على يقين من ذلك، بالإضافة إلى أنه كان بعيدًا. لم أعرف مكانًا آخر أبحث فيه.

عدت ثانية إلى المطبخ وزحفت أسفل المنضدة حيث كانت لورا تجلس محتضنة ركبتيها. لم تكن تبكى. وكان على الأرض شىء يشبه الدماء، أو أثرا للدماء، فقد كانت بقع حمراء قاتمة على البلاط الأبيض. مددت إصبعًا إليها ولعقتها – لقد كانت دماء بالفعل. أتيت بقطعة قماش ومسحتها. وقلت للورا: "لا تنظرى!"

وبعد برهة جاءت رينى من السلم الخلفى وأدارت قرص الهاتف وطلبت الطبيب – لم يكن موجودًا بل يتسكع فى مكان ما كالمعتاد. وبعدها اتصلت بالمصنع وطلبت والدى. لم يستطيعوا العثور عليه. فقالت: "حاول العثور عليه وأخبره إنه أمر طارئ!" وبعدها أسرعت إلى أعلى مرة أخرى. وكانت قد نست كل شيء عن الخبز الذى انتفخ كثيرًا ثم هبط وفسد.

وقالت رينى لمسز هيلكوت: "كان يجب ألا تكون فى هذا المطبخ الحار وفى هذا الجو مع قدوم عاصفة رعدية، ولكنها لا ترحم نفسها، ولا يمكن أن يقول أحد لها شيئًا."

وسألت مسز هيلكوت بصوت تملؤه الشفقة والرغبة فى المعرفة: "هل كانت تشعر بألم مبرح؟"

قالت رينى: "رأيت أسوأ من ذلك. لكن نشكر الله على رحمته. فقد انزلق مثل قطة صغيرة، ولكنها نزفت كثيرًا. سنحتاج أن نحرق حشية الفراش، فلا أعرف كيف ننظفها."

قالت مسز هيلكوت: "آه يا عزيزتى، بوسعها أن تنجب طفلاً آخر. لابد أنها قصدت ذلك. فلابد أنه كان بها عيب ما."

قالت رينى: "لا ليس باستطاعتها ذلك حسبما سمعت. فالطبيب يقول الأفضل أن تتوقف عن ذلك؛ فطفل آخر سيقتلها وكاد ذلك أن يحدث."

قالت مسز هيلكوت: "بعض النساء يجب ألا يتزوجن. فهن لسن مؤهلات لذلك. فلابد أن تكون المرأة قوية. فلقد أنجبت أمى عشرة ولم يطرف لها عين. وليس ذلك فحسب، بل عاشوا جميعًا."

قالت رينى: "أنجبت أمى أحد عشر فقضوا عليها."

كنت أعرف من خبرات سابقة أن تلك كانت مقدمة للمباراة حول صعوبة حياة أم كل منهما، وأنهما سرعان ما يتناولان موضوع الغسيل. اصطحبتُ لورا من يدها وصعدنا السلم الخلفى على أطراف أصابعنا. انتابنا القلق وشدة الفضول

أيضا: فقد أردنا معرفة ما حدث لأمنا وأردنا أيضًا رؤية القطة الصغيرة. وكانت هناك إلى جانب كومة من الملاءات المشبعة بالدماء على أرضية الردهة بجوار حجرة أمي في حوض من الخزف. ولكنها لم تكن قطة صغيرة، بل شيئًا رماديًا مثل حبة بطاطس قديمة مطبوخة، كبير الرأس ومنكور على نفسه. كانت العينان مغمضتين في تجعد وكأنما يؤذيهما الضوء.

وهمست لورا: "ما هذا؟ إنه ليس قطة صغيرة" وقرفصت على الأرض تنظر بإمعان.

قلت لها: "هيا نهبط إلى أسفل" فقد كان الطبيب لا يزال بالحجرة، كنا نسمع وقع خطواته. كنت لا أريده أن يمسك بنا، لأني أعلم أن هذا المخلوق محظور علينا؛ كنت أعرف أنه كان لا يجب أن نراه. خاصة لورا – فقد كان يبدو كحيوان مسحوق مما قد يدعوها للصراخ، وبعدها كنت أنا التي ستتعرض للوم.

وقالت لورا وهي هادئة على نحو مدهش: "إنه طفل رضيع. المسكين لم يرغب أن يولد."

وفي وقت متأخر من الأصيل صحبتنا ريني لرؤية أمنا. كانت راقدة في الفراش ورأسها مرتفع على وسادتين، وذراعاها النحيفان خارج الغطاء، وشعرها الآخذ في البياض يبدو شفافا، وخاتم زفافها يتلألأ في يدها اليسرى بينما يتجعد الغطاء تحت قبضة يديها من الجانبين. كان فمها مشدودًا كأنما تفكر في شيء؛ وهي نفس نظرتها عندما تعد قوائم الأشياء. كانت عيناها مغمضتين، وقد انسدل فوقهما الجفنان في انحناء، فبدت العينان في إغماضهما أكبر منهما في صحوهما. وعلى منضدة جانبية بجانب الفراش وبجوار دورق الماء وضعت نظارتها ذات العدستين المستديرتين اللامعتين.

وهمست ريني: "إنها نائمة، فلا تلمساها."

وفتحت أمي عينيها، وارتعش فمها وانفكت أصابع يدها القريبة منا. فقالت ريني: "بوسعكما احتضانها لكن ليس بشدة." ففعلتُ كما قالت. أما لورا فدست

رأسها بقوة تحت ذراع أمي. وانبعثت في المكان رائحة اللافندر من الملاءات ورائحة الصابون من أمي، وبينهما رائحة شيء صدئ يختلط بعبق أوراق الشجر الرطبة المحترقة.

رحلت أمي بعد ذلك بخمسة أيام. ماتت بالحمى، وأيضًا بسبب ضعفها، وإنها لم تتمكن من استعادة قوتها، كما تقول ريني. وفي تلك الأثناء كان الطبيب يجيء ويذهب، وعلى المقعد الوثير في حجرة النوم توافد حشد من الممرضات المشهود لهن بالمهارة، ولكنهن متحجرات المشاعر أيضًا. وكانت ريني تهرع صاعدة الدرج هابطة، تحمل الأحواض والمناشف وأقداح الحساء. وكان أبي يذهب ويجيء من المصنع يعلوه القلق ويظهر على مائدة العشاء ممتقع اللون شاحب الوجه كأنه متسول فقير. أما أين كان عصر ذلك اليوم حين لم يتم العثور عليه، فلا أحد يفصح عن شيء.

كانت لورا تربض في ردهة الطابق العلوي. فطلبوا مني أن ألعب معها حتى أبعدها عن سبيل الخطر، ولكنها لم تشأ ذلك. وكانت تجلس عاقدة ذراعيها حول ركبتيها مسندة ذقنها عليهما، وعلى وجهها تعبير غامض، وقد بدت مستغرقة في تفكير عميق وكأنها تستحلب قطعة من الحلوى. وحيث إنه لم يكن يسمح لنا بالحلوى، جعلتها تظهر ما في فمها، ولم يكن سوى حبة حصى بيضاء مستديرة.

في ذلك الأسبوع الأخير سمح لي برؤية أمي كل صباح لدقائق معدودة. لكن لم يسمح لي بالتحدث إليها، فقد كانت، كما تقول ريني، تهذي. ويعني هذا أنها كانت تظن نفسها في مكان آخر. كانت تتلاشى يومًا بعد يوم، ولم يبق منها سوى القليل. فقد نتأت عظمتا الخدين، وراحت تفوح منها رائحة مثل اللبن تختلط برائحة شيء نيئ زنخ مثل رائحة الورق البني الذي يأتينا ملفوف فيه اللحم.

في تلك الزيارات سيطر عليَّ الوجوم والامتعاض. فقد شعرتُ أن أمي تخونني، تتخلى عن واجباتها وتتنازل عن العرش. لم أفكر أنها قد تموت. فقد كنت أخشى ذلك الاحتمال في البداية، ولكنه بعد ذلك صار يرعبني حتى إنني طردته من فكري.

فى صباح اليوم الأخير، الذى لم أكن أعرف أنه الأخير، بدت أمى وقد استعادت نفسها عن ذى قبل. بدت أكثر هزالاً، لكن فى الوقت نفسه أكثر استجماعًا لذاتها. فنظرت إلىَّ كأنها ترانى وهمست: "الضوء قوى هنا، هل يمكنك إسدال الستائر؟" فلبيت طلبها ثم عدت لأجلس بجوارها، ألوى المنديل الذى أعطته لى رينى لاستخدامه إذا بكيت. أمسكت أمى بيدى؛ كانت يدها ساخنة وجافة وأصابعها مثل الأسلاك الناعمة.

وقالت: "كونى فتاة عاقلة، أرجو أن تكونى أختًا طيبة للورا، أعرف أنك تحاولين ذلك."

فأومأت لها برأسى. لم أجد ما أقوله. فقد شعرت أننى ضحية ظلم: لماذا أنا دائمًا من يفترض أن تكون أختًا طيبة للورا، وليس العكس؟ بالتأكيد أمى تحب لورا أكثر مما تحبنى.

ربما الأمر ليس كذلك؛ ربما هى تحبنا بنفس القدر. أو لعلها لم تعد قادرة أن تحب أحدًا: فقد انتقلت إلى ما وراء ذلك، بعيدًا إلى الاستراتوسفير، تلك المنطقة العليا من الغلاف الجوى الباردة برودة الثلج، بعيدًا عن المجال المغناطيسى الدافئ المتماسك للحب. ولكنى لم أستطع تخيل مثل ذلك الشىء. فقد كان حبها لنا عطية محسوسة ملموسة مثل قطعة من الكعك. والسؤال الوحيد هو إيانا تحصل على القطعة الأكبر.

من أى شطحة من شطحات الخيال صنعت الأمهات. إنهن مثل فزاعات الحقول أو عرائس الشمع، نرشق فيهن الدبابيس ونرسم عليهن خطوطنا الأولية. ننكر أن يكون لديهن وجود مستقل بذواتهن، بل نجعلهن يتواءمن معنا – يشبعن جوعنا ويحققن أمنياتنا، وأن يعوضن ما نشعر به من نقص. الآن أصبحت أعرف ذلك بعد أن صرت أمًا أنا نفسى.)

نظرت إلى أمى بعينيها السماويتين نظرة ثابتة شاخصة. فكم يشق عليها أن تُبقى عينيها مفتوحتين. وكم بدوت بعيدة عنها مثل مصباح قرمزى يومض عن

بعد. كم كان يشق عليها أن تركز نظرها علىَّ. ومع ذلك لم أر جانبًا من جلدها الشديد.

أردت القول إنها لم تصب الرأى فيما يتعلق بى أو بنواياى. فلم أجتهد دومًا كى أكون أختًا طيبة، بل على العكس. فأحيانًا كنت أقول للورا إنها متطفلة وأطلب منها ألا تزعجنى، والأسبوع الماضى فقط وجدتها تلعق أحد مظاريفى الخاصة بعبارات الشكر، فأخبرتها أن الصمغ الموجود به من مادة تسبب العطس والميل للقىء. وأحيانًا كنت أختبئ منها داخل تجويف فى شجيرة الليلك بجانب الدير حيث أقرأ الكتب وقد دسست إصبعى فى أذنى بينما هى تتجول فى المكان باحثة عنى وتناديني دون جدوى. وغالبًا ما كنت أفعل أقل المطلوب.

ولكن لم تسعفنى الكلمات للتعبير عن اختلافى مع رؤية أمى للأشياء. لم أكن أعرف أنى سأحيا وفكرتها عن صلاحى تلتصق بى مثل شعار، دون أن تتاح لى فرصة مناقشتها فى الأمر (كما هو المعتاد بين أم وابنتها - ليتها عاشت حتى أكبر.)

الشرائط السوداء

كانت الشمس متوهجة ساعة الغروب الليلة، واستغرقت وقتًا كى تزول. فى الشرق يخفق البرق فوق السماء المعلقة، يتبعه رعد مفاجئ، وبعدها فجأة يظهر باب يصفق بعنف. البيت شديد الحرارة كفرن، رغم مروحتى الجديدة. أحضرت مصباحًا بالخارج؛ أحيانًا أرى أفضل فى العتمة.

لم أكتب شيئًا الأسبوع الماضى. خارت عزيمتى وتقاعست عن ذلك. فلماذ أدون تلك الأحداث الحزينة؟ ولكنى لاحظت أنى بدأت ثانية. استأنفت خربشاتى السوداء، تنساب عبر الصفحة فى خيط طويل من الحبر متشابكة لكنها مقروءة. هل أنوى التوقيع بعد ذلك؟ على كل فلقد حرصت على تجنب اسم أيريس أو ما يدل

عليه، مهما بدا ذلك مقتضبًا: فالحروف الأولى على الأرصفة أو علامة x على الخرائط لتدل على القراصنة، كلها تكشف الشاطئ حيث الكنز المدفون.

لماذا نشغف بتخليد أنفسنا حتى ونحن أحياء؟ نود أن نؤكد وجودنا مثل كلاب تبول على صنبور الإطفاء. نعرض صورنا المؤطرة، ودبلوماتنا فى أغلفتها الجلدية، وكئوسنا الفضية، نحفر حروفنا الأولى على أنسجتنا الكتانية ومفروشاتنا، نحفر أسماءنا على الأشجار ونكتبها على جدران دورات المياه. يحركنا الدافع نفسه فى كل الأحوال. ماذا نرجو من وراء ذلك؟ أنبحث عن الاستحسان، الحسد أم الاحترام؟ أو لعلنا نسعى إلى مجرد لفت الانتباه والاهتمام من أى نوع؟

إننا فى النهاية نرغب أن يكون لنا شاهد. فلا نحتمل فكرة أن تسكت أصواتنا فى النهاية مثل مذياع تم إغلاقه.

بعد جنازة أمى بيوم أرسلت أنا ولورا إلى الحديقة. أرسلتنا رينى إلى الخارج قائلة إنها تود الاسترخاء قليلاً فقد أنهكها التعب طوال اليوم. وقالت: "لقد بلغ بى الأمر مبلغه". وبدت تحت عينيها بقع أرجوانية، فخمنتُ أنها كانت تبكى خلسة حتى لا تزعج أحدًا، وأنها ستفعل ذلك ثانية عندما نبتعد عنها.

قلت لها: "سنلتزم الهدوء." لم أرغب فى الخروج، فالشمس كانت متوهجة وكنت أشعر بجفنى متورمين وحمراوين، ولكن رينى قالت إن علينا أن نخرج فالهواء الطلق يفيدنا. وهى لم تطلب منا أن نخرج لنلعب فهو أمر غير لائق بعد وفاة أمى مباشرة، ولكنها طلبت منا أن نخرج فحسب.

أقيم استقبال الجنازة فى أفيليون. لم يطلق عليه السهر بجوار جسد المتوفى – فهذه المراسم كانت تقام على الجانب الآخر من نهر الجوج وهى مشينة يصحبها صخب واحتساء للخمر. أما ما أقمناه نحن فكان استقبالاً فحسب. كانت الجنازة قد شيعت وحضرها العاملون فى المصنع وزوجاتهم وأبناؤهم وبالطبع وجهاء البلدة من موظفى البنوك ورجال الدين والمحامون والأطباء، أما الاستقبال فلم يكن للجميع، مع أنه كان يمكن أن يكون كذلك. فقد قالت رينى لمسز هيلكوت، التى استؤجرت للمساعدة، إذا كان المسيح ضاعف الخبز والسمك، إلا أن كابتن تشاس

ليس المسيح ولا ينتظر منه أن يطعم الجموع المحتشدة، كما أنه كالمعتاد لا يعرف كيف يضع الحدود، وهى إنما ترجو ألا يتدافع أحد حتى الموت.

تكدس المدعوون فى المنزل مكتئبين ومجاملين ونهمين للاستطلاع. وكانت رينى قد أحصت الملاعق قبل وبعد، وقالت إنه كان علينا استخدام الأنواع الأقل جودة لأن بعض الناس قد يسرقون أى شيء ليس مثبتًا بالمسامير للاحتفاظ به تذكارًا، وإذا نظرنا إلى الطريقة التى كانوا يأكلون بها نرى أنه كان عليها أيضًا أن تضع مجارف بدلاً من الملاعق.

ومع ذلك فقد تبقى بعض الطعام – نصف خنزير، وكومة صغيرة من البسكويت، وأصناف من الكعك –وكنت أنا ولورا نتسلل خفية إلى حجرة الخزين. علمت رينى أننا كنا نفعل ذلك، ولكنها لم تكن قادرة حينئذ على إيقافنا – كأن تقول: "ستفقدان شهيتكما للعشاء" أو "كفا عن قرطمة خزينى وإلا تحولتما إلى فأرتين" أو "كلا نتفة أخرى وتنفجران" – أو تنطق بغير ذلك من التحذيرات أو التنبؤات التى كنت أجد فيها راحة خفية.

سمح لنا فى ذلك الوقت أن نملتيء بالطعام دون أن يثنينا أحد. فقد أكلت عددًا كبيرًا من قطع البسكويت وعدة شرائح من لحم الخنزير، وقطعة كاملة من كعكة الفواكه. وكنا لانزال نرتدى السواد الذى كان يشعرنا بحرارة شديدة. وصففت رينى شعر كل منا فى ضفائر محكمة وشدتها للوراء بشريط أسود عند رأس كل ضفيرة، وآخر عند نهايتها: فكان على رأس كل منا أربع فراشات سوداء.

فى الخارج حال الضوء دون أن أفتح عينى كاملة. ساءنى الأخضر الصارخ فى أوراق الشجر، والأصفر الزاهى والأحمر القانى فى الأزهار: غضبت من ثقتها وتباهيها المتلألئ وكأن ذلك من حقها. فكرت أن أضرب أعناقها وأفسدها. شعرت أنى منبوذة يملؤنى التذمر حتى انتفخت أوداجى وتدافع الدم إلى رأسى.

أرادت لورا أن نتسلق تماثيل أبى الهول بجوار المستنبت الزجاجى، ولكنى رفضت. وبعدها أرادت أن تذهب لتجلس بجوار الحورية الحجرية وتراقب السمك الذهبى. لم أجد غضاضة فى ذلك. قفزت لورا إلى المرج أمامى. فقد كانت خالية

البال بما يثير الإزعاج وكأنه ليس هناك ما يهمها فى العالم؛ وقد كانت كذلك طوال جنازة أمى. فقد بدت حائرة أمام حزن من حولها. ومما زاد من اعتلاج الحزن فى نفسى أن ذلك جعل الناس يشعرون بالأسى نحوها أكثر مما يشعرون به نحوى.

فكانوا يقولون: "ياالحمل المسكين، إنها صغيرة جدًا ولا تدرك." وقالت لورا: "أمى مع الله. حقًا فكانت هذه هى الصيغة الرسمية ومضمون كل ما ذكر من صلوات؛ ولكن لورا لها طريقتها الخاصة فى الاعتقاد فى مثل هذه الأشياء، فهى لا تفهمها على نحو مزدوج كما يفعل الناس، ولكنها تنهج أسلوبًا هادئًا أحادى التفكير، مما جعلنى أرغب فى إفاقتها.

جلسنا على حافة حوض الزنبق، وكان قلب كل زهرة يتلألأ فى ضوء الشمس مثل قطعة من المطاط الأخضر الندى. وكان علىَّ أن أرفع لورا عاليًا. فقد انحنت نحو الحورية الحجرية تهز ساقيها وتنزل أصابعها فى الماء وهى تدندن لنفسها.

فقلت لها: "لا تغنى، فأمنا ماتت". قالت لورا فى رضا "كلا، إنها لم تمت، إنما هى فى السماء مع الطفل الرضيع."

دفعتها بعيدًا عن حافة الحوض، ليس فى اتجاه البركة إنما ناحية العشب، فلدى بعض التمييز. لم أدفعها بعيدًا وكانت الأرض ناعمة ملساء، فلم يؤلمها ذلك كثيرًا. انبطحت على ظهرها ثم تدحرجت وتطلعت إلىَّ شاخصة العينين وكأنها لم تصدق ما فعلته بها. وفغرت فاها فى دائرة كاملة مثل طفل يطفئ شموع عيد الميلاد فى كتاب مصور. وبعدها انطلقت تبكى.

(لابد أن أعترف أننى شعرت بالرضا إزاء ذلك. فقد أردتها أن تعانى كما أعانى، لأننى سئمت انفلاتها من المسئولية والعقاب بحجة صغر سنها.)

نهضت لورا عن العشب وهرعت عبر ممر السيارات الخلفى نحو المطبخ وهى تولول وكأنها طعنت بسكين. أسرعت خلفها، فالأفضل أن أكون حاضرة إذا

وصلت لشخص مسئول واتهمتنى. كانت تجرى بطريقة غريبة، إذ ينتشر ذراعاها بغرابة وينفرج ساقاها الصغيران إلى الجانبين وتضرب عقدة شرائطها نهاية الضفيرتين بينما تتطاير تنورتها السوداء. لقد سقطت مرة فى الطريق وجرحت نفسها بأن تقرحت يدها. وعندما رأيت ذلك شعرت بالراحة فقليل من الدماء قد يغطى على فعلتى الخبيثة.

الصودا

فى وقت ما من الشهر التالى لوفاة أمى - لا أذكر اليوم تحديدًا - قال أبى إنه سيصحبنى إلى البلدة. أزعجنى هذا العرض، فهو لم يهتم بى أو بلورا من قبل، بل كان يتركنا لأمى ثم لرينى بعد ذلك.

لم يصحب لورا معنا، بل إنه حتى لم يقترح ذلك.

ولقد أعلن عن تلك النزهة القادمة على منضدة الإفطار. وكان قد بدأ يصر أن نتناول أنا ولورا إفطارنا معه، وليس مع رينى فى المطبخ كما كنا نفعل من قبل. جلسنا نحن الاثنتان عند أحد طرفى المنضدة، بينما جلس هو على الطرف الآخر. وكان يقرأ الجريدة، وقلما يتحدث إلينا، وكنا نشعر بالرعب إذا قاطعناه. (بالطبعٍ كنا نحبه حب عبادة، فإما كذلك أو نكرهه، فهو لا يثير عاطفة أكثر اعتدالاً.)

كانت الشمس المتسللة من زجاج النوافذ الملون تلقى أشعة ضوئية ملونة عليه، وكأنه قد غمس فى حبر الرسم. ومازلت أذكر اللون الكوبالتى على خدوده والتوتى الصارخ على أصابعه. كنت أنا ولورا نحصل أيضًا على تلك الألوان إذا أردنا. فكنا نحرك طبقينا من عصيدة الشوفان إلى اليسار قليلاً وإلى اليمين قليلاً، وبذلك تتحول عصيدة الشوفان ذات اللون الرمادى الباهت إلى الأخضر أو الأزرق أو الأحمر أو البنفسجى: إنه طعام سحرى سواء بتعويذة سحرية أو بالسم، فذلك يعتمد على رغبتى ومزاج لورا. ونلوى وجوهنا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض سخرية،

لكن فى صمت. وهدفنا فى ذلك أن نفلت بتلك الفعلة دون أن ينتبه إلينا. فقد أردنا أن نفعل شيئًا نسلى به أنفسنا.

وفى ذلك اليوم غير المعتاد، حضر أبى من عمله بالمصانع مبكرًا، وتنزهنا فى البلدة. لم تكن وقتها بهذا البعد؛ ففى ذلك الوقت لم تبعد الأماكن فى البلدة كثيرا عن بعضها. وكان أبى يفضل السير على القيادة، أو أن يقود أحد له السيارة. أعتقد أن ذلك بسبب ساقه المعطوبة، فقد أراد أن يثبت أنه لايزال قادرًا. كان يحب السير فى البلدة بخطوات واسعة، وبالفعل كان يفعل ذلك رغم مشيته العرجاء. وكنت أهرول بجواره محاولة اللحاق بوقع خطواته.

قال أبى: "سنذهب إلى كافيتريا بيتى. وسأشترى لك بعض الصودا." لم يحدث أى من هذه الأشياء من قبل. فكانت رينى تقول إن كافيتريا بيتى لأهل البلدة وليست لى ولورا. ولا يصح أن نهبط بمستوانا. والصودا أيضًا عادة سيئة مدمرة للصحة ومفسدة للأسنان. فمما ألقى بالذعر فى نفسى أن يُعرض علىَّ هذان الشيئان المحظوران من قبل ودون سابق إنذار.

وكان فى الشارع الرئيسى فى بورت تيكونديروجو خمس كنائس وأربعة بنوك، شيدت جميعها من الأحجار ذات الكتل الكبيرة. أحيانا يحتاج المرء لقراءة الاسم المكتوب على كل منها حتى يستطيع التمييز، وإن كانت البنوك يعوزها الأبراج المنخرطة للكنيسة. وكانت كافيتريا بيتى بجوار أحد البنوك. ولها مظلة مخططة باللونين الأبيض والأخضر، وفى نافذتها صورة لفطيرة الدجاج تبدو مثل قبعة طفل مصنوعة من عجين الفطائر مزخرفة بطيات متجاورة عند الحواف. والمكان بالداخل مضاء بإضاءة صفراء معتمة وتفوح منه رائحة الفانيليا والقهوة والجبن المنصهر. والسقف مصنوع من القصدير المرضوض، معلقة فيه مراوح ذات ريشات مثل مراوح الطائرات. وكانت بعض السيدات يرتدين القبعات ويجلسن إلى منضدة بيضاء مزخرفة؛ حياهن أبى بإمائة من رأسه، فرددن تحيته بإماءة مماثلة.

وعلى جانب واحد اصطفت مقصورات من الخشب الداكن. وقد جلس أبى فى إحداها بينما انفلت أنا منه لأجلس أمامه. وسألنى أى نوع من الصودا أفضل، ولكننى لم أعتد أن أكون معه فى مكان عام، مما جعلنى أشعر بالخجل. ذلك إضافة إلى أننى لم أكن أعرف أى الأنواع متاحة. ولذلك فقد طلب صودا الفراولة لى وقدحًا من القهوة له.

بدت النادلة فى رداء أسود وقبعة بيضاء وقد زججت حاجبيها إلى قوسين رفيعين، بينما صبغت شفتيها بالأحمر اللامع مثل المربى. نادت أبى بكابتن تشاس وناداها هو بجين. ومن ذلك والطريقة التى ارتكن بها بمرفقيه على المنضدة، أدركت أنه يألف المكان.

وسألته جين أهذه طفلته الصغيرة؟ ما أجملها، ورمقتنى بنظرة بغض. وأحضرت له قهوته على الفور وهى تتمايل قليلاً بكعبها العالى، وبينما كانت تضع القهوة لمست يده لمسة خفيفة. (فلقد لاحظت تلك اللمسة، مع أننى لم أستطع منعها.) وبعدها جاءت لى بالصودا فى كوب قمعى الشكل ومعها أنبوبتى امتصاص. تصاعدت الفقاقيع إلى أنفى وأدمعت عينى.

وضع أبى مكعب سكر فى قهوته وقلّبه ونقر الملعقة على حافة الفنجال. تفحصته من فوق حافة كوب الصودا. فرأيته مختلفًا على حين غرة، وقد بدا وكأنه شخص لم أره من قبل – أكثر نحافة وأقل صلابة بعض الشيء، ولكن ملامحه أكثر وضوحًا. فقلما رأيته من هذا القرب. كان شعره مصففًا نحو الخلف وقصيرًا من الجانبين ومنحسرًا عن صدغيه، وبدت عينه السليمة صافية الزرقة مثل ورقة زرقاء. واتخذ وجهه الذى احتفظ بوسامته رغم الانكسار نفس المظهر الغامض الذى يبدو عليه غالبًا فى الصباح على مائدة الإفطار، وكأنه يستمع إلى أغنية أو صوت انفجار يترامى عن بعد. وخط شاربه الشيب أكثر من ذى قبل، وبدا غريبًا لى أن ينمو للرجال ذلك الشعر الخشن على وجوههم، بينما لا يحدث ذلك للنساء. حتى ملابسه العادية تحولت لشيء غامض فى الضوء المعتم المشبع برائحة الفانيليا، وكأنها تخص شخصًا آخر أو كأنه استعارها. وجلة الأمر أنها كانت شديدة الاتساع عليه. فقد انكمش، لكنه بدا أطول فى ذات الوقت.

ابتسم أبى لى وسألنى ما إذا كنت أستمتع بمشروب الصودا. وبعد ذلك صمت وغرق فى التفكير. وبعدها أخرج سيجارة من العلبة الفضية التى يحملها دائمًا وأشعلها ونفث الدخان. وأخيرًا قال: "إذا حدث أى شىء لابد أن تعدينى أن تهتمى بلورا."

أومأت بجدية. ماذا يعنى بقوله "أى شىء"؟ ماذا يمكن أن يحدث؟ كنت أخشى بعض الأخبار السيئة، ولكنى لم أستطع تسميتها. ربما قد يذهب بعيدًا، كأن يسافر عبر البحار. ولم أكن قد نسيت قصص الحرب بعد. ولكنه لم يفسر أكثر من ذلك.

قال "فلنتصافح متعاهدين على ذلك". ومددنا أيدينا عبر المنضدة؛ كانت يده صلبة وجافة مثل يد حقيبة جلدية. ونظر إلىَّ بعينه الزرقاء يقيمنى، كأنما يريد أن يحدد ما إذا كان يمكنه الاعتماد علىَّ. فرفعت ذقنى ونصبت كتفى. فقد أردت باستماتة أن أكون عند حسن ظنه.

وهنا سألنى: "ماذا يمكن أن تشترى بنيكل؟" باغتنى سؤاله على حين غرة، فعقد لسانى ولم أعرف. فلم نكن أنا ولورا نحصل على نقود فى أيدينا لإنفاقها، لأن رينى كانت تقول إننا نحتاج أن نتعلم قيمة النقود.

ومن جيب داخلى فى بذلته الداكنة أخرج مذكرته المغلفة بجلد الخنزير وقطع ورقة منها. وبعدها أخذ يتحدث عن الأزرار. وقال إننى لست بصغيرة على الإطلاق كى أتعلم المبادئ الأولية للاقتصاد التى سأحتاج لمعرفتها لأتصرف بمسئولية عندما أكبر.

وقال: "فلنقل إنك تبدئين بزرين". وتابع "ستكون مصروفاتك تكلفة الزرين، ودخلك العام هو قيمة بيع الزرين، وصافى الربح هو هذا المبلغ بعد خصم المصروفات فى وقت محدد. وهنا يمكنك الاحتفاظ بجزء من الربح لنفسك واستخدام الباقى لصناعة أربعة أزرار، وبعدها تبيعين تلك الأربعة ويصبح باستطاعتك صناعة ثمانية أزرار. ورسم خريطة بيانية صغيرة بقلمه الفضى: زران، ثم أربعة، ثم ثمانية أزرار. وصارت الأزرار متضاعفة بشكل محير على الصفحة، وفى عمود مجاور تتضاعف الأموال. وسألنى إذا كنت قد فهمت.

وتفحصت وجهه لأعرف ما إذا كان جادًا. فلقد سمعته مرارًا يعلن غضبه على مصنع الأزرار ويصفه بأنه مثل شرك ورمال متحركة ونذير شؤم ونحس وطائر ضخم مفترس يربض على أنفاسك، لكن كان ذلك عندما يكون مخمورًا. أما الآن فهو فى كامل رشده. ولم يكن يبدو كأنه يشرح بل كأنه يعتذر. كان يريد شيئًا منى بخلاف إجابتى عن سؤاله. بدا كأنه يريدنى أن أسامحه، أن أغفر له جرمًا ما؛ لكن ماذا عساه اقترف فى حقى؟ لا شىء أذكره. شعرت بارتباك وأيضًا أننى لست مؤهلة لذلك: فمهما كان ما يسألنى إياه أو يطلبه منى فهو يفوق قدراتى. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتوقع فيها رجل منى ما يفوق قدرتى على العطاء، ولكنها لم تكن الأخيرة.

وقلت "نعم".

فى الأسبوع السابق على وفاتها، وفى صباح أحد تلك الأيام المروعة، قالت أمى شيئًا غريبًا، مع أنى لم أره غريبًا فى ذلك الوقت. قالت: "والدكما يكن لكما حبًا كبيرًا فى داخله."

ولم تكن من عاداتها أن تتحدث إلينا عن المشاعر، ولا سيما عن الحب – سواء حبها هى أو أى شخص آخر ما عدا حب الله. لكن من المفترض أن يحب الآباء أبناءهم، ومن ثم كان لابد أن أعتبر ما قالته تأكيدًا لذلك: فرغم ما تفصح عنه المظاهر، فوالدى مثله مثل سائر الآباء، أو هكذا كان النظر إليه.

أرى الآن أن الأمر كان أكثر تعقيدًا مما بدا. فربما كان تحذيرًا، أو لعله أيضًا كان عبثًا. فحتى لو كان الحب فى الداخل، فالكثير منه يتجمع على السطح، وماذا عسانا أن نجد إذا حفرنا بالداخل؟ لن نعثر على هبة بسيطة من الذهب الخالص المتلألئ، بل نجد شيئًا قديمًا قد يصيبنا بسوء، مثل قطعة حديد مسحورة أصابها الصدأ بين العظام العجوزة. فهذا الحب نوع من التعاويذ السحرية، ولكنها من النوع الثقيل، يتدلى من سلسلة حديدية حول عنقى وأنوء بحمله معى أينما ذهبت.

الفصل الرابع

كان المطر يتساقط خفيفًا ولكنه متواتر منذ الظهيرة، والضباب يظهر معلقًا فوق الأشجار والطرق السريعة. وجاءت النادلة مارة بالشرفة الخارجية تحمل قدحًا مزركشًا من القهوة، أبيض اللون يحده شريط أخضر وتتصاعد من خطوطه المتموجة ثلاثة أعمدة من البخار، وكأنها ثلاث أصابع تحاول الإمساك بالقدح الندى. وكانت كلمة "مقهى" مكتوبة بحروف ذهبية متقشرة الطلاء على الباب؛ فتحته وخطت نحو الداخل تنفض مظلتها ذات اللون الكريمى مثلها مثل معطفها الواقى من المطر.

كان يجلس فى المقصورة الأخيرة بجوار الباب الدوار المؤدى إلى المطبخ، كما قال إنه سيفعل. وقد بدت الجدران مصفرة من أثر الدخان، وكانت المقصورات الكبيرة قد طليت باللون البنى الشاحب، وبكل منها شماعة معدنية للمعاطف. يجلس الرجال وحدهم فى المقصورات، بستراتهم الشبيهة بالبطاطين المستهلكة، بلا أربطة عنق، منفرجى السيقان، بينما تلتصق بالأرضية أقدامهم ذات الأحذية عالية الرقبة. تبدو أيديهم مثل جدعة من عضو مبتور: بتلك الأيدى يمكنهم إنقاذك أو ضربك لترتطم بالمصباح، وفى الحالين لا يتغير شكلها. أسلحة كليلة وكذلك عيونهم أيضاً. تفوح من الحجرة رائحة خشب معطون، وخل مسكوب، وسراويل صوفية لم تغسل من فترة، وأجساد هرمة لا تستحم سوى مرة واحدة فى الأسبوع، وخداع وغضب. كانت تعرف أن عليها أن تتظاهر بأنها لم تلحظ الرائحة.

رفع يده ونظر إليها الرجال الآخرون بريبة واحتقار، بينما هى تهرع نحوه تدق الأرضية الخشبية بكعب حذائها. جلست قبالته تبتسم فى راحة لأنه معها، مازال معها.

قال: يا ربى، لماذا لم ترتدى فراء المينك أيضا؟!

"ماذا فعلت؟ ما الخطأ؟"

"معطفك."

ردت بتلعثم: "إنه مجرد معطف، معطف عادى واق للمطر. ما عيبه؟"

" يا ربى! انظرى إلى نفسك وانظرى حولك! إنه بالغ النظافة."

"لم أستطع إرضاءك! لم أتمكن من ذلك أبدًا"

"بل بإمكانك ذلك، فأنت تعرفين ما عليك فعله، ولكنك لا تفكرين فى ذلك"

"لم تخبرنى بشىء، وأنا لم آت هنا من قبل - لمكان كهذا. ويصعب على الخروج فى مظهر الخادمة، ألم تفكر فى ذلك؟!"

"لو كان معك غطاء للرأس تغطين به شعرك!"

ردت بيأس: "شعرى، وماذا أيضًا؟ ما عيب شعرى؟"

"إنه أشقر فاتح بشكل ملفت. الشقروات مثل الفئران البيضاء، لا تجدينهم إلا فى الأقفاص. إنهن لا يبقين طويلاً فى الطبيعة المفتوحة، حيث تكشفهن للعيان بوضوح."

"لست رحيمًا"

"أكره الرحمة، وأولئك الذين يفخرون بأنهم رحماء. إنهم يثيرون الاحتقار."

قالت وهى تحاول الابتسام: "على كل فأنا رحيمة بك"

"لو فكرت فى ذلك على أنه كل شىء، فهى رحمة فاترة مثل اللبن الممزوج بالماء. سأرحل فى قطار منتصف الليل مثل خفاش يخرج من جهنم. سأنتهز الفرص السانحة أمامى، فأنا لست حالة للإحسان ولا أبحث عن حسنة فى الخفاء.

كان فى مزاج وحشى، مما أثار تعجبها. فهى لم تره منذ أسبوع. لعله المطر.

قالت: "لعلها ليست الرحمة، ربما هى الأنانية. ربما أكون أنانية لدرجة القسوة."

قال: "أفضل ذلك. أفضلك جشعة. وأطفأ سيجارته وأخرج أخرى وهو يمعن التفكير. إنه مازال يدخن السجائر الجاهزة وهى ترف بالنسبة له. لابد أن يرشد استهلاكه منها. وتساءلت إن كان معه نقود، ولكنها لم تجرؤ على السؤال.

"لا أريدك أن تجلسى أمامى هكذا، فأنت بعيدة جدا عنى"

قالت: "أعرف، لكن ليس هناك مكان غيره، فالأماكن الأخرى مبللة."

"سأعثر لنا على مكان. مكان بعيد عن الثلوج."

"لا ثلوج هناك"

"ولكن الثلج سيسقط، فالرياح الشمالية على وشك الهبوب."

"وسيسقط الثلج عندنا. وماذا سيفعل اللصوص المساكين؟" لقد دفعته على الأقل للابتسام، وإن كان أقرب للاحتفال. وتابعت: "أين كنت تنام؟"

"لا تشغلى بالك. لا يهم أن تعرفى. وبذلك لا تضطرين للكذب إذا قبضوا عليك وسألوك أى أسئلة"

قالت وهى تحاول الابتسام: "لا أجيد الكذب إلى هذا الحد"

قال: "ربما ليس لهاوية مثلك. لكن سيعثر عليك المحترفون ويخرجون ما بداخلك وكأنهم يفكون هدية ملفوفة.

"أمازالوا يبحثون عنك؟ ألم ييأسوا؟"

"ليس بعد. هذا ما سمعته؟"

"شيء فظيع؟ أليس كذلك؟ الأمر كله فظيع. على كلٍ مازال الحظ بجانبنا، أليس كذلك؟"

"لماذا نحن محظوظون؟" قالها وهو يعود إلى مزاجه المكتئب.

"على الأقل نحن هنا معًا. على الأقل .."

كان النادل يقف بجوار المقصورة، يرتدى مئزرًا طويلاً مشبعًا بالأوساخ، وقد شمر عن ساعديه، وخصلات متفرقة من الشعر تصطف على صلعته مثل شرائط مشبعة بالزيت، وأصابعه قصيرة مثل أصابع القدم.

"قهوة؟"

قالت: "نعم، قهوة سادة بدون سكر من فضلك."

انتظرت حتى ذهب النادل ثم قالت: "هل هى آمنة؟"

"ماذا، القهوة؟ أتقصدين أن بها جراثيم؟ لا يمكن، فقد تم غليها لساعات." قالها متهكما، وتظاهرت بأنها لا تفهم.

"كلا. أقصد هل المكان آمن هنا؟"

"إنه صديق لأحد أصدقائى وعلى كلٍ فأنا أراقب المدخل – وبوسعى الهروب من الباب الخلفى، فهو يؤدى إلى زقاق."

"لا يمكنك أن تفعل؟ أليس كذلك"

"قلت لك من قبل. يمكننى ذلك بالرغم من وجودى هنا. ومع كل فهذا ليس مهما، فأنا ما يريدونه تمامًا، وهم يسعدهم رؤيتى مصلوبًا إلى الحائط، أنا وأفكارى المشينة."

قالت يائسة: "لابد أن تهرب" وفكرت فى كلمة "يضم"، لكن وجدتها تعبيرًا مستهلكا. ومع ذلك فهذا ما أرادته بالفعل، أن تضمه بين ذراعيها.

قال: "ليس بعد، فلا يجب أن أذهب الآن، لابد ألا أركب قطارات أو أعبر الحدود، فلقد علمت أنهم يرقبون تلك الأماكن."

"إننى قلقة عليك. أرى ذلك فى أحلامى. ينتابنى القلق عليك دائمًا."

قال: "لا تقلقى يا حبيبتى، حتى لا تنحفى ويهبط نهداك الجميلان وردفاك المكتنزان، ولا تصلحين لأحد عندئذ.

وضعت يدها على خدها كأنما تلقت صفعة منه. "أرجوك لا تتحدث بهذا الأسلوب."

قال: "أعرف أنك ترغبين فى ذلك. فالفتيات اللاتى يرتدين مثل معطفك يرجون مثل هذا الرجاء.

جريدة بورد تيجوندروجا "هيرالد أند بانر"
تشاس يساهم فى إجراءات الإغاثة

بقلم رئيس التحرير: إلوود أر ميوراى

بالأمس أعلن كابتن نورفال تشاس، رئيس مجموعة مصانع تشاس المحدودة أن مصانعه ستتبرع بثلاث شاحنات كبيرة مستعملة للمساهمة فى أعمال الإغاثة لصالح مناطق البلاد الأكثر تأثرًا بالكساد. وتلك اللفتة الإنسانية المهمومة بالشأن العام هى ما تنتظره البلاد فى مثل هذه الظروف. ومن بين ما ستحمله هذه الشاحنات بطاطين للأطفال الرضع وبلوفرات للأطفال ومجموعة متنوعة من الملابس الداخلية العملية للرجال والنساء.

وقد صرح كابتن تشاس للجريدة بأنه فى مثل هذه الأوقات من الأزمات القومية لابد أن يتكاتف الجميع كما هى الحالِ فى أوقات الحروب، خاصة أولئك الذين يعيشون فى أونتاريو التى هى أسعد حظًا من مناطق أخرى غيرها. وفى رد على هجوم وجهه له أشد منافسيه السيد ريتشارد كريفون صاحب مجموعة المنسوجات الكلاسيكية فى تورنتو بأنه يغرق السوق بالفائض من سلعه كمنح مجانية، وبذلك يحرم العامل من أجره؛ صرح كابتن تشاس بأن متلقى هذه السلع لا يقدرون على شرائها وهو بذلك لا يمنع أحدًا من البيع.

وأضاف أن جميع أنحاء البلاد تعانى انتكاسات اقتصادية، وأن مصانع تشاس تواجه حاليًا تراجعًا فى الإنتاج نتيجة لتراجع الطلب. وقال أيضًا إنه سيبذل قصارى جهده للحفاظ على تشغيل المصانع، لكن سرعان ما يعجز ذلك عن إيقاف تسريح العمال أو الدفع مقابل بعض ساعات العمل أو الأجور.

ولا يسعنا إلا أن نحيى جهود كابتن تشاس، الرجل الذى يتمسك بكلدته، على عكس مخططات الإضراب والإغلاق فى مراكز منها وينيبيج ومونتريال، مما جعل تيكونديروجو مدينة يحكمها القانون وخالية من مشاهد شغب النقابات وأعمال القسوة الوحشية وأحداث القتل التى يحرض عليها الشيوعيون، والتى تشيع الخراب فى المدن الأخرى بما يحدث فيها من حوادث تحطيم للملكيات الخاصة والجرح والقتل.

القاتل الأعمى: غطاء الشنيل

سألته وهى تلوى القفاز بين يديها كأنها تعصره من بلل: "هل تعيش هنا؟"

فأجاب: "أنا أقيم هنا. وهو شيء مختلف."

وكان المنزل واحدًا من شريط ضيق من المنازل العالية ذات الأسطح المنحرفة والمبنية بالطوب الأحمر الذى قتم لونه من السخام والقاذورات. وأمام المبنى صندوق مستطيل من الحشائش المتربة. وبجوار الممشى بعض الأعشاب اليابسة، وحقيبة ورقية بنية ممزقة ومفتوحة.

وصعدا بضع سلمات نحو العتبة، حيث ظهرت ستائر شبكية على النافذة الخارجية. وأخرج المفتاح من جيبه.

وبينما هى تخطو نحو الداخل نظرت إلى الخلف. فقال: "لا تقلقى، فلا يراقبنا أحد. وعلى كلٍ فهى شقة أحد أصدقائى. وأنا هنا اليوم وسأرحل غدًا".

قالت:"لديك كثير من الأصدقاء."

قال: "ليس كثيرًا. فالمرء لا يحتاج الكثير إذا لم تكن هناك تفاحات معطوبة."

وكان بالداخل دهليز صغير به صف من الشماعات النحاسية لتعليق المعاطف، والأرض مغطاة بمشمع قديم من الينوليوم على شكل مربعات بنية وصفراء، والباب الداخلى من الزجاج المصنفر المحفور بتصميم لطائر مالك الحزين. طيور طويلة الأرجل تميل بأعناقها الثعبانية المهيبة بين الخوص والزنبق، وهو رسم من زمن ماض. فتح الباب بمفتاح آخر، ودخلا معًا إلى الردهة الداخلية المعتمة، وأضاء النور، فبدا فوقهما مصباح على هيئة ثلاث زهرات قرمزية تتفتح، ينقص منها لمبتان.

لا تخافى هكذا يا حبيبتى فلن يسقط عليك شيء. عليك فقط ألا تلمسى شيئًا.

قالت بضحكة خفيفة لاهثة: "لابد أن ألمسك."

جذب الباب الزجاجي يغلقه خلفهما. وعلى اليسار بدا باب آخر قاتم ولامع. وتخيلت أن آذانًا ترقبهما وتتسمع خلفه من الداخل، وأنها سمعت صريرًا كأنما ثقل ينتقل من قدم إلى أخرى. لعلها عجوز شمطاء شريرة، أفلا يناسب ذلك الستائر الشبكية؟ وإلى الأعلى يتعرج درج طويل تغطت درجاته بالسجاد المثبت بالمسامير يحيطه درابزين مفرغ. أما ورق الحائط فعليه تصميم لتعريشة تتشابك فيها عناقيد العنب والزهور، ويتماوج فيها اللونان القرمزى والبنى الفاتح فى لون الشاى بالحليب. أحاطها بذراعيه بحذر، وقبّل عنقها وليس فمها، فارتعشت.

فقال هامسًا: "يسهل التخلص منى بعد ذلك، يمكنك الذهاب إلى المنزل والاستحمام."

قالت هامسة هى أيضًا: "لا تقل ذلك؛ لابد أنك تمزح، فلا يمكن أن تصدق أنى أقصد ذلك فعلاً."

قال: "إنك تقصدينه بما يكفى لذلك" فلفت خصره بذراعها وصعدا السلالم فى قليل من الارتباك وبعض التثاقل؛ فلقد أثقلهما جسداهما. وفى منتصف الطريق إلى أعلى نافذة مستديرة من الزجاج الملون: ومن اللون الأزرق الكوبالتى المنعكس من السماء بدت عناقيد العنب فى لون قرمزى قاتم تنعكس عليها حمرة الزهور، وسقط الضوء على وجهيهما. وعند الطابق الثانى قبلها مرة أخرى قبلات أعنف من سابقتها، رافعًا تنورتها فوق ساقيها الحريريتين حتى أعلى الجورب وهو يضغطها نحو الحائط.

سقطت قبعتها، بينما التفت ذراعاها حول عنقه وتقوس رأسها وجسدها نحو الخلف كأنما شخص يجذبها من شعرها. وسقطت دبابيس شعرها وانسابت خصلاته، فمرر يده فيه وهو يتذكر لسان اللهب، لسان اللهب الوحيد المتلالئ من شمعة بيضاء انقلبت على ظهرها. ولكن الشعلة لا تشتعل من أسفل إلى أعلى.

الحجرة فى الطابق الثالث، الذى لابد وأن سكنه الخدم من قبل. وبمجرد دخولهما وضع السلسلة. الحجرة صغيرة ومعتمة، بها نافذة واحدة مفتوحة فتحة صغيرة فقد شدت مظلتها كثيرًا إلى أسفل، وعلى الجانبين تنسدل ستائر شبكية. كانت شمس الظهيرة تضرب المظلة فتحيل لونها إلى الذهبى، بينما تنبعث من

الهواء رائحة عطنة تمتزج برائحة الصابون: ففى أحد الأركان لاح حوض معلقة فوقه مرآة، ومحشور تحته الصندوق الأسود المربع لآلته الكاتبة. وكانت فرشاة أسنانه موضوعة فى قدح صغير مطلى بالميناء، وهى ليست فرشاة جديدة. كلها أشياء حميمة. نظرت بعيدًا، فرأت خزانة لامعة مبقعة من أثر رماد السجائر وآثار الأكواب المبللة، أما معظم المساحة فيشغلها السرير. وهو سرير نحاسى عتيق الطراز مطلى بالأبيض ما عدا المقابض. وفكرت أنه ربما يحدث صريرًا، فاحمرت وجنتاها خجلاً.

يبدو لها أنه بذل جهدًا لإعداد الفراش، فقد غير الملاءات أو على الأقل أكياس الوسائد وفرد الغطاء الشنيلا الأخضر المتجعد. كانت تتمنى لو لم يفعل، لأن ذلك يشعرها بشيء من الشفقة وكأنما فلاح جائع قدم لها آخر قطعة من خبزه. وهى لا تريد أن تشعر بالشفقة. لا تريد أن تشعر بأنه ضعيف فى أى جانب. إنها تسمح بأن ينطبق ذلك عليها وحدها. وضعت حقيبتها وقفازيها فوق الخزانة. وسرعان ما شعرت بذلك كتقليد اجتماعى. ولكنه تقليد اجتماعى سخيف.

قال: "آسف فلا خادم هنا. هل تشربين شيئًا؟ سكوتش رخيص."

قالت: "نعم، من فضلك" كان يحتفظ بالزجاجة فى الدرج العلوى للخزانة، فأخرجها ومعها قدحان وصب فيهما الخمر. قال: "ليس عندى ثلج لكن يمكنك إضافة الماء.

"لا مانع" وجرعت الويسكى فسعلت قليلاً وهى تبتسم له واقفة ترتكن بظهرها إلى الخزانة.

قال: "تحبينه قصيرًا وقويًا ومستقيمًا"

وجلس على السرير بشروبه. ورفع كوبه دون أن يرد ابتسامتها.

"إنك وضيع على غير المعتاد اليوم"

قال: "دفاعًا عن الذات"

قالت: "لا أحب ذلك، بل أحبك. وأنا أعرف الفرق تمامًا

قال: "إلى حد ما. أو هكذا تظنين، فهو يحفظ ماء الوجه"

"أعطنى سببا وجيهًا واحدًا لماذا لا أخرج من هنا"

فتجهم. "تعالى هنا إذن"

مع أنه يعرف أنها تريده أن يقولها إلا أنه لا يقول إنه يحبها. ربما لو فعل لتجرد من أسلحته مثل الاعتراف بالذنب.

"سأخلع جوربى أولاً. فهو ينزل بمجرد أن تنظر إليها.

"مثلك تمامًا. ابقيه وتعالى هنا."

كانت الشمس قد تحركت نحو الجانب الآخر؛ ولم يبق سوى شريحة من الضوء على يسار المظلة المسدلة. وفى الخارج تناهى صوت حافلة عامة تمر وجرس يقعقع. لابد أن الحافلات العامة كانت تمر طوال ذلك الوقت. فلماذا إذن ساد الشعور بالصمت فى المكان. الصمت وأنفاسه، أنفاسهما، جهاد، تراجع، محاولتهما ألا يحدثا جلبة. أو ألا تصدر عنهما جلبة عالية. لماذا تتشابه المتعة مع الكرب؟ لماذا تبدو وكأنها شخص مجروح؟ وضع يده على فمها.

صارت الحجرة أكثر ظلمة الآن، إلا أنها ترى أفضل. تكوم غطاء السرير على الأرض، والتوت الملاءة حولهما وفوقهما مثل كرمة ثقيلة من القماش؛ والمصباح الوحيد بالحجرة لا ظل له، وورق الحائط الأزرق البنفسجى تلطخ بالبيج حيث تتسرب المياه من السقف؛ والسلسلة التى تحمى الباب ضعيفة واهيه، يكفى لفتحها دفعه أو ركلة بحذاء من البوت. إذا حدث ذلك فماذا عساها أن تفعل؟ شعرت بالجدران تزداد نحافة وتتحول إلى جليد، وبأنهما سمكتان فى حوض.

أشعل سيجارتين وناولها واحدة. وجذب الاثنان نفسًا عميقًا. مرر يده الخالية عليها مرة إثر مرة يحتويها بأصابعه. وراح يتساءل كم من الوقت لديها؛ ولكنه لم يسألها، إنما أمسك بمعصمها. وكانت ترتدى ساعة ذهبية صغيرة. غطى وجهها وقال: "أترغبين فى حكاية قبل النوم؟"

قالت: "نعم من فضلك"

"أين توقفنا؟

"كنت قطعت لتوك ألسنة الفتيات البائسات فى أثواب عرسهن."

"آه حقًا. وأنت اعترضت. فإذا كانت لا تعجبك هذه الحكاية أحكى لك غيرها، لكن لا أعدك أن تكون أكثر من هذه تحضرًا، بل ربما تكون أسوأ منها. قد تكون حكاية حديثة. فبدلاً من بعض الموتى من كوكب ذيكرون، يكون هناك فدادين من الطين النتن ومئات الآلاف من .."

فقاطعته على عجل: "لا بل استمر فى هذه، فهى على كلٍ الحكاية التى تريد حكايتها لى."

أطفأت سيجارتها فى المطفأة الزجاجية البنية، ثم اعتدلت بجواره تلصق أذنها بصدره. فكانت تحب أن تسمع صوته بهذه الطريقة، وكأنما يخرج من جسده وليس من حلقه، وكأنه غمغمة أو زمجرة، أو صوت يتحدث من أعماق الأرض، تتساب كلماته مثل الدماء تتساب فى قلبها كلمة، كلمة.

الميل أند إمبير، ٥ ديسمبر ١٩٣٤

تحية لبينت

خاص للميل أند إمبير

telegram @ktabpdf

أثنى السيد رينشارد إى جريفون، الممول من تورنتو ورئيس شركة رويال كلاسيك للمنسوجات، على رئيس الوزراء أر بى بينت ووجه اللوم لناقديه، وذلك فى حديث أدلى به بالأمس أمام نادى إمبير.

وذلك فى إشارة لما حدث يوم الأحد من تجمع صاخب فى مابل لييف جاردن بمدينة تورنتو، حيث تجمع ١٥ ألفًا من الشيوعيين يطلقون صيحات حماسية محمومة ترحيبًا بزعيمهم تيم بوك، الذى كان مسجونًا بتهمة التآمر لإثارة الفتنة والتمرد، لكن تم إطلاق سراحه يوم السبت من سجن بورتسموث بكينجستون. وقد أعرب السيد جريفون عن جزعه لانصياع الحكومة للضغط عليها بعريضة التماسٍ بالعفو وقعها ٢٠٠ ألف من المخدوعين المطحونين. وقال إن السيد بينت كان محقًا فى اتباعه سياسة استخدام القبضة الحديدية التى لا ترحم، فالسجن هو الأسلوب الوحيد للتعامل مع أولئك الذين يتآمرون للتخريب وقلب نظام الحكم ومصادرة الملكيات الخاصة.

وصرح السيد جريفون بأن عشرات الآلاف من المهاجرين الذين تم ترحيلهم وفق المادة ٩٨، كانوا مؤيدين للحكم الاستبدادى وهم الآن يتذوقون أولى ثماره؛ ومن هؤلاء من تمت إعادتهم لبلاد مثل ألمانيا وإيطاليا حيث يواجهون الاعتقال.

أما عن الجانب الاقتصادى فقد صرح السيد جريفون بأنه بالرغم من استمرار ارتفاع معدلات البطالة وما تسفر عنه من مشاعر عدم الرضا واستفادة الشيوعيين والمتعاطفين معهم من تلك الأوضاع، إلا أن هناك علامات مبشرة، وأنه على يقين بأن الكساد سينتهى مع قدوم الربيع. أما فى الوقت الحالى فالسياسة الحكيمة تقضى بالصمود والسماح للنظام بتصحيح ذاته. ولابد من مقاومة ميول السيد روزفلت الاشتراكية، فتلك الجهود إنما تؤدى إلى مزيد من الضعف للاقتصاد المريض. وبالرغم من ضرورة التنديد بمشكلة البطالة، إلا أنه لابد من استخدام القوة على الفور لقمع الإضرابات غير القانونية والضرب على أيدى محرضى الشغب الخارجين عن القانون.

القاتل الأعمى: الرسول

والآن، فلنقل إن الظلام كان منتشرًا، فقد غربت الشموس الثلاثة، وبزغ قمران. وعند سفح التلال كانت الذئاب بعيدًا، والفتاة المختارة تنتظر دورها لتُقدمَ قربانًا. وكانت قد أطعمت وجبة غنية كآخرِ طعام لها، كما تم تعطيرها ومسحها بالزيت، وصدحت الأغنيات فى مديحها، وتُليت الصلوات. وهى الآن ترقد على سرير مغطى بمفرش أحمر مقصب بالذهب، محبوسة فى حجرة المعبد الداخلية التى تفوح منها رائحة تمتزج فيها الأزهار والبخور والبهارات المطحونة المعطرة التى تقضى العادة بنثرها على نعش الموتى. والسرير نفسه يطلق عليه "سرير الليلة الواحدة"، فما من فتاة تقضى فيه ليلتين. أما الفتيات أنفسهن، فكن يطلقن عليه "سرير الدموع الخرساء"، وذلك عندما كن يحتفظن بألسنتهن.

وفى منتصف الليل يزور الفتاة سيد العالم السفلى، الذى يقال إنه يرتدى درعًا صدئة. وفى العالم السفلى يحدث التفكك والتمزق: فلابد لكل الأرواح من المرور به فى طريقها إلى أرض الآلهة، وتبقى به تلك الأرواح الأكثر ارتكابًا للآثام.

ولابد لكل فتاة مهداة إلى المعبد أن يزورها سيد الدرع الصدئة ليلة تقديمها قربانًا، وإلا لا تقنع روحها، وبدلاً من أن تذهب إلى أرض الآلهة تضطر للالتحاق بجوقة العرايا من النساء الموتى ذوات الشعور سماوية اللون، والأجساد المستديرة والشفاه الياقوتية الحمراء والعيون الشبيهة بالفجوات المملوءة بالثعابين، اللاتى يحمن حول المقابر القديمة الخربة فى الجبال الغربية المهجورة. أرأيت، فأنا لم أنساهن.

"تعجبنى فطنتك"

"ألا يعجبك شىء؟! إذا كان لديك تفاصيل أخرى تودين إضافتها، أخبرينى بها. على العموم فأبناء ذيكرون يخشون العذارى خاصة الأموات منهن، مثلهم فى ذلك مثل كل الناس قديمًا وحديثًا. فالنساء الفاشلات فى الحب واللاتى متن دون

زواج يسعين فى الموت لتحقيق ما لم يسعدهن الحظ بتحقيقه فى الحياة. فهن ينمن فى المقابر الخربة نهارًا، أما فى الليل فيفترسن المسافرين الغافلين، خاصة من الشباب الذين يدفعهم طيشهم إلى الذهاب هناك. فينقضضن على أولئك الشباب ويمتصصن أرواحهم ويحولونهم إلى زومبيات مطيعة (جثث تتحرك بلا إرادة) تلبى إشباع الشهوات غير الطبيعية للنساء الموتى العاريات.

قالت: "ما أتعس هؤلاء الشباب. ألا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد تلك الكائنات الشريرة؟

"يمكن طعنهن بالرماح أو سحقهن بالحجارة ليصبحن عجينًا. ولكن هناك العديد منهن – فالأمر يشبه محاربة أخطبوط، وهن يهاجمن الشخص قبل أن يدرك وجودهن. وعلى كل فهن يخدرن الشخص، ويحطمن إرادته. فهذا أول ما يفعلونه. فبمجرد أن يلمح المرء إحداهن يكون قد تسمر فى مكانه."

"أتصور ذلك. بعض السكوتش؟"

"أعتقد، يمكننى احتماله، شكرًا. ماذا عن الفتاة، ماذا تريدين أن نسميها؟"

"لا أدرى. اختره أنت، فأنت تعرف المنطقة."

"سأفكر فى الأمر. على كلٍ كانت ترقد على سرير الليلة الواحدة فريسة الانتظار. لا تعرف أى الأمرين أسوأ، الذبح أم الساعات القليلة القادمة. وكان من الأسرار المفضوحة فى المعبد أن سيد العالم السفلى ليس حقيقيًا، لكنه أحد رجال البلاط يأتى متخفيًا. ومثل كل شيء فى سايكل نورن كانت تلك المكانة للبيع، وقيل إن أموالاً طائلة كانت تدفع فى الخفاء للحظوة بتلك المكانة. وكانت تلك الأموال تدفع للكاهنة الأعلى، وهى مرتشية منذ مجيئها، ومعروفة بحبها لجواهر السافير. وهى تلتمس لنفسها العذر بأن تقسم بأنها تستخدم هذه الأموال فى الأعمال الخيرية، وتذكر أنها استخدمت بعضها بالفعل لهذا الغرض. وقلما تشتكى الفتيات من هذا الجزء من محنتهن، فهن مقطوعات الألسنة وليس لديهن أدوات للكتابة، وعلى أية حال فجميعهن موتى فى اليوم التالى. "أموال من السماء" تقولها الكاهنة الأعلى لنفسها وهى تحمل النقود.

وفى الوقت نفسه يلوح على البعد حشد من البرابرة يزحفون نحو المدينة، بغية الاستيلاء على مدينة سيكل نورن ذائعة الصيت، ونهب ثرواتها ثم حرقها وتدميرها تمامًا. فلقد فعلوا ذلك بمدن عديدة أقصى الغرب. وقد أعيا ذلك النجاح الأمم المتقدمة فلا يجدون له تفسيرًا. فأولئك القوم رثو الثياب متواضعو التسليح، لا يعرفون القراءة، ولا يملكون معدات بارعة الصنع.

وليس هذا فحسب، فليس لديهم ملك، إنما قائد فحسب. وهذا القائد لا اسم له: فقد تخلى عن اسمه عندما صار قائدًا ومنح لقبًا عوضًا عن الاسم. فلقبه "خادم المسرات". ويطلق عليه أتباعه ألقابًا منها "سوط القوة العظمى" و"القبضة اليمنى لإرادة لا تقهر"، و"قاهر الظلم" و"حامى العدل والفضيلة". ولا يعرف أحد الموطن الأصلى لهؤلاء البرابرة، لكن يتفق الجميع على أنهم جاءوا من الشمال الغربى من حيث تهب الرياح السيئة العاتية. ويطلق عليهم أعداؤهم "أرباب الدمار"، أما هم فيسمون أنفسهم "أرباب السعادة".

يحمل قائدهم الحالى علامات الرضا المقدس: فقد ولد محتفظًا بغشاء رأس الجنين، وجُرح بقدمه، وعلى جبينه علامة على هيئة نجمة. وهو يذهب فى غيبوبة ويتصل بالعالم الآخر ليرشده إلى الخطوة التالية إذا شعر بالضياع. وهو فى طريقه لتدمير سايكل نورن لأن رسول الآلهة حمل إليه الأمر بذلك.

ظهر له هذا الرسول فى هيئة شعلة من اللهب، تنطلق منها عيون وأجنحة من النيران. ومعروف أن هؤلاء الرسل يتحدثون فى صورة أمثال ملتوية المغزى، ويتخذون هيئات شتى: مثل نيران مشتعلة أو حجارة متكلمة أو أزهار تسير، أو أجساد آدمية لها رؤوس طيور. وفى غير ذلك فهم قد يشبهون أى شخص على الإطلاق. ويقول أرباب الدمار إن هؤلاء الرسل قد يتخذون هيئة أشخاص مسافرين فرادى أو جماعات، أو أناس يشاع عنهم أنهم لصوص أو سحرة، أو أجانب يتحدثون عدة لغات، أو شحاذين على جانبى الطريق، فكل هؤلاء يمكن أن يكونوا أولئك الرسل؛ ومن ثم فلابد من معاملة كل هؤلاء بحذر شديد، على الأقل لحين اكتشاف طبيعتهم الحقيقية.

فإذا ثبت أنهم مبعوثون إلهيون، فمن الأفضل منحهم طعامًا وخمرًا وامرأة إذا اقتضى الأمر، والاستماع إلى رسالتهم باحترام، ثم تركهم يذهبون لحال سبيلهم، وإلا تم رجمهم حتى الموت ومصادرة ممتلكاتهم. ومن المؤكد أن كل المسافرين والسحرة والغرباء والشحاذين الذين يجدون أنفسهم بالقرب من أرباب الدمار لابد أن تكون لديهم ذخيرة من الأمثال غامضة المغزى – أى الكلمات المبهمة مستعصية التفسير مثل عقدة فى خيط من الحرير –بما يكفى للاستفادة منها إذا اقتضت الظروف. فأن تسافر بين أرباب المسرات دون أن يكون لديك لغز مقفى لمغازلة للموت.

وحسبما تقول الشعلة ذات العيون، إنه وقع الاختيار على مدينة سايكل نورن لتدميرها بسبب رفاهيتها وعبادتها لآلهة مزيفة وبالأخص لتقديمها الأطفال قرابين. وبسبب تلك الممارسات لابد أن يقتل بالسيف كل شعب المدينة بمن فيهم العبيد والأطفال والعذارى المقدر تقديمهن قرابين. وقد لا يبدو عدلاً قتل من كان الشروع فى قتلهن سببًا للقتل، لكن فى نظر أرباب المسرات لا تتحدد الإدانة بمدى الذنب أو البراءة، لكن بمدى تلوث المرء، ويرى أرباب المسرات أن كل من يعيش فى مدينة ملوثة يصبح هو الآخر ملوثًا.

وزحف الحشد إلى الأمام يثيرون سحابة ترابية قاتمة، ترتفع أمامهم وكأنها راية. ومع ذلك لم يكن الحشد قريبًا بحيث يرصده جنود الحراسة القائمون عند أسوار سيكل نورن. أما الآخرون من رعاة فى مناطق نائية أو تجار على سفر ممن كان يمكنهم تحذير المدينة فقد انقض القوم عليهم فى قسوة وقطعوهم إربًا، ما عدا من بدا منهم مبعوثًا إلهيًا.

وانطلق خادم المسرات على صهوة جواده متقدمًا إلى الأمام، قلبه صافيًا، عبس الجبين يتدفق الشرر من عينيه، وعلى كتفيه معطف جلدى خشن، وعلى رأسه شارة المنصب وهى قبعة مخروطية حمراء، وخلفه أتباعه يكشرون عن أنيابهم. أمامهم تفر الحيوانات العشبية وخلفهم تجرى حيوانات القمامة وبجوارهم تتهادى الثعالب.

وفى تلك الأثناء كانت تحاك فى المدينة المسالمة خطة خفية للإطاحة بالملك. ونفذ هذه الخطة كالمعتاد بعض من رجال البلاط موضع الثقة العالية. وقد استعانوا فى ذلك بأبرع القتلة العميان، وهو شاب كان يعمل فى نسج السجاد ثم فى دعارة الأطفال، ولكنه اشتهر منذ هروبه بيده التى تمسك بالسكين لتذبح خفية وبلا رحمة وفى صمت تام. اسمه "إكس".

"ولماذا "إكس"؟"

"مثل هؤلاء الرجال يطلق عليهم دائمًا "إكس". فالأسماء لا تفيدهم شيئًا، إنما تشى بمزيد من التفاصيل عنهم. وعلى العموم فإكس إشارة لأشعة إكس، فمن كان إكس يستطيع اختراق الأسوار المصمتة والنظر خلال ملابس النساء.

قالت: "ولكن إكس أعمى."

"هذا أفضل كثيرًا، فهو ينظر خلال ملابس النساء بعينه الداخلية التى أنعمت بها الوحدة عليه."

قالت بخفة: "مسكين الشاعر وردثورث. لا تكفر!"

"لا أستطيع المقاومة. فأنا أكفر منذ الطفولة."

كان على إكس أن يشق طريقه إلى مجمع أبنية معبد الأقمار الخمسة، ويجد باب الحجرة المحبوسة بها الفتاة التى ستقدم قربانًا اليوم التالى، ويذبح الحارس. وعليه عندئذ أن يذبح الفتاة نفسها ويخفى جثتها تحت سرير الليلة الواحدة الأسطورى، ثم يرتدى ملابس الفتاة الاحتفالية وخمارها. ومن المفترض أن ينتظر حتى يأتى رجل البلاط الذى يقوم بدور سيد العالم السفلى – وما هو فى الحقيقة سوى قائد الانقلاب المزمع فى القصر – ويأخذ ما دفع من أجله ثم يذهب ثانية. لقد دفع الرجل مبلغًا كبيرًا من المال، ويود أن يحصل على ما يساويه، ولا يعنى ذلك فتاة ميتة، وإن كانت مقتولة لتوها. إنه يريد أن يكون القلب مازال نابضًا.

ولكن حدث خطأ أحمق فى الترتيبات؛ فقد أسىء فهم التوقيت: فكما تقضى الأمور، فالقاتل الأعمى سيكون أول من يأتى إلى الفتاة.

قالت: "كم هو أمر بشع! إن عقلك ملتو!"

مر بإصبعه على ذراعها العارى وقال: "هل تريديننى أن أواصل؟ القاعدة أن أفعل ذلك مقابل المال، وأنت تحصلين عليه بلا مقابل، فلابد أن تشعرى بالامتنان. على كلٍ فأنت لا تعرفين ما سيحدث. فأنا إنما أزيد الحبكة تعقيدًا. وإن كنت أراها معقدة بالفعل. فالحبكات المعقدة تخصصى. أما إذا أردت حبكة سهلة فابحثى فى مكان آخر.

"حسن! استمر!"

كان على القاتل المتنكر فى ملابس الفتاة المقتولة أن ينتظر حتى الصباح ثم يتركهم يصعدون به درجات سلم المذبح، حيث يطعن الملك فى لحظة تقديم القربان. وبذلك يبدو الملك وكأن الإلهة نفسها هى التى صرعته، ويصبح موته إشارة للانقلاب المدبر بعناية.

يقوم بالعصيان بعض من أقوى العناصر الذين تمت رشوتهم. ويتبع تلك الأحداث النمط القديم المعهود، فيتم التحفظ على كاهنات المعبد ويوضعن تحت الحراسة، ويقال إن ذلك لسلامتهن، بينما هو فى الواقع لإجبارهن على تأييد مطالب المتمردين لدى السلطة الروحية. أما النبلاء الموالين للملك فيتم طعنهم فى أماكنهم، كما يقتل أيضًا أبناؤهم الذكور تجنبًا للأخذ بالثأر بعد ذلك، وتزوج بناتهن من المنتصرين لصبغ الشرعية على الاستيلاء على ثروات عائلاتهن، أما زوجاتهم المدللات الخائنات فيقذف بهن إلى العامة. فبمجرد أن يسقط الأقوياء يتلذذ المرء بمسح أقدامه فيهن.

ويخطط القاتل الأعمى للهرب مستغلاً حالة الفوضى الناجمة ليعود بعد ذلك مطالبًا بالنصف الثانى من أجره السخى. أما المخططون فينوون القضاء عليه فى الحال خشية أن تفشل المؤامرة ويتم الإمساك به ويجبر على الاعتراف. ويتم إخفاء

جثته جيدًا، فمن المعروف أن القتلة العميان لا يعملون إلا بأجر، وسرعان ما قد يتساءل الناس عاجلاً أو آجلاً عمن استأجرهم. فالتخطيط لقتل الملك شيء أما أن ينكشف الأمر لشيء جد مختلف.

كانت الفتاة التى لا اسم لها ترقد فى سريرها ذى الغطاء الأحمر الموشى بالقصب تنتظر سيد العالم السفلى المزيف وتودع تلك الحياة فى صمت. وتسلل القاتل الأعمى عبر الممر مرتديًا عباءة رمادية كخدام المعبد حتى وصل صوب الباب. كان الحارس امرأة، فلا يسمح للرجال بالخدمة داخل مجمع المبانى. ومن خماره الرمادى همس القاتل لها بأنه يحمل رسالة من الكاهنة الأعلى ليسرها فى أذنها وحدها. فانحنت المرأة، وتحركت السكين فوق عنقها فى حركة واحدة هى أقسى من البرق الذى يصدره الآلهة. وانطلقت يداه الكفيفتان نحو خشخشة المفاتيح.

دار المفتاح فى القفل. وسمعته الفتاة التى بالداخل، فاعتدلت جالسة.

سكت صوته وهو يرهف السمع لشىء فى الشارع بالخارج.

قامت واستندت على أحد مرفقيها، وقالت: "ما هذا؟ إنه مجرد باب سيارة."

قال: "اسدى لى معروفًا. ارتدى قميصك الداخلى كفتاة صالحة وألقى نظرة من النافذة."

قالت: "وماذا إذا رآنى أحد. إننا فى وضح النهار."

"لا يهم. فلن يعرفونك، إنما سيرون امرأة فى قميص داخلى، وهو ليس بمشهد غريب هنا، فسيظنون أنك.."

قالت باستخفاف: "امرأة سهلة المنال؟ أهذا ما تظنه أنت أيضًا؟

"فتاة مدمرة لشىء مختلف."

"إنها لشجاعة كبيرة منك"

"أحيانًا أصبح ألد أعداء نفسى"

قالت: "لولاك لتعرضت لمزيد من الدمار"

لقد صارت عند النافذة الآن ورفعت المظلة. كان قميصها مثل حشائش متجمدة على شاطئ ثلجى متكسر الثلوج. فلم يستطع الإمساك بها لفترة طويلة، ستذوب وتتلاشى، ستنزلق من بين يديه.

قال: "هل هناك شيء؟"

"لا شيء خارج عن المألوف"

"عودى إلى السرير"

لكنها نظرت فى المرآة المعلقة فوق الحوض ورأت نفسها. وجهها العارى وشعرها الأشعث، وتممت على ساعتها الذهبية. ربى ما هذا الدمار. لابد أن أذهب.

ميل أند إمبير، ١٥ ديسمبر ١٩٣٤

الجيش يقمع إضرابًا عنيفًا فى بورت تيكونديروجا

اندلعت بالأمس أحداث عنف جديدة فى بورت تيكونديروجا، وذلك استمرارًا للاضطرابات التى حدثت هذا الأسبوع بسبب غلق مجموعة مصانع تشاس وأولاده وما تبع ذلك من إضرابات. وقد استعانت السلطة التشريعية بالمدينة بقوات من البوليس ذات أعداد كبيرة وإمدادات عالية، وذلك بعد أن أجاز رئيس الوزراء التدخل لسلامة العامة بإرسال اللواء الملكى الكندى الذى وصل إلى المكان فى الثانية من ظهر ذلك اليوم. وقد أعلنت الجهات المسئولة استقرار الوضع فى الوقت الحالى.

وقبل استعادة النظام كان اجتماع للمضربين قد خرج عن السيطرة. وتحطمت واجهات المحلات فى شوارع المدينة الرئيسية وانتشرت أعمال السلب والنهب على نطاق واسع. وقد حاول بعض أصحاب المحال الدفاع عن ممتلكاتهم فأصيبوا برضوض وكدمات يعالجون منها الآن بالمستشفى. وجاءت الأنباء بأن أحد رجال البوليس فى حالة خطرة من أثر ارتجاج بالمخ، حيث إنه كان قد تلقى ضربة على رأسه بحجر. وكان حريق قد اندلع بالمصنع الأول فى الساعات الأولى

من النهار وأخمده رجال الإطفاء بالمدينة, وأسفرت التحقيقات عن احتمال تعمد الحريق. وكان حارس المبنى السيد أل دافيدسون قد تم سحبه بعيدا عن أماكن النيران، ولكنه كان ميتًا من أثر ضربة على رأسه واستنشاقه للدخان. وجارى البحث عن مرتكبى هذا الجرم، وقد تم التعرف على بعض المشتبه بهم.

وقد صرح رئيس تحرير جريدة تيكونديروجو، السيد إلوود أر ميوراى، أن سبب الاضطراب خمور قدمها عدد من المحرضين من الخارج لجموع الناس. وأضاف أن العمال المحليين ملتزمون بالقانون ولا يمكن قيامهم بأعمال للشغب إلا إذا تم تحريضهم.

ولم يكن السيد نورفال تشاس، رئيس مجموعة مصانع تشاس وأولاده حاضرًا للتعليق.

القاتل الأعمى: جياد الليل

منزل جديد هذا الأسبوع وحجرة أخرى. على الأقل بها مساحة للحركة بين الباب والسرير. الستائر مكسيكية مخططة بالأصفر والأزرق والأحمر؛ واللوح الرأسى للسرير من خشب الإسفندان وعلى هيئة عين طائر. وملقاة على الأرض بطانية خشنة قرمزية اللون. وعلى الحائط صورة إسبانية لمصارعة الثيران. وبالحجرة مقعد جلدى وثير باللون الأحمر الداكن، ومنضدة للكتابة من خشب البلوط، وقدح به أقلام رصاص مبراة بعناية، وصف من الغلايين. والهواء مثقل برائحة التبغ.

وعلى رف للكتب مؤلفات لأودين وفيبل وسبينجلر وشتينبك. وبالخارج فى مكان ظاهر رواية "مدار السرطان"، ولابد أنها مهربة. ذلك إلى جانب عناوين أخرى مثل "سلامبو" و"الهروب الغريب" "Strange Fugitive" و" شفق المحبين" "Twilight of the Idols" و"وداعًا سلاحى" "Farwell to Arms" . قالت فى نفسها يبدو أن لهذا الصديق الجديد اهتمامات ثقافية، بالإضافة إلى أنه على قدر من

الثراء. ومن ثم فهو غير جدير بالثقة. وعلى شماعة خشبية للمعاطف ثلاث قبعات مختلفة وروب منقوش من الكشمير الخالص.

سألته وهى تخلع قبعتها وقفازها بعد أن دخلا المكان وأغلق الباب: "هل قرأت أيًا من هذه الكتب؟"

فأجاب دون إسهاب: "بعضها. أديرى رأسك." وأزال ورقة شجر كانت عالقة بشعرها.

كانت أوراق الشجر تسقط بالفعل.

وتساءلت عما إذا كان الصديق يعرف. ليس فقط ما إذا كانت هناك امرأة – فلابد أنهما اتفقا على شيء بينهما حتى لا يدخل الصديق دون إذن، فالرجال يفعلون ذلك. – لكن من تكون، ما اسمها وما إلى ذلك. تتمنى ألا يكون قد حدث. وبوسعها أن تعرف من الكتب ومن صورة مصارعة الثيران على نحو خاص أن ذلك الصديق سيعاديها من حيث المبدأ.

كان فى ذلك اليوم أقل تهورًا وأكثر شرودًا وانشغالاً. لقد أراد التوانى والتراجع. لقد أراد إمعان النظر.

"لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟"

"أتذكرك!"

قالت وهى تخفى عينيه بيدها: "لماذا؟" إنها لا تحب أن يتفحصها أحد هكذا.

قال: "لأسترجعك بعد ذلك عندما أذهب."

"لا تفسد اليوم."

قال: "اغتنم الفرصة قبل فواتها' أليس هذا شعارك؟"

قالت: "إنه أشبه بالقول: لا تشتهى شيئًا حتى لا تفقد شيئًا.""

فضحك.

الآن لفت نفسها فى الملاءة وثنتها حول صدرها، ورقدت قبالته وقد اختفت ساقها فى ذيل سمكة طويل من القطن الأبيض. أما هو فشبك يديه خلف رأسه وأخذ يحملق فى السقف. وكانت ترشفه من شرابها من الشيلم والماء، فهو أرخص من السكوتش. كانت تنوى أن تحضر شيئًا طيبا من عندها – شيء يمكن شربه، ولكنها نسيت.

قــالت: استمر"

قــال: "لابد أن يأتينى الإلهام."

"ماذا أفعل كى ألهمك؟ لست مضطرة للعودة حتى الخامسة."

قــال: "سأؤجل الإلهام الحقيقى. لابد أن أستجمع قوتى. امنحينـــى نـــصف ساعة.

O lent, lent currite noctis equi!

"ماذا تقولين؟

قالت:"اجر برفق برفق جياد الليل. إنها مقتبسة من أوفيد. وفى اللاتينية يركض السطر بطيئًا." كان هذا من الحماقة، فقد ظنها تتباهى بنفسها. وهى لا يمكنها أن تعرف ما يعرفه وما لا يعرفه. فأحيانًا يتظاهر بأنه لا يعرف شيئًا وبعد أن تشرحه له يكشف عن أنه يعرفه وأنه كان يعرفه طوال الوقت. إنه يستدرجها ثم يخنقها.

قال: "كم أنت غريبة. فلماذا هى جياد الليل؟"

"إنها تجر عربة الزمن. فقد كان مع معشوقته، وهى تعنى أنه يريد للوقت أن يمتد حتى يقضى معها وقتًا أطول."

قال بتراخ: "لماذا؟ ألا تكفيه خمس دقائق؟ أليس لديه ما يفعله أفضل من ذلك؟"

اعتدلت فى جلستها وقالت: "هل أنت متعب؟ هل أضجرك؟ هل أرحل؟"

"اضجعى ثانية. فلن تذهبى لأى مكان."

كانت تتمنى ألا يتحدث مثل رعاة البقر فى الأفلام. ولكنه أراد أن يشعرها بالنقص. ومع ذلك تمددت وأحاطته بذراعها.

"فلتضعى يدك هنا يا سيدتى. فكم هو رائع. وأغلق عينيه. كم هو جذاب وطريف هذا اللفظ "معشوقته"، لفظ يعود إلى منتصف العصر الفيكتورى. لابد أن أقبل حذاءك الصغير الرقيق، أو أداعبك بقطع الشيكولاتة."

"ربما أكون صغيرة رقيقة، ربما أنتمى إلى العصر الفيكتورى. فلنقل حبيبته. هل هذا أكثر تقدمًا؟ هل يناسبك أفضل؟"

"بالطبع. ولكنى أفضل "معشوقته".

"على أى حال، واصل حكايتك."

قال: "مع هبوط الليل عسكر أصحاب المسرات على بعد يوم من المدينة. وبينهم جوارى وأسرى حروب سابقة يصبون النبيذ الأحمر من قوارير جلدية تعتق فيها، ويتقافزون هنا وهناك يخدمون الجمع حاملين أوعية الطعام المطبوخ المعد من اللحم والخضار. وتجلس الزوجات الرسميات فى الظل، تلمع عيونهن من بين غطاء الرأس البيضاوى قاتم اللون، يعرفن أنهن سيأوين إلى فراشهن وحيدات ذلك اليوم، لكن بوسعهن أن يضربن الفتيات الأسيرات فيما بعد بحجة الحماقة أو إساءة الأدب، وهن بالفعل سوف يفعلن ذلك.

يقرفص الرجال حول نيرانهم الصغيرة، متدثرين بمعاطفهم الجلدية، يتناولون عشاءهم، ويغمغمون فيما بينهم. لم يكن مزاجهم جذلاً. فغدًا أو بعد غد –

ذلك يعتمد على مدى سرعتهم ومدى يقظة العدو -سيحاربون وقد لا يواتيهم الفوز. حقًا لقد تلقى القبضة اليمنى لإرادة لا تقهر وعدًا لهم بالنصر من الرسول ذى العينين الناريتين، إذا استمروا على تقواهم وطاعتهم وشجاعتهم ومكرهم، لكن ما أكثر "إذا" فى هذا الأمر وما أكثر الاحتمالات.

فإذا خسروا المعركة فسيقتلون هم ونساؤهم وأولادهم. فهم لا يتوقعون أن يرحمهم أحد. أما إذا انتصروا فسيكونون هم من يقوم بالقتل، وهو ليس شيئًا ممتعًا دائمًا كما يسود الاعتقاد أحيانًا. فعليهم قتل كل فرد فى المدينة، هكذا تقضى التعليمات. فلا يُترك حيًا طفل أو صبى واحد، حتى لا يكبر متعطشًا للأخذ بثأر أبيه المذبوح، ولا تترك طفلة أنثى حتى لا تفسد أهل المسرات بطرقها المنحرفة. فى المدن التى فتحوها سابقًا احتفظوا بالفتيات الصغيرات وتم توزيعهن بين الجند، واحدة أو اثنتين أو ثلاث لكل حسب رتبته ومدى شجاعته فى الحرب، أما هذه المرة فقد نهى الرسول الإلهى عن ذلك وقال "كفى ما حدث!".

سيكون كل هذا القتل مرهقًا وصاخبًا. فالقتل على هذا النطاق الواسع مضنٍ، ومبعث للتلوث أيضًا، كما أنه لابد من تنفيذه بمنتهى الدقة والإحكام وإلا وقع أهل المسرات فى مأزق سيئ. ولصاحب القوة العظمى طريقته فى الالتزام بالقانون.

عقلت جيادهم كل على حدة. وهى قليلة العدد لا يركبها سوى القادة، رشيقة جفولة ووجوهها حزينة مكتئبة يشع الجبن من عيونها. لا يقع عليها عبء أى من هذه الأشياء، فلقد استدرجت لما هى فيه.

إذا امتلك المرء جوادًا بوسعه أن يركله أو يضربه، ولكنه لا يستطيع قتله، لأنه منذ زمن بعيد تجسد رسول صاحب القوة العظمى فى هيئة الجواد الأول. يقال إن الجياد تتذكر ذلك وتفخر به. ولهذا القادة وحدهم من يسمح لهم بامتطائها. أو لعل هذا هو السبب الذى يطرحونه.

جريدة ماى فير، مايو ١٩٣٥

أخبار الناس فى تورنتو فى عز الظهر

بقلم: يورك

فى شهر أبريل هذا العام يبدأ الربيع بداية مرحة بهيجة، فقد جاءت بشائره بموكب مهيب من سيارات الليموزين، إذ توافد الضيوف من علية القوم على واحدة من أروع حفلات الاستقبال لهذا الربيع، التى أقامتها بمنزلها فى روزدال السيدة وينفريد جريفون بريور على شرف ميس أيريس تشاس من بورت تيكونديروجو، بأونتاريو. وميس تشاس هى ابنة كابتن نورفال تشاس، وحفيدة الراحل مستر بنيامين مونتفورت تشاس، من مونتريال. وهى ستزف إلى السيد ريتشارد جريفون، شقيق السيدة جريفون بريور، والذى اعتبره الناس لفترة طويلة من أشهر العزّاب فى هذه المقاطعة؛ وسيقام حفل الزفاف فى شهر مايو، ومن المنتظر أن يكون من أجمل حفلات الزفاف فى التاريخ.

القاتل الأعمى: الجرس البرونزى

كان الوقت منتصف الليل. وفى مدينة سايكل نورن جرس برونزى وحيد يقرع ليعلن لحظة وصول الإله المهزوم، إله الشموس الثلاثة المتجسد ليلاً، وبلوغه أحط درجات هبوطه فى الظلام وتمزقه إربًا على يد سيد العالم السفلى وعصابته من المحاربين الموتى الذين يعيشون بالأسفل هناك، وذلك بعد صراع شرس معهم. تجمع الإلهة أشلاءه وتعيده للحياة وترعاه حتى يسترد صحته وعافيته، ويبزغ فى الفجر كالعادة مفعمًا بالضياء بعد أن عاد إلى الحياة.

ورغم أن الإله المهزوم شخصية شعبية، إلا أن أحدًا من أهل المدينة لم يعد يصدق هذه الحكاية. لكن مازالت النساء فى كل أسرة يصنعن تمثالاً له من الطمى يحطمه الرجال شذرات متناثرة فى أحلك ليالى العام، وبعدها تصنع النساء تمثالاً جديدًا له فى اليوم التالى. أما الأطفال فيصنع لهم آلهة صغيرة من الخبز المحلى ليأكلوها؛ وذلك لأن الأطفال بأفواههم الصغيرة النهمة يمثلون المستقبل، الذى يلتهم كل ما هو حى فى الحاضر، مثله فى ذلك مثل الزمن ذاته.

يجلس الملك وحيدًا فى أعلى أبراج قصره بالغ الثراء، حيث يمكنه مراقبة النجوم وقراءة نذر الأسبوع القادم وبشائره. وقد وضع جانبًا قناع وجهه المنسوج

من البلاتين، فلا أحد هناك يحتاج أن يخفى مشاعره عنه: فقد يبتسم ويتجهم أيضا مثل أى شخص من طبقة اليجنيرود Ygnirod. ياالها من راحة.

وهو الآن يبتسم، ابتسامة حالمة متأملة. إنه يفكر فى حبه الأخير لزوجة الموظف الصغير ممتلئة القوام. إنها غبية مثلthulk لكن لها فم ناعم مكتنز مثل وسادة مخملية وأصابع قصيرة مدكوكة كالسمك، أما عيناها فضيقتان يشعان بالمكر، وإضافة إلى ذلك فلديها موهبة فطرية للتعلم. ولكنها صارت ملحفة كثيرة المطالب وأيضًا قليلة التحفظ. فقد ظلت تلح عليه ليكتب قصيدة يتغزل فيها فى عنقها أو أى جزء آخر من جسدها، كما هى عادة المتغندرين من العشاق فى البلاط، ولكن موهبته لم تكن فى هذا الاتجاه. لماذا النساء هكذا يقتنصن التذكارات، لماذا يردن الهدايا التذكارية؟ أم أنها تمنت أن يجعل من نفسه أضحوكة لتبرهن على قوتها وتظهرها.

إنه أمر مخجل، ولكنه سيحاول التخلص منها. سيقضى على زوجها ماليًا، سيمنحه شرف العشاء فى منزله، هو وذوو الثقة من رجال البلاط، وذلك حتى تنضب كل موارده. وهنا تباع المرأة فى سوق الجوارى لتسديد الدين. فربما ينفعها ذلك ويشتد عودها. كم يسرنى أن أتخيلها دون نقابها، ووجهها مكشوف يحملق فيه كل عابر، تحمل مسند القدم لسيدتها الجديدة، أو تحمل لها حيوانها الأليف، وقد اكفهر وجهها طوال الطريق. بوسعه أيضًا أن يقتلها، ولكن قد يكون فى ذلك بعض القسوة، فكل ذنبها شهوتها للشعر الردىء، وهو ليس بطاغية.

يرقد أمامه طائر مفرغ الأحشاء. أخذ يعبث بريشه. فهو لا يهتم بالنجوم، فلم يعد يعتقد فى كل هذه الهراءات، ولكنه مع كل سيلقى عليها نظرة ويخرج ببعض التصريحات. فعلى المدى القصير سينخدع الناس بالثروات المتزايدة والمحصول الوفير، وهم دائمًا ينسون أمر النبوءات إلا إذا تحققت.

وأخذ يتساءل عن مدى صحة المعلومات التى تلقاها من حلاقه، وهو مصدره الخاص الذى يثق به، والتى تقول بأن مؤامرة جديدة تحاك ضده. فهل عليه بإلقاء القبض على المشتبه بهم مرة أخرى واللجوء إلى التعذيب والإعدام؟ فمما لا

شك فيه أن الجنوح نحو الرأفة فى التفكير يسيء للنظام العام مثله مثل ممارستها بالفعل. ومن الأفضل أن يحكم قبضته على الزمام. فإذا دارت رؤوس البعض، فلا يجب أن يكون منهم. سيضطر للعمل وحماية نفسه، ومع ذلك هو يشعر بخمول وكسل غريب. فحكم مملكة مبعث توتر لا ينتهى: فإذا تراخى واستراح ولو للحظة سينقلب عليه حراسه مهما كانوا.

وباتجاه الشمال ظن أنه لمح وميضًا، كأن شيئًا يحترق، ولكنه اختفى. لعله كان برقًا. ومسح عينيه بيده.

"أشعر بالأسف نحوه. وأرى أنه فعل كل ما فى وسعه. أعتقد أننا بحاجة إلى شراب آخر، ما رأيك؟"

"أراهن أنك ستقتله، ألمح ذلك يلمع فى عينيك."

"إنه يستحقه باسم العدل والإنصاف. فأنا نفسى أراه وغدًا. وإن كان لابد للملوك أن يكونوا هكذا، أليس كذلك؟ فالبقاء للأقوى، أما الضعفاء فلا أمل لهم."

"إنك لا تؤمن بذلك فى الواقع."

"هل هناك مزيد من الشراب؟ صفى الزجاجة، لأنى شديد العطش."

"سأرى." وقامت تجر الملاءة، فقد كانت الزجاجة على منضدة الكتابة. فقال: "لا داعى أن تلفى نفسك، فأنا أستمتع بالمنظر."

نظرت إليه من وراء كتفيها. وقالت. "إنها تزيد الغموض. ناولنى كأسك. أرجو أن تكف عن شراء هذا الخمر الرخيص."

"إنه كل ما أستطيع شراءه. وعلى كل حال فأنا لا أتذوق. وذلك لأننى يتيم. فلقد دمرنى القساوسة فى الملجأ، وهذا سبب كآبتى الشديدة وتعاستى."

"لا تلعب بورقة اليتيم التعس، فقلبى لا ينزف."

"بل هو كذلك، أنا متأكد. فنزيف قلبك أكثر ما يعجبنى فيك."

"ليس قلبى الذى يدمى، ولكنه عقلى، فعقلى ينزف، أو هكذا قالوا لى."

"ضحك. فلنشرب نخب عقلك الدامى إذن."

شربت وملامح الامتعاض على وجهها.

قال بمرح: "تتضح الأمور كلما توغلنا فى الحكى. ماذا أردت أن أقول.. لابد أن أقابل شخصًا بخصوص كلب." ونهض وتوجه نحو النافذة وفتح الشيش قليلاً.

"لا تفعل ذلك!"

"إنه طريق جانبى، ولن أضرب أحدًا."

"على الأقل تغطى بالستارة.ثم ماذا عنى؟"

"ماذا عنك؟ لقد رأيت رجلاً عاريًا من قبل، ولم تغضى بصرك دائماَ."

"لا أقصد ذلك، لكن لا أستطيع أن أتبول من النافذة. سأنفجر."

قال: "ارتدى روب صديقى. أترينه؟ ذلك الشىء المنقوش بمربعات على الشماعة. فقط تأكدى أن الردهة خالية. فصاحبة المنزل عجوز مزعجة، لكن طالما أنك ترتدين شيئًا منقوشًا فلن تراكِ. ستذوبين مع الخلفية، فهذا المنزل مطلى كله بالنقوش المربعة."

قال: "حسن إذن. أين توقفت؟"

قالت: "عند منتصف الليل وجرس برونزى وحيد يقرع."

آه فعلاً. كان منتصف الليل وجرس برونزى وحيد يقرع. وبمجرد أن تلاشى الصوت أدار القاتل الأعمى المفتاح فى الباب. كان قلبه يخفق بشده، كما يحدث دائما فى مثل هذه اللحظات: لحظات يتهدده فيها خطر فادح. فإذا تم الإمساك به سيكون الموت الذى ينتظره طويلاً ومؤلما.

لم يشعر بشيء تجاه الموت الذى هو بصدد إحداثه، ولم يهتم بمعرفة أسبابه. من الذى سيقتل ولماذا، كلها أمور تخص أصحاب الجاه والسلطان، وهو يكرههم جميعًا بنفس الدرجة. فهم من ذهبوا ببصره، واغتصبوا جسده عشرات المرات عندما كان صغيرًا عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، وهو يرحب بالفرصة ليذبح كل واحد منهم – هم وكل من يشترك فى أفعالهم، مثل هذه الفتاة. لا يعنيه شيء إن كانت أقل كثيرًا من سجينة مزينة بالجواهر. لا يعنيه شيء إن كان من أفقدوه بصره هم أنفسهم من جعلوها خرساء. سيقوم بعمله ويحصل على أجره وينتهى كل شيء.

وعلى كل حال فهى ستقتل غدًا إن لم يقتلها هو الليلة، فعليه أن يسرع وألا يكون أحمق. إنه يسديها معروفًا. فسيكون هناك العديد من القرابين التى تذبح خطأ وبحماقة. فليس من بين هؤلاء الملوك من يجيد استخدام السكين.

يرجو ألا تحدث ضجة كبيرة. فلقد أخبروه أنها لا تستطيع الصراخ، وأن أعلى صوت تصدره بفمها المجروح مقطوع اللسان، مواء عالٍ مكتوم مثل قطة فى سلة. ذلك رائع. ومع ذلك سيحتاط للأمر.

سحب جثة الحارس داخل الحجرة حتى لا يتعثر فيها أحد فى الممشى. وعندئذ دخل هو أيضًا حافى القدمين فى صمت تام وأغلق الباب.

الفصل الخامس

مكتبة القاتل الأعمى

هذا الصباح أذاعت محطة الأرصاد تحذيرات عن هبوب إعصار الطرناد الدوامى، وعند منتصف الظهيرة اكتست السماء بظلال خضراء، وبدأت أغصان الأشجار تتكسر وتتساقط وكأن حيوانا كبيرًا ضخما يشق طريقه خلالها. واندلعت العاصفة فوق رؤوسنا: يبرق فيها الضوء الأبيض كأنه ألسنة الثعابين، وتسمع فيها أصوات كأنها أطباق الفطائر المعدنية تتساقط. كانت رينى تقول لنا: "عدوا حتى ألف وواحد، فإذا فعلتم ذلك ابتعدت العاصفة بنحو ميل. وكانت تطلب منا ألا نستخدم الهاتف أثناء العاصفة الرعدية وإلا اخترق البرق آذاننا وأصابنا بالصمم. وكانت تطلب منا أيضًا ألا نستحم فى تلك الأثناء لأن البرق قد يخرج إلينا من الصنبور مثل الماء. وكانت تقول أيضًا إذا انتصب الشعر على القفا، فلابد أن نقفز فى الهواء، فهى الطريقة الوحيدة لإنقاذنا.

ومع منتصف الليل هدأت العاصفة، إلا أن الأرض كانت رطبة زلقة كبالوعة. ورحت أتقلب مضطربة فى فراشى، أنصت إلى دقات قلبى الواهية التى يعلو عليها صوت يايات السرير، محاولة الراحة. وأخيرًا عدلت عن النوم وارتديت سترة طويلة فوق رداء النوم، ورحت أتحامل هابطة الدرج. وبعدها ارتديت معطفى المطاطى الواقى من المطر المزود بقلنسوة للرأس، وزلقت قدمى فى حذائى المطاطى ذى الرقبة العالية، وخرجت من المنزل. وكانت درجات السلم الخارجى عند المدخل زلقة بما لا تحمد عقباه. فقد بلى طلاؤها، ولعلها تآكلت.

وفى الضوء الخافت بدت الأشياء كلها أحادية اللون. وكان الهواء رطبًا ساكنًا. وفى الحديقة الأمامية تلألأت قطرات لامعة على زهرات الكريزانتيم؛ وكانت مجموعة كبيرة من البزاقة تلتهم أوراق الترمس القليلة المتبقية. يقال إن البزاقة تحب البيرة؛ فرحت أفكر فى أن أضع بعضًا فى الخارج لأجلها. فالأفضل أن أقدمها لها وليس لنفسى: فهى ليست من أنواع الخمور التى أفضلها. فأنا أريد ما هو أسرع فى تخدير الأعصاب.

تلمست طريقى عبر الطريق الجانبى الرطب. كان القمر مكتملاً تحيطه هالة شاحبة. وزحف أمامى ظلى قصيرًا مثل جنى الأساطير. شعرت بأنى أقوم بعمل جسور: امرأة عجوز وحيدة تسير بالليل. قد يظننى الغرباء عاجزة عن الدفاع عن نفسى. وكنت بالفعل خائفة بعض الشيء، أو لعلنى كنت متوجسة قليلاً مما جعل قلبى يخفق بشدة. وكما دأبت ميرا على أن تقول لى برفق، فإن العجائز من النساء هدف صائغ لمهاجمة قطاع الطرق. ومن الشائع أن هؤلاء اللصوص يأتون من تورنتو، كما تأتى كل المساوئ. ربما يأتون فى الحافلات العامة يتخذون المظلات أو عصا الجولف أدوات خفية للهجوم. وتواصل ميرا فى حزن أنه لا حدود لما يفعلونه.

تقدمت متجاوزة ثلاث بنايات نحو طريق البلدة الرئيسى، ثم توقفت أمد بصرى شاخصة عبر الممر الأسفلتى اللامع الرطب لجراج والتر. كان والتر جالسًا فى منارة الكشك الزجاجى وسط لجة خاوية من الأسفلت المستوى. وبدا وهو يميل إلى الأمام فى قلنسوته الحمراء مثل جوكى عجوز فوق فرس غير مرئى، أو مثل قائد يحمل قدره، يقود سفينة موحشة فى الفضاء الخارجى. وكان حقيقة يشاهد قناة الرياضة على تليفزيونه الصغير، كما تصادف وعرفت من ميرا. لم أذهب للتحدث معه، فربما روعه رؤيتى وأنا ألوح له فى الظلام برداء النوم وحذائى عالى الرقبة مثل صائد نساء مجنون هرم. لكن أراحنى أن أعرف أن هناك على الأقل شخصًا آخر يقظًا فى تلك الساعة من الليل.

فى طريق عودتى سمعت وقع خطوات خلفى. فقلت فى نفسى، ها هو قد حدث وأتى أحد قطاع الطرق. ولكنها لم تكن سوى شابة فى معطف مطر أسود تحمل حقيبة أو حافظة أوراق صغيرة. ومرت بى مسرعة تميل برأسها نحو الأمام.

وظننتها سابرينا، وقد عادت أخيرًا. فى تلك اللحظة شعرت كم أمتلئ بالسماحة والخير والرقة، وكأن الزمن عاد بى إلى الوراء، وكأن عصاى الخشبية

القديمة تفجرت منها زهرة. ونظرت ثانية فأدركت أنها ليست هى، ونظرت ثالثًا فقلت: كلا، إنها ليست سابرينا على الإطلاق، إنما هى فتاة غريبة. وعلى كل، فمن أكون لأستحق مثل هذه المعجزة فى النهاية؟ كيف لى أن أنتظرها؟ ومع ذلك فأنا أنتظر تلك المعجزة متحدية كل الأسباب!

لكن فلأكف عن ذلك، ولأحمل هم حكايتى، كما يقولون فى الأشعار. ولأعد إلى أفيليون.

ماتت أمى. ولم تعد الأمور كما كانت أبدًا. قالوا لى أن أجعل شفتى العليا متحجرة. من قال لى ذلك؟ رينى بالتأكيد، أو لعله أبى. إنه شىء مضحك، فلم يقولوا شيئًا عن الشفة السفلى. إنها الشىء الذى يفترض أن نعضه ليحل ألم محل آخر.

فى البداية اعتادت لورا أن تقضى وقتًا طويلاً داخل معطف الفراء الخاص بأمى. كان مصنوعًا من جلد الفقمة وكان منديل أمى مازال فى جيبه. كانت لورا تدخل فيه، وتحاول ربط الأزرار حتى تفلح أخيرًا فى ذلك ثم تزحف فى داخله. أعتقد أنها كانت تقيم بعض الصلوات أو استحضار الأرواح: كانت تستحضر روح أمى. ومهما كان الأمر فلم يجد شيئًا. وبعدها تم التبرع بالمعطف لأعمال الخير.

وسرعان ما بدأت لورا تسأل عن مصير الطفل، ذلك الذى لم يشبه قطة صغيرة. فلم يعد يرضيها القول بأنه ذهب إلى السماء – فكانت تقصد ماذا حدث له بعد أن كان فى الحوض. قالت لها رينى إن الطبيب أخذه بعيدًا. ولكن لماذا لم تقم له جنازة؟ قالت رينى: "لأنه ولد صغيرًا جداً". "فكيف لشىء صغير هكذا أن يقتل أمى؟" قالت رينى: "لا عليك. ستعرفين عندما تكبرين. فما لا تعرفين لا يجرحك." إنها حكمة مشكوك فى صحتها. فأحيانًا يجرح المرء كثيرًا ما لا يعرف.

فى الليل كانت لورا تتسلل زاحفة إلى غرفتى وتوقظنى، ثم تصعد إلى الفراش بجوارى. لم تكن تستطيع النوم: كان ذلك بسبب الرب. فقد كانت على وفاق مع الرب حتى يوم الجنازة. "الرب يحبكم" كانت تقولها معلمة مدرسة الأحد

فى الكنيسة الميثودية حيث كانت أمى ترسلنا، وحيث استمرت رينى فى إرسالنا بوجه عام، وقد صدقتها لورا. أما الآن فلم تعد على يقين تام.

فلقد بدأ يحيرها المكان المحدد لوجود الرب. وكان ذلك خطأ المعلمة فى مدرسة الأحد: فقد كانت تقول: "الرب فى كل مكان"، وأرادت لورا أن تعرف هل الرب موجود فى الشمس، هل هو موجود فى القمر، هل هو فى المطبخ، فى الحمام، وتحت السرير؟ (قالت رينى: "أود أن أكسر عنق تلك المرأة"). لم تشأ لورا أن يفاجئها الرب دون توقع، وقد يتضح ذلك إذا نظرنا إلى تصرفه الأخير. اعتادت رينى أن تقول وهى تمسك كعكة خلف ظهرها: "افتحى فمك وأغلقى عينيك، وستجدين مفاجأة كبيرة"، ولكن لورا لم تعد تفعل ذلك، فلقد أرادت عينيها مفتوحتين، لا لأنها لا تثق فى رينى، إنما لأنها كانت تخشى المفاجآت.

ربما يوجد الرب فى دولاب المكنسة. إنه أرجح الأماكن لوجوده. فهو يكمن هناك مثل عم غريب الأطوار، وربما كان خطرًا، ولكنها لم تكن على يقين مما إذا كان موجودًا لحظة بعينها، لأنها كانت تخشى فتح الباب. قالت معلمة مدرسة الأحد: "الرب فى قلبك"، ولكن كان ذلك أسوأ. فإذا كان فى صوان المكنسة، فيمكن أن نغلق الباب.

الرب لا ينام، هكذا تقول الترنيمة _ "لا تضم أجفانه نعاسًا غير مكترث". إنما هو يطوف بالمنزل ليلاً يتجسس على الناس – يرى ما إذا كانوا على درجة من الخير، أو يرسل طاعونًا يقضى عليهم، أو ينغمس فى نزوة أخرى. وعاجلاً أو آجلاً يضطر إلى إتيان عمل غير سار، كما كان يفعل غالبًا، كما يقول الإنجيل. كانت لورا تقول: "اسمعوا، إنه هو. الخطوة الخفيفة والأخرى الثقيلة."

"إنه ليس الرب(*)، إنما هو أبى. إنه فى البرج العلوى الصغير."

"ماذا يفعل؟"

"يدخن." لم أشأ القول إنه يشرب، فقد بدا ذلك خيانة.

كنت أشعر بحنان بالغ نحو لورا وهى نائمة – فمها مفتوح قليلاً، ولا تزال رموش عينيها مبللة، ولكن نومها مضطرب، فكانت تزمجر وترفس وتشخر أحيانًا، وتحول بينى وبين النوم. فكنت أقفز خارج الفراش وأمشى على أطراف أصابعى على الأرض، ثم أشب عاليًا لأتطلع من نافذة حجرة النوم. عندما يكون القمر ساطعًا تكتسى حدائق الزهور باللون الرمادى الفضى، وكأنما زالت عنها كل الألوان. كنت أرى الحورية الحجرية أقصر من طولها فى الواقع، وقد انعكس القمر فى بركة الزنبق الخاصة بها وهى تغمس أصابع قدميها فى ضوئه البارد. أرتجف فأرغب فى العودة إلى الفراش أرقب الظلال المتحركة للستائر وأنصت إلى قرقرة وطقطقة المنزل وكأنه يتزحزح. ولأتساءل أى إثم ارتكبت.

يعتقد الأطفال أن كل ما يحدث من سوء هو خطؤهم بعض الشىء، ولم أكن مستثناة من ذلك؛ لكنهم أيضًا يؤمنون بالنهايات السعيدة، رغم كل الدلائل على غير ذلك، ولم أكن مستثناة من ذلك أيضًا. ولكنى فقط أردت للنهاية السعيدة أن تسرع، لأننى كنت أشعر بوحشة شديدة، خاصة فى الليل عندما تكون لورا نائمة ولا أضطر للتسرية عنها.

وفى الصباح كنت أساعد لورا على ارتداء ملابسها، وأتأكد أنها فركت أسنانها بالفرشاة وغسلت وجهها، وكانت تلك مهمتى حتى فى حياة أمى. وفى وقت الغداء كانت رينى تتركنا أحيانًا نخرج فى نزهة خلوية. وكنا نحمل معنا خبزًا أبيض مدهونا بالزبد وجيلى العنب الشفاف مثل ورق السلوفان، وجزرًا نيئًا وتفاحًا مقطعًا. ومعنا أيضًا أقماع لحم مفروم مأخوذ من العلبة مباشرة يشبه فى شكله معبد

(*) الألفاظ المشيرة إلى الربوبية هى: من المعتقد الدينى الخاص بالشخصية، ويفرضها السياق الفنى للرواية. ونحن لو ننقلها كما هى، احتراما للدقة ولفكر المؤلفة حتى لو اختلفنا معها (محرر السلسلة).

أزتيكى. ذلك إضافة إلى بيض مسلوق. كنا نضع هذه الأشياء فى أطباق ونخرج بها ونأكلها هنا وهناك – عند البركة، أو فى المستنبت الزجاجى. وفى أوقات المطر كنا نأكل بالداخل.

كانت لورا تقول وهى تضم يديها وتغلق عينيها وتنحنى على كسرات الخبز المتبقية من شطيرة الجيلى الخاصة بها: "تذكرى الأرمن الجياع". كنت أعرف أنها كانت تقول ذلك لأن أمنا اعتادت قوله، مما كان يشعرنى برغبة فى البكاء. فكنت أقول لها فى الحال: "ليس هناك أرمن جياع، إنها حكاية مختلقة" ولكنها لم تقتنع.

كانوا يتركوننا وحدنا كثيرًا فى ذلك الوقت. فعرفنا كل تفاصيل أفيليون: خبرنا كل شق وكهف ونفق فيها. فكنا نحملق فى الشقوق الخفية تحت السلالم الخلفية حيث كومة من الأحذية المطاطية الواقية وفرد أحادية من قفازات اليد، ومظلة مكسورة الأضلع. تفحصنا كل مكان فى سرداب التخزين – مخزن الفحم لتخزين الفحم، مخزن الجذور لتخزين الكرنب والقرع حيث توضع على لوح خشبى، بينما ينمو البنجر والجزر متفرعًا بشواربه فى صناديقها الرملية، والبطاطس بمجساتها العمياء ذات اللون الأمهق الشبيهة بأرجل الكابوريا؛ وكان المخزن البارد مخصصًا للتفاح فى براميله، ولأرفف الأطعمة المحفوظة – المربى والجيلى والفرولة والطماطم المقشرة وصوص التفاح، كلها فى برطمانات مغطاة. وكان هناك مخزن للخمور أيضًا، ولكنه كان مغلقًا دائمًا، ولا يحتفظ بمفتاحه سوى أبى.

وأسفل التراس عثرنا على المغارة الرطبة متسخة الأرضية، ووصلنا إليها متسلقين ما بين نباتات الخضمية، وفيها لا ينمو سوى نبات الهندباء العنكبوتية، وتشارلى المتسلق، ويفوح المكان برائحة نعناع طاغية تمتزج برائحة معطر القطط، ومرة كانت تنبعث منه رائحة حارة نتنة تثير الغثيان لثعبان جرسى صغير. ووجدنا أيضا العلية (السندرة)، حيث صناديق من الكتب القديمة وألحفة مخزنة وثلاثة صناديق كبيرة فارغة، وأرغن صغير مكسور، كما وجدنا قالب فساتين جدتنا أديلا، وهو عبارة عن تمثال جذعى شاحب بال.

كنا نحبس أنفاسنا ونحن نشق طريقنا خلسة فى متاهات الأشباح. وكنا نتعزى بسرية ما نقوم به ومعرفتنا بالممرات الخفية، واعتقادنا بأن لا أحد يمكنه رؤيتنا.

قلت: "أنصتى إلى دقات الساعة". فقد كانت ساعة بندولية قديمة جدًا، من الصينى الأبيض والذهبى، امتلكها جدنا، وكانوا يضعونها فوق رف المدفأة فى حجرة المكتبة. ظننت لورا أننى قلت "لعقات" بدل "دقات". وكانت محقة فقد كان البندول النحاسى فى تأرجحه ذهابًا وإيابًا يشبه لسانًا يلعق شفتين فى فم غير مرئى، ويلتهم الوقت.

جاء الخريف ورحت أنا ولورا نقطف ثمار الصقلاب ونفتحها لنلمس بذورها قشرية الشكل المتداخلة فى بعضها بما يشبه جلد التنين. كنا ننزع البذور وننثرها فوق مظلتها المخملية، تاركين اللسان البنى المائل إلى الصفرة ناعمًا كباطن الكوع. وبعدها نذهب إلى جسر جوبيلى ونلقى الثمار فى النهر لنرى كم من الوقت ستطفو قبل أن تنقلب أو يجرفها التيار. هل كنا نخالها تحمل بشرًا أو شخصًا؟ لست على يقين. ولكن كان ينتابنا إحساس خاص بالرضا ونحن نراها تغوص نحو القاع.

وأتى الشتاء. واكتست السماء بلون رمادى أغبش، وهبطت الشمس فى السماء متخذة اللون الوردى الفاتح كدماء السمك. ومن السطح وأعتاب النوافذ تساقطت دلاة الجليد سميكة معتمة مثل رسغ اليد وكأنها معلقة فى طريقها نحو السقوط. كنا نكسرها ونمص أطرافها. وكانت رينى تقول إننا إذا فعلنا ذلك سيسود لساننا ويسقط؛ وحيث إننى فعلت ذلك من قبل كنت أعلم أن ما تقوله ليس حقيقة.

كان فى أفيليون عنبر للقوارب ومخزن للثلج، عند رصيف الميناء. فى عنبر القوارب كان المركب الشراعى القديم – "واتر نيكسى" – والذى كان لجدى ثم صار لأبى – جافًا ومرفوعًا من أجل الشتاء. وفى مخزن الثلج كانت تخزن الثلوج

المقطوعة من نهر الجوج والتى تسحب كتلها الجياد إلى هناك حيث يتم تخزينها وتغطى بنشارة الخشب انتظارًا للصيف حيث تندر.

كنت أنا ولورا نخرج إلى رصيف الميناء الزلق، وكان يحظر علينا فعل ذلك. وكانت رينى تقول إذا انزلقنا وسقطنا فى الماء فلن نبقى لحظة واحدة لأن المياه فى برودة الموت. وقد تمتلىء أحذيتنا ذات الرقبة العالية بالماء فنغوص كالحجارة. فألقينا بعض الحجارة فى الماء لنرى ما سيحدث لها، فتدحرجت منزلقة على الثلج ثم استقرت هناك وبقيت واضحة للعيان. كان زفيرنا يخرج محدثًا دخانًا أبيض ننفخه فى دوائر متصلة، ونحرك رجلينا من البرد، فنرفع واحدة وننزل أخرى. وكان الثلج يصر تحت نعل حذائينا. كنا نشابك يدينا فيلتصق بالبرودة قفازا الكف على أيدينا حتى إننا عندما خلعناهما بدا كيدين من الصوف زرقاوين خاويتين تمسك إحداهما بالأخرى.

وفى قاع جندل نهر اللفتوا تكومت كتل مسننة من الجليد فوق بعضها البعض، تبدو ناصعة البياض فى الظهيرة، بينما يكسبها ضوء الشفق خضرة خفيفة؛ وعن قطع الجليد الأصغر حجمًا يصدر رنين خفيف مثل الجرس. وفى وسط النهر كانت المياه تجرى حرة سوداء اللون. وعلى الجانب الآخر يتصايح الأطفال من فوق التل، وهم يختبئون وراء الأشجار، تتعالى أصواتهم حادة سعيدة فى الهواء البارد. وهم ينزلقون على الثلج بالعربات الزلاقة الصغيرة، وهو ما كان يحظر علينا فعله. وكنت أفكر فى السير على شاطئ الجليد المشرشر لأختبر مدى صلابته.

وأتى الربيع. فاكتست فروع أشجار الصفصاف بالصفرة والقرنوس بالحمرة. وفاض نهر اللفتوا، فانقلبت الأشجار من جذورها وجرفها التيار. وقفزت سيدة من على جسر جوبيلى فهوت نحو الجندل ولم يتم العثور على الجثة ليومين. فقد تم البحث عنها فى اتجاه مجرى النهر، ولكنها غابت تمامًا عن النظر، فالانجراف نحو هذه الجنادل أشبه بالدخول فى مفرمة اللحم. قالت رينى فى ذلك: "ليست تلك هى الطريقة المثلى لمفارقة الحياة، خاصة إذا كان المرء من المهتمين بالمظاهر، مع أن الناس لا يحسبون حسابًا كبيرًا لذلك الآن".

وتعرف مسز هيلكوت كثيرًا من أولئك الذين قفزوا إلى النهر على مدى سنوات. لقد قرأتم عنهم فى الصحف. من بينهم فتاة كانت تذهب معها إلى المدرسة، تزوجت عاملا بالسكك الحديدية. وتقول مسز هيلكوت إنه كان كثير الغياب عنها، فماذا عساه أن يتوقع؟ "الوقوع فى الخطيئة، ولا عذر فى ذلك". وتومئ رينى برأسها وكأن ذلك يفسر كل شيء.

"لا يهم مدى غباء الرجل، فمعظم الرجال يمكنهم العد، على الأقل على أصابعه. لكن ما فائدة غلق باب الحظيرة بعد أن يهرب الفرس."

قالت لورا: "أى فرس؟"

وأضافت مسز هيلكوت: "وربما كانت تعانى نوعًا آخر من المشكلات، فإذا كان المرء يعانى من المشكلات فربما كان ذلك أكثر من نوع واحد."

وهمست لى لورا: "ما معنى الخطيئة؟" ولكنى لم أكن أعلم.

وقالت رينى: "إلى جانب القفز، قد تسير مثل هؤلاء النساء إلى داخل النهر ضد التيار ثم يغصن تحت السطح بفعل ثقل ملابسهن المبتلة، وبذلك لا يستطعن السباحة لإنقاذ أنفسهن حتى لو أردن ذلك. أما الرجال فهم أكثر حرصًا فى ذلك. فهم يشنقون أنفسهم عند أعتاب مخازن الغلال، أو يفجرون رؤوسهم ببنادق الصيد، أما إذا نووا الغرق فهم سيثبتون إلى أجسادهم بعض الحجارة أو أشياء ثقيلة مثل رؤوس الفئوس أو حقائب المسامير. فهم لا يريدون انتهاز أى فرصة فى شيء خطير كهذا. ولكنها طريقة المرأة أن تسير داخل النهر مسلمة نفسها للماء يسحبها. ولم يظهر من نغمة صوت رينى ما إذا كانت توافق على هذا الفرق أم لا.

بلغتُ العاشرة من عمرى فى شهر يونيو. صنعت رينى كعكة للمناسبة، مع أنها قالت إن ذلك لا يصح ولم يمر على وفاة أمى سوى وقت قصير، لكن لابد للحياة أن تستمر والكعكة لا تجرح. وسألت لورا: "ماذا تجرح؟" فقلت: "مشاعر

أمى". هل كانت أمى ترقبنا من السماء؟ ولكنى صرت عنيدة مزهوة بنفسى، فلم أخبرها. لم تأكل لورا شيئًا من الكعكة بعد أن سمعت ذلك عن مشاعر أمى، فأكلت أنا قطعتها وقطعتى.

يشق علىَّ الآن تذكر تفاصيل حزنى – على أى شكل كان بالضبط – مع أننى أستطيع استدعاء صدى له كلما أردت، فقد كنت مثل كلب صغير محبوس فى سرداب ينبح متأوهًا. ماذا فعلت يوم ماتت أمى؟ يصعب تذكر ذلك كما يصعب تذكر كيف كانت تبدو فى الواقع: فهى تبدو لى الآن كما تظهر فى الصور فقط. ولكنى أتذكر بوضوح كيف بدا فراشها غريبًا عندما لم تعد فيه فجأة: كيف بدا خاويًا! الطريقة التى دخل بها ضوء العصر مائلاً من النافذة وسقط فى صمت على الأرضية الخشبية تطفو فيه ذرات الغبار مثل الضباب. رائحة طلاء الأثاث المصنوع من شمع العسل، ورائحة زهور الكرازنتيم الذابلة، ورائحة لا تريح لمبولة السرير والمطهر. يمكننى الآن تذكر غيابها أفضل من حضورها.

قالت رينى لمسز هيلكوت إنه رغم عدم قدرة أى شخص أن يحل محل مسز تشاس، التى كانت قديسة على الأرض، إذا كان هناك قديسون بالفعل، إلا أنها تفعل ما فى وسعها، وأنها تتظاهر بالسعادة من أجلنا، لأن أقل ما يقال إنه سرعان ما تتصلح الأمور ولحسن الحظ أنه يبدو أننا نتغلب على الموقف، رغم أن مشاعر الحزن لا تزال قوية فى الأعماق، وإننى بالغة الهدوء مما يضرنى. فهى تقول إننى من النوع الذى يميل إلى طول التأمل والتفكير وكبت المشاعر، ولكنى لابد أن أعبر عنها بطريقة ما. أما لورا، فلا أحد يعرف، لأنها طفلة غريبة الأطوار دائماً.

قالت رينى إننا نقضى معها أوقاتًا أكثر من اللازم، وأن لورا تتعلم أساليب كبيرة عليها، وأنا أُمنع من التدخل. فلابد لكلينا أن نكون مع أطفال فى مثل عمرنا، ولكن القليل من أطفال البلدة الذين قد يتناسبون معنا تم إرسالهم إلى المدرسة – إلى مدارس خاصة مثل تلك التى كان يقضى الحق والعدل أن يتم إرسالنا إليها، لكن يبدو أن كابتن تشاس لا يفكر فى الإعداد لهذا الأمر، وعلى كل كان ذلك سيؤدى إلى إحداث تغييرات كثيرة فى وقت واحد، ورغم أننى كنت شديدة البرود وكنت

سأتغلب على الأمر بالفعل، إلا أن لورا تبدو أصغر من عمرها، بل هى صغيرة جدًا من كل النواحى. وهى أيضًا سريعة الانفعال. فهى من ذلك النوع الذى ينزعج وتسرع فى التحطيم وإشاعة الفوضى حولها وتغرق فى شبر ماء، ولا تحتفظ بسلامة تفكيرها.

كنت أنا ولورا نجلس على السلالم الخلفية بينما الباب مفتوح فرجة صغيرة، نكتم الضحك فى أفواهنا بأيدينا. كنا نستمتع بمباهج الجاسوسية. لكن لم يفدنا كثيرًا أن نختلس السمع إلى مثل ما قيل عنا.

الجندى المنهك

اليوم سرت إلى البنك فى ساعة مبكرة، لأتجنب شدة الحرارة، وحتى أكون هناك ساعة أن يفتح. وبهذه الطريقة أضمن أن يهتم بى أحد، وهو ما أحتاجه منذ أن ارتكبوا خطأ فى كشف حسابى. أخبرهم أننى مازلت قادرة على السحب والإيداع، على عكس ماكيناتكم تلك، فيبتسموا مثل نادل المطعم الذى يبصق فى حسائك فى المطبخ. دائمًا أطلب رؤية المدير، وهو دائمًا فى اجتماع، ودائمًا ما يحولوننى إلى جندى صغير متعال يتكلف الابتسام، ترك بنطلونه القصير لتوه ويرى نفسه حاكمًا مستقبليًا واسع النفوذ.

أشعر أنهم يحتقروننى هناك لحجم مدخراتى الصغير، وأيضًا لأننى كنت أملك الكثير فى وقت من الأوقات. بالطبع لم أكن أملك ذلك المال أبدًا، بل كان يملكه أبى ثم ريتشارد بعد ذلك. ولكن المال يصمنى، كما تصم الجرائم أولئك الذين حضروا ارتكابها.

فى البنك أعمدة رومانية، لتذكرنا أن نعطى لقيصر ما لقيصر، مثل تلك المصاريف الخدمية المثيرة للسخرية. مقابل سنتين يمكن أن أحفظ نقودى فى جورب أسفل حشية الفراش نكاية فيهم. لكن أرى أن الخبر سينتشر بأننى أصبحت عجوزًا مخبولة غريبة الأطوار من ذلك النوع الذى عثر عليه ميتًا فى كوخ كئيب

تتكوم فيه مئات من علب طــعام القطط الفارغة ومليونا دولار من فئة الدولارات الخمس مخبأة بين أوراق جرائد مصفرة. لا أرغب أن أصبح مادة لاهتمام المدمنين والهواة من الرعاع بعيونهم التى يتفجر منها الشرر وأصابعهم المرتعشة.

فى طريق عودتى من البنك سرت نحو مركز البلدية، وهو بناء من الطوب الحجرى على الطراز الفلورنسى له برج للجرس على الطراز الإيطالى، وسارية للعلم تحتاج طلاء، ومدفع حربى كالموجود فى منطقة السوم الفرنسية. ويضم أيضًا تمثالين من البرونز شيدا بتكليف من عائلة تشاس. فذلك التمثال القائم على اليمين شيد بتكليف من جدتى أديلا، وهو للكولونيل باركمان، من المحاربين القدماء فى الحرب الحاسمة الأخيرة فى الثورة الأمريكية، أما التمثال الخاص بفورت تيكونديروجا فهو الآن فى ولاية نيويورك. قد يأتى إلينا مرة بعض الألمان أو الإنجليز أو حتى الأمريكان تتملكهم الحيرة وهم يتجولون فى المدينة يبحثون عن ساحة قتال فورت تيكونديروجا. سيقولون لهم إنهم أخطأوا المكان. "فكروا فى الأمر، لقد أتيتم إلى البلد الخطأ، إنكم تقصدون تلك الأخرى".

إنه الكولونيل باركمان الذى ترك بلاده وعبر الحدود، وسمى مدينتنا، ومن ثم وبلا منطق فهم يحتفلون بذكرى معركة خسرها. (مع أن ذلك قد لا يكون بالغ الغرابة فبعض الناس تعجبهم جروحهم.) فهو يظهر ممتطيًا صهوة جواده مشرعًا سيفه وعلى وشك القفز فى حوض زهور البطونية المجاور: رجل صلب تطل الحنكة من عينيه وله لحية مدببة، تتمثل فيه أقصى ما يبشده المثالون فى قائد حربى. لا أحد يعرف كيف كان يبدو كولونيل باركمان فى الحقيقة، حيث إنه لم يترك صورة تدل عليه، ولم يكن التمثال قد أقيم حتى عام ١٨٨٥، ولكنه الآن يبدو هكذا، تلك هى ديكتاتورية الفن.

وعلى يسار المرج، وأيضًا إلى جوار حوض زهور البطونية شخصية أسطورية أخرى لها نفس المكانة، وهى شخصية الجندى المنهك؛ يبدو وقد حلت ثلاثة أزرار من قميصه العلوى وانحنت رقبته كأنما ينتظر أن يضربها القائد بفأسه

وقد تجعد زيه العسكرى، وانحرفت خوذته عن رأسه وهو ينحنى على مسدسه الردىء من طراز روس. شاب لا يهرم أبدًا، منهك دومًا يعتلى نصب الحرب التذكارى، تكتسى بشرته بالأخضر المحترق فى ضوء الشمس، وحمامة تهرع هابطة على وجهه مثل الدموع.

كان الجندى المنهك أحد مشاريع والدى، نحتته مثَّالة تدعى كاليستا فيتسيمونز، رشحتها بشدة فرانسيز لورينج، أمين لجنة النصب التذكارية بجماعة أوناريو للفنانين. كانت هناك بعض الاعتراضات المحلية على مس فيتسيمونز، فقد رأوا أن المرأة لا تصلح لهذا العمل، ولكن أبى ضرب باجتماع الرعاة عرض الحائط: وسألهم أليست ميس لورينج نفسها امرأة؟ ومن ثم يثير ذلك بعض التعليقات غير المرتبطة بالموضوع "فكيف يمكن معرفة أنها أفضلهن." وفى جلسة خاصة قال إنه هو الذى يقود الجوقة، وحيث إن الآخرين مجرد تابعين فالأفضل أن يرضخوا لقراره.

لم تكن مس كاليستا فيتسيموندز امرأة فحسب، ولكنها كانت فى الثامنة والعشرين من عمرها وحمراء الشعر. بدأت تتردد على أفيليون للتشاور مع أبى حول التصميم المقترح. كانت تلك الجلسات تقام فى حجرة المكتبة والباب مفتوح فى البداية، ولكن ليس بعد ذلك. فقد تم إنزالها فى إحدى حجرات الضيوف، ثانى أفضل حجرة فى البداية، ثم الحجرة الأفضل بعد ذلك. وسرعان ما أصبحت تأتى فى نهاية كل أسبوع، وعرفت الحجرة التى تنزل فيها بأنها حجرتها.

بدا أبى أكثر سعادة؛ ومن المؤكد أنه قلل من الشراب. وأصلح الأرضيات، على الأقل بما يكفى لتصبح لائقة المظهر؛ وأعاد رصف الممر بالحصى، وطلى القارب "واتر ديكسى" وأصلحه. وأحيانًا كانت تقام حفلات غير رسمية بالمنزل فى عطلة نهاية الأسبوع، يحضرها فنانون أصدقاء لكاليستا من تورنتو. وهؤلاء الفنانون- الذين لم يكن من بينهم اسم معروف لم يرتدوا سترات العشاء الخاصة أو حتى بدلاً للعشاء، إنما سترات مفتوحة العنق. كانوا يأكلون وجبات سريعة على المرج ويناقشون أدق قضايا الفن، ويدخنون ويشربون ويتجادلون. كانت الفتيات الفنانات يستخدمن مناشف عديدة فى دورة المياه، فلاشك أنهن، كما تقول رينى، لم

يرين من قبل ما بداخل حوض استحمام حقيقى. كما أنه كانت لهن أظافر قذرة يقرضونها.

وعندما لا تكون بالمنزل حفلات يخرج أبى وكاليستا فى رحلات خلوية فى إحدى السيارات - المكشوفة وليست السيدان - ومعهما سلة تملؤها رينى على مضض. أو يذهبا فى رحلة بالمركب الشراعى، ترتدى كاليستا بنطلونا وتدس يديها فى الجيبين وفوقه أحد بلوفرات أبى ذو الفتحة حول الرقبة. وأحيانا يقودان السيارة طوال الطريق حتى ويندسور ويتوقفان عند نزل الطريق التى تتميز بتقديم الكوكتيل وألحان البيانو الصاخبة والرقص الخليع؛ تلك النزل التى يرتادها رجال العصابات المتورطون فى تهريب شراب الرم، والذين يأتون من شيكاغو وديترويت لعقد صفقاتهم مع العاملين فى تقطير الخمور من الجانب الكندى تحت رعاية القانون. (كان ذلك محظورًا فى الولايات المتحدة؛ فكانت الخمور تتسرب عبر الحدود مثل مياه باهظة الثمن؛ وكانت تُلقى فى نهر ديترويت جثث مقطوعة نهاية أصابعها، ولا شيء فى جيوبها، وينتهى بها المطاف على شواطئ ليك إيرى، مسببة بذلك جدلاً حول من سيتكبد مصاريف دفنها.) وفى تلك الرحلات كان أبى وكاليستا يغيبان ليلة بأكملها وأحيانًا عدة ليال. ومرة ذهبا إلى شلالات نياجرا، مما أثار حسد رينى، ومرة إلى بفالو، ولكنهما ذهبا إلى بفالو بالقطار.

عرفنا هذه التفاصيل من كاليستا، التى لم تبخل علينا بها. فلقد أخبرتنا أن والدنا يحتاج إلى الحيوية والنشاط، وهى تعمل لصالحه. فهو بحاجة أن يدخل فى حالة من التوقع ومزيد من الاختلاط بالحياة. وقالت إنها هى ووالدنا صديقان رائعان. كما أنها اعتادت على مناداتنا بالأطفال، وطلبت منا أن نناديها "كالى".

(أرادت لورا أن تعرف أيضًا ما إذا كان والدنا رقص أيضًا فى النزل، فقد كان من الصعب تخيل ذلك بسبب ساقه المعطوبة. فأخبرتها كاليستا بأنه لم يرقص، ولكنه كان يستمتع بالمشاهدة. ولكنى شككت فى ذلك، فلم يستمتع أحد أبدًا بمشاهدة آخرين يرقصون بينما هو نفسه لا يستطيع ذلك.)

كنت أخشى كاليستا لأنها فنانة، يشاورها الآخرون كما يشاورون الرجال، وهى تطوف بالمكان وتصافح كرجل أيضًا، وتدخن السجائر فى مبسم قصير أسود، وتعرف قناة كوكو. كانت أذناها مثقوبتين وشعرها الأحمر (أعرف الآن أنه كان مصبوغًا بالحنة) تحيطه بالأوشحة. وكانت ملابسها فضفاضة كعباءة، رسومها دوامية فى ألوان صارخة يطلقون عليها الفوشية والهيلوتروب والزعفرانى. وأخبرتنى أن هذه التصميمات من باريس ومستلهمة من المهاجرين الروس البيض. وفسرت لى من هم، فقد كانت تمتلىء بالتفسيرات.

مكتبة

قالت رينى لمسز هيلكوت "إنها واحدة فى سلسلة العاهرات اللاتى يعرفهن، لكن أرى أنه كان يجب أن يكون لديه بعض الذوق وألا يأتى بها هنا تحت نفس السقف وزوجته دمها لم يبرد فى قبرها بعد، وربما يكون بذلك قد حفر لنفسه قبرًا أيضًا.

سألت لورا: "ما معنى عاهرة؟" فقالت رينى: "ليس من شأنك!" وكان ذلك دليلاً على غضبها لمواصلة الحديث رغم وجودى أنا ولورا فى المطبخ. (بعد ذلك أخبرت لورا ما معنى عاهرة: فهى الفتاة التى تمضغ اللبان. ولكن كالى فيتسيمونز لا تفعل ذلك.)

وقالت مسز هيلكوت محذرة: "للصغار آذان مصغية." ولكن رينى واصلت حديثها.

"أما بالنسبة للملابس الغريبة التى ترتديها، فهى قد تذهب إلى الكنيسة أيضًا فى ملابسها الخفيفة الشفافة. ففى الضوء يمكنك رؤية الشمس والقمر والنجوم وكل ما بينهم. ليس لأن لديها الكثير الذى تظهره، لكن لأنها فتاة لعوب، فجسدها مسطح كجسد فتى."

قالت مسز هيلكوت: "لا أملك الجرأة على ذلك"

قالت رينى: "لا يمكن أن تسميها جرأة، ولكنها لا تبالى على الإطلاق. نسيت أن أخبرك، فلقد استحمت عارية فى بركة زنبق الماء مع الضفادع وأسماك الزينة؛ صادفتها آتية من المرج لا تسترها منشفة وما هبات الله لحواء بادية. أومأت لى وابتسمت ولم تطرف لها عين."

قالت مسز هيلكوت: "لم أسمع بذلك. ظننت الأمر مجرد نميمة، فهو يبدو بعيد الاحتمال."

قالت رينى: "إنها صائدة للرجال الأثرياء، تريد أن ترمى شباكها عليه ثم تفلسه."

سألت لورا: "ما معنى صائدة الرجال؟ وما هى الشباك؟"

حدث بعض الشجار بشأن النصب التذكارى، وذلك بسبب الشائعات حول أبى وكاليستا فيتسيموندز. رأى بعض الناس فى البلدة أن تمثال الجندى المنهك أشعث الثياب بالغ الحزن والأسى، فقد اعترضوا على القميص مفكوك الأزرار. لقد أرادوا شيئًا يوحى بالانتصار، مثل إلهة النصر على النصب التذكارى فى مدينتين مجاورتين، فلها جناح ملاك وثوب فضفاض يطير مع الهواء ، وفى يدها شعار ذو ثلاثة أجزاء مسننة مثل شوكة. وأرادوا أيضًا أن ينقش عليه: "إلى أولئك الذين بذلوا التضحية الكبرى راضين"

رفض أبى أن يتخلى عن مطالبه فى العمل المنحوت، قائلاً فلينظروا إلى أنفسهم على أنهم محظوظون، لأن الجندى المنهك له ساقان، ناهيك عن الرأس، وإذا لم ينتبهوا لأنفسهم سيلتزم الواقعية المجردة تمامًا وسيصنع التمثال من شذرات جسد متعفن، مثل تلك التى خطا فوقها كثيرًا عندما كان فى الحرب. أما فيما يتعلق بالنقش، فلا شىء من الرضا فى التضحية، كما أنها لم تكن فى نية الموتى أن يفجروا أنفسهم من أجل مملكة قادمة. وهو نفسه يفضل أن ينقش عليه: "حتى لا ننسى" حيث يلقى بالمسئولية فى مكانها الصحيح: على نسياننا. وقال إنه مشهد ينساه كثير من الناس. وكان له ما أراد بالطبع طالما أنه هو الذى يدفع.

تكلفت غرفة التجارة ثمن اللوحات البرونزية الأربع التى تحمل قائمة الشرف بأسماء المعارك وشهدائها. فقد أرادوا كتابة أسمائهم بالأسفل، ولكن أبى صرفهم عن الأمر وجعلهم يشعرون بالخزى لطلبه. وقال لهم إن نصب الحرب التذكارى من أجل الموتى وليس من أجل من بقوا أحياء يحصدون المزايا والفوائد. وقد جعله مثل هذا القول مكروهًا من البعض.

أزيح الستار عن النصب التذكارى فى نوفمبر ١٩٢٨ فى عيد الذكرى. واكتظ المكان بالناس رغم رذاذ المطر البارد. وارتفع تمثال الجندى المنهك فوق هرم رباعى من أحجار النهر، مثل أحجار أفيليون، وأحيطت اللوحات البرونزية بزهور الزنبق والخشخاش متضفرة بأوراق شجر الإسفندان. وقد أثار ذلك جدلاً أيضًا. فكالى فيتسيموند رأت أن هذا التصميم قديم ولا طرافة فيه، فهو تصميم فيكتورى بكل هذه الأزهار والأوراق المتدلية، ويعد أسوأ إهانة للفنانين فى العصر الحديث. لقد أرادت شيئًا أبسط من ذلك وأكثر حداثة. ولكن الناس فى البلدة أحبوه هكذا، وقال أبى إن على المرء أن يتنازل أحيانًا.

وفى الاحتفال عزفت موسيقى القرب. (تقول رينى "أن تعزف بالخارج أفضل من عزفها بالداخل"). وتلى ذلك الخطبة الرئيسية، وألقاها راعى طائفة المسيحية البروتستانتية، وتحدث فيها عن "أولئك الذين قدموا التضحية الكبرى راضين" – وكان ذلك تلميحًا ساخرًا من البلدة لأبى، لتريه أنه لا يستطيع أن يستأثر بوقائع المناسبة، وأن المال لا يشترى كل شيء، وأنهم استخدموا تلك العبارة رغما عنه. وألقى بعد ذلك مزيدا من الخطب وتليت الصلوات – فكان هناك العديد من الخطب والصلوات فكان لابد من تمثيل رعاة الكنائس بطوائفها المختلفة. ورغم عدم وجود كاثوليك ضمن اللجنة المنظمة، فقد تم السماح للقس الكاثوليكى بإلقاء كلمة. وكان أبى من ألح فى ذلك على اعتبار أن من مات من الجنود الكاثوليك مثلهم مثل الجنود الموتى من البروتستانت.

قالت رينى إن ذلك هو أحد جوانب النظر إلى المسألة. وسألت لورا: "وما هو الجانب الآخر؟"

وضع أبى إكليل الزهور الأول. وكنت أرقبه أنا ولورا متشابكى الأيدى، وبكت رينى. وأرسل اللواء الكندى الملكى وفدًا من ولسيلى باراك فى لندن ووضع الميجور م. ك. جرين إكليلاً. وتوالت أكاليل الزهور يضعها كل من يخطر على البال من المنظمات والهيئات والأندية، وآخر الأكاليل وضعتها باسم أمهات الشهداء مسز ويلمر سوليفان التى فقدت ثلاثة أبناء لها فى الحرب. وعزفت فرقة الكشافة بعض المقطوعات الوطنية، تبعها دقيقتان من الصمت، ثم أطلقت فرق المتطوعين عدة طلقات مدفعية. وبعدها عزفت موسيقى الإيقاظ العسكرية.

وقف أبى مطأطأ الرأس، وكان واضحًا عليه شدة التأثر؛ وإن صعب التكهن بما إذا كان هذا التأثر حزنًا أم غضبًا. وكان يرتدى زيه العسكرى تحت معطف ثقيل طويل ويتكئ على عصاه بكلتا يديه ذواتى القفازين من الجلد.

وحضرت كالى فيتسيمونز، ولكنها ظلت فى الخلفية. فلم تكن تلك المناسبة من النوع الذى يتقدم فيه الفنان لتحية الجماهير، هكذا أخبرتنا. وكانت ترتدى سترة سوداء مناسبة وتنورة عادية، بدلاً من العباءة الفضفاضة، وقبعة تخفى معظم وجهها؛ ومع ذلك تهامس الجمع عليها.

بعد ذلك أعدت رينى مشروب الكاكاو لى ولورا فى المطبخ لتدفئتنا فقد لفحنا البرد فى رذاذ المطر. وقدمت قدحًا منه لمسز هيلكوت، التى قالت إنها لا ترفضه.

وقالت لورا: "لماذا يطلقون عليه تذكاريًا؟

قالت رينى: "حتى نتذكر الموتى"

قالت لورا: "لماذا؟ هل هم يحبون ذلك؟"

قالت رينى:"إنه ليس من أجلهم ولكن من أجلنا نحن أكثر. وستفهمين ذلك عندما تكبرين." كان هذا دائمًا ما يقال للورا وتستهجنه، فهى تريد أن تفهم فى الحال. وشربت قدحها من الكاكاو عن آخره.

"ممكن المزيد؟ ما هى التضحية الكبرى؟"

"ضحى الجنود بحياتهم من أجلنا. أرجو ألا تكون عيناك أكبر من معدتك، لأنى لو أعددت هذا أتوقع أن تشربيه عن آخره."

"لماذا ضحوا بحياتهم؟ هل أرادوا ذلك؟"

قالت رينى: "كلا، ولكنهم فعلوه على كل حال. ولذلك فهى تضحية. والآن كفى حديثًا فى هذا. ها هو الكاكاو."

"ضحوا بحياتهم لله، لأن هذا ما يريده الله. مثل المسيح الذى مات ليكفر عن خطايانا جميعًا." قالتها مسز هيلكوت التى كانت معمدانية وتعتبر نفسها حجة أولى فى ذلك.

وبعد أسبوع كنت أنا ولورا نسير بالممشى بجوار اللفتوا متجاوزين نهر الجوج. كان الجو ملبدًا بالضباب، يرتفع من النهر ويتصاعد فى الجو مثل اللبن المقشود، ثم يتساقط من بين أغصان الأشجار العالية. وكانت أحجار الممشى زلقة.

وفجأة صارت لورا فى النهر. ولحسن الحظ أننا لم نكن بجوار التيار الرئيسى، فلم تنجرف. صرخت وهرعت فى اتجاه مجرى النهر، وأمسكتها من المعطف؛ لم تكن ملابسها قد تشبعت بالماء بعد، ولكنها كانت ثقيلة، وكدت أسقط أنا نفسى. وتمكنت من سحبها إلى حافة مستوية، وبعدها سحبتها إلى الخارج. وكانت متشبعة بالماء مثل خروف مبلل، وكنت أنا أيضًا أقطر ماء. فهززتها بعنف معنفة. وكانت ترتعش وتبكى.

"لقد فعلت ذلك متعمدة! لقد رأيتك! كان يمكن أن تغرقى!" ونهنهت لورا وغصت بالبكاء فاحتضنتها وقلت: "لماذا فعلت ذلك؟"

فقالت منتحبة: "حتى يعيد الله أمى إلى الحياة مرة أخرى."

فقلت: "الله لا يريدك أن تموتى، فذلك يثير جام غضبه! ولو أراد لأمى أن تعيش لفعل ذلك على أى حال، دون أن تغرقى نفسك. كانت تلك هى الطريقة الوحيدة للحديث إلى لورا عندما تنتابها هذه الحالات؛ فلابد من التظاهر بمعرفة شىء عن الله لا تعرفه هى.

مسحت أنفها بظهر يدها وقالت: "كيف عرفت؟"

"لأنه جعلنى أنقذك، أرأيت؟ فلو أراد لك أن تموتى لسقطت أنا أيضًا، ولمتنا نحن الاثنتان! والآن هيا فلتجففى نفسك. فلن أخبر رينى. سأقول لها إنها حادثة وإنك انزلقت. لكن لا تعودى إلى مثل ذلك مرة أخرى. اتفقنا؟"

لم تقل لورا شيئًا، ولكنها تركتنى أقودها إلى المنزل. وهناك قوبلت لورا بكثير من الاضطراب والارتعاد والتعنيف، وقدح من حساء اللحم وحمام دافئ وزجاجة من الماء الساخن، وقد أضيف ذلك الحادث العارض إلى حماقات لورا؛ وحذرها الجميع أن تنتبه لخطواتها. وأثنى أبى على ما فعلت؛ وتساءلت ماذا كان سيقول لو فقدتها. وقالت رينى إنها نعمة أن تحسن إحدانا التصرف بعض الشيء، ولكن ماذا كنا نفعل هناك؟ وفى مثل هذا الجو الضبابى. وقالت إنه كان يجب أن أعرف أكثر.

وفى تلك الليلة رقدت يقظة لساعات، أحتضن نفسى بذراعى. قدماى باردتان كالثلج وأسنانى تصطك. لم أستطع أن أبعد عن ذهنى صورة لورا فى مياه نهر اللفتوا الباردة السوداء – كيف انتشر شعرها مثل الدخان فى الريح الدوامية، كيف تلألأ وجهها بلون الفضة، وكيف حدقت فى وأنا أمسك بها من معطفها. وكيف كان صعبًا التشبث بها. وكم كنت على وشك أن أفلتها.

مس فيولنس[١]

بدلاً من المدرسة، جاءوا لنا أنا ولورا بكوكبة من المدرسين الخصوصيين، رجالاً ونساء. لم نجد ذلك ضروريًا، فحاولنا تثبيطهم. كنا نحدق فيهم بعيوننا المائلة إلى الزرقة، أو نتظاهر بالغباء أو الصمم؛ لم ننظر إلى عيونهم أبدًا لكن إلى جباههم. كان التخلص منهم يستغرق وقتًا أطول مما نتصور: فكانوا يحتملون منا

---

(١) تلعب الكاتبة هنا على الجناس فى الإنجليزية بين لفظى Violet الذى هو اسم المدرسة ويشير إلى اسم زهرة و Violence بمعنى عنف (المترجمة)

الكثير لأنهم مضطرون لسد مطالب الحياة ويحتاجون الراتب. لم يكن لدينا ما نأخذه عليهم بصفة شخصية، ولكنا ببساطة لم نشأ أن يثقلوا علينا.

عندما لم نكن مع هؤلاء المدرسين كان من المفترض أن نمكث فى أفيليون، سواء داخل المنزل أو فى الأفنية. لكن من هناك ليضبط تحركاتنا؟ فكان من السهل خداع المدرسين، فهم لا يعرفون ممراتنا السرية، ولا يمكن لرينى أن تتبعنا كل دقيقة، كما كانت هى نفسها تشير إلى ذلك كثيرًا. فكنا نتسلل من أفيليون كلما أمكننا ذلك ونجوب البلدة، رغم ما تعتقده رينى من أن العالم يمتلئ بالمجرمين والمخربين ومدمنى المخدرات ذوى الشوارب الرفيعة مثل حبل ملتو، والأظافر الطويلة ومروجى المخدرات وتجار الرقيق الأبيض الذين قد يخطفوننا ويتحفظون علينا حتى يدفع أبى فدية مالية.

أحد أشقاء رينى الكثيرين كانت له علاقة بالمجلات الرخيصة من ذلك النوع الذى يمكن شراؤه من الصيدليات، والأسوأ التى يمكن الحصول عليها سرًا بعيدًا عن الرقابة. ماذا كانت وظيفته؟ "موزع"، هكذا كانت رينى تسميها. أعتقد الآن أنه كان يهربها داخل البلاد. وعلى كل، فكان يعطى الفائض منها أحيانًا لرينى، ورغم اجتهادها فى إخفائها عنا كنا نصل إليها عاجلاً أو آجلاً. كان بعضها عن قصص الحب، ومع أن رينى كانت تلتهمها، لم ننتفع نحن بها. فكنا نفضل – أو كنت أنا أفضل ولورا تتبعنى فى ذلك – تلك التى تتناول قصصًا عن بلدان أو كواكب أخرى. سفن فضائية من المستقبل حيث ترتدى النساء تنورات بالغة القصر من قماش لامع وكل الأشياء تومض متلألئة؛ كواكب صغيرة تتكلم فيها النباتات وتجوبها وحوش لها أنياب وعيون ضخمة؛ بلدان من قديم الزمان يسكنها فتيات رشيقات عيونهن من التوباز وأجسادهن من العقيق الأزرق يرتدين سراويل قطنية خفيفة، وحمالات صدر معدنية صغيرة مثل قمعين تشبكهما سلسلة. وأبطال فى ملابس خشنة، تمتلىء خوذاتهم بمسماير كبيرة.

"حماقة، فلا شيء مثل هذا على الأرض" هكذا كانت تقول ريني. ولكن هذا ما كنت أحبه.

يظهر المجرمون وتجار الرقيق الأبيض في المجلات البوليسية تتناثر أسلحتهم وتتدرج ملابسهم بالدماء. ودائمًا ما تخدر بالإثير وريثة الثروة الطائلة واسعة العينين وتقيد بالحبال وتحبس في كبينة في يخت أو قبو في كنيسة مهجورة أو سرداب رطب في قلعة. كنت أنا ولورا نؤمن بوجود مثل هؤلاء الرجال، ولكننا لم نكن نخشاهم كثيرا، لأننا نعرف ماذا ينتظرنا. قد تكون لديهم سيارات كبيرة قاتمة اللون وقد يرتدون معاطف وقفازات سميكة وقبعات معقوفة الأحرف، ويمكننا التعرف عليهم في الحال والهروب منهم.

ولكننا لم نر أبدًا أيًا منهم. وكانت القوة المعادية الوحيدة التي نواجهها تتمثل في الصغار من أبناء العاملين بالمصنع، الذين لم يعرفوا بعد أننا لا يجب أن يلمسنا أحد. فكانوا يتتبعوننا في ثنائيات أو ثلاثيات في صمت وفضول أو يسبوننا؛ وأحيانا يقذفوننا بالحجارة، مع أنهم لم يصيبونا أبدًا. وكنا نصبح أكثر عرضة لهم عندما نلعب على الممشى الضيق بجوار اللفتوا والجرف فوقنا، حيث يمكن أن يسقط فوقنا أي شيء، أو نسير في الممرات الخلفية التي تعلمنا أن نتجنبها.

كنا نسير عبر شارع إيري نتطلع إلى واجهات المحلات، خاصة تلك التي تبيع التحف المنزلية الرخيصة. أو كنا نحدق من خلال السياج المغلق بالسلاسل في المدرسة الابتدائية الخاصة بأطفال العامة - أي أطفال العمال - بملعبها المغطى بالرماد وممراتها العالية المنقوش عليها للبنين أو البنات. في استراحة الدرس يكثر الصراخ ويتسخ الأطفال؛ خاصة بعد أن يتعاركوا أو يسقطوا فوق الرماد. فكنا نشعر بالامتنان لأننا لم نضطر للالتحاق بهذه المدرسة. (هل كنا حقًا نشعر بالامتنان؟ أم أننا كنا نشعر أننا مستبعدون؟ ربما الاثنان معًا.)

كنا نرتدي القبعات في تلك النزهات. فكنا نرى فيها حماية وأيضًا إخفاء لهويتنا بعض الشيء. كانت ريني تقول: "السيدة المحترمة لا تخرج دون قبعتها.

وكانت تقول أيضًا إنها لا تخرج دون قفازها، ولكننا لم نزعج أنفسنا بأمر القفاز. يحضرني من ذلك الزمن القبعات القش التي لم تكن فاتحة لكن ذات لون محروق، وحر يونيو الرطب والهواء ناعس مثقل بحبوب اللقاح، وتألق السماء الزرقاء، وإحساس الكسل والتبلد.

كم أود استرجاع ذلك الزمن، أوقات العصاري التي نقضيها بلا هدف – الملل، اللاهدف، وتوقعات لم تتحدد. وها أنا الآن أستعيد شيئًا من هذا، إلا أنه لم يبق أمامي كثير أنتظره.

بقيت المدرسة التي كانت لدينا في ذلك الوقت مدة أطول من غيرها. كانت سيدة في نحو الأربعين من عمرها ترتدي سترات ضيقة من الكشمير فاتحة الألوان تعود إلى زمن ماض أكثر رخاء، وشعرها الذي يشبه شعر الفأر معقوص إلى الوراء. كان اسمها مس جورهام – مس فيوليت جورهام. وكنت أدعوها مس فيولنس، من وراء ظهرها لأن تركيبها كان غريبًا، وقلما كنت أنظر إليها دون أن أقهقه. والتصق بها الاسم، وعلمته للورا، ثم اكتشفته ريني بعد ذلك بالطبع. وكانت تقول إننا فتيات مشاغبات لأن نسخر من مس جورهام بهذه الطريقة، فهي إنسانة مسكينة تستحق شفقتنا لأنها عانس. وما معنى ذلك؟ امرأة بلا زوج. قالت ريني بمسحة من الاحتقار؛ كتب على مس جورهام أن تحيا حياة وحيدة.

قالت لورا: "ولكن أنت أيضًا ليس لك زوج"

قالت ريني: "إنه شيء مختلف، فأنا لم أقابل في حياتي رجلاً أتشبث به، ولكني أبعدت نصيبي. فلقد تقدم لي الكثيرون.

فقلت من أجل المعارضة، لأني كنت أقترب من تلك السن: "ربما مس فيولينس هي الأخرى تقدم لها الكثيرون"

قالت ريني:"كلا، لم يحدث."

قالت لورا: "وكيف عرفت؟"

قالت رينى: "يمكن معرفة ذلك من نظرتها. على كل فلو كان قد تقدم لها أحد حتى لو كان رجلاً بثلاثة رؤوس وذيل لانقضت عليه وتعلقت به كحية."

انسجمنا مع مس فيولنس، لأنها كانت تتركنا نفعل ما نريد. فلقد أدركت فى وقت مبكر أنها لا تملك القوة للسيطرة علينا فاتخذت قرارًا حكيمًا بألا تزعج نفسها بالمحاولة. كنا نحضر دروسنا فى الصباح فى حجرة المكتبة، التى كانت لجدى بنيامين ثم صارت لأبى، وتركت لنا مس فيولنس حرية الحركة. اكتظت الأرفف بمجلدات سميكة ذات أغلفة جلدية مطبوع عليها عناوين بالذهبى القاتم، وأشك أن جدى بنيامين قرأها فى حياته، إنما هى كانت فكرة جدتى أديلا عما يجب أن يقرأه.

كنت ألتقط الكتب التى تثير اهتمامى: "قصة مدينتين" لتشارلز ديكنز، وكتب ماكاولى التاريخية المصورة مثل "غزو المكسيك" و"غزو بيرو". وكنت أقرأ الشعر أيضًا وكانت مس فيولنس تحاول أحيانًا بعزيمة خائرة التدريس أن تجعلنى أقرأه بصوت عال.

قالت مس فيولنس: "لا تكسرى الأبيات يا عزيزتى، فلابد أن تنساب الأسطر، تظاهرى أنك نافورة." ومع أنها هى نفسها كانت ممتلئة القوام وغير أنيقة إلا أنه كانت لديها مقاييس رفيعة للرقة وقائمة طويلة من الأشياء التى تود لنا أن نتظاهر بها: أشجار مزهرة، فراشات، ونسيم عليل. أى شىء غير فتيات صغيرات متسخى الأرجل يعبثون فى أنوفهن بأصابعهن: فقد كانت شديدة الصرامة فيما يتعلق بالصحة والنظافة الشخصية.

قالت مس فيولنس للورا: "لا تمضغى أقلام الألوان يا عزيزتى، فأنت لست حيوانا قارضا. انظرى إلى فمك لقد اصطبغ باللون الأخضر. إنه مضر بأسنانك."

قرأت رواية "إيفانجلين" لهنرى وادسورث لونج فيلو؛ وقرأت "مقطوعات برتغالية" لإليزابيث باريت براوننينج. تقول فيها: "كيف أحبك؟ دعنى أعدد أساليب حبى." "جميلة." قالتها مس فيولنس وهى تتنهد. لقد عبرت بحماسة عن إعجابها

بموضوع شعر إليزابيث براونينج، أو لعلها فعلت ذلك بالقدر الذى تسمح به طبيعتها الحزينة. وقرأت أيضًا لإى بولين جونسون قصيدة "أميرة موهوك":

"ينساب النهر هادئًا الآن؛

والتيار يدور دوامات حول مقدمة سفينتى

يدور ويدور!

فكم يهدر الموج ويدور فى بحيرات يكتنفها الخطر!"

قالت مس فيولنس: "شىء مثير!"

أو أقرأ لورد تينيسون، الذى تبجله مس فيولنس أيما تبجيل:

"قالت: "حياتى كئيبة موحشة،

لأنه لم يأت؛

كم أنا بائسة متعبة،

ليتنى مت"

سألت لورا التى لم تظهر اهتمامًا كبيرًا بما ألقيه من شعر: "ولماذا تتمنين ذلك؟"

قالت مس فيولنس: "إنه الحب يا عزيزتى؛ إنه حب بلا حدود؛ ولكنه ليس متبادلاً"

"لماذا؟"

تنهدت مس فيولنس وقالت: "إنها قصيدة يا عزيزتى؛ كتبها لورد تنيسون، ورأى أنه يعرف الإجابة أفضل منى. فقصائد الشعر لا تفصح عن الأسباب. 'الجمال حقيقة، والحقيقة جمال' – هذا كل ما نعرفه فى الدنيا، وكل ما تحتاجين معرفته."

رمقتها لورا باحتقار وعادت إلى تلوينها. قلبت الصفحة: وكنت ألقيت نظرة سريعة على القصيدة كلها ولم أجد بها أحداثا أخرى.

"تكسرى تكسرى

على صخراتك الرمادية الباردة، آه أيها البحر!

أتمنى لو ينطق لسانى

ما يثور فى داخلى من أفكار"

"جميل يا حبيبتى"، قالتها مس فيولنس، فهى مغرمة بالحب بلا حدود، وهى مغرمة بنفس القدر بالحزن اليائس.

وكان بالمكتبة كتاب رفيع ذو غلاف جلدى قاتم كان لجدتى أديلا: عنوانه "رباعيات الخيام" من تأليف إدوارد فيتسجرالد. (لم يكتبه إدوارد فيتسجرالد فى الواقع، ومع ذلك شاع أنه مؤلفه. كيف يمكن تعليل ذلك؟ لم أحاول.) كانت مس فيولنس تقرأ أحيانا من هذا الكتاب لتعلمنى كيف يجب أن ينطق الشعر:

"كتاب أشعار تحت الغصن،

قدح من الخمر، ورغيف خبز – وأنت

بجوارى تغنين فى البرية

آه الجنة فى البرية!"

لفظت مس فيولنس "آه" لاهثة وكأن أحدًا رفسها فى صدرها، وكذلك "أنت". ظننت أنهما يختلفان بشأن القيام برحلة خلوية، وتساءلت ماذا يأكلان بالخبز. قالت مس فيولنس: "بالطبع هى لم تكن خمرًا حقيقية يا عزيزتى، ولكنها تشير إلى 'العشاء الربانى'"

"أنى لى بملك يأتى قبل انقضاء العمر

يكشف عن غيب الأقدار

ويغير ما خطته يداه أو يمحوه!

آه يا حب! ألا اشتركنا

لنغير تفاصيل القدر

فنبعثره شذرات – ثم

نصيغه بما يهوى القلب!

"صحيح!" قالتها مس فيولنس وهى تتنهد. ولكنها تتنهد من أى شىء. كانت مس فيولنس متوافقة تمامًا مع أفيليون – من حيث ملامح البهاء الفيكتورى العتيق، ومسحة جمالية لبقايا نعمة زالت، وحسرة تفيض حزنًا. توافق سلوكها وحتى ستراتها الكشميرية الباهتة مع ورق الحائط.

لم تكن لورا تقرأ كثيرًا. ولكنها كانت تنسخ الصور أو تلون بأقلامها الملونة الرسوم التوضيحية بالأبيض والأسود فى كتب التاريخ والرحلات السميكة الثرية. (كانت مس فيولنس تتركها تفعل ذلك على افتراض أنه لن يلحظ ذلك أحد غيرها.) كانت لورا لديها أفكار غريبة ولكنها قاطعة عن الألوان المطلوبة: فقد تلون الشجر بالأزرق وتجعل السماء وردية أو خضراء. وإذا صادفت صورة شخص لا تحبه فهى تجعل الوجه أرجوانيًا أو تلونه بالرمادى الغامق لتطمس ملامحه.

كانت تحب رسم الأهرامات من كتاب عن مصر؛ وكانت تحب تلوين الآلهة المصرية. وكذلك التماثيل الأشورية ذات أجساد الأسود المجنحة ورؤوس الصقور أو الرجال. وكان ذلك من كتاب سير هنرى ليارد، الذى اكتشف التماثيل فى أطلال مدينة نينوى الأشورية وشحنها إلى إنجلترا؛ وشاع أنها رسوم توضيحية للملائكة التى جاء وصفها فى كتاب إيزكيل. لم تر مس فيولنس جمالاً فى تلك الصور، فكانت ترى التماثيل وثنية ومتعطشة للدماء، ولكن لا شىء يثنى لورا. ففى مواجهة النقد تزداد انكبابًا على الصفحة وتأخذ فى التلوين كأنما حياتها تعتمد على ما تفعل.

تقول مس فيولنس: "انصبى قامتك يا عزيزتى، تظاهرى بأن عمودك الفقرى مثل شجرة تنمو متوجهة نحو الشمس." ولكن لورا لم تكن تهتم بمثل هذا النوع من التظاهر.

فكانت تقول: "لا أحب أن أكون شجرة!"

تقول مس فيولنس وهى تتنهد: "أن تكونى شجرة أفضل من أن تكونى حدباء، فهذا ما ستصيرين إليه إذا لم تنتبهى لوضعة جسمك."

كانت مس فيولنس تجلس معظم الوقت بجوار النافذة تقرأ روايات رومانسية تستعيرها من مكتبة الإعارة. وكانت أيضًا تحب تصفح ألبوم القصاصات ذى الغلاف الجلدى المزخرف والخاص بجدتى أديلا، وهو يضم بطاقات دعوات صغيرة أنيقة ذات نقوش بارزة لصقت فيه بعناية، وكانت محتوياتها قد طبعت فى المكتب الصحفى، وقصاصات من الصحف ، تضم أخبارًا عن حفلات الشاى الخيرية ومحاضرات تطوير الشخصية التى استخدمت فيها شرائح الفانوس السحرى المصورة، والتى تتناول الرحلات الصعبة واللطيفة إلى باريس واليونان وحتى الهند، والجماعات الفابية والنباتيين وغيرهم من الداعين لتطوير الشخصية، وبين حين وآخر أشياء غريبة غير معتادة – مثل بعثة إلى إفريقيا أو الصحراء أو غينيًا الجديدة تصف كيف يمارس المواطنون هناك السحر أو يخفون نساءهم خلف أقنعة خشبية دقيقة الصنع أو يزينون جماجم أجدادهم بنقوش حمراء وقواقع الأصداف. انكبت مس فيولنس على كل هذه الأوراق المصفرة التى تشهد على حياة تلاشت، امتلأت بالرفاهية والطموح، وراحت تتمعن فيها قطعة قطعة كأنما تتذكرها، وهى تبتسم ابتسامة رقيقة مستمتعة.

وكانت مس فيولنس تحتفظ بمجموعة من الأنجم اللامعة الذهبية والفضية تلصقها على ما نكتبه. وأحيانًا تصحبنا إلى الخارج نجمع الأزهار البرية التى نضغطها بين صفحتين من ورق النشاف ونضع كتابًا ثقيلاً فوقها. تعلقنا بها مع أننا لم نبك عندما تركتنا ورحلت. أما هى فبكت، وإن فعلت ذلك بلا لياقة كما هى طريقتها فى كل شىء.

بلغت عامى الثالث عشر. كنت أنمو، ولا ذنب لى فى ذلك، وإن بدا الأمر يزعج والدى كأننى أنا المسئولة عنه. وبدأ يهتم بوضعة جسمى وبحديثى وبسلوكى عامة. فملابسى يجب أن تكون بسيطة بلا نقوش، بلوزات بيضاء وتنورات قاتمة ذات طيات، وأثواب بنفسجية قاتمة للكنيسة. أى ملابس تبدو وكأنها زى رسمى – تبدو وكأنها حلة بحارة، ولكنها ليست كذلك. يجب أن يكون كتفاى منتصبين بلا انحناء. يجب ألا أتمطط، وألا أمضغ علقة وألا أظهر التملل وألا أثرثر. كانت القيم التى ينشدها هى تلك التى يطلبها الجيش: النظافة، والطاعة، والصمت، ولا مظاهر جنسية واضحة. ورغم أنه لم يتم الحديث عن المظاهر الجنسية إلا أنه كان يئدها فى مهدها. لقد تركنى أعيش منفلتة بلا جامح فترة طويلة، وحان الوقت كى تتعهدنى يد بالرعاية.

ونال لورا أيضا بعض من هذا الطغيان، مع أنها لم تكن بلغت السن الذى يستدعيه. (ما السن الذى يستدعيه؟ إنه سن البلوغ، فلقد وضح الأمر لى الآن. ولكنى وقتها كنت مبلبلة الفكر. فأى جريمة اقترفت؟ لماذا أعامل وكأننى نزيلة فى مدرسة إصلاحية؟).

قالت له كاليستا: "إنك متعسف فى التعامل مع الفتاتين. فهما ليسا صبيين."

قال أبى: "لسوء الحظ"

كانت كالستا هى من ذهبت إليها فى اليوم الذى اكتشفت أننى أصبت بمرض خطير، لأن الدم كان يتساقط من بين ساقى: كنت على يقين أننى أموت! فضحكت كاليستا. وبعدها فسرت الأمر لى. فقالت: "إنها مجرد شىء مزعج." وأشارت علىَّ أيضًا أن أسميها "صديقتى" أو "زائرة". أما رينى فكانت معتقداتها فى هذا الشأن تعود إلى الكنيسة المسيحية البروتستانتية. فكانت تقول: "إنها اللعنة". وكادت أن تقول إنه ترتيب خاص من الله لينغص علينا الحياة؛ وقالت إن هذا حال كل الأشياء. أما بالنسبة للدم فلتمزقى بعض قطع القماش. (هى لم تقل "دما"، إنما قالت "قذارة"). وأعدت لى قدحا من شاى الكاموميل، وطعمه مثل رائحة الخس الفاسد؛ وكذلك زجاجة ماء ساخن لإزالة التقلصات. لكن لم يجد شيئًا.

مكتبة telegram @ktabpdf

عثرت لورا على بقعة دماء على ملاءة سريرى وبدأت فى البكاء. فقد استنتجت أننى أموت. وراحت تقول وهى تنشج بالبكاء إننى سأموت مثل أمى دون أن أخبرها. وإننى سأنجب طفلاً صغيرًا رماديًا مثل قطيطة وبعدها أموت.

قلت لها لا تكون حمقاء. فلا علاقة لهذا الدم بالأطفال. (لم تتطرق كاليستا إلى هذا الجزء، فلا شك أنها رأت زيادة مثل هذه المعلومات دفعة واحدة قد يسيىء إلى نفسيتى).

قلت للورا "سيحدث لك ذلك يومًا عندما تصلين إلى مثل عمرى. فهو شىء يحدث للفتيات."

كانت لورا غاضبة متذمرة، فقد رفضت التصديق، بل وذهبت إلى القناعة بأنها ستكون حالة استثنائية.

التقطت لى ولورا صورة فى أحد الاستديوهات فى ذلك الوقت. كنت أرتدى الرداء التقليدى البنفسجى القاتم، وهو طراز أصغر من سنى بكثير؛ فكان واضحًا أن صدرى بدأ ينبت. وكانت لورا تجلس بجوارى فى رداء مشابه، وكلانا ترتدى جوربا أبيض حتى الركبة وحذاء جلديا أسود لامعا، وقد وضعت كل منا ساقًا على ساق، اليمنى فوق اليسرى كما قيل لنا. كنت ألف ذراعى حول لورا لكن بخفة، وكأننى أمرت أن أفعل ذلك. أما لورا فقد عقدت يديها فى حجرها. وكلانا شعرها مفروق من المنتصف ومربوط إلى الوراء بعيدًا عن الوجه. وكانت كلانا تبتسم تلك الابتسامة الوجلة التى يتخذها الأطفال عندما يطلب منهم أن يكونوا أطفالاً طيبين ويبتسموا، وكأن الأمرين شىء واحد: إنها ابتسامة فرضها التهديد بعدم الرضا. كان التهديد وعدم الرضا من أبى. وكنا خائفتين، لكن لم نكن نعرف كيف نتفادى ذلك.

رأى أبى، وهو محق فى ذلك، أن تعليمنا قد أهمل. فقد أراد أن نتعلم الفرنسية وكذلك اللاتينية والرياضيات، فهى تدريبات منشطة للعقل تحد من استغراقنا فى الأحلام. وقد تفيد الجغرافيا أيضًا فى هذا الاتجاه. ومع أنه لم يرها إلا لماما أثناء قيامها بوظيفتها، قرر أبى ضرورة التخلص من مس فيولنس بأسلوبها اللين العتيق الذى يصبغ الأشياء بألوان وردية. لقد أراد أن يشذب الأوراق والأحرف التالفة منا مثلما يشذب الخس تاركا القلب السليم المجرد من الزوائد. إنه لم يفهم لماذا نحب ما نحب. لقد أراد لنا أن نتحول إلى أشباه صبية بطريقة أو أحرى. وماذا كنا نتوقع وهو لم يكن له أخوات؟

وبدلاً من مس فيولنس وظف أبى رجلاً يدعى مستر إيرسكين، كان يقوم بالتدريس فى مدرسة للأولاد فى إنجلترا، وتم نقله لكندا فجأة لأسباب صحية. لم نر عليه علامات اعتلال الصحة أبدًا، فهو لم يسعل أبدًا على سبيل المثال. كان فى نحو الخامسة والثلاثين، قصير القامة قوى البنية يرتدى ملابس من التويد، أحمر الشعر، له شفتان حمراوان مكتنزتان ولحية صغيرة مدببة ومزاج حاد ساخر، أما رائحته فمثل قاع سلة الغسيل.

وسرعان ما اتضح لنا أن عدم الانتباه والحملقة فى جبين مستر إيرسكين لن تخلصنا منه. فى البداية عقد لنا امتحانًا ليحدد مدى معارفنا. وتبين أنها ليست كثيرة وإن كانت أكثر مما وجدناه يصلح للبوح. فأخبر أبى أن لنا عقولا مثل الحشرات أو السناجيب، وأن حالنا يبعث على الرثاء، ومن العجيب أننا لا نعانى من بله عقلى. فلقد تكونت لدينا عادات عقلية كسولة، وأضاف فى نبرة لوم أنه سمح لنا بتكوينها. ومن حسن الحظ أن الأوان لم يفت بعد. فقال أبى إنه فى هذه الحال لابد وأن يشكلنا مستر إيرسكين فى الإطار الصحيح.

وقال لنا مستر ايرسكين إن ما تعودنا عليه من كسل وتكبر وميل نحو أحلام اليقظة والعواطف الجياشة حطمنا ومنعنا من القيام بشئون الحياة الجادة. لا ينتظر

منا أحد أن نكون عباقرة، مع أنه لن يكون تفضلاً منا لو أصبحنا كذلك، ولكن هناك حدًا أدنى حتى للفتيات: فلن نكون سوى عبئًا ثقيلاً على أى رجل تدفعه الحماقة للزواج بأى منا إذا لم نحسن رعاية شئوننا.

طلب مستر إيرسكين كمية كبيرة من كتب التدريبات المدرسية، من ذلك النوع الرخيص المسطر ذى الغلاف الكرتونى الرقيق، كما طلب مجموعة من أقلام الرصاص والمحايات. وقال لنا إن هذه هى العصا السحرية التى سنغير بها من أنفسنا بمساعدته. ونطق كلمة "مساعدة" بابتسامة تشى بالتكلف والغرور.

ألقى مستر إيرسكين الأنجم اللامعة التى كانت تستخدمها مس جورهام. ورأى أن المكتبة تعمل على تشتتنا، ولذلك طلب مكتبين من مكاتب المدارس وضعهما فى إحدى غرف النوم الزائدة، بعد أن أزيل منها السرير وباقى الأثاث ولم يبق سوى الغرفة خالية. أغلق الباب بالمفتاح واحتفظ به. والآن فلنشمر عن سواعدنا ونبدأ العمل.

كان أسلوب مستر إيرسكين مباشرًا. فكان يجذبنا من شعورنا ويقرص آذاننا. وأحيانًا ينقر على المكتب بالمسطرة بجانب أصابعنا أو على أصابعنا ذاتها أو يضربنا على ظهر رؤوسنا عندما يغضب، أو يلجأ فى النهاية إلى قذفنا بالكتب أو يضربنا على ظهر سيقاننا. كانت سخريته لاذعة، خاصة معى: وكانت لورا تظن دائمًا أنه يعنى ما يقول حرفيا، مما كان يزيد غضبه اشتعالاً. لم يكن يتأثر بالدموع؛ بل أراه كان يستمتع بها حقيقة.

لم يكن ذلك حاله كل يوم. فكان يمكن أن تسير الأمور هادئة متزنة على مدى أسبوع كامل. فأحيانًا يظهر شيئًا من الصبر أو نوعًا من الرأفة التى تعوزها الرقة والدماثة. وبعدها ينفجر ويرغى ويزبد. لا يدرك أبدًا ماذا يفعل أو متى يفعله، وهذا هو الأسوأ.

لم نستطع الشكوى لأبى؛ أفلا يتصرف مستر إيرسكين بأمر منه؟ ولكننا بالطبع شكونا لرينى. فاشتعلت غضبًا. وقالت إننى كبيرة على أن أعامل بهذه الطريقة، وأن لورا سريعة الانفعال وأن كلانا ... – حسن ماذا يظن نفسه؟ إنه مثل

كل الإنجليز الذين ينتهى بهم المطاف هنا، يأتى من حثالة المجتمع ويتعاظم علينا ظانًا نفسه سيدًا علينا، مع أنى أراهن أنه لا يستحم مرة واحدة فى الشهر. وعندما جاءت لورا إلى رينى وأثار ضرب على كفيها، واجهت رينى مستر إيرسكين، ولكنه أخبرها أن لا شأن لها بذلك. فهى التى أفسدتنا بالتدليل وإطلاق العنان لرغباتنا، فهذا واضح أشد الوضوح، والآن هو مسئول عن إصلاح ما أفسدته.

قالت لورا إذا لم يذهب مستر إيرسكين بعيدًا ستبتعد هى. ستهرب. وستقفز من النافذة.

قالت رينى: "لا تفعلى ذلك يا حبيبتى. سنتدبر الأمر. سنعدل دفته!"

قالت لورا وهى تنشج بالبكاء: "ولكنه بلا دفة!"

يمكن لكليستا فيتسيمونز أن تساعد بعض الشيء، ولكنها تسير مع الرياح: فنحن لسنا أطفالها، بل أطفال أبى. وهو قد اختار طريقته، ومن الخطأ أن تتدخل.

كانت فكرة مستر إيرسكين عن الرياضيات شديدة البساطة: فما نحتاج معرفته هو ضبط الحسابات المنزلية، بمعنى الجمع والطرح والاحتفاظ بسجلات ذات قيد مزدوج.

أما فكرته عن الفرنسية فتنحصر فى تصريف الأفعال مع الاعتماد على أقوال مأثورة بليغة من مشاهير الكتاب.

واعتمدت فكرته فى الجغرافيا على معرفة عواصم أوروبا. وفى تعليمه للاتينية يركز على قهر القيصر للجولز the Gauls وعبور نهر الروبيكون فى إيطاليا. وبعد ذلك يأتينا بمختارات من "الإلياذة لفيرجل" – فقد كان مغرمًا بمشهد انتحار ديدو – أو من "مسخ الكائنات" لأوفيد، وخاصة الأجزاء حيث يفعل الآلهة ما يشين بالنساء الشابات. ومن ذلك اغتصاب ثور أبيض كبير ليوربا، وبجعة لليدا . فكان يقول بابتسامة ساخرة أن هذه المشاهد على الأقل لابد أن تستحوذ على انتباهنا. وكان محقًا فى ذلك. وعلى سبيل التغير كان يطلب إلينا ترجمة بعض قصائد الحب اللاتينية من النوع الساخر. وكان يستمتع أيما استمتاع وهو يشاهدنا

نكدح مع نظرة الشعراء السيئة لنوع الفتيات اللاتى من الواضح أنه مقدر علينا أن نكونه.

وكان مستر إيرسكين يشجعنا ويحثنا على الاستمرار.

تعلمنا ولكن كان يسكننا الحقد والرغبة فى الانتقام. ولم نقبل لمستر إيرسكين أعذارًا. فهو لا يتوق إلى شىء أكثر من أن يطأ بقدمه على رقبة كل منا – حسن سنحرمه من تلك السعادة إن أمكن. فما تعلمناه منه حقيقة هو كيف نغش. كان من الصعب تزوير نتائج الرياضيات، ولكنا كنا نقضى الساعات الطوال ننقل ما يطلب إلينا ترجمته لأوفيد من كتابين فى مكتبة جدى يضمان ترجمات قديمة أعدها كتاب بارزون من العصر الفيكتورى، كلماتها معقدة ومطبوعة بخط صغير. كنا نفهم الحس العام للقطعة المطلوبة من الكتابين، ثم نستبدل الكلمات المعقدة بأخرى بسيطة، ثم نضيف بعض الأخطاء ليبدو الأمر وكأننا أعددناها بأنفسنا. ومع ذلك فمهما فعلنا، فإن مستر إيرسكين كان يشطب على ترجمتنا بالقلم الرصاص الأحمر، ويكتب تعليقات قاسية شرسة فى الهوامش. لم نتعلم كثيرًا من اللاتينية ولكننا تعلمنا الكثير من التزوير. وتعلمنا أيضًا كيف نجعل ملامحنا جامدة وكأنها منشاة. فمن الأفضل عدم التفاعل مع مستر إيرسكين بأى طريقة مرئية، خاصة إذا كان ذلك بإظهار الإجفال والخوف.

أصبحت لورا لفترة طويلة متنبهة تمامًا لتفادى مخاطر مستر إيرسكين، ولم تتأثر كثيرًا بما يصيبها من ألم جسدى. فكانت تشرد بعيدًا حتى إذا كان يصيح. كانت دائرته محدودة، أما هى فكانت تحدق فى ورق الحائط بتصميماته من براعم الزهور والشرائط أو تتطلع خارج النافذة. فلقد نمت لديها القدرة فى عزل نفسها عن المكان فى غمضة عين، ففى دقيقة تركز على من أمامها وسرعان ما تشرد بعيدًا فى الدقيقة التالية. أو يصبح من أمامها بعيدًا لأنها تنحيه بعيدًا وكأنما تشير إليه بعصا سحرية لا ترى؛ فكأنما جعلت الشخص نفسه يختفى من أمامها.

لم يحتمل مستر إيرسكين نفى وجوده بهذا الشكل. فاعتاد أن يهزها لتفيق، على حد قوله. وكان يصرخ فيها: "إنك لست "الجميلة النائمة"." كان أحيانًا يدفعها

نحو الحائط، وأحيانا أخرى يهزها بيده حول الرقبة. وعندما كان يهزها كانت تغمض عينيها ويرتخى جسدها، مما يؤجج غضبه. فى البداية حاولت التدخل، لكن لم يجد ذلك شيئًا. فكان يدفعنى بعيدًا بضربة شديدة من ذراعه المكتسى بالتويد.

قلت للورا: "لا تغيظيه!"

فقالت: لا يهم إن كنت أغيظه أم لا. فهو على كل لم يشعر بالغضب، إنما أراد أن يضع يده أعلى بلوزتى."

قلت: "لم أره يفعل ذلك أبدًا، ولماذا يفعله؟"

قالت لورا: "إنه يفعله عندما لا تنظرين. أو يمد يده تحت تنورتى، فهو يحب السراويل الداخلية."

قالت ذلك بهدوء شديد حتى إننى ظننتها اختلقته أو أساءت الفهم. أساءت فهم يدى مستر إيرسكين أو نيتهما. فما وصفته لا يعقل على الإطلاق. فيبدو لى أن مثل هذا الأمر لا يفعله رجل ناضج أو يهتم بفعله على الإطلاق، أليست لورا مجرد فتاة صغيرة.

وسألتها بحذر: "هل نخبر رينى؟"

قالت: "ربما لن تصدقنى. فأنت لا تصدقين."

ولكن رينى صدقتها، أو فضلت أن تصدقها، وكانت تلك نهاية مستر إيرسكين. كانت تعرف تمام المعرفة أن عليها ألا تواجهه منفردًا: فعندئذ سيتهم لورا بأنها تختلق أكاذيب قذرة، وهنا سيزداد الأمر سوءًا. بعد ذلك بأربعة أيام سارت بخطى ثابتة نحو مكتب أبى بمصنع الأزرار ومعها مجموعة من الصور الفوتغرافية المهربة. كانت من ذلك النوع الذى لا يثير سوى دهشة يرتفع لها الحاجبان هذه الأيام، ولكنها كانت تعد فاضحة آنذاك، ففى بعضها تظهر نساء فى جوارب سوداء تطل نهودهن المكتنزة من حمالات الصدور، وفى بعضها الآخر تظهر نفس النساء بلا شيء يسترهن فى استعراض لأوضاع مختلفة للسيقان.

وقالت إنها وجدتها تحت سرير مستر إيرسكين عندما كانت تنظف حجرته، فهل يؤتمن ذلك النوع من الرجال على بنات مستر تشاس الصغيرات؟

وكان بالمكتب جمع من المستمعين الذين أثار الأمر انتباههم، ومن بينهم بعض عمال المصنع، ومحامى أبى، وبالمصادفة رون هينكس، زوج رينى فيما بعد. كان كثيرًا عليه منظر رينى محمرة الوجنتين تتقد عيناها بشعلة غضب يرجو الانتقام، وقد انحلت عقصة شعرها الأسود من مشابكها وهى تلوح بقبضة قوية تحمل صور نساء عاريات تمامًا. فركع أمام عقلها، ومنذ ذلك اليوم بدأ ملاحقتها التى انتهت بالنجاح. ولكن تلك قصة أخرى.

وقال محامى أبى فى نبرة نصح إنه إذا كان هناك شىء واحد لا تتحمله بورت تيجونديروجا فهو ذلك النوع من الفسق يأتيه من يعلمون النشء الأبرياء.

أدرك أبى أنه لا يمكنه الإبقاء على مستر إيرسكين فى المنزل بعد ذلك دون أن يعتبره الآخرون مستبدًا.

طالما شككت فى أن رينى حصلت على الصور بنفسها من أخيها الذى يعمل فى توزيع المجلات، والذى يستطيع تدبر مثل هذا الأمر بسهولة. كنت أشك فى الأمر، وأرى مستر إيرسكين بريئًا من هذه الصور. فإن كان هناك شىء فهو أن ذوقه يميل إلى الأطفال وليس إلى النهود المكتنزة. ولكن كان لا يمكنه أن يتوقع مباراة عادلة مع رينى فى ذلك الوقت.

ورحل مستر إيرسكين وهو يعلن براءته؛ كان ساخطًا ولكنه كان أيضًا خائفًا. قالت لورا إن الله استجاب لدعائها. قالت إنها دعت بأن يطرد مستر إيرسكين من منزلنا، واستجاب الله لدعائها. وما فعلته رينى من إحضار للصور البذيئة وغيرها لم يكن إلا تنفيذًا لإرادته. وتساءلت ماذا يظن الله فى ذلك، إذا افترضنا وجوده – وهو ما ازداد شكًا فيه.

ومن ناحية أخرى كانت لورا ملتزمة التزامًا دينيًا جادًا أثناء وجود مستر إيرسكين فى منصبه؛ فكانت لاتزال تخاف الله، بل اضطرت للاختيار بين طاغية غضوب لا يمكن التكهن بأفعاله وطاغية آخر، فاختارت الأكبر والأبعد.

وبمجرد أن اختارت أخذت الأمور إلى أبعد مدى، كما هى حالها مع كل الأشياء. "سأصبح راهبة." أعلنتها فى هدوء وسكينة بينما كنا نتناول شطيرات غدائنا على طاولة المطبخ.

قالت رينى: "لا يمكنك ذلك، فلن يقبلوك لأنك لست كاثوليكية."

قالت لورا: "يمكننى أن أصبح كاثوليكية، وألتحق بالرهبنة."

قالت رينى: "حسنا، فلابد أن تحلقى شعرك. فتحت غطاء الرأس الراهبة صلعاء مثل البيضة."

كانت تلك نقلة ذكية من رينى. فلورا لم تكن تعرف ذلك. وإذا كان لديها شيء تتيه به فهو شعرها. فقالت: "ولماذا يفعلن ذلك؟

قالت رينى: "إنهن يعتقدن أن الله يريدهن أن يفعلن ذلك. يعتقدن أن الله يريدهن أن يقدمن شعورهن له، وهو ما يظهر كم هن جاهلات. فماذا يفعل الله بشعورهن؟

قالت لورا: "وماذا يفعلن بالشعر بعد أن يحلق؟"

كانت رينى تأكل الفول مصدرة طأطأة: طأ طأ طأ وقالت: "يتحول إلى شعر مستعار للنساء الثريات". لا يفوتها شيء، ولكنى كنت أعرف أنها كذبة صغيرة، مثل حكاياتها السابقة عن صناعة الأطفال من العجين. وأضافت "نساء ثريات متعجرفات. فلعلك لا تريدين أن ترى شعرك الجميل يطوف على رأس غليظ قذر غير رأسك."

تخلت لورا عن فكرة أن تصبح راهبة، أو هكذا بدا الأمر؛ لكن من يعلم أى شيء يستهويها المرة القادمة؟ فقدرتها عالية على الإيمان بأشياء شتى. فهى تثق بنفسها وتتركها على هواها. فقليل من الشك قد يكون خطوة أولى فى الدفاع.

قضينا عدة سنوات مع مستر إيرسكين، بل أضعناها معه. ومع ذلك لا يجب أن أقول إنها ضاعت، فلقد تعلمت منه الكثير، وإن لم تكن دائمًا الأشياء التى شرع فى تعليمنا إياها. فإلى جانب الغش والكذب، تعلمت الوقاحة نصف الخفية والمقاومة الصامتة. وتعلمت أن الانتقام وجبة يفضل أكلها باردة. وتعلمت أيضًا ألا أجعل أحدًا يمسك بى متلبسة بشىء.

فى تلك الأثناء كان الكساد قد وقع. لم يخسر أبى كثيرًا فى الصدام، ولكنه خسر بعض الشىء. وخسر أيضًا الهامش المتاح له للخطأ. فكان عليه أن يغلق المصانع استجابة لقلة الطلب؛ وكان عليه أن يدخر أمواله فى البنوك، كما كان يفعل أمثاله. فذلك هو المعقول. ولكنه لم يفعله، فلم يحتمل أن يلقى برجاله خارج العمل، فهو يدين لهم بالولاء، ولا يهم إن كان بعضهم من النساء.

وقعت أفيليون فى ضيق من العيش. وصارت حجرات نومنا باردة فى الشتاء، واهترأت أغطيتنا. فمزقت رينى الوسط المهترئ وخاطت الجانبين معًا. أغلقت بعض الحجرات وسُرح بعض الخدم. فلم يعد لدينا بستانى، وزحفت الأعشاب خلسة فى الحديقة. وطلب والدى منا المساعدة فى إدارة الأمور حتى نخرج من تلك الضائقة. فبوسعنا مساعدة رينى فى المنزل حيث إننا نكره اللاتينية والرياضيات. بوسعنا تعلم الاستفادة التامة من كل دولار. وذلك يعنى من الناحية العملية أن نأكل الفول أو السمك المملح أو الأرانب على العشاء، وأن نرفو جواربنا بأنفسنا.

رفضت لورا أن تأكل الأرانب. فهى تراها تشبه الأطفال الرضع شديدى النحول. فلابد أن نكون من آكلى لحوم البشر كى نأكلها.

قالت رينى إن أبى يبدو راضيًا وذلك ليس لصالحه. فهو بالغ الاعتزاز بالنفس. وعلى الإنسان أن يعترف بالهزيمة. لم تكن تعرف ماذا ستكون عاقبة الأمور، ولكن الأرجح أن الخراب والدمار هما النتيجة.

كنت حينئذ فى السادسة عشرة، وأنهيت تعليمى الرسمى، كما كان يسمونه. وكنت أمضى الوقت بلا هدف، لا أعلم ماذا سيحدث لى بعد ذلك.

كان لرينى اختياراتها المفضلة، فقد دأبت على قراءة مجلة "ماى فير" بما تصفه من احتفالات المجتمع، وكذلك الصفحات الاجتماعية فى الصحف، مثل أخبار الزفاف والحفلات الخيرية والإجازات المترفة. كانت تحفظ قائمة من الأسماء، منها أسماء سفن الجولات البحرية المتميزة والفنادق الممتازة. وكانت ترى أنه يجب أن أقدم للمجتمع فى مظهر لائق - كأن أظهر فى حفلات الشاى لأقابل الأمهات من الطبقة الاجتماعية الراقية، وأن أحضر حفلات الاستقبال وأشترك فى النزهات على الطراز الحديث، وأحضر حفلات الرقص الرسمية التى يدعى إليها الشباب اللائق للزواج. ستمتلئ أفيليون مرة أخرى بمهندمى الثياب، كما كان فى الماضى، وستعزف رباعيات الآلات الوترية فوق المروج التى تضيئها الكشافات. فلأسرتنا نفس المكانة المتميزة التى للأسر التى توفر لبناتها هذه الأشياء - بل ربما هى أفضل منها مكانة.

كان على والدى أن يحتفظ ببعض النقود فى البنك لهذا الغرض. كانت رينى تقول لو كانت أمى على قيد الحياة لاستقامت الأمور جميعًا.

أشك فى ذلك. فمما سمعته عن أمى أرى أنها ربما كانت قد أصرت على إرسالى إلى المدرسة، مثل "كلية ألما للفتيات"، أو غيرها من المعاهد القيمة ذات النظام الرتيب، لأتعلم شيئًا نافعًا ولكنه ممل مثل الاختزال؛ أما بالنسبة لتقديمى إلى المجتمع، فكانت سترى فيه عبثًا وتفاهة، فهى نفسها لم يحدث لها ذلك أبدًا.

كانت جدتى أديلا مختلفة وتعيش فى زمن بالغ الاختلاف، ولذلك كنت سأرى فيها قدوتى. كانت ستبذل قصارى جهدها معى، ولا تتدخر فى ذلك حيلة أو مالاً. كنت أطوف فى حجرة المكتبة أتفحص صورها التى كانت لاتزال معلقة على الجدران؛ بورتريه الزيت الذى يعود إلى عام ١٩٠٠ والتى تظهر فيه بابتسامة تشبه

ابتسامة أبى الهول، مرتدية فستانًا فى لون الورود الحمراء المجففة، ويبدو عنقها مشرئبًا من فتحته وكأنه ذراع تبدو من وراء ستارة ساحر؛ والصور الفوتغرافية بالأبيض والأسود والمؤطرة بالذهبى، والتى تظهر فيها فى قبعات سينمائية أو من ريش النعام، أو أردية مسائية مع عصابة مرصعة بالجواهر وقفاز من جلد الماعز ؛ كانت تظهر وحدها أو مع بعض الأعيان الذين ذهبوا الآن طى النسيان. كانت ستجلسنى أمامها وتقدم لى النصائح اللازمة: ماذا أرتدى، وماذا أقول، وكيف أتصرف فى المناسبات المختلفة. كانت سترشدنى كيف أتجنب أن أجعل من نفسى أضحوكة، وهو ما كنت أرى أننى معرضة له بالفعل إلى حد كبير. فرغم بحثها فى صفحات المجتمع، إلا أن رينى لا تعرف ما يفى بذلك.

مكتبة

نزهة طعام فى مصنع الأزرار

جاءت عطلة إجازة عيد العمال وانتهت، تاركة خلفها بقايا أقداح بلاستيكية وزجاجات وبالونات طائفة مع حركة النهر الدوامية. والآن يؤكد سبتمبر حضوره. ومع أن شمس الظهيرة ليست بأقل حرارة إلا أنها تتأخر فى الشروق يومًا بعد يوم، ساحبة خلفها سحب الغبار، وفى الأمسيات الأكثر برودة تصر الجداجد وتصيح. تحتشد زهور النجمة فى الحديقة، فقد نمت فيها منذ زمن مضى، بعضها أبيض بالغ الصغر وبعضها كثيف سماوى اللون، وأخرى أرجوانية داكنة وسيقانها بنية فى لون الصدأ. فى يوم من أيام قيامى بأعمال البستنة على غير منهج محدد حسبتها أعشابًا ضارة واقتلعتها. الآن لم أعد قادرة على هذا التمييز.

الجو الآن مناسب للسير، فأشعة الشمس ليست شديدة التوهج متلألئة الوميض. والسائحون يتناقصون، ومن تبقى منهم يرتدى ملابس لائقة، فلا بنطلونات بالغة القصر ولا فساتين صيفية مكشوفة الظهر والذراعين ولا سيقان محمرة متسلخة من الشمس.

اليوم خرجت متوجهة إلى "كامب جروندس" (أرض المعسكرات). خرجت متوجهة إلى هناك، لكن عندما وصلت منتصف الطريق مرت بى ميرا فى سيارتها وعرضت أن توصلنى، فخجلت أن أقول إننى قبلت، ولكنى كنت ألهث من التعب. فقد أدركت مدى بعد المكان. أرادت ميرا أن تعرف إلى أين كنت ذاهبة ولماذا – لابد أنها ورثت ذلك الفضول الفطرى من رينى. أخبرتها إلى أين أنا ذاهبة، أما عن السبب فقلت إننى أود رؤية المكان مرة أخرى إحياء للماضى الجميل. قالت إنه شديد الخطورة فلا تعرفين ماذا يزحف بين المزروعات هناك. وجعلتنى أعدها أن أجلس على أحد مقاعد الحديقة فى مكان ظاهر وأنتظرها. فهى ستعود لاصطحابى بعد ساعة.

شيئًا فشيئًا يزداد شعورى بأننى مثل خطاب –خطاب تم إيداعه فى هذا المكان وسيتم أخذه من هناك. ولكنه خطاب غير موجه لأحد.

لم تكن "كامب جروندس" مساحة شاسعة تستحق النظر إليها. فهى رقعة من الأرض بين الطريق السريع ونهر الجوج – عبارة عن فدان أو اثنين – بها أشجار تحمل أغصانًا متكسرة متسخة. فى الربيع يمتلئ المكان بالناموس بسبب رقعة المستنقع فى المنتصف. وهناك تصطاد طيور مالك الحزين؛ فتسمع صيحاتها الأجشة أحيانًا مثل عصا تحك صفيحًا خشنًا. ومن حين لآخر يبحث بعض مراقبى الطيور فى أسلوبها المثقل بالحزن، كأنما هى تبحث عن شىء فقدته.

وفى المناطق الظليلة يتلألأ بريق فضى من علب السجائر والعسقل الشاحب الفارغ من هوائه، والعوازل الذكرية الملقاة، ومناديل ورقية بللها المطر. والقطط والكلاب تطالب بحقوقها، وثنائيات عطشى تتسلل بين الأشجار، وإن كان على نحو أقل مما تعودوا عليه – فهناك اختيارات أخرى شتى الآن. وفى الصيف ينام السكارى تحت الشجيرات الأكثر كثافة، وأحيانًا يأتى إلى المكان مراهقون لتدخين وشم ما يدخنون وما يشمون. وعثر بالمكان أيضًا على بقايا شموع وملاعق محروقة. سمعت كل ذلك من ميرا التى تراه عارًا. وهى تعرف فيم تستخدم بقايا الشموع والملاعق: فهى أدوات تعاطى المخدرات. يبدو أن الفساد فى كل مكان.

منذ عقد أو عقدين من الزمان كانت هناك محاولة لتنظيف ذلك المكان. فنصبت لافتة مكتوب عليها "حديقة كولونيل باركمان" وهى عبارة تخلو من المعنى – ووضع فى المكان ثلاث مناضد خشبية غير متقنة الصنع، وصندوق بلاستيكى للقمامة، ومقصورتا حمام محمول، وقيل إن ذلك للزوار من خارج المدينة، رغم أن هؤلاء يفضلون تجرع مشروبهم من البيرة ونثر مخلفاتهم فى مكان يتيح رؤية أفضل للنهر. وبعد ذلك استخدم بعض الشباب المتلاعبين بإطلاق النار اللافتة لتدريبات إطلاق النار، وأزالت الحكومة المحلية المناضد والحمامات – لأمر يتعلق بالميزانية – ولم يفرَّغ صندوق القمامة أبدًا، مع أنه غالبًا ما تنهبه حيوانات الراكون؛ ولذلك أزالوه هو الآخر، والآن عاد المكان إلى ما كان عليه.

أطلق على المكان "أرض المعسكرات" لأن به كانت تعقد اجتماعات المعسكر الدينى؛ حيث تنصب الخيام الكبيرة مثل خيام السيرك ويجلب إليها الوعاظ

المتحمسون. فى تلك الأيام كان المكان يلقى رعاية أفضل أو ربما كان يرتاده عدد أكبر من الناس. فبه كانت الأسواق الصغيرة المتجولة تنصب أكشاكها وتعقل أحصنتها وحميرها، وكانت المواكب الاستعراضية تمر بالمكان ثم تتفرق فى نزهة. لقد كان مكانًا لشتى أنواع التجمع فى الهواء الطلق.

فى ذلك المكان كان يقام "احتفال عيد العمال لمصنع تشاس وأولاده". كان هذا الاسم الرسمى، أما الناس فكانوا يسمونه "نزهة مصنع الأزرار". وكانت دائمًا السبت السابق على الإثنين الذى هو العيد الرسمى للعمال، وكانت تلقى فيه الخطابة وتعزف الفرق الموسيقية العسكرية وترفرف الأعلام المصنوعة فى المنازل. كانت هناك البالونات والأراجيح الدوارة والألعاب البسيطة غير الخطرة مثل مسابقات الأجولة والبيضة والملعقة، وهى مسابقات تستخدم فيها جزرة بدلاً من العصا للفصل بين المتسابقين. وكانت تغنى الأغنيات الشعبية الرباعية على نحو ليس بالغ السوء. وفوق منصة خشبية مرتفعة ترقص مجموعات من الأطفال الرقصات الشعبية الأسكتلندية والرقص الإيقاعى الأيرلندى تصحبهم موسيقى تصدح من جراموفون. وكانت تقام مسابقات لأكثر الحيوانات الأليفة أناقة وأخرى للأطفال الرضع. ويضم الطعام المقدم الذرة فى كيزانها والبطاطس والسلاطة مع الهوت دوج. أما خادمات السيدات فيبعن المخبوزات لمساعدة هذا أو ذاك، فيقدمن الفطائر والكعك والكيك وبرطمانات المربى والمخللات المحلاة والمتنوعة، وعلى كل منها بطاقة بالاسم الأول لصانعتها: مثل "مربى خوخ بيرل".

وكان هناك مرح صاخب. لم يكن يقدم شىء أقوى من عصير الليمون، ولكن الرجال كانوا يحضرون معهم بعض المسكرات والمخدرات، فلم يأت الغسق حتى يتعالى الصياح والصخب والضحكات المبحوحة بين الأشجار، يتبعها صوت طرطشة الماء على الشاطئ، فقد يلقى أحد الرجال أو الشباب نفسه فى الماء بكامل ملابسه أو آخر بلا سروال. كان النهر ضحلاً هناك، فلم يغرق أحد. وبعد حلول الظلام تطلق الألعاب النارية. وفى ذروة هذه النزهة، أو ما أتذكر أنه كان الذروة، تقام الرقصات الرباعية على أنغام الكمان.

لكن فى العام الذى أتذكره الآن، وكان عام ١٩٣٤، كان المرح الزائد قد هدأ.

فى نحو الثالثة بعد الظهر، كان أبى يلقى خطبة من فوق منصة الرقص الإيقاعى. كانت دائمًا خطبة قصيرة ينصت إليها بانتباه الرجال العجائز، وأيضًا النساء حيث إنهن إما يعملن فى الشركة، أو متزوجات من شخص يعمل بها. وبينما ازداد الزمن صعوبة بدأ يستمع إليها أيضًا الشباب من الرجال، بل وحتى الفتيات فى ملابسهن الصيفية وأذرعهن شبه العارية. لم تكن الخطبة تعبر عن الكثير، لكن يمكن قراءة ما بين السطور. جميل أن تكون لدينا أسباب للمرح أما أن نسرف فى مبررات التفاؤل فشىء بغيض.

فى ذلك العام كان الجو حارًا وجافًا، كما كان لفترة طويلة. لم يكن هناك عدد كبير من البالونات كالمعتاد، ولم تكن هناك أراجيح دوارة. وكان الذرة المقدم شائخًا وعصير الليمون معظمه ماء، ونضب الهوت دوج فى وقت مبكر. وفى ذلك الوقت لم تكن مصانع تشاس قد بدأت تسرح عمالها، ليس بعد. كان هناك ترشيد فى عدد العمال، ولكن ليس تسريحًا لهم.

ذكر أبى "مبررات التفاؤل" أربع مرات، أما أسباب المرح فذكرها مرة واحدة. تطلعت إليه نظرات قلقة.

عندما كنت أنا ولورا أصغر سنًا كنا نستمتع بتلك النزهة، أما فى ذلك الوقت فلم نفعل، لكن كان وجودنا واجبًا. كان علينا أن نرفع العلم. فقد غرس ذلك فينا من سن مبكرة: فكانت أمى ترى الذهاب ضروريًا، ولا يهم ما إذا كانت تشعر بأنها ليست على ما يرام.

بعد وفاة أمى وقيام رينى بمسئولية تربيتنا، كانت تهتم اهتمامًا دقيقًا بمظهرنا فى ذلك اليوم: فلا يجب أن تكون ملابسنا بالغة البساطة وغير رسمية، لأن ذلك يظهر الاحتقار للآخرين، وكأننا لا نبالى بنظرة سكان البلدة إلينا؛ وأيضا علينا ألا نبالغ فى التأنق لأن فيه تكبرا وتعاليا على الآخرين. فى ذلك الوقت كنا قد كبرنا

بما يكفى لاختيار ملابسنا – فكنت أنا قد بلغت الثامنة عشرة وكانت لورا فى الرابعة عشرة والنصف – مع أنه لم يكن لدينا الكثير لنختار منه. كانت أسرتنا على الدوام لا ترحب بالإظهار المبالغ للرفاهية، مع أنه كان لدينا ما تسميه رينى "أشياء جميلة"، لكن مؤخرًا ضاق تعريف الرفاهية وأصبحت تعنى أى شىء جديد.

ومن أجل النزهة ارتدت كل منا تنورة زرقاء وبلوزة بيضاء من الصيف السابق. وارتدت لورا قبعة كانت لى منذ ثلاث سنوات، وارتديت أنا قبعة العام السابق مع تغيير الشريط بها.

لم يبد على لورا أنها تهتم للأمر. لكنى تضايقت، وقلت ذلك، فقالت إننى مادية.

استمعنا إلى الخطبة. (أو لعلنى أنا التى استمعت. أما لورا فاتخذت مظهر الاستماع – فاتسعت عيناها ومالت برأسها جانبًا فى انتباه –لكن لا يمكن التكهن إلام كانت تصغى.) كان أبى يتمكن دائمًا من إنجاز تلك الخطبة بغض النظر عما يكون قد شربه، ولكنه تلك المرة تعثر فى النص. فقرب الورقة المطبوعة من عينه السليمة، ثم أبعدها ثانية وهو يحملق فيها حائرًا، كأنما هى فاتورة أشياء لم يطلبها. كانت ملابسه دائمًا أنيقة ثم أصبحت أنيقة لكن مستهلكة من كثرة الاستعمال، ولكنها فى ذلك اليوم كادت أن تكون رثة. وكان شعره أشعث حول الأذنين، يحتاج إلى التشذيب؛ فلقد بدا شرسًا كأنه قادم من معركة، بل كأنه قاطع طريق ضيقوا عليه الخناق.

وبعد الخطبة التى لم تلق سوى استحسان على سبيل المجاملة، اجتمع بعض الرجال فى مجموعات متقاربة يتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض، بينما جلس آخرون تحت الأشجار يفترشون البطاطين أو ستراتهم، على حين استلقى بعض آخر وغطوا وجوههم بالمناديل وغفوا. الرجال وحدهم هم الذين فعلوا ذلك، أما النساء فبقين متيقظات متنبهات. اصطحبت الأمهات أطفالهن الصغار إلى النهر للخوض فى الماء الضحل على الشاطئ الرملى. وفى أحد الجوانب كانت قد بدأت مباراة فى البيسبول، فالتف حولها البعض يشاهدون فى فتور.

ذهبت لمساعدة رينى فى بيع المخبوزات. فيما كنت أساعد بالضبط؟ لا أستطيع التذكر. ولكنى كنت أقدم تلك المساعدة كل عام – فكانت متوقعة منى. طلبت من لورا أن تأتى هى الأخرى، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعنى، وذهبت تتمشى مدلية قبعتها من طرفها العريض.

تركتها تذهب. كان من المفترض أن أراقبها، فرينى لم تضيع فرصة للنوم على حسابى، ففى رأيها أن لورا شديدة الثقة بالغرباء والتبسط معهم. وتجار الرقيق الأبيض يعسعسون دائمًا، ولورا هدف طبيعى لهم. فربما ركبت فى سيارة غريبة، أو فتحـــت بابا لم تألفه، أو عبرت الشارع الخطأ، وذلك قد يحدث لأنها لا تضع الحدود، أو لا تضعها حيث يضعها الناس، ولا يمكن تحذيرها لأنها لا تفهم مثل هذه التحذيرات. ولا يعنى ذلك أنها تسخر من القوانين، ولكنها ببساطة تنساها.

كنت أحاول أن أراقب لورا التى لم تُقدر ذلك. لقد تعبت من اعتبارى مسئولة عن زلاتها، وفشلها فى الاستجابة. أردت الذهاب إلى أوروبا، أو نيويورك، أو حتى إلى مونتريال – إلى الملاهى الليلية والحفلات المسائية، إلى كل الأماكن المثيرة التى تذكرها المجلات الاجتماعية التى تقرأها رينى – ولكنهم يحتاجوننى فى البيت. "يحتاجوننى فى البيت"، "يحتاجوننى فى البيت" – بدا الأمر وكأنه حكم مؤبد. بل لعله أسوأ، فهو مثل ترنيمة جنائزية. فقد كنت حبيسة فى بورت تيجونديروجا، حارس أمين يفخر بالأزرار الشعبية والسراويل الطويلة منخفضة السعر من أجل المشترين الذين يحرصون على ميزانياتهم. كنت سأتييس هنا، ولن يحدث شيء فى حياتى أبدًا، وينتهى بى الأمر عانسًا مثل مس فيولنس، يرثى لها الناس ويسخرون منها. كانت تلك مخاوفى فى الأعماق. أردت أن أكون فى مكان آخر، لكن ما من سبيل إلى ذلك. أحيانًا كنت أجدنى أتمنى أن يخطفنى تجار الرقيق الأبيض، مع أنى لم أصدق بوجودهم. فعلى الأقل سيكون فى ذلك شيء من التغيير.

كانت منضدة بيع المخبوزات تغطيها مظلة أو فوط سفرة أو قطع من ورق المشمع لحماية البضائع من الذباب. وكانت رينى أعدت بعض الفطائر، ولكنها

ليست من نوع المخبوزات الذى تجيد صنعه. كانت فطائرها محشوة بحشوة صمغية غير ناضجة وكسرات خشنة ولكنها مرنة مثل عشب البحر الأسمر أو المشروب المتجلد. فى أوقات أفضل كان ذلك يبيع جيدًا - فكان مفهومًا أنها أشياء احتفالية وليست طعامًا حقيقيًا، ولكنها لا تبيع شيئًا اليوم. فالمال شحيح والناس تريد أن تشترى به شيئًا يستطيعون أكله حقيقة.

وبينما كنت أقف خلف طاولة البيع كانت رينى تحكى آخر الأخبار فى صوت خافت. ألقى بثلاثة رجال فى النهر بالفعل، مع أن السماء مازالت مشرقة ولم يكن ذلك على سبيل الدعابة تمامًا. فقد كان بعض الرجال يتجادلون فى السياسة، فتعالت أصواتهم. فإلى جانب ما اعتادوا عليه من الإلقاء فى النهر على سبيل الدعابة، كانت هناك بعض المشاجرات. وقد طرح إلوود ميوراى أرضًا. وهو رئيس تحرير جريدة "ميورايز" الأسبوعية والتى ورثها عن جيلين سابقين، وهو يكتب معظم موضوعاتها ويصورها أيضًا. ومن حسن الحظ أنه لم يلق به فى الماء وإلا تحطمت كاميراه التى يبلغ ثمنها مبلغًا كبيرًا، وإن كانت مستعملة، كما علمت رينى. لقد أصيب بنزيف من الأنف وجلس فى ظل شجرة يحتسى كوبًا من الليمون وحوله سيدتان تصلحان من هيئته بمناديل مبللة. فكنت أراه من حيث أقف.

هل ضربوه بسبب الاختلاف فى السياسة؟ رينى لا تعرف، ولكن الناس لا يحبونه يتصنت على ما يقولونه. فى أوقات الرخاء كان ينظر إلى ميوراى على أنه أحمق، وربما ما تطلق عليه رينى مخنث - فهو ليس متزوجًا، وفى مثل عمره قد يعنى ذلك شيئًا - لكن فى الأوساط الراقية كانوا يتسامحون معه، بل وحتى يقدرونه طالما أنه يدرج كل الأسماء فى المناسبات الاجتماعية، ولا يخطئ فى كتابتها. ولكن هذا الزمن ليس وقت رخاء، ومن ثم يعتبر ميوراى شديد التطفل من أجل مصلحته. وقالت رينى "فأنت لا تحبين أن يكتب عنك كل شيء بالتفصيل، فما من شخص عاقل يحب ذلك."

لمحت أبى يمشى بين العمال المتنزهين بمشيته المائلة، يومئ بطريقته المقتضبة لهذا وذاك، وهى إيماءة يطوح فيها رأسه للوراء بدلاً من أن يطوحها

للأمام. وكانت العصابة السوداء على عينه تتحرك من جانب إلى آخر، فبدت من على بعد كأنها ثقب فى رأسه. وبدا شاربه مقوسًا فوق جانبى فمه مثل ناب فيل داكن، وينفرد من حين لآخر كأنما ينوى الابتسام. وكان يخفى يديه فى جيوبه.

وإلى جانبه كان يسير شاب أطول منه قليلا، ولكنه لا يشبهه فلا تجاعيد ولا زوايا؛ بل "ناعم البشرة" تلك هى الكلمة التى تناسبه. وكان يرتدى قبعة أنيقة من القش المجدول، وحلة من الكتان بدت وكأنما يشع منها الضوء، فقد كانت جديدة بالغة النظافة. وكان واضحًا أنه من خارج البلدة.

سألت رينى: "من هذا الذى مع أبى؟"

نظرت رينى دون أن يبدو عليها أنها تنظر، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت: "إنه مستر رويال كلاسيك بشحمه ولحمه. لقد واتته الجرأة على الحضور."

قلت: "عرفت أنه لابد أن يكون هو"

كان مستر رويال كلاسيك هو ريتشارد جريفين، من العائلة المالكة لمصانع رويال كلاسيك للملابس الداخلية فى تورنتو. كان عمالنا – أى العمال فى مصانع أبى – يسمونها ساخرين "الملابس القذرة، وذلك لأن مستر جريفين لم يكن فقط أكبر المنافسين لأبى؛ ولكنه كان نوعًا ما عدوا له. فلقد هاجم أبى فى الصحف للينه الشديد مع العاطلين ومتلقى الإعانات، ومع اليساريين بصفة عامة. وأيضا لموقفه من النقابات التى كانت بلا مبرر لأن بورتكونديروجا لم يكن بها أى من النقابات، وموقف أبى الرافض لها لم يكن سرًا. ولكن الآن ولسبب غير معروف دعا أبى ريتشارد جريفون لتناول العشاء فى أفيليون بعد النزهة بوقت قصير، أربعة أيام فقط.

فاجأ ذلك رينى وصدمها. فكما هو معروف يجب أن يتباهى المرء أمام أعدائه أكثر من أصدقائه، وأربعة أيام لا تكفيها كى تستعد لهذا الحدث، خاصة مع الأخذ فى الاعتبار أنه منذ أيام جدتى أديلا لم تشهد أفيليون ما يمكن أن يطلق عليه حفل عشاء راق. حقيقة كانت كالى فيتسيمونز تحضر أصدقاءها أحيانا لقضاء

عطلة نهاية الأسبوع، لكن كان ذلك مختلفًا، لأنهم مجرد فنانين ويجب أن يشعروا بالامتنان لما يعطى لهم، مهما كان. فكان يعثر عليهم أحيانًا فى المطبخ ليلاً يغيرون على خزانة الطعام ويعدون لأنفسهم السندوتشات من البقايا. كانت رينى تقول إن "أمعاءهم مثقوبة".

كانت رينى تقول باحتقار وهى تتفحص ريتشارد جريفون: "إنه من أرباب الأموال المحدثين. انظرى إلى سرواله المبالغ فى أناقته." كانت لا تتسامح مع أى شخص ينتقد أبى (أى شخص فيما عداها هى نفسها) وتحتقر أولئك الذين ارتفعوا فى الحياة ثم راحوا يتصرفون أعلى من مستواهم، أو ما تعتبره هى مستواهم؛ وكان من المعروف أن عائلة جريفون كانت من أدنى الطبقات، أو على الأقل كان جدهم كذلك. فقالت رينى فى نبرة غامضة إنه حصل على ثروته من خداع اليهود – هل كان ذلك من المآثر البطولية فى عرفها؟ – كيف كان يفعل ذلك، فلم تذكر عنه شيئًا. (من الإنصاف القول بأن رينى ربما اختلقت ما رمت به عائلة جريفون. فهى أحيانًا تضيف إلى الناس تاريخًا تراه مناسبا لهم.)

وخلف أبى ومستر جريفون كانت تسير مع كالى فيتسيمونز سيدة خمنت أنها زوجة ريتشارد جريفون – فهى سيدة شابة نحيفة تساير الموضة وترتدى ثوبا من الموسلين الشفاف فى لون برتقالى فاتح فى لون البخار المتصاعد من حساء الطماطم. وكانت قبعتها بالغة الأناقة خضراء اللون وكذلك حذاؤها العالى المكشوف من الخلف، ووشاحها الرقيق الذى يتدلى حول عنقها. كانت مبالغة فى أناقتها بما لا يتناسب مع النزهة. وبينما كنت أنظر إليها توقفت ورفعت إحدى قدميها ونظرت لترى ما إذا كان شيئا قد التصق بكاحلها. وتمنيت أن يكون قد التصق به شىء بالفعل. وفكرت كم يكون جميلاً أن يملك المرء مثل هذه الملابس الجميلة التى يرتديها أرباب المال المحدثون، بدلاً من تلك الملابس المحتشمة التى تبلغ الكعبين والتى تفرضها علينا الضرورة هذه الأيام.

سألت رينى فى هلع مفاجىء: "أين لورا؟"

قلت: "ليست لدى أدنى فكرة." وكنت تعودت على الردود اللاذعة مع رينى، خاصة عندما تفرض سيطرتها. "أنت لست أمي" كان هذا ردى الحاد السريع الذى لم أنطقه.

قالت رينى: "كان يجب ألا تتركيها تغيب عن عينيك. قد يكون بالمكان أى شخص لا نعرفه. أى شخص قد يكون بعبعًا. أنت لا تعرفين مدى التطفل والسرقة وزلات اللسان التى يمكن أن يرتكبها أى شخص لا نعرفه.

وجدت لورا جالسة فوق العشب فى ظل شجرة، تتحدث مع شاب – ليس صبيا – داكن البشرة يرتدى قبعة فاتحة اللون. لم يمكن تحديد طبقته – فهو ليس عاملاً فى مصنع، ولكنه ليس شيئًا آخر، فمظهره غير محدد ولا يدل على شيء. فهو لا يرتدى رابطة عنق، ولكنها نزهة. ويرتدى قميصا أزرق، أطرافه بالية بعض الشيء. شيئًا مرتجلاً، طراز بوليتارى. ففى ذلك الوقت كان كثير من الشباب من طلاب الجامعة يلتزمون ذلك الأسلوب. وفى الشتاء يرتدون صدرات ذات أقلام أفقية.

قالت لورا: "أهلاً! أين ذهبت؟ هذه أختى أيريس، هذا أليكس."

قلت "مستر...؟" كيف ألفت لورا اسمه الأول بهذه السرعة؟

قال الشاب: "أليكس توماس" كان مهذبًا لكن حذرًا. نهض واقفًا ومد يده مصافحًا فصافحته. وبعدها وجدتنى أجلس بجوارهما. فقد بدا ذلك أفضل ما أفعله لحماية لورا.

"هل أنت من خارج البلدة يا مستر توماس؟"

"نعم وفى زيارة لبعض المعارف هنا"

بدا ما تسميه رينى "شاب لطيف" بمعنى أنه ليس فقيرًا، وليس غنيًا أيضًا"

قالت لورا وهى مسترسلة فى الشــرح: "إنه من أصدقاء كالى. وهى كانت هنا وعرفتنا ببعض، فقد جاء معها على نفس القطار."

سألت لورا: "هل قابلت ريتشارد جريفون؟ ذلك الشخص الذى كان مع أبى ودعوناه على العشاء؟

قال الشاب: "ريتشارد جريفون، حوت الصناعة الذى يستغل الكادحين؟"

قالت لورا: "أليكس – أقصد مستر توماس – يعرف كثيرًا عن مصر القديمة. فكان يحدثنى عن اللغة الهيروغليفية." قالت ذلك وهى تنظر إليه. لم أرها أبدًا تنظر إلى شخص آخر بتلك الطريقة

قلت: "يبدو ذلك طريفًا" ونطقت كلمة "طريفًا" بسخرية وتهكم. فكنت فى حاجة إلى أسلوب أخبر به ذلك المدعو أليكس توماس أن لورا لم تتعد الرابعة عشرة، ولكنى لم أستطع التفكير فى طريقة لا تغضبها.

أخرج أليكس توماس علبة سجائر من جيب قميصه – كانت من نوع كرافن أ. س حسبما أذكر. وأخذ واحدة لنفسه، وتعجبت قليلاً أنه يدخن السجائر الجاهزة – فهذا لا يتناسب مع قميصه. السجائر الجاهزة ترف، فعمال المصنع يلفون سجائرهم بأنفسهم، وبيد واحدة.

قلت: "شكرًا، سآخذ واحدة." لم أدخن سوى قليل من السجائر من قبل، وكان ذلك فى الخفاء، فكنت أسرقها من الصندوق الفضى فوق البيانو. نظر نحوى بجفاء، وهو ما أردته، ثم قدم لى العلبة لآخذ منها. أشعل ثقابًا بسبابته ورفعه نحوى.

قالت لورا: "لا يجب أن تفعل ذلك، وإلا أحرقت نفسك."

وظهر أمامنا إلوود ميوراى مستقيم القامة مزهوًا بنفسه مرة أخرى. كان صدر قميصه لايزال مبتلاً ومبقعًا بلون وردى من أثر المناديل المبللة التى استخدمتها النساء لتنظيف الدم؛ وكان منخاراه من الداخل يتحلقان بلون أحمر قان.

قالت لورا: "مرحبًا مستر ميوراى، هل أنت بخير؟"

"تمادى بعض الصبية" قالها إلوود ميوراى وكأنما يبوح على استحياء بنبأ فوزه بجائزة. وتابع: "كان الأمر كله مزاحًا. أتسمحون؟" وبعدها التقط صورتنا بكاميراه ذات الفلاش. فهو دائمًا يقول "أتسمحون" قبل أن يلتقط صورة لجريدته، ولكنه لم ينتظر أبدًا الإجابة. رفع أليكس توماس يده كأنما يتقيه.

قال له إلوود ميوراى: "أعرف بالطبع هاتين السيدتين الجميلتين، لكن اسمك...؟"

وفجأة ظهرت رينى، لاهثة الأنفاس محمرة الوجه وقبعتها معوجة. وقالت: "والدكما يبحث عنكما فى كل مكان."

كنت أعلم أن ذلك ليس صحيحًا. ومع ذلك تحتم علينا أنا ولورا أن ننهض من تحت الشجرة ونعدل تنورتينا ونذهب معها تسوقنا أمامها مثل فرخ البط.

لوح لنا أليكس توماس مودعًا. كانت إشارته ساخرة، أو هكذا ظننت.

قالت رينى: "ألا تحسنان التفكير؟ تستلقيان على العشب مع من لا أعــرف من! بالله عليك يا أيريس ألق هذه السيجارة بعيدًا، فأنت لست امرأة فاسقة. ماذا يحدث لو رآك والدك؟"

"أبى يدخن كالمدخنة." قلتها فى نبرة تمنيت أن تكون وقحة.

قالت رينى: "هذا أمر مختلف."

قالت لورا: "مستر توماس، مستر أليكس توماس طالب لاهوت." ثم أضافت موضحة: " أو كان كذلك حتى وقت قريب. لقد فقد إيمانه، فلم يسمح له ضميره بالاستمرار."

من الواضح أن ضمير أليكس توماس كان له تأثير كبير على لورا، ولكنه لم ينجح فى كسب ود رينى. فقالت: "وماذا يفعل الآن؟ لابد أنه شىء مريب، أو لعلنى صينية. فنظرته مراوغة."

قلت لرينى: "ما عيبه؟" لم يعجبنى لكن من المؤكد أنها تحكم عليه دون أن تسمعه.

قالت رينى: "الأصوب أن تقولى ما الصالح الذى فيه. تتدحرجان على العشب على مرأى من كل الناس!" ثم تابعت موجهة حديثها لى: "على الأقل أنت كنت تدسين تنورتك حول ساقيك." كانت رينى تقول إذا جلست فتاة وحدها مع رجل يجب أن تضم ساقيها وكأنها تمسك ورقة بعشر دولارات بين ركبتيها. كانت دائما تخشى أن يرى الناس – خاصة الرجال – ساقينا، ذلك الجزء أعلى الركبة. وكانت تقول عمن تفعل ذلك: "رفع الستار، أين العرض؟ أو "لا ينقصها إلا أن تعلق لافتة".

أو بتعـــبير أكـــثر إيلامًا "إنها تطلبه، وتستحق ما يحدث لها. أو تقول فى أسوأ الأحوال: "إنها حادثة تنتظر الوقوع."

قالت لورا: "لم نكن نتدحرج، فليس هناك تل."

قالت رينى: "تتدحرجان أم لا، فأنت تعرفين قصدى."

قلت: "لم نكن نفعل شيئًا، بل كنا نتحدث فحسب."

قالت رينى: "هذا خارج الموضوع، فيمكن أن يراكما الناس."

قلت: "المرة القادمة عندما نكون لا نفعل شيئًا سنختفى خلف الأشجار."

قالت رينى: "من هو على أى حال؟" وكانت عادة تتجاهل صلابتى فى تحديها، حيث إنها لم تستطع فعل شىء حيال ذلك. وقولها "من هو" يعنى: "ابن من هو؟"

قالت لورا: "إنه يتيم، تبناه رجل دين وزوجته من بيت من بيوت الأيتام." ويبدو أنها استخلصت هذه المعلومات من أليكس توماس فى وقت قصير، فتلك إحدى مهاراتها، إذا جاز أن نسميها كذلك – فهى تأخذ فى طرح أسئلة شخصية

تعلمنا أن طرحها وقاحة، حتى يضطر الشخص الآخر أن يكف عن الإجابة إما خجلاً أو غضبًا.

قالت رينى: "يتيم! يعنى بلا هوية!"

فقلت: "وما عيب الأيتام؟" أعرف ما عيبهم فى عرف رينى: فهم لا يعرفون من هم آباؤهم، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليهم، فهم منحطون تمامًا. تعبر رينى عن ذلك بأن تقول: "ولد فى خندق، وترك على عتبة الدار."

تقول رينى: "لا يمكن الوثوق بهم. فهم يتملقون الناس ويتسللون إليهم، ولا يعرفون حدودًا."

قالت لورا: "حسن على أى حال، فلقد دعوته على العشاء."

قالت رينى: "وهكذا تضيع كعكة الزنجبيل الذهبية."

مانحات الطعام

خلف الحديقة وعلى الجانب الآخر من السور كانت تقف شجرة برقوق، عتيقة متغضنة تمتلئ أغصانها بالعقل السوداء. يرى والتر أنها لابد وأن تقطع، ولكنى ألمحت إلى أنها من الناحية العملية لا تخصنى. وعلى أى حال فلها معزة خاصة عندى. فهى تزهر كل ربيع دون أن يرعاها أحد، أو يطلب منها ذلك، وفى آخرالصيف تسقط برقوقًا فى حديقتى، ثمارًا صغيرة بيضاوية زرقاء تغطيها زهرات مثل ذرات الغبار. كم هى سخية تلك الشجرة! هذا الصباح التقطتُ آخر طرحها – تلك الثمرات القليلة التى أبقتها لى السناجيب والراكونات والسكارى ذوو المعاطف الصفراء – وأكلتها بنهم فصبغت عصارتها ذقنى بلون الدماء. لم ألحظ ذلك حتى مرت علىَّ ميرا بوعاء آخر من التونة التى تعدها. فقالت بضحكتها مبهورة الأنفاس مثل الطيور: "يا ربى! مع من كنت تتشاجرين؟"

أتذكر يوم عيد العمال ذاك بكل تفاصيله، لأنها المرة الوحيدة التى تجمعنا فيها جميعًا فى حجرة واحدة. كانت "أرض المعسكرات" لاتزال تمتلئ بأنواع شتى

من المرح الصاخب، لكن لم يكن ذلك من النوع الذى يحب المرء مشاهدته عن قرب، فكان احتساء الخمور الرخيصة خلسة فى أوجه. وكنت أنا ولورا قد تركنا المكان مبكرًا لمساعدة رينى فى استعدادات العشاء.

استمر ذلك لعدة أيام. وبمجرد أن علمت رينى بحفل العشاء أخرجت كتاب الطبخ الوحيد لديها "كتاب الطبخ لمدرسة بوسطن للطبخ" تأليف فانى ميريت فارمر. لم يكن الكتاب لها حقيقة، ولكنه كان يخص جدتى أديلا، والتى كانت تلجأ إليه – مع طباخيها الكثيرين بالطبع – عند إعداد حفلات العشاء ذات الاثنى عشر صنفًا. ورثته رينى، مع أنها لم تستخدمه فى إعداد الطعام اليومى – فكانت تقول إن كل ذلك فى رأسها. ولكنها هذه المرة مسألة الأصناف المتميزة المترفة.

كنت قد قرأت كتاب الطبخ هذا، أو على الأقل نظرت فيه أيام كنت أتطلع إلى جدتى بنظرة مثالية. (تخليت عن تلك النظرة الآن. فكنت أعلم أنها كانت ستحبطنى، كما تحبطنى رينى، وكما يفعل والدى، وكما كانت ستفعل أمى لو لم تمت. فهدف الكبار فى الحياة أن يحبطونى. لقد كرسوا حياتهم لذلك الهدف وحده.)

وغلاف كتاب الطبخ صريح اللون، فهو ليس فى لون المسطردة السخيف، وفى داخله وصفات صريحة أيضًا. فمؤلفته فانى ميريت فارمر عملية إلى حد بعيد، فقد نشأت على الأسلوب المباشر الصلب فى العالم الجديد. فهى تفترض أن القارئ لا يعرف شيئًا وتبدأ من حيث: "شراب كحولى فى كل ما يشرب. والماء هو المشروب الذى تمنحه الطبيعة للإنسان. فكل المشروبات الكحولية تضم نسبة عالية من الماء، ومن ثم يجب الاهتمام باستخدامها: أولاً: لرى الظمأ. ثانيًا: لإدخال الماء إلى الجهاز الدورى. ثالثا: لضبط درجة حرارة الجسم. رابعًا: للتغذية. خامسًا: لتنبيه الجهاز العصبى والأعضاء المختلفة. سابعًا: لأغراض طبية" وهكذا.

لم يكن للاستمتاع والتذوق نصيب فى قوائمها، ولكنها فى مقدمة كتابها تقتبس فقرة لافتة لجون راسكين:

"يعنى فن الطهو معرفة بميديا وكيركى وهيلين وملكة سبأ. وذلك يعنى معرفة بكل أنواع الأعشاب والفواكهة والبلسم والبهارات وبكل ما له مفعول علاجى وما له مذاق حلو فى الحقول والغيض، وما هو شهى المذاق من اللحوم. وهو يعنى الحرص والقدرة على الابتكار والرغبة والاستعداد للتطبيق. إنه يعنى اقتصاد الجدات وعلم الكميائيين من أهل الحداثة؛ إنه يعنى التذوق وعدم الإهدار؛ يعنى دقة الإنجليز وسعة معرفتهم وكرم العرب والفرنسيين، وخلاصة القول فهو يعنى أن تصبحن دائمًا سيدات على أعلى درجة من الكمال، أن تكن مانحات الطعام."

وجدت من الصعب تصور هيلين ابنة طروادة فى مريلة المطبخ، وقد شمرت عن ساعديها حتى الكوعين، والدقيق متناثر على خديها؛ وما أعرفه عن كيركى وميديا أن الشىء الوحيد الذى طبخاه فى حياتهما كان أنواعًا من الشراب السحرى؛ إما لتسميم من يظهر من الورثة، أو تحويل الرجال إلى خنازير. أما ملكة سبأ فأشك أنها أعدت فى حياتها شريحة من الخبز المحمص. وأتعجب من أين أتى مستر راسكين بأفكاره الغريبة عن النساء وفن الطبخ كليهما. ولكن يبدو أنه تصور كان يروق لعدد كبير من نساء الطبقة الوسطى فى زمن جدتى. فكان لابد أن يتسمن بالوقار والتميز، بل ويتصرفن كالملكات، وفى ذات الوقت يمتلكن أسرار وصفات طهى مبهرة،

ويستطعن إثارة العواطف المتأججة فى قلوب الرجال. وفوق ذلك يكن دائما سيدات راقيات – مانحات الطعام، يوزعن كرمهن بلا حدود.

هل يمكن أن تؤخذ مثل هذه الأشياء على محمل الجد؟ لقد فعلت جدتى. ونظرة إلى صورها الشخصية تؤكد ذلك – تلك الابتسامة المراوغة وهاتان العينان الناعستان. من كانت تظن نفسها، ملكة سبأ؟ لا شك فى ذلك.

بعد عودتنا من النزهة، كانت رينى تهرول جيئة وذهابًا فى المطبخ. ولكنها لم تكن تشبه هيلين ابنة طروادة كثيرًا، فرغم ما أنجزته مقدمًا كانت مرتبكة، بل وفى مزاج سيئ؛ كانت تتصبب عرقًا وانحل شعرها. وقالت علينا أن نتقبل الأمور

كما هى، فلا يمكننا غير ذلك حيث إنها لا تستطيع فعل المعجزات، فأكياس الحرير لا تصنع من آذان الخنازير. ناهيك عن إضافة مكان فى ساعة الصفر لهذا المدعو أليكس، أو أيا كان يسمى نفسه. ربما يدعى أليكس الذكى!

قالت لورا: "إنه يسمى نفسه باسمه، مثله مثل كل الناس."

قالت رينى: "إنه ليس مثل كل الناس. يسهل معرفة ذلك من نظرة. فهو غالبًا مولود من أصل هندى أو غجرى. فمن المؤكد أن أصله يختلف عنا."

لم تقل لورا شيئًا. لم يكن من شأنها الإحساس بوخز الضمير، ولكنها هذه المرة كانت تشعر بشىء من الندم لدعوتها أليكس توماس عفو الخاطر. ولم يكن بوسعها ألا تدعوه، كما أوضحت، فذلك كان سيكون أبعد كثيرًا من مجرد وقاحة. فأن تدعو يعنى أن تدعو، بغض النظر عمن يكون الشخص.

كان أبى يعلم هذا أيضًا، مع أنه كان أبعد عن أن يكون مسرورًا: لقد اغتصبت لورا مكانه كمضيف، وما يعرفه بعد ذلك أنها قد تدعو للعشاء على مائدته كل يتيم ومتشرد وبائس، وكأنه الملك وينسلاس الطيب. فلابد من كبح نوازعها الطيبة، كما يقول، فهو لا يدير دارًا للصدقة.

حاولت كالى فيتسيمونز استرضاءه: فأكدت له أن أليكس ليس بائسًا. حقيقة أنه ليس له عمل واضح، لكن يبدو أن له مصدر دخل، أو على أى حال لم يعرف عنه أبدًا أنه استغل أحدًا. قال أبى: "وما مصدر هذا الدخل؟" ومن العجيب أن كالى لم تكن تعلم: فأليكس لم يتحدث فى الموضوع. فقال أبى بسخرية مريرة إنه ربما يسطو على البنوك! قالت كالى إنه ليس كذلك على الإطلاق، وعلى كلٍ فأليكس معروف لبعض أصدقائها. فرد أبى بأن شيئًا لا يمنع حدوث الآخر. وبدأ ينقلب على الفنانين منذ ذلك الوقت. فلقد اعتنق كثير منهم الماركسية والاهتمام بالعمال واتهموه بإذلال الفلاحين واستغلالهم.

قالت كالى: "أليكس لا عيب فيه. ولكنه صغير السن. لقد جاء من أجل النزهة. إنه مجرد زميل." فهى لم تشأ أن يسىء أبى الفهم ويظن أن أليكس توماس من أصدقائها المقربين، بأى طريقة قد يجد فيها منافسة له.

فى المطبخ قالت لورا: "كيف أساعدكم؟"

قالت رينى: "هذا ما يفسد كل شىء، كل ما أطلبه منك أن تبتعدى عن المكان ولا تكسرى شيئًا. أيريس يمكنها المساعدة. على الأقل هى ليست خرقاء لا تجيد فعل شىء بأصابعها." كانت رينى تشعر أنها تتفضل علينا إذا تركتنا نساعدها؛ وكانت لاتزال غاضبة من لورا، فكانت تبعدها. لكن لم ينفع ذلك العقاب مع لورا. فقد أخذت قبعتها للحماية من الشمس وخرجت تتجول فى الحديقة.

ومن بين المهام التى أسندت لى تنسيق الزهور على المائدة وترتيب المقاعد. فمن حيث الزهور جمعت بعض الزنيا من جوانب الحوض الخارجية – فكلها كانت متفتحة فى ذلك الوقت من العام. أما من حيث ترتيب المقاعد فوضعت أليكس توماس إلى جانبى، وكالى إلى جانبه من الناحية الأخرى، وأجلست لورا فى الطرف البعيد من المائدة. وبهذه الطريقة شعرت أنه سيشعر بالإهانة، أو على الأقل ستشعر بها لورا.

لم يكن لدينا أنا ولورا رداء مناسب للعشاء. ومع ذلك كانت لدينا أنواع أخرى من الملابس. فكانت لدينا الفساتين القطيفة ذات اللون الأزرق الغامق والتى كانت لنا ونحن أصغر سنًا، والتى تدلت حواشيها وخيط شريط أسود على خط الحاشية البالى لإخفائه. وكانت لها يومًا ياقة من الدنتلا البيضاء، ومازالت لفستان لورا؛ أما أنا فنزعت الدنتيلا من على فستانى مما جعل فتحة الرقبة تتسع قليلاً. ضاقت هذه الفساتين علينا جدًا، أو هكذا كان فستانى؛ وأخذت لورا أيضًا تفكر فى الأمر. وحسب المعايير الدارجة لم تكن لورا قد بلغت السن المناسبة لحضور حفل عشاء كهذا، ولكن كالى رأت أنه من القسوة أن نجعلها تجلس وحيدة فى غرفتها، خاصة وأنها دعت أحد الضيوف بنفسها. ورأى أبى صواب ذلك الرأى. ثم قال إنه

على أى حال فحيث إنها طالت مثل العشب فهى تبدو فى مثل عمرى. وكان من الصعب معرفة كم كان يظن عمرى. فهو لم يتتبع أبدًا أعياد ميلادنا.

وفى الوقت المحدد اجتمع الضيوف فى حجرة الاستقبال لتناول النبيذ، وكانت تقدمه قريبة لرينى غير متزوجة جيء بها من أجل هذه المناسبة. لم يسمح لى أو للورا بتناول النبيذ أو أى نوع من الخمور على العشاء. لم يبدُ على لورا رفض لهذا الاستثناء، ولكنى فعلت. وساندت رينى أبى فى ذلك، ولكنها فى ذلك الوقت كانت ممن لا يشربون الخمر.

وكانت تقول وهى تفرغ بقايا كئوس الخمر فى الحوض: "الشفاه التى تمس الخمر لا تمس شفتى" (ومع ذلك كانت مخطئة بهذا الشأن - فلم يمض عام على حفل العشاء ذاك إلا وتزوجت رون هينكس، وهو سكير معروف فى زمنه. دونى ذلك يا ميرا إذا كنت تقرأين هذا: "قبل أن يعرف طريقه إلى الطائفة المسيحية الملتزمة بفضل رينى، كان أبوك منقوعًا فى الخمر.)

كانت قريبة رينى تكبرها سنا، مهملة فى مظهرها إلى حد مزعج. فكانت ترتدى ثوبًا أسود ومريلة بيضاء، كما كان متبعًا، أما جوربها فكان من القطن البنى ومهدلاً، وكان يمكن أن تكون يداها أنظف من ذلك. ففى الصباح كانت تعمل فى محل للبقالة ومن عملها وضع البطاطس فى الأجولة، فمن الصعب إزالة تلك البقع القذرة.

أعدت رينى الكانابى بشرائح الزيتون، والمخلل والبيض المسلوق، وأعدت أيضًا كفتة الجبن والتى لم تأتِ نتيجتها كالمتوقع. وتم وضع ذلك على واحد من أفضل صحون التقديم الخاصة بجدتى أديلا، وهى من الصينى المستورد من ألمانيا والمرسوم باليد فى تصميمات لنبات الفاوانيا باللون الأحمر القاتم وأوراق وسيقان ذهبية. وفوق الصحن مفرش صغير مطرز وفى الوسط طبق صغير به لوز مملح، وصُف الكانابى فى هيئة أوراق وردة، وبكل منها خلة. دفعتها قريبة رينى نحو الضيوف فجأة، بل فى توعد بالخطر وكأنها تطلب إليهم رفع الذراعين استسلامًا.

"يبدو هذا شيئًا متعفنًا!" قالها أبى فى نبرة ساخرة أميزها فى صوته عندما يخفى غضبًا. فقالت كالى ضاحكة: "فلتأكله وإلا تحملت ما يحدث لك" ولكن وينى فريد جريفون بريور التقطت واحدة من كفتة الجبن ودستها فى فمها بطريقة تفعلها النساء حتى لا يفسدن طلاء الشفاه – فمطت شفاهها إلى الأمام فى هيئة قمع – وقالت إنها ظريفة. وكانت القريبة نست الفوط، ومن ثم ظلت وينفريد بأصابع مدهنة. وكنت أرقبها بفضول لأرى ما إذا كانت ستلعق أصابعها أو تمسحها فى فستانها، أو ربما مسحتها فى أريكتنا، ولكنى نقلت عينى بعيدًا فى الوقت غير المناسب وفاتنى المشهد. لكن كان حدسى أنها مسحتها فى الأريكة.

لم تكن وينيفريد زوجة ريتشارد جريفين، كما ظننتُ فى البداية، بل هى أخته. (فهل كانت متزوجة أم أرملة أم مطلقة؟ لم يكن ذلك واضحًا تمامًا. فهى تستخدم اسمها المكتسب بعد مسز، مما قد يدل على أن شيئًا قد حدث لمستر بريور الذى كان موجودًا حتى وقت قريب، إذا كان ذلك حتى وقت قريب بالفعل. فهو لم يذكر إلا نادرًا ولم يظهر أبدًا؛ وقيل إنه يملك أموالاً كثيرة, وإنه مسافر. بعد ذلك عندما لم يعد كلام بينى وبين وينيفريد رحت أختلق لنفسى الحكايات عن ذلك المدعو مستر بريور؛ فأقول لنفسى إن وينيفريد حنطته واحتفظت به مع كرات النفتالين فى صندوق من الورق المقوى، أو حبسته هى وسائقها فى القبو حتى تنغمس فى اللهو. قد لا يكون ذلك اللهو الذى يتعدى الحدود، مع أنى لابد أن أذكر أن كل ما تفعله وينيفريد فى هذا الصدد إنما تفعله بتحفظ. وأظنها تغطى مسلكها بشىء من الفضيلة.)

فى ذلك المساء كانت وينيفريد ترتدى فستانًا أسود بسيط التصميم، ولكنه بالغ الأناقة يبرز جماله ثلاثة صفوف من اللؤلؤ. وكان قرطها من اللؤلؤ أيضًا على هيئة مجموعات صغيرة من العنب، سيقانها وأوراقها من الذهب. ومقارنة بها بدت كالى فيتسيمونز غير لائقة الملبس. فكان قد مضى عامان منذ أن تركت أرديتها السديلة بلون الفوشيا والزعفران، ذات التصميمات الجريئة المستوحاة من المهاجرين الروس، بل وتركت أيضًا مبسم السيجار. وهى الآن ترتدى فى الصباح

بنطلونا وسترات صوفية بفتحة عنق على شكل حرف v وقميص مشمر الأكمام؛ وقصت شعرها أيضًا واختصرت اسمها إلى كال.

كانت قد تركت تصميم النصب التذكارية للجنود الراحلين، فلم يعد الطلب عليها كثيرًا. وهى الآن ترسم بالنقش البارز على القماش المشمع صورًا لعمال وفلاحين وصيادى حيوانات من الهنود وأمهات فى منازرهن يرضعن أطفالهن، ويظللن عيونهن بأيديهن بينما ينظرن نحو الشمس. لم يستطع تمويل هذه الأعمال سوى شركات التأمين والبنوك، التى ترغب فى وضعها على واجهات مبانيها برهانًا على مواكبتها للعصر. كانت كالى تقول إنه مما يبعث على الإحباط أن يعمل المرء لدى جهات ذات اتجاه رأسمالى صارخ كهذه، ولكن المهم الرسالة، فعلى الأقل يمكن لكل من يمر بالبنوك وبالشارع أن يشاهد تلك الرسوم البارزة بلا مقابل. إنه "الفن من أجل الناس"، على حد قولها.

كانت لديها فكرة بأن أبى يمكن أن يساعدها – بأن يجد لها أعمالا أخرى بأحد البنوك. ولكن أبى قال بجفاء إنه لم يعد على وفاق تام مع البنوك.

فى ذلك المساء ارتدت فستانًا من الجرسيه فى لون ترابى – أخبرتنا أن ذلك اللون اسمه "توب" وهو الاسم الفرنسى للشامة. وعلى امرأة غيرها كان سيبدو مثل كيس متهدل بأكمام وحزام، ولكن كالى استطاعت أن تجعله يبدو أفضل، لا من حيث الموضة أو الأناقة بالتحديد – فهذه أشياء لا تؤخذ فى الاعتبار عند النظر لهذا الفستان – ولكنها جعلته شيئًا يمكن إغفاله ولكنه حاد، مثل أدوات المطبخ المعتادة – ملقاط الثلج مثلاً – قبل القتل. فمن حيث إنه فستان

كان قبضة مشرعة، لكن وسط جمع صامت.

وكان أبى يرتدى بدلته للسهرة، والتى كانت تحتاج بعض الكى. وكان ريتشارد جريفين يرتدى بذلته، والتى لم تكن للسهرة. وكان أليكس توماس يرتدى جاكيت بنيًا وبنطلونًا رماديًا، وهى ملابس ثقيلة بالنسبة للجو؛ وكان يرتدى أيضًا

رابطة عنق منقطة بالأحمر على خلفية زرقاء. كان قميصه أبيض بياقة بالغة الاتساع. بدت ملابسه وكأنه استعارها. حسن فهو لم يتوقع أن يدعى للعشاء.

وبينما كنا نسير نحو حجرة الطعام قالت وينيفريد جريفين بريور بابتسامة متكلفة: "كم هو منزل ساحر. إنه محتفظ بأناقته إلى حد بعيد، ما أروع نوافذه ذات الزجاج الملون – تصميماتها بديعة. الحياة هنا كأنها فى متحف."

ما كانت تعنيه أنه منزل عتيق الطراز. فشعرت بالإهانة. فلطالما كنت أرى تلك النوافذ بالغة الإبداع. لكن كان باستطاعتى أن أرى أنَّ رأىَ وينيفريد هو رأى العالم الخارجى – العالم الذى يعرف تلك الأشياء ويصدر حكمه عليها وفقًا لذلك، ذلك العالم الذى كنت أتوق شوقًا للالتحاق به. يمكننى الآن أن أرى كم أنا غير لائقة لهذا العالم. كم أنا ريفية عديمة الخبرة.

قال ريتشارد: "إنها نماذج رائعة لحقبة بعينها. الألواح الخشبية أيضًا من نوع متميز". ورغم تحذلقه ونبرته المتعالية، شعرت بالامتنان نحوه: ولم يتراءى لى أنه يعد قائمة بالموجودات. فهو يعرف معنى النظم المنهارة عندما شهد إحداها: فكان يعرف أننا على وشك أن تباع مقتنياتنا فى المزاد، أو أن ذلك سيحدث فى القريب.

قال أليكس توماس: "هل تعنين بمتحف، أن كل الأشياء يعلوها الغبار؟ أو لعلك تعنين أنها عتيقة عفا عليها الزمن."

تجهم وجه أبى، وإحقاقًا للحق احمرّ وجه وينفريد خجلاً.

وعلقت كالى بنبرة فرحة: "لا تتصيد لمن هم أضعف منك."

قال أليكس: "ولم لا؟ كل الناس يفعلون ذلك."

بذلت رينى قصارى جهدها فى إعداد أصناف متعددة من الطعام، بأقصى ما تستطيع ميزانيتنا تحمله فى ذلك الوقت. ولكنها أقدمت على أكثر مما تستطيع. فأعدت Mock Bisque, Perch a la Provencale, Chicken a la

Providence وانهالت كلها صنف إثر آخر فى متتالية لا مفر منها كأنها أمواج هادرة، أو وابل من اللعنات. فكان الـbisque فاسد الطعم، والدجاج تشعر فيه بطعم الدقيق، وانكمش وتصلب. لم يكن من اللائق أن يجتمع هذا العدد الكبير من الناس في غرفة واحدة يمضغون الطعام وهم شاردون، وبهذه القوة. لم يكن ذلك أكلاً إنما لعكًا للطعام.

كانت وينفريد بريور تنحى الأشياء جانبًا على صحنها وكأنما تلعب الدومينو. شعرت نحوها بغضب شديد، فقررت أن ألتهم كل شىء حتى العظام. فلن أخذل رينى. وفكرت أنها فى الماضى لم تكن تتورط هكذا، فتظهر عدم قدرتها وتتفضح وتفضحنا بذلك. ففى الماضى كانوا يأتون بالخبراء المتخصصين.

وإلى جوارى كان أليكس توماس أيضًا يقوم بواجبه. فكان يلتهم الطعام وكأن الأمر حياة أو موت، وكان الدجاج يقعقع تحت سكينته. (لم تشعر رينى بالامتنان له لتفانيه. فمن المؤكد أنها كانت تحتفظ بقائمة بمن أكل ماذا. فكان تعليقها: "ذلك المدعو أليكس كان يأكل بشهية مفتوحة وكأنه كان جائعًا فى قبو")

وفى ظل هذه الظروف تبادلنا حديثًا متقطعًا، إلا أنه بعد وجبة الجبن ساد بعض الهدوء – كان التشيدر ناقص النضج ويمط بعض الشىء، وكانت الكريمة متجلطة. صمتنا قليلاً ورحنا نتطلع حولنا.

ونظر أبى بعينه السليمة الزرقاء نحو أليكس توماس.وقال فى لهجة ظن أن بها بعض الود: "والآن أيها الشاب ما الذى أتى بك إلى مدينتنا الجميلة؟" فبدا مثل رب العائلة فى مسرحية مملة من العصر الفيكتورى. فنظرت إلى أسفل نحو المنضدة.

رد أليكس بأدب جم: "فى زيارة لبعض الأصدقاء يا سيدى." (وبعد ذلك نسمع رينى معلقة على أدبه بقولها إن الأيتام مهذبون لأنهم يغرسون فيهم آداب السلوك فى دور الأيتام. يبدو اليتيم شديد الثقة فى نفسه، ولكن ذلك التظاهر بضبط النفس يخفى وراءه طبيعة تميل نحو الانتقام، فهم فى سريرتهم يسخرون من

الجميع. وتعتمد درجة ميلهم نحو الانتقام على الطريقة التى تم بها التخلص منهم. فمعظم المخربين والخاطفين من الأيتام.)

قال أبى: "أخبرتنى ابنتى أنك تستعد للالتحاق بالكهنوت" (لم أذكر أنا أو لورا شيئًا من ذلك – فلابد أنها رينى وربما حورتها متعمدة.)

قال أليكس: "كنت يا سيدى. ولكنى أتخلى عن ذلك الأمر الآن. فقد تفرقت بيننا السبل."

"والآن...؟" سأل أبى الذى تعود على تلقى إجابات حاسمة.

"الآن أستعين بقدرتى على التحايل الذكى." قالها أليكس وابتسم ليبين انتقاصه من قيمة ذاته.

تمتم ريتشارد: "ربما صعب ذلك عليك." وانتابتنى الدهشة، فلم أصدق أن له مثل هذه الفطنة. وضحكت وينيفريد وقالت: "ربما يعنى أنه مخبر صحفى، جاسوس بيننا!"

ابتسم أليكس ثانية ولم يقل شيئًا. وتجهم أبى، فهو يرى المخبرين الصحفيين نوعًا من الجراثيم. فهم لا يكذبون فحسب ولكنهم يستغلون مصائب الآخرين – فهم فى نظره "ذباب يتهافت على الجثث" على حد قوله. واستثنى من ذلك إليوود ميوراى لأنه يعرف العائلة. وأسوأ ما يقوله عن إليوود إنه "ثرثار".

وبعد ذلك تحول مجرى الحديث للشئون العامة من سياسة واقتصاد – كما كان الشأن فى ذلك الوقت. وكان رأى أبى أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، ويرى ريتشارد إمكان اجتياز الأزمة. وقالت وينفريد من الصعب أن نجزم بالرأى، ولكنها تمنت أن يتم السيطرة على الأمور حتى لا يطفح الكيل.

"أى كيل؟" سألت لورا التى لم تكن قد نطقت حتى ذلك الوقت. فبدا الأمر وكأن مقعدًا قد نطق.

"فى حال حدوث اضطراب اجتماعى" قالها أبى بلهجته التوبيخية والتى تعنى ألا تقول شيئًا بعد ذلك.

قال أليكس إنه يشك فى ذلك، فهو آت لتوه من المعسكرات.

"المعسكرات؟ أى معسكرات؟" قالها أبى متحيرًا؟"

قال أليكس: "معسكرات الإغاثة يا سيدى. معسكرات بينيت للعمل، معسكرات العاطلين. فهم يعملون عشر ساعات يوميًا ولا يحصلون إلا على القليل. الأولاد لا يتحمسون لذلك وينتابهم القلق."

قال ريتشارد: "الشحاذون لا يختارون. فهذا أفضل من أن يتسلقوا القطارات. فهم يحصلون على ثلاث وجبات كاملة، وهو أكثر مما يمكن أن يحصل عليه عامل يعول أسرة، وقد عرفت أن الطعام المقدم ليس سيئًا. قد تظنون أنهم يشعرون بالامتنان، ولكن ذلك النوع من الناس لا يشكر النعمة أبدًا"

قال أليكس: "ليسوا نوعًا خاصًا من البشر"

قال ريتشارد: "يا ربى بيننا أحمر هاو!" فنظر أليكس إلى صحنه.

قالت كالى: "إذا كان هو أحمر، فأنا أيضًا كذلك. ولكنى لا أعتقد أنه لابد أن يكون المرء أحمر ليدرك... "

"ماذا كنت تفعلين هناك؟" قالها أبى ليقطع حديثها. (ففى الفترة الأخيرة كان هو وكالى كثيرى الجدال. فكالى تريده أن يؤيد الحركة النقابية. وهو يقول إنها تريد المستحيل بأن تجعل حاصل جمع اثنين واثنين خمسة.)

وهنا دخلت حلوى ال bombe glacee . فاستغرق ذلك انتباهنا لبرهة، إذ جاء شكلها البيضاوى مستديرًا ككرة القدم، ولونها أخضر لامع وفى صلابة الصخر! فكانت لدينا ثلاجة كهربائية فى ذلك الوقت، كنا قد اشتريناها قبل الانهيار الاقتصادى – وأحسنت رينى الاستفادة منها فى ذلك المساء، مع أنها كانت تشك فى كفاءة جزئها الخاص بالتجميد.

وبينما كانت تقدم القهوة، بدأ عرض الألعاب النارية فى ساحة المعسكرات. فخرجنا جميعًا إلى المرفأ للمشاهدة. كان مشهدًا بديعًا أن ترى الألعاب النارية ذاتها وانعكاساتها فى نهر الجوج. فترى نافورات حمراء وصفراء وزرقاء تتدفق فى

الهواء – كأنها نجوم تتفجر وزهور الكريزانتيم وأشجار الصفصاف، مصنوعة كلها من الضوء.

قال أليكس: "اخترع الصينيون البارود، ولكنهم لم يستخدموه فى البنادق، بل فقط فى الألعاب النارية. ومع ذلك لا أقول إنى أستمتع بتلك الألعاب. فهى لا تحتمل مثل الأسلحة الثقيلة."

فقلت: "هل أنت من دعاة السلام؟" فلقد بدا أنه قد يكون كذلك. وكنت أنوى إذا أجاب بالإيجاب أن أعارضه، لأجذب انتباهه. كان يوجه معظم كلامه للورا فقال: "لست من دعاة السلام، ولكن والدىّ كليهما قتلا فى الحرب. أو لعلنى أسلم بأنهما لابد وأن يكونا قتلا."

وخطر لى أنه سيحكى قصة يتمه. فبعد كل ما أثارته رينى من جلبة حول الموضوع، أرجو أن تكون قصة جيدة.

سألت لورا: "ألست متأكدًا؟"

قال أليكس: "كلا فقد عرفت أنه عُثر علىَّ جالسًا فوق كومة أنقاض متفحمة فى منزل محترق. وقد مات كل من هناك سواى. فيبدو أننى كنت مختبئا تحت ماسورة مياه أو ماعون للطهى – أى وعاء معدنى من نوع ما."

وهمست لورا: "أين كان ذلك؟ ومن الذى عثر عليك؟"

قال أليكس: "لم يتضح ذلك. فهم لا يعرفون حقيقة. ولكنها لم تكن فرنسا أو ألمانيا. بل أبعد من ذلك نحو الشرق، فى واحدة من تلك الدويلات الصغيرة. فلابد أن تناقلتنى الأيدى حتى وصلت إلى الصليب الأحمر بطريقة أو بأخرى."

فقلت: "هل تذكر ذلك؟"

"ليس تماما، فقد اختلفت التفاصيل أثناء الرحلة - مثل اسمى وما إلى ذلك - ثم انتهى بى المقام مع المبشرين الذين رأوا النسيان أفضل لى. وكانوا مجموعة من طائفة المشيخية البروتستانتية تهتم اهتمامًا كبيرًا بالنظافة. فكنا جميعًا حليقي الرؤوس وقاية من القمل. أذكر إحساسى المفاجئ بعدم وجود الشعر - وكم شعرت بالبرودة. من هنا بدأت ذكرياتى بحق."

ومع أننى كنت قد بدأت أميل إليه أكثر، إلا أننى خجلت من الاعتراف بأن شكى فى روايته ليس بقليل. ففيها مسحة ميلودرامية غالبة - فللحظ دور كبير سواء كان سعيدًا أم تعيسًا. وكنت لا أزال بالغة الصغر لأعتقد فى المصادفات. أما إذا كان يحاول التأثير على لورا فلم يجد أفضل من ذلك الأسلوب - هل كان يحاول ذلك فعلاً؟

قلت: "شيء مريع ألا تعرف هويتك."

قال أليكس: "كنت أعتقد ذلك. ولكن تبادر لى أن هويتى الحقيقية شخص لا يريد أن يعرف من هو فى الواقع. فماذا يعنى ذلك؟ خلفية عائلية وما شابه؟ فكثيرًا ما يتخذ الناس ذلك عذرًا لتعاليهم أو نقائصهم. فكل ما هنالك أننى لا أتعرض لهذا الإغواء. فلا تكبلنى تلك القيود، ولا يقعد بى شيء." وقال شيئًا آخر ولكنى لم أسمعه بسبب انفجار فى السماء. ولكن لورا سمعته وأومأت بحزن.

(ماذا قال؟ عرفت فيما بعد أنه قال: "فعلى الأقل لا أشعر أبدًا بالحنين إلى الأهل والوطن.)

ومرقت فوقنا هندباء برية مضيئة. فتطلعنا جميعًا إلى أعلى. فمن الصعب ألا نفعل فى مثل هذه الأوقات، ومن الصعب ألا نقف هناك مشدوهين فاغرى الأفواه.

هل كانت البداية فى ذلك المساء، على المرفأ فى أفيليون والألعاب النارية تتلألأ فى السماء؟ يصعب معرفة ذلك. فالبدايات تأتى مفاجأة، ولكنها أيضًا خبيثة غادرة. فهى تزحف نحوك متدارية متسترة بالظلال، وتتربص مختبئة لتفاجئك بعد حين.

التلوين اليدوى

يطير الأوز البرى نحو الجنوب مصدرًا صريرًا مثل مفصلات متعبة؛ وعلى طول شاطئ النهر تضيء الشموع على شجر السماق بلون أحمر باهت. إنه الأسبوع الأول من أكتوبر. الفصل الذى تخرج فيه الملابس الصوفية من بين كرات النفتالين، ويتكاثف الضباب فى الليل ويتجمع الندى وتنزلق الخطوات وتخرج زهور الخطم آخر براعمها، وينتشر خس الزينة بألوانه الوردية والأرجوانية للمرة الأولى فى العام.

إنهُ فصل زهور الكريزانتيم، تلك الزهور البيضاء المرتبطة بالجنازات. لابد وأن سأمها الموتى.

كان الصباح صافيًا باردًا. قطفت من الحديقة الأمامية طاقة صغيرة من زهور الخطم الصفراء والوردية، وذهبت بها إلى المقابر كى أضعها عند قبر العائلة فوق القاعدة المكعبة البيضاء حيث يقف الملكان الحالمان: وجدت أن ذلك يشعرهما بالاختلاف. وبمجرد أن وصلت هناك مارست طقسى الصغير المعتاد بالدوران حول النصب التذكارى وقراءة الأسماء. أعتقد أنى كنت أقرأها فى صمت، لكن بين حين وآخر كنت أضبط رنين صوتى يخرج متمتمًا وكأننى قس يسوعى يتلو شعائره.

يقول المصريون القدماء إن النطق بأسماء الموتى يعيدهم إلى الحياة ثانية، وهو ليس دائمًا ما يتمناه المرء.

عندما أكملت دورتى حول النصب التذكارى وجدت فتاة – شابة صغيرة – تركع أمام القبر، أو أمام موضع لورا من القبر. كان رأسها منحنيًا، وكانت ترتدى السواد: بنطلونا جينز وتى شيرت وجاكيت ومعها حقيبة ظهر صغيرة سوداء من ذلك النوع الذى يحملونه الآن بدلاً من الحقائب النسائية. كان شعرها قاتما طويلا

مثل سابرينا، فقفز قلبى فجأة وظننت أن سابرينا قد عادت من الهند أو من حيث كانت. ظننتها عادت دون إنذار، وأنها غيرت رأيها تجاهى، وأرادت مفاجأتى، ولكنى أفسدت ترتيبها الآن.

لكن عندما أمعنت النظر رأيت أن الفتاة غريبة، فلا شك أنها طالبة جامعية مجهدة. ظننتها فى البداية تصلى، ولكنها كانت تضع زهورًا: قرنفلة واحدة بيضاء ملفوف ساقها فى ورق قصديرى لامع. وعندما نهضت لاحظت أنها كانت تبكى.

تمس لورا قلوب الناس أما أنا فلا!

بعد نزهة مصنع الأزرار، كان هناك تقرير معتاد عنها فى جريدة "هيرالد أند بانر" —من الطفل الفائز فى مسابقة أجمل طفل، ومن الفائز فى مسابقة أجمل كلب. وضم التقرير أيضًا ملخصًا للخطبة التى ألقاها أبى. فقد كسا إلوود ميوراى كل شىء بلمسة تفاؤل، فاكتسى كل شىء بصبغة عملية كالعادة. وظهرت بالجريدة أيضًا بعض الصور، مثل صورة الكلب الفائز، وهى صورة ظلية قائمة على شكل ممسحة، وصورة الطفل الفائز، بدينًا مثل وسادة الدبابيس فى قبعة منفوشة، والراقصين الإيقاعيين يمسكون بنموذج كبير لنبات الشمروك من الورق المقوى، ويظهر أبى فوق المنصة. لم تكن صورة جيدة له، فبدا فمه مفتوحًا كأنه يتثاءب.

وظهر أليكس فى إحدى الصور ونحن الاثنتان إلى جانبه، أنا من اليسار ولورا من اليمين، كأننا دفتا كتاب. كانت كل منا تنظر إليه وتبتسم، وكان هو الآخر يبتسم، ولكنه رفع يده أمامه كما يفعل المجرمون لاتقاء عدسات التصوير عندما يتم القبض عليهم. ومع ذلك لم يستطع أن يخفى سوى نصف وجهه. وكتب تحت الصورة "مس تشاس ومس لورا تشاس ترحبان بزائر من خارج البلدة."

لم يتمكن إلوود ميوراى من تتبعنا ذلك المساء لمعرفة اسم أليكس، وعندما حضر إلى المنزل وجد رينى التى قالت له إنه يجب ألا يذاع اسمانا مع شخص لا يعرف هويته إلا الله، ورفضت أن تخبره بالاسم. ومع ذلك فقد طبع الصورة. شعرت رينى بالإهانة سواء منا أو من إليوود ميوراى. فقد رأت فى هذه الصورة ما يكاد أن يكون سلوكًا مشينًا، حتى لو لم تظهر سيقاننا. رأت أن على وجه كلينا

نظرة وله، ولوعة حب حمقاء، وقد فغرت كل منا فاها فى اشتهاء. فقد وضعنا أنفسنا فى موقف مزر، وسيسخر منا كل من فى البلدة من وراء ظهورنا، لولهنا بشاب صعلوك هيئته مثل هندى، بل مثل يهودى، والأسوأ من ذلك أنه مشمر الأكمام وكأنه شيوعى يساوم فى صفقة.

قالت رينى: "ذلك المدعو ميوراى يستحق الصفع، فهو يظن نفسه بالغ الظرف والمهارة." ومزقت الجريدة ودستها فى الموقد حتى لا يراها أبى. ولكنه لابد وأن اضطلع عليها فى المصنع، ومع ذلك لم يعلق.

اتصلت لورا بإليوود ميوراى تليفونيًا. لم تلمه أو تكرر أيًا مما قالته رينى عنه. ولكنها أخبرته برغبتها أن تصبح مصورة فوتغرافية مثله. كلا، هى لم تقل ذلك الكلام الكاذب. ولكن هذا ما استنتجه هو. فما قالته بالفعل إنها تريد أن تتعلم كيف تطبع الصور من النيجاتيف. تلك هى الحقيقة حرفيًا.

شعر إليوود ميوراى بالزهو أمام هذا التفضل الذى ناله من علية القـــوم فى أفيليون – فرغم أنه عابث إلا أنه جبان متعال – فوافق أن تساعده فى الحجرة المظلمة ثلاثة أيام فى الأسبوع بعد الظهيرة. كان بوسعها مشاهدته يطبع الصور التى التقطها ومنها صور زفاف وأطفال فى حفلات التخرج المدرسية وما إلى ذلك. مع أن أحرف الطباعة تجمع، والجريدة يكتب موضوعاتها رجلان فى الحجرة الخلفية، إلا أن إليوود كان يقوم بكل الأشياء الأخرى فى الجريدة الأسبوعية، بما فى ذلك تحميض الصور التى التقطها.

وربما تعلمت منه لورا أيضًا كيفية التلوين اليدوى، فقد قال إنها المرحلة التالية. فالناس يحضرون إليه صورهم المطبوعة بالأبيض والأسود ليستعيدوها أكثر حيوية بإضافة ألوان حية. ويتم ذلك بتبييض الأجزاء الأكثر قتامة من الصورة باستخدام فرشاة، وبعدها تعالج الصورة المطبوعة بحبر السيبيا السائل لإعطاء خلفية قرمزية مضيئة. تأتى الألوان فى أنابيب وزجاجات صغيرة ويتم وضعها بحرص شديد باستخدام فرشاة دقيقة، فالمبالغة فى استخدام اللون ينتج عنه بقع

بالصورة. ويحتاج استخدام الألوان إلى ذائقة متميزة وقدرة على خلط الألوان، حتى لا تظهر الخدود كتلة من اللون الأحمر أو تظهر البشرة باللون البيج كأنها قطعة قماش. فالأمر يحتاج إلى بصر حاد ويد ثابتة. يقول إليوود إنه عمل فنى، وهو فخور بإتقانه له - هذا لو كان قال ذلك عن نفسه بالفعل. وهو يحتفظ بمجموعة مختارة من هذه الصور الملونة يدويًا فى نافذة عرض دوارة فى أحد الأركان بالقرب من نافذة مكتب الجريدة، على سبيل الإعلان. "احتفظ بذكرياتك" هكذا تقول اللافتة المكتوبة بخط اليد والموضوعة إلى جانبها.

ومن أكثر الموضوعات المصورة شباب فى زى عسكرى قديم من أيام الحرب العالمية، وأيضًا عرائس وعرسان. ويأتى بعد ذلك صور لحفلات التخرج، والمشاركة فى تناول العشاء الربانى للمرة الأولى، ومجموعات أسرية وقورة، وأطفال فى ملابس التعميد، وفتيات فى ملابس رسمية، وأطفال فى أزياء احتفالية، وكذلك صور لقطط وكلاب. وإلى جانب ذلك صور لحيوانات أليفة غريبة - كصورة لسلحفاة المقو - وصورة نادرة لطفل فى تابوت له وجه شمعى ومحاط بنسيج مكشكش.

لا تظهر الألوان واضحة أبدًا كما تظهر على صفحة من الورق الأبيض؛ فتبدو ضبابية وكأنها تظهر من وراء غلالة شفافة. فلا تضيف هذه الألوان واقعية للصور، ولكنها تضفى مسحة فوق واقعية على الأشخاص وكأنهم ينتمون إلى بلاد غريبة، فتبدو ألوانهم زاهية ولكنهم صامتون، يبعدون كل البعد عن الواقعية.

أخبرتنى لورا ماذا تفعل مع إليوود ميوراى، وأخبرت رينى أيضًا. توقعت انتقادًا وغضبًا، توقعت أن تقول رينى إن لورا تحط من شأنها، أو أنها تتصرف بطريقة تعرضها للشبهة. من يدرى ماذا يحدث فى حجرة مظلمة بين فتاة شابة ورجل والأنوار مطفأة؟ ولكن رينى لم تنظر للأمر، وكأن إليوود يدفع للورا نظير العمل معه، ولكنه يعلمها، وهو أمر مختلف. وهى بذلك تضعه بمثابة من يتلقى أجرًا للمساعدة. أما من حيث وجود لورا معه فى حجرة مظلمة، فلا يرى أحد خطرًا فى

ذلك، لأن إليوود رجل مخنث. أعتقد أن رينى كانت تشعر بالراحة فى دخيلة نفسها لاهتمام لورا بشىء آخر غير مسألة الله.

بالتأكيد اهتمت لورا بالأمر، ولكنها كالمعتاد غالت فيه إلى أقصى حد. فلقد اختلست بعضًا من مواد التلوين اليدوى الخاصة بإليوود وأحضرتها معها إلى المنزل. واكتشفت أنا الأمر بالمصادفة: كنت فى حجرة المكتبة أقلب فى الكتب تقليبًا عشوائيًا، ولاحظت ما حدث للصور المؤطرة؛ حيث يظهر جدى بنيامين فى كل صورة مع رئيس مختلف للوزراء. فسير جون سبارو تومبسون أصبح وجهه موف فاتحًا، ووجه سير ماكنزى بولز أخضر زاهيًا، أما سير تشارلز تيوبر فوجهه برتقالى فاتح. واتخذت لحية جدى بنيامين وشواربه لونا قرمزيًا فاتحًا.

ضبطتها ذلك المساء أثناء العمل. فعلى منضدة الزينة الخاصة بها وجدت الأنابيب الصغيرة والفرش الدقيقة. ووجدت أيضًا الصورة الرسمية لى ولورا فى ردائنا المخملى، وأحذيتنا من ماركة مارى جينز. كانت لورا قد نزعت الصورة من إطارها، وراحت تلون صورتى بالأزرق الفاتح. قلت: "لورا، ماذا تفعلين بحق السماء؟ لماذا تلونين تلك الصور؟ تلك الصور التى فى حجرة المكتبة. سيغضب أبى لذلك غضبًا شديدًا."

قالت لورا: "كنت فقط أقوم ببعض الممارسة. وعلى كل فهؤلاء الرجال يحتاجون بعض الإظهار لملامحهم. أرى أنهم يبدون أفضل كذلك."

"يبدو شكلهم غريبًا أو شديدى الإعياء. فما من أحد له وجه أخضر أو موف."

ردت لورا فى ثبات ورباطة جأش: "إنها ألوان أرواحهم. إنها الألوان التى يجب أن يكونوا عليها."

"ستجلبين على نفسك المشاكل! فسرعان ما يكتشفون من فعل ذلك"

"لا ينظر أحد إلى هذه الصور. فلا أحد يهتم بها"

قلت: "حسن. يستحسن ألا تلمسى جدتنا أديلا. ولا أعمامنا المتوفين، وإلا اكتشف أبى سرك!"

قالت: "أردت أن ألونهم بالذهبى، لأبين أنهم فى الأمجاد السماوية. لكن ليس لدى لون ذهبى. أقصد الأعمام وليست الجدة، فكنت سألونها بالرمادى المعدنى."

لا تجرؤين! فأبى لا يؤمن بالأمجاد. ومن الأفضل أن تعيدى هذه الألوان قبل أن تتهمى بالسرقة."

قالت لورا: "لم أستهلك منها كثيرًا. على العموم فقد أحضرت لإليوود برطمانًا من المربى. فهى مقايضة عادلة."

"أعتقد أنها المربى التى أعدتها رينى. أخذتها من القبو البارد – هل استأذنتيها؟ فأنت تعرفين أنها تحصى برطمانات المربى." والتقطت صورتنا نحن الاثنتين وسألتها: "لماذا أنا بالأزرق؟"

مكتبة

قالت لورا: "لأنك نائمة."

لم تكن أدوات التلوين وحدها هى التى اختلستها. فقد كان تصنيف الملفات من أعمال لورا. وكان إليوود يحب مكتبه منظمًا وكذلك حجرته المظلمة. فكان يحتفظ بأفلام النيجاتيف فى أظرف شفافة، مصنفة حسب تاريخ التقاطها، ومن ثم كان سهلاً على لورا أن تحدد مكان النيجاتيف الخاص بصور النزهة. فقد طبعت نسختين منها بالأبيض والأسود فى يوم خرج فيه إليوود وترك لها إدارة المكان وحدها. وهى لم تخبر أحدًا بذلك ولا حتى أنا إلا فيما بعد. بعد أن طبعت الصور دست النيجاتيف فى حقيبة يدها وأحضرته معها إلى المنزل. لم تر فى ذلك سرقة: فإليوود سرق الصور فى المقام الأول لأنه لم يستأذن فى التقاطها، وهى قد سلبته شيئًا لم يكن يخصه على الإطلاق.

بعد أن أتمت ما شرعت فى فعله، كفت لورا عن الذهاب إلى مكتب إليوود ميوراى، دون أن تعطيه سببًا لذلك أو إنذارًا. شعرت أنا أن ذلك تصرف أحمق منها، وكان بالفعل كذلك، لأن إليوود شعر بالإهانة. وحاول أن يعرف من رينى ما

إذا كانت لورا مريضة، لكن كل ما قالته رينى أن لورا لابد وأن غيرت رأيها فيما يتعلق بالتصوير. فهذه الفتاة تمتلئ بالأفكار، ودائمًا تحمل فى رأسها أفكارًا جديدة، فلابد أن لديها فكرة جديدة الآن.

أثار ذلك فضول إليوود. وبدأ فى مراقبة لورا بنحو يزيد على فضوله المعتاد. لا أسمى ذلك تجسسًا بالضبط – فهو لم يختبئ وراء الأشجار، ولكنه اهتم أكثر بملاحظتها. (لم يكن قد اكتشف بعد سرقة النيجاتيف. فلم يتراءى له أن يكون لدى لورا دافع خفى للبحث عنه. فنظرتها ثابتة مباشرة وعيناها واسعتان ولها جبين صاف مستدير، وتلك الملامح تجعل المرء يظنها مزدوجة الشخصية.)

فى البداية لم يجد إليوود كثيرًا مما تجدر ملاحظته. فكان يشاهدها صباح أيام الآحاد تسير عبر الشارع الرئيسى فى طريقها إلى الكنيسة حيث تقوم بالتدريس فى مدرسة الأحد للأطفال فى سن الخامسة. وفى صباح ثلاثة أيام أخرى من الأسبوع كانت تساعد فى مطبخ الحساء التابع للكنيسة المتحدة والمقام بجوار محطة القطار. ورسالته تقديم أوعية من حساء الكرنب للرجال والأولاد الجوعى متسخى الثياب الذين يتسلقون القطارات؛ وهو مجهود نبيل، لكن لا يستحسنه كل من فى البلدة. فالبعض كان يرى هؤلاء الناس متآمرين متمردين، بل يظنون فيهم ما هو أسوأ من ذلك كأن يكونوا شيوعيين؛ ويرى آخرون أنه لا يجب أن تكون هناك وجبات مجانية لأنهم هم أنفسهم يعملون من أجل كل لقمة. وكانت تسمع صيحات تنادى: "احصلوا على عمل!" (كانت الإهانات من جانب واحد، مع أن تلك التى كان يطلقها الرجال الجوالون أخف وطأة. وكانوا بالطبع يكرهون لورا وأمثالها ممن يظنون أنهم يحسنون صنعًا. وبالطبع كانت لديهم وسائلهم للتعبير عن مشاعرهم، مثل النكات والسخرية والتصادم ونظرات الامتعاض. فلا شيء أثقل على الناس من اضطرارهم للاعتراف بالمعروف.)

وكانت الشرطة المحلية تحيط بالمكان للتأكد من أن هؤلاء الرجال لا يحملون أفكارًا براقة فى رؤوسهم، كأن يبقون فى تيكونديروجا. فلابد من الزج بهم بعيدًا ونقلهم إلى مكان آخر. لكن لم يسمح لهم بركوب سيارات الشرطة فى محطة القطار، فشركة السكك الحديدية لا تحتمل ذلك. فكانوا يتشاجرون ويتصارعون بالأيدى – وكما كتب إليوود ميورى "كانت العصا تعمل بحرية فى الليل."

وهكذا كان هؤلاء الرجال يتنقلون متثاقلى الخطى بين خطوط السكك الحديدية محاولين الركوب إلى منطقة أبعد فى الخط الحديدى، لكن كان ذلك أكثر صعوبة لأنه حينذاك تكون القطارات قد زادت من سرعتها. وأسفر ذلك عن وقوع عدد من الحوادث، وحادثة موت راح ضحيتها صبى لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره سقط تحت العجلات وقطع جسده نصفين. (وبعد هذه الحادثة حبست لورا نفسها فى غرفتها ثلاثة أيام ولم تأكل شيئًا؛ فكانت قد قدمت وعاء من الحساء لهذا الصبى.) وقد كتب ميوراى مقالاً افتتاحيًا قال فيه إنه حادث مأساوى يؤسف له، ولكنه ليس غلطة السكك الحديدية، ومن المؤكد أنه ليس مسئولية البلدة؛ فإذا أقدم المرء على مغامرة طائشة، فماذا يتوقع؟

توسلت لورا لرينى لإعطائها بعض العظام لحساء الكنيسة. وقالت رينى إنها ليست مصنوعة من العظام، والعظام لا تنبت على الشجر. فهى تريد معظم العظام لنفسها – لنا هنا فى أفيليون. وقالت إن القرش المدخر هو القرش المكتسب، أفلا ترى لورا أن أباها يحتاج إلى ما يكسبه فى تلك الأوقات العصيبة؟ ولكنها لم تستطع مقاومة لورا لفترة طويلة، ويتبع ذلك أن تعطيها عظمة أو اثنتين أو ثلاث. لم تشأ لورا أن تلمس العظام – فهى تتقزز من ذلك – فكانت رينى تلفها لها، وتقول وهى تتنهد: "ها هى. سيلتهم هؤلاء المتشردون كل ما لدينا. ووضعت بصلة فى اللفافة." كانت ترى أنه يجب ألا تعمل لورا فى مطبخ الحساء، فهو عمل بالغ الخشونة بالنسبة لفتاة صغيرة مثلها.

قالت لورا: "من الخطأ أن تسميهم متشردين. كل الناس يبعدونهم. وهم لا يريدون إلا العمل. يريدون وظيفة."

ردت رينى فى نبرة شك غاضبة: "أرجو ذلك" وقالت على انفراد: "إنها نسخة طبق الأصل من أمها."

لم أذهب لمطبخ الحساء مع لورا. فهى لم تطلب منى ذلك، وعلى أى حال لم يكن لدى وقت: فقد صمم أبى على ضرورة معرفتى للصادر والوارد فى أعمال الأزرار، فهذا واجبى. (Faute de mieux) لعدم وجود ما هو أفضل فلابد أن

أكون الابن فى مجموعة تشاس وأولاده، وإذا أردت إدارة العمل فيجب أن تتسخ يداى من آثاره.

كنت أعرف أننى لا أتمتع بإمكانيات تؤهلنى للعمل الحر، ولكنى جبنت على الاعتراض. فكنت أصحب أبى إلى المصنع كل صباح لأرى (على حد قوله) كيف تسير الأمور فى العالم الواقعى. لو كنت صبيًا لجعلنى أبدأ العمل فى قسم التجميع، ففى الجيش لا يتوقع الضابط أن يقوم رجاله بعمل لا يستطيع هو القيام به بنفسه. ومن ثم جعلنى أعد قائمة بجرد الموجودات وضبط حسابات الشحن – دخول المواد الخام وخروج المنتج من المصنع.

كنت لا أجيد هذا العمل، ربما عن قصد. فكنت أشعر بالملل وأيضًا بالرعب. وعندما كنت أصل إلى المصنع كل صباح مرتدية تنورتى وبلوزتى التى تشبه زى الراهبات، وأسير فى أعقاب أبى مثل كلب، كان لابد أن أمر بأقسام العمل. كنت أشعر بأن النساء يحتقرننى والرجال يحملقون فى. كنت أعرف أنهم يتفكهون علىَّ من وراء ظهرى – تسخر النساء من مشيتى والرجال يسخرون من جسدى، فذلك أسلوبهم لتحقيق المساواة. لا ألومهم بوجه من الوجوه – فلو كنت مكانهم لفعلت مثلهم – ولكنى مع ذلك شعرت بالإهانة.

كانوا يقولون مثلاً: "تظن نفسها ملكة سبأ."

لم يلحظ أبى أيًا من ذلك، لعله اختار ألا يلاحظ.

فى أحد الأيام عصرًا حضر إليوود ميوراى إلى باب رينى الخلفى منتفخ الصدر يشعر بزهو من يحمل أنباء سيئة. كنت وقتها أساعد رينى فى التعليب، فقد كنا فى نهاية شهر سبتمبر ونجمع آخر محصول الطماطم من حديقة المطبخ. كانت رينى دائمًا مقتصدة، أما فى تلك الأوقات فالإهدار فى رأيها خطيئة. فلابد وأنها أدركت كيف أصبح الخيط واهيًا– خيط النقود الزائدة التى تربطها بعملها.

قال إليوود ميوراى، إن لديه أخبارًا لابد أن نعرفها، لمصلحتنا. ألقت رينى نظرة عليه وعلى وقفته المنتفخة لتقيم مدى أهمية أخباره، فلما رأت أنها على قدر

من الخطورة، دعته إلى الدخول، بل وقدمت له قدحًا من الشاى. وبعدها طلبت منه الانتظار حتى ترفع البرطمانات الأخيرة من الماء المغلى بالملقط وتحكم عليها الغطاء، ثم جلست.

ها هى الأخبار. قال مستر إليوود إن مس لورا تشاس شوهدت بالبلدة بصحبة شاب، هو الشاب نفسه الذى التقطت صورتها معه فى رحلة مصنع الأزرار. لقد شوهدا فى البداية فى مطبخ الحساء، ثم رآهما الناس بعد ذلك جالسين على مقعد فى حديقة – على أكثر من مقعد – يدخنان السجائر. أو لعل الرجل هو الذى كان يدخن، أما فيما يتعلق بلورا فهو لا يستطيع أن يجزم بذلك، قالها وهو يزم شفتيه. كما شوهدا أيضًا بجوار نصب الحرب التذكارى فى ساحة البلدة، ومتكئين على سور جسر جوبيلى Jubilee Bridge ينظران إلى جندل النهر بالأسفل – وهو المكان المألوف لتبادل الغرام. وربما شوهدا أيضًا بأرض المعسكرات Camp Grounds، وهى دلالة على سلوك مشكوك فيه، أو ما يؤدى إلى ذلك – ولكنه ليس متأكدًا، إذ لم يشهد ذلك بنفسه.

على كل حال فهو يرى أننا لابد أن نعرف. فالرجل ناضج، أوليست لورا فى الرابعة عشرة؟ أفلا يخجل من نفسه أن يستغلها هكذا. واضطجع على مقعده إلى الخلف يهز رأسه فى أسى، مزهوًا بنفسه مثل جرز أمريكى، وفى عينيه يتلألأ سرور خبيث.

ثارت ثائرة رينى. فهى تكره كل من يتفوق عليها فى منطقة النميمة. فقالت فى نبرة جافة متأدبة: "نشكرك حقيقة لإخبارنا. فمن الأفضل معالجة الأمور فى مهدها قبل أن تسوء" فكانت تلك هى طريقتها لإنقاذ سمعة لورا: فلا شىء قد حدث، ومع ذلك لا يمكن الحيلولة دونه.

وبعد أن ذهب ميوراى قالت رينى: "كل ما أقوله عنه إنه لا يعرف الخجل!" لم تكن تعنى ميوراى بالطبع، إنما تعنى أليكس توماس.

عندما تمت مواجهتها، لم تنكر لورا شيئًا ما عدا مشاهدتها فى أرض المعسكرات. أما مقاعد الحديقة فهى جلست عليها بالفعل، لكن ليس لفترة طويلة. وهى لم تستطع أن تفهم لماذا تثير رينى كل هذه الضجة. فأليكس توماس ليس حبيبًا تافهًا لا يساوى شيئًا (وهو تعبير استخدمته رينى). وهو أيضًا ليس بلطجى حانات (وهو تعبير آخر). وأنكرت أنها دخنت سيجارة فى حياتها. أما فيما يتعلق "بمطارحة الغرام" – وهو أيضا تعبير رينى – فتراه مقززًا. فماذا فعلت لإثارة تلك الشكوك الدنيئة؟ إنها لا تعلم حقيقة.

أرى أن مثل لورا مثل الأصم الذى لا يسمع النغمات؛ فالموسيقى تعزف وهى تسمع شيئًا منها، ولكن ما تسمعه ليس ما يسمعه كل الناس.

وفقا لرواية لورا، ففى كل تلك اللقاءات – وهى ثلاث مرات فقط – كانت هى وأليكس مشغولين فى حديث هام. عما كانا يتحدثان؟ كانا يتناقشان حول الله. فأليكس توماس فقد إيمانه، ولورا تحاول مساعدته على استعادته. وهو أمر شاق لأنه يعتنق مذهب الشك فى كل شيء، أو ربما تعنى أنه مرتاب. فهو يرى أن العصر الحديث يهتم بالعالم الدنيوى وليس بالعالم الآخر، فيركز على الإنسان ويتخذه محورًا له. وهو يدعى عدم وجود الروح، ويقول إنه لا يهتم مطلقًا بما قد يحدث له بعد الموت. وهى تصر على متابعة مهمتها مهما كانت شاقة.

سعلت فى يدى، فلم أجرؤ على الضحك. فقد رأيت لورا تستخدم تلك التعبيرات الفاضلة مع مستر إيرسكين مرارًا، وأرى أن هذا هو ما تفعله الآن: المخادعة وطمس الحقيقة. وقفت رينى منفرجة الساقين فاغرة الفم، تضع يديها فى خصرها وكأنها دجاجة يحولون بينها وبين الانقضاض.

سألت رينى متحيرة وقد غيرت الموضوع: "لماذا هو فى البلدة؟ هذا ما أود معرفته. أعتقد أنه كان فى زيارة!"

قالت لورا بهدوء: "آه، إن لديه بعض الأعمال هنا. لكن بإمكانه التواجد أينما يشاء. إنها ليست دولة عبيد، فيما عدا العبيد الأجراء بالطبع." خمنت أن محاولة

التغيير لم تكن من طرف واحد: فأليكس توماس يطرح أفكاره. وإذا سارت الأمور على هذا المنوال صار لدينا بلشفية صغيرة.

قلت: "أليس هو كبيرًا فى السن؟"

فنظرت إلىَّ نظرة شرسة لتجرئى على المقاطعة وقالت: "لا عمر للروح!"

قالت رينى على طريقتها المعتادة فى حسم النقاش: "الناس يتكلمون!"

"هذا شأنهم!" قالتها لورا بلهجة مثيرة متعجرفة: فالآخرون محنتها التى تجاهد معها.

أسقط فى يدنا أنا ورينى. ماذا عسانا أن نفعل؟ بوسعنا أن نخبر والدى فيمنعها من رؤية أليكس توماس. ولكنها لن تطيع حتى لو أزهقت روحها. وقررنا أن معرفة أبى بالموضوع سيثير من المشاكل أكثر مما يستحق الأمر؛ ومع ذلك فما الذى حدث؟ لم يحدث شيء يمكن الإشارة إليه. (وقتها كنت أنا ورينى على يقين من ذلك، فقد اتفقنا فى الرأى.)

وبمرور الأيام شعرت أن لورا تخدعنى وتجعلنى أضحوكة، مع أنى لم أستطع أن أحدد كيف بالضبط. لم أظن أنها كانت تكذب بالمعنى، ولكنها لم تقل الحقيقة كاملة. رأيتها مرة مع أليكس توماس مشغولين بالحديث، يتمشيان بجوار نصب الحرب التذكارى، ومرة أخرى عند جسر جوبيلى، ومرة يتسكعان خارج مطعم بيتى للأكلات السريعة، غافلين عن الرؤوس التى تستدير نحوهما، بما فيهم رأسى. منتهى التحدى!

قالت رينى لى: "لابد أن تحدثيها بالعقل" ولكنى لا أستطيع التحدث مع لورا بالعقل، بل أصبحت لا أستطيع التحدث معها مطلقا؛ أو لعلنى أتحدث معها، ولكن هل تسمع هى؟ الحديث معها مثل الحديث إلى ورقة نشاف بيضاء: تخرج الكلمات من فمى وتختفى وراء وجهها كأنما فى حائط من الثلج المتساقط.

فى الأوقات التى لم أكن أقضيها فى مصنع الأزرار – وهو تدريب أثبت عدم جدواه مع الأيام، حتى بالنسبة لأبى – بدأت التجول بمفردى. فكنت أسير بخطى سريعة على شاطئ النهر متظاهرة بأن لى وجهة بعينها، أو أقف على جسر

جوبيلى كأننى أنتظر أحدًا، أحملق فى المياه السوداء بالأسفل، وأتذكر حكايات النساء اللاتى ألقين بأنفسهن فيها. لقد فعلن ذلك بسبب الحب، لأن ذلك هو تأثير الحب على الناس. فهو يتسلل إليك، يحكم قبضته عليك قبل أن تدرك، وبعدها لا يسعك فعل شيء. فمجرد أن تغرق فى الحب، تنجرف مع التيار. أو هكذا تقول الكتب.

أو كنت أسير فى الشارع الرئيسى أطالع باهتمام ما تعرضه المحلات فى نوافذ عرضها – مثل الجوارب والأحذية والقبعات والقفازات والمفكات ومفاتيح الربط. وكنت أتفحص اللافتات الإعلانية لنجمات السينما فى خزانات العرض الزجاجية خارج قاعة سينما بيجو، وأقارنهن بمظهرى، أو بما يمكن أن أبدو عليه إذا صففت شعرى مسدلاً على عين واحدة، وارتديت الملابس المناسبة. لم يكن مسموحًا لى بالدخول، فلم أدخل قاعة سينما إلى أن تزوجت، لأن رينى كانت تقول إن بيجو قاعة رخيصة لا تدخلها الفتيات الصغيرات بمفردهن مهما يكن الأمر. فالرجال ذوو الأفكار المنحرفة يذهبون إليها رغبة فى القنص. فيجلس أحدهم فى المقعد المجاور ويلصقون يدهم على جسدك مثل الورق المصمغ لقتل الذباب، وقبل أن تتداركى الموقف ينقض عليك.

تصف رينى المرأة أو الفتاة دائمًا على أنها عاجزة قليلة الحيلة، لكن مقابضها كثيرة مثل سلم تسلق الأطفال. تتملكها قوة سحرية تمنعها من الحركة أو الصراخ. فتتسمر فى مكانها وتعجز عن الحركة – إما بفعل الصدمة أو الحنق أو الخجل. فلا ملجأ لها.

القبو البارد

لذعة برد فى الجو، والسحب مرتفعة والرياح تهب. وحزم القمح الجافة قد ظهرت على أعتاب أبواب المزارعين. وفى الشرفات الخارجية تبتسم فى الليل الوجوه المرسومة على أوجه الفوانيس المضاءة المصنوعة من القرع. أسبوع من

الآن ويخرج الأطفال إلى الشوارع يطلبون الحلوى فى ملابس راقصات الباليه، وهيئة جثث عائدة للحياة، وكائنات من الفضاء، وهياكل عظمية، وغجر يقرعون الطالع، ونجوم موسيقى الروك ممن فارقوا الحياة، وكالعادة سأطفئ الأنوار، وأتظاهر أنى لست بالمنزل. ليس ذلك لأنى لا أحبهم، ولكنه دفاع عن النفس – فقد يختفى أحد من الصغار، ولا أريد أن أتهم بأنى استدرجتهم إلى الداخل وأكلتهم.

ضحكت ماريا عندما أخبرتها بذلك وظنت أننى أمزح. وهى لها تجارة رائجة فى شموع برتقالية قصيرة وغليظة، وقطط من السيراميك الأسود، وخفافيش من قماش لامع، وساحرات للزينة محشوات بالقطن ورؤوسهن من التفاح الجاف.

كان يومى ثقيلاً بالأمس – فشعرت بقلبى يؤلمنى حتى إننى لم أستطع التحرك من الأريكة – أما هذا الصباح وبعد أن تناولت دوائى أشعر بنشاط غير عادى؛ فسرت بهمة حتى محل فطائر الدونت. وهناك تفحصت حائط دورة المياه، وكان آخر ما كتب عليه: "إذا لم تقل خيرًا فلتصمت" تبعتها عبارة: "إذا لم تستطع أن تمص شيئًا حلوًا فلا تمص شيئًا على الإطلاق." جميل أن حرية التعبير مازالت على أوجها فى هذا البلد.

وبعدها ابتعت قدحًا من القهوة، وفطيرة دونت مغطاة بالشكولاتة، وأخذتهما لأجلس بالخارج على أحد المقاعد التى أعدتها الإدارة والموضوعة إلى جانب وعاء القمامة. وجلست فى ضوء الشمس الذى كان مازال دافئًا أستمتع بالدفء مثل سلحفاة. مر الناس بى فى سيرهم، فهاتان امرأتان بدينتان تجران عربة طفل، وامرأة أصغر منهما سنا وأرشق قوامًا فى معطف جلدى أسود بمشابك فضية مثل أطراف الأظافر، ومشبك آخر فى أنفها، ورجلان عجوزان فى معطف واق من الرياح. انتابنى شعور بأنهم جميعا يحملقون فى. فهل مظهرى فاضح أو يشى بالجنون؟ أو لعلنى كنت أحدث نفسى بصوت مرتفع؟ من الصعب أن أحدد ذلك. هل يتدفق منى الصوت مثل الهواء عندما أكون غير منتبهة؟ فيخرج همسًا خافتًا،

مثل حفيف كرمات العنب فى الشتاء، أو مثل صفير رياح الخريف فى العشب الجاف؟

وقلت فى نفسى: وماذا يعنى ما يظنه الناس؛ إذا أرادوا الإنصات فمرحبًا بهم.

"ماذا يعنينى منهم، ماذا يعنينى؟" العبارة الحادة الخاطفة التى يرددها المراهقون أبدًا. إنه يعنينى بالطبع. فأنا أهتم بما يظنه الناس. دائما أهتم. فعلى غير لورا، لم أجد الشجاعة لطرح معتقداتى.

عبر كلب بجانبى، فأعطيته نصف فطيرة الدونت، "فلتكن ضيفى على الرحب والسعة!" هذا ما كانت تقوله رينى عندما تضبط أحدًا يسترق السمع.

طوال شهر أكتوبر - أقصد أكتوبر عام ١٩٣٤ - سرت الإشاعات حول ما يحدث فى مصنع الأزرار. كانوا يقولون إن مثيرى الشغب يتربصون به من الخارج، يهيجون الناس خاصة من الشباب المتحمسين. تناثرت الأحاديث حول صفقات جماعية، وحقوق العمال والنقابات. بالطبع كانت النقابات مخالفة للقانون، أو هكذا كانت النقابات التى تدافع عن عمال المحال المغلقة، أليس كذلك؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد. على كلٍ فهى لا تبدو خالصة النوايا تمامًا.

كان المحرضون على الشغب من المعربدين والمجرمين المأجورين (حسب رواية مسز هيلكوت). وهم ليسوا محرضين من الخارج فحسب، ولكنهم محرضون أجانب أيضًا، وهو ما كان يبعث على مزيد من الخوف. رجال سود صغار القامة ذوو شوارب، وقعوا أسماءهم بالدماء، وأقسموا على الولاء حتى الموت، يثيرون الشغب ولا يصدهم شيء، ويقذفون القنابل، ويزحفون فى الليل لذبحنا نيامًا (كما تقول رينى). كانت تلك هى أساليب أولئك البلاشفة الذين لا يعرفون الرحمة، ومنظمى النقابات، فكلهم شيء واحد فى قرارة أنفسهم (حسبما يقول ميوراى). إنهم يريدون العلاقات العاطفية الحرة، وتقويض العائلة، والإعدام رميًا بالرصاص لكل من يملك مالاً - أى قدر من المال - حتى لو كان ساعة يد، أو خاتم زواج. هذا ما كان قد حدث فى روسيا. هكذا كانوا يقولون.

وشاع أيضًا أن مصانع أبى تمر ببعض الاضطرابات.

على المستوى العام تم إنكار الشائعات المتعلقة بالجانبين – المحرضين من الخارج والاضطرابات. ولكن كليهما صدقهما الناس.

ففى شهر سبتمبر سرح أبى بعضًا من عماله، أولئك الأصغر سنًا، فهم أجدر بإعالة أنفسهم حسب رأيه، وطلب من الباقين قبول العمل عددًا أقل من الساعات. وشرح ذلك بأن حجم العمل ليس كافيًا لجعل المصانع كلها تعمل بقدرة إنتاجية كاملة. فالعـــملاء لا يشترون الأزرار، أو على الأخص أنواع الأزرار التى تنتجها مجموعة تشاس وأولاده، والتى تعتمد على إنتاج كمية كبيرة كى تحقق أرباحًا. ولا هم أيضًا يشترون الملابس الداخلية الرخيصة والعملية: فهم يصلحون ما لديهم ويدبرون أمورهم. بالطبع لم يكن كل من فى البلد بلا عمل، ولكن أولئك الذين يعملون لم يشعروا بالأمان فى استمرارهم فى وظائفهم. ومن الطبيعى أنهم كانوا يدخرون أموالهم بدلاً من صرفها. ولا لوم عليهم فكل من فى مكانهم يفعل مثلهم.

ودخلت الرياضيات فى الصورة، بقوائمها ورؤوسها وعيونها التى لا ترحم والمصنوعة من الأصفار. فرسالتها أن حاصل جمع اثنين واثنين يساوى أربعة. لكن ماذا يحدث إذا لم يكن لدينا اثنان واثنان؟ عندها لا يحدث الجمع. إنها لا تجمع، ولا أستطيع أن أجعلها كذلك، فلا يسعنى أن أحول الأرقام الحمراء فى سجل المحتويات إلى اللون الأسود. أزعجنى ذلك بشكل مرعب، وكأنها غلطتى على نحو شخصى. وفى المساء عندما أغمض عينى، كنت أرى الأرقام على الصفحة أمامى، مصفوفة فوق مكتبى البلوطى المربع فى مصنع الأزرار، تلك الصفوف من الأرقام الحمراء وكأنها ديدان فراشات آلية تلتهم ما تبقى من المال. كانت الأرقام تسلك سلوك من يبيع الأشياء بأقل مما تكلفت صناعتها – وهو ما كان يحدث فى مجموعة تشاس وأولاده أحيانًا. وهو سلوك مشين، مجرد من الحب والعدل والرحمة، ولكن ماذا نتوقع؟ فالأرقام ما هى إلا أرقام، ولا خيار لها فى الأمر.

فى الأسبوع الأول من ديسمبر أعلن أبى غلق المصانع. وقال إنه أمر مؤقت. فكان يأمل أن يكون مؤقتًا. كان يتحدث عن التراجع وخفض النفقات من

أجل الاحتشاد واستجماع القوة. كان يطلب التفهم والصبر، فكانت تحيته من العمال المحتشدين الصمت المترقب. وبعد ذلك الإعلان عاد إلى أفيليون وحبس نفسه فى برجه العلوى الصغير وأسرف فى الشراب. كانت أشياء زجاجية تتكسر بالأعلى؛ كانت زجاجات بلاشك. كنت أنا ولورا نجلس فى حجرتى فوق سريرى تتشبث كلانا بيد الأخرى، وننصت إلى الغضب الثائر والحزن المهتاج بالأعلى، فوق رؤوسنا تماما، وكأنها عاصفة رعدية داخلية. لم يفعل أبى شيئًا حيال ذلك لفترة طويلة.

لابد أنه شعر بأنه خذل عماله، وأنه فشل، وأنه عاجز عن فعل ما يكفى.

قالت لورا: "سأدعو له!"

فقلت: "وهل يبالى الرب؟ لا أعتقد أنه يبالى ألبتة. هذا إذا كان هناك إله بالفعل."

قالت لورا: "لا يمكنك معرفة ذلك إلى ما بعد."

"بعد ماذا؟" كنت أعرف تمامًا، فقد دار بيننا هذا الحوار من قبل. "بعد أن نموت."

بعد إعلان أبى بعدة أيام ظهرت قوة النقابة. كانت هناك بالفعل مجموعة مؤسسة من الأعضاء، وهم الآن يدعون كل الناس للالتحاق بها. فقد عقدوا اجتماعًا خارج مصنع الأزرار المغلق، ودعوا كل العمال للالتحاق، وقالوا إنه عندما يعيد أبى فتح المصانع سيخفض النفقات إلى أقصى حد، ومن المنتظر أن يتقاضوا جميعًا أجورًا لا تقيم أودهم. فمثله مثل الباقين، يكدس نقوده فى البنك فى مثل هذه الأوقات العصيبة، ويؤجل اتخاذ القرارات حتى ينسحق الناس وتسوء أحوالهم، وعندئذ ينتهز الفرصة ليزداد ثراء على حساب العمال. فهو وابنتاه المتأنقتان يعيشون فى منزلهم الكبير حياة مرفهة عابثة من عرق الشعب.

والحقيقة أن هؤلاء المنظمين المدّعين من خارج البلدة، هكذا كانت تقول رينى التى كانت تخبرنا بكل ذلك بينما نجلس حول مائدة المطبخ. (فكنا قد توقفنا

عن تناول وجباتنا فى حجرة الطعام، لأن أبى كف عن تناول الطعام بها. فكان يحبس نفسه فى برجه العلوى الصغير، وتصعد إليه رينى بصينية الطعام.). هؤلاء الأوباش لا يعرفون معنى الذوق؛ إذ يزجون بنا فى الأمر بهذا الأسلوب، على حين يعرف الجميع أن لا علاقة لكلينا بشىء. كانت رينى تطلب منا ألا نعير الأمر اهتمامًا، ولكن القول أسهل من الفعل.

وكان هناك بعض ممن لا يزالون يدينون لوالدى بالولاء. فسمعنا عن احتدام النقاش وعدم الاتفاق فى الاجتماع، ثم تعالت الأصوات وتعارك المجتمعون. فقد خرج الجميع عن شعورهم، وأصيب رجل فى رأسه وتم نقله إلى المستشفى مصابًا بارتجاج فى المخ. كان الرجل من المضربين – فهم يطلقون على أنفسهم مضربين – ولكن وقع اللوم فى تلك الإصابة على المضربين أنفسهم، لأنه بمجرد أن يبدأ هذا التمزق بين الناس، فلا يمكن التنبؤ بالعاقبة.

فالأفضل ألا تكون البادئ. الأفضل أن تغلق فمك. ذلك أفضل كثيرًا.

حضرت كالى فيتسيمونز لرؤية والدى. ذكرت أنها قلقة عليه. كانت تخشى أن يجرفه التيار. وكانت تعنى ما قالته على المستوى الأخلاقى. فكيف يعامل عماله بهذا الأسلوب المتعجرف ولا يهمه سوى الحرص على المال مهما كانت النتائج؟ طلب منها والدى أن تواجه الحقيقة، وقال إنها بينما جاءت لتسرى عنه إلا أنها تزيد الأمور وطأة عليه. وقال أيضًا إن الذى دفعها لذلك أحد أصدقائها الشيوعيين. فقالت إنها جاءت من تلقاء نفسها، دفعها إلى ذلك الحب. فرغم أنه رأسمالى إلا أنه كان دائمًا رجلاً مهذبًا، ولكنها تراه الآن وقد تحول إلى بلوتقراطى قاس. فقال أبى إن للمرء أن يكون بلوتقراطيا إذا انكسر. فقالت إنه يمكنه تصفية أصول ممتلكاته. فرد بأن تلك الأصول لا تساوى شيئًا أكثر مما تساوى هى نفسها، والتى على حد علمه تمنحها لكل من يطلب. قالت إنه لم يسخر من قبل من الصدقات. فقال نعم، ولكن التكاليف الخفية كانت باهظة، ففى البداية كان كل الطعام فى بيته يستنفذه أصدقاؤها الفنانون، ثم دماؤه والآن روحه. فنعتته بأنه برجوازى رجعى. فرد بأنها ذبابة تهف على الجثث. وتعالى صياحهما فى بعضهما البعض. وتلا ذلك أبواب تصفع وسيارة تنطلق فوق ممر الحصى، وكانت تلك هى النهاية.

هل سعدت رينى بذلك، أم أنها شعرت بالأسف؟ لقد شعرت بالأسف. فحقيقة هى لم تحب كالى، ولكنها اعتادت عليها، وكالى أحسنت إلى والدى فى يوم من الأيام. من سيحل محلها؟ عاهرة أخرى، ولكن الشيطان الذى تعرفه أفضل.

فى الأسبوع التالى ظهرت دعوة للإضراب العام لإعلان التضامن مع مجموعة تشاس وأولاده. وكان القرار أن تغلق كل المحال والأعمال، وتعطل الخدمات العامة. فتنقطع التليفونات ويتعطل البريد، ولا يمكن الحصول على ألبان أو خبز أو ثلج. (من الذى كان يصدر هذه القرارات؟ فلا يعتقد أحد أنها صادرة عمن يتلوها. فقد ادعى هذا الرجل أنه من أهل بلدتنا، وساد الظن بأنه من عائلة مورتون أو مورجان، شىء من هذا القبيل – لكن من المؤكد أن يتضح الأمر بأنه ليس من السكان المحليين فى الواقع. فلا يمكن أن يكون كذلك ويتصرف على هذا النحو. وعلى كل حال من كان جده؟)

ومن ثم لم يكن هذا الرجل هو من أصدر القرار، فهو ليس العقل المدبر لذلك، كما تقول رينى، لأنه ليس له عقل على الإطلاق. فوراء هذا الأمر عناصر سوداء.

انتاب لورا بعض القلق على أليكس. فقد ذكرت أنه متورط فى الأمر بوجه من الوجوه. كانت تعرف أنه كذلك. فذلك ما تشى به معتقداته.

وفى وقت مبكر من عصر اليوم نفسه حضر ريتشارد جريفون إلى أفيليون فى سيارة، وتصحبه سيارتان أخريان. وهى سيارت كبيرة مصقولة ومنخفضة. كان معه خمسة رجال آخرين، أربعة منهم ضخام البنية يرتدون معاطف داكنة وقبعات من نوع الفيدورا. صحب أبى ريتشارد جريفون وأحد الرجال إلى حجرة مكتبه. ونصب اثنان من الرجال الآخرين نفسيهما على بابى المنزل الخارجى والداخلى، وانطلق الاثنان الآخران فى إحدى السيارات الفخمة إلى مكان ما. كنت أنا ولورا نرقب مجىء السيارات وذهابها من نافذة حجرة نوم لورا. فقد طلب إلينا أن نبتعد عن الطريق، وهو ما يعنى الابتعاد عن استراق السمع أيضًا. وعندما

سألنا رينى عما يحدث بدا عليها القلق، وقالت إن ظنها وظننا كان فى محله، ولكنها كانت تتبع الأحداث بأذنها.

لم يبق ريتشارد جريفون لتناول العشاء. وعندما رحل صحبته سيارتان، وتخلفت السيارة الثالثة، وبقى معها ثلاثة من الرجال ضخام البنية. وسكنوا فى محل إقامة السائق السابق فوق الجراج.

قالت رينى إنهم مخبرون. فلابد أنهم كذلك. ولهذا هم يرتدون معاطفهم دائمًا، فتحتها يخفون أسلحتهم التى يحملونها تحت إبطهم. كانت تلك الأسلحة مسدسات. عرفت رينى ذلك من المجلات المختلفة التى كانت تقرأها. وقالت إنهم هنا لحمايتنا، وإذا لمحنا شخصًا غريبًا يتسلل فى الحديقة ليلاً، باستثناء هؤلاء الرجال الثلاثة بالطبع، علينا أن نصرخ.

وشهد اليوم التالى أحداثًا للشغب فى شوارع البلدة الرئيسية، شارك فيها عدد من الرجال الذين لم يشاهدهم أحد من قبل، أو إذا كان قد شاهدهم أحد من قبل، فهم لا يذكرونهم. فمن يتذكر متشردًا؟ ولكن بعضهم لم يكونوا متشردين، لكن محرضين عالميين فى حالة تنكر. لقد كانوا يتجسسون على المدى. لكن كيف وصلوا إلى هنا بهذه السرعة؟ قيل إنهم جاءوا على أسطح القطارات. فهكذا يسافر أمثالهم.

بدأ الشغب فى اجتماع خارج مبنى البلدية. فى البداية تم إلقاء الخطب التى أشاروا فيها إلى البلطجية ومالكى الشركات المجرمين، ثم حرقوا وسط صيحات التهليل تمثالاً مجسدًا لأبى من الورق المقوى، يرتدى قبعة عالية ويدخن سيجارًا – وهو ما لم يفعله أبى أبدًا. كما أغرقوا بالكيروسين دميتين من القماش فى رداء وردى تزينه طيات متراكبة، وألقوا بهما فى النار. قالت رينى إن الدميتين تمثلانى أنا ولورا. وانطلقت النكات تصور الفتاتين دميتين مفعمتين بالعاطفة. (فلم يغفل الجميع تجول لورا مع أليكس فى البلدة. قالت رينى إن رون هينكس هو الذى أخبرها بذلك، ظنًا منه أنها لابد أن تعلم. وقال إنه لا يجب أن تتجول كلانا فى البلدة فى الوقت الحاضر لأن المشاعر محتقنة ضدنا، ولا نضمن العواقب. ومن ثم

لابد ألا نخرج من أفيليون حتى نكون فى أمان. وقال إن أمر الدميتين فضيحة مقززة، وهو يتمنى أن يضع يده على من اختلق هذا الأمر.

أما المحال وشركات الأعمال الواقعة فى الشارع الرئيسى والتى رفضت غلق أبوابها فقد تهشمت نوافذها. وكذلك تهشمت أيضًا نوافذ المحال وشركات الأعمال التى أغلقت أبوابها. وبعد ذلك انتشرت أعمال النهب والسرقة وخرجت الأمور عن السيطرة تمامًا. تم غزو الجريدة وتحطيم مكاتبها، وهوجم إليوود ميوراى بشراسة وتحطمت الماكينات فى المطبعة خلف المبنى. لكن نفدت حجرته المظلمة، أما كاميراه فلا. أصيب ميوراى بحزن بالغ سمعنا عنه مرارًا بعد ذلك.

فى تلك الليلة تم إشعال النار فى مصنع الأزرار. أصابت النيران نوافذ الدور الأرضى: لم أستطع رؤيتها من حجرتى، لكن سمعت قعقعة سيارة الإطفاء تمر فى طريقها للإنقاذ. بالطبع انتابنى الخوف والرعب، لكن لابد أن أعترف أن الأمر كان به بعض الإثارة أيضًا. وبينما كنت أستمع لقعقعة السيارة، وللصيحات البعيدة الآتية من نفس الاتجاه سمعت شخصًا يصعد السلالم الخلفية. ظننتها رينى، لكن لم تكن هى، بل كانت لورا وقد ارتدت معطف الخروج.

وسألتها: "أين كنتِ؟ من المفترض أن نبقى حيث نحن ولا نتحرك. يكفى أبى ما به من الهموم ولا ينقصه خروجك للتجول بالخارج."

قالت: "ذهبت فقط إلى المستنبت الزجاجى. كنت أصلى، وأحتاج مكانًا هادئاً."

تمكنوا من إطفاء الحريق، ولكن المبنى أصابه كثير من الدمار. جاء هذا فى التقرير الأول. وبعد ذلك وصلت مسز هيلكوت لاهثه الأنفاس وتحمل غسيلاً نظيفًا، وسمح لها الحراس بالدخول. قالت إنه أرسون: فقد وجدوا علب الجازولين. كان الحارس الليلى يرقد ميتا على الأرض، وأثر ارتطام على رأسه.

شاهد الناس رجلين يهربان. فهل تم التعرف عليهما؟ ليس تمامًا، ولكن سارت الأقاويل بأن أحدهما الشاب صديق مس لورا. قالت رينى إنه ليس صديق مس لورا، فمس لورا ليس لها صديق، ولكنه مجرد أحد المعارف. فقالت مسز هيلكوت، على العموم أيا كان هذا الشخص، فمن الأرجح أنه أحرق مصنع الأزرار وضرب ألدافيتسون المسكين على رأسه وصرعه ميتًا كفأر، والأفضل له أن يترك هذه البلدة إذا كان يعرف مصلحته.

وعلى العشاء قالت لورا إنها ليست جائعة، وإنها لا تستطيع الأكل فى ذلك الوقت، وستعد لنفسها صينية لتأكل لاحقًا. ورأيتها تحمل الصينية وتصعد بها السلالم الخلفية إلى غرفتها. وكانت تحمل حصتين من كل نوع – الأرانب وعصير الفاكهة والبطاطس المهروسة. وهى فى العادة تتعامل مع الأكل على أنه شىء ممل – شىء تفعله بيدك على مائدة الطعام بينما يتحدث الآخرون – أو عمل مضجر لابد من إنجازه مثل تلميع الفضيات. كانت تراه نوعًا من الصيانة الروتينية المملة. فتعجبت عندما انتابها فجأة ذلك المزاج المتفائل حول الطعام.

فى اليوم التالى حضرت قوات من اللواء الكندى الملكى لإعادة النظام. وكان هذا هو اللواء الذى خدم فيه أبى أثناء الحرب. فصعب على نفسه كثيرًا أن يرى هؤلاء الجنود ينقلبون على ناسهم – على ناسه، أو من ظنهم ناسه. ومع أن الأمر لا يحتاج عبقرية فذة لفهم أنهم لم يعودوا يشاركونه رأيه فيهم، لكن صعب على نفسه ذلك أيضًا. فهل كانوا يحبونه فقط من أجل أمواله؟ يبدو الأمر كذلك.

وبعد أن سيطر اللواء الكندى الملكى على الأمور، وصلت شرطة الخيالة. ظهر ثلاثة منهم عند بابنا الخارجى. طرقوا الباب بأدب ثم وقفوا فى الردهة الخارجية تصر أحذيتهم ذات الرقبة العالية على الأرضية الباركية المطلية بالشمع، وفى أيديهم قبعاتهم البنية المنشاة. أرادوا التحدث إلى لورا.

وهمست لى لورا عند استدعائها: "تعالى معى من فضلك يا أيريس، لا أستطيع مقابلتهم وحدى." وبدت بالغة الصغر ممتقعة باهتة.

وجلسنا نحن الاثنتان معًا على الأريكة الصغيرة بجوار الجرامفون القديم فى غرفة الاستقبال النهارية. وجلس أفراد شرطة الخيالة على المقاعد. لم يكن شكلهم كما توقعت أن يكون أفراد شرطة الخيالة، كبار السن عريضى الخصر. كان أحدهم صغيرًا ولكنه لم يكن مسئولاً. فتحدث أوسطهم. وقال إنهم يعتذرون لإزعاجنا فى ذلك الوقت الذى لابد وأنه عصيب، ولكن الأمر على قدر من الأهمية. فلقد أرادوا الحديث عن مستر أليكس توماس. فهل كانت مس لورا تعلم أن هذا الرجل مخرب ومتطرف معروف، وأنه كان يعيش فى معسكرات الإغاثة محرضًا على الفتن ومثيرًا للمشاكل؟

قالت لورا إنه كان يعلم الرجال القراءة، على حد علمها.

قال الشرطى إن هذا أحد وجوه النظر إلى الأمر. فإذا كان بريئًا، فلا شىء لديه يخفيه، وسيظهر عند طلبه، أفلا تتفق فى ذلك؟ فأين يمكن أن يكون مختفيًا هذه الأيام؟

قالت لورا إنها لا يمكنها التخمين.

أعيد السؤال بطريقة أخرى. فهذا الرجل يرتاب فى أمره: أفلا تحب لورا المساعدة فى الدلالة على مكان المجرم الذى قد يكون أشعل الحريق فى مصنع والدها والذى ربما تسبب فى وفاة أحد الموظفين المخلصين؟ فإذا كنا نثق فى شهادة شهود العيان فهذا ما حدث.

قلت إن شهود العيان هؤلاء لا يمكن الوثوق بهم، لأنهم شاهدوا الشخص الهارب من ظهره فحسب، أضف إلى ذلك أن الدنيا كانت ظلامًا.

"مس لورا؟" وجه الشرطى كلامه إلى لورا متجاهلاً إياى.

قالت لورا إنها حتى لو كانت تعلم فلن تتحدث. فأنت برىء حتى تثبت إدانتك. هذا إلى جانب أنه ضد مبادئها المسيحية أن تلقى بإنسان للأسود. وقالت أيضًا إنها آسفة لموت الحارس، لكنها لم تكن غلطة أليكس توماس، لأن أليكس توماس لا يمكن أن يفعل ذلك. ولكنها لن تفصح بالمزيد.

كانت تمسك بذراعى من عند المرفق، وكنت أشعر بارتجافها، مثل ذبذبات عربة القطار.

وذكر رئيس شرطة الخيالة شيئًا عن اعتراض سبيل العدالة.

وهنا قلت إن لورا لم تتعد عامها الخامس عشر، ولا يمكن اعتبارها مسئولة بنفس قدر مسئولية الكبار. وقلت أيضًا إن ما ذكرته لهم شيئًا خاصًا، فإذا خرج عن حدود هذه الحجرة – كأن يصل إلى الصحافة على سبيل المثال – فسيعرف أبى من يشكر.

وهنا ابتسم أفراد شرطة الخيالة ونهضوا واستأذنوا بالانصراف؛ فقد كانوا مهذبين باعثين على الاطمئنان. فربما رأوا من عدم اللياقة متابعة ذلك الخط من التحقيقات. ومع ذلك كان لايزال لأبى أصدقاء فى مواقف بالغة السوء.

وبمجرد انصرافهم قلت للورا: "حسن، فأنا أعرف أنك أتيت به إلى هذا المنزل، فالأفضل أن تخبرينى بمكانه."

قالت لورا وشفتها السفلى ترتعش: "وضعته فى القبو البارد"

فقلت: "القبو البارد؟ ما هذا المكان الغبى! ولماذا هناك؟"

"حتى يجد ما يأكله فى حالة الطوارئ." قالت لورا ذلك وانفجرت فى البكاء. فاحتضنتها بين ذراعى وراحت تنشج على كتفى.

قلت: "ما يكفى ليأكله؟! ما يكفى من المربى والجيلى والمخللات؟! حقًا يا لورا إنك تستحقين الجائزة، فأنت أسوأ مما أتخيل!" ثم ضحكنا معًا، وبعد أن ضحكنا ومسحت لورا دموعها قلت: "لابد أن نخرجه من هناك. فماذا لو نزلت رينى إلى هناك من أجل برطمان من المربى وما إلى ذلك ثم عثرت عليه بالصدفة؟ ستصاب بسكتة قلبية."

وضحكنا أكثر. فقد كنا فى غاية التوتر. ثم قلت إن العلية ستكون أفضل، فلا أحد يصعد إليها. وقلت إن باستطاعتى تدبر الأمر، والأفضل أن تصعد لتنام، فالتوتر باد عليها، وقد بلغ منها الإرهاق والتعب مبلغه. فتنهدت مثل طفل متعب، ثم

نفذت ما قلت. فقد كانت فى غاية التوتر وهى تحمل على كاهلها هذا القدر من المعلومات مثل زكيبة مملوءة بالشرور، والآن وقد سلمتها لى تشعر بالحرية لتنام.

هل كنت أرى أننى إنما أفعل ذلك حفاظًا عليها – كى أساعدها، اهتمامًا منى بها، كما هو شأنى معها دائمًا؟

نعم. هذا ما كنت أعتقده بالتأكيد.

انتظرت حتى فرغت رينى من المطبخ، وذهبت للنوم. وهنا هبطت السلالم إلى القبو فى البرد والعتمة ورطوبة العناكب. ومررت بباب قبو تخزين الفحم والباب المغلق لقبو تخزين الخمور. كان باب القبو البارد مغلقًا بمزلاج. فطرقت ثم رفعت المزلاج ودخلت. سمعت صوت هرولة. كان المكان مظلمًا بالطبع، ولا ضوء هناك سوى ذلك المنبعث من الممر. ولمحت عظام الأرنب المتبقية من العشاء الذى كانت لورا قد أحضرته فوق برميل التفاح، فبدا مثل مذبح بدائى.

لم أره فى البداية، إذ كان خلف برميل التفاح. وبعدها استطعت أن أجعله يظهر، ركبة ثم قدم. فهمست: "الأمر على ما يرام، ولا أحد سواى."

فرد بصوته الطبيعى: "آه الأخت المحبة."

فقلت: "ش اصمت" وكان مفتاح النور سلسلة تتدلى من المصباح، فجذبتها وأضاء النور. كان أليكس توماس يفرد قامته ويخرج مسرعًا من وراء البرميل. كان مقرفصًا يرمش بعينيه، بالغ الخجل مثل رجل ضبط وسرواله مفتوحًا.

قلت له: "لابد وأن تخجل من نفسك"

فرد مبتسمًا: "أرى أنك أتيت لتلقى بى خارجًا، أو لتسلمينى للسلطات المختصة."

فقلت له: "لا تكن أحمق. بالتأكيد لا أريد أن يكتشف أحد أنك هنا. فأبى لا يحتمل الفضيحة."

فقال: "ابنة أحد الرأسماليين تساعد قاتلاً بلشفيا؟ اكتشاف عش للحب بين برطمانات الجيلى؟ أتقصدين ذلك النوع من الفضيحة؟"

فتجهمت. فالأمر ليس مادة للمزاح.

قال: "هونى عليك. لا ننوى أنا ولورا شيئًا. فهى طفلة كبيرة، ولكنها قديسة بالممارسة، وأنا لا أخطف الأطفال." وكان قد وقف وأخذ ينفض التراب عن ملابسه.

فسألته: "إذن لماذا تخفيك؟"

"مسألة مبدأ. فمجرد أن طلبت، كان عليها أن تقبل. فأنا ضمن التصنيف المناسب لها."

"أى تصنيف؟"

قال: "أعتقد أنه "الأقل بين هؤلاء" على حد قول المسيح" انتابتنى منتهى الريبة حيال ذلك. وبعدها قال إن لقاءه بلورا كان محض مصادفة. فقد صادفها فى المستنبت الزجاجى. فماذا كان يفعل هناك؟ من الواضح أنه كان يختبئ هناك. وقال أيضًا إنه تمنى لو استطاع التحدث معى.

"أنا؟ ولماذا أنا تحديدًا؟"

"أعتقد أنك تعرفين ماذا تفعلين. فيبدو أنك من النوع العملى. أما أختك فهى أقل..."

"لقد أدارت لورا الأمور على نحو جيد "قلتها باقتضاب، فأنا لا أحب أن ينتقد الآخرون لورا – غموضها وبساطتها واستهتارها. فأنا وحدى التى أنقدها. وقلت: "كيف جعلتك تمر من هؤلاء الرجال الواقفين على الأبواب وتدخل المنزل؟ أقصد الرجال ذوى المعاطف."

فقال حتى الرجال ذوو المعاطف يضطرون إلى التبول أحيانًا".

صدمتنى تلك السوقية – فهى تتعارض مع تهذيبه فى حفل العشاء – لكن ربما تكون مثالاً على سخرية الأيتام التى تنبأت بها رينى. فقررت تجاهل ذلك. وقلت: "فهمت أنك لم تشعل الحريق"، وكنت أعنى السخرية ولكنها لم تؤخذ على هذا النحو.

قال: "لست بمثل هذه الحماقة. فأنا لا أشعل النيران بلا سبب."

"يعتقد كل الناس أنك الفاعل."

"ولكنى لست كذلك، إلا أن هذا الرأى يناسب أناسًا بعينهم."

"من هم هؤلاء الناس؟ ولماذا؟" كنت ألح عليه هذه المرة، فقد حيرنى الأمر.

"قال: "استخدمى عقلك." ولكنه لم يفصح عن أكثر من ذلك.

العلية

أحضرت شمعة من المجموعة المخبأة فى المطبخ لإيقادها وقت انقطاع التيار، وأضأتها، وقدت أليكس توماس خارج القبو عبر المطبخ، ثم صعدت به السلالم الخلفية ثم السلالم الأضيق نحو العلية حيث وضعته خلف الصناديق الثلاثة الخاوية. وأحضرت من أجل فراشه ثلاثة ألحفة قديمة كانت مخزنة فى قلب شجرة الأرز هناك.

وقلت له: "لن يأتى أحد، وإذا حدث انزلق تحت الألحفة. ولا تتجول فى المكان، فقد يسمعوا وقع خطواتك. ولا تضىء النور." فقد كان فى العلية مصباح واحد يضاء بجذب سلسلته المتدلية، تمامًا مثل ذلك الموجود بالقبو البارد. وأضفت قائلة: "سنحضر لك شيئًا لتأكله فى الصباح." وكنت لا أدرى كيف سأحافظ على هذا الوعد.

وهبطت إلى أسفل ثم عدت ثانية ومعى مبولة وضعتها دون أن أنبس بكلمة. وكانت تلك من التفاصيل التى طالما انزعجت بشأنها فى قصص رينى عن الخاطفين - فماذا عن التيسيرات؟ فأحد الحلول أن يغلق على سرداب، والحل الآخر أن أجلس القرفصاء فى أحد الأركان رافعة تنورتى.

أومأ أليكس توماس برأسه وقال: "فتاة ماهرة. إنك صديقة بالفعل. كنت أعرف أنك عملية."

وفى الصباح عقدت أنا ولورا مؤتمرًا هامسًا فى حجرة نومها. ناقشنا فيه كيفية إحضار الطعام والشراب، والحاجة إلى المراقبة، وتفريغ المبولة. ستتظاهر إحدانا بالقراءة وتبقى للحراسة بحجرتى تاركة الباب مفتوحًا، حيث يمكننا رؤية الباب المؤدى إلى سلالم العلية. أما الأخرى فستتولى إحضار الأشياء وحملها. واتفقنا على تولى هذه المهمة بالتناوب. أما العقبة الكبرى فستكون رينى، فمن المؤكد أنها ستتوجس ريبة إذا بالغنا فى المكر والمداراة.

لم تكن لدينا خطة لتنفيذها فى حالة اكتشاف أمرنا. فلم نعد أبدًا مثل هذه الخطط. فالأمور كلها ارتجالية.

كان فطور أليكس توماس الأول من كسرات الخبز المتبقية منا. فالقاعدة أننا لا نأكل كسرات الخبز إلا بعد إلحاح، فكانت لاتزال من عادة رينى أن تقول: "تذكرا الجياع من الأرمن" -لكن عندما نظرت رينى إلينا تلك المرة كانت كسرات الخبز قد اختفت. فقد وضعتها لورا فى جيب تنورتها الزرقاء.

وبينما كنا نسرع صاعدين السلالم همست: "لابد أن يكون أليكس توماس من الأرمن الجياع." ولكن لورا لم تجد فى ذلك مزاحًا إنما رأته وصفًا دقيقًا.

كانت أوقات زيارتنا فى الصباح والمساء. فكنا نغير على خزانة الطعام، وننقذ البقايا. فقد هربنا إلى أعلى بعض الجزر النيئ، وقشر لحم خنزير مدخن، وبقايا بيض

مسلوق، وقطع خبز ملفوفة وبداخلها زبد ومربى. ومرة أحضرنا له عظمة ساق دجاجة محمرة – ضربة جسورة. وكنا نأتيه أيضًا بأكواب من الخمر وأقداح من اللبن والقهوة الباردة. وكنا نحمل الأطباق الفارغة ونخبئها تحت فراشنا حتى يخلو المكان ثم نغسلها فى حوض حمامنا الخاص قبل إعادتها إلى خزانة المطبخ. (كنت أنا من تفعل ذلك، أما لورا فبالغة الحماقة). فلم نستخدم الأوانى الفاخرة من الصينى، فماذا لو كسر شيئًا منها؟ حتى أوانى الاستخدام اليومى كان من الممكن ملاحظتها، فرينى تتبع كل شىء. ولذلك كنا شديدى الحرص فى استخدام أدوات المائدة.

هل كانت رينى تشك فينا؟ أعتقد ذلك. فمن عادتها أن تدرك ما إذا كنا ننوى شيئًا. ولكنها كانت تدرك أيضًا متى يكون من الحصافة ألا تعرف تمامًا ماذا عساه أن يكون ذلك الشىء. أرى أنها كانت تستعد للقول بأنه ليس لديها أدنى فكرة فى حالة ضبطنا. ففى مرة طلبت إلينا أن نكف عن سرقة الزبيب؛ وقالت إننا نتصرف وكأن أمعاءنا مثقوبة، لكن كيف لنا هذه السيقان الهزيلة فجأة؟ وغضبت من أجل اختفاء ربع فطيرة القرع العسلى. وذكرت لورا أنها أكلتها، فقد شعرت بجوع مفاجئ.

سألت رينى بحدة: "أكلتيها كلها حتى الحواف المقرمشة؟" فلورا لم تأكل أبدًا حواف فطائر رينى. فلا أحد يأكلها، ولا حتى أليكس توماس.

قالت لورا: "أطعمتها للطيور." وكان تلك هى الحقيقة، فقد فعلت ذلك لاحقًا.

فى البداية كان أليكس توماس ممتنا لجهودنا. فقال إننا أصدقاء طيبون، ولولانا لتعرض لكثير من المتاعب. وهنا طلب سيجارة، إذ كان فى أمس الحاجة للتدخين. فأحضرنا له واحدة من الصندوق الفضى فوق البيانو، وحذرناه بضرورة أن يقصر نفسه على سيجارة واحدة فى اليوم حتى لا تكتشف رائحة الدخان. (ولكنه تجاهل ذلك التحذير.)

وبعد ذلك قال إن أسوأ ما فى العلية أنه لا يستطيع الحفاظ على نظافته. كما ذكر أنه يشعر بأن فمه كالبالوعة. فسرقنا له فرشاة الأسنان القديمة التى كانت رينى تستخدمها لتنظيف الفضيات وفركناها لتنظيفها بأقصى ما استطعنا. فقال إنها أفضل من لا شىء. ومرة أحضرنا له حوض غسيل ومنشفة ودورق به ماء دافئ. وبعدها

انتظر حتى خلا المكان بالأسفل ثم ألقى الماء القذر من نافذة العلية. كانت السماء تمطر فى ذلك الوقت، ومن ثم كانت الأرض مبتلة، فلم يلحظ أحد آثار المياه التى ألقاها. وبعد ذلك بفترة، عندما خلا المكان تمامًا سمحنا له بهبوط سلالم العلية وأغلقنا عليه الحمام الذى نشترك فيه نحن الاثنتان حتى يستحم جيدًا. (وكنا قد أخبرنا رينى بأننا سنساعدها بأن نأخذ على عاتقنا تنظيف هذا الحمام، فكان تعليقها: "العجائب لا تنتهى!")

وبينما كان أليكس توماس يستحم جلست لورا فى حجرة نومها وبقيت أنا فى حجرتى، تحرس كلانا باب الحمام. حاولت ألا أفكر فيما يحدث هناك. فصورته متجردًا من ملابسه تمامًا كانت شديدة الوطأة على نفسى حتى إننى لم أحتمل تأملها.

لم تكن بلدتنا وحدها التى تصدر فيها أليكس توماس افتتاحيات الصحف. وصفوه بأنه محرض وقاتل من أسوأ أنماط القتلة، ومن أولئك الذين يدفعهم التعصب إلى القتل بدم بارد. وقالوا إنه حضر إلى بورت تيكونديروجا ليتسلل إلى القوى العاملة ويزرع بذور الفرقة والنزاع، وقد نجح بالفعل فى ذلك، كما يشهد الإضراب العام وأحداث الشغب. ويرونه نموذجًا لمساوئ التعليم الجامعى، فهو شاب ذكى يتجاوز ذكاؤه حدود منفعته، انحرفت أفكاره بتأثير الصحبة السيئة والكتب الأكثر سوءًا. واقتبسوا على لسان والده بالتبنى، وهو قس من أتباع الكنيسة المشيخية، قوله إنه يصلى كل ليلة من أجل روح أليكس، ولكن هذا جيل من الأفاعى. ولم يغفل هذا القس قصة إنقاذه لأليكس من أهوال الحرب. فقال إن أليكس كان جذوة مشتعلة أنقذها من النار، ولكنها دائمًا مغامرة أن تؤوى غريبًا فى بيتك. وهو بذلك يلمح إلى أنه من الأفضل ترك تلك الجذوات تحترق فى النار دون إنقاذها.

وفوق ذلك طبع البوليس لافتة إعلانية للبحث عن أليكس، وألصقوها فى مكتب البريد وغيره من الأماكن العامة. ومن حسن الحظ أن الصورة المطبوعة بها لم تكن واضحة؛ فيبدو فيها أليكس رافعًا يده أمامه مما يخفى جزءًا من وجهه. إنها

الصورة المنشورة بالجريدة والتى كان إليوود ميوراى قد التقطها لثلاثتنا فى نزهة طعام مصنع الأزرار. (وبالطبع قصصتُ أنا ولورا من جانبى الصورة.) أشاع إليوود ميوراى أن بإمكانه طبع صورة أفضل منها مستخدمًا النيجاتيف، لكن عندما ذهب للبحث عنه وجده قد اختفى. ولم يكن ذلك مفاجأة، فقد دمرت أشياء عديدة عندما تهشم مكتب الجريدة.

أحضرنا إلى أليكس قصصات الجرائد، وإحدى اللافتات الإعلانية التى تنادى بالبحث عنه، فلقد اختلستها لورا من على أحد أعمدة التليفونات. فقرأ ما كتب عنه فى فزع وحزن وكل ما قاله: "إنهم يريدون رأسى على طبق."

وبعد عدة أيام سأل ما إذا كان بوسعنا أن نأتى إليه ببعض الورق للكتابة. كانت لدينا كومة من كراسات التدريبات الباقية من أيام مستر إيرسكين، فأتيناه بها ومعها قلم رصاص.

وسألت لورا: "ترى ماذا يكتب فى رأيك؟" لم نستطع أن نخمن. فربما يكتب يوميات سجين أو يكتب دفاعًا عن نفسه؟ أو لعله يكتب خطابًا لشخص يستطيع إنقاذه. ولكنه لم يطلب منا إرسال شىء بالبريد، ومن ثم لا يمكن أن يكون ما يكتبه خطابًا.

بفضل رعايتنا لأليكس توماس توثقت العلاقة بينى وبين لورا، وصرنا أكثر ارتباطًا مما كنا عليه فى فترة سابقة. لقد كان سرنا الذى يجعلنا نشعر بالذنب وأيضا مشروعنا الفاضل – ذلك الشىء الذى استطعنا أخيرا الاشتراك فيه معًا. فكنا سامرتين صغيرتين صالحتين ننقذ من الخندق الرجل الذى أحاط به اللصوص. كنا مارى ومارثا نطبب – لن أقول المسيح فحتى لورا لم تذهب إلى هذا الحد، لكن كان دور كل منا واضحًا. فكنت أنا فى دور مارثا أنشغل بشئون المنزل فى الخلفية، وهى فى دور مارى تجلس فى تفان خاص عند قدمى أليكس. (أى شىء

يفضل الرجل؟ البيض ولحم الخنزير أم العبادة؟ أحيانا هذا، وأحيانا ذاك، فالأمر يعتمد على مدى جوعه.)

كانت لورا تحمل فضلات الطعام صاعدة بها السلالم إلى العلية وكأنها تحمل القرابين إلى معبد، وتهبط حاملة المبولة وكأنها رفات قديس أو شمعة ثمينة على وشك أن تخبو.

وفى المساء بعد أن نطعم أليكس توماس ونسقيه، كنا نتحدث عنه – كيف بدا فى ذلك اليوم، ما إذا كان بالغ النحول، وما إذا كان يسعل – فلم نرد له أن يمرض. وكنا نناقش ما يحتاجه وما علينا أن نسرقه له فى اليوم التالى. وبعدها تأوى كلانا إلى فراشها الموقر. لا أدرى فيم كانت تفكر لورا، ولكنى كنتُ أتخيله فى العلية فوقى مباشرة، يحاول هو الآخر أن ينام، يتقلب فى فراشه من الألحفة البالية عطنة الرائحة، ثم ينام، وبعدها يحلم أحلامًا طويلة عن الحرب والنار، وعن القرى مقطعة الأوصال تتناثر شذراتها.

لا أدرى متى تنتقل أحلامه إلى الملاحقة والهرب؛ ولا أدرى أين ألتحق به فى هذه الأحلام، نهرب معا متشابكى الأيدى ساعة الغسق، نفر من الأبنية التى تشتعل بها النيران، ونجرى عبر الحقول المحروثة فى شهر ديسمبر، والأرض تملؤها الجذامة حيث يبدأ الصقيع أن يغشاها، ونهرع نحو الحدود المظلمة للغابات البعيدة.

لم يكن هذا حلمه فى الحقيقة، فأنا أعرف ذلك. لقد كان حلمى أنا. رأيت أفيليون تحترق، وتتناثر شذراتها فوق الأرض – أطقم الصينى الثمينة، وعاء السيفر المرسوم عليه أوراق الورد، وصندوق السجائر الفضى الموضوع فوق البيانو، بل والبيانو نفسه، وزجاج النوافذ المعشق فى حجرة الطعام، وعلى القدح الأحمر بلون الدماء تتهشم إيسوليت بعنف – إنها كل الأشياء التى كنت أتوق للفرار منها حقيقة لكن ليس بالدمار. فلقد رغبت فى ترك المنزل، لكن أردته أن يبقى مكانه لا يتغير فيه شىء ينتظرنى حتى أعود إليه إن أردت.

في أحد الأيام قررت أن أصعد إلى العلية بمفردى، وكانت لورا قد خرجت – فلم يعد الخروج خطرا عليها بعد أن رحل الرجال ذوو المعاطف ورجال شرطة الخيالة أيضا، وعاد النظام إلى الشوارع مرة أخرى. كان معى شيء أقدمه له، وهو حفنة أملأ بها جيبى من الزبيب والتين المجفف، انتشلتها من المواد المعدة لإعداد بودينج الكريسماس. استطلعت المكان فوجدت رينى منهمكة مع مسز هيلكوت فى المطبخ، فذهبت إلى باب العلية وطرقته. وكانت لدينا طرقات متعارف عليها، طرقة واحدة يتبعها ثلاث طرقات متتابعات. وبعدها صعدت السلّم الضيق إلى العلية على أطراف أصابعى.

كان أليكس توماس مقرفصًا بجوار النافذة البيضاوية الصغيرة، محاولاً الاستفادة بما هو متاح من ضوء النهار. ويبدو أنه لم يسمع طرقاتى، فكان مستديرًا بظهره نحوى وملتحفًا بأحد الألحفة حول كتفيه. يبدو أنه كان يكتب. وشممت رائحة دخان، أجل إنه كان يدخن فكانت السيجارة فى يده. رأيت أنه لا يجب أن يفعل ذلك قريبًا من اللحاف.

لم أعرف تمامًا كيف أعلن عن وجودى. فقلت: "أنا هنا." فقفز من مكانه وألقى السيجارة، فسقطت على اللحاف. فشهقت وركعت على ركبتى أطفئ النار – فأنا الآن على دراية بصورة أفيليون تلتهمها النيران. فقال: "لم يحدث شيء." وكان هو أيضًا راكعًا على ركبتيه يبحث كلانا عن أى شرارة متبقية. وبعدها أذكر أننا كنا على الأرض وقد أمسكنى وراح يقبلنى فى فمى.

لم أتوقع ذلك.

هل توقعت ذلك؟ هل كان الأمر مفاجئًا، أم كانت هناك مقدمات: لمسة أو نظرة مثلاً؟ هل أتيتُ بما يثيره؟ لا أتذكر شيئًا من ذلك، لكن هل ما أتذكره هو ما حدث بالفعل؟

والآن ها أنا الحية الوحيدة بينهم.

وعلى كلٍ كان الأمر تماما كما قالت رينى عن الرجال فى قاعات السينما، غير أن ما شعرت به لم يكن حفيظة وغضبًا جامحًا. أما باقى ما ذكرته فكان صادقًا تماما: فقد تسمرت فى مكانى ولم أستطع حراكًا وشعرت أن لا ملاذ لى. صارت عظامى شمعًا منصهرًا. كان قد فك كل أزرار ملابسى تقريبًا قبل أن يسعنى النهوض وأسحب نفسى بعيدًا لأهرب.

فعلت ذلك دونما كلمة. وبينما كنت أهبط سلالم العلية مهرولة، أدفع شعرى للوراء وأدس بلوزتى فى التنورة؛ داهمنى انطباع بأنه يضحك ساخرًا منى من وراء ظهرى.

لم أكن أعرف بالضبط ماذا يمكن أن يحدث إذا سمحت بأن يحدث هذا مرة أخرى، لكن مهما كان الأمر فهو خطر، على الأقل بالنسبة لى. ربما كنت سأطلبه، ربما كنت سأقبل ما كان فى طريقه إلىّ، ربما كنت سأصبح حادثة تنتظر الوقوع. لا أستطيع أن أكون بمفردى مع أليكس توماس فى العلية مرة أخرى، ولا يمكننى أن أسر إلى لورا بالسبب. سيجرحها ذلك كثيرًا ولن تقدر أبدًا على فهمه. (وكان هناك احتمال آخر، فربما كان يفعل أشياء من هذا القبيل مع لورا. لكن كلا، لا أستطيع أن أصدق ذلك. فهى لم تكن لتسمح بذلك أبدًا. أليس كذلك؟)

قلت للورا: "يجب أن نخرجه من المدينة. فلا يمكن أن نستمر فى ذلك. فلابد أنهم سيلاحظون."

قالت لورا: "ليس بعد. فمازالوا يراقبون مسارات القطارات." وكانت فى وضع يتيح لها معرفة ذلك، إذ كانت لاتزال تقوم بعملها مع مطبخ حساء الكنيسة.

قلت: "حسن، فمكان آخر فى المدينة إذن."

"أين؟ لا يوجد مكان آخر. وهذا أفضل مكان، فهو المكان الوحيد الذى لم يفكروا فى البحث فيه أبدًا."

ذكر أليكس توماس أنه يخشى أن تعوقه الثلوج عن الرحيل. وقال إن قضاء الشتاء فى العلية يدفعه للجنون، إنه بدأ يشعر بالتوتر. ومن ثم فسيسير مسافة ميلين بمحاذاة السكك الحديدية ويقفز إلى قطار بضائع – فهناك ضفة مرتفعة مما يجعل الأمر سهلاً. وإذا استطاع أن يصل إلى تورنتو يمكنه الاختباء، فلديه أصدقاء

هناك، وهم أيضا لديهم أصدقاء. وبعدها يعبر إلى الولايات المتحدة بطريقة أو بأخرى حيث يصبح فى أمان. وحسبما قرأ فى الصحف فإن السلطات تشك فى وجوده هناك بالفعل. فمن المؤكد أنهم لا يبحثون عنه الآن فى بورتيكونديروجو.

وفى الأسبوع الأول من يناير رأينا أنه يمكنه الرحيل بأمان. وسرقنا له معطفًا قديمًا من معاطف أبى من الركن الخلفى فى حجرة الملابس، ولففنا له غداء، خبزا وجبنًا وتفاحة، ووضعناه على طريق السفر. (بعد ذلك اكتشف أبى فقد المعطف، فأخبرته لورا بأنها منحته لمسكين بائس، وهو جانب من الحقيقة. وحيث إن هذا الفعل يتفق تمامًا مع شخصيتها فلم يناقشها فيه؛ إنما زمجر ودمدم.)

فى ليلة رحيل أليكس أخرجناه من الباب الخلفى. وقال إنه يدين لنا بالكثير، وإنه لن ينسى ذلك. واحتضن كلاً منا حضنًا أخويًا استغرق وقتًا متساويًا مع كلينا. كان واضحًا أنه يريد أن ينهى أمره معنا. وإلى جانب أن الوقت كان ليلاً إلا أن الأمر كان من الغرابة بمكان، وكأنه ذاهب إلى المدرسة. وبعدها بكينا كما تفعل الأمهات. انتابنا شعور بالراحة لأنه راحل وأننا تخلصنا من مسئوليته – لكن كان هذا أيضاً مثل شعور الأمهات.

ترك أليكس بعد رحيله إحدى كراسات التدريبات الرخيصة التى كنا أعطيناها له. وبالطبع فتحناها على الفور لنرى ما إذا كان كتب فيها شيئًا. فماذا كنا نأمل أن يكتب؟ عبارة وداع يعبر فيها عن امتنان لا ينتهى؟ مشاعر كريمة تجاهنا؟ كنا نرجو أن نجد شيئًا من هذا القبيل.

وهذا ما وجدنا:

Anchoryne nacrod
Berel onyxor
Carchineal porphyrial
Diamite quartzephyr
Ebonort rhint

Fulgor	sapphyrion
Glutz	tristok
Hortz	ulinth
Iridis	vorver
Jocynth	wotanite
Kalkil	xenor
Lazaris	yorula
Malachont	zycron

سألت لورا: "هل هى أحجار كريمة؟"

"كلا. فهى لا تبدو صحيحة"

"هل هى لغة أجنبية؟"

لم أكن أعرف. لكن رأيت أن هذه القائمة تبدو مثل شفرة، مما أثار شكوكى. فربما كان أليكس توماس (رغم كل شيء)نوعًا من الجواسيس، كما اتهمه الآخرون.

فقلت: "أعتقد أننا يجب أن نتخلص منها."

ردت لورا بسرعة: "سأفعل. سأحرقها فى مدفأتn" وطبقتها ودستها فى جيبها.

وبعد رحيل أليكس توماس بأسبوع حضرت لورا إلى غرفتى. وقالت: "إليكِ هذه." وأعطتنى نسخة من صورتنا نحن الثلاثة، والتى كان إليوود ميوراى قد التقطها لنا فى نزهة الطعام. ولكنها قصت نفسها منها، ولم تبق سوى يدها. فلم تستطع التخلص من هذه اليد دون إحداث خط متعرج. وهى لم تلون هذه الصورة على الإطلاق، فيما عدا يدها المقصوصة، ولونتها بالأصفر الفاتح.

فسألتها: "بالله عليك يا لورا، من أين أتيت بها؟"

قالت: "طبعت عدة نسخ عندما كنت أعمل مع إليوود ميوراى. وحصلت على النيجاتيف أيضًا."

لم أعرف وقتها ما إذا كنت أغضب أم أنزعج. فقص الصورة بهذه الطريقة شيء فى غاية الغرابة. فمنظر يد لورا بالأصفر الفاتح تزحف نحو أليكس فوق العشب مثل سرطان بحر متوهج اقشعر له جسدى وارتعدت أوصالى.

"أى شيء فى العالم يدفعك إلى ذلك؟"

قالت: "لأن هذا ما تودين تذكره." وكان هذا من الصفاقة بمكان حتى إننى شهقت. فرمقتنى بنظرة مباشرة، لو صدرت عن شخص آخر لاعتبرتها تحديًا. ولكن هذه هى لورا: لا يحمل صوتها امتعاضًا ولا غيرة. فمن ناحيتها هى ببساطة تذكر حقيقة.

وقالت: "لا تنزعجى، فالأمر على ما يرام، فلدى نسخة أخرى لنفسى."

"وأنا لست فى نسختك؟"

فقالت: "كلا. فأنت لست فيها. ولا جزء منك فيما عدا يدك."

وكان هذا أقرب ما سمعته منها إلى الاعتراف بحبها لأليكس توماس. وذلك فيما عدا اليوم السابق على وفاتها. ولكنها حتى فى ذلك اليوم لم تستخدم كلمة الحب. كان يجب أن ألقى بتلك الصورة المشوهة بعيدًا، ولكنى لم أفعل.

واستقرت الحياة فى نظامها المعتاد الرتيب. وبموافقة ضمنية بيننا، لم نتحدث أنا ولورا عن أليكس توماس بعد ذلك. فلدى كل منا الكثير مما تعجز عن البوح به. فى البداية اعتدت على الصعود إلى العلية – وكانت رائحة دخان خفيفة لاتزال عالقة بالمكان – ولكنى كففت عن ذلك بعد فترة إذ وجدته دون جدوى.

وشغلنا أنفسنا بشئون الحياة اليومية مرة أخرى بقدر الإمكان. وفى ذلك الوقت تحسنت أحوالنا المالية بعض الشيء، فقد حصل والدى على قيمة وثيقة التأمين تعويضًا عن احتراق مبنى المصنع. ومع أنها لم تكن كافية، إلا أنها جعلتنا "نتنفس قليلاً" كما قال أبى.

القاعة الإمبراطورية

يوشك فصل الصيف على الانتهاء، والأرض تدور مبتعدة عن الضوء؛ وتحت الشجيرات المزروعة على جانبى الطريق نفايات ورقية من آثار الصيف المنجرف نحو الرحيل وكأنها نذير بالثلوج. الهواء يجف ليعيدنا لحياة صحراوية يعتمد الشتاء فيها على التدفئة المركزية. لقد بدأت أطراف أصابعى تتشقق بالفعل، ووجهى يعلوه مزيد من الذبول. لو استطعت رؤية جلدى فى مرآة – لو استطعت أن أقترب بما يكفى، أو أبتعد بما يكفى – لرأيته متصلبًا بخطوط رفيعة تملأ ما بين التجاعيد الرئيسية مثل منحوتات صغيرة من العاج.

حلمت البارحة بأن ساقىّ يغطيهما الشعر. ليس شعرًا خفيفًا ولكنه كثيف – شعر داكن ينتشر فى خصلات وعروق ليفية، وأنا أرقبه ينتشر ليغطى فخذى مثل فروة حيوان. حلمت أن الشتاء قادم، وهكذا أدخل فى بيات شتوى. ففى البداية تنمو لى فروة، ثم أزحف إلى داخل كهف وبعدها أنام. بدا كل شيء مألوفًا وكأننى فعلته من قبل. وهنا تذكرت، حتى فى الحلم، أننى لم أكن أبدًا امرأة مشعرة بهذه الطريقة، وأننى الآن صلعاء مثل سمندل الماء، أو ساقاى على الأقل هكذا؛ ومن ثم فرغم أنهما ملحقتان بجسدى، إلا أنه لا يمكن أن أكون أنا صاحبة هاتين الساقين المشعرتين. أضف إلى ذلك أننى لا أشعر بهما. فهما ساقا شيء آخر أو شخص آخر. وكل ما على فعله أن أتتبع الساقين، أمرر يدى عليهما لأكتشف لأى شيء أو لمن هما.

استيقظت على هذا الإنذار، أو هكذا اعتقدت. حلمت بأن ريتشارد عاد. أسمع صوت أنفاسه فى الفراش بجانبى. ومع ذلك فلا أحد فى الفراش.

كنت قد استيقظت حقيقة بالفــعل. لكن كانت ساقاىّ نائمتين: فقد كنت أرقد فى التواء. ورحت أتحسس المصباح بجانب الفراش. ونظرت فى ساعة يدى؛

فوجدتها الثانية صباحًا. كان قلبى يدق بشدة ويؤلمنى كأننى كنت أجرى. وفكرت أن ما يقولونه حقًا: "كابوس قد يقتلك".

وأسرعت أشق طريقى فى مشقة نحو الورق. فهو الآن سباق بطىء بينى وبين قلبى، ولكنى أنوى أن أصل هناك قبله. هناك أين؟ نهاية السباق أم "النهاية"؟ واحدة أو الأخرى، فكلاهما غاية أو ما شابه.

يناير وفبراير عام١٩٣٥. عز الشتاء. تتساقط الثلوج ويصعب التقاط الأنفاس، تشتعل الأفران ويتصاعد الدخان، وتقعقع أجهزة التدفئة المائية. تنحرف السيارات عن الطريق وتسقط فى حفر عميقة، وييأس قائدوها من تلقى المساعدة، فيبقون المحركات دائرة ويموتون اختناقًا. يتم العثور على بائسين مشردين موتى على مقاعد الحدائق وفى مخازن البضائع المهجورة وقد تصلبت أجسادهم مثل دمى عرض الأزياء، وكأنما هم يقفون فى نافذة عرض أحد المحلات إعلانًا عن الفقر. أما الجثث التى لا يمكن دفنها لاستحالة حفر قبورها فى الأرض المتصلبة كالحديد فتنتظر دورها فى الأبنية الملحقة بمتعهدى الجنازات الذين يصيبهم التوتر. وتقوم الفئران بعملها على خير وجه. وأمهات وأطفال ممن يعجزون عن إيجاد عمل أو دفع أجور منازلهم يلقى بهم إلى الثلوج فى الخارج مع كل ما لهم من أشياء. ويتزحلق الأطفال على بركة الطاحونة المتجمدة الممتدة من نهر اللفتوا، وقد اختفى اثنان منهم فى الثلوج وغرق آخر. وتتجمد المواسير وتنفجر.

أصبح التباعد بينى وبين لورا فى تزايد. حقيقة قلما كانت تظهر؛ فقد كانت تسهم فى جولات الإغاثة التى تقوم بها الكنيسة المتحدة، أو هكذا قالت. قالت رينى إنه اعتبارًا من الشهر القادم ستعمل لدينا ثلاثة أيام فى الأسبوع، فقدماها تؤلماها، وكانت تلك طريقتها لتعتيم الحقيقة بأننا لم نعد قادرين على دفع راتبها للعمل بدوام كامل. كنت أعرف ذلك، فقد كان واضحًا وضوح الأنف على الوجه، مثل الأنف على وجه أبى والتى كانت تبدو مثل إشراقة الصباح بعد تحطم قطار. فى الفترة الأخيرة كان يقضى وقتًا طويلا فى برجه العلوى الصغير.

أصبح مصنع الأزرار خاويًا، فقد احترق وتبعثرت محتوياته. ولم يكن لدينا المال لإصلاحه؛ فقد أحجمت شركة التأمين عن الدفع، معددة الظروف الغامضة

المحيطة بالحريق المتعمد. وتناقلت الأقوال المهموسة بأن الأمر ليس كما بدا عليه، بل ألمح البعض إلى أن أبى أشعل الحريق بنفسه، وهو ادعاء كاذب وافتراء. وكان المصنعان الآخران لا يزالان مغلقين، وكان أبى يقدح زناد فكره ليجد طريقة لفتحهما. فكان يذهب إلى تورنتو مرارًا من أجل العمل. وكان أحيانًا يصحبنى معه، ونقيم فى فندق رويال يورك، وكان أكبر الفنادق وقتها. وإليه يأتى كل رؤساء الشركات والأطباء والمحامون الذين يحبون الاستمتاع للالتقاء بمعشوقاتهم ويقضون أسبوعًا كاملاً فى سمر ومرح، ولكنى لم أكن أعرف ذلك وقتها.

من الذى كان يدفع لرحلاتنا الترفيهية هذه؟ انتابنى شك بأنه ريتشارد فهو كان حاضرًا فى كل تلك الأوقات، وهو من كان أبى يعمل معه؛ فهو آخر من تبقى من المجال المحدود. وكان العمل يتعلق ببيع المصانع، وهو أمر معقد. فلقد حاول أبى البيع من قبل، لكن فى تلك الأوقات لم يكن أحد يشترى شيئًا، ولا سيما بالشروط التى وضعها. لقد أراد أن يبيع النصيب الأقل. أراد أن يحتفظ بالسيادة. وأراد زيادة رأس المال. لقد أراد إعادة فتح المصانع حتى يجد رجاله عملاً. كان يدعوهم "رجاله"، وكأنه مازال فى الجيش ومازال قائدهم. لم يرد أن يقلل خسائره ويهجرهم، فكما يعلم الجميع، أو كما عرفوا يومًا، أن على القائد أن يغرق مع سفينته. لكن صار الأمر لا يشغلهم. فلقد انتهزوا الفرصة وفروا راحلين إلى فلوريدا.

قال أبى إنه يحتاجنى جانبه "لتدوين الملاحظات" ولكنى لم أقيد شيئًا على الإطلاق. أرى أنى كنت معه ليكون أحد بصحبته – للدعم الأدبى. فمن المؤكد أنه كان فى حاجة إلى ذلك. فقد كان نحيفًا كالعصا ويداه ترتعشان باستمرار، ويبذل مجهودًا كبيرًا لكتابة اسمه.

لم تصحبنا لورا فى تلك الجولات القصيرة، فوجودها لم يكن مطلوبًا. فبقيت فى البلدة توزع الخبز البائت من ثلاثة أيام والحساء المخفف بالماء. وقد أخذت تقتر على نفسها فى تناول الوجبات وكأنها تشعر بأنه لا حق لها فى الطعام.

قالت رينى: "المسيح كان يأكل. كان يأكل كل أنواع الطعام. ولم يقتر."

قالت لورا: "نعم، ولكنى لستُ المسيح."

قالت رينى لى وهى تدمدم: "الحمد لله أن لديها العقل لتعرف كل هذا على الأقل." ووضعت ثلثى الطعام المتبقى من عشاء لورا فى وعاء حفظ الطعام، لأن إلقاءه فى سلة المهملات ذنب وعيب. على مدى كل تلك السنوات كانت رينى تفخر بأنها لا تلقى شيئًا فى المهملات.

لم يعد أبى يحتفظ بسائق خاص، ولم يعد يثق فى قدرته على القيادة. فكنت أسافر وإياه إلى تورنتو بالقطار، ونهبط فى محطة يونيون ثم نعبر الطريق إلى الفندق. كان من المفترض أن أسلى نفسى بعض الشيء فى المساء بينما يذهب هو لعقد الصفقات. ومع ذلك غالبًا ما كنت أمكث فى حجرتى، لأنى كنت أخشى المدينة وأخجل من أثوابى البالية عتيقة الطراز التى أبدو فيها أصغر من سنى الحقيقية. فكنت أقرأ المجلات مثل "مجلة المنزل للسيدات"، "وماى فير". وغالبًا ما كنت أقرأ فيها القصص القصيرة التى تدور حول الحب. فلم أهتم بالطهى أو أنماط الكروشيه، كما كانت تشدنى أيضا النصائح الخاصة بالجمال. وكنت أقرأ كذلك الإعلانات. فرداء به خيوط مطاطية وذو مرونة من الجانبين يجعلنى ألعب القنطرة على نحو أفضل. وكان من الممكن أن أدخن كالمدخنة، فلا يهمنى شيء لأن فمى سيظل نظيفًا. فمادة اسمها لارفيكس تنهى مشاكل فمى. وفى خان بيجوين على بحيرة بايز الجميلة Lake of Bays حيث يشعر المرء بالبهجة فى كل لحظة كنت أقوم بتمرينات رياضية للتخسيس على الشاطئ بمصاحبة أنغام الموسيقى.

بعد انتهاء يوم العمل كنا نذهب نحن الثلاثة – أبى وريتشارد وأنا- لتناول العشاء فى أحد المطاعم. لم أكن أنطق بشيء فى تلك الأوقات، فماذا لدى لأقوله. فكانا يتحدثان فى الاقتصاد والسياسة والكساد والوضع فى أوروبا وما تحققه الشيوعية العالمية من تقدم يبعث على القلق. كان رأى ريتشارد أن هتلر ساعد ألمانيا على أن تستجمع قواها الاقتصادية. وهو لم يؤيد موسيلينى، فهو فى رأيه هاو غير محترف ولا يتعمق الأمور. وكان ريتشارد على وشك الاستثمار فى قماش جديد يصنعه الإيطاليون فى سرية كبيرة من بروتين اللبن بعد تسخينه، لكن لو ابتلت هذه المادة فاحت منها رائحة الجبن، كما يقول، ومن ثم فلن تقبله النساء

فى أمريكا الشمالية أبدًا. وكان يتمنى لو استمر فى صناعة الحرير الصناعى، ولكنه يتجعد إذا ابتل. وذكر أنه سيتابع الأمور بدقة ليلتقط منها ما يبشر بالخير. فمن المؤكد أن هناك شيئًا قادمًا، نوع من القماش الصناعى سيخرج الحرير من دائرة العمل تمامًا، وكذلك القطن إلى حد كبير. فالنساء يردن منتجًا لا يحتاج إلى الكى – يعلقنه على حبل الغسيل ويجف دون أن يتجعد. وهن أيضًا يردن جوارب قوية وشفافة فى نفس الوقت حتى يتباهين بسيقانهن. وسألنى بابتسامة: "أليس كذلك؟" فكان من عادته اللجوء إلىَّ فى الأمور المتعلقة بالنساء.

فأومأت برأسى. دائمًا كنت أومئ برأسى. لم أجد الإنصات أبدًا، ليس فقط لأن هذه الأحاديث كانت تضجرنى، ولكن لأنها أيضًا كانت تؤلمنى. كان يجرحنى أن أرى والدى يوافق على آراء كنت أشعر أنه لا يعتنقها.

قال ريتشارد إنه كان يتمنى لو دعانا إلى العشاء فى منزله، لكن بما أنه أعـزب، فستخرج الأمور على عجل وفى غير إتقان. فهو يعيش فى شقة تنقصها اللمسات الرقيقة، فهو راهب من الناحية العملية. وأضاف بابتسامة: "فما معنى الحياة بلا زوجة؟" بدت هذه العبارة وكأنها اقتباس. أعتقد أنها كانت كذلك.

وفى القاعة الإمبراطورية بفندق رويال يورك عرض ريتشارد علىَّ الزواج. فقد دعانى إلى الغداء أنا ووالدى، لكن فى اللحظة الأخيرة بينما كنا نسير فى أروقة الفندق فى طريقنا إلى المصعد، قال أبى إنه لا يستطيع الحضور، وقال إننى يجب أن أذهب بمفردى.

بالطبع كان أمرًا متفقًا عليه بينهما.

وقال أبى لى: "سيطلب ريتشارد منك شيئا." وكان فى صوته نبرة اعتذار.

فصحت متعجبة: "ياه؟" وخمنت أنه ربما كان شيئًا خاصًا بالكى، ولكنى لم ألق بالاً للأمر. فحسبما أعرف فريتشارد رجل ناضج، إذ كان فى الخامسة والثلاثين وكنتُ فى الثامنة عشرة. ولم يكن به ما يجذبنى إليه.

قال أبى: "أعتقد أنه سيعرض عليك الزواج." وكنا وقتها فى ردهة الفندق. فجلست وصحت فى دهشة: "آه!" وفجأة بدا لى ما كان يجب أن يكون واضحًا من فترة. رغبت فى الضحك، وكأننى أسخر من خدعة. وشعرت بقواى تخور، ولكنى احتفظت بصوتى هادئًا. "وماذا عساى أن أفعل؟"

قال أبى: "لقد وافقت بالفعل، وكما تريدين." ثم أضاف: "يعتمد على ذلك الكثير."

"الكثير؟"

"يجب أن أفكر فى مستقبلكما أنت وأختك إذا حدث لى مكروه. خاصة مستقبل لورا." وكان يعنى بكلامه أننى إذا لم أتزوج ريتشارد فلن يكون لدينا مال. وكان يعنى أيضًا أن كلينا – أنا ولورا – لن نستطيع أبدًا إعالة نفسينا. وقال: "يجب أن أفكر فى المصانع أيضًا. لابد أن أفكر فى العمل. قد يكون الإنقاذ محتملاً ولكن الصيارفة فى أعقابنا. إنهم يلاحقوننا بشدة. ولن ينتظروا أكثر من ذلك." وكان يتكئ على عصاه، ويحملق فى البساط إلى أسفل، فأدركت مدى شعوره بالخجل، وكم هو مهزوم. وأضاف: "لا أريد أن يتقوض كل شىء، لا أريد أن تذهب أدراج الرياح جهود جدك وخمسون أو ستون عامًا من العمل الشاق"

لقد ضيق أبى علىَّ الخناق: "آه الأمر هكذا." وبدا أن لا خيار أمامى.

"لقد أخذوا أفيليون أيضًا. سيبيعونها."

"سيبيعونها؟!"

"إنها مرهونة وغارقة فى الدين إلى أقصى حد."

"آه!"

"قد يحتاج الأمر إلى قدر كبير من العزيمة، قدر كبير من الشجاعة، والقدرة على ابتلاع الزلط، وما شابه."

لم أقل شيئًا

" لم أكن لأدفعك لفعل شيء ترفضينه تمامًا" قالها وهو ينظر إليَّ بعينه السليمة، وقد تجهم وجهه قليلاً، وكأنما لاح له فى التو شيء ذو شأن. لم يكن خلفى سوى حائط مصمت. فلم أقل شيئًا.

"اتفقنا، فليكن ذلك إذن." وبدا أنه استراح، وتابع: "جريفون لديه فطرة سليمة وفكر صائب، وهو فوق كل شيء شخص يعتمد عليه وجدير بالثقة."

"أعتقد ذلك، وهو بالتأكيد يمكن الاعتماد عليه والوثوق به كثيرًا"

"ستكونين بين أيد أمينة، وكذلك لورا بالطبع."

"اطمئن إذن."

هل ألومه؟ كلا، لم أعد إلى لومه. فبالنظر إلى الأمر بعد كل هذا الزمن، أرى أنه فعل ما يمكن اعتباره عملاً مسئولاً، أو ما رآه الناس كذلك آنذاك. فقد فعل أفضل ما فى وسعه.

ولحق بنا ريتشارد كأنما كان ينتظر الإشارة، وتصافح الرجلان. وأخذ ريتشارد يدى وضغط عليها بخفة، ثم صحبنى من مرفقى برفق. هكذا كان يقود الرجال النساء فى تلك الأيام – بالمرفق – وهكذا تمت قيادتى بالمرفق إلى الحجرة الإمبراطورية. قال ريتشارد إنه أراد لو نجلس فى المقهى الفينيسى فهو أكثر إضاءة، وجوه أكثر بهجة، لكن للأسف كان كله محجوزًا.

من الغريب أن أتذكر ذلك الآن، ولكن فندق رويال يورك كان أطول أبنية تورنتو آنذاك، والقاعة الإمبراطورية كانت أكبر قاعة طعام هناك. وكان ريتشارد مغرمًا بالضخامة. وفى القاعة صفوف من أعمدة مربعة ضخمة والسقف مرصع بالفسيفساء، ويتدلى منه صف من الثريات تنتهى كل منها بشرافة سخية ثابتة؛ تشبه الجلد ثقيلة، منتفخة، مجزعة بعض الشيء، مثل حجر الفرفير؛ ذلك هو الوصف الذى يخطر على البال، مع أنها قد لا يكون بها أى منه.

كان الوقت ظهرًا، فى يوم من أيام الشتاء غير المستقرة التى يسطع فيها ضوء أكثر مما يجب. كانت أشعة ضوء الشمس الأبيض تتسلل من بين فتحات الستائر الثقيلة، والتى أعتقد أن لونها كان أحمر داكنًا، لكن من المؤكد أنها كانت من القطيفة. ووراء الرائحة المعتادة فى قاعات الطعام بالفنادق، مثل رائحة الخضار المطهو على البخار والسمك الساخن، كانت هناك رائحة معدن ساخن وقماش يحترق. اختار ريتشارد منضدة فى مكان خافت الضوء بعيدًا عن ضوء النهار المتبجح. وكانت هناك وردة حمراء صغيرة فى مزهرية. ومن فوقها كنت أرمــق ريتشارد بنظرات محــدقة يدفعــنى فضول لمعرفة كيف سيتصرف مع الموقف. فهل سيأخذ يدى مترددًا ويتلعثم؟ لم أكن أعتقد ذلك.

لم أكن أكرهه تمامًا، ولم أكن معجبة به. فلم أكن قد كونت رأيًا متكاملاً عنه، وذلك أنه لم يشغل حيزًا كبيرًا من فكرى أبدًا، وإن كنت قد لاحظت أحيانًا تأنقه المصطنع فى ملابسه. كان مغرورًا أحيانًا، لكن على الأقل لم يكن ما يمكن أن يطلق عليه قبيح الشكل على الإطلاق. رأيت أنه مقبول جدًا. شعرت بدوار خفيف. فمازلت لا أدرى ماذا أفعل.

جاء النادل. وطلب ريتشارد الطعام. وبعدها نظر إلى ساعته، ثم تحدث. لم أسمع سوى القليل مما قال. ابتسم، وقدم لى علبة صغيرة من القطيفة السوداء، وفتحها. ومن داخلها خرج ضوء يتلألأ.

قضيت تلك الليلة راقدة فى التفاف حول نفسى، أرتعد فى فراش الفندق الواسع. قدماى فى برودة الثلج، وساقاى مضمومتان إلى صدرى، وأضع رأسى على جانب من الوسادة، وملاءة السرير البيضاء المنشاة تمتد أمامى إلى مالا نهاية وكأنها القطب الشمالى. كنت أعرف أننى لا أستطيع العبور، لا يمكننى استعادة الطريق والعودة إلى حيث الدفء؛ كنت أعرف أننى بلا اتجاه، كنت أعرف أن الطريق ضاع منى. قد يكتشفنى بعد أعوام فريق مقدام – ملقاة على الطريق،

مشرعة إحدى ذراعى كأننى أقبض على حبال الهواء، وقد جفت ملامحى، وأصابعى قضمتها الذئاب.

كنت أعانى من الرعب، ولكنه ليس رعبًا من ريتشارد لذاته. شعرت وكأن قبة فندق رويال يورك المضيئة قد انتزعت، ومن مكان فوق السماء المظلمة المرصعة بالنجوم تطل كينونة خبيثة ماكرة تتربص بى وترمقنى محدقة. كان الله ينظر إلىّ بعينه ذات الضوء الكاشف نظرة ساخرة غير مبالية. فلقد كان يرقبنى، يرقب بلائى، ويرقب عجزى عن الإيمان به. كانت حجرتى بلا أرضية، وكنت معلقة فى الهواء على وشك السقوط. وكان سقوطى سيصبح بلا نهاية – إلى مهبط بلا قرار.

ومع ذلك فتلك المشاعر المرعبة لا تلح غالبًا على المرء فى ضوء النهار الساطع. عندما يكون فى ريعان الشباب.

القاعة الأركادية

كان الجليد يتساقط خارج النافذة فى الفناء المظلم، محدثًا صوتًا كالقبلات عند ارتطامه بالزجاج. من المتوقع انصهاره، فمازال الوقت فى بداية نوفمبر، ولكنها مجرد مقدمات. ولا أدرى لماذا وجدت الأمر شديد الإثارة. أعرف ما سيأتى بعد ذلك من ذوب الجليد والظلام والإصابة بالإنفلونزا، وانتشار الثلج الأسود وهبوب الرياح وبقع ملحية على الأحذية عالية الرقبة. لكن يبقى شعور بالتطلع لما هو آت: استعداد قلق للقتال. يمكن الخروج فى الشتاء ومواجهته، ثم الهزيمة والتراجع إلى خلف الأبواب. مازلت أتمنى أن يكون فى هذا المنزل مدفأة.

المنزل الذى عشت فيه مع ريتشارد كانت به مدفأة، بل أربع. واحدة منهن فى حجرة نومنا حسبما أتذكر. كانت النيران تلعق الأجساد.

أفك الأكمام المطوية لسترتى, وأشد أطرافها لتغطى كفى يدى، فتصبح مثل القفازات منزوعة الأصابع التى يرتديها بائعوا الخضر وأشباههم للعمل فى البرد.

مازال الوقت خريفًا دافئًا، ولكنى لا أستسلم للدعة فأهمل ما على القيام به. فلابد أن أعد الفرن، وأخرج رداء النوم الصوفى، وأخزن بعض الفاصوليا المطبوخة وبعض الشموع وعيدان الكبريت. فعاصفة جليدية مثل التى حدثت الشتاء الماضى بوسعها أن تعطل كل شيء، فتنقطع الكهرباء وتتعطل دورات المياه وتنعدم مياه الشرب؛ إلا ما يمكن الحصول عليه من الجليد المنصهر.

الحديقة خاوية من كل شيء عدا أوراق الأشجار الذابلة، والسيقان الهشة المتكسرة، وبضع من زهور الكريزانتيم التى تتحدى الموت. فى ذلك الوقت لا ترتفع الشمس كثيرًا فى السماء ويبكر الظلام. أكتب فى الداخل على منضدة المطبخ. أفتقد صوت الجنادل فى النهر. تهب الرياح أحيانًا مصفرة بين الفروع العارية من أوراقها، والتى بقيت على حالها، وإن خارت قواها.

بعد خطبتى بأسبوع أرسلونى سريعًا لتناول الغداء مع وينفريد جريفون بريور، أخت ريتشارد. جاءت الدعوة منها، ولكنى شعرتُ حقيقة بأن ريتشارد هو الذى دفعنى للذهاب إليها سريعًا. لعلنى كنت مخطئة بهذا الشأن لأن وينفريد تتحكم فى العديد من الأمور وتمسك خيوطها، فربما تكون هى التى دفعت ريتشارد إلى ذلك. أما الأرجح أن يكون الاثنان قد اشتركا فى الأمر معًا.

جاءت الترتيبات بأن يكون الغداء فى قاعة أركاديا حيث تتناول سيدات المجتمع الراقى الغداء. وتقع القاعة أعلى متجر سيمبسون فى شارع كوين، وهى مكان مرتفع فسيح صمم على الطراز البيزنطى (من حيث المداخل المقنطرة المزدانة بسعف النخل فى أصائص فخارية) وقد طلى باللونين الأرجوانى الفاتح والفضى تحده خطوط انسيابية لتركيبات الإضاءة وصف المقاعد. وبه تراس يلتف فى نصف دائرة متجه إلى أعلى يحيطه سور من الحديد المجدول، وهو مخصص للرجال وحدهم، خاصة رجال الأعمال. فيجلسون بالأعلى وينظرون إلى السيدات بالأسفل يسقسقن فى قبعاتهن المزينة بالريش وكأنهن فى قفص للطيور.

ارتديت أفضل رداء لدى للصباح، وهو الرداء الوحيد المتاح لمثل هذه المناسبات: حلة باللون الكحلى مع تنورة ذات طيات وبلوزة بيضاء بعقدة على هيئة

فراشة عند الرقبة وقبعة كحلية مستديرة الأطراف. جعلنى هذا الزى أبدو مثل فتاة فى المدرسة أو منسقة دعايا لجيش الخلاص. ولن أذكر شيئًا عن حذائى، فحتى اليوم ينتابنى الإحباط إذا تذكرته. واحتفظت بخاتم خطبتى المصنوع من حجر كريم أصلى مطوى فى قبضتى المرتدية قفازًا من القطن، وأنا على علم بأن ارتداءه مع ملابس مثل ملابسى يجعله يبدو مثل الماس الزائف أو مثل شىء سرقته.

رمقنى النادل الرئيس فى المطعم وهو على يقين بأننى أخطأت المكان، أو على الأقل دخلت من المدخل الخطأ، فهل أنا أطلب عملاً؟ كنت أبدو حديثة السن وملابسى قديمة فقيرة بما لا يتناسب مع تناول الغداء مع السيدات النبيلات. ولكن عندما ذكرت اسم وينفريد صارت الأمور على ما يرام لأن وينفريد تعيش تمامًا فى قاعة أركاديا. ("تعيش تمامًا" لأزمتها الخاصة.)

على الأقل لم أضطر إلى الانتظار وحدى هدفًا للنظرات الباردة ترمقنى بها السيدات المتأنقات ويتعجبن كيف دخلت إلى ذلك المكان، وذلك أننى وجدت وينفريد على التو جالسة إلى إحدى الطاولات فاتحة اللون. كانت أطول قامة مما أذكر وأنحف جسدًا، أو يمكن القول بأنها ممشوقة القوام، مع أن بعض ذلك يرجع إلى مشد الخصر الذى كانت ترتديه. وكانت ترتدى رداءً مكشوفًا باللون الأخضر، ليس الأخضر الباستيلى إنما الأخضر الزاهى. (عندما شاع مضغ العلكة بالكلوروفيل منذ عقدين من الزمان كانت بذلك اللون.) وارتدت حذاء من جلد التمساح الأخضر ليتناسب معه. كان الحذاء مصقولاً ذا مظهر مطاطى يبدو نديًا بعض الشىء مثل أوراق زنبق الماء، وخطر لى أننى لم أر فى حياتى مثل هذا الحذاء البديع غير المألوف. أما قبعتها فكانت بنفس درجة اللون الأخضر على هيئة دوامات مستديرة من الأخضر تتوازن على رأسها مثل كعكة مسممة.

وفى تلك اللحظة كانت تفعل شيئًا تعلمت ألا أفعله أبدًا لأنه رخيص وغير لائق؛ فكانت تنظر إلى وجهها فى مرآة علبة زينتها المحمولة أمام الناس. والأسوأ من ذلك أنها كانت تصلح زينتها. وبينما ترددت حتى لا أجعلها تدرك أننى رأيتها تقوم بذلك الفعل السوقى، أغلقت العلبة ودستها فى حقيبة يدها المصنوعة من جلد التمساح اللامع، وكأن لا شىء فى الأمر. وبعدها مدت عنقها وتلفتت حولها بوجهها المدهون بمسحوق التجميل يشع منه وهج شاحب كأنه مصباح أمامى. وبعدها

لمحتنى وابتسمت ومدت يدها متراخية ترحب بى. وكان فى معصمها سوار لفتنى واشتهيت اقتناء مثله.

وبعد أن جلست قالت: "نادينى بفريدى، فكل صديقاتى يفعلن ذلك، وأنا أريد أن نصبح صديقتين حميمتين." وكانت موضة ذلك الوقت أن تستخدم نساء مثل وينفريد صيغ التصغير حتى يظهرن كالشباب: بيلى، بوبى، ويلى، تشارلى وغيرها. أما أنا فلم يكن لدى اسم للتدليل، ومن ثم فلم أستطع معاملتها بالمثل.

قالت: "أهذا هو الخاتم؟ كم هو رائع بحق، أليس كذلك؟ ساعدتُ ريتشارد فى اختياره، فهو يحب أن أقوم عنه بالشراء. فالرجال يقلقهم القيام بالشراء، أليس كذلك؟ كان يفكر فى خاتم من الزمرد، ولكن لا شىء مثل الماس، أليس كذلك؟"

وبينما كانت تقول ذلك تفحصتنى باهتمام وسرور بارد، لترى رد فعلى تجاه التقليل من شأن خاتم خطبتى إلى مجرد مشوار صغير. كانت عيناها شديدتى الاتساع يبرق فيهما الذكاء، وقد وضعت ظل جفون أخضر فوق الجفنين. وبدا حاجباها المرسومان بالقلم منتوفين على هيئة خط يتقوس فى نعومة، فيمنحها تعبيرًا بالضجر، وفى الوقت نفسه بالدهشة المشوبة بالشك، وهى طريقة أرستها نجمات السينما فى ذلك الزمان، وإن كنت أشك فى أن وينفريد تنتابها الدهشة أبدًا. وكانت تضع أحمر شفاه يضرب نحو الوردى الداكن مشوبا بالبرتقالى، وهو ظل لونى كان قد شاع حديثًا، ويطلق عليه شريم (لون الجمبرى)، كما عرفت من المجلات التى كنت أقرأها فى المساء. وكان لفمها نفس الشكل السينمائى كما لحاجبيها، فنصفا الشفة العليا مرسومان على شكل طرفى قوس كيوبيد. أما صوتها فكان ما يطلق عليه صوت مخمور، فهو خافت، عميق، تغلفه بحة خفيفة كصوت القطة، وكأنها قطيفة مصنوعة من الجلد.

(كانت تلعب الورق، لقد اكتشفت ذلك فيما بعد. كانت تلعب البريدج وليس البوكر. كان من الممكن أن تجيد البوكر، تجيد التهديد والوعيد، لكنه لعبة تنطوى على كثير من المغامرة والمقامرة. وهى تحب أن تراهن على المضمون. وكانت

تلعب الجولف أيضًا، ولكنه فى معظمه من أجل العلاقات الاجتماعية، فهى لم تكن تجيد تلك اللعبة كما تدعى. أما التنس فكان شاقًا عليها، وهى لا تريد أن يراها أحد تتصبب عرقًا. وكانت "تبحر" وهو يعنى بالنسبة لها أن تجلس على وسادة بالمركب مرتدية القبعة وشراب فى يدها.)

سألتنى وينفريد ماذا أحب أن آكل. فقلت أى شىء. نادتنى "بعزيزتى"، وقالت إن سلاطة الولدورف رائعة. فأجبت بأن ذلك يكفى.

لم يتسنَ لى كيف أناديها بفريدى؛ فذلك ينم عن الألفة الشديدة، بل وعدم الاحترام أيضًا. وهى فوق ذلك سيدة ناضجة فى الثلاثين أو التاسعة والعشرين على الأقل. كانت تصغر ريتشارد بست أو سبع سنوات، ولكنهما كانا صديقين. "أنا وريتشارد صديقان حميمان" قالتها لى وكأنها تسر سرًا، للمرة الأولى وليس الأخيرة. كان ذلك تهديدًا بالطبع، مثل كثير مما ستقوله لى بنفس تلك اللهجة البسيطة الحميمة. لم تكن تعنى فقط أن لديها حقوقًا تسبق حقوقى زمنيًا، وولاءات لا يمكن أن يراودنى الأمل فى فهمها، إنما أرادت أيضًا القول إننى إذا أغضبت ريتشارد يومًا فلابد أن أعمل حسابًا لاثنين.

وأخبرتنى بأنها هى التى كانت ترتب كل شىء لريتشارد، كالمناسبات الاجتماعية وحفلات الكوكتيل والعشاء وما شابه، وذلك لأنه أعزب، وكما قالت (واستمرت تقول سنوات وسنوات): "نحن الفتيات نجيد إدارة هذه الأمور". وبعدها قالت إنه أسعدها أن يقرر ريتشارد أخيرًا الاستقرار، ولا سيما مع شابة لطيفة مثلى. وهى هنا تجمع بين أمرين متلازمين - إذ تلمح أيضًا إلى بعض الشراك السابقة. (تلك كانت طريقة وينفريد فى الحديث عن علاقة النساء بريتشارد، فكانت تستخدم لفظ "الشراك"، مثل الشباك، ونسيج العنكبوت، والفخاخ، أو قطع من الحبال الصمغية ملقاة على الأرض قد يلتصق بها حذاؤك بطريق الخطأ).

ولحسن الحظ نفد ريتشارد من تلك الفخاخ، ولا يعنى ذلك أن النساء لم يطاردنه. قالت وينفريد وهى تخفض صوتها المخمور إنهن تعقبنه فى جماعات كقطعان الماشية، وتخيلت أنا ريتشارد وقد تمزقت ملابسه وتشعث شعره المصفف بعناية وهو يحاول أن يفر مذعورًا من مجموعة من الإناث تعوى فى أثره. ولكنى

لم أستطعِ تصديق تلك الصورة. فلم أستطع تخيل ريتشارد يجرى أو يهرول أو حتى خائفا. لم أستطع أن أتخيله فى خطر.

أومأت برأسى وابتسمت وأنا لست على يقين فى أى مكان يضعوننى. فهل أنا إحدى الشراك اللزجة؟ ربما. ومع ذلك فظاهر الأمر أنها تستحثنى لأفهم أن ريتشارد له قيمة عليا فى ذاته، ومن الأفضل أن أنتبه إلى ما أقول وما أفعل إذا أردت أن أكون على قدره. قالت رينى وهى تبتسم قليلاً: "ولكنى على ثقة من قدرتك على ذلك. فأنت فى ريعان الشباب." إذا كان لحداثة سنى دور، فهى ربما تضعف قدرتى على ذلك، وهو ما تعول عليه وينفريد. فهى نفسها لا تنوى التنازل عن سلطتها فى إدارة الأمور.

جاءت سلاطة الوالدورف. وراقبتنى وينفريد وأنا ألتقط الشوكة والسكين وتنهدت تنهيدة خفيفة - فأنا على الأقل لا ألتقط الطعام بيدى، هكذا كانت تشى تعبيراتها. أدرك الآن أننى كنت أحتاج منها مجهودًا شاقًا. فمما لا شك فيه أنها ظنتنى متجهمة لا أبوح بشىء: فلا أتحدث فى الأمور الصغيرة ويغلب علىَّ الجهل والطابع الريفى. أو لعل تنهيدتها كانت تعنى التطلع إلى شىء، تطلعها إلى ما ينتظرها من عمل، فقد كنت كتلة من الصلصال الخام وعليها أن تشمر عن ساعديها وتتنازل وتشكلنى.

لم يكن بالوقت متسع كما فى الحاضر. فلقد انغمست فى العمل على التو. كان أسلوبها الإشارة والتلميح. (لديها أسلوب آخر - الضرب بالهراوة - ولكنها لم تتبعه معى على ذلك الغداء.) قالت إنها كانت تعرف جدتى، أو على الأقل سمعت عنها. وذكرت أن ذاع صيت سيدات عائلة مونتفورت فى مونتريال لأناقتهن وأسلوبهن الراقى، ولكن بالطبع ماتت أديلا مونتفورت قبل أن تولد هى. كانت تلك طريقتها للقول إنه بالرغم من نسبى الأصيل، إلا أننا حقيقة نبدأ من الصفر.

وألمحت وينفريد إلى أن ملابسى هى أقل ما يدل على ذلك. بالطبع الملابس يمكن شراؤها دائمًا، لكن لابد أن أتعلم حسن ارتدائها. قالت: "كأنها جلدك يا عزيزتى". أما شعرى فلا جدال حوله، فكان طويلاً غير مموج مصففًا فى استقامة

إلى الوراء ممسوكا بمشبك. فكان واضحًا أنه يحتاج القص والتمويج البارد. وبعد ذلك جاءت مسألة أظافر أصابع يدى. لا بهرجة أو تزيد، فقد كنت بالغة الصغر على ذلك. قالت وينفريد: "يمكنك أن تكونى جذابة بمجهود بسيط."

استمعت إليها بتواضع بينما أشعر بالاستياء. كنت أعلم أنى لا أملك مسحة من جاذبية. فأنا ولورا لا يتمتع كلانا بهذه الجاذبية. فكنا قليلى الحديث، بل بنا شىء من فظاظة يبعدنا عن الجاذبية. لم نتعلمها أبدًا لأن رينى أفسدتنا. كانت تشعر أن نسبنا لابد أن يكون كافيًا لأى شخص. فلا يجب أن نعرض أنفسنا على الناس، نتقرب إليهم بالملاطفة والمداهنة والرمش بالعين. أعتقد أنه كان باستطاعة أبى أن يرى أهمية لاستخدام الجاذبية فى بعض الجوانب، ولكنه لم يغرس فينا جانبًا منها. لقد أراد لنا أن نكون أكثر شبهًا بالصبيان، وصرنا بالفعل كذلك. فالناس لا يعلمون الأولاد أن يتمتعوا بالجاذبية، فذلك يجعل الناس يرونهم مخادعين.

راقبتنى وينفريد بينما أتناول الطعام وابتسامة متسائلة ساخرة على شفتيها. لقد تحولت فى رأسها إلى سلسلة من الصفات - سلسلة من المواقف الفكهة التى سترويها لأصدقائها المدعوين ببيلى وبوبى وتشارلى. ستقول: "كانت ملابسها تنم عن استحقاقها للصدقة وتأكل كأنما لم تأكل فى بيتها أبدًا. ناهيك عن حذائها!"

وبمجرد أن وضعت شوكتها فى صحن السلاطة بتمهل وبلا شهية - فهى لا تنهى وجبة أبدًا - قالت وينى: "حسن والآن لابد أن نفكر سويًا."

لم أدرك ما كانت تعنيه. وأطلقت تنهيدة أخرى صغيرة. وقالت: "ترتب للزفاف؛ فليس لدينا متسع من الوقت. أفكر فى أن تكون كنيسة سانت سيمون الرسول، وبعدها قاعة الرقص فى فندق رويال يورك، ثم القاعة المركزية لحفل الاستقبال."

لابد أننى افترضت أننى سأسلم إلى ريتشارد ببساطة كطرد؛ ولكن الأمر ليس كذلك، فهناك عدة احتفالات وليس احتفالاً واحدا. ستقام حفلات الكوكتيل والشاى واستقبال العروس والتقاط الصور للصحافة. سيكون حفل زفافى مثل حفل

زفاف أمي في الحكايات التي كانت ترويها ريني، ولكن بشيء من التخلف وفقدان بعض الأجزاء. فأين المقدمة الرومانسية حيث يركع الشاب عند قدمي؟ وهنا شعرت بموجة من الفزع تجتاحني مارة بركبتي حتى تصل إلى وجهي. رأت وينفريد ذلك، ولكنها لم تفعل شيئًا لطمأنتي. إنها لا تريدني أن أطمئن.

وبنبرة تشي ببصيص من الأمل قالت وهي تربت ذراعي: "لا تقلقي يا عزيزتي. فسأتولاك بالرعاية." وشعرت بإرادتي تتسرب مني، ويفارقني كل ما تبقى لي من سيطرة على تصرفاتي. (أرى الآن أنها كانت كمديرة لماخور. فقد بدت حقيقة مثل قوادة.)

قالت: "ياربي لقد سرقنا الوقت." وكان معها ساعة فضية ناعمة مثل شريط من معدن مسكوب، استبدلت الأرقام فيها بنقط. وأضافت: "لابد أن أسرع. سيحضرون إليك بعض الشاي وفطيرة فواكه، أو أي شيء تريدين. الفتيات الصغيرات لهن سن جميلة. أم نقول أسنان؟" ونهضت ضاحكة وقبلتني قبلة بلون الشريم، على الجبهة وليس على الخد. وساعد ذلك على أن ألزم حدودي والتي كان واضحًا أنها حدود طفلة.

وراقبتها تتحرك برشاقة بين فضاء قاعة أركاديا المتموج بألوان الباستيل، تومئ برأسها في إيماءات صغيرة وترفع يدها قليلاً في إشارات محيية. كانت تقطع الهواء أمامها وكأنها عشب مستطيل؛ تبدو ساقاها وكأنها لا تتصل بأردافها، إنما تلتصق مباشرة بخصرها، فلاشيء فيها يترجرج. وكنت أشعر بأجزاء من جسدي تنتأ بارزة من جوانب أحزمتي وأعلى جواربي. تمنيت أن أقلد تلك المشية، فأسير ممشوقة القوام خالية من اللحم الزائد لا ينال مني شيء.

لم أخرج ليلة العرس من أفيليون، ولكن من منزل وينفريد الريفي نصف الخشبي على طراز تيودور في روزدال. فقد شعر الجميع بأن ذلك أكثر ملائمة، فمعظم المدعوين من تورنتو. ذلك إضافة إلى أنه أقل إحراجًا لأبي الذي لم يعد قادرًا على تكاليف حفل الزفاف الذي تشعر وينفريد أنه على قدرها.

لم يعد أبى قادرًا حتى على دفع تكاليف الملابس، وقد تعهدت وينفريد بذلك. وكانت قد صفت بين أمتعتى، وفى إحدى حقائبى العديدة الجديدة ذات الماركات العالمية تنورة للتنس مع أنى لا ألعب التنس، وحلة للسباحة مع أننى لا أعرف العوم، وعدة أثواب للرقص مع أنى لا أعرف كيف أرقص. وأين لى تعلم تلك البراعات؟ ليس فى أفيليون؛ ولا حتى السباحة، لأن رينى لم تكن تسمح لنا بذلك. ولكن وينفريد أصرت على هذه الملابس. وقالت إننى يجب أن أرتديها فى مناسباتها بغض النظر عن عجزى عن الممارسة، والذى يجب ألا أعترف به أبدًا. قالت: "قولى إن لديك صداع، وهو دائما عذر مقبول."

وأخبرتنى أيضًا بأشياء أخرى. فقالت: "يمكن أن تظهرى الضجر، لكن لا تظهرى الخوف أبدًا. فالناس يتشممونه فيك مثل أسماك القرش ويأتون لقتلك. يمكن أن تنظرى إلى حافة المنضدة، فهى ترخى جفنيك – لكن لا تنظرى إلى الأرض أبدًا، فذلك يجعل عنقك يبدو ضعيفًا. لا تقفى مستقيمة، فأنت لست جنديًا. ولا تنكمشى أبدًا. وإذا علق أحد بشىء يجرحك، قولى "عفوًا ؟" وكأنك لم تسمعى؛ وإذا حدث ذلك تسع مرات من عشرة فلن يجرؤ على إعادتها. لا ترفعى صوتك مع النادل، فهو تصرف سوقى. ولكن اجعليه ينحنى أمامك، فذلك عمله. لا تعبثى بالقفاز أو بشعرك. تظاهرى دائمًا بأن لديك ماهو أفضل لفعله، ولكن لا تظهرى نفاد الصبر أبدًا. عندما ينتابك الشك، اذهبى إلى الحمام، وسيرى ببطء. فالعظمة تأتى من اللامبالاة." تلك كانت مواعظها. وأعترف بأنه، رغم كرهى لها، إلا أن نصائحها أثبتت قيمتها الكبيرة فى حياتى.

قضيت الليلة السابقة على الزفاف فى واحدة من أفضل حجرات نوم وينفريد. قالت وينفريد بمرح: "جملى نفسك!" ملمحة إلى أننى لم أكن جميلة. أعطتنى بعض الكريم البارد والقفازات القطنية – وكان المفترض أن أضع الكريم وفوقه القفازات. من المفترض أن تلك المعالجة تجعل اليدين ناعمتين بيضاوين – مثل دهن خنزير غير مطهى. وقفت فى الحمام الملحق بحجرة النوم، أنصت إلى

صليل المياه تسقط على بورسلين الحوض، وأدقق النظر إلى وجهى فى المرآة. رأيت نفسى ممسوحة بلا ملامح، مثل قطعة بيضاوية باقية من صابونة مستعملة، أو مثل قمر فى المحاق.

•

جاءت لورا عبر الباب الموصل بين الحجرتين وجلست على المرحاض المغلق. لم تكن من عادتها أبدًا أن تطرق الباب. كانت ترتدى قميص نوم قطنيًا بلا نقوش، كان لى من قبل، وربطت شعرها إلى الخلف، وتركت خصلته الملفوفة ذات اللون القمحى على أحد كتفيها. وكانت حافية القدمين.

قلت: "أين شبشبك؟" كانت ملامحها تشى بالهم. بذلك التعبير على وجهها وقميصها الأبيض وقدميها الحافيتين بدت كمكفر عن ذنب – مثل زنديقة فى طريقها إلى الإعدام فى لوحة من الرسم القديم. قبضت كفيها أمامها وأصابعها تلتف حول دائرة فارغة مفتوحة، وكأنها ستمسك بشمعة مضاءة.

"نسيته." عندما كانت ترتدى ملابس الخروج تبدو أكبر من سنها بسبب طولها، ولكنها الآن تبدو أصغر؛ تبدو وكأنها فى الثانية عشرة وتفوح منها رائحة الأطفال الرضع. إنها رائحة الشامبو الذى كانت تستخدمه، فقد كانت تستخدم شامبو للأطفال لأنه أرخص سعرًا. كانت تلجأ لتوفير لا جدوى منه فى أشياء صغيرة. حملقت مستديرة بعينيها فى الحمام، ثم إلى أسفل حيث الأرضية المبلطة. وقالت: "لا أريدك أن تتزوجى."

فقلت: "لقد أوضحت ذلك بما يكفى." فقد كانت متجهمة طوال مراسم الزواج، حفلات الاستقبال والتجهيزات والبروفات، وتتعامل مع ريتشارد فى أضيق حدود اللياقة، ومع وينفريد بطاعة عمياء مثل خادمة تحت التدريب. أما معى فهى غاضبة، وكأن هذا الزفاف نزوة خبيثة على أفضل تقدير، ورفض لها على أسوأ الفروض. فى البداية ظننتها تحسدنى، لكن لم يكن الأمر كذلك تمامًا. "لماذا لا يجب أن أتزوج؟"

قالت: "لأنك صغيرة جدًا."

"تزوجت أمى فى الثامنة عشرة. وعلى كل أنا فى التاسعة عشرة تقريبًا."

"ولكن أمى تزوجت ممن أحبته وأرادته."

رددت بغضب: "وما أدراك أننى لست كذلك؟"

أوقفها ذلك عن الحديث لحظة. "ليس بوسعك أن تريدى." قالتها وهى تتطلع إلىّ بعينين دامعتين حمراوين، فقد كانت تبكى. ضايقنى ذلك. فبأى حق تبكى هى؟ فإذا كان لأحد أن يبكى فلابد أن يكون هذا الشخص أنا.

قلت بحدة: "ما أريد ليس هو القضية. لكن ما أفعله هو الشىء المعقول الوحيد. فليس لدينا أى مال، أم أنك لا تلاحظين؟ أتريدين أن يلقى بنا إلى الشارع؟"

قالت: "يمكننا أن نعمل." كانت زجاجة عطرى على طرف النافذة بجوارها، فرشت على نفسها منها دون وعى. كانت من ماركة ليو من جيورلان، أهداها لى ريتشارد. (عرفتنى وينفريد أنها هى التى اختارتها. "الرجال يرتبكون عند مناضد بيع العطور، أليس كذلك؟ فالرائحة تذهب إلى رؤوسهم مباشرة.)

قلت: "لا تكونى حمقاء. فماذا عسانا أن نفعل؟ إذا فسخنا ذلك الزواج تمرمغ اسمنا فى الوحل."

"يمكننا أن نعمل فى أشياء كثيرة. يمكننا العمل نادلات." قالتها فى غموض وهى تضع زجاجة العطر مكانها.

قلت: "لا نستطيع العيش من ذلك. النادلات لا يكسبن إلا الفتات. ويضطررن إلى التذلل من أجل الإكرامية. جميعهن يصبن بالقدم المسحاء. إنك لا تعرفين ثمن أى شىء." وبدوت كأننى أحاول شرح الرياضيات لطائر. وتابعت: "المصانع أغلقت، وأفيليون تتساقط أشلاء متناثرة، فهم سيبيعونها؛ والبنوك تنوى على الشر. ألم تنظرى إلى أبى؟ ألم تلاحظيه؟ لقد أصبح مثل عجوز."

"إنك تفعلين ذلك من أجله إذن. أعتقد أن ذلك يفسر شيئًا. أعتقد أنها شجاعة."

قلت: "أنا أفعل ما أراه صوابًا." وشعرت أننى فى غاية الشرف وفى نفس الوقت وقع علىَّ ظلم كبير، وكدت أبكى. لكن فات الوقت.

قالت: "ليس هذا صوابًا. ليس صوابًا على الإطلاق. يمكنك فسخ الخطبة، لم يفت الوقت. يمكنك الهرب الليلة وترك رسالة. وسآتى معك."

"كفى عن إزعاجى بإلحاحك يا لورا. فأنا كبيرة بما يكفى لأميز ما أفعل."

"ولكنك ستتركيه يلمسك. ليس مجرد قبلات. فلابد أن تتركيه يقوم ب..."

قلت: "لا تقلقى بشأنى. واتركينى لحالى. فعيناى مفتوحتان."

قالت: "كعينى من يسير أثناء النوم" والتقطت عبوة من بودرة الجسم الخاصة بى، وفتحتها، وشمتها، وسكبت حفنة منها على الأرض. وقالت: "حسن على كل سيكون لك ملابس جميلة."

كان يمكن أن أضربها. فبالطبع كان ذلك عــزائى الذى يسرى عنى سرًا.

وبعد أن ذهبت مخلفة وراءها آثار أقدامها مطبوعة فى خط طويل من البودرة البيضاء، جلستَ أنا على طرف السرير أحدق فى حقيبة سفرى الكبيرة. كانت على أحدث طراز، صفراء فاتحة من الخارج، وداخلها أزرق داكن، محاطة بشريط من الصلب تتلألأ رؤوس دبابيسه مثل نجوم فضية شديدة اللمعان. كانت معدة بعناية وتامة التجهيز بكل ما تحتاجه رحلة شهر العسل، ولكنها بدت لى مملوءة بالظلام – بالفراغ، فداخلها فضاء خاو.

وفكرت ذلك هو جهاز عرسى trousseau وفجأة تحولت إلى كلمة تحمل تهديدًا، كلمة أجنبية وفاصلة. إنها تشبه كلمة trussed وهو ما يحدث من ربط الديك الرومى قبل الطهى بالأسياخ والحبال.

وخطر لى أنه تنقصنى فرشاة أسنان، سأحتاج إليها. وظل جسدى ساكنًا بلا حراك.

جاءت كلمة trousseau من الكلمة الفرنسية التى تعنى حقيبة سفر كبيرة. هذا كل ما تعنيه كلمة trousseau: أشياء موضوعة فى حقيبة سفر كبيرة. ومن ثم فلا داعى للغضب بشأنها، فهى إنما تعنى أمتعة. إنها تعنى كل الأشياء التى أصحبها معى وقد حزمت فى حقيبة.

التانجو

صورة الزفاف

شابة فى رداء أبيض، واسع من الساتان الناعم، ينسدل حتى القدمين فى شكل مروحى مثل عسل مسكوب. تقف مشدودة فى استقامة تظهر فى وضع ردفيها وقدميها، وكأن جسدها لا يلائم هذا الرداء. فمن ترتدى مثل هذا الثوب تقف متمعنجة فى ارتخاء للبدن وانحناء للكتفين.

وفوق رأسها طرحة تنسدل من الجانبين، ويغطى عرضها الحاجبين، فتلقى ظلاً بالغ القتامةً على العينين. لا تظهر ابتسامتها أسنانها. وكانت ترتدى قفازًا أبيض، وتحمل بين ذراعيها صحبة مسبحية من زهور بيضاء صغيرة يتدلى منها إكليل زهور أكبر وردية وبيضاء، تختلط بها عناقيد إستيفانوتس. كانت تلك التعبيرات "صحبة مسبحية" و"إكليل" هى التى استخدمتها الصحف. وكلها تستدعى صور الراهبات. جاء الخبر بعنوان "عروس جميلة". قالوا مثل هذه الأشياء وقتها. أما بالنسبة لها فكان الجمال شيئًا ضروريًا تحقق بكثير من المال.

(أتحدث عنها بصيغة الغائب "هى" لأنى لا أذكر أنى كنت حاضرة هناك بأى مضمون ذى معنى للكلمة. فقد كففت أنا والفتاة التى فى الصور عن أن نكون شيئا واحدًا. فأنا نتاجها، نتيجة حياة عاشتها يومًا فى تهور واندفاع؛ بينما هى، إذا أمكن القول أنها موجودة على الإطلاق، إنما تتكون مما أذكره عنها. أراها أفضل مما ترانى هى – فبوسعى رؤيتها بوضوح معظم الوقت. أما هى فحتى لو كان لديها قدر من المعرفة يتيح لها النظر، فهى لا تستطيع أن ترانى على الإطلاق.)

وبجوارى كان يقف ريتشارد جديرًا بالإعجاب بمقاييس ذلك العصر والمكان، وبذلك أعنى أنه كان شابًا ثريًا وليس بقبيح الشكل. كان يبدو مهيبًا، لكن فى نفس الوقت تلوح منه نظرة شك ودهشة: فقد رفع أحد حاجبيه إلى أعلى،

وبرزت شفته السفلى قليلاً، وبدا فمه على شفا الابتسام وكأنما من شيء ضاحك يسره فى نفسه.

كان يضع قرنفلة فى عروة سترته، وقد صفف شعره إلى الوراء؛ فبدا مثل قبعة استحمام لامعة من المطاط، وقد التصق على رأسه بنوع من دهان لاصق كان يستخدم آنذاك. ولكن لابد من الاعتراف أنه كان رجلاً وسيمًا بالرغم من ذلك. وكان اجتماعيًا وخفيف الظل.

وكانت هناك أيضًا بعض الصور الجماعية، يقف فى خلفيتها مجموعة كبيرة من أشابنة العريس فى ملابسهم الرسمية التى تشبه كثيرًا ملابس الزفاف والجنازات ورؤساء الخدم، أما صدر الصورة فتظهر به وصيفات العروس فى ملابسهن المتلألئة النظيفة وبين أيديهن طاقات زهر متفتحة البراعم. تمكنت لورا من إفساد كل من هذه الصور. ففى إحداها تتجهم متعمدة وفى إصرار، وفى أخرى لابد وأنها حركت رأسها فتشوشت ملامح وجهها، وكأنها حمامة تصطدم فى زجاج. وفى صورة ثالثة تقضم إحدى أصابعها وتنظر جانبًا فى إحساس بالذنب وكأنها ضبطت متلبسة بسرقة أموال من خزينة متجر. وفى صورة رابعة يبدو أنه كان هناك عيب بالفيلم، إذ يظهر تأثير ضوء مرقوط لا يسقط عليها إنما يتجه إلى أعلى وكأنها تجلس على حافة حوض سباحة مضاء بالليل.

بعد الاحتفال حضرت رينى ترتدى ثوبًا أزرق أنيقا؛ وقبعة ذات ريشة. واحتضنتنى بشدة وقالت: "لو كانت أمك موجودة!" فماذا كانت تعنى؟ أتعنى أنها كانت ستستحسن الأمر وتمتدحه أم أنها كانت ستمنعه؟ تشى نبرة صوتها بالاحتمالين. وبعدها صاحت: "أحقًا حدث؟" يصيح الناس فى الزفاف لنفس السبب الذى يجعلهم يصيحون عند النهايات السعيدة: وذلك لأنهم يطوقون بشدة إلى تصديق أمر يدركون أنه غير قابل للتصديق.

ولكنى كنت بعيدة عن تلك الحماقات الطفولية؛ فكنت أستنشق أنفاسا كئيبة من الإفاقة على الواقع، أو لعلنى ظننت ذلك.

بالطبع كانت هناك شمبانيا. فلابد منها، وونفريد لم تلغها. أكل الباقون. وألقيت كلمات لا أذكر منها شيئًا. هل رقصنا؟ أعتقد ذلك. لم أكن أعرف كيف أرقص، ولكنى وجدت نفسى فوق حلبة الرقص، فلابد أننى تعثرت قليلاً.

وبعد ذلك استبدلت ثوب العرس بملابس للخروج. وكانت عبارة عن حلة من قطعتين من الصوف الخفيف الذى يصلح للربيع فى لون أخضر فاتح ومعها قبعة وقورة تناسبها. قالت وينفريد إنها تكلفت كثيرًا. ووقفت استعدادًا للمغادرة. وعلى درجات السلم (أى سلم؟ لقد تلاشى السلم من ذاكرتى.) قذفت بطاقة الورد نحو لورا. فلم تلتقطها، ووقفت فى ثوبها الوردى شاخصة نحوى فى برود وقد شبكت يديها معا كأنما تكبح نفسها، فالتقطتها إحدى وصيفات العروس من قريبات جريفون وأسرعت بها فى جشع وكأنها طعام.

فى ذلك الوقت كان أبى قد اختفى. وعندما شوهد آخر مرة كان قد أسرف فى الشراب. فأتوقع أنه ذهب ليكمل المهمة.

وبعدها صحبنى ريتشارد من ذراعى وقادنى نحو سيارة الفرار. كان من المفترض ألا يعرف أحد وجهتنا والتى تعارف أن تكون مكانًا خارج البلدة، مثل نزل رومانسى منعزل. ولكننا فى الواقع كنا ندور حول المبنى متجهين نحو المدخل الجانبى لفندق رويال يورك حيث أقمنا حفل استقبال الزفاف لتونا، وهربنا بالمصعد إلى أعلى. فقد قال ريتشارد بما أننا سنستقل القطار إلى نيويورك صباح اليوم التالى، ومحطة يونيون عبر الشارع، فلماذا نبعد عن طريقنا؟

أما فيما يتعلق بليلة عرسى أو ربما عصر يوم عرسى – فلم تكن الشمس قد غربت بعد، وكانت الحجرة غارقة، كما يقولون، فى ضوء وردى لأن ريتشارد لم يجذب الستائر –فلن أبوح إلا بأقل القليل. لم أكن أعرف ما ينتظرنى؛ فكانت رينى مصدرى الوحيد للمعلومات، وجعلتنى أعتقد أنه مهما يحدث فهو غير سار ومؤلم فى الغالب، وهى لم تخدعنى فى هذا الشأن. وكانت قد ألمحت أيضًا إلى أن ذلك الحدث أو الإحساس الكريه ليس شيئًا خارجًا عن المألوف – فكل النساء يمررن به، أو كل اللاتى يتزوجن – لذلك لابد ألا أحدث ضجة حوله. "تحمليه دون شكوى"

تلك كانت كلماتها. وقالت إنه سيكون هناك بعض الدم، وحدث ذلك بالفعل. (ولكنها لم تذكر السبب. فذلك الجزء كان مفاجأة تامة.)

لم أكن قد عرفت أن افتقارى إلى المتعة - بل نفورى ومعاناتى – سيعتبرها زوجى أمرًا عاديًا، بل ومرغوبًا. فقد كان واحدا من أولئك الرجال الذين يشعرون بأن المرأة إذا لم تمر بمشاعر اللذة الجنسية ففى ذلك كل النفع، لأنها لن تميل للبحث عنها فى مكان آخر. ربما شاعت هذه الآراء فى تلك الفترة الزمنية. وربما لا. فلا سبيل لى لاكتناه ذلك.

كان ريتشارد قد رتب مع الفندق أن يرسلوا إلينا العشاء وزجاجة شمبانيا فى اللحظة التى توقع أن تكون المناسبة. خطوت متعثرة نحو الحمام وأغلقت الباب على نفسى، بينما كان النادل يضع كل شىء على منضدة محمولة عليها مفرش أبيض من الكتان. كنت أرتدى الرداء الذى رأته وينفريد ملائمًا للمناسبة، وكان قميص نوم من الساتان الوردى الفاتح مزخرفا زخرفة خفيفة بشريط رمادى داكن. حاولت تنظيف نفسى بمنشفة الوجه، وبعد ذلك احترت ماذا أفعل بها: فاللون الأحمر واضح عليها، وكأننى أصبت بنزيف من الأنف. فى النهاية وضعتها فى سلة المهملات وتمنيت أن تظن عاملة الفندق أنها سقطت هناك خطأ.

وبعد ذلك رششت نفسى بليو، وهو عطر ضعيف شاحب. وكنت اكتشفت فى ذلك الوقت أنه سمى على اسم فتاة فى إحدى الأوبرات – فتاة من العبيد كان قدرها أن تقتل نفسها مفضلة ذلك على أن تخون الرجل الذى تحبه والذى كان بدوره يحب امرأة أخرى. هكذا كانت تسير الأمور فى الأوبرات. لم أجد ذلك العطر مجديًا، ولكنى كنت أخشى أن تنبعث منى رائحة غريبة. وكانت تنبعث منى بالفعل رائحة غريبة. جاءت الرائحة الغريبة من ريتشارد ولكنها الآن رائحتى. أرجو ألا أكون أحدثت ضجة عالية. انتابتنى شهقات اضطرارية، وشعرت بصعوبة حادة فى التقاط الأنفاس كأننى أغطس فى ماء بارد.

telegram @ktabpdf

تكون العشاء من شرائح اللحم مع السلاطة. أكثرت من السلاطة فى الأكل. تشابه الخس المقدم فى الفنادق فى ذلك الوقت مع بعضه بعضًا. فطعمه مثل مياه فاتحة الاخضرار، طعمه مثل الجليد.

خلت رحلة القطار فى اليوم التالى من الأحداث. جلس ريتشارد يقرأ الجرائد وأنا أقرأ المجلات. لم تختلف الأحاديث المتبادلة بيننا نوعًا عن تلك التى تبادلناها قبل الزفاف. (أتردد فى أن أسميها أحاديث، لأننى لم أتحدث كثيرًا. كنت أبتسم وأبدى موافقتى ولا أنصت.)

وفى نيويورك تناولنا العشاء فى مطعم مع زوجين من أصدقاء ريتشارد نسيت اسمهما. كانا محدثى ثراء، بلا شك: يصرخ لسان حالهما بأنهما جديدان تمامًا على الثروة. فبدت ملابسهما وكأنهما غطيا نفسيهما بمادة لاصقة ثم تمرغا بين أوراق من فئة المائة دولار. وحيرنى كيف جمعا ذلك المال؛ فله رائحة مريبة.

لم يعرف هؤلاء ريتشارد معرفة وثيقة، ولا يطمحان إلى ذلك: فكل ما هنالك أنهما يدينان له بشىء – بمعروف غير معلن. كانا يهابانه، ويبالغان بعض الشىء فى إظهار الاحترام له. استجمعت ذلك من لعبة قداحات السجائر: من يشعل ماذا لمن، وبأى سرعة. كان ريتشارد يستمتع بإظهارهما الاحترام المبالغ له. فكان يستمتع بأن تشعل له السجائر، ولى بالتبعية.

وتراءى لى أن ريتشارد أراد أن يخرج معهما ليس فقط لأنه أراد أن يحيط نفسه بشلة صغيرة من المراءين المتذللين، ولكن لأنه لم يرغب فى البقاء وحده معى. ولا ألومه فى ذلك، فلا شىء لدى أقوله. ومع ذلك فهو وسط الناس شديد الاهتمام بى، فيضع معطفى على كتفى برقة، ويدللنى فى ود وحنان، وهو يسند يده على جسدى برقة فى مكان ما. وبين حين وآخر يمسح المكان بعينيه يتفحص الرجال من حوله ليرى من يحسده منهم. (إذا عدت بذاكرتى إلى الوراء فأنا لم أكن مدركة لشىء من ذلك وقتها.)

كان المطعم باهظ التكلفة وبالغ الحداثة. لم أكن قد رأيت شيئًا مثله. فالأشياء فيه لا تلمع إنما تتلألأ؛ فبه تنتشر أخشاب بيضاء وكثير من الرقائق المعدنية

وزخارف نحاسية وزجاج يبهر العين بجماله وألوانه. وتنتشر بالمكان أعمال نحتية تجريدية لنساء من النحاس والصلب ناعمة مثل حلوى الطوفى، لهن حواجب ولكن بلا عيون، يتضح الخصر والأرداف فى خطوط إنسيابية ولكن بلا أقدام، وتنساب خطوط الذراعين نحو الخلف لتذوب فى الجذع؛ ودوائر من المرمر تحيط بالمرايا وكأنها كوات نوافذ فى سفينة. وعلى كل مائدة زهرة الكالا فى مزهرية رفيعة من الصلب.

كان أصدقاء ريتشارد أكبر منه سنًا، وبدت المرأة أكبر من الرجل. وكانت ترتدى فراء المنك باللون الأبيض، رغم أن الجو كان ربيعًا. وكانت ترتدى عباءة باللون الأبيض أيضًا، وقد ذكرت فى استفاضة أنه تصميم مستوحى من قدماء الإغريق، وعلى وجه الدقة من تمثال النصر المجنح الذى عثر عليه فى جزيرة ساموسراس. وثنيات هذا الثوب ممسوكة بحبل تحت النهدين وفى وضع متصالب بينهما. وخطر لى أنه لو كان لدى مثل هذين النهدين المرتخيين المتهدلين ما ارتديت مثل هذا الثوب. أما بشرتها البادية من فتحة العنق فمتغضنة يملؤها النمش، وكذلك ذراعاها. وبينما كانت هى تتحدث جلس زوجها صامتًا يشبك كفيه معًا وقد تجمدت على وجهه نصف ابتسامة، وهو ينظر إلى مفرش المنضدة مفكرًا. وقلت فى نفسى: "هذا هو الزواج إذن" ذلك الضجر والتوتر المشترك وتلك القنوات الصغيرة المغبرة تتشكل على جانبى الأنف.

قالت المرأة: "لم ينبهنا ريتشارد إلى أنك صغيرة إلى هذا الحد."

قال زوجها: "ستتناقص دهشتك حيال ذلك، وتعتادين عليه." وضحكت زوجته.

وتمعنت فى كلمة "ينبهنا" فهل تعنى أننى أشكل خطرًا؟ أرى الآن أنها كانت تعنى ذلك النوع من الخطر الذى تشكله الماشية. فلأنها حيوانات بكماء تعرض نفسها للخطر، فتعلق فى الأجراف، أو يضيق الذئاب عليها الخناق، ويضطر راعيها إلى المجازفة بحياته لإخراجها من المأزق.

وبعد أن قضينا فى نيويورك يومين - أم أنها كانت ثلاثة؟ -عبرنا إلى أوروبا على "برينجريا"، والتى قال عنها ريتشارد إنها السفينة التى يركبها كل من هو ذو شأن. لم يكن البحر هائجًا فى مثل هذا الوقت من العام، ولكنى كنت أشعر بالغثيان مثل كلب. (لماذا أذكر الكلاب فى هذا المجال؟ لأنها لا تستطيع مغالبة الأمر. ولا أنا كنت أستطيع ذلك.)

أحضروا لى حوضًا وشايًا خفيفًا بالسكر لكن بدون لبن. قال ريتشارد إننى لابد أن أتناول بعض الشمبانيا لأنها أفضل علاج، ولكنى لم أرغب فى المجازفة. كان مقدرًا للموقف بعض الشىء، ولكنه أيضًا كان يشعر بشىء من الضيق، مع أنه أكد لى أنه ليس ثمة ما يدعو للخجل فى أن أشعر بالمرض. فقلت له إننى لا أريد أن أفسد عليه أمسيته، فليذهب ويستمتع بوقته مع الآخرين، وقد فعل. وكانت فائدة مرضى أن ريتشارد لم يظهر ميلاً للذهاب للفراش معى. فالجنس يمكن ممارسته بسلاسة مع أشياء عديدة ليس القىء من بينها.

وفى صباح اليوم التالى قال ريتشارد إننى يجب أن أبذل بعض الجهد لأظهر على مائدة الإفطار، فإذا تصرفت كما يجب، فذلك يعنى كسب نصف المعركة. فجلست إلى منضدتنا أقرطم الخبز بلا شهية وأشرب الماء، وحاولت أن أتجنب روائح الطعام المطهى. كنت أشعر أنى بلا جسد، وجلدى متجعد مترهل مثل بالونة مفرغة من الهواء. كان ريتشارد يولينى اهتمامًا على فترات متقطعة، ولكنه كان يعرف بعض الناس أو بدا أنه يعرفهم، وبعض الناس يعرفونه. فكان ينهض لمصافحتهم ثم يعود ليجلس ثانية. كان أحيانًا يقدمنى لهم وأحيانًا لا يفعل. ومع ذلك فهو لم يعرف كل من رغب فى معرفتهم. كان ذلك واضحًا من الطريقة التى يحدق بها حوله، متجاوزًا إياى أو من يتحدث معهم - بأن ينظر من فوق رؤوسهم.

استعدت صحتى تدريجيًا أثناء اليوم. فقد شربت جعة الجنزبيل التى أفادتنى. لم أتناول طعامًا فى العشاء ولكنى حضرت إلى المائدة. وفى المساء ذهبنا إلى ملهى ليلى. فارتديت الثوب الذى كانت وينفريد اختارته لى لتلك المناسبة، وهو ذو لون رمادى ضارب إلى الوردى مع معطف فضفاض من الشيفون الأرجوانى

الفاتح. وكان معه صندل أرجوانى له كعب عال ومفتوح من الأمام ليناسبه. ولم أكن أعرف بعد كيف أتعامل مع مثل هذا الكعب العالى: فكنت أترنح قليلاً فى مشيتى. قال ريتشارد إنه لابد وأن هواء البحر يناسبنى؛ وقال إننى اكتسبت اللون المناسب، حمرة خجل خفيفة تناسب فتاة صغيرة. وقال إننى أبدو رائعة. وقادنى إلى المنضدة التى كان حجزها وطلب مارتينى له ولى. وقال إن المارتينى سيحسن صحتى على الفور.

شربت بعضًا منه، وبعدها لم يعد ريتشارد بجانبى، وكانت هناك مغنية تقف فى بقعة ضوء زرقاء. كان شعرها مصففًا فى موجات إلى جانب واحد يتدلى على إحدى عينيها، وكانت ترتدى ثوبًا أسود ضيقًا تغطيه حراشيف كبيرة من خرز الترتر، ويلتصق بعجيزتها المشدودة والبارزة فى آن، وقد ارتفعت إلى أعلى بما بدا أنه حبل ملتو. حملقت فيها بانبهار. فلم أكن قد ذهبت من قبل إلى ملهى ليلى ولا حتى ناد ليلى. كانت تتمايل بكتفيها وتغنى "جو عاصف" بصوت غنج متأوه، ونصف صدرها مكشوف واضح للعيان.

جلس الناس إلى مناضدهم يشاهدونها، ويستمعون إليها، ويتبادلون الرأى بشأنها – فهم أحرار فى أن يعجبوا بها أو لا يعجبون، فى أن يميلوا إليها أو لا يميلون، فى أن يتفقوا حول أدائها وثوبها وعجيزتها أو يختلفون. ولكنها هى ليست حرة. فلابد أن تستمر فيما تفعل، أن تغنى وتتغنج. وتساءلت ماذا دفعوا لها لتفعل ذلك، وما إذا كان الأمر يستحق. ورأيت أن ذلك إنما يحدث إذا كانت فقيرة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أرى أن عبارة "فى دائرة الضوء" تعنى صيغة محددة للامتهان. "دائرة الضوء" شيء لابد من الابتعاد عنه إذا استطعنا.

وبعد المغنية جاء رجل يعزف على بيانو أبيض بسرعة فائقة، وبعده اثنان من الراقصين المحترفين فى عرض للتانجو. وقد ارتديا ملابس سوداء مثل المغنية. كان شعرهما يلمع مثل جلد لامع فى بقعة الضوء التى تحولت إلى اللون

الأخضر. وقد لصقت المرأة عقصة داكنة من شعرها على جبهتها ودست زهرة حمراء كبيرة خلف أذنيها. وكان ثوبها مفتوحًا حتى منتصف فخذها، وهو فيما عدا ذلك ضيق مثل جورب. وكانت الموسيقى حادة متعثرة – مثل حيوان ذى أربع يترنح على ثلاثة؛ مثل ثور أعرج يخفض رأسه ويندفع استعدادًا للطعن.

أما الرقص فكان أشبه بالحرب منه بالرقص. فملامح الراقصين جامدة خالية من التعبير؛ ينظران إلى بعضهما البعض بعينين براقتين فى انتظار فرصة اللدغ. كنت أعرف أنه عرض، فكان بوسعى أن أرى مهارة الأداء؛ ومع ذلك فقد بدا كل منهما جريحًا.

وجاء اليوم الثالث. وفى ساعة مبكرة من العصر تمشيت على سطح السفينة لاستنشاق الهواء. لم يأت ريتشارد معى، إذ قال إنه ينتظر بعض البرقيات المهمة. وكانت قد وصلته العديد من البرقيات بالفعل؛ فكان يفتح الأظرف بسكين ورق فضية، ويقرأ المضمون، وبعدها إما يمزقها أو يدسها فى حقيبة أوراقه، التى كان يحتفظ بها مغلقة.

لم أكن أرغب فى وجوده معى على سطح السفينة، ولكننى مع ذلك شعرت بالوحدة. شعرت أننى وحيدة، ومن ثم مهملة، وحيث إننى مهملة فأنا غير ناجحة. وكأننى حبيبة مهجورة تخلى عنها حبيبها، وكأننى مجروحة الفؤاد. رمقتنى بنظرات محدقة مجموعة من الإنجليز فى ملابس كتانية ذات لون أصفر باهت. لم تكن نظرات عدائية، إنما نظرات باردة متعالية يشوبها بعض الفضول. فلا أحد يمكنه التحديق مثل الإنجليز. وشعرت أننى كائن قذر متغضن لا يعيره أحد اهتمامًا.

كانت السماء ملبدة بالغيوم: فاكتست السحب بلون رمادى داكن وتدلت إلى أسفل فى تجمعات متقاربة مثلما يفيض الحشو من حشية فراش مكتظة. وتساقط

المطر رذاذًا. لم أكن أرتدى قبعة خوفًا من أن يطيرها الهواء، واكتفيت بوشاح حريريى أعقده أسفل ذقنى. وقفت عند السياج أتطلع إلى أسفل نحو الأمواج أردوازية اللون تكر وراء بعضها البعض، ونحو مخر السفينة الأبيض ينقش رسالة بلا معنى. ويبقى أثر شيفون ممزق نذير شؤم خفى. وتساقط علىَ سخام من المداخن، وتحلل شعرى من مشابكه والتصق بوجنتى فى خصلات مبللة.

وقلت فى نفسى "هذا هو المحيط إذن" لا يبدو عميقًا كما يجب أن يكون. وحاولت أن أتذكر شيئًا أكون قد قرأته عنه، كقصيدة أو ما شابه، ولكنى لم أستطع. "تكسرى، تكسرى، تكسرى" تذكرت شيئًا هذا مطلعه. فى جوفه أحجار باردة رمادية. "آه أيها البحر".

وأردت أن ألقى شيئًا إليه من فوق السفينة. شعرت بشىء يدعونى إلى ذلك. وفى النهاية قذفت ببنس معدنى. ولكنى لم أتمنى أمنية.

الفصل السادس

مكتبة
القاتل الأعمى

أدار المفتاح. ومن رحمة القدر أن الباب كان مغلقًا بالمزلاج. ساعده الحظ هذه المرة. فلقد استعار الشقة بأكملها. وهى شقة صغيرة تصلح للعزاب، عبارة عن حجرة صغيرة مع منضدة مطبخ صغيرة، ولكن لها حمامها الخاص المزود بحوض استحمام صغير ومناشف وردية. وهى من أمور الترف، وتخص صديقة صديق لأحد الأصدقاء، سافرت لحضور جنازة. أربعة أيام فى أمان، أو فى وهم بالأمان.

كانت الستائر ملائمة لمفرش السرير؛ كرزية اللون من الحرير الثقيل المحبب وتتسدل فوق بطانة خفيفة. تطلع من النافذة متنحيًا قليلاً إلى الوراء. ومن بين أوراق الأشجار المصفرة رأى حدائق ألان. وتحت الأشجار كان اثنان من السكارى أو المتشردين غائبين عن الوعى، يغطى أحدهما وجهه بجريدة. هو نفسه نام بهذه الطريقة. فالجرائد منداة بأثر الأنفاس التى تفوح منها رائحة الفقر والهزيمة، وهى رائحة تشبه عفن الرطوبة المنبعث من حشية فراش عليها وبر كلب. وعلى العشب تتناثر بقايا لافتات من الورق المقوى وأوراق مجعدة من الليلة السابقة – فقد كان حشد من الرفقاء يكررون شعاراتهم فى مثابرة منهمرين بها على آذان المستمعين، منتهزين فرصًا غير سانحة. والآن ينظف المكان خلفهم رجلان تعتريهما الكآبة، يحمل كل منهما عصا ذات طرف مدبب من الصلب، وكيسًا من القنب. إنه على الأقل عمل للأشقياء المساكين.

ستسير فى الحديقة فى خط منحرف. وستتوقف لتستطلع المكان حولها لترى ما إذا كان أحد يراقبها. وفى الوقت الذى ستنتهى فيه من ذلك سيكون هناك من يرقبها.

على منضدة الكتابة ذات الطلاء الأبيض والذهبى مذياع فى حجم نصف رغيف الخبز وشكله. أداره، فأتته ثلاثية مكسيكية، تنساب فيها الأصوات مثل حبل سائل تتضافر فيها القوة والنعومة. المكسيك هى ذلك المكان الذى لابد وأن يذهب إليه، ويشرب خمر التكويلا tequila المكسيكية. يذهب إلى الكلاب، والذئاب، ويصبح مجرمًا.

وضع آلته الكاتبة المحمولة على منضدة الكتابة، وفتحها ورفع الغطاء ودس بها بعض الورق. نفد ورق الكربون. لديه الوقت لكتابة بضع صفحات قبل أن تصل، هذا إذا كانت ستصل فعلاً. فهى أحيانًا ينتابها القلق أو يمسك بها أحد. أو هكذا تدعى.

يود أن يحملها ويلقى بها إلى حوض الاستحمام المترف ويغطيها برغاوى الصابون. وفى فقاقيع وردية تتمرغ معها خنازير. ربما استطاع ذلك.

كان يعمل على فكرة، أو فكرة عن فكرة. تدور حول جنس كائنات من عالم آخر ترسل سفينة فضاء لتفقد الأرض. أجسادها مكونة من قطع بلورية فى تنسيق بديع، وهى تحاول الاتصال بالكائنات الأرضية التى تعتقد أنها تماثلها: فتستخدم المناظير، وألواح النوافذ الزجاجية، ومثاقل بندقية، وأقداح خمر وخواتم من الماس. ولكنها فشلت فى ذلك. فأرسلت تقريرًا إلى وطنها، تقول فيه: "يضم هذا الكوكب آثارًا تثير الاهتمام لحضارة كانت مزدهرة يومًا ولكنها اندثرت الآن، والتى لابد كانت ذات نظام راق. ولا يمكننا معرفة الكارثة التى تسببت فى اندثار الحياة الذكية هناك. فالكوكب إنما يضم الآن مجموعة متنوعة من الكائنات الدقيقة الخضراء اللزجة وعددًا كبيرًا من كريات الطمى شبه السائل ذات شكل غريب، والتى تتناثر هنا وهناك بفعل التيارات العشوائية للسائل الخفيف الشفاف الذى يغطى سطح الكوكب. وما يصدر عن هذه الكائنات من صرير حاد وتأوهات رنانة لابد وأن يعزى إلى ذبذبات ناتجة عن الاحتكاك ولا يختلط علينا الأمر فنظنه كلامًا."

إنها مع ذلك ليست قصة. فلا يمكن أن تكون قصة إلا إذا غزت الكائنات الغريبة الكوكب، وأشاعت فيه الدمار، وانفجرت امرأة فى حلة ملتصقة من الوسط. ولكن الغزو يخرق المقدمة. فإذا كانت الكائنات البلورية تظن أن الكوكب لا حياة فيه فلماذا تزعج نفسها بالهبوط عليه. هل لأسباب خاصة بعلم الآثار؟ ربما. لأخذ عينات من المكان. ففجأة تمتص مكنسة آتية من العالم الآخر آلاف النوافذ من ناطحات السحاب فى نيويورك. ومعها يشفط آلاف من رؤساء البنوك ويلقون حتفهم وهم يسقطون ويصرخون. سيكون ذلك رائعًا.

كلا إنها ليست قصة بعد. إنه يحتاج كتابة شيء يحقق رواجا عند البيع. فليعد إلى قصة النساء الأموات اللاتى لا يعرفن الفشل، ويسيل لعابهن طلبًا للدماء. هذه المرة سيجعل شعورهن أرجوانية اللون، ويجعلهن يتحركن تحت أشعة زهور الأوركيد السامة المنبعثة من أقمار أرن الاثنى عشر. ومن الأفضل وصف الغلاف الذى ستتفتح عنه قريحة الأولاد ثم الانطلاق منه.

لقد سئم أولئك النساء. سئم أنيابهن وحركاتهن الرشيقة ونهودهن المشدودة والمستديرة مثل نصف حبة الجريب فروت الناضجة، ونهمهن. لقد سأم مخالبهن الحمراء وعيونهن التى يشع منها الغدر. لقد سأم من تحطيم رؤوسهن. سأم من الأبطال الذين يحملون أسماء ذات مقطع واحد مثل "ويل"، و"بت" و"تيد". سأم من أسلحتهم الإشعاعية وملابسهم المعدنية الملتصقة بالجسد. قصة مثيرة بعشرة سنتات. مازال ذلك كافيًا للعيش، إذا استطاع زيادة السرعة، فالشحاذون لا خيار أمامهم.

نفدت نقوده ثانية. يأمل أن تحمل معها شيكًا من أحد صناديق البريد التى لا تحمل اسمه. سيظهره لها، وستصرفه له باسمها دون مشاكل من البنك الذى تتعامل معه. يرجو أن تحضر معها بعض طوابع البريد، ومزيدًا من السجائر، فلم يتبق له سوى ثلاث.

ذرع المكان بخطواته، فأحدثت الأرضية صريرًا. إنها من الخشب الصلب ولكن بها بعض البقع حيث يتسرب الماء من مشعاع التدفئة. شيدت هذه البناية المقسمة إلى شقق قبل الحرب، من أجل العاملين بالأعمال الحرة ممن يعيشون بمفردهم من ذوى الشأن. كانت الأمور تبشر بمزيد من الخير آنذاك. فكانت هناك تدفئة بالبخار، ومياه ساخنة طوال الوقت وطرقات مبلطة – أى الأحدث من كل شيء. فقد شهد المكان أيامًا أفضل من الآن. منذ بضع سنوات عندما كان فى صباه عرف فتاة تقطن بهذا المكان. كانت تعمل بالتمريض حسبما يتذكر، كانت تحتفظ بخطابات بالفرنسية فى درج المنضدة المجاورة للفراش. وكان لديها موقد بشعلتين،

وكانت أحيانًا تعد له إفطارًا مكونًا من لحم خنزير مدخن وبيض، وفطيرة بالزبد وشراب السكر. وكان بالمكان رأس غزال محشوة ومركبة تركها المستأجرون السابقون، فكانت تجفف جواربها بأن تعلقها على القرون.

كان يقضى معها عصر أيام السبت وأمسيات الثلاثاء، عندما تكون فى عطلة من العمل، يشربان السكوتش والجين والفودكا، وما تيسر وجوده. كانت تحب أن تغيبها الخمر تمامًا أولاً. لم تكن تحب الذهاب إلى السينما أو الخروج للرقص، ولم يبد عليها أنها ترغب فى قصة حب رومانسية أو أى تظاهر بها، وكان ذلك يناسبه تمامًا. فكل ما كانت تطلبه منه ممارسة الجنس. كانت تحب أن تسحب بطانية على أرض الحمام؛ فهى تحب أن تشعر بصلابة البلاط تحت ظهرها. وكان ذلك يسبب له ألمًا شديدًا فى ركبتيه ومرفقيه، ولكنه لم يشعر بذلك فى حينه، فكان تركيزه فى اتجاه آخر. وكانت تصدر عنها تأوهات وكأن أضواء كاشفة مسلطة عليها، فتطوح برأسها إلى الوراء وتدير عينيها. ومرة فعلها معها واقفة فى صوان الملابس؛ ترتعد ركبتاه بين رائحة النفتالين، وملابس أيام الآحاد المصنوعة من الكريب، وأطقم السترات الصوفية. وبكت من المتعة. وبعد أن تخلصت منه تزوجت محاميًا. زوج مناسب وزفاف تقليدى؛ قرأ عنه فى الصحف فسره دون ضغينة. وقال فى نفسه "ذلك فى صالحها. فالعاهرات يفزن أحيانًا."

أيام مثل السلاطة. أيام بلا أسماء، وعصارى بليدة بلا روح، تمر سريعًا مليئة بالدنس، فلا نشتاق إلى شىء قبل حدوثه ولا نفتقده بعده، ولا نحتاج إلى كلمات ولا نبذل شيئًا. كان من قبل منغمسًا فى أمور اختلط بعضها ببعض.

تفحص ساعته ثم النافذة مرة أخرى، ها هى قادمة، تعدو فى مشيتها فى خط منحرف عبر الحديقة، ترتدى اليوم قبعة ذات أطراف كبيرة وحلة ضيقة ذات مربعات يحدها حزام، وتتأبط حقيبة يد تحت ذراعها، وتتأرجح تنورتها ذات الطيات على أثر خطواتها الواسعة المتموجة المتلهفة، وكأنها لم تعتد السير على ساقيها الخلفيتين. ومع ذلك فربما كان ذلك بسبب الكعب العالى. فلطالما حيره كيف يتوازن النساء فوقه. والآن توقفت وكأنها تنتظر إشارة البدء؛ وحدقت متطلعة

حولها بطريقتها المذهولة، وكأنما أفاقت لتوها من حلم محير، فتفحصها فى عجالة الرجلان اللذان يلتقطان الأوراق المهملة : "هل فقدت شيئًا يا سيدتى؟" ولكنها تابعت سيرها عبر الشارع، واستطاع أن يراها فى أجزاء من بين أوراق الشجر، فلابد وأنها كانت تبحث عن رقم الشارع. هى الآن تصعد الدرجات الأولى من السلم. ودق الجرس. فضغط الزر، وأطفأ سيجارته، وأطفأ مصباح منضدة الكتابة، وفتح الباب.

"هالو! نفسى مقطوع. فلم أنتظر المصعد." ودفعت الباب لتغلقه واستندت إليه بظهرها.

"لم يتبعك أحد. كنت أراقبك. هل معك سجائر؟"

" والشيك الخاص بك، وخمس زجاجة سكوتش من أفضل الأنواع؛ اختلستها من بارنا العامر. ألم أخبرك بأن لدينا بارا عامرا بكل شيء؟"

كانت تحاول أن تظهر عدم الاكتراث، بل والرعونة. ولكنها لا تجيد ذلك. وتلكأت لتعرف ماذا يريد. فهى لم تبدأ أبدًا بالتقدم، فلا تحب أن تفضح نفسها.

"فتاة طيبة" وتحرك نحوها وأمسكها.

"هل أنا فتاة طيبة؟ أشعر أحيانًا أننى خليلة لمجرم يحمل سلاحه – أقوم عنه بالمشاوير."

"لا يمكن أن تكونى خليلة لمجرم يحمل السلاح. فأنا لا أملك سلاحًا. لعلك تشاهدين الكثير من الأفلام."

"ليست كثيرًا بما يكفى" قالتها وهى قريبة من عنقه. يحتاج إلى قص شعره, فهو مثل الشوك الأملس. وفتحت الأزرار الأربعة العليا من قميصه ومررت يدها تحته. لحمه كثيف مكتظ. تعلوه حبيبات رماد رقيقة. لقد رأت منافض سجائر منحوتة من الخشب شبيهة بذلك.

قالت "كان ذلك رائعًا. الحمام كان رائعًا. لم أتخيلك أبدًا فى مناشف وردية. مقارنة بما هو معتاد، فهو شىء بالغ الثراء."

قال: "الإغراء يكمن فى كل مكان، والملذات تلوح فى أبهى صورة. أرى أنها عاهرة هاوية، أليس كذلك؟"

ولفها فى إحدى المناشف الوردية، وحملها إلى الفراش مبللة ينزلق عليها الماء. وتحت مفرش السرير الحريرى المحبب فى لون الكرز والملاءات الساتان راح الاثنان يشربان السكوتش الذى أحضرته معها. إنه توليفة رائعة مدخنة ودافئة، تنزلق ناعمة مثل حلوى الطوفى. وتمطت فى نعومة مترفة ينشغل بالها قليلاً بمن سيغسل الملاءات.

لم تتمكن أبدًا من التغلب على شعورها بانتهاك الحرمات فى تلك الحجرات المتعددة – إحساسها بأنها تنتهك الحدود الخاصة لمن يعيشون فيها حياة عادية. تمنت لو تفقدت أصونة الملابس وأدراج المكاتب، لا لتأخذ منها شيئًا إنما فقط لتنظر، لترى كيف يعيش الآخرون. أناس حقيقيون، ينتمون للواقع أكثر مما تنتمى هى. تمنت لو تفعل الشىء نفسه معه، لكنه لا يملك أصونة للملابس ولا أدراجًا للمكاتب، فلا شىء منها يخصه. فلا شىء هناك لتعثر عليه، لا شىء يكشف عنه. فلا شىء لديه سوى حقيبة أوراق زرقاء مخدوشة، يحتفظ بها مغلقة. وهى دائما تحت الفراش.

جيوبه لا تنبئ بشىء؛ فلقد فتشتها مرارًا. (ليس ذلك تجسسًا، إنما أرادت أن تعرف أين توجد الأشياء، وما هى، وما مكانتها.) منديل أزرق بحافة بيضاء؛ غيار احتياطى، عقبًا سيجارة ملفوفان فى ورق مشمع – لابد أنه يدخرهما. ومطواة قديمة. ومرة عثرت على ما ظنته زرارى قميص. لم تعرض عليه أن تخيطهما له لأنه سيعرف بذلك أنها تتجسس عليه. أرادته أن يظنها جديرة بالثقة.

رخصة قيادة تحمل اسمًا غير اسمه. وشهادة ميلاد بنفس الطريقة. أسماء مختلفة. كم تحب أن تمشطه بمشط دقيق الأسنان. تفتش فيه. تقلبه رأسًا على عقب. تفرغه.

يغنى بصوت ناعم خافت متزلف مثل مطرب عواطف بالإذاعة:

"حجرة يملؤها الدخان، قمر شيطانى، وأنت –

اختلست قبلة، وعدتنى أن تكونى صادقة –

دسست يدى تحت ثوبك.

قرصتِ أذنى، وأفسدنا الأشياء،

طلع الفجر الآن – ورحلت –

وبقيت أنا حزينًا"

تضحك: "من أين أتيت بهذا الكلام."

"إنها أغنية عاهرتى. وهى تتناسب مع الجو المحيط."

"إنها ليست غانية حقيقية. ولا حتى هاوية. لا أتوقع أن تأخذ نقودًا. من الأرجح أنها تحصل على مكافأة من نوع آخر."

"بعض الشيكولاتة. أيريحك هذا؟"

قالت: "لابد أن تكون حمولة تملأ عربات شاحنة. فأنا باهظة الثمن. مفرش السرير من الحرير الطبيعى. يعجبنى لونه – صارخ ولكنه جميل جدًا. ملائم لملامح البشرة، مثل ظلال شموع وردية. هل ألفت المزيد؟"

"المزيد من ماذا؟"

"المزيد من قصتى."

"قصتك؟"

"نعم أليست هى من أجلى؟"

قال: "آه، نعم بالطبع. لم أفكر فى شىء آخر. لقد سهرتنى ليالى."

"كاذب. هل تضجرك؟"

"لا يمكن أن يضجرنى ما يسرك."

"يا ربى! يالك من لطيف ودود. لابد أن نكثر من استخدام المناشف الوردية. فسرعان ما ستقبل شبشبى الزجاجى. لكن استمر على أى حال."

"أين توقفت؟"

"دق الجرس. تم الذبح. والباب يفتح."

"آه. تذكرت."

قال: سمعت الفتاة التى كنا نتحدث عنها الباب يفتح. فتراجعت نحو الحائط، تسحب مفرش سرير الليلة الواحدة الأحمر المقصب وتلفه بإحكام حول جسدها. كانت تفوح منه رائحة ماء مالح، مثل مستنقع ملحى عند الجزر: إنها رائحة الخوف الجاف لأولئك اللاتى رحلن قبلها. دخل شخص؛ فهناك صوت شىء ثقيل يجر على الأرض. وانغلق الباب ثانية؛ الحجرة حالكة الظلام. لماذا يخلو المكان من مصباح أو شمعة؟

ومدت يديها أمامها محاولة أن تحمى نفسها، ووجدت يدها اليسرى سحبت وأمسكتها يد أخرى؛ أمسكتها برقة ودون إكراه. وشعرت كأنها تلقت سؤالاً. لم تستطع الكلام. لم تستطع القول: "لا أستطيع الكلام."

ترك القاتل الأعمى نقاب امرأته يسقط على الأرض. وبينما هو يمسك بيد الفتاة، جلس على السرير بجوارها. مازال ينوى قتلها، لكن فليحدث ذلك فيما بعد. وكان قد سمع عن هؤلاء الفتيات الحبيسات، واللاتى يخبئن بعيدًا عن كل الناس حتى آخر يوم فى حياتهن؛ انتابه الفضول تجاهها. وعلى كل فهى بمثابة هبة تلقاها،

خالصة له وحده. فأن يرفض مثل تلك الهبة كأن يبصق فى وجه الآلهة. إنه يعلم أن عليه أن يتحرك بخفة وينهى العمل ويختفى، ولكن لايزال أمامه وقت طويل. بوسعه أن يشم العطر الذى مسحوها به؛ تفوح منه رائحة النعوش الجنائزية، تلك التى تضم شابات توفين قبل الزواج. حلاوة مهدرة.

لن يحطم شيئًا، أو أى شىء تم شراؤه ودفع ثمنه: يبدو أن سيد العالم السفلى المخادع حضر وذهب لتوه. هل ظل مرتديا زرده الصدئ؟ فى الغالب. وقع عليها مصلصلاً مثل مفتاح حديدى كبير، يدير نفسه فى لحمها ويفتحها بعنف. يذكر ذلك الإحساس تمامًا. هو لن يفعل مثل ذلك.

رفع يدها نحو فمه، ولمسها بشفتيه، ليست قبلة بالمعنى لكن تعبيرًا عن الاحترام والتكريم. قال: "أيا أكرم الناس وأغلاهم، أيا دليل الشحاذ إلى محسن ثرى، جاء بى إلى هنا ما سمعته عن جمالك الفائق، مع أننى بوجودى هنا أخسر حياتى. لا أستطيع أن أراك بعينى لأننى أعمى. أفلا سمحتى لى أن أراك بيدى؟ ربما كان ذلك آخر ما أتلقاه من آيات الكرم، وربما كان ذلك بالنسبة لك أيضًا."

لم يكن عبدًا أو داعرًا بلا مقابل: فقد تعلم كيف يغازل، وكيف يكذب فى حدود وكيف يتزلف ويتودد. وضع أصابعه على ذقنها، وانتظر حتى ترددت ثم أومأت موافقة. كان بوسعه أن يسمع ما كانت تفكر فيه: "غدًا أصبح ميتة". وحيره ما إذا كانت تخمن السبب الحقيقى لوجوده هنا.

بعض أفضل الأعمال يأتيها أولئك الذين لا وجهة لهم، أولئك الذين لا يسعهم الوقت، أولئك الذين يفهمون حقيقة معنى أن يكون المرء عاجزًا لا حيلة له.

إنهم يستغنون عن حسابات المخاطرة والربح، ولا يفكرون فى المستقبل، فيعيشون على أسنة الرماح فى الزمن الحاضر. فإذا سقط المرء على حافة جرف هاو، فإما يسقط أو يطير؛ يتعلق بأى أمل مهما كان بعيد الاحتمال؛ مهما كان تحقيقه معجزة – إذا جاز لى استخدام تلك الكلمة المستهلكة. ما نعنيه بذلك "بعيدًا عن كل الاحتمالات."

وهكذا كان الحال فى تلك الليلة.

بدأ القاتل الأعمى يلمسها فى بطء، بيد واحدة فقط، هى اليد اليمني – اليد البارعة التى تحمل السكين. راح يمررها على وجهها ويهبط بها على عنقها؛ وبعدها أضاف اليد الأخرى، اليد اليسرى، وأخذ يستخدم الاثنتين معًا برفق كأنما يفتح قفلاً بالغ الهشاشة، قفلاً مصنوعًا من الحرير. شعرت وكأن ماء يداعبها. فارتعدت، لكن ليس من الخوف كما حدث من قبل. وبعد برهة تركت المفرش المقصب يسقط عنها، وأخذت يده ترشدها.

يأتى اللمس قبل النظر وقبل الكلام. إنه أول اللغات وآخرها، وهو صادق على الدوام.

وهكذا وقع فى الحب كل من الفتاة العاجزة عن الكلام والرجل العاجز عن الرؤية.

قالت: "إنك تفاجئنى"

قال: "أحقا؟ ولماذا؟ مع أنى أحب أن أفاجئك" وأشعل سيجارة وقدم لها واحدة؛ فهزت رأسها رفضًا. إنه يكثر من التدخين. إنه يشعر بتوتر، رغم ثبات يديه.

قالت: "لأنك قلت إنهما وقعا فى الحب. ولطالما سخرت من الفكرة كثيرًا – وقلت إنها ليست واقعية، خرافة برجوازية، وفاسدة حتى النخاع. وإنها عاطفة مريضة، عذر فيكتورى يحلق بعيدًا فى السماء من أجل رغبة جسدية خالصة. فهل تتهاون مع نفسك؟"

قال مبتسمًا: "لا تلومينى، بل لومى التاريخ، فمثل هذه الأشياء يحدث. فالوقوع فى الحب مسجل، أو على الأقل هذه الكلمات. وعلى كل، فقد ذكرت أنه كان يكذب."

"لا يمكنك التملص بهذه الطريقة. فالكذب إنما كان فى البداية. وبعدها غيرت الموقف."

"أسلم لك بهذه النقطة. لكن يمكن النظر إليه بأسلوب أكثر فظاظة من ذلك."

"النظر إلى ماذا؟"

"صفقة الوقوع فى الحب تلك."

قالت بغضب: "ومنذ متى كان ذلك صفقة؟"

فابتسم وقال: "تزعجك الفكرة؟ تجارية للغاية؟ ضميرك يقشعر من ذلك، أليس هذا ما أردت قوله؟ ولكن المقايضة موجودة دائمًا، أليس كذلك؟"

قالت: "كلا! لا توجد مقايضة. ليس دائما."

"يمكن القول إنه يخطف ما يستطيع الحصول عليه. ولماذا لا يفعل ولا قيم لديه، فحياته كلب يأكل كلبًا، وهكذا كانت دائمًا. أو يمكن القول إن كليهما صغير السن ومن ثم لا يعرفان ما هو أفضل من ذلك. فعادة يخلط الشباب بين الرغبة والحب، فهم يمتلئون بشتى أنواع المثاليات. وإلى جانب ذلك فأنا لم أقل إنه لم يقتلها بعد ذلك. وكما ألمحت فجل اهتمامه ينحصر فى تحقيق مصلحته الذاتية."

قالت: "إذن فقد أجفلت متراجعًا وسحبت آراءك السابقة، فأنت جبان. ولا تكمل الطريق حتى النهاية. فتبدأ بالحب ولا تكمله مثلما يثير رجل امرأة ولا يضاجعها."

ضحك فى ذهول. فهل هى خشونة الألفاظ، هل صدمته المفاجأة بأنها أخيرًا استطاعت ذلك. "تحكمى فى ألفاظك أيها الشابة."

"ولماذا يجب على ذلك؟ فأنت لا تفعل."

"أنا مثال سيئ. فلنقل إنهما انغمسا فى عواطفهما، إذا أردت تسميتها كذلك. بوسعهما التمرغ فى العواطف – أن يعيشا اللحظة، ويتدفقا بالشعر كلاهما، ويسرفا فى اللهو ويتجرعا الكأس حتى الثمالة، ويغرقا فى المتعة. فالوقت يتسرب منهما. ولاشىء لديهما يخسرانه."

"بل خسر. أو من المؤكد أنه ظن أنه خسر"

"حسنا إذن. فلاشيء لديها هي لتخسره" ونفث سحابة من الدخان.

قالت: "أعتقد أنك تعني أنها ليست مثلي"

قال: "ليست مثلك ياحبيبتي. بل مثلي أنا فأنا من لا يملك شيئا يخسره."

قالت: "لكن أنا لديك. وأنا لست لا شيء."

جريدة "تورنتو ستار"، ٢٨ أغسطس ١٩٣٥

تم العثور على إحدى فتيات المجتمع سالمة

تقرير خاص لستار

قررت الشرطة بالأمس توقف البحث عن لورا تشاس، إحدى فتيات المجتمع البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، والتى ظلت مفقودة لأكثر من أسبوع، وذلك بعد أن تم العثور عليها سالمة فى منزل صيفى فى موسكوكا مملوكا لمستر ومسز إى نيوتن دوبس، وهما من أصدقاء العائلة. وقد تحدث إلى الصحفيين نيابة عن العائلة رجل الأعمال المعروف ريتشارد إى جريفون، زوج أخت مس تشاس. وقال: "لقد ارتحت أنا وزوجتى كثيرًا. فقد حدث خلط بسيط للأمور سببه خطاب تأخر فى مكتب البريد. فقد رتبت مس تشاس للقيام بعطلة توقعت أن نكون على علم بها وكذلك بمضيفها ومضيفتها. ومن عاداتهم ألا يقرأوا الصحف فى الإجازات، وإلا ما حدث مثل هذا الخلط للأمور. وعندما عادوا إلى المدينة وعرفوا بالأمر اتصلوا بنا فى الحال."

وعند سؤاله عن الإشاعات التى تقول بأن مس تشاس هربت من المنزل وشاهدها الناس فى ظروف غريبة بحديقة صنى صايد بيتش أميوزمنت Sunnyside Beach Amusement Park قال مستر جريفون إنه لا يعرف من المسئول عن اختلاق تلك الأقاويل المغرضة، ولكنه سيبذل قصارى جهده لمعرفته. وصرح قائلاً: "إنه سوء فهم عادى يمكن أن يحدث لأى شخص. وأنا وزوجتى نشعر بالامتنان لسلامتها ونوجه خالص الشكر للشرطة والصحف والمهتمين من الجماهير لتعاونهم." ومن المعروف أن مستر تشاس لا يشعر بارتياح للنشر، ومن ثم يرفض الحوارات الإعلامية".

ومع أن الأمر لم يسفر عن كثير من الضرر، إلا أنها المرة الأولى على الإطلاق التى تحدث فيها مشكلات كبرى بسبب خطأ فى تسليم البريد. فالناس يحتاجون إلى خدمة يعتمدون عليها بلا جدال. ويجب أن يلتفت المسئولون فى الحكومة إلى ذلك.

القاتل الأعمى: السير فى الشارع

تسير عبر الشارع على أمل أن تبدو مثل امرأة يحق لها السير فى الشارع. أو فى هذا الشارع. ومع ذلك فهى لا تبدو كذلك. فملابسها غير مناسبة، وقبعتها غير مناسبة، ومعطفها غير مناسب. كان عليها أن تغطى رأسها بوشاح تعقده أسفل ذقنها، وترتدى معطفًا فضفاضًا مهترئ الأكمام. كان يجب أن تبدو فقيرة مهملة الثياب.

المنازل هنا شديدة التلاصق. كانت يوما أكواخًا للخدم تصطف فوق بعضها بعضًا، ولكن قل الخدم الآن بعد أن اتخذ الأغنياء تدابير أخرى. تتناثر لطخ السخام على أحجار البناء، اثنان بالأسفل واثنان بالأعلى، ودورة المياه خارج المنازل بالخلف. تحتفظ بعض المنازل ببقايا حدائق الخضروات على المساحات الضيقة المزروعة أمامها – فترى بقايا زرع للطماطم أصابه السواد ودعامة خشبية يتدلى منها حبل. لا يمكن لهذه الحدائق أن تكون بحالة جيدة، فكان لابد أن تكون كثيفة الظلال وأرضها بالغة الاستدارة. لكن حتى هنا كثرت أشجار الخريف، وتلون ما تبقى من أوراقها بالأصفر والبرتقالى والقرمزى والأحمر القانى مثل كبد طازج.

ومن داخل المنازل يسمع صراخ وعويل وأصوات قعقعة وصفق. فترتفع أصوات النساء تزجر فى غضب، والأطفال يصرخون فى تحد. وفى الشرفات الخارجية الضيقة يجلس رجال على مقاعد خشبية، تتدلى أيديهم فى حجورهم، فهم بلا عمل ولكنهم ليسوا بلا منزل أو مأوى بعد. تتسمر عيونهم عليها بنظراتها العابسة يتأملونها فى مرارة بردائها المؤطر بالفرو عند الرسغ والعنق، وحقيبتها المصنوعة من جلد الثعبان. قد يكونون من المستأجرين الذين يحتشدون فى أقبية أو زوايا عشوائية ليتمكنوا من دفع الإيجار.

تهرول النساء منكسات الرؤوس محروبات الأكتاف يحملن لفافات فى أوراق بنية. لابد أنهن متزوجات. تخطر على البال كلمة "مطهو على نار هادئة". سيحصلن على بعض العظام بالإلحاح على الجزار، ويحملن إلى المنزل قطعًا من اللحم الرخيص يقدمنها مع الكرنب الطرى. أما هى فكتفاها مشدودان وذقنها بالغ الشموخ، ولا تلوح منها تلك النظرة المنهزمة: فعندما رفعن رؤوسهن بما يكفى للتحديق فيها، رمقنها بنظرات قذرة. لابد وأن ظنننها عاهرة، لكن ماذا تفعل هنا بحذاء بهذه الأناقة؟ فالمكان يدانيها كثيرًا.

ها هو البار فى الزاوية التى قال إنه يوجد بها. قاعة احتساء البيرة. يجتمع الرجال خارجها فى مجموعة متلاصقة. لم يقل لها أحد شيئًا أثناء مرورها بهم، ولكنهم إنما شخصوا إليها كأنما يتطلعون من أجمة، ولكنها استطاعت أن تسمع تمتماتهم التى تشى بكراهية ممزوجة بشهوة تخرج من حناجرهم مثل صخب الموج فى أعقاب السفينة. ربما خلطوا بينها وبين عاملة فى كنيسة أو أحد المتعالين الذين يفرضون مساعدتهم على الناس. فتدس أنفها فى حياتهم، تطرح أسئلة وتقدم لهم قصاصة من الورق تحمل قائمة بمساعدات تتفضل بها عليهم. ولكن ملابسها بالغة الأناقة بما لا يتفق مع ذلك.

استقلت سيارة أجرة هبطت منها بعد ثلاثة أبنية حيث توجد وسائل أكثر للمواصلات. فمن الأفضل ألا تجعل من نفسها أضحوكة يتندر بها الناس. فمن هنا يستقل سيارة أجرة؟ مع أنها أضحوكة على كل حال. كل ما تحتاجه معطف مختلف تم ابتياعه من سوق للملابس المستعملة وتجعد فى حقيبة. يمكنها أن تدخل إلى مطعم فندق، وتترك معطفها فى الأمانات، وتتسلل إلى الحمام لتغير ملابسها، وتفسد تصفيفة شعرها وتلطخ أحمر شفاهها. وبعدها تخرج امرأة أخرى.

كلا. لن يجدى ذلك أبدًا. فإذا أمكنها أن تأتى بالحقيبة كبداية، يبقى الخروج بها من المنزل. وعليها أن تواجه السؤال: "إلى أين تتعجلين الذهاب هكذا."

وبذلك تجد نفسها متورطة تفعل شيئا مثيرًا فى خفاء وسرية دون سرية. فتعتمد على تعبيرات وجهها وحدها فى مكر ودهاء. لقد تدربت الآن بما فيه الكفاية على السلاسة والبرود وجمود الملامح. فترفع الحاجبين فى براءة، وتلوح منها

نظرة محدقة لا تشف عن شيء كنظرة عميل مزدوج. وتجعل وجهها مثل الماء لا يعبر عن شيء. ليس الكذب هو المهم إنما تجنب الاضطرار إليه. لابد وأن تجعل أسئلة الآخرين تبدو حمقاء قبل أن يطرحوها.

ومع ذلك يبقى الخطر قائمًا. فقد أخبرها أن الخطر يحدق به أكثر من ذى قبل. فهو يظن أن أحدًا تعقبه مرة فى الشارع وتعرف عليه. ربما كان أحد الحمقى من شرطة تعقب الشيوعيين. فدخل محلا مزدحمًا للبيرة وخرج من الباب الخلفى.

لا تدرى ما إذا كانت تصدق ذلك النوع من الخطر أم لا؛ رجال فى سترات قاتمة منتفخة وياقات مرفوعة إلى أعلى وسيارات تعسس ليلاً. "تعالى معنا. سنستضيفك عندنا." حجرات عارية وأضواء صارخة. يبدو الأمر مسرحيًا للغاية، أو مثل أشياء تغلفها غلالة من الضباب، فتظهر بالأبيض والأسود. أمور تحدث فى بلاد أخرى، وبلغات أخرى. أو إن حدثت هنا فليس لها.

إذا قبضوا عليها ستتبرأ منه قبل أن يصيح الديك ولو مرة. إنها تعرف ذلك بوضوح وهدوء. وعلى كل سيطلقون سراحها، إذ يرون تورطها فى الأمر هواية طائشة أو دعابة ثورية، ومهما أثار الأمر من ضجة، سيتم تسويته، بالطبع ستدفع الثمن على المستوى الخاص، لكن ماذا لديها لتدفعه؟ فهى مفلسة تمامًا: والأحجار لا تستنزف. ستعزل نفسها وتغلق الأمر تمامًا. وستصبح دائمًا بالخارج لتناول الغداء.

فى الآونة الأخيرة انتابها إحساس بأن أحدًا يراقبها، وكلما حاولت استطلاع الأمر لا تجد أحدًا. كانت حريصة، بل حريصة بقدر الإمكان. فهل كانت خائفة؟ نعم، معظم الوقت. ولكن خوفها لا يهم؛ أو لعله بالغ الأهمية. فهو يعزز ما تشعر به من متعة معه، وكذلك شعورها بأنها تنفذ بفعلتها.

الخطر الحقيقى يأتى من نفسها. مما تسمح به، وإلى أى مدى هى على استعداد لأن تذهب. لكن أن تسمح وأن تكون على استعداد لا علاقة له بالأمر. إلى

أين سيدفعها، وإلى أين سيقودها. لم تتفحص دوافعها بعد. قد لا تكون لديها دوافع بهذا المعنى، فالرغبة ليست دافعًا. لا يتراءى لها أن لديها أدنى اختيار. فتلك المتعة القصوى هى أيضًا نوع من الامتهان. فكأنها تُجر من مقود حول عنقها بحبل من الخزى. إنها تكره افتقارها للحرية، ولذلك تباعد بين زمن لقائهما، لتضع له حدودًا. تركته، وكانت تكذب بشأن عدم استطاعتها لقاءه – فتدعى أنها لم تر العلامات المرسومة بالطباشير على سور الحديقة، فلم تصلها الرسالة – العنوان الجديد لمحل الملابس الذى لا وجود له، والبطاقة الموقعة من صديق قديم لم تعرفه أبدًا، والمكالمة التليفونية لرقم غير صحيح.

ولكنها تعود فى النهاية. فلا فائدة من المقاومة. إنها تذهب إليه من أجل أن تفقد الذاكرة، من أجل النسيان. فتمنح نفسها، تتلاشى، تدخل فى ظلمة جسدها، وتنسى اسمها. إنما تريد أن تحترق قربانًا، وإن تم ذلك فى برهة قصيرة. تريد أن تحيا لكن بلا سياج تحدها.

ومازالت تجد نفسها حائرة بشأن أشياء لم تتراءى لها فى البداية. كيف ينظف غسيله؟ ففى مرة رأت بعض الجوارب تجف على مشعاع التدفئة، وعندما وجدها تنظر أخفاها عن الأعين. إنه يرتب المكان قبل زيارتها، أو على الأقل يكنسه. أين يأكل؟ لقد قال لها إنه لا يحب أن يشاهده الناس كثيرًا فى مكان واحد. فلابد أن ينتقل من مطعم إلى آخر. تخرج هذه الكلمات من فمه جوفاء عاجزة عن التأثير والإقناع. أحيانًا ينتابه مزيد من التوتر، فيعمل فى دأب وهدوء ولا يخرج؛ فتجد بقايا تفاح فى هذه الحجرة أو تلك، وكسرات خبز متناثرة على الأرض.

من أين أتاه التفاح والخبز؟ إن تحفظه بشأن ما يحدث فى حياته فى عدم وجودها يدعو للدهشة. ربما يشعر بأنه يصغر فى نظرها إذا عرفت الكثير – العديد من التفاصيل القذرة. ربما هو على حق. (فكل هؤلاء النساء المرسومات فى لوحات معروضة فى معارض الفن فوجئن وهن فى لحظات خاصة. "الحورية النائمة". "سوزانا والشيوخ". "امرأة تتحمم"، وإحدى قدميها فى حوض قصديرى – هل هى لرينوار، أم أنه ديجا؟ المرأتان كلاهما ممتلئة الجسد. "ديانا وفتياتها"، لحظة

قبل أن تلمحهن عينا الصياد المتطفلة. ولا توجد لوحة أبدًا بعنوان "رجل يغسل الجوارب فى الحوض".)

يقع الحب فى المسافة الوسطى. وهو أن تنظر إلى نفسك عبر نافذة غشاها الندى. فالحب أن تترك الأمور لحالها؛ فحيث تشخر الحياة وتزمجر إنما يرسل الحب زفراته.. فهل هى تريد أكثر من ذلك – أن تحصل على المزيد منه؟ أتريد الصورة كاملة؟

قد يكمن الخطر فى مزيد من إمعان النظر ورؤية الكثير – فى أن تجعله يتضاءل وتتضاءل هى معه. وهنا تستيقظ على خواء، لتجد كل شىء قد نفد – ذهب وانقضى. وتصبح خاوية الوفاض لا تملك شيئًا. فتصير ثكلى مفجوعة.

كلمة عتيقة.

لم يأت ليقابلها هذه المرة. وقال إنه من الأفضل ألا يفعل. وتركها تشق طريقها بمفردها. وقد دست فى كف يدها ذات القفاز قصاصة من الورق مطوية فى شكل مربع تحمل وصفًا مبهمًا بالطريق، ولكنها لا تحتاج أن تنظر إليها. فهى تشعر بها تعكس بريقًا على بشرتها وكأنها مؤشر فى الظلام.

وتصورته يتخيلها تسير فى الشارع، تقترب من المكان حتى أصبحت على وشك الوصول. هل هو نافد الصبر متلهف لرؤيتها، ولا يستطيع الانتظار؟ هل هو مثلها؟ إنه يحب أن يوحى لها بعدم الاكتراث – بأنه لا يهتم بما إذا كانت تصل أم لا – ولكنه مجرد دور يمثله، واحد من أدوار عديدة. ومن ذلك أنه لم يعد يدخن السجائر الجاهزة، لأنه لا يتحمل نفقاتها. فيلف سجائره مستخدمًا تلك الآلات المطاطية الوردية مقززة المنظر التى تلف ثلاث سجائر فى المرة الواحدة؛ وهو يقطعها بشفرة موس ثم يرصها فى علبة سجائر من ماركة كارفن أى. إنها إحدى خدعه الصغيرة أو ملامح غروره؛ فحاجته إلى مثل هذه الأفعال يخنقها.

أحيانًا تجود عليه بحفنة كبيرة من السجائر. تختلسها من صندوق السجائر الفضى الموضوع على المنضدة الزجاجية الصغيرة، وتحشرها فى حقيبة يدها.

ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك كل مرة. فالأفضل أن تجعله فى شوق وترقب، أن تجعله جائعًا.

يرقد على ظهره ممتلئًا يدخن. إذا أرادت تصريحات بالحب، فلتحصل عليها مقدمًا – تتأكد منها أولاً مثل العاهرة ونقودها؛ مهما كان ما تحصل عليه ضئيلاً. قد يقول لها: "أفتقدك" أو "لا أستطيع أن أشبع منك" عيناه مغمضتان، ويصر على أسنانه ليكبح جماح نفسه: تسمعها بالقرب من عنقها.

بعد ذلك عليها أن تتصيد.

"قل شيئًا"

"مثل ماذا؟"

"مثل أى شىء تحبه"

"قولى لى ماذا تحبين أن تسمعى"

"إذا فعلت أنا ذلك وقلتيه أنت، فلن أصدقك."

"اقرئى ما بين السطور إذن"

"لكن ليست هناك أية سطور. لم تعطنى أيا منها."

وهنا قد يغنى:

"آه، ترتدين ذلك الشىء، وتخلعين ذلك الشىء،

وبنفس الطريقة يخرج الدخان من المدخنة –"

ويقول لها: "ما رأيك فى هذا السطر؟"

"يالك من وغد"

"لم أدّعِ أبدًا أنى غير ذلك"

ولا عجب فى أن يعودا إلى الحكايات.

تستدير يسارًا عند محل إصلاح الأحذية، وتسير متجاوزة بناية، وبعدها منزلين. وبعدها العمارة السكنية الصغيرة: "الإكلسيور". لابد أنها سميت باسم قصيدة هنرى وادثورث لونجفيلو Henry Wadsworth Longfellow. ترى لواء يحمل صورة غريبة لفارس يضحى بكل الاهتمامات الأرضية ليصعد إلى أعلى. أعلى أى شيء؟ أعلى المقعد الوثير للبرجوازيين الأتقياء. كم يثير ذلك السخرية هنا وفى هذا الوقت.

الإكلسيور مبنى حجرى أحمر من ثلاثة طوابق، وفى كل طابق أربع نوافذ بشرفات ذات حديد مجدول – أشبه بالأطناف منها بالشرفات، فلا مكان فيها لمقعد. كانت يومًا مكانًا يتميز عما حوله، وأصبحت الآن مكانًا يتعلق فيه الناس بأهداب الحياة. فى أحد الشرفات ابتدع شخص حبلاً للغسيل؛ تدلت منه مناشف مطبخ حائلة إلى اللون الرمادى وكأنها راية للواء مهزوم بالجيش.

سارت متجاوزة البناية، ثم عبرت الشارع عند زاوية الطريق التالية. وهناك توقفت ونظرت إلى أسفل وكأنما علق شيء بحذائها. نظرت إلى أسفل ثم إلى الخلف. فلا يسير خلفها أحد ولا تتبعها سيارة تسير ببطء. امرأة بدينة تصعد السلالم الأمامية بجهد تحمل حقيبة من الخيوط المتشابكة فى كلتا يديها كالأثقال؛ وطفلان رثا الثياب يطاردان كلبًا قذرًا. لا رجال بالمكان سوى ثلاث عجائز يجلسون على عتبة خارجية ينكبون على جريدة يقرءونها فيما بينهم.

استدارت ثم عادت أدراجها، وعندما وصلت إلى الإكلسيور أحنت رأسها واختبأت فى الزقاق المجاور وهرولت فى مشيها تكبح نفسها عن الجرى. الأسفلت غير مستو وكعب حذائها بالغ الارتفاع. يجب ألا يلتوى كاحلها فى هذا المكان. تشعر أنها أكثر وضوحًا للعيان، يكشفها ضوء ساطع، مع أنه لا نوافذ هناك. قلبها يتجمد، وساقاها ترتخيان. يغرس الرعب براثنه فى نفسها؛ لماذا؟

"لن يكون هناك" قالها صوت خافت فى رأسها، مكروب، باك وحزين كهديل حمامة تنوح. "لقد رحل. لقد أخذوه. لن تريه بعد ذلك أبدًا. أبدًا." وكادت تبكى.

حمقاء هى أن تلقى الخوف فى نفسها بهذا الشكل. لكن فى ذلك شىء من الحقيقة. فهو يمكن أن يختفى بأسرع مما يمكن أن تختفى هى: فلها عنوان ثابت، وهو يعرف دائمًا أين يجدها.

وتوقفت، رفعت معصمها واستنشقت رائحة الفراء المعطر الباعثة على الطمأنينة. وكان بالخلف باب معدنى، باب للخدم. طرقته برفق.

القاتل الأعمى: حارس البوابة

انفتح الباب. إنه موجود. لم يسعها الوقت لتشعر بالامتنان قبل أن يسحبها إلى الداخل. كانا عند منبسط الدرج؛ عند السلالم الخلفية. ولا ضوء هناك سوى ما ينبعث من نافذة فى مكان ما بالأعلى. قبلها ويداه على جانبى وجهها. شعرت بزغب على ذقنه مثل ورق الصنفرة. كان يرتعش، لكن ليس بسبب الإثارة، أو ليس بسببها وحدها.

وجفلت راجعة. إنك تبدو مثل قاطع طريق. لم تكن قد شاهدت فى حياتها قاطع طريق. وكانت تفكر فى أولئك الذين شاهدتهم فى عروض الأوبرا. ومنهم المهربون فى أوبرا "كارمن". تفوح منه رائحة نفاذة لفلين محترق.

قال: "آسف فقد اضطررت إلى التسلل من المعسكر على عجل. ربما كان إنذارًا كاذبًا، لكن كان علىَّ أن أترك شيئًا خلفى."

"مثل موسى الحلاقة؟"

"ضمن أشياء أخرى. تعالى، إنها هنا بالأسفل."

السلالم ضيقة: من الخشب غير المطلى، والدرابزين عرضه اثنان فى أربعة. وبالأسفل أرضية من الأسمنت. تفوح من المكان رائحة غبار الفحم، رائحة نفاذة تنبعث من باطن الأرض مثل الأحجار الرطبة فى كهف.

"إنها هنا. حجرة حارس البوابة."

قالت وهى تضحك قليلاً: "ولكنك لست الحارس. أليس كذلك؟"

"أنا هكذا الآن. أو هذا ما يظنه صاحب العقار. فلقد زارنى فجأة مرتين فى وقت مبكر من الصباح ليتأكد من أننى زودت الموقد بالوقود، لكن لا يحدث ذلك كثيرًا. فهو لا يريد أن يحصل المستأجرون على ماء ساخن، لأنه بالغ التكلفة؛ لكن يكفى ماء فاتر. الفراش هنا ليس جيدًا."

"بها فراش إذن. أغلق الباب."

قال: "إنه لا ينغلق."

بالمكان نافذة صغيرة ذات قضبان؛ وبقايا ستارة ينفذ منها ضوء غائم. أسندا مقبض الباب بمقعد مفقودة معظم دعاماته ولم يبق منها سوى شظايا خشب. فلم يكن حاجزًا يعتمد عليه. تدثرا ببطانية يفوح منها العطن، وقد كوما ستراتهما فوقها. أما الملاءة فرثة بدرجة يصعب وصفها. وكانت تشعر بضلوعه وتتحسس الفجوات بينها.

"ماذا تأكل؟"

"لا تضايقينى."

"أنت نحيف جدا. يمكننى أن أحضر إليك بعض الطعام."

"لا يمكن الاعتماد عليك كثيرًا، أليس كذلك؟ قد أموت جوعًا فى انتظار ظهورك. لا تقلقى، فسرعان ما أخرج من هنا فى وقت قريب."

"من أين؟ أتعنى هذه الحجرة، أم هذه المدينة، أم ..."

"لا أدرى. لا تزعجينى بالإلحاح."

"كل ما هنالك أننى مهتمة. الأمر يهمنى، أردت أن .."

"أغلقى هذا الموضوع."

قالت: "كما تريد. أرى أن نعود إلى ذيكرون. إلا إذا كنت تريدنى أن أرحل."

"كلا. امكثى قليلاً. أنا آسف، ولكنى متوتر. أين كنا؟ لقد نسيت."

"كان يحسم أمره ما إذا كان سيذبحها أو يحبها إلى الأبد."

"نعم تذكرت. الاختيارات المعتادة."

كان يحسم أمره ما إذا كان سيذبحها أو يحبها إلى الأبد، عندما أدرك بسمعه المرهف، الذى حباه إياه فقدان البصر، أصواتًا معدنية لكشط وسحق. سلسلة تحتك مع أخرى، أصفاد تتحرك، وتقترب عبر الممر. وكان يعرف بالفعل أن سيد العالم السفلى لم يقم بعد بزيارته التى دفع من أجلها؛ استطاع أن يعرف ذلك من حالة الفتاة. طاهرة لم تمس، كما يقال.

ماذا يفعل الآن؟ بوسعه أن ينسل خلف الباب أو أسفل الفراش، تاركًا إياها لمصيرها، ثم يظهر ثانية وينهى عمله الذى سيتقاضى عليه أجرًا. لكن من حيث الأمور كما هى، فهو يستاء أن يفعل ذلك. أو لعله ينتظر حتى تستقر الأمور فى سيرها، ويذهل رجل البلاط عن سماع أصوات العالم الخارجى، ثم ينسل خارجًا من الباب؛ ولكن ذلك ينال من شرف القتلة من حيث هم جماعة – من حيث إنهم نقابة إذا اعتبرناهم كذلك.

سحب الفتاة من ذراعها، ووضع يدها على فمها مشيرًا إلى ضرورة التزامها الصمت. وبعدها قادها خارج الفراش وخبأها خلف الباب. وتفقد الباب ليتأكد أنه ليس مغلقًا، كما هو متفق عليه. لم يتوقع الرجل أن يجد حارسًا: ففى صفقته مع الكاهنة الأعلى اشترط عدم وجود شهود. وكان على حارسة المعبد أن تترك المكان عند سماعها قدومه.

سحب القاتل الأعمى الحارسة الميتة من أسفل الفراش، ووضعها فوق الغطاء ووشاحها فى وضع يخفى شق الذبح فى عنقها. لم تكن جثتها قد بردت بعد بينما توقفت قطرات الدم عن السيل منها. سيكون الأمر بالغ السوء إذا كان مع

الرجل شمعة مضيئة؛ ففى الظلام كل القطط رمادية. ولقد تدربت عذراوات المعبد على أن يظهرن الخمود التام. وربما استغرق الرجل بعض الوقت قبل أن يكتشف أنه يضاجع امرأة أخرى، بل امرأة ميتة – يعوقه فى ذلك زى الإله الثقيل المكون من خوذة وواق للوجه.

جذب القاتل الأعمى ستائر الفراش الموشاة بالقصب مغلقا إياها بعض الشىء. ثم لحق بالفتاة ضاغطًا جسديهما نحو الحائط بقدر الإمكان.

وانفتح الباب الثقيل محدثًا صريرًا. وشاهدت الفتاة بريقًا يتقدم فوق الأرضية. لم يستطع سيد العالم السفلى الرؤية بوضوح؛ تعثر فى شىء فسب ولعن. وهو الآن يتحسس ستائر الفراش. ويقول: "أين أنت يا جميلتى؟" ولم يدهشه أنها لا تجيب، فهو يعرف أنها بكماء بما يتناسب مع الموقف.

بدأ القاتل الأعمى يسحب نفسه خارجًا من وراء الباب ومعه الفتاة. وسيد العالم السفلى يتمتم لنفسه: "كيف أتفادى ذلك الشىء اللعين." وانسل الاثنان خارجين من الباب إلى الردهة يمسك كل منهما بيد الآخر كطفلين يتجنبان رؤية الكبار لهما.

تبعتهما صيحة غضب أو رعب. استند القاتل الأعمى بإحدى يديه على الحائط وبدأ يجرى. وفى طريقه اصطدم بالمشاعل وأسقطها من أماكنها وتمنى أن تخبو.

إنه يلم بالمعبد فى شتى دقائقه مستعينًا باللمس والشم؛ فمعرفة مثل هذه الأشياء من مهامه. وهو يعرف المدينة بنفس الطريقة، فبوسعه أن يلفها كما يلف الفأر المتاهة – يعرف بواباتها، وأنفاقها، وسراديبها، وأزقتها غير النافذة، ومتاريسها، وخنادقها، ومزاريبها – بل ويعرف كلمات السر المتداولة فيها فى كثير من الأحيان. يعرف أى الأسوار يتسلق وأين مواطئ الأقدام بها. وهو الآن يدفع لوحًا من الرخام – عليه نقش بارز يمثل الإله الكسير، راعى الهاربين – والظلام يحيطهما. أدرك ذلك من الطريقة التى تعثرت بها الفتاة، وتراءى له للمرة الأولى أن وجودها معه يبطئ من حركته. ستعوقه قدرتها على الرؤية.

وعلى الجانب الآخر من السور سمع وقع أقدام تدق. فهمس لها "تعلقى بردائى" وأضاف بلا ضرورة: "لا تنبسى بكلمة.". إنهما الآن فى شبكة الأنفاق الخفية التى تتيح للكاهنة العليا وجماعاتها معرفة شتى الأسرار القيمة من أولئك الذين يأتون إلى المعبد لمقابلة الالهة أو الاعتراف أو الصلاة، لكن عليهما الخروج منها بسرعة بقدر الإمكان. فهى أول مكان يخطر للكاهنة العليا البحث فيه. ولا يمكنه الخروج بها عبر الحجر المتخلخل فى السور الخارجى والذى دخل منه فى الأساس. فربما أدرك سيد العالم السفلى المزيف ذلك، حيث إنه هو الذى رتب للقتل وحدد الوقت والمكان، ولابد أنه خمن الآن خيانة القاتل الأعمى.

وتناهى إليه صوت جرس برونزى يكتمه حجر سميك. سمعه بقدميه.

قاد الفتاة من سور إلى سور، ثم هبط بها سلما ضيقًا شديد الانحدار. وكانت تنشج من الخوف؛ فلسانها المقطوع لم يعطل قدرتها على ذرف الدموع. أخذته الشفقة عليها. وتحسس طريقه إلى قناة صرف مهجورة يعرف وجودها بالمكان، ورفعها إليها وساعدها بيده لتتحرك فيها وتدلى إلى جوارها. والآن لابد أن يواصلا طريقهما بحركة دودية. لم تكن الرائحة طيبة، ولكنها رائحة قديمة لفضلات آدمية متجلطة تحولت إلى غبار.

والآن ها هو يستنشق الهواء النقى ويختبره بحثًا عن بخار المشاعل.

وسألها: "هل هناك نجوم." فأومأت بالإيجاب. إذن فلا سحب. ياله من حظ سيئ. فلابد أن يضيء اثنان من الأقمار الخمسة – إنه يعرف ذلك من تاريخ الشهر – وسرعان ما يتبعه الثلاثة الآخرون. يمكن رؤية اثنين منها بوضوح طوال الليل، ثم يتوهجان أثناء النهار.

لن يرغب المعبد فى أن تنتشر قصة هروبهما – فذلك قد يفقده هيبته وربما تسبب فى إحداث شغب واضطراب. ومن ثم سيختارون فتاة أخرى للتضحية: ومن يكتشف الأمر والنقاب على وجهها؟ لكن سيتعقبهما الكثيرون سرًا وبلا هوادة.

يمكن أن يختبئا هما الاثنان فى حفرة، ولكن لابد أن يخرجا عاجلا أو آجلا من أجل الطعام والشراب. يمكنه أن يتدبر أموره بمفرده، لكن ليس كلاهما.

يمكنه أن يسقطها فى خندق، أو يطعنها، أو يغرقها فى بئر. لكن كلا، إنه لا يستطيع.

كان هناك دائمًا وكر العميان. فإليه يذهبون جميعًا بعد انتهاء أعمالهم، يثرثرون ويتقاسمون الغنائم ويتفاخرون بما أنجزوه. ومن الجرأة أنه يختفى مباشرة تحت قاعة الحكم فى القصر الرئيسى، وهو عبارة عن كهف عميق مفروش بالبسط – تلك البسط التى أُجبر القتلة على صناعتها فى طفولتهم والتى سرقوها منذ ذلك الحين. إنهم يعرفونها باللمس، وغالبًا ما يجلسون عليها يدخنون ذلك العشب المثير للأحلام ويمررون أصابعهم على التصميمات وألوانها الرائعة، يتذكرون ما كانت عليه تلك الألوان عندما كانت لهم أعين يبصرون بها.

ولكن القتلى العميان وحدهم من يسمح لهم بدخول الكهف. فهم جماعة منغلقة على ذاتها لا يدخلها الغرباء إلا جزء من الغنائم. ذلك إضافة إلى أنه خان شرف المهنة بأن أبقى على حياة شخص تقاضى أجرًا لقتله. فأولئك القتلة محترفون؛ وهم يفخرون بأنهم يلتزمون بعهودهم، ولا يطيقون خرق ميثاق الأخلاق لديهم. سيقتلونه بلا شفقة، ويقتلونها هى الأخرى بعده.

ربما استؤجر أحد رفاقه بمنتهى السهولة لتعقبهما. على طريقة أرسل لصًا للقبض على لص آخر. ومن ثم يقضى عليهما عاجلاً أو آجلاً. عطرها وحده يفضحهما – فقد أغرقوها بالعطر.

لابد أن يخرج بها من سيكل نورن – يخرج بها من المدينة، ومن الإقليم المعروف. يعرضهما ذلك للخطر، لكنه ليس فى فداحة خطر بقائهما. ربما استطاع الوصول بها إلى الميناء ومنه إلى ظهر سفينة. ولكن كيف لهما التسلل عبر البوابات؟ فالبوابات الثمانية مغلقة وعليها حراسة، كما هو المعتاد فى الليل. بمفرده

يستطيع تسلق الأسوار - يمكنه أن يتشبث بأصابع يديه وقدميه كالبرص - أما وهى معه فكارثة.

هناك طريقة أخرى. فليرهف السمع لكل خطوة ثم يهبط بها التل من جانب المدينة الأقرب إلى البحر. فكل ينابيع المياه ومجاريها فى سيكل نورن تتجمع فى قناة واحدة تحملها إلى الخارج أسفل سور المدينة عبر نفق على شكل قنطرة. وهناك تعلو المياه عن قامة الرجل ويسير التيار سريعًا، ومن ثم لا يحاول أحد أبدًا دخول المدينة من هذا الطريق. لكن ماذا عن الخروج؟

ستزيل المياه المتدفقة الرائحة.

هو نفسه يستطيع العوم. فهو إحدى المهارات التى يحرص القتلة على تعلمها. وهو يفترض، محقا فى افتراضه، أن الفتاة لا تعرف العوم. طلب منها أن تخلع كل ملابسها وتربطها فى صرة. وبعدها خلع عباءة المعبد وربط ملابسه مع ملابسها فى الصرة. ربط النسيج حول كتفيه وحول معصميها، وطلب منها فى حال إذا انحلت العقدة ألا تفلته مهما حدث. وعندما يصلان إلى طريق القنطرة يجب أن تحبس أنفاسها.

تستيقظ طيور النيرك nyerk من نومها؛ يتناهى إلى سمعه نعيقها المبكر؛ فيعرف أنه سرعان ما ينتشر الضوء. وعلى بعد ثلاثة شوارع يسمع أحدًا قادماً، خطواته ثابتة تعرف طريقها، كأنما يبحث عن شىء. فجذب الفتاة نحو المياه الباردة فى شىء من القيادة، وشىء من الدفع. شهقت ولكنها فعلت ما طلبه منها. وطافا عبر النفق، وراح هو يتحسس اتجاه التيار الرئيسى، يصغى إلى صوت اندفاع المياه وقرقرتها وهى تدخل القنطرة. قد تتقطع أنفاسهما سريعًا، ويصطدم رأسه بحجر بعد فوات الأوان. وبعدها يغطس.

المياه مبهمة، فلا شكل لها ويمكن للمرء أن يشقها بيده، وهى مع ذلك قد تكون قاتلة. فقوتها تكمن فى قدرتها على الدفع والقذف. فكم من أشياء تصطدم بها وبسرعة فائقة. والشىء نفسه ينطبق على ... - ولكن لا عليك.

أمامهما طريق طويل مضنٍ. يشعر بأن رئتاه ستنفجران ويداه تخوران. يشعر بها تنسحب وراءه، ولا يعرف ما إذا كانت قد غرقت. على الأقل التيار معهما. احتك بجدار النفق؛ شعر بشيء يتمزق، ولا يعرف إن كان نسيجًا أم لحم آدمي.

وعلى الجانب الآخر من طريق القنطرة يطوفان على السطح؛ يسمعها تسعل فيضحك ضحكة خافتة. يمسك برأسها يرفعه فوق الماء، بينما هو يستلقى على ظهره؛ فبتلك الطريقة يطوفان مع المياه فى القناة إلى مسافة غير قصيرة. وعندما أدرك أنهما يبعدان مسافة كافية بما يكفل لهما الأمان، رسا بها على الشاطئ يسحبها عاليًا صوب صخرة منحدرة على الجسر. وتحسس ظل شجرة. كان التعب قد بلغ منه مبلغه، ولكنه كان يشعر بالزهو، وسعادة غريبة تحرقه شوقًا. فلقد أنقذها. شعر بقدرته على الرأفة للمرة الأولى فى حياته. ترى إلام قد يؤدى به تخليه عن طريقه المختار؟

وسألها: "هل يوجد أحد بالمكان؟" توقفت لتنظر، ثم هزت رأسها بالنفى. "هل توجد حيوانات من أى نوع؟" جاءت الإجابة بالنفى مرة أخرى. علق ملابسهما على أغصان الشجرة؛ وبينما يذوى ضوء الأقمار ذات ألوان الزعفران والهيلوتروب والماجنتة، احتواها برقة كالحرير وغاص داخلها. كان جسدها باردا وتفوح منها رائحة ملحية خفيفة مثل السمك الطازج.

كانا يرقدان يلف كل منهما ذراعه حول الآخر، وقد راحا فى سبات عميق عندما تعثر فيهما ثلاثة جواسيس أرسلهم أرباب الدمار لاستطلاع منافذ المدينة. فأيقظوهما بغلظة، ثم استجوبهما أحد الجواسيس الذى يتحدث لغتهما، وإن كان ليس بإجادة تامة. وقال للآخرين إن هذا الفتى أعمى، والفتاة بكماء. وتعجب منهما الجواسيس الثلاثة. فكيف استطاعا الوصول إلى هنا؟ فمن المؤكد أنهما لم يخرجا من المدينة؛ فكل البوابات مغلقة. يبدو وكأنهما هبطا من السماء.

الإجابة واضحة: فلابد أنهما من رسل الآلهة. وسمحوا لهما بكل أدب أن يرتديا ملابسهما التى كانت قد جفت، وامتطيا معًا جواد أحد الجواسيس واقتيدا لمقابلة خادم المسرات. سعد الجواسيس أيما سعادة بما فعلوه، وكان القاتل الأعمى يعرف أكثر بكثير مما يقول. وكان قد سمع حكايات غامضة عن هؤلاء الناس ومعتقداتهم الغريبة المتعلقة برسل الآلهة. فمن الشائع أن هؤلاء الرسل يوصلون رسالاتهم فى أشكال مبهمة، ومن ثم حاول أن يتذكر كل الألغاز والأحاجى والمفارقات التى عرفها فى حياته؛ طريق الهبوط هو نفسه طريق الصعود. ما الذى يسير على أربع فى الفجر، وعلى اثنين فى الظهر، وعلى ثلاثة فى المساء؟ يؤخذ اللحم ممن يلتهم الطعام، ومن القوى تنبع الحلاوة. ما هو الشىء الملون كله بالأسود والأبيض والأحمر؟

ليس هذا ذيكرونيا، فلم تكن لديهم صحف.

اكتبى ذلك ودونى ملاحظاتك. كيف يكون الشىء أقوى من إله وأكثر شرًا من الشيطان؛ يملكه الفقراء ويفتقره الأغنياء، وإذا أكله المرء يموت؟

"ذلك جديد."

"خمنى"

"أستسلم."

"لا شىء."

استغرقت دقيقة لتفكر. "لا شىء. فعلاً. هذا يحل المشكلة.

وبينما هما فوق صهوة الجواد لف القاتل الأعمى ذراعه حول الفتاة. كيف يحميها. خطرت له فكرة مرتجلة ووليدة اليأس، ولكنها مع ذلك قد تجدى. سيؤكد أن كليهما رسول إلهى، لكن من نوع مختلف. فهو من يتلقى الرسائل ممن لا يقهر، لكن هى وحدها القادرة على تفسيرها. وستفعل ذلك بيديها وبإشارات من أصابعها. وهو وحده من كشفت له طريقة قراءة هذه الإشارات. وسيضيف أنه فى حال أن

تتبادر لهم أى أفكار قذرة، لا يسمح لأى رجل أن يلمس الفتاة البكماء بطريقة غير لائقة أو بأى طريقة على الإطلاق. وذلك فيما عداه هو بالطبع. وإلا ستفقد قدرتها.

إنها فكرة مضمونة النجاح طالما سيصدقونها. يتمنى أن تكون الفتاة سريعة البديهة وتستطيع الارتجال. وتساءل ما إذا كانت تعرف أى إشارات.

وقال: "هذا كل ما لدى اليوم. أحتاج أن أفتح النافذة."

"ولكن الطقس شديد البرودة."

"ليس بالنسبة لى. أشعر بالمكان مثل خزانة الملابس. أختنق."

تحسست جبينه، وقالت: "أعتقد أن لديك بوادر مرض ما. بوسعى الذهاب إلى الصيدلية."

"كلا. فأنا لم أمرض أبدًا."

"ماذا حدث؟ ماذا بك؟ إنك قلق."

"لست قلقًا بالمعنى. أنا لا أقلق أبدًا. ولكنى لا أثق فيما يحدث. لا أثق فى أصدقائى. فى من يدعون بأصدقائى."

"لماذ؟ ماذا يريدون؟"

قال: "كلهم سفلة. هذه هى المشكلة."

جريدة ماى فير، فبراير ١٩٣٦

أخبار المجتمع فى تورنتو فى عز الظهر

يكتبها يورك

فى منتصف شهر يناير امتلأ فندق رويال يورك بالمحتفلين فى ملابسهم الغريبة، وذلك فى الحفل التنكرى الخيرى الثالث لهذا الموسم والذى يقام لمساعدة دار حضانة "لقطاء وسط المدينة. وجاء موضوع هذا العام بعنوان "اكسانادو" "Xanadu" وكان موضوع العام الماضى مشهد بعنوان "تيمورلنك فى سمرقند"، وقد أقيم فى قاعة بيوكس أرتس بول Beaux Arts Ball . وتحت القيادة الماهرة لمستر والاس واينانت تحولت قاعات الرقص الثلاث إلى "قبة مهيبة للمسرات" تتنافس فى الرونق والبهاء، وفيها يجتمع كوبلاخان بأفراد حاشيته المتألقة. ومعهم سلاطين دول أجنبية من عوالم الشرق وحاشياتهم – من الحريم والخدم والراقصات والعبيد وأيضًا حسناوات يعزفن على آلة القانون، وتجار، ومحظيات، وكذلك الزهاد النساك، وجنود من شتى الدول وكثير من الشحاذين – يرقص الجميع فى سعادة حول مشهد نبع "ألف، النهر المقدس"، وتحت فستونات بلورية متلألئة فى "كهف الثلوج" المركزى، وقد صبغهم اللون الأرجوانى للإله باخوس يسقط عليهم من مصباح كاشف فوق رؤوسهم.

وامتدت حلبة الرقص أيضًا إلى التعريشتين المتجاورتين فى الحديقة، والتى امتلأ كل منهما بالزهور بينما استمرت أوركسترا الجاز تعزف فى كل قاعة من قاعات الرقص. ولم نسمع أيا من "أصوات الأجداد يتنبأ بالحرب"، فقد سارت الأمور جميعًا فى تناغم عذب بفضل القيادة الحازمة لمسز وينفريد جريفون بريور، منسقة الحفل وصاحبة الدعوة، والتى كانت تختر فى رداء لأميرة من راجستان من اللونين القرمزى والذهبى. وضمت لجنة الاستقبال أيضًا مسز ريتشارد تشاس جريفون، وقد ارتدت زى فتاة حبشية باللونين الأخضر والفضى، ومسز أوليفر ماكدونيل فى رداء صينى أحمر، ومسز هيو إن هيلر فى بهاء سلطانة فى ثوب بلون الماجنتة.

هو الآن فى مكان آخر، حجرة استأجرها بالقرب من ملتقى السكك الحديدية. تقع فوق مخزن للبضائع. تظهر فى نافذتها المفصلات ومسامير الربط. فهى لا تعمل بكفاءة عالية. لا شىء هنا يعمل بكفاءة. يهب الهواء محملاً بذرات الرمال، وتتناثر الأوراق المتغضنة على الأرض. وتشكل الأرصفة خطرًا لما يتراكم فوقها من جليد لا يجرفه أحد.

وفى مسافة ليست ببعيدة تنوح القطارات وتحول اتجاهاتها، وتنطلق صفاراتها عن بعد. لا ترحيب إنما وداع دائمًا. بوسعه أن يقفز إلى إحداها، إذا سنحت فرصة: فهى دائما مراقبة من شرطة المرور، لكن لا أحد يعرف أبدًا متى. وعلى كل فهو مسمر فى مكانه فى الوقت الحالى، وليواجه الحقيقة ويعترف أن ذلك بسببها؛ مع أنها مثل القطارات لا تأتى أبدًا فى موعدها ودائمة الرحيل.

ترتفع الحجرة بمثابة صفين من درجات الدرج الخلفى ذى الموطئ المطاطى والذى بلى من الاستعمال، ولكنها على الأقل ذات مدخل منفصل. ذلك إذا استثنينا الزوجين الشابين على الجانب الآخر من الحائط. فهما يستخدمان نفس الدرج، لكن قلما يراهما، فهما يبكران جدًا فى الاستيقاظ. وهو مع ذلك يستطيع سماعهما فى منتصف الليل، عندما يحاول العمل؛ فهما يمارسان أعمالهما فى نشاط وحيوية وكأنما لا غد هناك، وكأن فراشهما يصر كالفئران، مما يدفعه للجنون. ربما يظن المرء أنهما قد يتوقفان عن العمل مع وجود طفل يصرخ، لكن كلا، فهما يركضان فى كل مكان، وكل ما هنالك أن يسرعا فى الأداء.

أحيانًا كان يلصق أذنه بالجدار ليسمع. ويفكر أما من كوة أحدثتها عاصفة. ففى الليل يتساوى البقر.

تقاطع طريقه مع المرأة مرتين وهى تمشى بخطى متثاقلة، وتضع عصابة على رأسها مثل جدة روسية، وتنوء بما تحمل من لفافات مع عربة الطفل. فهما يدسان هذا الشىء عند منبسط الدرج الأسفل، حيث تبقى فاغرة فاها الأسود مثل شراك غريب للموت. ساعدها مرة فى حملها، وابتسمت له ابتسامة خاطفة،

فظهرت أطراف أسنانها مشربة بزرقة مثل اللبن المقشوط. وجازف بسؤالها: "هل تزعجك آلتى الكاتبة بالليل؟" – ملمحًا إلى أنه كان متيقظًا ساعتها وأنه سمعهما عرضًا. "لا، إطلاقًا!" وحدقت فيه بنظرة بكماء كنظرة بقرة. دوائر قاتمة أسفل عينيها وخطوط محفورة تمتد من أنفها هابطة إلى جانبى الفم. يشك فى أن القيام بالعمل فى المساء فكرتها. فهما يحاولان إنجاز شىء فى سرعة فائقة، والرجل يدخل ويخرج كأنه من لصوص البنوك. مكتوب على وجهها أنها خادمة، فربما كانت تحملق فى السقف وتفكر فى مسح الأرضية.

أنشئت حجرته بتقسيم حجرة كبيرة إلى نصفين، مما يعلل رقة الحائط وخفته. كان الفضاء المتاح أمام النافذة ضيقًا وباردًا: فنسمات الهواء تتسرب من إطار النافذة، ومشعاع المدفأة يقعقع ويقطر منه الماء، لكن لا تخرج منه حرارة.

والمرحاض مدسوس فى ركن بارد، اصطبغت سلطانيته ببقع برتقالية سمية بفعل البول القديم والحديد، وحجيرة الدش من الزنك تحيطها ستارة من البلاستيك اتسخت بفعل الزمن. أما الدش نفسه فعبارة عن خرطوم أسود يمتد صاعدًا على جانب واحد من الحائط وله رأس معدنى مستدير مثقب. والماء الذى يقطر منه فى برودة الثلج. والسرير ضيق من ذلك النوع القابل للطى، ردىء الصنع، حتى إنه يخرج أحشاء المرء بضغطها إلى أسفل؛ فهو عبارة عن نضد من خشب الأبلاكاش ثبت معًا بالمسامير المستخدمة فى صناعة الأثاث، وطلى باللون الأصفر منذ زمن مضى. والموقد بعين واحدة. القذارة تغطى كل شىء وتجعله مثل السخام.

مقارنة بحيث يجب أن يكون، فالمكان قصر.

لقد تخلى عن أصدقائه وهجرهم، ولم يترك عنوانًا وراءه. فتدبير أمر جواز سفر أو جوازى السفر اللذين يحتاجهما لا يستغرق كل هذا الوقت. لقد حفظوه مجمدًا كتأمين؛ فإذا قبض على شخص قيمته أكبر منه عندهم قايضوا به. وربما كانوا يفكرون فى الوشاية به لدى الشرطة على أى حال. فهو شخص يسهل خداعه والإيقاع به؛ ويمكن الاستغناء عنه حيث إنه لم يكن أبدًا مناسبًا لتصوراتهم وأفكارهم. مسافر لم يسافر بعيدًا بما يكفى أو بسرعة كافية. لقد كرهوا سعة

اطلاعه وثقافته على حالها؛ فكرهوا نزعة الشك لديه التى حسبوها خطأ هزلا فى وقت الجد. وذلك لأنه قال مرة: "لا يصبح جونز مصيبًا لأن سميث مخطئ." فربما دونوها للرجوع إليها فى المستقبل. فعندهم قوائمهم الصغيرة.

ربما يريدون أن يكون لهم شهيدًا، رجلهم الوحيد مثل ساكو وفانستى. فبعد شنقه تبارى الشيوعيون الأنذال يكشفون براءته فى كل الصحف ويغضبون من أجل انتهاك الأخلاق. "انظروا ماذا يفعل النظام! قتل على الفور! لا عدل لديهم!" هكذا يفكر الرفقاء. فالأمر عندهم يشبه لعبة الشطرنج. سيكون هو البيدق الذى يضحون به.

ذهب صوب النافذة وتطلع منها. وقد تعلقت بالزجاج الخارجى هدابات جليد مثل أنياب الفيل الحائلة نحو اللون البنى، والذى اكتسبته من السطح. خطر له اسمها وسط دائرة من الأضواء الكهربائية ذات الإثارة الجنسية مثل أضواء النيون الزرقاء. أين هى؟ لن تستقل سيارة أجرة، كلا لن تستقلها مباشرة إلى المكان، فهى أذكى من ذلك. وحدق نحو موقف السيارات على أمل أن يراها متجسدة أمامه. تخطو صوب المكان بساقين متلألئتين، وحذاء بوت عالى الكعبين، وتصبغ خديها بأرقى أنواع مساحيق التجميل. لماذا يفكر هكذا، على حين لو أن رجلاً آخر قال عنها ذلك لضربه؟

ستكون مرتدية معطفًا من الفراء. سيحتقرها لأجله، ويطلب منها ألا تخلعه. معطف كامل من الفراء.

آخر مرة رآها كانت هناك كدمة على فخذها. تمنى لو كان هو الذى أحدثها. "ما هذا؟" "اصطدمتُ بالباب." يعرف دائمًا متى تكذب. أو يظن أنه يعرف. فاعتقاده أنه يعرف قد يكون شركًا. أخبره أحد أساتذته السابقين يومًا بأن له عقلاً فى صلابة الماس، وامتلأ زهوًا وقتها. أما الآن فهو يتأمل طبيعة الماس. فمع أنه حاد ويتلألأ ونافع فى قطع الزجاج، إلا أنه إنما يلمع عند انعكاس الضوء فقط. فلا جدوى له فى الظلام.

لماذا تظل تأتى إليه؟ هل هو لعبة خاصة تلعبها؟ هل الأمر هكذا؟ لن يدعها تدفع ثمن شيء، لن يدع نفسه شيئًا يشترى. إنها تريد منه قصة حب، لأن الفتيات يفعلن ذلك، أو الفتيات من أمثالها ممن يتوقعن أن تمنحهن الحياة شيئًا. لكن لابد أن هناك زاوية أخرى. الرغبة فى الانتقام أو العقاب. فللنساء طرق غريبة فى جرح شخص آخر. فهن يجرحن أنفسهن بدلاً منه؛ أو هن يفعلن ذلك حتى لا يعلم الرجل أنه جرح إلا بعد فوات الأوان بكثير. بعدها يكتشف الأمر، ويشعر بامتهان رجولته. رغم هاتين العينين، وصفاء انسياب خط العنق، يلمح فيها أحيانًا شيئًا معقدًا وملطخا.

الأفضل ألا يخترع لها شكلاً فى غيابها. الأفضل أن ينتظر حتى تصبح هنا حقيقة. وبعدها يمكن أن يشكلها ويركبها وهى تتحرك.

لديه منضدة بريدج، ونبيذ معتق اشتراه من سوق بيع السلع القديمة، ومقعد واحد قابل للانطواء. جلس إلى الآلة الكاتبة، ونفخ فى أصابعه، وأدار فيها الورق.

فى نهر جليدى بجبال الألب (أو الأفضل جبال روكى، بل الأفضل فى جرين لاند) عثر بعض المستكشفين على سفينة فضاء مطمورة فى فيض من الجليد الشفاف. تشبه فى شكلها المنطاد ذا المحرك ومسننة من الأطراف مثل ثمرة البامية. يشع منها وهج غريب مخيف يتلألأ فى الثلج. ما لون هذا الوهج؟ الأفضل أن يكون أخضر مع مسحة من الاصفرار مثل شراب الأفسنتين.

أذاب المستكشفون الجليد. ماذا استخدموا فى ذلك؟ موقد لحام تصادف وجوده معهم؟ شعلة كبيرة من النيران استخدموا فيها الأشجار القريبة؟ إذا استخدمت الأشجار فالأفضل العودة إلى جبال روكى. فلا توجد أشجار فى جرين لاند. ربما يمكن استخدام بلورة كبيرة بوسعها تكبير أشعة الشمس. فقد تعلم الأولاد فى الكشافة – التى كان التحق بها لفترة وجيزة ـ استخدام هذه الطريقة لإشعال النيران. وبعيدًا عن أعين رائد الكشافة المرح ذى الوجه الأحمر الحزين، والمغرم بالغناء الجماعى وإسماك البلطة الاستوائية، كانوا يجربون عدساتهم المكبرة على

أذرعهم العارية ليروا من منهم يتحملها أطول فترة. وبتلك الطريقة أشعلوا النيران فى أوراق الصنوبر وقصاصات من ورق التوليت.

كلا ستكون البلورة العملاقة بالغة الاستحالة.

ينصهر الجليد بالتدريج. ويحذرهم x، وهو أسكتلندى جهم، من العبث بالسفينة، فلا نفع من ورائها، أما Y، وهو عالم إنجليزى، فيرى أنهم لابد وأن يضيفوا إلى خزائن المعرفة الإنسانية، بينما يقول z، وهو أمريكى، إن هذا الشىء يساوى ملايين. وترى B، وهى فتاة شقراء ذات فم مكتنز مثل الهراوة، إن الأمر يمتلىء بالإثارة. إنها روسية، وساد الاعتقاد بأنها تؤمن بالعلاقات الحرة. لم يجرب ذلك كل من x و Y و Z مع أنهم جميعا كانوا يتمنونه – لكن Yفعلها فى عقله الباطن و X فعلها وهو يشعر بالذنب أما Z ففعلها بفجاجة.

هو دائمًا يسمى شخوصه بالأحرف الأولى فى البداية ثم يكمل الأسماء بعد ذلك. ويرجع فى ذلك أحيانا إلى دليل التليفونات وأحيانًا أخرى إلى الكتابات المنقوشة على شواهد القبور. وهو دائمًا يرمز للمرأة بالحرف B فهو يرمز إلى Beyond Belief (فوق العقل) وBird Brain (عقل طائر) و Big Boobs (نهدين كبيرين)، فذلك يعتمد على حالته المزاجية. وهو بالطبع يرمز إلى Beautiful Blonde (شقراء جميلة).

تنام B فى خيمة منفصلة، ومن عادتها أن تنسى قفازها الراحى وتتجول ليلاً مخالفة الأوامر. وهى تعلق على جمال القمر والتآلف الموسيقى فى عواء الذئاب، وتتفاهم بألفة مع الكلاب التى تجر زحافات الجليد، وتتحدث إليها بلغة الأطفال الروسية، وترى أن لها أرواحًا (بالرغم من اعتناقها المادية العلمية الرسمية). وعلى طريقته الأسكتلندية المتشائمة يخرج X من ذلك بأن هذه الكلاب ستكون مصدر إزعاج إذا نفد لديها الطعام واحتاجت أن تأكل شيئًا.

تحرر من الجليد الجزء المتوهج الذى يشبه فى تركيبه ثمرة البامية، لكن لم يكن أمام المستكشفين سوى بضعة دقائق لفحص المادة المصنوع منها – وهى

سبيكة معدنية رفيعة غير معروفة للإنسان – وذلك قبل أن يتبخر تاركًا خلفه رائحة اللوز أو البتشولى أو السكر المحروق أو الكبريت أو السيانيد.

ظهر للعيان شكل آدمى الهيئة، يتضح أنه ذكر، يرتدى حلة تلتصق بالجسد فى لون أزرق مشرب بخضرة مثل ريش الطاووس، وله أجنحة كأجنحة الخنفساء ذات لمعان أخاذ. كلا. ذلك يجعله أشبه كثيرا بالجان. فليرتدى حلة تلتصق بالجسد فى لون أزرق مشرب بخضرة مثل شعلة الغاز، لها لمعان أخاذ مثل الجازولين المسكوب على الماء. وهو مازال مطمورا فى الجليد، والذى لابد وأنه تشكل داخل الثمرة. بشرته ذات لون أخضر فاتح، وأذناه مدببتان بعض الشىء، وشفتاه واضحتا المعالم، وعيناه واسعتان ومفتوحتان. يشغل البؤبؤ معظم العينين كما فى البوم. وشعره داكن الاخضرار يلتف فى خصلات كثيفة ويلتقى فى عقدة مدببة واضحة عند مفرق الرأس.

شىء لا يصدق. كائن من الفضاء الخارجى. ترى كم من الزمن مكث هناك؟ عشرات السنين؟ قرون؟ أم مليون سنة؟

من المؤكد أنه ميت.

ماذا سيفعلون؟ يرفعون كتلة الجليد التى تحيط به، ويعقدون مؤتمرًا بينهم. (يقول X إنهم لابد وأن يتركوا المكان فى الحال، ويستدعوا الجهات المسئولة. ويريد Y أن يشرحه فى التو، ولكنهم ذكروه بأنه قد يتبخر مثل سفينة الفضاء؛ ويؤيد Z بشدة إخراجه للحضارة ونقله على زحافة جليد ثم تغليفه فى جليد جاف وبيعه لأعلى سعر؛ وأوضحت B أن الكلاب التى تجر زحافاتهم أخذت تنمو لديها ميول مرضية وبدأت تعوى، ولكنهم لم يعيروها اهتمامًا انطلاقًا من طبيعتها الروسية الأنثوية التى تميل إلى المبالغة فى تناول الأمور.) وفى النهاية – وقد حل الظلام، فأضواء الشمال لها أسلوبها الغريب – قرروا وضعه فى خيمة B . ومن ثم ستضطر هى أن تنام فى الخيمة الأخرى مع الرجال الثلاثة، مما يتيح بعض

الفرص لاختلاس المتعة الجنسية على أضواء الشموع، فمن المؤكد أنها تعرف كيف تملأ الرداء الخاص بتسلق جبال الألب وكذلك كيس النوم أيضًا. وفى الليل سيخصصون أربع ساعات للمراقبة، يعسعسون فى شتى الاتجاهات. وفى الصباح سيدلون بالكثير حتى يصلوا إلى قرار نهائى.

سارت الأمور على ما يرام أثناء نوبة مراقبة كل من X و Y و Z . ثم حان دور B للمراقبة. فقالت إن لديها شعورًا غريبًا موحشًا، حدسًا قويًا بأن الأمور لن تكون على ما يرام، ولكنهم تجاهلوها حيث إن من عاداتها ترديد مثل هذا القول. وأيقظها Z مجددًا، والذى كان يرقبها بدوافع شبقية وهى تتمطت وتخرج من كيس النوم ثم تدس نفسها فى تمعج فى حلة الخروج. وأخذت الفتاة مكانها فى الخيمة مع الكائن المجمد. جعلها اهتزاز ضوء الشمعة تدخل فى حالة من النعاس؛ ووجدت نفسها تتساءل كيف يبدو الرجل الأخضر فى موقف رومانسى – فلحاجبيه جاذبية، مع أنه بالغ النحافة. ومال رأسها من النعاس.

وبدأ الكائن المغلف بالجليد يتوهج بضوء خافت فى البداية ثم أخذ بريقه يتزايد شيئًا فشيئًا. وسالت المياه فى صمت على أرض الخيمة. فقد ذاب الجليد. واعتدل الكائن جالسًا ثم نهض واقفًا. وراح يقترب من الفتاة النائمة فى صمت. وتحرك الشعر الأخضر الداكن على رأسه وانحل خصلة خصلة، واستطالت الخصل لتصبح كمجسات الأخطبوط. والتفت إحدى هذه المجسات حول عنق الفتاة، وأخرى حول مفاتن جسدها الثرية، وثالثة أحكمت لفتها حول فمها. واستيقظت الفتاة كأنما من كابوس، ولكنه لم يكن كابوسًا: فكان وجه الكائن الفضائى قريبًا من وجهها، ومجساته الباردة تقبض عليها بشراسة؛ وكان يحدق فيها بشوق ورغبة لم تر مثيلهما من قبل، وباحتياج مجرد مطلق. لم ينظر إليها رجل من البشر أبدًا بتلك النظرات الحادة المركزة. قاومته قليلاً ثم استسلمت لعناقه.

لا يعنى ذلك أنه كان أمامها اختيار.

انفتح الفم الأخضر كاشفًا عن أنياب، اقتربت من عنقها. فهو يحبها كثيرًا لدرجة أنه سيمتصها – يجعلها جزءًا منه إلى الأبد. فيصبح كلاهما شخصًا واحدًا. لقد فهمت ذلك دون كلام، وذلك لأنه ضمن ملكات الرجل الأخرى أن له القدرة على التواصل بالتخاطر. وتنهدت قائلة: "نعم!"

لف لنفسه سيجارة أخرى. هل سيترك B تؤكل وتشرب بهذه الطريقة؟ أم تشعر كلاب الزلاجات بمأزقها، وتنفلت من مقاودها، وتندفع تمزق نسيج الخيمة وتقطع الرجل إربًا فيتناثر مجسًا مجسًا. هل يهرع لنجدتها واحد من الآخرين؟ يفضل فى ذلك Y العالم الإنجليزى البارد. هل يسفر الأمر عن معركة؟ قد يكون ذلك جيدًا. وقبل أن يموت يوجه الكائن الغريب أشعته نحو Y يحدثه بالتخاطر: "أيها الأحمق، كان بوسعى أن أعلمك كل شىء!" وتسيل دماؤه فى لون غير لون دماء البشر. قد يكون اللون البرتقالى مناسبًا.

أو ربما يتبادل الرجل الأخضر السائل الوريدى مع B وتصبح مثله – نسخة كاملة مخضرة من نفسها. وبعدها يصبحان اثنين، فيسحقان الآخرين إلى مسحوق هلامى، ويضربان أعناق الكلاب، وينطلقان لغزو العالم. فلتدمر المدن الثرية الطاغية وليتحرر الفقراء. ويعلن كلاهما: "إننا عصا الرب!" وبحوزتهما الآن أشعة الموت، إضافة إلى الثروة المعرفية لدى رجل الفضاء، وبعض المفصلات ومفاتيح الربط التى نهباها من مخزن قريب للبضائع، فمن يختلف على ذلك؟

أو لعل الكائن الغريب لا يشرب دم B على الإطلاق – إنما يحقن نفسه داخلها! فينكمش جسده ويتغضن مثل حبة العنب، ويتحول جلده الجاف المتغضن إلى سديم، وفى الصباح لن يبقى له أثر. ويعثر الرجال الثلاثة على B ، فتقول وهى تفرك عينيها من النعاس: "لا أدرى ماذا حدث." وحيث إنها لم تقل ذلك من قبل، سيصدقونها فى هذا. ويقولون: "ربما نحن جميعًا نهلوس. إنه الشمال والأضواء الشمالية التى تفسد عقول البشر. فهى تثقل الدماء بفعل البرودة." ولن يلمحوا الشعاع الأخضر الغريب الذى يشى بذكاء غير معتاد فى عينيها الخضراوين بالفعل. ولكن الكلاب ستدرك ذلك. فتشم التغير، وتزمجر فى نواح حزين جاذبة أذنيها إلى الوراء، فلم تعد صديقة لها. "فماذا حدث لتلك الكلاب؟"

يمكن أن تسير الأحداث بطرق شتى.

الصراع، والحرب، والإنقاذ. موت الكائن الغريب. تتمزق الملابس أثناء الأحداث. وهى هكذا دائمًا.

لماذا يكتب هذه النفايات؟ لأنه يحتاج إلى... – وإلا سيكون مفلسًا تمامًا، وأن يبحث عن عمل آخر فى تلك الظروف الحرجة سيجعله مكشوفًا وهو ما لا تقتضيه الحكمة على الإطلاق. وأيضًا لأن بإمكانه كتابتها، وهو بارع فيها. ولا يتاح ذلك لكل شخص، فلقد حاول كثيرون، وفشل كثيرون. تطلع يومًا إلى ما هو أكبر من ذلك، إلى كتابات أكثر جدية. أراد أن يكتب حياة الناس كما هى فى الواقع. أراد أن يغوص إلى أحط المستويات، إلى مستوى الأجور التى لا تحمى من الجوع ولا تفى بالخبز، وعاهرات كالمعدن الخبيث منقوعات فى البؤس والفقر يتقاضين أحط الأجور، وسباب يلقى أمام الوجوه وقىء فى مصارف المياه. يريد أن يفضح ما يفعله النظام وآلياته، وطريقته فى أن يبقى على الناس أحياء طالما لهم بعض التأثير والنفع، وكيف أنه يستغلهم ويحولهم إلى تروس أو سكارى غافلين، فيسحق وجوههم فى الوحل بطريقة أو بأخرى.

ومع ذلك فلن يقرأ العامل المتوسط مثل هذه الأشياء – فالرفقاء يرون العامل فى الأصل شريف المولد. فما يريده هؤلاء هو ما يكتبه؛ شىء رخيص الثمن زهيد القيمة، وأحداث سريعة مع كثير من "النهود والمؤخرات". لا يعنى ذلك أن تطبع عبارة "النهود والمؤخرات": فمن المدهش أن الأدب الرخيص يتكلف الاحتشام. "فالصدور والعجز" هى أقصى ما يمكن قوله. رصاص ودماء وأحشاء تخرج وأجساد تتلوى من الألم، ولكن لا عرى كامل فى الواجهة. ومحظور استخدام ألفاظ بذيئة. ربما لا يتعلق الأمر بالاحتشام، إنما هم لا يريدون أن تغلق أعمالهم.

أشعل سيجارة، وتجول فى الحجرة، ثم تطلع من النافذة. يقتم لون الثلوج بفعل الرماد. تمر أمامه حافلة من حافلات الطريق وهى تهدئ من سـرعتها. ينصرف إلى الداخـل، يجـول بالمكان، تعشعش الكلمات فى رأسه.

ينظر إلى ساعته: لقد تأخرت مرة أخرى. لن تأتى.

الفصل السابع

مكتبة

القاتل الأعمى

ما من طريقة تجعل المرء يكتب الحقيقة سوى أن يسلم بأن ما يكتبه لن يقرأ على الإطلاق. فلن يقرأه شخص آخر ولا حتى هو نفسه فى فترة لاحقة. هذا وإلا التمس لنفسه الأعذار. فلابد أن يرى ما يكتبه ينساب من سبابة يده اليمنى كأنه لفيفة من الحبر، ثم تمحو اليد اليسرى ما كتبته اليمنى.

إنه أمر مستحيل بالطبع.

فأنا أدفع ثمن سطورى، أدفع ثمن كل سطر، ذلك الخيط الأسود الذى أغزله فوق الصفحة.

وصلتنى بالأمس لفافة بها طبعة جديدة من رواية "القاتل الأعمى". جاءت هذه النسخة على سبيل المجاملة الخالصة؛ فلا عائد ماديًا من ورائها، أو لن أحصل أنا منها على مال. فالكتاب الآن ملكية عامة، وبوسع أى شخص على الإطلاق أن ينشره، ومن ثم لن تشهد تركة لورا أيًا من عوائدها. فهذا ما يحدث بعد وفاة المؤلف بعدة سنوات؛ أن يفقد السيطرة. فهذا الشىء يحيا فى العالم الخارجى، ويتكاثر فى أشكال عديدة لا يعلمها إلا الله، دون إذن منى.

صدر الكتاب عن دار للنشر تدعى "أرتميسيا للطباعة"؛ وهى شركة إنجليزية. أعتقد أنها الدار نفسها التى طلبت منى كتابة مقدمة، ورفضت كتابتها بالطبع. ربما تديرها مجموعة من النساء، إذ تحمل اسمًا كهذا. وأتساءل أى أرتميسيا يعنين – فهل هى المرأة القائدة الفارسية التى كتب عنها هيردوت، والتى لاذت بالفرار عندما انقلبت ضدها المعارك، أم هى الزوجة الرومانية التى أكلت رماد زوجها المتوفى حتى يتحول جسدها إلى مقبرة حية له؟ وربما تكون رسامة عصر النهضة التى تعرضت للاغتصاب: فهى الوحيدة بينهن التى يذكرها الناس الآن.

الكتاب على طاولة مطبخى. "روائع غفلها القرن العشرون" هكذا تقول العبارة المكتوبة بالحروف المائلة أسفل العنوان. وتخبرنا الطية الداخلية للغلاف أن لورا كانت "ذات نزعة حداثية". وأنها تأثرت بأمثال ديونا بارنز Djuna Barnes وإليزابيث سمارت وكارسون ماكيولرز Carson McCullers – وهم كتاب أعلم علم اليقين أن لورا لم تقرأهم أبدًا. ومع ذلك فتصميم الغلاف ليس بالغ السوء. فلونه قرمزى مشرب بالبنى الفاتح وعليه لقطة فوتوغرافية تمثل امرأة فى قميص داخلى تتطلع من النافذة، وتظهر من خلال ستارة شبكية ووجهها فى الظل. ومن خلفها يبدو جزء من رجل – الذراع وكف اليد والرأس من الخلف. أرى ذلك ملائمًا تمامًا.

وقررت أن الوقت قد حان كى أتصل بمحامى الخاص. أو بمن هو ليس محامى الخاص حقيقة. فهو من كنت أعتبره محامى الخاص، فمن قام بهذا العمل مع ريتشارد، حارب وينفريد ببسالة، وإن كان بلا طائل – ذلك الشخص توفى منذ عشرات السنين. ومن ذلك الحين وأنا أتنقل من يد ليد داخل المؤسسة مثل إبريق للشاى منمق الزخرفة يتخلصون منه بمنحه لكل جيل جديد كهدية للزفاف، ولا يستخدمه أحد أبدًا.

قلت للفتاة التى تلقت المكالمة: "مستر سايكس، من فضلك". أعتقد أنها إحدى العاملات فى مكتب الاستقبال. أخال أظافر أصابعها طويلة مدببة وذات لون أحمر داكن ضارب إلى البنى. ولكن ربما لم يكن هذا هو شكل الأظافر الذى تفضله عاملة الاستقبال اليوم. فربما يفضلنها بيضاء ضاربة إلى الزرقة.

"آسفة، مستر سايكس فى اجتماع. أقول له من يطلبه؟".

ربما كانوا أيضًا يستخدمون إنسانا آليًا. "مسز أيريس جريفون. فأنا واحدة من أقدم زبائنه" قلتها بأقصى ما يمكن أن يحمله صوتى من سخرية لاذعة.

لم يفتح ذلك أى باب. فمازال مستر سايكس فى اجتماع. واضح أنه فتى كثير المشاغل. لكن لماذا أعتبره فتى؟ فلابد أنه فى منتصف الخمسينيات – فربما

ولد فى نفس العام الذى توفيت فيه لورا. هل حقًا مضى على وفاتها كل هذا الزمن، ذلك الوقت الذى استغرقه محامٍ لينمو وينضج؟ إنها إحدى تلك الأمور التى لابد وأن تكون حقيقة لأن كل الآخرين يتفقون على أنها كذلك، مع أنها لا تبدو هكذا بالنسبة لى.

قالت موظفة الاستقبال: "هل لى أن أخبر مستر سايكس بأى خصوص؟"

قلت: "بخصوص وصيتى. فأنا أفكر فى كتابة وصية. ولطالما طلب منى هو أن أفعل ذلك." (كذب، ولكنى أردت أن أرسخ فى عقلها المشتت حقيقة أننى ومستر سايكس على علاقة وثيقة جدًا.) "هذا من بين عدة أمور أخرى. فلابد أن أحضر إلى تورنتو قريبًا لاستشارته. ربما استطاع الاتصال بى تليفونيا إذا فرغ دقيقة من عمله."

وتخيلت مستر سايكس وهو يتلقى رسالتى؛ تخيلت أن تلم به قشعريرة خفيفة وهو يحاول أن يتذكر علاقته بالاسم، ثم ينجح. معقول ألازالت حية! هذا ما يشعر به الناس – بل ما أشعر به أنا أيضًا – عندما يصادفون تلك الأخبار الصغيرة فى الصحف عن أشخاص اتسعت شهرتهم وذاع صيتهم يومًا أو انتشرت فضائحهم وساد الظن بأنهم رحلوا عن الحياة منذ زمن. ويتضح أنهم مازالوا يعيشون، إنما فى ذبول وظلام، يتدثرون بالسنين مثل خنافس تحت حجر.

قالت موظفة الاستقبال: "بالتأكيد يا مسز جريفون. سأعمل على أن يتصل بك." لابد أنهن يدرسن فن الإلقاء ليضبطن التوليفة بين الاهتمام والاحتقار. لكن لماذا أشكو؟ إنها مهارة أتقنتها أنا نفسى مرة فى حياتى.

وضعت سماعة التليفون. وما من شك فى أن الأمر سيثير بعض الدهشة بين مستر سايكس ومساعداته الشابات النحيفات ذوات الجرأة وقائدات المرسيدس: "ماذا تملك تلك العجوز الشمطاء لتتركه؟"

ما هذا الذى يستحق الذكر؟ مكتبة

فى أحد أركان مطبخى حقيبة كبيرة ملصقة عليها بطاقات مهللة ممزقة. إنها إحدى الحقائب المتشابهة التى ضمها جهاز عرسى - كانت يومًا ذات لون أصفر ناصع، اكفهرت الآن وعلتها القذارة، وفسدت أحزمتها الصلبة واتسخت. أحتفظ بها مغلقة، ومفتاحها غاص فى برطمان مغلق بإحكام به حبوب مطحونة. لو كان فى علبة للسكر أو القهوة لاستبان تمامًا.

جاهدت لفتح غطاء البرطمان - لابد أن أفكر فى مكان لإخفائه أفضل من ذلك وأسهل فى العثور عليه - وأخيرًا فتحته واستخلصت المفتاح. ركعت بصعوبة على ركبتى وأدرت المفتاح فى القفل ورفعت الغطاء.

لم أفتح هذه الحقيبة منذ زمن. فانبعثت منها تحيينى رائحة أوراق أشجار الخريف التى لفحتها الحرارة، تلك الرائحة التى تحملها الأوراق القديمة. كانت الكراسات كلها بأغلفتها من الورق المقوى الرخيص، وكأنها نشارة خشب مضغوطة. وكان بها أيضا النص الأصلى المطبوع على الآلة الكاتبة، مربوط فى شكل متصالب بحبل من الحبال القديمة المستخدمة فى المطبخ. هذا إضافة إلى الخطابات الموجهة إلى الناشرين - التى أرسلتها أنا بالطبع وليست لورا، فكانت قد توفيت فى ذلك الوقت - إضافة إلى تجارب الطباعة المصححة. وأيضًا خطابات البريد التى تشى بالكره، إلى أن توقفت عن الاحتفاظ بها.

ذلك علاوة على خمس نسخ من الطبعة الأولى؛ غلافها الخارجى فى حالة جيدة تمامًا - تصميمه مبهرج، ولكن هكذا كانت الأغلفة الخارجية آنذاك فى السنوات التالية على الحرب مباشرة. يجمع الغلاف بين البرتقالى الصارخ والأرجوانى الصريح والأخضر الليمونى على ورق خفيف وعليه رسم بشع؛ نموذج ردىء لكليوباترا بنهدين خضراوين مبهمى الشكل، وعينين محددتين بالكحل، وقلادات أرجوانية تتدلى من الذقن إلى الصرة، ولها فم كبير متدلى الشفتين باللون البرتقالى، تخرج كحورية من دخان يتلوى صاعدًا من سيجارة

أرجوانية. تآكلت الصفحات بفعل الحموضة، وشحب لون الغلاف الصارخ وصار مثل ريش طائر استوائى ممتلئ بالطعام.

(تلقيت ست نسخ مجانية - يطلقون عليها نسخ المؤلف - ولكنى أعطيت واحدة لريتشارد. لا أدرى ماذا حدث لها. أتوقع أن يكون قد مزقها، وهو ما كان يفعله دائمًا بالأوراق التى لا يريدها. كلا - أتذكر الآن. وجدوها معه على القارب، على منضدة المطبخ، بجوار رأسه. أعادتها لى وينفريد مع ملاحظة تقول: "انظرى الآن ماذا فعلت!" ألقيتها بعيدًا. لا أريد شيئًا بقربى لامسه ريتشارد يومًا.")

تساءلت مرارًا ماذا أفعل بكل هذا - تلك الخبيئة من النتانيش والنتف زهيدة القيمة، خزانة المحفوظات الصغيرة تلك. لا أستطيع أن أحمل نفسى على بيعها، ولا على التخلص منها أيضًا. إذا لم أتصرف فى الأمر، سيكون الاختيار لماريا فهى التى سترتب المكان بعدى. فبعد لحظات الصدمة الأولى - إذا افترضنا أنها تبدأ القراءة - ستأخذ دون شك فى التقطيع والتمزيق. وبعدها تشعل عودًا من الثقاب، وهى لا تعى من الأمر شيئًا. ستفسر ذلك على أنه نوع من الولاء؛ وهو ما كانت ستفعله رينى. كانت المشكلات فى الماضى لا تخرج عن نطاق الأسرة، والتى لا تزال أفضل الأماكن للاحتفاظ بها، ولا يعنى ذلك أن هناك مكانًا هو الأفضل للاحتفاظ بالمشكلات على الإطلاق. فلماذا يثار كل شىء مرة أخرى بعد كل هذه السنوات، بعد أن توارى أصحاب الشأن فى قبورهم لا تشوبهم شائبة، مثل أطفال متعبين.

ربما أترك هذه الحقيبة بمحتوياتها لجامعة أو لمكتبة. فهم على الأقل سيقدرونها أيما تقدير. فكم يتمنى غير قليل من الباحثين أن ينشبوا أظافرهم فى كل هذه الأوراق المهملة. سيسمونها "مادة" - فهى الاسم الذى يطلقونه على الغنيمة. بالتأكيد سيعتبروننى عجوزًا شرسة محافظة تجثم على كنز اكتسبته بطريق غير مشروع - شخص هزيل لا يتمتع بالشىء ولا يترك الآخرين يتمتعون به، سجانة متغضنة لوامة، تطبق على المفاتيح بشفتيها، وتحرس السجن الحصين حيث لورا الجائعة مقيدة بالسلاسل إلى الجدران.

فعلى مدى أعوام أمطرونى بالخطابات، يريدون خطابات لورا الخاصة – يطلبون المخطوطات والهدايا التذكارية، والأحاديث الصحفية، والنوادر – كل التفاصيل البغيضة. وقد تعودت الرد على هذه الرسائل اللجوجة باقتضاب ولهجة شديدة:

"عزيزتى مس W أرى أن خطتك بإقامة احتفال تذكارى على الجسر الذى شهد مأساة موت لورا تشاس فكرة سقيمة لا ذوق فيها. فلابد أنك مختلة العقل. أعتقد أنك تعانين من التسمم الناتج عن سوء الهضم. فلماذ لا تجربين حقنة شرجية."

"عزيزى مستر X، تسلمت خطابك الخاص بأطروحتك المقترحة، مع أننى لا أستطيع القول بأن عنوانها يعنى لى شيئًا. لا يمكننى مساعدتك على الإطلاق. ذلك علاوة على أنك لا تستحق أى مساعدة. فتعبير "التفكيكية" يلمح إلى كرة محطمة، وعبارة "يحدث إشكالية" ليست فعلاُ."

"عزيزى دكتور Y، فيما يتعلق بدراستك للإيحاءات العقائدية فى رواية "القاتل الأعمى": فمعتقدات أختى الدينية راسخة بعمق، ولكنها ليست ما يطلق عليها معتقدات تقليدية. فهى لا تعجب بالرب، ولا توافق على ما يفعله، أو تدعى أنها تفهمه. ولكنها كانت تقول إنها تحب الرب، وكما يحدث مع البشر، فهذا شىء آخر. كلا إنها ليست بوذية. فلا تكن أحمق غبيًا. أرى أن تتعلم كيف تقرأ."

"عزيزى بروفيسور Z تعرفت إلى رأيك بأن سيرة حياة لورا تشاس تأخرت كثيرًا فى الظهور. قد تكون بالفعل، كما تقول، "واحدة من أهم الكاتبات فى منتصف القرن العشرين". فأنا لا أعرف. ولكن تعاونى معك فيما تسميه مشروعك، أمر خارج المناقشة. فلا أتمنى أن أشبع اشتهاءك قنينات من دم القديسين المجفف وأصابعهم المبتورة.

لورا تشاس ليست مشروعك. لقد كانت أختى. ولم تكن تتمنى أن ينهشها الناس بعد موتها، مهما أطلقوا على هذا النهش من تعبيرات مهذبة. قد تسبب الأشياء المكتوبة كثيرا من الأذى. وغالبًا لا ينتبه الناس إلى ذلك."

"عزيزتى مس W، هذا هو خطابك الرابع حول نفس الموضوع. كفى عن إزعاجى. إنك طفيلية مملة."

ظللت على مدى عقود طويلة تمتلىء نفسى رضا وغبطة بهذا العبث البغيض. كنت أستمتع بأن ألعق الطوابع وألصقها ثم أسقط الخطابات كقنابل يدوية فى الصندوق الأحمر اللامع، بإحساس من يقمع متطفل شره دؤوب. ولكنى فى الأونة الأخيرة توقفت عن الرد. فلماذا أضايق الغرباء وأغيظهم؟ فهم لا يعنيهم ألبتة ما أظنه فيهم. فما أنا بالنسبة لهم سوى يد إضافية للورا لا تتصل بجسد – اليد التى أوصلتها للعالم، لهم. فهم يعتبروننى مستودعًا – ضريحًا حيًا، مصدر كما يسمونه. لماذا أحسن إليهم؟ فمعظمهم حسبما أعلم حيوانات قمامة – ضباع؛ ابن أوى تتبع رائحة الجيف، وغربان تبحث عن صيد فى الطريق؛ وذباب يحوم حول الجثث. يريدون أن يفتشوا أعماقى، وكأننى حفنة من عظام يبحثون بينها عن نفاية معدنية أو فخاريات مكسورة، عن شقفة تعود إلى الحضارة المسمارية القديمة، وقصاصات من ورق البردى، وتحف صغيرة، ولعب مفقودة، وأسنان ذهبية. فإذا ارتابوا فيما أخبىء هنا، سيحطمون الأقفال بعتل الحديد، ويندفعون إلى الداخل، يضربوننى على رأسى ويهربون بالغنيمة المسروقة، يملؤهم شعور يفوق الرضا.

كلا إذن، لن أعطيها للجامعة. لماذا أمنحهم ذلك الشعور بالرضا؟

ربما لابد أن تذهب حقيبتى الكبيرة إلى سابرينا، وذلك رغم قرارها أن تبقى فى عزلة تامة، ورغم إهمالها المتعمد لى – وهنا يشتد الجرح إيلامًا. ومع ذلك فالدم لا يتحول إلى ماء، كما يعرف كل من ذاق الاثنين. فهذه الأشياء من حقها. بل يمكن القول إنها ميراثها؛ فهى رغم كل شىء حفيدتى. وهى أيضًا ابنة ابنة أخت لورا. من المؤكد أنها سترغب فى معرفة جذورها بمجرد أن يصلها ذلك.

ولكن ما من شك فى أن سابرينا سترفض مثل هذه الهبة. إنها ناضجة الآن، أذكر نفسى دائمًا بهذه الحقيقة. إذا كان لديها سؤال تطرحه على، أو أى شىء تقوله لى على الإطلاق، لأخبرتنى.

ولكن لماذا لا تفعل؟ ما الذى يستغرقها طوال ذلك الوقت؟ هل صمتها نوع من الانتقام، لشىء أو شخص؟ من المؤكد أنه ليس لريتشارد. فهى لم تعرفه أبدًا. وليس لوينفريد التى هربت منها. أيكون انتقامها من أجل أمها إذن، من أجل إيمى المسكينة؟

أى قدر من الذكريات يمكن أن تتذكره؟ إنما كانت وقتها فى الرابعة من عمرها.

لست المسئولة عن موت إيمى.

أين سابرينا الآن، وما الذى عساها تبحث عنه؟ أتصورها فتاة نحيفة، ذات ابتسامة حائرة، زاهدة؛ وجميلة مع ذلك، عيناها زرقاوان واسعتان كعينى لورا، وشعرها الداكن الطويل ينعقد على مفرقيها كأفاعٍ نائمة. لا ترتدى نقابًا على وجهها؛ وترتدى صندلاً عمليًا مريحًا، أو حتى حذاء ذا رقبة عالية منبرى الكعبين. أم أنها ترتدى السارى؟ فالفتيات أمثالها يفعلن ذلك.

لعلها فى مهمة أو أخرى – تطعم فقراء العالم الثالث، وتخفف آلام المحتضرين؛ تكفر عن خطايا سائر البشر. عمل لا طائل تحته – فخطايانا هوة بلا قرار، وهناك المزيد حيث نشأت. لكن اللاجدوى هى حكمة الرب التى ستجادلها هى بلا شك. فهو دائمًا يفضل اللاجدوى. يظنها نبالة.

إنها تشبه لورا فى هذا الصدد؛ فهى مثلها تميل نحو المطلق، ترفض الحلول الوسط، وتحتقر النقائص البشرية الفادحة. كى يفلت المرء بذلك لابد أن يكون جميلاً، وإلا بدا الأمر مضجرًا.

ظل الجو دافئًا على غير المتوقع فى ذلك الوقت. فالجو دافئ لطيف ويعم الضوء؛ فحتى الشمس التى كانت دائمًا شاحبة خافتة الضوء فى مثل ذلك الوقت من العام، هى الآن كاملة ينتشر ضوؤها ناعمًا دافئًا رقيقًا، والغروب مكتملاً بديعًا. يرى أناس مبتسمو الوجوه فى محطة الأرصاد الجوية أن ذلك يرجع إلى كارثة ترابية بعيدة – هل هى زلزال أم بركان؟ هلاك جديد يقضى به الرب. شعارهم فى ذلك أن "الشر يحمل فى باطنه الخير"، ولا خير بلا شر.

بالأمس أوصلنى والتر إلى تورنتو لموعد مع المحامى. وهى مكان لا يذهب إليه أبدًا لو استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولكن ميرا دفعته إلى ذلك. فقد ذكرت أنى سأستقل الحافلة العامة. ولم تكن ميرا سمعت بها. فكما يعلم الجميع، أن هناك حافلة عامة واحدة، تنطلق فى الظلام وتعود فيه. فقالت إننى عندما أهبط من الحافلة فى الليل لن يرانى سائقو السيارات أبدًا، وسيسحقوننى كحشرة. وعلى كل فلا يجب أن أذهب إلى تورنتو بمفردى، فحسبما يعلم الجميع، هى مدينة يسكنها النصابون وقطاع الطرق. وقالت إن والتر سيعتنى بى.

ارتدى والتر قبعة بيسبول حمراء من أجل الرحلة؛ وبين ظهر القبعة وحافة ياقة سترته برز عنقه منتصب الشعر نائتًا مثل عضلة. كان جفناه مجعدين مثل ركبتين. قال: "كنت أفضل أن نستقل الشاحنة، فهى كدورة مياه مبنية بالطوب، مما يجعل الأنذال يفكرون قليلاً قبل أن يصدمونى بسياراتهم. لم يكن مضى من الربيع سوى أيام قليلة، ولذلك فالرحلة ليست سهلة." وأضاف: "مجنون من يذهب إلى هناك، أليس كذلك؟" فهو يرى أن كل السائقين فى تورنتو مجانين.

أوضحت قائلة: "إننا ذاهبان إلى هناك"

"ولكنها مرة واحدة. فكما نقول للفتيات 'مرة واحدة لا تحسب'."

قلت فى محاولة لمجاراته ومداعبة غروره كما يحب: "وهل يصدقنك يا والتر؟"

وشعرت به يبتسم وهو يقول: "بالطبع دونما كلمة. وخاصة الشقراوات."

"كدورة مياه مبنية بالطوب". شاع هذا القول فيما يتعلق بالنساء. وكان يقصد بها الثناء، فى وقت لم يكن لدى كل الناس دورات مياه من الطوب؛ إنما دورات مياه خشبية واهية كريهة الرائحة يسهل الإطاحة بها.

وبمجرد أن أدخلنى والتر فى السيارة وثبت لى حزام الأمان، أدار المذياع: فانطلقت موسيقى كمان إليكترونية تنوح، قصة حب حزينة، رباعية تدمى القلوب. معاناة مبتذلة، ولكنها معاناة على أى حال. تجارة الترفيه. لكم أصبحنا جميعًا نستمتع باختلاس الرؤية إلى مشاهد الغرام. واتكأت أرتكن بظهرى على الوسادة التى أحضرتها ميرا (لقد أمدتنا بكثير من المؤن وكأننا ذاهبان إلى رحلة فى المحيط – فحزمت لفاعًا صوفيًا كبيرًا، وأعدت لنا سندوتشات التونة، وكعكة الشكولاتة، وترموس من القهوة.). ومن النافذة ظهر نهر الجوج يتابع جريانه بطيئًا هادئًا. عبرناه وانحرفنا نحو الشَمال، عبر شوارع بها ما كان يعرف بأكواخ العمال، ويطلقون عليه الآن "مساكن المبتدئين"، ثم شركات قطاع أعمال صغيرة، عربات قطر السيارات المحطمة، وسوق تجارية كاسدة لبيع الطعام الصحى، ومنفذ لبيع الأحذية الطبية عليه قدم بالنيون الأخضر تضىء وتطفئ كأنما تسير بمفردها إلى مكان ما. وبعدها ظهر مركز تجارى صغير من خمسة طوابق من ذلك النوع الذى لا يمكن شراء شىء منه سوى أشرطة زينة الكريسماس. ثم بدا صالون التجميل الخاص بميرا، وعليه لافتة بعنوان "مرفأ تصفيف الشعر". وفى نافذة العرض صورة لرأس فى تصفيفة شعر بالغة القصر، لم أستطع أن أحدد إن كانت لرجل أو امرأة.

ومررنا بعد ذلك بفندق صغير على الطريق، شاع باسم "نهاية الرحلة". أرى أنهم قصدوا بذلك "نهاية الرحلة فى لقاء العشاق"، لكن لا ينتظر أن يصل هذا المعنى لكل الناس؛ فربما بعث التشاؤم فى صدورهم على أن من يدخله لا يخرج،

تفوح منه رائحة الأوعية الدموعية المتمددة والجلطات، وزجاجات الحبوب المنومة الفارغة، وجروح الرأس الناتجة عن طلقات نارية. والآن يسمى الفندق ببساطة "الرحلة". منتهى الحكمة أن يتغير الاسم هكذا. فهو الآن غير حاسم ولا يلمح إلى نهاية المطاف. فأن نسافر أفضل كثيرًا من أن نصل.

ومررنا ببعض المشروعات التجارية الأخرى - دجاجات مبتسمات تقدمن أطباقًا من أجزائهن المحمرة، إنه الطاكو المكسيكى يبتهج مزهوًا بقوته. ويلوح أمامنا خزان مياه البلدة، واحد من تلك الفقاقيع الأسمنتية الضخمة التى تتناثر فوق المساحات الريفية الخضراء وكأنها بالونات حوار فى المسلسلات المصورة فرغت من كلماتها. نقترب الآن من المساحات الريفية المفتوحة. فتتراءى أمامنا صومعة غلال ترتفع عن الحقل مثل برج قمعى الشكل؛ وعلى جانب الطريق ثلاثة غربان تنقر نتوءا منفجرا من جرز أمريكى غزير الفراء. سياج ومزيد من صوامع الغلال، وحشد من الأبقار المبللة؛ ثم مجموعة من أشجار الأرز الداكنة، وبعدها رقعة من المستنقعات، ونباتات القصباء الصيفية نحلت ورثت أعوادها.

بدأ المطر ينزل رذاذًا. أدار والتر مساحات الزجاج، وعلى هدهدتها الناعمة رحت فى النعاس.

وعندما استيقظت أول ما خطر لى أن تساءلت ما إذا كنت قد شخرت؟ وإذا كان ذلك قد حدث، فهل كان فمى فاغرًا؟ كم هو منظر كريه ومن ثم مهين. ولكنى لم أستطع أن أحمل نفسى على السؤال. وفى حال أن يثير ذلك العجب فى نفوسكم، فاعلموا أن لا حدود لتيه البشر.

كنا فى الحارة الثامنة من الطريق السريع بالقرب من تورنتو. هذا حسبما قال والتر: فأنا لم أر شيئا لأننا كنا محتجزين وراء شاحنة مزرعة تنوء بما تحمل من صناديق شحن الأوز الأبيض، فهى لابد فى طريقها إلى السوق. ومن بين الفتحات هنا وهناك تدس الأوزات إلى الخارج بأعناقها المقضى عليها ورؤوسها الهائجة، وتفتح مناقيرها وتغلقها فى صيحاتها الحزينة المضحكة فى آن، والتى

تخبو وراء قعقعة العجلات. التصق الريش بمساحات الزجاج، وامتلأت السيارة برائحة فضلات الأوز وأبخرة الغاز.

تحمل الشاحنة لافتة مكتوب عليها "إذا كنت قريبًا بما يمكنك من قراءة هذا فأنت قريب جدًا." وعندما انحرفت أخيرًا لاحت تورنتو أمامنا، عبارة عن جبل صناعى من الزجاج والخرسانة يرتفع من شاطئ البحيرة المنبسط، مدينة كلها من زجاج بلورى لامع وقمم مستدقة وألواح معدنية عملاقة ومسلات مسننة متلألئة، تسبح فى سديم دخانى باللون البرتقالى المشبع بالبنى. بدت المدينة مثل شيء لم أره من قبل – شيء نما بين عشية وضحاها، أو لعله شيء لا وجود له فى الواقع، شيء مثل السراب.

تتطاير فى الجو ندف سوداء، وكأن جبلاً من الأوراق يحترق أمامنا. وينساب الغضب متخللاً الجو مثل الحرارة. وهنا خطر لى مشهد إطلاق النيران من سيارة متحركة.

كان مكتب المحامى بالقرب من "كينج وباى". وهنا تاه والتر فى الطريق، ثم لم يجد مكانًا لصف السيارة. واضطررنا للسير متجاوزين خمس بنايات، يساعدنى والتر على السير ممسكًا بمرفقى. لم أعرف أين نحن لأن كل الأشياء تغيرت كثيرًا. كانت المدينة تتغير فى كل مرة أذهب فيها إليها، ولم يكن ذلك كثيرًا، ولكن صار التأثير المتراكم كاسحًا – وكأن المدينة نسفتها قنبلة فدمرتها تمامًا ثم أعيد تشييدها من جديد.

أذكر وسط المدينة حيث كان يسير على الأرصفة فى خطى متناسقة رجال من البيض من أتباع مذهب كالفين الدينى فى معاطفهم الرمادية القاتمة، تسير بينهم بين حين وآخر امرأة فى رداء تقليدى من حذاء بكعب عال وقفازين وقبعة وتتأبط حقيبة يد تحت ذراعها شارعة بصرها إلى الأمام – ذهب كل ذلك الآن. لم تعد تورنتو مدينة بروتستانتية، إنما مدينة من العصور الوسطى، فالشوارع تزدحم بأناس من أنماط مختلفة فى ملابس زاهية وألوان ساطعة. فتجد مناضد بيع الهوت

دوج بمظلات صفراء، وبائعى كعك البرتزل، وبائعين جائلين يبيعون الأقراط والحقائب المنسوجة والأحزمة الجلدية، وشحاذين يعلقون لافتات مكتوبة بالطباشير الملون تقول: "بلا عمل"، وقد تقاسموا المكان فيما بينهم. مررت بعازف للفلوت وثلاثى يعزفون الجيتار الكهربائى، ورجل فى تنورة أسكتلندية يعزف مزمار القرب. توقعت فى أى لحظة أن أصادف مشعوذين ولاعبين بالنار، ومواكب مجذومين، يرتدون قلنسوات وفى أيديهم أجراس حديدية. كانت الضوضاء تدوى وغشاء متقزح الألوان يلتصق بنظارتى مثل الزيت.

أخيرًا وصلنا إلى مكتب المحامى. كانت أول مرة استعنت فيها بهذه الشركة فى الأربعينيات، وكانت تقع فى واحدة من تلك البنايات القذرة المشيدة بالطوب الأحمر والتى تشبه عمارات المكاتب فى مانشستر، ذات الردهات المبلطة بالفسيفساء، المزينة بالأسود الحجرية، وحروف ذهبية منقوشة على الأبواب الخشبية المطعمة بالزجاج السميك المحبب. وكان داخل المصعد من ذلك النوع ذى القضبان المعدنية المتصالبة؛ فأن تخطو داخله كأنك تدخل سجنًا. كانت تعمل عليه امرأة فى زى أزرق قاتم وقفاز أبيض، تنادى على الأدوار التى كانت تصل إلى العشرة فحسب.

الآن تقع المؤسسة القانونية فى برج من الأبراج الزجاجية فى جناح خاص بالمكاتب يصل ارتفاعه خمسين طابقًا. صعدنا أنا ووالتر فى مصعد متألق، داخله من الرخام البلاستيكى تفوح منه رائحة فرش السيارات، يكتظ بمرتدى الحلل من الرجال والنساء على السواء، تتحول نظراتهم بعيدًا وتخلو وجوههم من التعبير كخدم قضوا أعمارهم فى المهنة. أناس لا يرون إلا ما تقاضوا أجرًا ليروه. وللمكتب القانونى ذاته قاعة استقبال يمكن أن تكون لفندق خمس نجوم؛ زهور منسقة فى كثافة على طريقة القرن الثامن عشر وزهوه، وحوائط متلاصقة فى لون المشروم، ورسوم تجريدية مكونة من لطخ باهظة الثمن.

وصل المحامى، صافحنى وتمتم ثم أشار إلىّ لأتبعه. قال والتر إنه سينتظرنى فى مكانه. وحدق مأخوذًا فى موظفة الاستقبال الشابة المتأنقة، بحلتها

السوداء ووشاحها الموف وأظافرها اللؤلؤية؛ أما هى فلم تحدق فيه إنما فى قميصه الكاروهات وحذائه الضخم ذى الرقبة العالية بنعله المطاطى الطويل. وبعدها جلس على الأريكة ذات المقعدين، والتى غطس فيها على التو كأنما فى كومة من حلوى الخطمى الإسفنجية، وقد طوى ركبتيه فارتفعت ساقا سرواله كاشفة عن جورب أحمر سميك مثل الذى يرتديه قاطعو جذوع الأشجار. وانتشرت على منضدة صغيرة ناعمة أمامه مجموعة من المجلات التى تهتم بشئون الأعمال الحرة، تنصح قارئيها بكيفية زيادة استثماراتهم بالدولار. فالتقط العدد الذى يتناول التمويل المشترك، وقد بدت المجلة فى راحة يده الكبيرة كورقة الكلينكس. وكانت عيناه تدوران فى رأسه مثل عينى عجل مذعور.

قلت لأهدئ من روعه: "لن أتأخر." ولكنى مكثت فى الواقع أطول مما كنت أتوقع. على العموم هؤلاء المحامون يحاسبون زبائنهم بالدقيقة، مثلهم فى ذلك مثل الغانيات الرخيصات. وظللت أتوقع أن أسمع طرقًا على الباب، وصوتا يتذمر: "أسرعا، ماذا تنتظران؟ هيا أنهيا الأمر واخرجا!"

بعد أن أنهيت عملى مع المحامى، عدنا إلى السيارة، وقال والتر إنه سيأخذنى لتناول الغذاء، فهو يعرف مكانًا. أتوقع أن تكون ميرا هى التى حملته على ذلك فقالت: "بالله عليك احرص على أن تجعلها تأكل شيئًا، ففى مثل هذا العمر يأكل الناس مثل العصافير، بل إنهم لا يعرفون متى ينفد وقودهم، فقد تموت جوعًا فى السيارة." وربما يكون هو أيضًا جائعًا؛ فقد التهم أثناء نومى كل السندوتشات التى أعدتها ميرا وحزمتها بعناية، بالإضافة إلى كعكة الشيكولاتة.

قال والتر إن المكان الذى يعرفه يسمى "المحرقة". وربما آخر مرة أكل فيها هناك كانت منذ حوالى عامين أو ثلاثة، وكان مكانًا محترمًا إلى حد كبير، بالرغم من ذلك. بالرغم من ماذا؟ بالرغم من أنه فى تورنتو. تناول فيه بورجر الجبن المزدوج مع ملحقاته. ويقدمون أيضًا طبق الريَش مع صلصة الباربكيو، فهم متخصصون فى المشويات بأنواعها.

أنا نفسى أذكر هذا المطعم منذ أكثر من عشر سنوات مضت – فى تلك الأيام التى كنت أراقب فيها سابرينا بعد المرة الأولى التى هربت فيها. كنت أذهب عند مدرستها فى نهاية اليوم الدراسى، أجلس على مقاعد الحديقة حيث يمكننى إيقافها والتحدث إليها – كلا حيث يسهل عليها رؤيتى، مع أنه كان احتمالا نادر الحدوث. كنت أختبئ خلف جريدة مفتوحة مثل مهووس بالجنس يثير الشفقة، ومثله كنت أمتلئ بشوق يائس لفتاة أعلم أنها ما أن ترانى ستفر هاربة منى كأننى غول.

إنما أردت أن تعرف سابرينا أننى هناك؛ أننى موجودة؛ أننى لست كما أخبروها عنى، وأن بوسعى أن أكون ملجأ لها. كنت أعلم أنها ستحتاج إلى ذلك، بل إنها تحتاجه بالفعل، لأننى كنت أعرف وينفريد. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. فهى لم ترنى أبدًا، وأنا لم أكشف نفسى أبدًا. فعندما كانت تحين اللحظة لذلك ينتابنى جبن بالغ.

فى يوم من الأيام تبعتها حتى مطعم "المحرقة". وبدا مكان تجلس فيه الفتيات فى هذه السن ومن هذه المدرسة لتناول الغداء أو عندما يفوتن الدرس. كانت اللافتة خارج بابه باللون الأحمر، وحواشى النافذة مزينة بزخارف مروحية من البلاستيك الأصفر مصورة ألسنة اللهب. راعنى جرأة الإشارة إلى ملتون فى استخدام الاسم؛ فهل من الممكن أن يكونوا على دراية بما يوحيه الاسم؟

"تندلع ألسنة اللهب من السماء الأثيرية

تنشر الحريق والدمار فى العالم السفلى.

... فيضان من النيران، يغذيه

كبريت يحترق على الدوام ولا ينفد."

كلا إنهم لم يدركوا ذلك. إنما يقصدون بالمحرقة جهنم لشواء اللحم وحده.

كان بالداخل مصابيح تتدلى تنعكس ظلالها على زجاج معشق ملون، ونباتات ليفية مبرقشة فى أصائص فخارية – لمسة الستينيات. جلست فى الحجيرة المجاورة لسابرينا واثنتان من صديقاتها بالمدرسة، كلهن يرتدين نفس الزى

الصبيانى كثير الكتل، المكون من التنورات الخشنة الشبيهة بالبطاطين مع رابطة عنق ملائمة، والتى ترى فيه وينفريد هيبة واحتراما. وقد بذلت الفتيات الثلاثة ما بوسعهن ليفسدن شكله، فدلين الجوارب، وفتحن بعض أزرار القمصان وانحرفت رابطة العنق عن موضعها. وكن يمضغن العلكة بدأب كأنه واجب مقدس، ويتحدثن بصوت عالى النبرة على الطريقة التى تتقنها دائمًا الفتيات فى هذه السن.

كان الثلاثة يتمتعن بالجمال، كما هو شأن كل الفتيات فى هذه السن. فلا يمكن مقاومة ذلك النوع من الجمال، ولا الجدل بشأنه؛ إنها نضارة الخلاية وامتلاؤها، فهو جمال مؤقت ولا يكتسب ولا يستنسخ. ومع ذلك فلا واحدة منهن تقنع به، بل يحاولن أن يغيرن من أنفسهن، بأن يحسن شيئًا ويشوهن آخر، ويصغرن ثالثًا، وأن يحشرن أنفسهن فى قالب خيالى لا وجود له، بأن يغيرن وجوههن بالنتف والرسم بالقلم. لا ألومهن، لأنى فعلت مثلهن مرة فى حياتى.

جلست هناك أمعن النظر فى سابرينا من تحت حافة قبعتى الشمسية المرتخية على وجهى، وأتسمع ثرثراتهم التافهة التى يقذفن بها أمامهن فى شىء من التمويه. فلا واحدة منهن تعبر عما يجول فى عقلها، فهن لا يثقن فى بعضهن – وهن محقات فى ذلك فالخيانة بلا اكتراث شأن يومى فى هذه السن. كانت الأخريان شقراوين، فسابرينا وحدها التى كانت سمراء تلمع مثل حبة التوت. لم تكن تصغى لصديقتيها أو تنظر إليهما. فلابد أن الخواء المتعمد لنظرتها الشاخصة يخبئ وراءه ثورة تجيش فى نفسها. أدركت تلك الثقة وذلك العناد، ونقمة الأميرة المحبوسة، تلك المشاعر التى لابد وأن تظل مخبأة داخلها حتى تحشد لها ما يكفى من الأسلحة. وقلت فى نفسى والرضا يملؤنى: "احمِ ظهرك يا وينفريد!"

سابرينا لم تلحظنى. أو لعلها لاحظتنى ولم تعرف من أكون. كانت هناك بعض النظرات من ثلاثتهن، وبعض الهمس والقهقهة؛ أذكر تلك الأشياء. "عجوز فى ملابس قديمة، أو لعلها موضة جديدة". أعتقد أن قبعتى كانت هى المقصودة. فتلك القبعة أبعد ما تكون عن مسايرة الموضة. لم أكن فى ذلك اليوم بالنسبة لسابرينا سوى

امرأة عجوز، سيدة كبيرة فى السن لا يميزها شيء، فلم تكن الشيخوخة قد أنهكتنى بعد لأصبح مميزة.

بعد أن ذهب ثلاثتهن، ذهبت إلى دورة المياه. وعلى جدار الحجيرة هناك كتبت أبياتًا من الشعر:

"أحب دارين، نعم أحبه

هذا شأنى أنا وليس شأنك

إذا حاولت أن تحلى محلى

أقسم بالله أن أسحق وجهك"

أصبحت الفتيات الآن أكثر صراحة مما اعتدن عليه، مع أنهن لسن أفضل من ذى قبل فى استخدام علامات الترقيم.

عندما عثرنا أنا ووالتر أخيرًا على مطعم "المحرقة"، والذى قال إنه ليس حيث تركه، كانت ألواح من الخشب الرقائقى مثبتة بمسامير على نوافذه، ومثبت بها لافتة رسمية مكتوب عليها شيء. شمشم والتر حول الباب المغلق مثل كلب يبحث عن عظمة فى غير مكانها. وقال: "يبدو أنه مغلق. ووقف برهة طويلة ويداه فى جيبيه. وقال: "إنهم يغيرون الأشياء دائمًا. لا يمكن ملاحقة ذلك."

وبعد شيء من التخبط والاتجاهات الخاطئة، استقر بنا المكان فى مطعم صغير للمشويات لا بأس به فى دافنبورت، مقاعده من بلاستيك الفاينيل، وعلى مناضده صناديق للموسيقى تعمل بالنقدية، تمتلئ بالموسيقى الشعبية، وعدد قليل من الأغنيات القديمة لإلفيس بريسلى وفريق البيتلز. أدار والتر أغنية "فندق الأحزان"، واستمعنا إليها ونحن نأكل الهامبورجر ونشرب القهوة. أصر والتر أن يدفع الحساب – إنها ميرا مرة أخرى دون شك. فلابد أنها دست في يده ورقة بعشرين دولارًا. أكلت فقط نصف طبقى من الهامبورجر. لم أستطع تناوله كله. وأكل والتر النصف الثانى، فقد دسه فى فمه فى قضمة واحدة كأنما يلقى شيئًا فى صندوق البريد.

وفى طريق عودتنا من المدينة طلبت من والتر أن يمر بى على منزلى القديم – المنزل الذى كنت أعيش فيه يومًا مع ريتشارد. كنت أذكر الطريق تماما، لكن عندما وصلت إلى المنزل لم أتعرف عليه. كان لايزال على شكل زاوية، تعوزه مسحة من جمال، ضخم ونوافذه نصف مغلقة، لونه بنى قاتم مثل الشاى المغلى، ولكن اعترش اللبلاب على جدرانه. والبيت نصف الخشبى الأشبه بالشاليه، والذى كان يومًا بالأصفر الفاتح، طلى بلون التفاح الأخضر، وكذلك الباب الخارجى.

كان ريتشارد ضد اللبلاب. فكان هناك بعض منه عند انتقالنا للمنزل، ولكنه أنزله. وقال إنه يأكل طوب البناء، ويدخل فى المداخن، ويشجع القـوارض. حدث ذلك وقت أن كان لايزال يبرر ما يفكر فيه وما يفعله، وكان لايزال يقدم مبرارته بوصفها ما يجب أن أفكر فيه وأفعله. كان ذلك قبل أن يلقى بالمبررات والأسباب أدراج الرياح.

وعدت إلى ذلك الوقت لألمح نفسى فى قبعة من القش، ورداء أصفر فاتح من القطن بسبب الحرارة. كنا فى أواخر الصيف بعد زواجى بعام، وكانت الأرض مثل الحجارة. وتحت إغراء وينفريد؛ وحثها مارست البستنة؛ فقد قالت إننى بحاجة أن أتخذ هواية. ورأت أن أبدأ بحديقة صخرية، لأننى حتى لو أمت المزروعات ستبقى الصخور. وقالت مازحة: "فليس بمقدورك أن تميتى صخرة." وأرسلت ثلاثة رجال أشداء يعول عليهم للقيام بأعمال الحفر وتنسيق الصخور، ومن ثم أستطيع الزراعة.

كانت فى الحديقة بالفعل بعض الصخور التى طلبتها وينفريد: منها الصغير ومنها الكبير مثل البلاطة، نثرت عشوائيًا أو تكومت مثل الدمينو الساقطة. كنا كلنا نقف هناك، الرجال الثلاثة الأشداء وأنا نتطلع إلى هذه الكومة من الأحجار المختلطة. كانت قبعاتهم على رؤوسهم وقد خلعوا ستراتهم وشمروا عن سواعدهم، وظهرت حمالات سراويلهم؛ وكانوا ينتظرون تعليماتى، ولكنى لم أعرف ماذا أطلب منهم.

كنت لا أزال راغبة فى تغيير شىء آنذاك – أن أفعل شيئًا بنفسى، أصنع شيئًا من مادة لا خير فيها مهما كانت. ومازلت أعتقد أن بإمكانى ذلك. ولكنى لم أكن أعلم شيئًا عن البستنة على الإطلاق. فانتابتنى رغبة فى البكاء، لكن إذا بكيت مرة انتهى كل شىء؛ إذا بكيت سيحتقرنى الرجال الأشداء الذين يعول عليهم، ولن يمكن الاعتماد عليهم بعد ذلك.

أخرجنى والتر من السيارة، وانتظر صامتًا خلفى بمسافة قصيرة مستعدًا للإمساك بى إذا سقطت. وقفت على الرصيف وتطلعت نحو المنزل. كانت الحديقة الصخرية مازالت هناك، وإن أصابها كثير من الإهمال. كان الوقت شتاء بالطبع، ومن ثم يصعب الجزم بذلك، ولكنى أشك أن شيئًا عاد ينمو بها، ربما فيما عدا نباتات دم التنين والتى تنمو فى أى مكان.

وبممر السيارات هناك كانت تقف شاحنة كبيرة لنقل المخلفات، تمتلئ بحطام الخشب وألواح الجص، فقد كانت أعمال الترميم مستمرة. إما هذا أو أن حريقًا حدث بالمكان: فكانت نافذة الدور العلوى محطمة. ففى هذه البيوت يعسكر المتسكعون فى الشوارع ممن لا مأوى لهم، فحسبما تقول ميرا: إذا ترك منزل غير مسكون فى تورنتو اندفعوا إليه كالطلقة، يتجمعون لتعاطى المخدرات وغيرها. سمعت أنهم عبدة الشيطان. فهم يشعلون نيرانًا كبيرة على الأرضية الخشبية الصلبة، ويسدون المراحيض، ويقضون حاجتهم فى الأحواض، ويسرقون الصنابير، ومقابض الأبواب المزخرفة، وأى شىء يستطيعون بيعه. مع أنه أحيانًا يقوم الأطفال بالتحطيم من أجل المتعة. فالصغار موهوبون فى ذلك.

بدا المنزل كأن لم يملكه أحد، مؤقت سريع الزوال، مثل الصور فى الإعلانات الطيارة عن العقارات. لم يعد يرتبط بى بوجه من الوجوه. حاولت أن أتذكر وقع خطواتى بأحذية الشتاء عالية الرقبة تحدث صريرًا فوق الجليد الجاف، وأنا أهرع إلى المنزل متأخرة أختلق الأعذار؛ بوابة المدخل الحديدية القاتمة؛ ومنظر أضواء مصابيح الشارع تسقط على ركام الجليد باهتة الزرقة عند الأطراف

مبرقشة ببول الكلاب فى نقط صفراء مثل حروف برايل. كانت الظلال مختلفة آنذاك. قلبى المتوتر، وأنفاسى المتلاحقة، ودخان أبيض فى الهواء المتجمد. الدفء المحموم فى أصابعى؛ تقرحات فمى تحت طلاء الشفاه النضر.

كانت بحجرة المعيشة مدفأة. تعودت الجلوس أمامها مع ريتشارد ينعكس وميضها علينا، وعلى أقداحنا الموضوعة على مساند لحماية القشرة الخارجية لخشب المنضدة. السادسة مساء، موعد احتساء المارتينى. كان ريتشارد يحب تلخيص اليوم؛ هكذا كان يسميه. وكان عادته أن يضع يده خلف عنقى مسترخيًا، ويبقيها فى خفة بينما يقوم بالتلخيص. "التلخيص" هو ما يفعله القضاة قبل إحالة القضية إلى هيئة المحلفين. هل هكذا كان يرى نفسه؟ ربما. فلطالما استغلقت على فهمى دوافعه وأفكاره الباطنة.

كان هذا أحد أسباب التوتر بيننا: عجزى عن فهمه، وعن توقع أمانيه، والذى كان يعزوه إلى عدم اكتراثى المتعمد بل والعدوانى. وحقيقة كان ذلك أيضًا بسبب حيرتى وارتباكى، وخوفى بعد ذلك. وبينما كانت الحياة تمضى بنا، أخذ وجوده كرجل من لحم وأجهزة تعمل يتضاءل بالنسبة لى ويزداد شعورى به كشبكة عملاقة من خيوط معقدة، كتب علىَّ أن أحاول كل يوم فكها وكأننى ممسوسة بسحر. ولم يحالفنى النجاح قط.

وقفت خارج منزلى، ما كان منزلى فى السابق، أنتظر أن تخالجنى عاطفة من أى نوع على الإطلاق. فلم أشعر بشىء. وحيث إننى جربت الحالين، فلست على يقين أيهما الأسوأ: شعور جارف، أم غيابه.

ومن شجرة القسطل بمرج الحديقة تدلت ساقان، لعلهما ساقا امرأة. ظننتهما للحظة ساقين حقيقيتين، تتسلقان هابطتين فى محاولة للفرار، حتى أمعنت النظر. فتبينتها زوجًا من سروال محشو بشىء – لا شك أنه ورق تواليت أو ملابس داخلية – ألقى به من نافذة الدور العلوى أثناء ممارسة إحدى شعائر عبادة الشيطان، أو كمزحة من مزح المراهقين أو فى مرح صاخب لمشردين بلا مأوى. وقد علق بالأغصان.

لابد وأنها نافذتى تلك التى ألقيت منها هاتين الساقين غير المتجسدتين. نافذتى السابقة. أخال نفسى أتطلع محدقة من النافذة منذ زمن بعيد. أدبر كيف يمكننى التسلل خارجة عبر هذا الطريق دون أن يلحظنى أحد، وأن أتسلق هابطة الشجرة – أخلع حذائى، وأتدلى من حافة النافذة، أهبط بإحدى قدمى الحافيتين ثم بالقدم الأخرى، وأتعلق بالمقابض. ولكنى لم أفعل ذلك.

أتطلع شاخصة من النافذة. حائرة. أفكر، كيف ذهلت عن نفسى.

بطاقة بريدية من أوروبا

أظلم النهار وعلت الكآبة الأشجار، وانحدرت الشمس نحو الانقلاب الشتوى، لكن لايزال الشتاء لم يحن بعد. فلا جليد ولا مطر تخالطه نتف ثلجية، ولا رياح تعوى. ينذر هذا التأخير بشؤم. واجتاحنا صمت كئيب.

بالأمس سرت حتى جسر جوبيلى. فقد شاعت أحاديث عن صدئه وتآكله وضعف بنيته، وشاع الخبر بإزالته. تقول ميرا إن أحد مستثمرى العقارات غير المعروفين وممن تجردوا من المشاعر الإنسانية يطوق إلى إقامة مبان سكنية على أرض الملكية العامة المجاورة له – فهى أرض ممتازة بسبب المنظر الذى تطل عليه. فالمناظر الطبيعية أكثر قيمة من البطاطس هذه الأيام، لا يعنى ذلك أنه كانت هناك بطاطس على الإطلاق فى تلك البقعة بعينها. تسير الإشاعات بأنه تم تمرير كثير من الأموال القذرة فى الخفاء لتسهيل الصفقة، وأنا على يقين من أن ذلك حدث أيضًا عند تشييد هذا الجسر فى البداية تحت زعم تكريم الملكة فكتوريا. فلابد أن أحد المقاولين رشا ممثلى جلالتها المختارين للحصول على العمل، ولانزال نحترم الأسلوب القديم فى هذه البلدة: فلتجمع مالاً بأى وسيلة كانت. كان ذلك هو الأسلوب القديم.

من الغريب الاعتقاد بأن سيدات فى ملابسهن الأنيقة تمشين يومًا فوق هذا الجسر، وانحنين فوق هذا السياج متشابك القضبان ليستمتعن بمشهد هو الآن باهظ الثمن، وسرعان ما سيصبح حكرًا على الخاصة؛ اضطراب المياه بالأسفل،

والجرف الحجرية بديعة المنظر تمتد نحو الغرب، والمصانع بطول النهر تعمل بأقصى سرعتها على مدى اليوم تمتلئ بالفلاحين الخاضعين وتتلألأ وقت الغسق مثل نوادى القمار المضاءة بمصابيح الغاز.

وقفت على الجسر ورحت أحدق عبر أحد جانبيه، نحو تيار الماء يتدفق نحو أعلى النهر ناعمًا مثل حلوى الطوفى، هادئًا قاتمًا، ينذر بخطر قائم. وعلى الجانب الآخر الشلالات الصغيرة والدوامات والضوضاء البيضاء. إنها على قدر من العمق. شعرت باعتلال وبدوار. وانتابنى أيضًا ضيق فى التنفس، كأننى أقف على رأسى بالداخل. على رأسي داخل أى شىء؟ ليس الماء إنما شىء أكثر كثافة؛ الزمن: الزمن الماضى البارد، والحزن الماضى، يترسب كله فى طبقات مثلما يترسب الطمى فى بركة.

ومن ذلك:

منذ أربعة وستين عامًا، نهبط أنا وريتشارد من على معبر السفينة "بيرينجيريا" إلى شاطئ بعيد من شواطئ المحيط الأطلنطى، وقد انحرفت قبعته بزاوية على رأسه، بينما أريح يدى ذات القفاز على ذراعه بخفة – الزوجان حديثا الزفاف فى شهر العسل.

لماذا سمى شهر العسل بهذا الاسم؟ إنه الوقت الذى لا يغيب فيه Lune de meil أى قمر العسل – وكأن القمر نفسه ليس كوكبًا باردًا لا هواء فيه من صخور جرداء تملؤها الثقوب الصغيرة، ولكنه ناعم ذهبى حلو المذاق مثل ثمرة برقوق من النوع الأصفر، وضاءة، مكسوة بالسكر، تذوب فى الفم، لزجة دبقة مثل الرغبة، زائدة الحلاوة حتى إنها تضر الأسنان. فيض من الضوء الدافئ يتدفق، ليس فى السماء، إنما داخل الجسد.

أدرك كل هذا. وأتذكره جيدًا. لكن ليس من شهر العسل الذى قضيته.

كان القلق أوضح المشاعر التى أذكرها من الأسابيع الثمانى التى قضيتها – أم أنها كانت تسعة أسابيع؟ كنت أخشى أن يرى ريتشارد فى تجربة زواجنا خيبة

أمل له مثلما كانت لى – أقصد بذلك ذلك الجزء الذى يحدث فى الظلام ولا يمكن الحديث عنه. مع أن هذا لم يكن لسان حاله؛ فقد كان بالغ الدماثة معى فى البداية، على الأقل فى النهار. أخفيت قلقى هذا قدر الإمكان وكنت دائمة الاغتسال؛ شعرت أننى أفسد من الداخل مثل بيضة.

بعد أن رسونا فى سوث هامتون، سافرنا أنا وريتشارد إلى لندن بالقطار، وهناك مكثنا فى فندق براون. كنا نتناول إفطارنا بالجناح الخاص وكنت أرتدى ساعة الإفطار روبًا منزليًا من الثلاثة التى اختارتها لى وينفريد؛ أحدهم رمادى فاتح يتداخل مع الوردى، وآخر عاجى اللون له شريط رمادى ضارب إلى الوردى، والثالث أرجوانى فاتح مع أخضر ضارب إلى الزرقة – كلها ألوان فاتحة تتناسب مع بشرة الوجه فى الصباح. ولكل منها شبشب يناسبها من الستان، مزخرف بفراء مصبوغ أو بريش البجع. كنت أسلم بالاعتقاد أن هذه هى الملابس التى ترتديها المرأة الناضجة فى الصباح. فكنت قد شاهدت صورًا لهذه الأطقم (لكن أين؟ ربما فى إعلانات عن صنف معين أو عن قهوة؟) – يظهر الرجل مرتديًا حلة ورابطة عنق، وشعره مصفف إلى الوراء فى أناقة، والمرأة فى روب منزلى وفى كامل زينتها، ترفع إحدى يديها ممسكة بقدح القهوة من فوهته المقوسة؛ يبتسم كلاهما للآخر ابتسامة ناعسة عبر طبق الزبد.

كانت لورا ستسخر من هذه الملابس. فلقد سخرت منها بالفعل وهى تراها تحزم فى الحقيبة. مع أن ذلك لم يكن سخرية بالضبط؛ فلورا لا تستطيع السخرية الحقيقية. فهى تفتقر إلى ما يلزم ذلك من قسوة. (ما يلزم ذلك من قسوة مقصودة. فقسوتها عارضة – تسفر عنها ما قد يدور فى رأسها من أفكار مثالية.) فرد فعلها أشبه بالدهشة – بعدم التصديق. فقد مررت يدها فوق الساتان وهى ترتجف قليلاً، وقد شعرت أنا فى النهاية ببرودة النسيج ونعومته الفائقة على أصابعى. فهو مثل جلد السحلية. وسألت "هل سترتدين هذا؟"

فى تلك الأوقات من نهار الصيف فى لندن – فقد كان الوقت صيفا آنذاك – كنا نتناول إفطارنا والستائر نصف مقفلة لتصد ضوء الشمس المبهر. كان ريتشارد

يتناول بيضتين مسلوقتين، وشريحتين سميكتين من لحم الخنزير المدخن، وحبة طماطم مشوية مع الخبز المحمص والمرملاد، ويكون الخبز هشًا وقد برد على حامله. وأتناول أنا نصف حبة جريب فروت. والشاى يجب أن يكون قاتما مثل مياه المستنقعات. كان ريتشارد يقول: "تلك هى الطريقة الإنجليزية الصحيحة لتقديمه."

لم يكن لدينا الكثير لقوله، ما عدا العبارات الضرورية مثل: "هل نمت جيدًا يا حبيبتى؟" "نعم، وأنت؟" كانت الصحف والبرقيات تصل إلى ريتشارد. ودائما كان هناك العديد منها. كان يمسح الصحف سريعًا بعينيه ثم يفتح البرقيات ويقرؤها ثم يطويها بعناية عدة طيات ويضعها فى أحد جيوبه. أو يمزقها شذرات. فهو لم يجعدها أبدا ويلقى بها فى سلة المهملات، فلو كان فعل ذلك ما كنت أخرجتها وقرأتها، أو ليس فى هذه الفترة من حياتى.

كنت أفترض أن كلها موجهة له؛ فلم يرسل لى أحد برقيةً أبدًا، ولم أجد سببا لأتلقى إحداها.

كان ريتشارد كثير الانشغال أثناء اليوم. سلمت بأن ذلك مع شركاء العمل. فاستأجر لى سيارة وسائقًا يصحبنى إلى مشاهدة ما يراه هو يستحق المشاهدة. فمعظم ما زرته كان مبانى وحدائق. وأيضًا تماثيل مشيدة خارج المبانى أو فى الحدائق؛ تماثيل لسياسيين مشدودى الجذع منفوخى الصدر، يمدون ساقًا مطوية إلى الأمام، ويحملون لفافات من الورق؛ وأخرى لمحاربين فوق صهوة جواد. ينسلون على عموده، والأمير ألبرت فوق عرشه مع أربع نساء غريبات يتمايلن عند قدميه ويغدقن عليه الفاكهة والقمح. ترمز هؤلاء النساء إلى أوربا التى كان لا يزال للأمير ألبرت سطوة عليها رغم موته؛ ولكنه لا يعيرهن اهتماما؛ إنما يجلس رزينًا صامتًا تحت قبته الذهبية شاخصًا نحو الفراغ، يتفكر فيما هو أسمى من ذلك.

وعلى العشاء كان ريتشارد يسألنى: "ماذا شاهدت اليوم؟"، فأسرد عليه فى طاعة ورتابة ما شاهدته من بناء أو حديقة أو تمثال بعد آخر: برج لندن، وقصر باكنجهام، وكنيسة وستمنستر، ومجلسى العموم واللوردات. ولم يكن يحبذ زيارة المتاحف؛ فيما عدا متحف التاريخ الطبيعى. وأتساءل الآن، لماذا كان يعتقد أن

رؤية العديد من الحيوانات المحشوة يفيد فى تعليمى.؟ وذلك أنه كان واضحًا أن تعليمى هو الهدف من كل هذه الزيارات. فلماذا تكون الحيوانات المحشوة أفضل لى، أو أفضل لتحقيق فكرته عما يجب أن أكون، من حجرة تمتلئ بأعمال الرسم على سبيل المثال؟ أعتقد أننى أعرف السبب، ولكن ربما أكون مخطئة. ربما تكون الحيوانات المحشوة شيئًا مثل حديقة الحيوان – مكانًا تصطحب إليه طفلا للتنزه.

ومع ذلك ذهبت إلى الناشيونال جاليرى. أشار علىّ به موظف الاستعلامات بالفندق عندما قررت الفرار من زيارة الأبنية. أنهكتنى زيارته – فما هو إلا متجر كبير متعدد الأقسام تصطف به العديد من الأجساد بجوار الحائط فى كثير من الإبهار – ولكنه فى ذات الوقت مثير مبهج. فلم أر فى حياتى عددًا كبيرًا من النساء العاريات تجمعن فى مكان واحد هكذا. كان هناك عراة من الرجال أيضًا، ولكنهم ليسوا عراة تمامًا. وبه أيضًا الكثير من الملابس التنكرية. ربما كانت تلك هى أنماط الملابس الأولى، مثل الرجال والنساء؛ منهم العراة ومنهم من يرتدون ملابسهم. هكذا شاء الله. (سألت لورا فى طفولتها: "ماذا يرتدى الله؟")

فى زيارتى لكل هذه الأماكن كان السائق ينتظرنى بالسيارة، وكنت أسير فى همة إلى الداخل عبر البوابة أو الباب، محاولة أن أبدوا هادفة صوب شيء منشغلة به؛ وألا أبدو وحيدة خاوية. وبعدها أحدق وأحدق حتى يكون لدى ما أقوله بعد ذلك. ولكنى لم أستطع حقيقة أن أدرك مغزى ما أراه. فالأبنية مجرد أبنية. لا تشى بالكثير سوى أن تعرف شيئًا عن معمارها أو ما حدث فيها، ولم أكن أعرف ذلك. فتعوزنى موهبة النظرة الشاملة؛ وكأن عينى مثبتتان على ما أنظر إليه، ولا أخرج إلا بمعرفة لنسيج العمل: مثل خشونة الطوب أو الحجر، ونعومة الدرابزين المطلى بالشمع، وخشونة العديد من أنواع الفراء. وكذلك الخطوط اللونية فى القرون، وبريق العاج الدافئ الهادئ. عيون زجاجية مثل المرآة.

إضافة إلى تلك الجولات التعليمية، شجعنى ريتشارد على الذهاب للتسوق. وجدت العاملين فى المحال التجارية يلحون على البيع، فاشتريت القليل. وفى أوقات أخرى كنت أذهب لتصفيف شعرى. ولم يكن ريتشارد يريدنى أن أقصه أو أجعده،

ومن ثم لم أفعل. فقد قال إن الأسلوب البسيط يلائمنى أكثر من أى شىء. فهو يناسب شبابى.

كنت أحيانًا أتمشى أو أجلس على مقعد بحديقة فى انتظار موعد العودة. أحيانًا كان يجلس رجل بجوارى، ويحاول جذب أطراف الحديث معى. فكنت أترك المكان.

كنت أقضى أوقاتًا طويلة أغير شكل ملابسى. فأجرب الأشرطة والمشابك، والقبعات بزاويا مختلفة، وكذلك وضع خطوط الخياطة على الجوارب. يحيرنى ملائمة هذا أو ذاك لهذه الساعة من النهار أو تلك. فلا أحد يتفقد مدى انضباط فتحة العنق على الثوب أو يخبرنى كيف أبدو من الخلف، وما إذا كانت ملابسى مهندمة من كل الجوانب. اعتادت رينى ولورا أن تفعلا ذلك لى. كنت أفتقدهما، وأحاول ألا أفعل.

برد أظافرى، ونقع قدمى فى الماء، ونزع الشعر الزائد أو حلاقته؛ كانت كلها أمورًا ضرورية لأبدو ملساء بلا خشونة؛ تضاريس مثل الطمى الندى، وسطح أملس تنزلق عليه الأيدى.

يقال إن شهر العسل يتيح الوقت للعروسين ليعرف كل منهما الآخر على نحو أفضل، لكن كلما مرت الأيام كنت أشعر أن معرفتى بريتشارد تتضاءل. فكان يتوارى، أم لعله يتخفى؟ إنه الانسحاب إلى موقع المشارفة حيث يرى كل شىء. كانت ذاتى تتشكل فى قالب أراده لى. فكل مرة كنت أنظر فيها إلى المرآة أرى تزايد المساحة الملونة من نفسى.

بعد لندن ذهبنا إلى باريس بقارب بحرى ثم بالقطار. كانت الأيام فى باريس شبيهة بتلك التى قضيناها فى لندن، مع أن وجبات الإفطار فى باريس كانت مختلفة، فتتكون من: شريحة من الخبز الجاف، ومربى الفراولة، وقهوة بلبن ساخن. كانت الوجبات غنية ولذيذة؛ وكان ريتشارد يثير ضجة بشأنها، خاصة الخمور. فيردد أننا لسنا فى تورنتو، وكانت حقيقة واضحة بذاتها أمامى.

شاهدت برج إيفل، ولكنى لم أصعده، لأنى أكره الارتفاعات. وشاهدت البنثيون، وقبر نابليون. ولم أرَ كنيسة نوتردام، لأن ريتشارد لا يحبذ الكنائس، أو على الأقل الكاثوليكية منها، والتى يعتبرها باعثة على الوهن والضعف. وخاصة البخور يراه مؤثرًا على قدرات المخ.

شرح لى ريتشارد بشىء من السخرية أن بالفنادق الفرنسية مشطفًا للتنظيف بعد التبرز، وذلك بعد أن رآنى أغسل فيه قدمى. وخطر لى أن أولئك الفرنسيين يفهمون شيئًا لا يفهمه الآخرون. يفهمون قلق الجسد وتوتره. فهم على الأقل يعترفون بوجوده.

مكثنا فى فندق Lutetia والذى كان سيصبح مقر قيادة النازى أثناء الحرب، لكن كيف كان لنا أن نعرف ذلك؟ وكنت أجلس فى مقهى الفندق لاحتساء قهوة الصباح، لأنى كنت أخشى الذهاب إلى أى مكان آخر. فقد انتابتنى فكرة أنه إذا غاب الفندق عن نظرى، فلن أستطيع العودة إليه أبدًا. وأدركت وقتها أنه مهما كانت الفرنسية التى تعلمتها من مستر إيرسكين فهى لا تجدى فتيلاً.

كان يقوم على خدمتى نادل عجوز له وجه مثل فيل البحر؛ وكانت لديه مهارة فى أن يصب القهوة واللبن الساخن من إبريقين يرفعهما عاليًا فى الهواء، ووجدت فى هذا فتنة وبهجة، وكأنه ساحر يقدم ألعابه للأطفال. وفى يوم سألنى – وكان يتحدث الإنجليزية قليلاً – "لماذا أنت حزينة؟"

فأجبته: "لست حزينة" وشرعت فى البكاء. فربما يشعر المرء بانكسار النفس إذا وجد التعاطف من الغرباء.

وقال شاخصًا إلىَّ بعينيه الحزينتين الجافتين والشبيهتين بعينى فيل البحر: "لا تحزنى. فلابد أنه الحب. ولكنك مازلت شابة وجميلة، وسيكون لديك وقت للحزن فيما بعد." الفرنسيون ذواقة للحزن، ويعرفون كل أنماطه. ولذلك لديهم مشاطف للتنظيف. وأضاف وهو يربت كتفى: "للحب طرقه الإجرامية، ولكنه لا يؤذى."

وفسد تأثير الموقف قليلا فى اليوم التالى، عندما تودد إلىَّ لإقامة علاقة معى، أو هذا ما ظننته، فلغتى الفرنسية ليست جيدة بما يكفى لأقرر. ومع ذلك فهو لم يكن طاعنًا فى السن – ربما كان فى نحو الخامسة والأربعين. كان لابد أن أقبل. ومع ذلك فقد كان مخطئًا بشأن الحزن؛ فمن الأفضل كثيرًا أن يحزن المرء فى شبابه. ففتاة حزينة جميلة تثير الرغبة فى المواساة، على غير ما يحدث مع عجوز شمطاء. لكن لا تلقوا بالاً لذلك الجزء.

وبعد ذلك ذهبنا إلى روما. وقد بدت المدينة مألوفة لى – فعلى الأقل أعرف سياقها العام من دروس اللاتينية التى كان يلقيها علينا مستر إيرسكين منذ زمن بعيد. شاهدت ساحة الفوروم، أو ما تبقى منه، ومسرح الكولوزيوم الذى يشبه قطعة جبن قرضها فأر. إضافة إلى عدد من الجسور، والملائكة أنيقة الملبس المتجهم منها والمستغرق فى التأمل. وشاهدت نهر التيبر يجرى متدفقًا فى صفرة كاليرقان. ورأيت كنيسة سانت بيتر، وإن كان من الخارج فقط. كانت بالغة الضخامة. أعتقد أننى كان يجب أن أرى جيوش موسولينى الفاشية فى زيها الأسود تهاجم الناس – هل كانوا قد بدأوا يفعلون ذلك بعد؟ – ولكنى لم أرهم. فمثل هذه الأشياء تجنح إلى أن تغيب عن العين، إلا إذا حدث وتعرض لها المرء نفسه. وعلى غير ذلك لا يراها المرء إلا لاحقا، على شرائط الأخبار، أو فى أفلام تعرض بعد الحدث بفترة طويلة.

فى أوقات العصارى كنت أطلب قدحًا من الشاى – فكنت أتعلم كيف أطلب الأشياء وأحدد النبرة التى أستخدمها مع الندلاء، وكيف أحفظ مسافة آمنة بينى وبينهم. وبينما أحتسى الشاى كنت أكتب بطاقات بريدية، أرسلها للورا ورينى وكثيرًا إلى أبى. تحمل البطاقات صورًا للأبنية التى تم اصطحابى لزيارتها – وتصور فى لقطات دقيقة بحبر السيبيا البنى الداكن ما يجب أن أكون قد شاهدته. وكنت أكتب عليها عبارات على قدر كبير من السذاجة. فلرينى كنت أكتب: "الجو رائع. أستمتع به كثيرًا." وللورا أكتب: "شاهدت اليوم الكولوزيوم حيث اعتادوا إلقاء

المسيحيين للأسود. ربما أثار ذلك اهتمامك." ولأبى: "أرجو أن تكون بصحة جيدة. ريتشارد يبعث إليك بتحياته." (لم تكن العبارة الأخيرة صحيحة، ولكنى كنت أتعلم أى الأكاذيب ينتظر منى حياكتها بوصفى زوجة.)

وقرب نهاية الفترة المتاحة لنا لقضاء شهر العسل قضينا أسبوعًا فى برلين. فكان ريتشارد يرتبط ببعض الأعمال هناك والمتعلقة بمقابض المجارف. فإحدى شركات ريتشارد تصنع مقابض المجارف، ولدى الألمان قصور من الخشب. تطلب الأمر كثيرًا من البحث والتخطيط، وكان باستطاعة ريتشارد توفير مقابض المجارف بسعر أقل من منافسيه.

وعلى حد قول رينى: "كل صغيرة نافعة." وعلى حد قولها أيضًا: "التجارة تجارة، وهناك أعمال تجارية تثير الضحك." ولكنى لا أعرف شيئًا عن الأعمال التجارية. فكانت مهمتى أن أبتسم.

لابد أن أعترف أننى استمتعت ببرلين. فلم أبرز كشقراء فى مكان مثلما كنت هناك. يتميز الرجال هناك بأدب جم، مع أنهم لا ينظرون خارج ذواتهم عندما يعدون عبر الأبواب الدوارة. وتقبيل الأيدى يستر كثيرًا من الخطايا. ففى برلين تعلمت أن أعطر معصمى.

أتذكر المدن بفنادقها، والفنادق بحماماتها. ارتداء الملابس وخلعها، والرقود فى الماء. لكن كفى ذكرًا لتلك الملاحظات السياحية.

عدنا إلى تورنتو عن طريق نيويورك فى منتصف أغسطس، وسط موجة حارة.

بعد أوروبا ونيويورك بدت تورنتو كبناية قصيرة غليظة مكتظة. وخارج محطة يونيون كانت هناك شبورة من أبخرة القار تتصاعد من حيث يعملون فى سد حفر الطريق. استقبلتنا سيارة أجرة وصحبتنا مارة بالحافلات العامة وقعقعتها وما تثيره من غبار، ثم مرت بنا عبر البنوك والمحلات التجارية الكبرى منمقة

الزخارف، ثم انحرفت عبر طريق منحدر إلى روزدال وظلال أشجار القسطل والإسفندان.

توقفنا أمام المنزل الذى اشتراه لنا ريتشارد ببرقية. فقال إنه التقطه بثمن بخس لا يزيد على أغنية، وذلك بعد أن أفلس المالك السابق. كان ريتشارد يحب القول إنه التقط شيئًا بثمن بخس لا يزيد على أغنية، وهو أمر غريب لأنه لم يغنِ فى حياته أبدًا، بل هو لم يصفر أبدًا. فهو شخص لا علاقة له بالموسيقى.

كان المنزل قاتمًا من الخارج، يتسلق أسواره اللبلاب، وتدار نوافذه الطويلة الضيقة نحو الداخل. كان المفتاح تحت الدواسة، وتفوح رائحة الكيماويات من الردهة الخارجية. ففى أثناء غيابنا كانت وينفريد تغير تصميم المنزل وطلاءه، ولم تكن تلك الأعمال قد انتهت بعد: فكانت ملابس النقاشين لا تزال ملقاة فى الحجرات الخارجية، حيث أزالوا ورق الحائط القديم الذى كان على الطراز الفيكتورى. كانت الألوان الجديدة لؤلؤية فاتحة – تلك الألوان التى توحى باللامبالاة المترفة والعزلة الباردة. وكانت سحب الغمام الخفيف قد كستها ألوان الغروب الهادئة تتجرف معلقة عاليًا فوق التجمعات الوحشية للطيور والزهور وما إليها. هذا ما أوحته إلىَّ البيئة المحيطة، الهواء المخلخل من الأكسجين الذى اضطررت أن أستنشقه من حولى.

كانت رينى ستسخر من التصميم الداخلى، ذلك الامتقاع والشحوب الذى يعتليه. وكانت ستقول: "المكان كله يبدو مثل حمام." ولكنها فى الوقت ذاته كانت ستهابه كما حدث لى. استحضرتُ جدتى أديلا: فهى كانت ستعرف ماذا تفعل. كانت ستدرك محاولات أرباب المال الجدد للتأثير؛ كانت ستتعامل بأدب لكن دون أن تأخذهم مأخذ الجد. ربما كانت ستقول: "إنه بالفعل حديث". كانت ستنهى عمل وينفريد بسرعة وسهولة، لكن لا عزاء لى فى ذلك، وقد أصبحت أنا نفسى الآن من قبيلة وينفريد. أو لعلنى كنت كذلك جزئياُ.

وماذا عن لورا؟ كانت ستهرب أقلامها الملونة وأنابيب الصباغة إلى داخل المنزل. وكانت ستسكب شيئا على هذا المنزل، تكسر شيئًا، على الأقل تطمس ركنًا صغيرًا منه. كانت ستترك بصمتها.

وفى الردهة الخارجية وجدنا عبارة صغيرة مسندة على التليفون كتبتها وينفريد وتقول فيها: "مرحبا يا صغارى! أهلا فى بيتكم! طلبت منهم الانتهاء من حجرة النوم أولا! أرجو أن تحبوها – فهى جميلة جدًا وحديثة جدًا! فريدى." قلت: "لم أعلم أن وينفريد تقوم بذلك." قال ريتشارد: "أردنا الأمر مفاجأة لك. فلم نشأ أن نشغلك بالتفاصيل." لم تكن هى المرة الأولى التى أشعر فيها كأننى طفلة يقصيها والداها. أبوان مرحان ولكنهما قاسيان، يصران على صحة اختياراتهما فى كل شيء. كان بوسعى التنبؤ بأن هدايا عيد ميلادى التى سيقدمها ريتشارد ستكون دائمًا أشياء لا أريدها.

صعدت إلى أعلى لأغتسل وأنتعش، حسب اقتراح ريتشارد. فلابد أننى بدوت وكأننى فى حاجة إلى ذلك. فكنت أشعر بالتأكيد بالعرق والإرهاق. ("الندى على الزهرة" كان هذا هو تعليقه.) فسدت قبعتى؛ فقذفت بها على منضدة التزين. وطششت وجهى بالماء وجففته بإحدى المناشف المنقوشة بالأحرف الأولى والتى أعدتها وينفريد. كانت حجرة النوم تطل على الحديقة الخلفية حيث لم يتم شيء. ركلت حذائى عن قدمى، وألقيت بنفسى فوق الفراش الأبيض الضارب إلى الصفرة والممتد بلا نهاية. كانت له ظلة تتسدل منها ستائر الموسولين كأننا فى سفارى. هنا إذن يجب أن أبتسم وأتحمل – فى الفراش الذى لم أعده لكن يجب أن أرقد فيه الآن. وكان ذلك هو السقف الذى سأحدق فيه من الآن فصاعدًا، عبر غيمة الموسولين، بينما أزدرد غصصًا طينية فى حلقى.

كان التليفون المجاور للفراش أبيض اللون. دق جرسه. التقطت السماعة. كانت لورا تبكى. قالت وهى تنشج بالبكاء: "أين كنت؟ لماذا لم تعودى؟"

قلت: "ماذا تعنين؟ هذا هو وقت عودتنا المفترض! اهدئى، فلا يمكننى سماعك."

قالت وهى تنتحب: "لم تردى أبدًا!"

"عما تتحدثين؟"

"مات أبى! مات! مات! أرسلنا خمس برقيات! أرسلتها رينى!"

"دقيقة واحدة. على مهلك. متى حدث هذا؟"

"بعد رحيلك بأسبوع. جربنا الاتصال بالتليفون، فاتصلنا بكل الفنادق. قالوا إنهم سيخبرونك، ووعدوا بذلك! ألم يقولوا لك؟"

قلت: "سأكون هناك غدًا. لم أعرف. فلم يخبرنى أحد بشىء. لم تصلنى أية برقية. لم أتلق أيًا منها."

لم أستطع استيعاب الموقف. ماذا حدث، ما الذى لم يكن على ما يرام، لماذا مات أبى، لماذا لم يخبرنى أحد؟ وجدت نفسى على الأرض، على البساط الرمادى الفاتح، أجثم فوق التليفون، أتكور حوله وكأنه شىء ثمين وهش. وتذكرت البطاقات البريدية التى كنت أرسلها من أوروبا تصل إلى أفيليون بعباراتها البهيجة التافهة. لابد أنها مازالت على المنضدة فى الردهة الخارجية. "أرجو أن تكون بصحة جيدة."

قالت لورا: "ولكن الخبر نشر بالصحف!"

قلت: "ليس حيث كنت، ليس فى تلك الصحف." ولم أضف أننى لم أهتم بالصحف أبدًا. انتابنى ذهول أعجزنى عن التفكير.

إنه ريتشارد هو الذى تسلم البرقيات على السفينة، وفى كل الفنادق التى نزلنا فيها. كنت أرى أصابعه تفتح المظاريف فى حرص ودقة، يقرأ ثم يطوى البرقيات طيات مربعة ثم يخفيها بعيدًا. لا أستطيع اتهامه بالكذب – فهو لم يذكر شيئًا عن هذه البرقيات أبدًا –لكن يتساوى ذلك مع الكذب. أليس كذلك؟

لابد أنه طلب منهم فى الفنادق ألا يحولوا أية مكالمات. لا يحولون مكالمات لى، ولا أثناء وجودى. لقد تعمد إخفاء الأمر عنى.

اعتقدت أنى قد أمرض، لكن لم يحدث. فبعد فترة هبطت إلى أسفل. اعتادت رينى أن تقول: "من يفقد أعصابه يخسر العراك." كان ريتشارد جالسًا فى التراس

الخلفى يحتسى الجين والتونيك. "منتهى الاهتمام من وينفريد أن تمدنا بمخزون من الجين" قالها مرتين. وكان قد صب قدحًا آخر من الجين فى انتظارى على المنضدة المنخفضة المجدولة بالحديد وذات العلية الزجاجية. التقطته. يرن الثلج فى الكوب الكريستال. هكذا يجب أن تكون نبرة صوتى.

قال ريتشارد وهو ينظر إلىَّ: "يا ربى! ظننتك تنتعيشين. ماذا حدث لعينيك؟" فلابد أن عينى كانتا حمراوين.

قلت: "مات أبى. أرسلوا لنا خمس برقيات. وأنت لم تخبرنى. قال: "إنه خطأى. أعرف أنه كان يجب أن أفعل، ولكنى أردت أن أجنبك القلق يا حبيبتى. فما من شىء كان يمكن أن نفعله، وكان من المستحيل أن نعود فى الوقت المناسب لحضور الجنازة، ولم أشأ أن أكدرك وأفسد متعتك. وأعتقد أننى كنت أنانيًا أيضًا – فقد أردتك كاملة لى، وإن كان ذلك لوقت قصير. والآن اجلسى وابتهجى، وتناولى شرابك وسامحينى. وسنعالج كل شىء فى الصباح."

كانت الحرارة تبعث على الدوار؛ وحيث تضرب الشمس المرج تتحول الخضرة إلى ضوء أخضر ساطع يعمى الأبصار. والظلال تحت الأشجار كثيفة مثل القار. وصلنى صوت ريتشارد منفجرًا فى نغمات متقطعة، مثل شفرة مورس: لم أسمع منه سوى بضع كلمات. "قلق. الوقت. أفسد. أنانى. سامحينى." بماذا كان يمكن أن أرد على ذلك؟

القبعة فاتحة الصفرة

جاء الكريسماس وانتهى. حاولت ألا ألاحظه. ومع ذلك لم أنكر على ميرا الاحتفال به. فأحضرت لى بعضًا من بودينج الخوخ الذى أعدته بنفسها والممتزج به العسل الأسود ومزين بأنصاف حبات الكرز، ذات لون أحمر زاه مثل حمالتى صدر لراقصة ستربتيس من طراز قديم، ولوحة خشبية ثنائية الأبعاد مرسوم عليها قطتان لهما جناحا ملاك، وتحيطهما هالة من الضوء. قالت إن هاتين القطتين يقبل

عليهما الناس فى محل "جينجر بريد هاوس"، وتراهما ظريفتين، وتبقت لديها واحدة بها شرخ بسيط لا يكاد يرى، ومن المؤكد أنها ستبدو جميلة على الحائط فوق الموقد عندى.

قلت لها إنه مكان جيد. ملاك بالأعلى، ومن اللواحم أيضًا - إنه الوقت المناسب لمناقشة الموضوع بصراحة! الموقد بالأسفل، كما فى أكثر الروايات المعتمدة. ثم يأتى سائر البشر فى المسافة الوسطى بين الاثنين، منحبسين فى الأرض الوسطى، على مستوى المقلاة. ارتبكت ميرا المسكينة واستغلق عليها الفهم، كما هى دائما عند الحديث فى أمور اللاهوت. فهى تحب الرب الذى تعرفه واضحًا - واضحًا وفطريًا مثل الفجل.

حل الشتاء الذى كنا ننتظره مع عشية العام الجديد - صقيع قاس، تبعه هطول شديد للجليد فى اليوم التالى. كان يتدحرج هابطًا خارج النافذة فى حركات دوامية يملأ دلوًا إثر آخر، وكأنما الرب يتخلص من ندف صابون الغسيل فى دور نهائى فى مسابقة احتفالية للأطفال. أدرت محطة الأرصاد الجوية لأعرف الموقف كاملاً - الطرق مغلقة، والسيارات مدفونة فى الثلوج، وتعطلت خطوط الكهرباء، وتوقفت الحركة التجارية، والعمال فى ستراتهم الضخمة يخطرون مثل أطفال أكبر من أحجامهم يتجمعون للعب. وأثناء استعراضهم لما يطلقون عليه على سبيل التخفيف "الأحوال الراهنة"، يحتفظ الشباب من قارئى النشرة الجوية بتفاؤلهم المبتهج الواثق، كما هو شأنهم دائمًا مع كل كارثة يمكن تخيلها. فلديهم لا مبالاة ولا يحملون همًا مثل الشعراء المتجولين فى الماضى، أو مثل غجر الملاهى، أو موظفى المبيعات فى شركات التأمين، أو مرشدى سوق الأوراق المالية - كلهم يبالغون فى تنبؤاتهم معتمدين على أن لديهم علم اليقين، ولا يتحقق شيء مما يتنبأون لنا به.

اتصلت بى ميرا لتطمئن أننى بخير. وقالت إن والتر سيحضر بمجرد أن يتوقف هطول الثلج ، ليجرف المتراكم منه أمام منزلى.

قلت: "لا تكونى حمقاء يا ميرا، فإمكانى جرفه بنفسى." (كذب – فليس لدى النية أن أرفع إصبعًا. كان لدى مخزون كافٍ من زبد الفول السودانى، ويمكننى الانتظار حتى ينفد. ولكنى شعرت برغبتى فى الصحبة، وتهديدى بالقيام بالعمل بنفسى عادة ما يعجل بوصول والتر.)

قالت ميرا: "لا تلمسى تلك المجرفة! فمئات العجائز – ناس فى مثل عمرك يموتون بالسكتة القلبية بسبب جرف الثلوج كل عام! وإذا انقطع التيار الكهربائى تنبهى أين تضعين الشموع."

رددت فى حدة: "لست طاعنة فى السن، وإذا أحرقت المنزل، سيكون ذلك عن عمد."

ظهر والتر، وجرف الثلوج. وأحضر معه كيسًا ورقيًا به حلوى الدونت ذات الفجوات؛ أكلناها على منضدة المطبخ، أنا بحرص وهو يلتهمها دفعة واحدة لكن بتأمل. فهو رجل المضغ عنده نوع من التفكير.

ما خطر لى وقتها كانت اللافتة التى اعتادوا وضعها فى نافذة عرض كشك "دونى فلاك للدونت"، فى حديقة "صنى أميوزمنت" فى – أى وقت كان ذلك؟ – صيف ١٩٣٥ ، والتى كتب عليها:

"بينما تهيم على وجهك فى الحياة يا أخى

ومهما كان مقصدك،

ركز بصرك على الدونت،

وليس على الفجوة التى بها."

تحمل فجوة الدونت مفارقة. كانت يومًا مكانًا فارغًا، ولكنهم الآن تعلموا كيف يسوقون حتى هذا الشىء. كمية ناقصة؛ "لا شىء"، يمكن أكله. وحيرنى ما إذا أمكن استخدامها – على سبيل الاستعارة بالطبع – لإثبات وجود الله. فهل تحديد مدار من الخواء يجعله موجودًا؟

فى اليوم التالى غامرت بالخروج، فى البرد وبين الكثبان الرائعة. لعلها حماقة، ولكنى أردت المشاركة – فالجليد بالغ الجاذبية حتى يمتلىء بالمسام وينحو لونه نحو السواد. كانت حديقتى الأمامية جرفًا جليديًا لامعًا براقًا يشقه نفق كما فى جبال الألب. تمكنت من الوصول إلى الرصيف، وإلى هنا تسير الأمور على ما يرام، ولكن على بعد خمسة منازل إلى الشمال من منزلى لم يكن الجيران على قدر كبير من الحرص على جرف الثلوج كما فعل والتر، ومن ثم تعثرت فى جليد متراكم، وارتبكت فى سيرى ثم انزلقت وسقطت. لم ينكسر فى جسدى شىء أو يلتوى – هكذا ظننت – ولكنى لم أستطع النهوض. وبقيت فى الجليد أخبط بذراعى وساقى، مثل سلحفاة ملقاة على ظهرها. يفعل الأطفال هذا، ولكنهم يفعلونه عن عمد – يخفقون بأيديهم مثل الطيور مقلدين الملائكة، مبتهجين بذلك.

وكان القلق قد بدأ يساورنى أن أصاب بانخفاض شديد فى درجة الحرارة بسبب الصقيع عندما أنهضنى رجلان غريبان ونقلانى حتى باب منزلى. ودخلت الحجرة الخارجية أعرج فى سيرى وانهرت ساقطة على الأريكة، ومازلت أرتدى حذائى الواقى ومعطفى. وكعادتها فى تشمم الكوارث عن بعد؛ حضرت ميرا تحمل نصف دستة من الكعك الصغير المنتفخ متبقية من احتفال عند إحدى الأسر. فأعدت لى زجاجة ماء ساخن وبعض الشاى، واستدعت الطبيب وانبرى كلاهما فى وابل من النصائح المفيدة والتهديد بصوت غاضب مرح، يملؤهما الزهو بنفسيهما.

ها أنا الآن قد لزمت المنزل. واستشطت غضبًا من نفسى. أو على الأصوب ليس من نفسى، إنما من جسدى الذى خذلنى. فبعد أن يفرض الجسد نفسه علينا فى اهتمام مهووس بالذات، مطالبًا باحتياجاته فى ضجة وصخب، وبعد أن يجبرنا على تلبية رغباته المندفعة الدنيئة، تكون آخر خدعه لنا أن يتغيب. فمجرد أن تحتاج إليه، مجرد أن تزمع فى استخدام ذراع أو ساق، ينشغل الجسد فجأة بشىء آخر. فإذا به ينهار وينثنى تحتك، ويذوب كأنه جليد، ولا يبقى منه الكثير. لا شىء سوى

حفنتين من الفحم، وقبعة قديمة وابتسامة من حصى. فما العظام سوى عصى جافة سهلة الكسر.

كم هو مهين أن يحدث كل هذا. ركب ضعيفة ومفاصل ملتهبة، ودوالى بالأوردة، شتى ضروب العجز والإذلال – كلها أمور لا تخصنا فلم نرغبها أبدا أو نطالب بها. إنما داخل رؤوسنا نحمل نفوسنا فى أفضل أحوالها – نحمل ذواتنا فى ريعانها وفى أحسن صورها أيضًا؛ فلا نحتفظ بها فى وضع أخرق كأن نخرج ساقًا من السيارة بينما الثانية بالداخــل، أو ونحن نحك أسناننا بالخلة أو ننظف أنوفنا أو مؤخراتنا. وإذا كنا عراة فنرانا نتكئ بعظمة على سحابة مخملية، وهى وضعة أشاعها نجوم السينما؛ فهم يتخذون هذه الأوضاع من أجلنا. ففيهم نرى ذواتنا الشابة وهى تبتعد منفصلة عنا، متلألئة وهى تتحول إلى كائن أسطورى من نسج الخيال.

فى طفولتها كانت لورا تسأل: "كم سيكون عمرى فى السماء؟

كانت لورا تقف على الدرجات الأولى من الدرج فى أفيليون، بين الحجرتين الباقيتين بلا زهور فى انتظارنا. ومع طولها بدت بالغة الصغر.والضعف ووحيدة. وبدت أيضًا كفلاحة فقيرة. فكانت ترتدى ثوبًا منزليًا فاتح الزرقة تزينه فراشات بلون موف باهت – كان لى منذ ثلاث سنوات – ولا حذاء فى قدميها من أى نوع. (هل كان ذلك اتجاها جديدا فى كبح النفس بتعذيب الجسد، أم أنه مجرد سلوك غريب الأطوار، أم أنها نست فحسب؟) كان شعرها معقوصًا فى ضفيرة واحدة تتدلى على أحد كتفيها، مثل الحورية الحجرية عند بركة الزنبق الخاصة بنا.

الله وحده يعلم كم ظلت واقفة هناك. فلم نستطع أن نحدد موعد وصولنا بالضبط، لأننا أتينا بالسيارة وهو ما كان متاحًا فى ذلك الوقت من العام: فالطرق لم تكن غارقة بالمياه أو الوحل، بل إن بعضها كان قد تم رصفه فى ذلك الوقت.

أقول "نحن"، لأن ريتشارد حضر معى. فقد قال إنه لا يعتقد أن بإمكانه إرسالى وحدى لأواجه مثل هذا الأمر بمفردى، ليس فى وقت كهذا. كان سلوكه يشى بما يفوق الاهتمام والتعاطف.

قاد بنفسه سيارته الكوبيه الزرقاء – وهى إحدى لعبه الجديدة. وفى حقيبة السيارة خلفنا كانت هناك حقيبتانا الصغيرتان المعدتان لقضاء ليلة واحدة فحسب – حقيبته الجلدية ذات اللون الأحمر الداكن الضارب نحو البنى، وحقيبتى الصفراء بلون عصير الليمون. كنت أرتدى حلة كتانية ذات لون أصفر فاتح، وكنت أعرف أنها ستتجعد من الخلف عند وصولنا – إنها تفاهة بلا شك أن أذكر ذلك، ولكنها كانت من باريس وكنت شغوفة بها جدا. وكنت أرتدى معها حذاء من الكتان بعقد فراشية من نسيج خشن ومفتوح عند الأصابع. وعلى ركبتى كنت أضع قبعتى الملائمة لها باللون الأصفر الفاتح وكأنها علبة رقيقة بها هدية.

كان ريتشارد قائد سيارة قلقًا وسريع الانفعال. فلا يحب أن يقاطعه أحد – لأن ذلك يفسد تركيزه كما يقول – ومن ثم قطعنا الرحلة فى صمت شبه تام. استغرقت الرحلة أربع ساعات، وهى تقطع فى أقل من ساعتين. كانت السماء صافية متلألئة لا عمق فيها مثل سطح معدنى؛ وأشعة الشمس تسقط مباشرة مثل حمم بركانية. والحرارة تنعكس مرتدة من الأسفلت؛ البلدان الصغيرة محمية من الشمس، فستائرها مسدلة. أذكر مروجها اللافحة وشرفاتها الخارجية ذات الأعمدة البيضاء، ومحطات البنزين الوحيدة بها بمضخاتها الشبيهة بروبوت أسطوانى الشكل له ذراع واحدة، وسقوفها الزجاجية مثل قبعات لاعبى الكريكيت بلا حواف، وجباناتها التى تبدو وكأنما لن يدفن بها آخرون. وكنا أحيانًا نمر ببحيرة تنبعث منها رائحة أسماك المنو الميتة وعشب الماء.

بينما كنا نقترب صوب المنزل بالسيارة لم تلح لنا لورا، بل وقفت تنتظر حتى أوقف ريتشارد السيارة وسار متمهلاً ليفتح الباب من ناحيتى. وكنت أحرك ساقى الاثنتين نحو كلا الجانبين، ضامة ركبتى معا كما تعلمت، وأمد يدى لأمسك بيد ريتشارد التى كان يمدها نحوى عندما ظهرت لورا فجأة. فقد هرعت هابطة الدرج وأمسكت بذراعى الأخرى، وسحبتنى خارج السيارة متجاهلة ريتشارد تمامًا، وألقت ذراعيها حولى وتعلقت بى وكأنها تغرق. لم نذرف دموعًا وإنما تعانقنا بقوة تتحطم معها الضلوع.

سقطت قبعتى ذات اللون الأصفر الفاتح على الممر الحصوى وداست لورا عليها. سمع لها صوت طقطقة وصدرت شهقة من ريتشارد. لم أقل شيئًا، ففى تلك اللحظة لم تعد تهمنى القبعة.

صعدنا أنا ولورا الدرج نحو المنزل تحيط كل منا خصر الأخرى بذراعها. لاحت رينى من باب المطبخ عند أقصى طرف الردهة، ولكنها كانت على قدر من حسن الإدراك لتتركنا بمفردنا فى ذلك الوقت. أتوقع أن تكون وجهت اهتمامها نحو ريتشارد – فشتت انتباهه بمشروب أو غيره. حسن فربما أراد أن يتفقد الدار وما حولها ويتمشى فى حدائقه حيث إنه كان قد ورثها بالفعل آنذاك.

صعدنا مباشرة إلى حجرة لورا، وجلسنا على فراشها، تمسك كلانا بيدى الأخرى بشدة – اليسرى فى اليمنى، واليمنى فى اليسرى. لم تكن لورا تبكى، كما حدث أثناء التليفون، إنما كانت هادئة كقطعة من الخشب.

قالت لورا: "كان فى البرج الصغير. فقد حبس نفسه فيه."

قلت: "كان دائمًا يفعل ذلك."

"ولكنه لم يخرج هذه المرة. تركت له رينى صوانى طعام الوجبات خارج الباب كالعادة، ولكنه لم يكن يأكل شيئًا، ولم يشرب شيئًا أيضًا – أو لعلنا لا نستطيع أن نجزم بذلك. ومن ثم اضطررنا أن نحطم الباب."

"أنت ورينى؟"

"حضر رون هينكس، صديق رينى الذى ستتزوجه. وكسر الباب. وجدنا أبى راقدًا على الأرض. ذكر الطبيب أنه لابد وأن ظل هكذا ليومين على الأقل. بدا بشعًا."

لم أكن أدرك أن رون هينكس صديق رينى – بل خطيبها. منذ متى حدث هذا، وكيف فاتنى ذلك؟

"هل كان ميتًا، أهذا ما تقولين؟"

"لم أعتقد ذلك في البداية، لأن عينيه كانتا مفتوحتين. ولكنه كان ميتًا بالفعل. لقد بدا ... لا أستطيع أن أصف لك كيف بدا؟ كان وكأنه يستمع لشيء أجفله. فبدا مترقبًا"

"هل أصيب بطلق ناري؟" لا أدري لماذا طرحت هذا السؤال.

"كلا. كان ميتا فحسب. نشروها في الصحف على أنها أسباب طبيعية – قالوا "موت مفاجئ بأسباب طبيعية – وحدثت ريني مسز هيلكوت بأنها كانت أسبابًا طبيعية بالفعل، لأنه من المؤكد أن احتساء الخمر عادة راسخة لدى أبي، وبالنظر إلى كل الزجاجات الفارغة نعرف أنه تجرع كمية من الكحول تقتل فرسًا."

قلت دون أن أقصد سؤالاً: "قتل نفسه سكرًا. متى حدث هذا؟"

"حدث مباشرة بعد أن أعلنوا غلق المصانع بصفة دائمة. فهذا ما قتله. أعرف ذلك!"

قلت: "ماذا؟ أي غلق بصفة دائمة؟ وأي مصانع؟"

قالت لورا: "كلها. كل مصانعنا. كل ما نملكه في البلدة. ظننت أنك لابد وأن عرفت."

قلت: "لم أعرف"

"اندمجت مصانعنا مع مصانع ريتشارد. وانتقل كل شيء إلى تورنتو. وكلها الآن تحمل اسم "مصانع جريفون – تشاس الملكية الموحدة" وبمعنى آخر لم يعد هناك "وأولاده". أزاحهم ريتشارد تمامًا."

قلت: "يعني ذلك أنه لا يوجد عمل. لا عمل هنا على الإطلاق. انتهى الأمر. محى كل شيء."

قالت لورا: "قالوا إنها مسألة تكاليف. فبعد أن احترق مصنع الأزرار، قالوا إنه سيتكلف كثيرًا لإعادة بنائه."

"من هم الذين قالوا؟"

قالت لورا: "لا أدرى. أليس ريتشارد؟"

قلت: "لم تكن تلك هى الصفقة." يالأبى المسكين – وثق فى المصافحات وكلمات الشرف والمسلمات المسكوت عنها. وراح يتكشف لى أن الأمور لم تعد تسير بهذه الطريقة. وربما لم تكن كذلك أبدًا.

سألت لورا: "أى صفقة؟"

"لا عليك."

تزوجت ريتشارد بلا مقابل إذن – فلم أنقذ المصانع، وبالتأكيد لم أنقذ أبى. لكن مازالت لورا باقية؛ فهى لم تلق فى الشارع. لابد أن أفكر فى ذلك.

"هل ترك أبى أى شىء – خطابات أو ملاحظات؟"

"كلا."

"هل بحثت؟"

"رينى بحثت." قالتها لورا بصوت خافت مما يعنى أنها نفسها لم تهتم بذلك.

وفكرت أن رينى لابد وأن بحثت بالطبع. ولو كانت وجدت بالفعل أى شىء من هذا القبيل لحرقته.

مفتون

ومع ذلك ما كان أبى ليترك ملاحظات. فلابد أنه كان على دراية بعواقب ذلك. لم يكن يريد أن يتهم بالانتحار، وذلك لأنه، كما اتضح بعد ذلك، كانت لديه بوليصة تأمين على الحياة، وكان يدفع أقساطها لسنوات، حتى لا يتهمه أحد بأنه أعدها فى الدقيقة الآخيرة. لقد رتب للتفاصيل المتعلقة بالنقود – فكان أن توضع مباشرة تحت الوصاية، حتى لا يمسها أحد سوى لورا عند بلوغها الحادية والعشرين فحسب. لابد أنه كان قد فقد ثقته فى ريتشارد آنذاك، وقرر أنه لا نفع فى أن يترك لى شيئًا منها. كنت مازلت تحت سن الرشد، وزوجة ريتشارد. والقوانين وقتها كانت مختلفة. فما أملكه هو له، يستخدمه فى شتى المقاصد والأغراض.

كما ذكرت، حصلت على أوسمة أبى. علام كانت؟ الشجاعة؛ البسالة تحت النيران؛ آيات نبيلة فى التضحية بالذات؛ أرى أنه كان ينتظر منى أن أكون على قدرها.

قالت رينى: "حضر الجنازة كل سكان البلدة." أجل حضرها معظم الناس، وذلك رغم أنه كانت هناك ضغينة كبرى فى بعض الأحياء إلا أنه كان مازال يحظى باحترام كبير، وفى ذلك الوقت كان الجميع قد عرفوا أنه ليس المسئول عن الغلق الدائم للمصانع بهذه الطريقة. عرفوا أنه لم يكن ضلعًا فى ذلك – كل ما هنالك أنه لم يستطع إيقافه. وقد ساعده ذلك كثيرًا.

قالت رينى إن كل من بالبلدة شعروا بالأسى للورا. ("وليس لى" تركت تلك العبارة دون أن أنطقها. ففى رأيهم أنى حصلت على الغنائم فى النهاية. تمامًا كما كانت.)

وها هى الترتيبات التى اتخذها ريتشارد:

ستأتى لورا للعيش معنا. أجل فلابد لها من ذلك: فلا يمكن أن تبقى فى أفيليون بمفردها، وهى لم تتجاوز الخامسة عشرة.

قالت لورا: "يمكن أن أبقى مع رينى." ولكن ريتشادر قال إن الأمر محسوم ولا جدال فيه. فرينى على وشك الزواج، ولن يتسع وقتها لرعاية لورا. فردت لورا بأنها لا تحتاج أن يرعاها أحد، ولكن ريتشارد ابتسم فحسب.

قالت لورا: "يمكن أن تأتى رينى إلى تورنتو" ولكن ريتشارد قال إنها لا تريد ذلك. (لم يكن ريتشارد يريدها أن تأتى. فكان هو ووينفريد قد استأجرا بالفعل ما وجداه طاقما مناسبًا لإدارة المنزل – أناسًا خبراء فى إدارة شئون العمل. وهو بذلك يعنى عمل ريتشارد ووينفريد أيضًا.)

ذكر ريتشارد أنه ناقش الأمر مع رينى بالفعل، وتوصلا إلى ترتيبات مرضية. فستعمل هى وزوجها الجديد حارسين لدينا، ويراقبان أعمال الترميم – فكانت أفيليون تنهار أشلاء، ومن ثم لزم الكثير من أعمال الترميم بدءا من السطح

– وبذلك يكونا طوع أيدينا لإعداد المنزل لاستقبالنا وقتما نطلب، وذلك أننا سنستخدمه منزلاً صيفيًا. وأضاف فى لهجة عم حنون مفرط فى التدليل: "فسنأتى إلى أفيليون للتريض بالزوارق ونحو ذلك". وبذلك لن نحرم أنا ولورا من منزل أجدادنا. ونطق "منزل أجدادنا" وهو يبتسم. أفلا يعجبنا ذلك؟

لم تشكره لورا. إنما شخصت إلى جبينه بنظرة ذات خواء مدروس كتلك التى وجهتها ذات يوم إلى مستر إيرسكين، واستشعرت أنا ما ينتظرنا من مشكلات.

وواصل ريتشارد كلامه قائلاً إننا سنعود أنا وهو بالسيارة إلى تورنتو بمجرد أن تستتب الأمور. فهو أولاً يريد مقابلة محامى أبى، ولا داعى لحضورنا ذلك اللقاء؛ فبالنظر إلى الأحداث الأخيرة، سيكون الأمر بالغ الكدر لكلينا، وهو يريد أن يجنبنا ذلك بقدر الإمكان. وعلى انفراد قالت لى رينى إن أحد أولئك المحامين متزوج من إحدى بنات أعمام أمى – فمن المؤكد أنه سينتبه للأمر.

ستبقى لورا فى أفيليون حتى تحزم هى ورينى أمتعتها؛ وبعدها تحضر إلى المدينة بالقطار، ونستقبلها فى المحطة. ستعيش معنا فى منزلنا – فلدينا غرفة نوم إضافية ستناسبها تمامًا بمجرد أن يعاد طلاؤها وتزيينها. وأخيرًا ستلتحق بمدرسة مناسبة. وكانت مدرسة سانت سيسليا هى المدرسة التى اختارها بمشاورة وينفريد، فهى على دراية بمثل هذه الأمور. قد تحتاج لورا بعض الدروس الإضافية، ولكنه على يقين بأن كل هذه الأمور ستتحسن مع الوقت. وبهذه الطريقة تصبح قادرة على كسب المنافع والمزايا...

قالت لورا: "مزايا ماذا؟"

قال ريتشارد: "مكانتك."

قالت لورا: "لا أرى لى أية مكانة."

قال ريتشارد بنبرة أقل توددًا: "ماذا تقصدين بالضبط؟"

قالت لورا: "أيريس هى التى تحظى بالمكانة. فهى مسز جريفون، أما أنا فمجرد إضافة."

قال ريتشارد بقسوة: "أدرك أنك غاضبة بسبب الظروف السيئة، والتى كانت صعبة علينا جميعًا، لكن لا داعى ألا تكونى لطيفة. فذلك ليس سهلاً على أيريس وعلى أنا أيضًا. فإنما أحاول أن أفعل أقصى ما فى وسعى من أجلك.

"إنه يعتقد أنى سأكون عقبة فى الطريق." قالتها لى لورا ذلك المساء فى المطبخ حيث لجأنا لنبتعد عن ريتشارد. أغضبنا أن نراه يعد قوائمه – ما الذى سيتم التخلص منه، وما الذى سيرمم، وما الذى سيستبدل. أساءنا أن نرقبه صامتين. "إنه يتصرف كأنه يملك المكان." كانت رينى قالتها فى مقت وغضب. فرددت: "ولكنه يملكه بالفعل."

قلت: "فى طريق ماذا؟ أنا متأكدة أنه لا يقصد ذلك."

قالت لورا: "فى طريقه. فى طريقكما أنتما الاثنين."

"ستتحسن الأمور." قالتها رينى وكأنما تردد شيئًا عن ظهر قلب. كان صوتها مجهدًا، خاليًا من الإقناع، فأدركت أن ما من مساعدة ترجى منها بعد ذلك. بينما كنا فى المطبخ تلك الليلة بدت عجوزًا، وبدينة بعض الشىء، بل ومنكسرة. وكما سيتضح بعد ذلك بفترة قصيرة، كانت بالفعل حاملا فى ميرا. لقد سمحت لنفسها أن يجرفها الحب ويكسح كيانها، وهى التى كانت تقول: "القاذورات وحدها التى تجرف وتكسح، ثم يلقى بها فى صندوق القمامة"، ولكنها خانت مأثوراتها التى كانت تعظ بها. وصارت مشغولة البال بأمور أخرى، منها ما إذا كانت ستصل إلى مذبح الكنيسة فى حفل زفاف أم لا، وإذا لم يحدث، فما العمل؟ كانت أوقاتًا عصيبة بلا شك. فلا حواجز فاصلة بين مشاعر الرضا والوقوع فى كارثة؛ فإذا انزلقت تسقط، وإذا سقطت تخبط الهواء بذراعيك وساقيك وتتكسر ضلوعك وتغرق. فمن الصعب عليها أن تحظى بفرصة أخرى، وذلك أنها حتى لو هربت لتضع الطفل ثم تتخلى عنه، ستنتشر حولها الأقاويل ولن ينسى سكان البلدة شيئًا كهذا. بمجرد أن تسلك

امرأة سلوكًا خليعًا يراها الناس باقية عليه لا تحيد عنه. ولابد أنها تقول فى نفسها " لعله يقول ما جدوى شراء بقرة مادام اللبن بلا مقابل."

ومن ثم قد يئست منا، تخلت عنا. فلسنوات كانت تفعل ما فى وسعها من أجلنا، والآن خارت قواها.

وبعد عودتنا إلى تورنتو، انتظرت أن تحضر لورا. استمرت الحرارة فى ارتفاعها. جو مقيت خانق، الرطوبة على جباهنا، وحمام قبل احتساء الجين والتونيك فى الشرفة الخلفية المطلة على الحديقة الذابلة. كان الهواء مثل نيران منداة؛ كل شىء إما رخوًا مترهلاً أو مصفرًا. كانت لدينا مروحة فى حجرة النوم صوتها مثل رجل عجوز له قدم خشبية يصعد الدرج؛ أزيز نفس ضيق، يتبعه صوت يخبط، أزيز ثم خبط. فى الليالى الثقيلة الخاوية سماؤها من النجوم، كنت أحملق فى السقف بينما يواصل ريتشارد ما يفعله.

قال إنه مفتون بى. "مفتون" – وكأنه ثمل. وكأنه لا يمكن أن يجد ما يشعره نحوى لو كان مفيقًا وفى وعيه.

نظرت إلى نفسى فى المرآة، أتساءل: ماذا بى؟ ما الذى يخبله إلى هذا الحد؟ كانت المرآة بالطول الطبيعى؛ ففيها حاولت أن أرى نفسى من الخلف، ولكن استحال هذا بالطبع. فلا يمكن أن ترى نفسك على النحو الذى يراك به شخص آخر – رجل ينظر إليك من الخلف وأنت لا تدركين – لأن فى المرآة تدار رأسك فوق كتفك. وضعة حيية مغرية. يمكن الإمساك بمرآة أخرى لرؤية المنظر من الخلف، ولكن ما ترينه حينئذ هو ما يحب العديد من الرسامين رسمه – يقال إن "امرأة تنظر فى المرآة" هى قصة رمزية عن الغرور. ومع ذلك فمن غير المحتمل أن يكون الأمر غرورًا، إنما العكس؛ فهو بحث عن النقائص. "ماذا بى؟" يمكن ترجمتها بسهولة على أنها "أى عيب بى؟"

يقول ريتشارد إن النساء نوعان؛ تفاحة وكمثرى، حسب شكل المؤخرة. وقال إننى كمثرى، لكن غير ناضجة. وذلك ما يعجبه فى – الصلابة وعدم النضج.

أعتقد أنه كان يقصد أن ذلك فيما يتعلق بالجزء الخاص بالمؤخرة، لكن ربما كان يقصد أنه فى شتى النواحى.

بعد الاستحمام، ونزع الشعر الزائد، وتمشيط شعرى بالفرشاة والمشط، أصبحت بالغة الحرص على تنظيف الأرضية من الشعر. فأرفع لبدات الشعر الصغيرة من بالوعة حوض الاستحمام أو حوض الغسيل وألقيها فى المرحاض وأنظفها بدفق الماء، وذلك لأن ريتشارد كان قد ألمح عرضًا إلى أن النساء دائمًا يتركن بقايا شعر وراءهن. والمغزى أنهن كالحيوانات التى تسقط عنها شعيرات فرائها.

كيف عرف ذلك؟ كيف عرف الكمثرى والتفاحة والشعر المتساقط؟ من هن أولئك النساء، أولئك الأخريات؟ فيما عدا ما يثيره الأمر من فضول سطحى، فالأمر لا يهمنى كثيرًا.

حاولت تجنب التفكير فى أبى، وفى الطريقة التى مات بها، وما كان يمكن أن يكون قد انتواه قبل هذا الحدث، وكيف كان شعوره، وفى كل شىء رأى ريتشارد أنه من غير المناسب أن يطلعنى عليه.

كانت وينفريد شديدة الانشغال مثل نحلة. ورغم الحرارة بدا جسمها باردًا، وهى تلتف فى ثوب خفيف هف كثير الطيات مثل صورة ممسوخة لأم روحية من الجن. وظل ريتشارد يردد كم هى رائعة، وكم جنبتنى كثيرًا من العمل والقلق، ولكنها جعلتنى فى توتر متزايد. فكانت تخرج وتدخل إلى المنزل باستمرار؛ ولا أعرف أبدا متى تظهر، تطل برأسها بغتة من الباب بابتسامة باردة. كان الحمام ملاذى الوحيد، فهناك يمكن أن أدير قفل الباب دون أن أبدو وقحة. كانت تشرف على باقى أعمال التصميم والطلاء وتطلب الأثاث لحجرة لورا. (منضدة تزيين لها حاشية ذات أهداب مرسوم عليها أزهار وردية اللون، ومعها ما يلائمها من الستائر

ومفرش السرير. ومرآة فى إطار أبيض ذى أنماط ملتوية مطعمة بالذهب. هذا ما تريده لورا تمامًا، أتتفقين فى ذلك؟ لا أتفق، لكن لم تتح لى فرصة لأقول ذلك.)

وكانت أيضًا تخطط الحديقة؛ وقد أعدت بالفعل رسومًا تخطيطية لعدد من التصميمات –"إنها مجرد بعض الأفكار البسيطة" قالتها وهى تدفع قصاصات الورق نحوى ثم تسحبها لتعيدها بحرص إلى مكانها فى الحافظة المكتظة بأفكارها الأخرى البسيطة. قالت إن النافورة ستكون جميلة – شىء على الطراز الفرنسى، لكن لابد أن تكون أصلية. ألا أعتقد ذلك؟

تمنيت أن تأتى لورا. تأجل موعد وصولها ثلاث مرات حتى الآن – إما لأنها لم تنتهِ من حزم أمتعتها بعد، أو أنها مصابة بنزلة برد، أو ضاعت منها التذكرة. حدثتها من التليفون الأبيض؛ جاء صوتها رصينًا متحفظًا وفاترًا.

تم تنصيب الخادمين؛ طباخة ومدبرة منزل كثيرة الشكوى والتذمر ورجلاً ضخمًا ذا لغد ادعى أنه بستانى وسائق. كان اسمهما ميورجاترويد، وقيل إنهما زوجان، لكن بدا وكأنهما أخ وأخت. كانا يتعاملان معى بعدم ثقة بادلتهما إياها. وفى أثناء النهار حيث يكون ريتشارد فى مكتبه وينفريد تنتشر فى كل مكان، كنت أحاول الفرار من المنزل بقدر استطاعتى. كنت أقول إننى ذاهبة إلى وسط البلد – للتسوق، وكان ذلك تفسيرا مقبولا لكيفية قضائى الوقت. كنت أجعل السائق يوصلنى إلى متجر سيمبسون الكبير، وأخبره أننى سأستقل سيارة أجرة عند العودة. وبعدها أدخل المتجر، وأشترى بعض الأشياء على وجه السرعة؛ وكانت الجوارب والقفازات دائمًا دليلاً مقنعًا لحماستى. وبعدها أسير بطول المتجر لأخرج من الباب المقابل.

عدت إلى عاداتى القديمة – التجول بلا هدف، والتمعن فى نوافذ العرض واللافتات الإعلانية للمسارح. بل وذهبت إلى السينما أيضًا بمفردى؛ فلم أعد عرضة للرجال الذين يتحسسون بأيديهم فى الظلام، والذين فقدوا هالة سحرهم الشيطانى، بعد أن صرت أدرك الآن ما يدور فى رؤوسهم. فلم أعد راغبة فى المزيد من نفس أفعال التحسس والتشبث التى تستحوذ عليهم. فعبارة "احتفظ بيديك

جانبك وإلا صرخت" كانت تجدى تمامًا طالما أننى على استعداد لتنفيذها. وبدا أنهم يدركون استعدادى لذلك. كانت جوان كرفورد نجمتى السينمائية المفضلة آنذاك. عينان جريحتان وفم قاتل.

كنت أذهب أحيانًا إلى متحف رويال أونتاريو Royal Ontario Museum. أشاهد السترات ذات الدروع، والحيوانات المحشوة، والآلات الموسيقية القديمة. ولم يكن مكانه بعيدًا. وأحيانًا أذهب إلى "ديانا سويتس" لتناول الصودا أو قدح من القهوة؛ وهى قاعة شاى راقية على الجانب المقابل للمتجر الكبير، معظم روادها من سيدات المجتمع، ومن ثم من المستبعد أن أتعرض لمضايقة الضالين من الرجال هناك. وأحيانًا أخرى كنت أسير فى حديقة "كوين بارك" بخطى سريعة هادفة. فلو أبطأت خطواتى كثيرًا يظهر رجل. "ورقة لاصقة للذباب" هكذا اعتادت رينى أن تصف بعض الشابات. "فلابد أن تنظف ما علق بها." ذات مرة كشف رجل عورته مباشرة أمامى وعلى مستوى البصر. (وكنت قد أخطأت بجلوسى على مقعد منعزل فى حدائق الجامعة.) لم يكن متشردًا، إنما كان أنيق الملبس. قلت له: "آسفة، فلست راغبة فى ذلك." بدا عليه الإحباط الشديد. فمن الأرجح أنه توقع أن أغيب عن الوعى.

من الناحية النظرية كان بوسعى الذهاب أينما أردت، أما من الناحية العملية كانت هناك حواجز غير مرئية. التزمت بالسير فى الشوارع الرئيسية، والمناطق الأكثر رخاء، وحتى داخل هذه الحدود لم تكن كثيرة تلك الأماكن التى أشعر فيها أنى بلا قيود. كنت أراقب أناسًا آخرين – أكثرهم من النساء وليس من الرجال. هل هن متزوجات؟ إلى أين هن ذاهبات؟ هل هن عاملات؟ لم يسعنى معرفة الكثير من النظر إليهن، إلا أثمان أحذيتهن.

شعرت وكأننى اختطفت ثم هبط بى إلى مدينة أجنبية حيث يتحدث الجميع لغة مختلفة.

أحيانًا كنت أرى زوجين يسيران وقد تعلق كل منهما بذراع الآخر – يضحكان فى سعادة وحب. ضحايا خدعة كبرى هم فى الوقت نفسه مرتكبوها، أو هكذا كان إحساسى. كنت أحملق فيهما بنظرات حاقدة مبغضة.

وذات يوم – كان يوم خميس – رأيت أليكس توماس. كان على الجانب الآخر من الشارع ينتظر أن يتغير ضوء الإشارة. كان ذلك فى شارع كوين بحى يونج. كان رث الثياب – فكان يرتدى قميصا أزرق مثل العمال، وقبعة مهترئة – لكن كان هو بالفعل. بدا مضيئا وكأنما يسلط عليه شعاع من الضوء ساقط من مصدر غير مرئى، فيجعله مرئيًا على نحو مخيف. من المؤكد أن كل من فى الشارع كان ينظر إليه أيضًا – من المؤكد أنهم كانوا جميعا يعرفون من يكون. وفى لحظة سيتعرفون عليه ويصيحون ويطاردونه.

خطر لى فى البداية أن أحذره. لكن بعدها أدركت أن التحذير لابد وأن يكون لكلينا، لأنه مهما كانت المشاكل المتورط فيها سرعان ما أتورط فيها أنا أيضًا.

كان بوسعى ألا أعيره اهتمامًا. كان بوسعى أن أبتعد. كان ذلك سيكون من الحكمة. لكن لم تتح لى مثل هذه الحكمة آنذاك.

هبطت من على رصيف المشاة وبدأت أعبر الشارع نحوه. تغير ضوء الإشارة مرة أخرى؛ فتوقفت وسط الشارع. أطلقت السيارات آلات التنبيه بها؛ وتعالت الصيحات؛ وتدفقت حركة المرور. وحرت فى أمرى فهل أعود إلى الخلف أم أتقدم نحو الأمام؟

وهنا التفت هو، ولم أتيقن فى البداية أنه رآنى. مددت يدى إليه مثل غريق يتضرع من أجل الإنقاذ. فى تلك اللحظة كنت قد ارتكبت خيانة فى قلبى.

هل كانت تلك خيانة أم تصرفًا شجاعًا؟ ربما الاثنان معًا. فكلاهما لا ينطوى على روية وتدبر؛ إذ تحدث مثل هذه الأمور فى التو وفى طرفة عين. فربما حدث هذا لأننا إنما تدربنا عليه بالفعل فى صمت وفى الخفاء؛ ذلك الصمت وذلك الخفاء الذى نجهله نحن أنفسنا. فنسير قدمًا، عميانًا، لكن واثقى الخطى، كأنما نمارس رقصة نذكرها.

صنى صايد

بعد ذلك بثلاثة أيام حان موعد وصول لورا. قدت السيارة بنفسى إلى محطة قطار يونيون لملاقاتها، ولكنها لم تكن بالقطار. ولم تكن فى أفيليون أيضًا: اتصلت برينى لأعرف فانفجرت غاضبة، وقالت إنها كانت تدرك دائمًا أن شيئًا كهذا سيحدث، وذلك مما بدت عليه لورا. فقد أوصلتها حتى القطار، وشحنت الحقيبة الكبيرة وكل شىء حسب التعليمات، واتخذت شتى الاحتياطات. وكان عليها مرافقتها طوال الطريق، والآن انظرى ماذا حدث! ربما خطفها أحد تجار الرقيق الأبيض.

ظهرت حقيبة لورا على القائمة، أما لورا نفسها فاختفت. احتدم غضب ريتشارد بأكثر مما توقعت. كان يخشى أن تكون اختطفتها خفية بعض القوى غير المعروفة – أناس فعلوها بغرض إيذائه. قد يكونون من الشيوعين، أو ربما كانوا منافسين له غير شرفاء فى مجال العمل؛ فهناك مثل أولئك الرجال ذوى السلوكيات والأخلاقيات الملتوية. وألمح إلى أنهم قد يكونون من المجرمين المتواطئين سرًا مع أناس من أنماط شتى – أناس لا يوقفهم شىء للتأثير عليه تأثيرًا فادحًا، بسبب علاقاته السياسية المتزايدة. وما تعرفينه بعد ذلك أننا سنتلقى خطابًا بالابتزاز.

فى شهر أغسطس من ذلك العام كان ريتشارد يشك فى عناصر كثيرة؛ وقال إننا يجب أن نراقب الأمور بدقة وأن نتيقظ تمامًا. ففى شهر يوليو كانت هناك مسيرة كبيرة فى أتوا – ألوف بل عشرات الألوف من الرجال ممن يزعمون أنهم عاطلون عن العمل، ويطالبون بالعمل والعدل فى الأجور، يشجعهم على ذلك التخريبيون العازمون على الإطاحة بالحكومة.

"أراهن أن الشاب "اسمه إيه" متورط فى الأمر" قالها ريتشارد وهو يرمقنى بإمعان.

"الشاب من؟" قلتها وأنا أتطلع من النافذة.

"انتبهى يا حبيبتى. صديق لورا. ذلك الشاب الأسمر، البلطجى الذى حرق مصنع أبيك."

"لم يحترق المصنع. فقد أطفأوا النيران فى الوقت المناسب. وعلى كل فلم يثبت شىء."

قال ريتشارد: "هرب. فر مثل الأرنب. وذلك دليل يكفينى."

وكان المشاركون فى مسيرة أتوا قد تم الإيقاع بهم خفية باستخدام خطة ذكية اقترحها ريتشارد نفسه الذى كان على اتصال بدوائر عليا آنذاك - أو هكذا قال. فتم استدراج زعماء المسيرة إلى أتوا للمشاركة فى محادثات رسمية، بينما عطل الآخرون جميعًا واحتجزوا فى ريجينا. ولم تسفر المحادثات عن شىء، حسب الخطة، لكن شاع الشغب؛ فقد آثار المخربون الناس وخرجت الجموع عن السيطرة، وقتل العديد من الرجال وجرح آخرون. الشيوعيون وحدهم وراء ذلك، فهم ضالعون فى كل ما يكتنفه الشك، ومن يجزم بأنهم لم يكمنوا للورا ويترصدوها.

رأيت أن ريتشارد يبالغ فى ثورته وغضبه. كنت أنا أيضًا غاضبة، ولكنى رأيت أن لورا إنما ضلت الطريق وتشوشت على نحو أو آخر. فهذا هو الأقرب إلى طبيعتها. فهبطت من القطار فى محطة خطأ، ونست رقم تليفوننا، وضلت الطريق.

قالت وينفريد علينا مراجعة المستشفيات؛ فربما مرضت لورا أو أصيبت فى حادث. ولكنها لم تكن بمستشفى من المستشفيات.

بعد يومين من القلق أبلغنا الشرطة، وسرعان ما طرقت القصة أبواب الصحافة، برغم ما اتخذه ريتشارد من احتياطات. وحاصر الصحفيون الرصيف خارج المنزل. والتقطوا الصور، وإن كانت لأبواب البيت ونوافذه فحسب؛ واتصلوا بنا تليفونيًا وتوسلوا من أجل إجراء أحاديث صحفية. فهم لم يسعوا سوى إلى فضيحة. "طالبة من صفوة المجتمع الراقى فى عش للحب." "آثار مخيفة فى محطة

يونيون للقطارات". لقد أرادوا أن يخبرهم أحد بأن لورا هربت مع رجل متزوج، أو خطفها فوضويون، أو تم العثور عليها ميتة فى حقيبة كاروهات فى حجرة الأمتعة. فهم لا يفكرون فى شيء سوى الجنس، أو الموت أو كليهما معًا.

قال ريتشارد إننا يجب أن نكون كرماء معهم لكن لا نمدهم بالمعلومات. وذكر أنه لا جدوى من المغالاة فى استعداء الصحف لأن الصحفيين حشرات طفيلية حقودة تتربص للانتقام، تحمل الضغينة لسنوات ثم تردها بعد ذلك فى وقت لا يتوقعها المرء فيه. وقال إنه سيتدبر الأمور.

فى البداية زعم لهم أننى على وشك الانهيار، وطلب منهم احترام خصوصيتى وضعف صحتى. فابتعد الصحفيون بعض الشيء؛ فلقد فهموا بالطبع أننى كنت حاملا، وكان لذلك شأن آنذاك، كما كان معروفًا أن عقل المرأة يصير مشوشًا فى تلك الفترة. وبعدها أشاع أنه ستكون هناك مكافأة لمن يدلى بمعلومات، وإن لم يذكر قدرها. وفى اليوم الثامن تلقينا اتصالاً هاتفيًا من مجهول؛ لورا لم تمت، بل تعمل فى كشك لبيع الفطائر فى "صنى صايد أميوزمنت بارك". ادعى المتحدث أنه تعرف عليها من وصفها المنشور فى كل الصحف.

وتقرر أن نذهب أنا وريتشارد لاصطحابها. وقالت وينفريد إنه على الأرجح أن لورا تعانى من صدمة متأخرة، وذلك نظرًا لميتة الوالد غير اللائقة واكتشافها للجثة. فأى شخص من شأنه أن يرتبك بعد محنة كهذه، ولورا فتاة ذات مزاج سريع التوتر والتأثر. فمن المرجح أنها لا تدرك ما تفعل أو تقول. فبمجرد عودتها لابد أن نعطيها مهدئًا قويًا ونذهب بها إلى الطبيب.

وقالت وينفريد إن الأهم ألا تتسرب كلمة من كل ذلك. فهروب فتاة فى الخامسة عشرة من المنزل بهذه الطريقة ستكون له انعكاساته السيئة على العائلة. فقد يظن الناس أنها تعرضت لسوء المعاملة، مما قد يشكل عقبة خطيرة. وهى بذلك إنما قصدت أن ذلك سيكون عقبة فى طريق ريتشارد وطموحاته السياسية المستقبلية.

كان "صنى صايد" مكانًا يذهب إليه الناس فى الصيف. ولكنهم ليسوا أناسًا مثل ريتشارد ووينفريد – فهو مكان بالغ الصخب يمتلئ بالمشاغبات، تفوح منه رائحة العرق. ففيه يتقد الناس إثارة، وتشيع الأراجيح الدوارة، وشراب الشعير غير المسكر، واستعراض الطلق النارى، ومسابقات الجمال والسباحة العامة؛ فهو باختصار مكان يلهو فيه السوقة والعوام. لم يكن ريتشارد ووينفريد ليتمنوا أن يقتربوا بهذا القدر من رعاع الناس، أو من أولئك الذين يعدون نقودهم بالقروش. ومع ذلك لا أدرى لماذا كنت أتصرف بتعال شديد، ربما لأنى لم أكن راغبة فى ذلك أيضًا.

لم يعد لصنى صايد وجود الآن – اكتسحته اثنتا عشرة حارة من الأسفلت على الطريق السريع فى الخمسينيات. زال المكان منذ زمن بعيد مثل أشياء أخرى كثيرة. ولكن فى شهر أغسطس من ذلك العام كان فى أوج نشاطه، والحركة فيه على قدم وساق. ذهبنا فى سيارة ريتشارد الكوبيه، لكن كان علينا ترك السيارة على بعد مسافة من المكان بسبب المرور وازدحام الناس المتدافعين على الأرصفة والطرق المتربة.

كان يومًا سيئًا شديد الحرارة غائم الرؤى؛ أشد قيظا من أبواب الجحيم كما يقول والتر الآن. ففوق شاطئ البحيرة تعلقت سحابة خفية ولكنها محسوسة، تتكون من روائح آسنة ومن زيوت مدهونة بها الأكتاف العارية التى لفحتها الشمس، يختلط بها بخار المقانق المطبوخة ورائحة احتراق السكر المغزول. فأن تسير بين الزحام كأنك تغوص فى وعاء من الطعام المطهى – فتصبح أحد مكوناته، وتكتسب رائحة خاصة. فحتى ريتشارد تفصد جبينه عرقًا تحت حافة قبعته البنما من القش المجدول.

ومن فوق رؤوسنا تناهى إلينا صوت حاد لمعدن يطرق آخر، ولغو يتوجس شرًا، وجوقة من أصوات نسائية تصرخ: إنه القطار المتعرج. لم أكن قد ركبت مثله أبدًا، ففغرت فاهى دهشة حتى قال لى ريتشارد: "أغلقى فمك يا حبيبتى وإلا دخل فيه الذباب." وبعد ذلك سمعت قصة غريبة – من الذى قصها؟ لابد أنها وينفريد دون شك؛ فكانت من ذلك النوع الذى اعتادت أن تقذف به لتظهر أنها تدرك تمامًا ما يدور خلف كواليس الحياة، حياة الطبقة السفلى من الناس. تحكى

القصة أن الفتيات الذين أوقعن أنفسهن فى ورطة – وهو تعبير وينفريد، وكأن هؤلاء الفتيات أحدثن الورطة بمفردهن – فهؤلاء الفتيات المتورطات يركبن القطار المتعرج فى صنى صايد على أمل أن يجهضن حملهن بهذه الطريقة. وتضحك وينفريد قائلة: "لا ينجح الأمر بالطبع، وإن نجح، فماذا يفعلن؟ أقصد كيف يتصرفن فى كل الدماء النازفة وهن متعلقات فى الهواء هكذا؟ تخيلوا!"

ما تخيلته عندما قالت ذلك كان تلك الرايات الشرائطية الحمراء التى اعتادوا القذف بها من البواخر عابرة المحيطات لحظة إبحارها لتسقط على المشاهدين بالأسفل؛ أو مجموعة من الحبال الطويلة السميكة ذات اللون الأحمر تنزل هابطة فى التفافات من القطار المتعرج، ومن الفتيات الراكبات فيه مثل طلاء يسكب من دلو، وكأنها خربشات كتابية من سحب قرمزية؛ وكأنها كتابة على صفحة السماء.

أفكر الآن أنها إذا كانت كتابة، فأى نوع من الكتابة تكون؟ هل هى مذكرات، أم روايات، أم سير ذاتية؟ أم أنها محض كتابات مثل تلك التى يخطها العابرون على جدران المبانى؛ مثل "مارى تحب جون" ولكن جون لا يحب مارى، أو لعله لا يحبها بما يكفى. لا يحبها بما يكفى لينقذها من إفراغ أحشائها بهذه الطريقة، ومن أن تلقى فوق الناس كلمات خطت بعشوائية بحروف حمراء.

telegram @ktabpdf

قصة قديمة

لكن فى ذلك اليوم من شهر أغسطس عام ١٩٣٥ لم أكن سمعت عن الإجهاض. فلو كانت الكلمة ذكرت فى حضورى، ما كنت عرفت المقصود بها. فحتى رينى لم تذكرها؛ إنما أقصى ما وصلت إليه فى حديثها تلميحات غامضة عن جزارى طاولات المطبخ، سمعناها أنا ولورا بينما كنا نختبئ عند الدرج الخلفى ونسترق السمع، فظننا أنها تتحدث عن آكلى لحوم البشر ووجدنا فى الأمر إثارة كبيرة.

تجاوزنا صرخات القطار المتعرج ومررنا باستعراض الرماية وضوضائه الشبيهة بفرقعات الفيشار، وبأناس آخرين يضحكون. وجدت نفسى أشعر بالجوع،

ولكنى لم أستطع أن أقترح تناول وجبة سريعة؛ فالوقت غير مناسب، والطعام رديء. كان ريتشارد متجهمًا كأنه القدر؛ وكان يمسكنى من المرفق ويقودنى وسط الزحام، بينما يده الأخرى فى جيبه؛ فقال إنه لابد وأن هذا المكان يعج بالنشالين ذوى المهارة.

شققنا طريقنا نحو كشك المقانق. لم تظهر لورا، ولكن ريتشارد لم يشأ الحديث معها أولاً، فهو أكثر حكمة من ذلك. فكان يحب دائمًا إصلاح الأمور من القمة إلى القاع قدر الإمكان. ومن ثم طلب التحدث مع مالك الكشك على انفراد، وكان رجلاً أسمر ضخم الجثة بارز الذقن، تفوح منه رائحة الزبد العفن. أدرك الرجل على الفور سبب وجود ريتشارد بالمكان. فخرج من الكشك، وهو يلقى نظرة متوجسة خلف ظهره.

وسأله ريتشارد: هل يعلم صاحب كشك المقانق أنه يأوى فتاة هاربة دون السن القانونية؟ فأجاب الرجل فى رعب: أعوذ بالله. فقد جاءت لورا إليه وقالت إنها فى التاسعة عشرة. وهى مع ذلك عاملة مجتهدة، فهى تعمل كالحصان، تنظف المطعم، وتساعد فى طهى المقانق عندما يشتد العمل. أين كانت تنام؟ لم يكن الرجل واضحًا فى ذلك. كانت تنام لدى أحد الأشخاص القريبين من المكان، لكن ليس هو. وليس فى الأمر ما يشين، فيجب أن نصدق ذلك، أو أنه لا يعرف عنها شيئًا كهذا. فهى فتاة صالحة، وهو زوج سعيد، على غير كثيرين فى المكان. فقد شعر بالأسى تجاهها – وظن أنها فى ورطة ما. فقلبه يرق للصغار الطيبين مثلها. والحقيقة أنه هو الذى اتصل هاتفيًا، ولكن ليس من أجل المكافأة فحسب؛ فقد رأى أن الأفضل لها أن تعود إلى أسرتها، أليس كذلك؟

وهنا نظر إلى ريتشارد يتوقع شيئًا. وانتقلت النقود من يد إلى يد، وإن كان، كما فهمت، ليس مبلغًا كبيرًا كما توقع الرجل. تلا ذلك أن استدعيت لورا، ولم تحتج. رمقتنا بنظرة واحدة واتخذت قرارها بترك المكان. وقالت لصاحب كشك المقانق: "شكرًا لك على كل شيء" وصافحته. ولم تدرك أنه بادلها بالمال.

سارت لورا بيننا أنا وريتشارد يمسك كل منا بأحد مرفقيها ونسير بها خارجين من "صنى صايد". انتابنى شعور بالخيانة. وضعها ريتشارد فى السيارة بيننا. أحطت كتفها بذراع ثابتة. كنت غاضبة منها، لكن كنت أدرك أنه يجب أن أطمئنها. كانت تفوح منها رائحة الفانيليا، وشراب سكرى ساخن وشعر غير مغسول.

وبمجرد أن دخلنا بها المنزل، استدعى ريتشارد مسز ميورجاترويد، وطلب قدحًا من الشاى المثلج للورا. ولكنها لم تشربه؛ وجلست فى منتصف الأريكة تمامًا ضامة ركبتيها، متصلبة جامدة الملامح وبدت عيناها كحجرى إردواز.

قال ريتشارد: "هل لديها أدنى فكرة عن مدى القلق والاضطراب الذى أحدثته لنا." كلا. "هل تهتم؟". لا إجابة. إنه بكل تأكيد يتمنى ألا تأتى شيئًا كهذا مرة أخرى. لا إجابة. ذلك لأنه يقوم الآن مقام الوالدين بالنسبة لها، ولديه مسئولية تجاهها ينوى القيام بها بكل طـــاقته ومهما كلفه الأمر. وحيث إنه لا شـــىء يسير فى اتجـــاه واحد، فهو يتوقع منها أن تدرك أن لديها مسئولية تجـــاهه أيضا – وأضاف: "بل تجاهنا" – وهى أن تحسن السلوك وأن تفعل ما يطلب منها فى حدود المعقول. فهل تفهم ذلك؟

قالت لورا: "نعم، أفهم قصدك."

قال ريتشارد: "أرجو ذلك بكل تأكيد. أرجو أن تعملى بمقتضاه أيها السيدة الشابة."

جعلنى تعبير "السيدة الشابة أشعر بتوتر. كان تأنيبًا، وكأنما هناك عيب فى أن تكون شابة، وأيضًا سيدة. إذا كان هذا هو المقصود فالتأنيب يشملنى أيضًا. وسألت على سبيل التشتيت بعيدا عن الموضوع: "ماذا تأكلين؟"

قالت لورا: "تفاح مسكر، وفطائر دونت من محل دونى فلاك للدونت، فهى تكون أرخص فى يومها الثانى. فالناس هناك لطفاء حقًا. أحبها ساخنة جدًا."

"يا عزيزتى!" قلتها وأنا أبتسم نحو ريتشارد ابتسامة صغيرة خافتة تقلل من أهمية الأمر.

قالت لورا: "هذا ما يأكله الآخرون فى الواقع." وبدأت أدرك قليلاً ما الذى جذبها فى صنى صايد. إنهم "الآخرون" – أولئك الناس الذين كانوا دائمًا الآخرين، والذين سيظلون هكذا، حسب اهتمام لورا. إنها تتوق لخدمة أولئك الآخرين. وتتمنى أن تلتحق بهم بطريقة أو بأخرى. ولكنها لم تتمكن من ذلك أبدًا. إنه مطبخ الحساء فى تيكونديروجا مرة أخرى.

وبمجرد أن أصبحنا بمفردنا سألتها: "لماذا فعلت ذلك يا لورا؟" (فالسؤال "كيف فعلت ذلك" له إجابة بسيطة؛ فلقد هبطت من القطار فى لندن وغيرت تذكرتها لقطار لاحق. فعلى الأقل هى لم تذهب إلى مدينة أخرى، وإلا ما عثرنا عليها.)

قالت: "ريتشارد قتل أبى، فلا أستطيع العيش فى منزله. إنه خطأ."

قلت: "ليس ذلك من الإنصاف. فأبى مات نتيجة مجموعة من الظروف السيئة." وشعرت بخزى من نفسى لقولى هذا: فقدا بدا ترديدًا لرأى ريتشارد.

قالت: "قد لا يكون إنصافًا، ولكنه حقيقة. إنه فى باطنه حقيقة. على كلٍ، فأنا أريد الحصول على عمل."

"ولكن لماذا؟"

قالت وهى تشيح بوجهها عنى وتقضم إصبعها: "لأبين أننا – لأبين أننى أستطيع ذلك. أننى، أننا لسنا مضطرين ل..."

"مضطرين لماذا؟"

قالت: "أنت تعرفين كل ذلك." ولوحت بيدها تجاه منضدة التزيين بحاشيتها ذات الأهداب، والستائر ذات الورود المطبوعة المتناسبة معها. وأضافت: "ذهبت فى البداية إلى الراهبات. ذهبت إلى دير "نجمة البحر"."

وقلت فى نفسى: "يا ربى! ليس الراهبات ثانية. فقد ظننت أننا انتهينا تمامًا من أمر الراهبات. وسألتها فى نبرة حنونة محايدة: "وماذ قلن؟"

قالت لورا: "لا يجدى ذلك نفعًا. كن لطفاء معى، لكن رفضن. ليس لأنى لست كاثوليكية فحسب؛ لكن لأننى لم أتلق وحيًا صادقًا، إنما أتملص من واجباتى. وقلن لو أردت خدمة الرب، فبوسعى القيام بذلك فى الحياة التى يسرنى لها." وسكتت ثم أضافت: "لكن أى حياة؟ فلا حياة لى!"

وهنا بكت، وحوطتها بذراعى، تلك الإيماءة التى عفا عليها الزمن منذ أن كانت صغيرة. "كفى بكاء ونهنهة" ولو كان معى مكعب من السكر البنى لأعطيته لها، ولكنا كنا وقتها تجاوزنا مرحلة السكر البنى كثيرًا. فالسكر لم يعد يفيد.

قالت وهى تصيح مولولة: "كيف لنا أن نخرج من هنا قبل فوات الأوان؟" كانت على الأقل تشعر بالخوف. كانت تشعر به أكثر منى. ولكنى رأيت الأمر لا يزيد على كونه ميل المراهقين نحو الميلودراما والمبالغة العاطفية والإثارة. وسألتها برقة: "فوات الأوان على ماذا؟" نفس عميق هو كل ما استدعاه الأمر؛ نفس عميق، وبعض الهدوء، وبعض التفقد لما عندى. لا داعى للرعب.

توقعت أنه يمكننى مجاراة ريتشارد، ووينفريد. توقعت أن بوسعى الحياة كفأر فى قلعة للنمور، أن أتوارى عن الأنظار داخل الجدران؛ أن أظل هادئة مطأطئة الرأس. كلا: لقد أسرفت كثيرًا فى الثقة بنفسى. لم أدرك الخطر، بل لم أكن أعرف أنهما نمران. والأسوأ أننى لم أدرك أننى قد أصبح نمرة أنا الأخرى. لم أكن أعرف أن لورا قد تصبح نمرة إذا أتيحت لها الظروف المناسبة. فكل شخص ربما يصبح كذلك.

قلت للورا فى أفضل نبرة عزاء فى صوتى وأنا أربت على ظهرها: "انظرى إلى الجانب المشرق. سآتيك بقدح من اللبن الدافئ وبعدها تذهبين فى نوم طويل هادئ. وستشعرين بتحسن مع الغد." ولكنها أخذت تبكى وتبكى ولم تشعر بالطمأنينة.

إكسانادو

حلمت بالأمس أننى كنت أرتدى ردائى فى حفل إكسانادو الراقص. كان من المفترض أن أكون فتاة حبشية – الحسناء التى تعزف على القانون. كان الرداء من الستان الأخضر؛ مكونًا من سترة نسائية قصيرة موشاة بالترتر الذهبى؛ يكشف كثيرًا من الفجوة بين النهدين وما بين الصدر والوسط، وسروال داخلى قصير من الستان الأخضر وآخر خارجي واسع ينفذ منه الضوء. وتدلت على الصدر والجبين قلادات من عملات ذهبية زائفة. مع قبعة صغيرة معوجة فى تأنق بها دبوس على هيئة هلال. وبرقع على الأنف. إنه تصميم مبهرج وسيئ، أعده أحد مصممى ملابس السيرك فى الشرق.

وظننتنى أبدو جميلة وأنيقة فيه إلى حد كبير، إلى أن لاحت منى التفاتة إلى بطنى المتهدل ومفاصلى المتضخمة مزرقة العروق، وذراعى الجافين المتغضنين، فأدركت أننى لست فى السن الذى كنته، إنما فى العمر الذى أنا فيه الآن.

ومع ذلك لم أكن فى الحفل الراقص. إنما كنت وحيدة، أو هكذا بدا الأمر فى البداية، فى المستنبت الزجاجى المهشم فى أفيليون. وحولى تناثرت أصائص فارغة، وأخرى ممتلئة بالطمى الجاف والنباتات الميتة. وعلى الأرض يرقد أحد التماثيل الحجرية لأبى الهول، مقلوب على أحد جانبيه، تشوهه كتابات لأسماء وأحرف أولى ورسومات رديئة خطت بأقلام رسم سميكة. كان السقف الزجاجى مثقوبًا. وتفوح من المكان رائحة القطط.

وبدا المنزل الرئيسى بالخلف مظلمًا، مهجورًا، رحل كل من فيه، وتركونى وحدى فى ذلك الرداء التنكرى المثير للضحك. كان الوقت ليلاً والقمر يظهر متواريًا. وعلى ضوئه تبينت أن هناك نبتة واحدة حية؛ شجيرة متلألئة ناعمة بها زهرة واحدة بيضاء. فقلت "لورا". ومن بين الظلال تناهى إلى من أعلى صوت رجل يضحك.

قد تقولون إنه مجرد كابوس. لكن انتظروا حتى تجربوه. استيقظت وقد تملكنى شعور بالوحدة والوحشة.

لماذا يفعل العقل هذه الأشياء. ينقلب علينا، يمزقنا وينشب مخالبه فينا. إذا جاع المرء يقولون إنه بدأ يأكل فى نفسه. ربما يتشابه الأمر كثيرًا.

هراء. كلها تفاعلات كميائية. لابد أن أتخذ إجراء ضد هذه الأحلام. لابد وأن هناك أقراصًا لمعالجتها.

يتزايد الجليد اليوم، فمجرد أن أتطلع إليه من النافذة تؤلمنى أصابعى، أكتب على منضدة المطبخ فى بطء كأننى أنقش بالحفر. القلم ثقيل، يصعب الضغط عليه وكأننى أحك فى الأسمنت بمسمار.

خريف عام ١٩٣٥. تراجعت درجة الحرارة وبدأ البرد يزحف. يتجمع الصقيع على أوراق الأشجار الساقطة، ثم على تلك التى لم تسقط. وبعدها على النوافذ. تسعدنى تلك الأشياء الصغيرة. أحب أن أستنشق الهواء. فالمساحة داخل رئتى تخصنى وحدى.

وفى تلك الأثناء كانت الأمور تسير.

فقد جرى التعتيم بقدر الإمكان على ما كانت تسميه وينفريد "المغامرة الصغيرة الطائشة للورا". وأخبر ريتشارد لورا بأنها لو تحدثت بذلك لأى شخص آخر، ولاسيما لأى شخص فى مدرستها، لابد أنه سيعرف وسيعتبره إهانة شخصية ومحاولة لتحطيمه. وهو سيصلح الأمور مع الصحافة؛ فقد اتخذ الزوجان نيوتن دوبسيس كشاهدى إثبات، وهما من أصدقائه ذوى المكانة - إذ كان الرجل موظفًا مرموقًا فى أحد خطوط السكك الحديدية - وهما على استعداد ليقسما أن لورا كانت معهما فى منزلهما فى موسكوكا كل الوقت. فقد كانت عطلة أعد لها فى الدقيقة الأخيرة، وظنت لورا أنهما اتصلا بنا، وظن الزوجان أن لورا فعلت، فالأمر كله سوء تفاهم بسيط، ولم يدرك الجميع أنه ساد الظن بأن لورا مفقودة، لأنهم لا يلقون بالاً للأخبار فى الإجازة.

رواية لا تصدق. لكن صدقها الناس، أو اضطروا للتظاهر بتصديقها. وأرى أن الزوجين نيوتن دوبسيس كانا ينشران القصة الحقيقية بين أصدقائهما العشرين المقربين، هش هش لأذنيك أنت وحدك، وهو ما كانت وينفريد ستفعله لو كانت مكانهما، فالنميمة سلعة كغيرها. لكنها لم تصل للصحافة أبدًا.

ودُثرت لورا بتنورة من قماش خشن غليظ ورابطة عنق متصالبة النقوش وأرسلت إلى مدرسة سانت سيسليا. لم تخف مقتها للمكان. وقالت إنها ليست مضطرة للذهاب إليها؛ وذكرت أنها حصلت على عمل وبوسعها الحصول على آخر. ذكرت ذلك لى فى حضور ريتشارد. فهى لم تحادثه مباشرة.

كانت تقضم أصابعها، ولم تكن تأكل جيدًا، وكانت بالغة النحافة. انتابنى قلق بالغ عليها، كما هو منتظر منى، وللحق، كما يجب أن أشعر تجاهها. ولكن ريتشارد قال إنه سأم ذلك الهراء الهستيرى، وفيما يتعلق بالعمل فهو لا يريد أن يسمع مزيدًا فى هذا الموضوع. فمازالت لورا صغيرة جدًا على أن تخرج بمفردها؛ فربما تورطت فيما يشين، فالغابة تمتلئ بأولئك الذين يمتهنون افتراس الفتيات الصغيرات الحمقاوات أمثالها. وإذا لم تعجبها مدرستها يمكن إلحاقها بأخرى بعيدة وفى مدينة أخرى، وإذا هربت منها سيضعها فى إصلاحية تأديب للفتيات المشاغبات مع المنحرفات أخلاقيًا، وإذا لم يجد ذلك يبقى المستوصف الطبى. مستوصف خاص على نوافذه قضبان حديدية؛ فإذا أرادت المسوح والرماد حزنًا وتوبة، فذلك يفى بالغرض. إنها دون السن القانونية، وله السلطة عليها، وسينفذ ما يقول حتمًا. فهو رجل يحترم كلمته، كما تعلم ويعلم الجميع.

كانت عيناه تبرزان إلى الخارج حين يغضب، وقد برزتا فى ذلك الوقت، لكنه قال كل ذلك بنبرة هادئة قابلة للتصديق، وصدقته لورا وانتابها الرعب. حاولت التدخل – فتلك التهديدات بالغة القسوة، فهو لا يفهم لورا ولا طريقتها فى فهم الأشياء حرفيًا – ولكنه طلب منى أن أبقى بعيدة عن الموضوع. فالأمر يحتاج شيئًا من الحزم. وقد تدللت لورا كثيرًا. وحان وقت إصلاحها.

وعلى مدى الأسابيع التالية ترسخت بينهما هدنة قلقة. فحاولت ترتيب الأمور فى البيت حتى لا يصطدم الاثنان. تمنيت أن يكونا مثل سفينتين تعبران بالليل فتلتقيان لبرهة قصيرة لا يتقابلان بعدها أبدًا.

وبالطبع حشرت وينفريد أنفها فى الموضوع. فلابد أنها طلبت من ريتشارد أن يأخذ موقفًا لأن لورا من نوع الفتيات التى تعض اليد التى تطعمها إلا إذا كمم فاها.

كان ريتشارد يشاور وينفريد فى كل شيء، فهى التى كانت تتعاطف معه وتسانده وتشجعه بوجه عام. كانت هى التى تسانده اجتماعيًا، وتعزز اهتماماته بما كانت تعتبره الدوائر الصحيحة. متى يتقدم للحصول على عضوية البرمان؟ فتهمس وينفريد فى الأذن التى تميل عليها: "ليس بعد، فالوقت ليس مناسبًا الآن، لكن قريبًا." قرر الاثنان أن ريتشارد هو رجل المستقبل، وأنها هى المرأة التى تقف وراءه – أليس وراء كل رجل ناجح امرأة.

فمن المؤكد لم أكن أنا تلك المرأة. فقد اتضح آنذاك الفرق بين مكانها ومكانى؛ أو لعله كان دائمًا واضحًا لديها، ولكنه صار يتكشف لى أنا أيضًا. كان وجودها ضروريًا لريتشارد، أما أنا فيمكن استبدالى دائمًا. فوظيفتى أن أفتح ساقى وأغلق فمى.

إذا بدا ذلك حيوانيًا، فقد كان كذلك. ولكنه لم يكن خارجًا عن المألوف. كانت وينفريد تشغلنى كل ساعات النهار؛ فلم ترد أن تجعلنى أجن من الملل، وأنفجر غاضبة لأتفه الأسباب. فبذلت جانبًا كبيرًا من طاقتها الفكرية تعد لى مهامًا تافهة بلا معنى، ثم تعيد ترتيب ساعات يومى وأوقات فراغى حتى تتاح لى حرية إنجازها. لم تكن تلك المهام على جانب كبير من الصعوبة أو بحاجة إلى مهارات عالية، وذلك أنها لم تخف رأيها فى أننى مثل حيوان أليف أبكم. وأنا بدورى لم أفعل شيئًا لأثبط ذلك الرأى.

وهكذا كان الحفل الراقص الخيرى لدار حضانة "وسط المدينة للقطاء"، والذى كانت الداعية له. فوضعت اسمى فى قائمة المنظمين، لا لتشغلنى لكن لأن ذلك سينعكس جيدًا على ريتشارد. أن تضعنى فى قائمة المنظمين كان مزحة، فهى لا تظننى قادرة على تنظيم رباط حذائى، ومن ثم فأى عمل مضجر تافه يمكن أن تكلفنى به؟ فقررت أن تكلفنى بعنونة المظاريف. وكانت محقة، فقد أمكننى أداء ذلك، بل أديته بإتقان. فلم أضطر للتفكير فيه، وكان بوسعى أن أدخر وقت التفكير لشىء آخر. (وسمعتها تقول لأصدقائها المدعووين بيلى وتشارلى أثناء لعبهم البريدج: "الحمد لله أنها موهوبة فى شىء. آه نسيت – أقصد فى شيئين!" وتنفجر الضحكات مجلجلة.)

كان دار حضانة "وسط المدينة للقطاء" لمساعدة أطفال الأحياء الفقيرة أفضل ما فعلته وينفريد، أو على الأقل الحفل الراقص الخيرى. كان حفلاً تنكريًا – فهكذا كانت معظم تلك الحفلات الكبرى، لأن الناس آنذاك كانوا يحبون الأزياء الغريبة المتنوعة. كانوا يحبونها مثلما يحبون الأزياء الموحدة. فكلاهما يخدم نفس الغرض؛ أن يتجنب الشخص كونه هو نفسه. فبوسعه التظاهر بأنه شخص آخر. يمكنه أن يكون أضخم جسدًا وأقوى بنية، أو أن يكون أكثر فتنة وغموضاً بمجرد ارتدائه ملابس غريبة. إذن فالأمر يعنى شيئًا.

عقدت وينفريد لجنة من أجل الحفل، لكن كان الجميع يعرفون أنها اتخذت أكبر القرارات بمفردها. فهى تمسك بالأطواق ليقفز من بينها الآخرون. فكانت هى التى اختارت "إكسانادو" موضوعًا لحفل عام ١٩٣٦. وكان الحفل المنافس الذى أقيم قبله بوقت قصير فى قاعة بيوكس أرتس بعنوان "تيمورلنك فى سمرقند" وحقق نجاحًا كبيرًا. فالموضوعات التى تدور حول الشرق لها جاذبية كبيرة، ومن المؤكد أن كل الناس حفظوا فى مدارسهم قصيدة "كوبلاخان"، ومن ثم يعرف المحامون والأطباء، بل والمحاسبون أيضًا كيف كانت إكسانادو. ومما لا جدال فيه أن زوجاتهم يعرفن ذلك أيضًا.

"فى إكسانادو قرر كوبلاخان

إنشاء قبة مهيبة فخمة للمسرات

حيث يجرى النهر المقدس "ألف"

عبر كهوف شاسعة

إلى بحر لا تشرق عليه الشمس"

طبعت وينفريد القصيدة كاملة وأعدت منها عدة نسخ ووزعتها على لجنتنا – وقالت "ذلك حتى تتضح الفكرة وتتبلور" – وأضافت أن أى اقتراح نطرحه يلقى ترحيبًا بالغًا، مع أننا كنا نعلم جميعًا أنها خططت كل شىء ورسمته بالفعل فى رأسها. وستظهر القصيدة على الدعوات المنقوشة بالحروف المحفورة فى حروف ذهبية داخل حاشية من الخط العربى بالذهبى واللازوردى. فهل كان منا من يفهم الخط العربى؟ كلا، ولكنه كان يبدو جميلا فحسب.

كان حضور تلك الحفلات بالدعوات وحدها. فتتم دعوة الناس وبعدها يدفعون ثمنًا باهظًا، ولكنها دائما تكون فى دائرة ضيقة. فيشيع الترقب القلق لظهور أسماء من تضمهم قائمة المدعووين، وإن كان ذلك يحدث فقط بين من يتشككون فى مكانتهم. فأن يتوقع شخص دعوة ثم لا يتلقاها لشىء من العذاب الأليم. أرى أن كثيرًا من الدموع ذرفت خفية من أجل هذا الأمر – لكن فى ذلك العالم لا يظهر المرء أبدًا أنه يهتم لشىء كهذا.

قرأت وينفريد القصيدة عاليا بصوتها الناعس قراءة رائعة، فلابد أن أشهد لها بذلك؛ وبعدها قالت إن جمال إكسانادو يكمن فى أنه بموضوع كهذا يستطيع المرء أن يكشف ويخفى من ذاته ما يريد. فيلف البدناء أنفسهم فى أنسجة موشاة بالخيوط المقصبة الكثيفة، وتظهر النحيفات كجوارى أو راقصات فارسيات يتباهين بكل ما يحتجنه وما لا يحتجنه. ومن ذلك تنورات شبكية شفافة، وأساور مدملجة وخلاخيل رنانة – فالمجال لا ينتهى، وبالطبع يحب الرجال ارتداء زى الباشاوات والتظاهر بأن

لهم حريمًا. وأضافت أنها مع ذلك لا تستطيع أن تتحدث لأحد ليقوم بدور الطواشى لإثارة مزيد من الضحك.

كانت لورا بالغة الصغر حتى إنها لا تستطيع حضور هذه الحفلات. وكانت وينفريد تعد لتقديمها للمرة الأولى، وهو طقس احتفالى لم يكن قد حدث بعد، وحتى يحدث لا تعتبر لورًا أهلاً لحضور مثل هذه الحفلات. ومع ذلك فقد اهتمت كثيرًا بالترتيبات. وأراحنى كثيرًا أن أراها تهتم بشىء مرة أخرى. فهى بالطبع لم تهتم بواجباتها المدرسية؛ فكانت درجاتها بالغة السوء.

تصويب: لم تكن تهتم بالترتيبات إنما بالقصيدة. كنت أعرف القصيدة بالفعل من دروس مس فيولنس فى أفيليون، ولكن لورا لم تزعج نفسها بذلك كثيرًا آنذاك. والآن هى تقرأها مرارًا ومرارًا.

وأرادت أن تعرف من هو الحبيب الشيطانى؟ لماذا البحر لا تشرق عليه الشمس، والمحيط لا حياة فيه؟ لماذا تضم قبة المسرات كهوفًا من جليد؟ ما هو جبل أبورا، ولماذا تغنى له الفتاة الحبشية؟ لماذ تتنبأ أصوات الأجداد بالحرب؟

لم أكن أعرف الإجابة على أى من هذه الأسئلة. ولكنى أعرفها كلها الآن. لا أقصد إجابات صمويل تايلور كولريدج – فلست على يقين أنه كانت لديه أية إجابات، حيث إنه كان تحت تأثير نشوة المخدر وقتها – إنما هى إجاباتى أنا. وها هى على علاتها.

النهر المقدس حى. وهو يتدفق صوب المحيط الذى لا حياة فيه، لأن تلك نهاية كل شىء حى. الحبيب حبيب شيطانى لأنه ليس موجودًا. تضم قبة المسرات المشمسة كهوفًا من جليد لأن هذا حال قباب المسرات – تصبح شديدة البرودة بعد فترة ثم تنصهر بعد ذلك، وبعدها أين نكون؟ يبتل الجميع. وكان جبل أبورا موطن الفتاة الحبشية، وهى تغنى له لأنها لا تستطيع العودة إليه. وأصوات الأجداد تتنبأ بالحرب، لأن أصوات الأجداد لا تصمت أبدًا، وتكره أن تخطئ، والحرب أمر مؤكد الحدوث عاجلاً أو آجلاً.

صوبونى إن كنت مخطئة.

تساقطت الثلوج، خفيفة فى البداية، ثم فى كريات صغيرة توخز الجلد مثل الإبر. تغرب الشمس فى العصارى وتتحول السماء من حمرة الدماء الخفيفة إلى لون اللبن المقشود. ويتدفق الدخان من المداخن، منبعثًا من الأفران المزودة بالفحم. وتترك أحصنة عربات الخبز فى الشارع أكوامًا من الأرغفة البنية يتصاعد منها البخار، وسرعان ما تجف وتتجمد، ويقذف بها الأطفال بعضهم بعضًا. تدق الساعات معلنة منتصف الليل، مرارًا ومرارًا، وفى منتصف كل ليلة تنتشر الأنجم الجليدية بين الأزرق القاتم الضارب نحو السواد، ويظهر القمر ناصع البياض. تطلعت من نافذة حجرة النوم نحو الرصيف، وعبر أغصان شجرة القسطل. وبعدها أضأت النور.

كان حفل إكسانادو فى السبت الثانى من شهر يناير. ووصل ردائى صباح ذلك اليوم فى صندوق ملفوف بحفنة من ورق التغليف. وكان من الذكاء استئجار الرداء من محلات ملابار، وذلك لأن حياكة واحد خصيصًا يحتاج مجهودا كبيرًا. كانت الساعة حينئذ حوالى السادسة وكنت أجربه. كانت لورا فى حجرتى؛ فهى دائما تؤدى واجباتها المدرسية هناك أو تتظاهر بذلك. فقالت: "ماذا يفترض أن تكونى؟"

قلت: "الفتاة الحبشية" ولم أكن على يقين مما سأفعله بشأن القانون. فربما استعنت بآلة البانجو مع إضافة بعض الشرائط. وهنا تذكرت أن البانجو الوحيد الذى أعرفه كان فى القبو فى أفيليون، وهو موروث من أعمامى المتوفين. يمكن أن أتغاضى عن القانون.

لم أنتظر أن تخبرنى لورا أننى أبدو جميلة أو حتى جذابة. فهى لم تفعل ذلك أبدًا: فكلمات مثل "جميلة" و"جذابة" لم تكن ضمن تصنيفاتها الفكرية. وفى ذلك الوقت قالت:"لا تبدين حبشية تمامًا. فالحبشيات لا يمكن أن يكن شقراوات."

فقلت: "لا أستطيع شيئًا حيال لون شعرى. إنها غلطة وينفريد. فكان عليها أن تختار لى دور أحد من الفايكينج أو ما شابه."

قالت لورا: "لماذا يخافونه جميعا؟"

قلت: "يخافون من؟" (لم أكن قد التفت إلى الخوف فى هذه القصيدة، إنما إلى المسرات. قبة المسرات. فقبة المسرات حيث كنت أعيش آنذاك – حيث أملك ذاتى الحقيقية التى لا يعرفها من حولى. تحوطها الأسوار وتطوقها الأبراج فلا يدخلها أحد سواى.)

قالت: "اسمعى!"

وراحت تلقى مغمضة العينين:

"هل يمكن أن أحيى داخلى

سيمفونيتها وأغنيتها

وتلك الفرحة التى ملكت نفسى

حتى إننى بتلك الموسيقى العالية الممتدة

أشيد قبة فى الهواء

تلك القبة المشمسة! وتلك الكهوف الجليدية!

يراها كل من سمعها،

ويصيح الجميع، احذروا! احذروا!

عينيه المتقدتين وشعره المتطاير!

ارسموا دائرة حوله ثلاثًا،

وأغمضوا عيونكم فى رهبة مقدسة

فقد تغذى على المن

وتجرع لبن الجنة."

قالت: "أرأيت إنهم يخافونه، لكن لماذا؟ لماذا "يحذرون"؟"

قلت: "حقيقة يا لورا، ليست لدى أدنى فكرة. إنها مجرد قصيدة. فلا نعرف دائمًا ما تعنيه القصيدة. ربما يظنونه مجنونا."

قالت لورا: "لأنه بالغ السعادة. فقد تجرع لبن الجنة. فالناس يخافونك إذا بلغت هذا القدر من السعادة. أليس هذا هو السبب؟"

قلت: "لورا، لا تضغطى علىَّ وترهقينى. فأنا لا أعرف كل شيء، فلست أستاذة."

كانت لورا تجلس على الأرض فى تنورتها المدرسية الخشنة. كانت تمص عقلة إصبعها، وتنظر إلىَّ شاخصة إلى أعلى، وقد شعرت بالإحباط. فكنت أحبطها مرارًا فى الآونة الأخيرة. قالت: "رأيت أليكس توماس أمس الأول"

فالتفت بعيدا بسرعة أعدل نقاب وجهى فى المرآة. كان تأثير الستان الأخضر سيئًا: فجعلنى أشبه ممثلة إغراء من هوليود فى فيلم عن الصحراء. وعزيت نفسى بأن الآخرين سيبدون على نفس القدر من التصنع. قلت: "أليكس توماس؟ حقيقى؟" وكان يجب أن أبدى مزيدًا من الدهشة.

"نعم، ألست سعيدة؟"

"سعيدة بماذا؟"

قالت: "سعيدة لأنه حى. سعيدة لأنهم لم يقبضوا عليه."

قلت: "بالطبع أنا سعيدة بذلك. ولكن لا تذكرى شيئا لأحد. فأنت لا تريدونهم أن يتعقبوه."

"لست بحاجة لأن تقولى لى ذلك. فأنا لست طفلة رضيعة. ولذلك لم ألوح له."

قلت: "هل رآك؟

"كلا إنما كان يسير فى الشارع، رافعًا ياقة سترته وملتحفًا بوشاح حول ذقنه، ولكنى عرفت أنه هو. كان يدس يديه فى جيبيه."

وعلى ذكر اليدين والجيوب اجتاح جسدى وخز حاد. "أى شارع كان هذا؟"

قالت: "شارعنا. كان على الجانب الآخر يتفحص المنازل. أظنه كان يبحث عنا. فلابد أنه يعرف أننا نسكن فى هذا المكان.

قلت: "لورا، هل مازلت مولعة بأليكس توماس؟ فلو كان الأمر كذلك فلابد أن تحاولى التغلب عليه."

قالت بنبرة احتقار: "لست مولعة به. لم أشعر بولع فى حياتى. فالولع كلمة فظيعة. تفوح منها رائحة كريهة." كانت لورا قد أصبحت أقل ورعًا منذ ذهابها إلى المدرسة، وصارت مفرداتها اللغوية أشد قوة. وكانت عبارة "تفوح منه رائحة كريهة" آخذة فى الشيوع.

فقلت برقة: "مهما كان ما تسمينها به، فلابد أن تكفى عن تلك العاطفة. فهو أمر غير مقبول، ومن شأنه أن يجلب عليك التعاسة."

احتضنت لورا ركبتيها بذراعيها وقالت: "التعاسة، ماذا تعرفين فى الدنيا عن "التعاسة"؟"

الفصل الثامن

غير سكنه مرة أخرى. وهو أمر جيد. فقد كانت تكره ذلك المكان عند ملتقى السكك الحديدية. لم تكن تحب الذهاب هناك، وعلى كل حال كان المكان بعيدًا جدا وشديد البرودة آنذاك؛ ففى كل مرة تذهب إليه تصطك أسنانها. كرهت الحجرة الضيقة المقبضة، والرائحة الكريهة للسجائر القديمة العالقة بها لاستحالة فتح النافذة المستعصية، والدش الصغير القذر المعلق فى أحد الأركان، وتلك المرأة التى تقابلها أحيانًا على الدرج – تلك المرأة التى تشبه فلاحة ذليلة بائسة فى بعض الروايات القديمة البالية، والتى تخالها دائمًا تحمل حفنة من العصى على ظهرها. وتلك النظرة البغيضة الوقحة التى ترمقها بها، وكأنما تتصور تمامًا ما يحدث خلف بابه بمجرد أن يغلق. نظرة حسد، لكنها أيضًا نظرة حقد.

فليذهب كل ذلك إلى غير عودة.

والآن انصهر الجليد، وإن ظلت بعض بقعه الرمادية مستترة. الشمس دافئة، والجو مشبع برائحة الطين الرطب والجذور المهتزة والبقايا المشبعة بالماء من الصحف الملقاة فى الشتاء، والتى غامت حروفها واستحالت قراءتها. وفى الأحياء الراقية من المدينة تفتحت زهور النرجس، وفى بعض الحدائق الأمامية التى لا ظل بها ظهرت زهور التيوليب بلونيها الأحمر والبرتقالى. علامة مبشرة كما يقول عمود البستنة؛ وإن سقط الجليد أول أمس – ندف كبيرة زلقة، فكانت عاصفة ثلجية خارجة عن المألوف، مع أنه نهاية شهر إبريل.

أخفت شعرها تحت غطاء للرأس، وارتدت معطفًا ذا لون أزرق قاتم، وهو أقصى ما تستطيعه لتبدو بمظهر رصين جاد. رأى أن ذلك سيكون من الأفضل. ففى كل ركن وزاوية من ذلك المكان يتشمم ذكر السنور رائحة الدجاجات المشحونة ويذيع أخبارها. ينتشر روث الأحصنة على الطريق، يمتطيها رجال شرطة لا تغفل عيونهم عن المراقبة؛ ليس مراقبة اللصوص إنما مراقبة المحرضين – أوكار الشيوعيين الأجانب حيث يتهامسون فيما بينهم مثل الفئران بين أكوام القش، يأوى كل ستة منهم إلى فراش واحد، يتشاركون نساءهم، ويدبرون

مؤامراتهم الملتوية والمتشابكة. فقد شاع أن إيما جولدمان المنفية من الولايات المتحدة تعيش فى مكان ما بالجوار.

دماء على الأرصفة ورجل يحمل دلوًا وفرشاة. خطت بحذر حول بركة وردية. إنها منطقة جزارى اللحوم المباحة فى الشريعة اليهودية؛ ويسكنها أيضاً الخياطون وبائعو الفراء بالجملة. ومما لا جدال فيه أنه كان بها أيضًا مشروعات الأعمال الصغيرة حيث يعمل العمال تحت أقصى الظروف وبأقل الأجور. فصفوف من النساء المهاجرات ينحنين على الآلات تمتلئ صدورهن بوبر الأقمشة.

قال لها مرة إن الثياب التى تكسوها تعرى منها آخرون. فردت بصوت خافت: "نعم، لكنى أبدو أجمل فيها." ثم أضافت فى شىء من الغضب: "ماذا تريدنى أن أفعل؟ ماذا تريدنى أن أفعل؟ هل تظن حقًا أنى أملك شيئًا من السلطة؟"

تتوقف عند بائع الخضر والفاكهة، وتشترى ثلاث تفاحات. لم يكن من النوع الممتاز، فالوقت نهاية الموسم، وجلدها متجعد، لكنها تشعر بحاجة لتقديم قربان من أى نوع من أجل السلام. سحبت المرأة منها إحدى التفاحات وهى تشير إلى بقعة بنية بها، وبدلتها بأخرى أفضل. حدث كل ذلك دون كلام. إنما بإيماءات ذات معنى وابتسامات عريضة.

رجال فى معاطف سوداء طويلة وقبعات سوداء عريضة، ونساء عيونهن صغيرة تتحرك بسرعة فى شتى الاتجاهات. ملاحف وتنورات طويلة. ولغة لا تتقيد بقواعد. لا ينظرون إليك مباشرة، لكن لا يفوتهم الكثير. تبدو لافتة للنظر، كعملاقة تخرج ساقيها فى العراء.

ها هو متجر الأزرار، تمامًا حيث قال. تتوقف برهة لتطالع نافذة العرض. أزرار مزركشة، وشرائط من الستان، وخيوط مضفرة ومتعرجة لتزيين الثياب، وخرز الترتر اللامع – كلها مواد خام تفى بما يراود الخيال من مسايرة للموضة. لابد أن شخصًا هنا هو من حاك فراء القاقم على أطراف عباءتى الشيفون المسائية.

فالمفارقة بين النقاب الخفيف وفراء الحيوان السميك هو ما يروق للرجال. فتظهر البشرة الرقيقة تليها شجيرات كثيفة ملتفة.

حجرته الجديدة فوق المخبز. تقترب من المكان وتصعد الدرج وسط سحابة من روائح تحبها. تتكاثف رائحة الخميرة وتفرض سطوتها على المكان فتصعد إلى رأسها مباشرة مثل الهليوم الدافئ. لم تره منذ فترة طويلة. لماذ ابتعدت؟

إنه هناك، ويفتح الباب.

تقول: "أحضرت لك بعض التفاح".

وبعد برهة تتشكل مفردات هذا العالم حولها مرة أخرى. هاهى آلته الكاتبة تكاد تسقط من فوق منضدة الغسل الصغيرة. وبجوارها حقيبته الزرقاء يعلوها حوض الغسل الموضوع فى غير مكانه. وعلى الأرض قميص مجعد. لماذا تشى الملابس الملقاة دائمًا بالرغبة؟ بأشكالها الملتوية على عجل. وهكذا تبدو الشعلات فى اللوحات المرسومة – مثل نسيج برتقالى اللون طرح وقذف به بعنف.

رقدا فى الفراش، ذلك الهيكل الكبير المصنوع من خشب الماهوجنى المحفور والذى يملأ الحجرة تقريبًا. لعله كان يومًا جزءا من جهاز عرس جلب من مكان بعيد ليبقى مدى الحياة. "مدى الحياة" كم تبدو كلمة حمقاء الآن؛ فكم تبدو المتانة والقدرة على البقاء مدى الزمن بلا جدوى. تقطع تفاحة بمطواته، وتطعمها له قطعًا صغيرة.

"لو لم أعرفك جيدًا لظننتك تحاولين إغوائى".

"كلا. إنما أحفظ حياتك. فأسمنك لآكلك فيما بعد."

"إنها فكرة غير سوية أيتها الشابة."

"نعم. إنها فكرتك. لا تقل لى إنك نسيت النساء الموتى ذوات الشعور الأزوردية والعيون الشبيهة بالجحور الممتلئة بالثعابين؟ فربما تناولنك على الإفطار."

"فقط إذا سمح لهن بذلك." واقترب منها مرة أخرى. "أين كنتِ تختبئين؟ مضت أسابيع."

"نعم. انتظر. أود أن أخبرك بشيء."

قال: "أمر عاجل؟"

"نعم. ليس بالفعل. كلا."

تنحدر الشمس وتتحرك ظلال الستائر إلى الجانب الآخر من الفراش. وتتناهى أصوات من الشارع بالخارج بلغات غير معروفة. فتقول فى نفسها: سأذكر هذا دائماً. وبعد: لماذا أفكر فى الذكرى؟ لم يكن "بعد" قد حان، بل الآن. فالأمر لم ينته.

تقول: "فكرت فى القصة. فكرت فى جزئها التالى."

"ياه؟ هل صارت لديك أفكارك الخاصة؟"

"لدى دائمًا أفكارى الخاصة."

فيقول وهو يبتسم ملء شدقيه: "حسن. فلنسمعها."

تقول: "حسن. فآخر ما عرفنا أنه تم اصطحاب الفتاة والفتى الأعمى لمقابلة خادم المسرات، قائد الغزاة البرابرة المدعووين بأرباب الدمار، وذلك لأنهم شكوا فى أنهم من الرسل الإلهية. صوبنى إن أخطأت."

فيقول متعجبًا: "هل حقًا تهتمين بمثل هذه الأمور؟ هل تتذكرينها حقًا؟"

"بالطبع. فأنا أذكر كل كلمة تقولها. يصل الاثنان إلى معسكر البرابرة، ويخبر القاتل الأعمى خادم المسرات بأنه يحمل رسالة له من الذى لا يقهر، إنما لن يخبره بها إلا على انفراد ولا يحضرهما سوى الفتاة. وذلك لأنه لا يريدها أن تغيب عن ناظريه."

"إنه لا يستطيع الرؤية. إنه أعمى، أتذكرين؟"

"أنت تعرف ما أعنى. ومن ثم يقول له خادم المسرات "وهو كذلك"

"هو لن يقول "وهو كذلك" فحسب. إنما سيدخل فى حوار."

"لا أستطيع التفكير فى هذه الأجزاء. فيذهب ثلاثتهم إلى خيمة بعيدة عن الآخرين، ويقول القاتل "إليك الخطة". فسيخبرهم كيف يدخلون مدينة سايكل نورن دون أى حصار أو خسائر فى الأرواح. أقصد أرواحهم. وعليهم إرسال اثنين من الرجال، وسيخبرهما بكلمة السر لعبور البوابة – فهو يعرف كلمات السر، أتذكر – وبمجرد أن يصبحا بالداخل يذهب هذان الرجلان إلى القناة ويطوفان بها حبلاً تحت المدخل ذى القنطرة. ولابد أن يربطا نهايته بشىء – عمود حجرى أو ما شابه – وبعدها تنسحب مجموعة من الجنود إلى المدينة بالليل عن طريق الحبل تناوله يد لأخرى تحت الماء، ويتغلبون على الحارس، ثم يفتحون البوابات الثمانية كلها، وبعدها يحصدون الأوراق."

يقول ضاحكًا: "يحصدون الأوراق؟ إنها كلمة لا تنتمى إلى ذيكرون."

"حسن فلنقل "لا يعوقهم شىء". وبعد ذلك يستطيعون قتل كل الناس كيفما يشاءون، إذا كان هذا ما يريدونه."

يقول: "حيلة ذكية. بالغة المهارة."

تقول: "نعم، إنها فى كتاب هيرودوت، أو شىء كهذا. أعتقد أنها كانت عند سقوط بابل."

يقول: "يمتلئ رأسك بكمية مدهشة من سقط المتاع. أفترض أن تكون هناك مقايضة؟ فالشابان لا يستطيعان الاستمرار على أنهما رسولان إلهيان. فالأمر محفوف بالمخاطر. فعاجلاً أو آجلاً يفلت منهما شيء، ويفشلان، ومن ثم يتم قتلهما. فلابد أن يهربا."

"نعم، لقد فكرت فى ذلك. فقبل تسليم كلمة السر ووصف الاتجاه، يشترط الأعمى اصطحابهما إلى التلال السفحية للجبال الغربية وتزويدهم بكمية كبيرة من مؤن الغذاء وما شابه. سيزعم أنهما بصدد نوع من الحج هناك – فيصعدان الجبل ليتلقيا مزيدًا من التعاليم الإلهية. وهنا فقط يسلم البضاعة، والتى يقصد بها كلمة السر. وبهذه الطريقة إذا فشل هجوم البرابرة يصبح كلاهما فى مكان لا يفكر أحد من سايكل نورن فى متابعتهما فيه."

يقول: "لكن ستقتلهما الذئاب. وإن لم يحدث فستقتلهما النساء الموتى ذوات الأجساد متناسقة العطفات والشفاه ياقوتية الاحمرار. أو تقتل هى ويجبر هو على إشباع رغباتهن غير الطبيعية إلى ما لا نهاية، فياله من مسكين."

تقول: "كلا. ليس هذا ما سيحدث."

"فعلا؟ من قال؟"

"لا تقل "فعلاً". أنا التى تقول. اسمع يسير الأمر كالآتى. يسمع القاتل الأعمى كل الشائعات، ومن ثم فهو يعرف حقيقة أولئك النسوة. فهن لسن موتى فى الواقع. لكنهن ينشرن تلك الحكايات حتى يتركهن الناس فى سلام. فهن فى الحقيقة جاريات هاربات ونساء أخريات هربن ليتفادين أن يبيعهن الأزواج أو الآباء. وبالإضافة إلى ذلك فليس كلهن من النساء، لكن بعضهن من الرجال، لكنهم رجال كرماء ودودون. يعيشون جميعًا فى كهوف ويرعون الماشية ويملكون حدائق خضراوات خاصة بهم. وهم يتبادلون الكمون بجوار المقابر وإخافة المسافرين – فيصيحون فيهم وهكذا – حفاظًا على المظهر العام.

وفوق ذلك، فالذئاب ليست ذئابًا فى الواقع إنما كلاب رعاة تدربت على انتحال شخصية الذئاب. فهى فى الواقع أليفة جدًا وبالغة الإخلاص.

وبذلك يأوى هؤلاء الناس الهاربون، ويحسنون إليهما بمجرد سماع قصتهما الحزينة. ومن ثم يعيش القاتل الأعمى والفتاة مقطوعة اللسان فى أحد الكهوف، وعاجلاً أو أجلاً ينجبان أطفالاً يستطيعون الرؤية والكلام، ويعيشون فى سعادة."

فيقول بابتسامة عريضة: "وفى تلك الأثناء يكون قد ذبح كل إخوانهم المواطنين؟ أتؤيدين خيانة المرء لبلده؟ فقايضت الصالح الاجتماعى العام بالأمان الشخصى؟"

"حسن، فهؤلاء هم الناس الذين كانوا سيقتلونهما. إخوانهم المواطنون."

"قليلون فقط من يحملون تلك النوايا – الصفوة، الورقة العليا من ورق اللعب. تقضين على الآخرين بالموت معهما؟ ستجعلين الاثنين يخونان أهليهما؟ إنها منتهى الأنانية منك."

تقول: "إنه التاريخ. فذلك موجود فى كتاب "غزو المكسيك"، وهو ما فعلته عشيقة المدعو كورتس الأزيكتية. وهو موجود فى الإنجيل أيضًا. فنفس الشىء فعلته الغانية راهاب عند سقوط أريحا. فقد ساعدت رجال يوشع وسلمت هى وأسرتها."

يقول: "أسلم بصحة رأيك. لكنك تكسرين القواعد. فلا يمكنك تحويل النساء اللاتى لم يمتن إلى حفنة من الراعيات كما فى المأثورات الشعبية حسب المزاج."

تقول: "إنك لم تضع هؤلاء النسوة فى القصة بالفعل. ليس بشكل مباشر. إنما رويت إشاعات عنهن. والإشاعات تحتمل الكذب."

يضحك ويقول: "صحيح. والآن إليك روايتى للنص. فى معسكر أرباب المسرات، حدث كل شىء كما ذكرتِ، وإن كان بحوارات أفضل. فقد تم اصطحاب الشابين إلى التلال السفحية من التلال الغربية وتركا هناك بين المقابر، وبعدها تقدم

البرابرة لدخول المدينة حسب التعليمات السابقة ونهبوا ودمروا وذبحوا السكان. ولم ينج أحد بحياته. فالملك يتدلى مشنوقـًا من شجرة، والكاهنة الأعلى أخرجت أحشاؤها، ومات رجل البلاط المتآمر مثل الآخرين. وكذلك مات جميع العبيد الأبرياء من الأطفال، وأعضاء نقابة القاتل الأعمى وفتيات القربان فى المعبد. ومحيت حضارة كاملة من العالم. فلم يبق حيا أحد يعرف كيف ينسج البسط الرائعة، وهو عار لابد أن تعترفى به.

وفى تلك الأثناء تابع الشابان طريقهما المنعزل بين الجبال الغربية متشابكى الأيدى بخطى بطيئة مضطربة الاتجاه. كان يطمئنهما الإيمان الراسخ بأنهما سرعان ما يجدهما ذوو القلوب الرحيمة أصحاب بساتين الخضروات ويؤونهما. لكن، كما تقولين، لا يتحتم أن تصدق الشائعات، والقاتل الأعمى تمسك بالشائعة الكاذبة. فالنساء الموتى، موتى فى الحقيقة. ولا يقتصر الأمر على ذلك، إنما كانت الذئاب ذئابًا حقيقية، والنساء الموتى يستدعينهم بالصفير كلما شئن. وبذلك يصبح بطلانا الرومانسيان طعامًا للذئاب فجأة وبسرعة."

تقول: "مؤكد أنك متفائل عنيد".

"لست عنيدًا. لكنى أحب أن تصدق قصصى على الحياة، مما يعنى أنه لابد من وجود ذئاب بها. ذئاب بشكل أو بآخر."

"لماذا يصدق هذا كثيرًا على الحياة؟" واستدارت مبتعدة عنه ومستلقية على ظهرها تحملق فى السقف بأعلى. فقد أساءها أن تدحض روايتها.

"القصص كلها تدور حول الذئاب. وكلها جديرة بالتكرار. وكل ما عدا ذلك ترهات عاطفية."

"كله؟"

يقول: "بالطبع. فكرى فى الموضوع. فهناك فرار من الذئاب، ومحاربة الذئاب، وصيد الذئاب، وترويض الذئاب. فإما يلقى بك إلى الذئاب أو تلقين بآخرين

للذئاب فيأكلونهم بدلاً منك. والأفضل أن يصبح المرء هو الذئب القائد. فلا توجد قصص أخرى جيدة."

"أعتقد أن هناك قصصًا أخرى. أعتقد أن قصتك وأنت تحكى لى قصة عن الذئاب هى ليست قصة عن الذئاب."

"لا تعولى على ذلك. فالذئاب بجانبى. تعالى هنا."

"انتظر. أحب أن أسألك شيئًا."

فيقول بتكاسل وعيناه نصف مغمضتين وهو يمد يده تجاهها: "هيا انطلقى"

"هل كنت يومًا غير مخلص لى؟"

"غير مخلص. يالها من كلمة طريفة غير مألوفة."

تقول: "لا تبالى باختيارى للكلمات. هل فعلت؟"

"ليست بأقل إخلاصًا منك لى." ويصمت ثم يضيف: "لا أفكر فى الأمر على أنه عدم إخلاص."

فتسأل بنبرة باردة: "فماذا تعتبره؟"

"شرود ذهن من جانبك. فتغمضين عينيك وتنسين أين أنت."

"ومن جانبك؟"

"فلنقل أنك الأولى بين متناظرات."

"يالك من وغد بحق."

يقول: "إنما أقول الحقيقة."

"حسن، ربما ما كان عليك قولها."

"لا تغضبى. فإنما كنت أمزح. فلا أستطيع أن ألمس بإصبعى امرأة أخرى. أتقيؤ إن فعلت."

يسود بعض الصمت. تقبله وتتراجع. وتقول بحذر: "سأضطر للابتعاد. أردت أن أخبرك. لم أردك أن تتساءل أين كنت."

"تبتعدين إلى أين؟ ولماذا؟"

"سنذهب فى رحلة بحرية أولى لإحدى السفن. سنذهب جميعًا، الحاشية بأكملها. فهو يقول إنها لا يمكن أن تفوتنا، فهى حدث القرن."

"لقد مضى من القرن ثلثه. وحتى لو كان الأمر كذلك، فقد ظننت أن مساحة صغيرة محجوزة للحرب العالمية. فيصعب أن ينافس احتساء الشمبانيا على ضوء القمر ملايين الموتى فى الخنادق. أو ماذا عن وباء الإنفلونزا، أو ..."

"إنه يعنى الأحداث الاجتماعية"

"أه، معذرة يا سيدتى. لقد جانبنى الصواب."

"ماذا حدث؟ إنما سأبتعد شهرًا – ربما أكثر أو أقل. فالأمر يعتمد على الترتيبات."

لم يقل شيئًا

"لا أرغب فى ذلك."

"كلا. فأنا لا أفترض أنك ترغبين فيه. فتتناولين عددا كبيرًا من الوجبات ذات الأصناف السبعة، وترقصين كثيرًا جدًا. وذلك يرهق الفتاة كثيرًا."

"لا تكون هكذا."

"لا تملى علىَّ كيف أكون! فلا تنضمى إلى صف الجوقة ممن لديهم خطط لتقويمى. فقد سئمت ذلك كثيرًا. سأكون ما أنا عليه."

"أنا آسفة. أنا آسفة. أنا آسفة. أنا آسفة."

"أكره رؤيتك تتذللين. لكن يا إلهى فأنت بارعة فى ذلك. أراهن أنك تتدربين كثيرا على الجبهة الداخلية."

"ربما يجب أن أرحل."

"ارحلى إذا كنت تريدين ذلك." واستدار معطيا ظهره لها. "افعلى ما تريدين فعله بحق الجحيم. فلست حارسك. ولست مضطرة للبقاء والاستعطاف والنحيب وهز ذيلك لى."

"أنت لا تفهم. بل حتى لا تحاول. لا تفهم مطلقًا حقيقة الأمر. فأنا لا أستمتع بذلك."

"حقًا!"

مايفير، يوليو ١٩٣٦

telegram @ktabpdf

بحثًا عن وصف

بقلم: جى هيربرت هودجينز

لم تعبر دروب البحار سفينة أجمل منها. فهيكلها الخارجى له جمال رشيق انسيابى مثل كلب سلوقى، وفى داخلها تشهد سخاء التجهيزات فى أدق التفاصيل مع تميز فى الديكور، مما يجعلها نموذجًا رائعًا فى الراحة والكفاءة والرفاهية.

السفينة الجديدة هى فندق عائم لواردوف أستوريا.

بحثت عن وصف مناسب. فقد قالوا عنها إنها رائعة، تهز القلوب لجمالها، فخمة بهية، تليق بالملوك، ذات جلال وهيبة. كل تلك الكلمات تصفها بدقة لا جدال فيها. لكن كل كلمة فى ذاتها لا تصف سوى ملمح مفرد من "أعظم إنجاز فى تاريخ بناء السفن الإنجليزية."

السفينة "كوين مارى" تعجز الكلمات عن وصفها؛ فلابد من مشاهدتها والشعور بها والمشاركة فى الحياة الرائعة على متنها.

... كل مساء بالطبع حفلات راقصة فى القاعة الرئيسية، وفيها يصعب على المرء أن يتصور أنه فى البحر. فالموسيقى وحلبة الرقص، والجمع المتأنق فى ملابسه، كلها تضاهى تمامًا قاعة رقص فندقية فى أى من مدن العالم. وفيها تشهد أحدث صيحات الثياب التى أقرتها لندن وباريس، جديدة نظيفة وقد خرجت لتوها من صناديقها. كما تشهد أيضًا آخر ابتكارات الإكسسوارات؛ مثل حقائب يد صغيرة خلابة؛ وعباءات مسائية فى تصميمات مختلفة تبرز شتى الأنماط اللونية؛ ولفاعات وأوشحة من الفراء بالغة الأناقة والترف. وتصل العباءات الخارجية إلى أعلى درجات الأناقة سواء كانت من التفتاة أو أنسجة شبكية. وحيث يفضل القلم الرصاص فى رسم السلويت فالثوب النسائى لا ينفصل عن عباءة خارجية فضفاضة من التفتاة أو الساتان المنقوش. وكانت العباءات من الشيفون متعددة

ومتنوعة. لكن كلها تتدلى من على الأكتاف فضفاضة مسايرة لموضة تقليد الزى العسكرى. وفوق رداء فضفاض باللون الرمادى ارتدت شابة جميلة عباءة من الشيفون فى لون أرجوانى فاتح، وتحت شعر أبيض مستعار وضعت على وجهها قناعًا صينيا مصنوعـــًا فى مدينة درسدين. وظهرت شقراء طويلة فى رداء أحمر بطيخى فوقه عباءة بيضاء من الشيفون يزينها فراء القاقم على الذيل.

فى المساء كان الناس يرقصون رقصات ناعمة تحت أضواء متلألئة وفوق حلبة زلقة ملساء. جو مشحون بالصخب؛ لا تستطيع منه فكاكًا. فى كل مكان تنطلق أضواء عدسات التصوير؛ فلا يمكن تحديد هدفها، أو متى ستظهر الصورة فى الصحف، وما إذا كنت تظهر فيها مطوحًا رأسك إلى الوراء أو كاشفًا عن كل أسنانك.

وفى الصباح تبدو قدماها متورمتين.

وفى العصارى تلوذ بالذكريات، مضطجعة على مقعد قماشى مريح على سطح السفينة، متوارية وراء نظارتها الشمسية. فهى ترفض حمام السباحة، ولعبة الحلقات الملقاة، والبادمنتون، وغيرها من الألعاب التى لا تنتهى ولا طائل منها. فكلها ألهوات وتسالٍ من أجل قضاء الوقت، وهى لديها ألهواتها الخاصة.

تطوف الكلاب فوق سطح السفينة على أقصى ما تتيحه لها مقاودها. ووراءهم مسئولو نزهة الكلاب من الدرجة الممتازة. وهى تتظاهر بالقراءة.

بعض الناس يكتبون الخطابات فى المكتبة. أما بالنسبة لها فلا جدوى من ذلك. فحتى لو أرسلت خطابًا، فربما لا يصله، لأنه كثير التنقل. وقد يتسلمه شخص آخر.

فى الأيام الهادئة تؤدى الأمواج ما هو منوط بها – أن تهدهد. وهواء البحر مفيد، كما يقول الناس. اجذب نفسًا عميقًا. استرخ. تغاضى عما يكدرك.

تقول: "لماذا تحكى لى تلك القصص الحزينة؟" كان ذلك من شهورمضت. وكانا يتدثران بمعطفها، جانب الفراء منه بالأعلى، حسب رغبته. ومن النافذة المكسورة تهب نفحات هواء باردة، وتتناهى قعقعات الحافلات المارة. تقول: "دقيقة واحدة هناك زر يحك فى ظهرى."

"تلك هى القصص التى أعرفها. قصص حزينة. وعلى كل، إذا نظرنا إلى المحصلة المنطقية، وجدنا أن كل قصة هى قصة حزينة، لأن الجميع يموتون فى النهاية. ميلاد، جماع، ثم موت. لا يفلت أحد، إلا فيما يتعلق أحيانًا بالجزء الخاص بالجماع. فبعض الناس لا يصلون إلى هذا المدى، فكم هم مساكين."

قالت: "لكن يمكن أن تتخلل ذلك فترات سعيدة. أفلا يمكن أن يحدث ذلك بين الميلاد والموت؟ وإن كنت أرى أنه إذا كنت تؤمن بالجنة فيمكن أن يكون فى ذلك قصة سعيدة بعض الشيء – أقصد فى الموت. فترفرف الملائكة حولك وتغنى وهى تودعك إلى مثواك الأخير وهكذا."

"نعم. آمال بعيدة المنال تتحقق عند الموت. كلا شكرًا."

تقول: "لكن مازالت هناك أجزاء سعيدة. أو أكثر مما تضمنه قصصك. فأنت لا تضمنها الكثير."

"أتقصدين ذلك الجزء حيث نتزوج ونستقر فى منزل صغير من طابق واحد وننجب طفلين؟ أهو هذا الجزء؟"

"أنت خبيث."

يقول: "اتفقنا. تريدين قصة سعيدة. أرى أنك لن تتركى الموضوع حتى أروى لك واحدة. ها هى أرويها لك.

كانت السنة التاسعة والتسعون مما سيعرف لاحقًا بحرب المائة عام، أو الحرب الإكسنورية. فكوكب إكسينور الذى يقع فى بعد آخر من الفضاء كان يسكنه جنس من الكائنات متميز الذكاء وبالغ القسوة يعرف باسم الرجال السحالى، وهو اسم لم يطلقوه على أنفسهم. ومن حيث الشكل الخارجى، كان طول الفرد منهم سبعة أقدام، رمادى اللون تغطى جسده قشور حرشفية. وعيونهم شقوق رفيعة رأسية، مثل القطط والثعابين. كانت جلودهم بالغة الخشونة والصلابة مما لا

يحتاجون معه إلى ارتداء ملابس فى الظروف العادية، فيما عدا سراويل قصيرة مصنوعة من مادة الكارشينيال، وهو معدن أحمر مرن غير معروف على الأرض. وذلك لحماية أعضائهم الحيوية، والتى كانت أيضًا تغطيها القشور الحرشفية، كما كانت ضخمة وسريعة التأثر فى ذات الوقت."

تقول ضاحكة: "الحمد لله أنه كان لديهم شيء هكذا."

"عرفت أنك ستعجبين بذلك. وعلى كل، كانت خطتهم أن يأسروا عددًا كبيرًا من نساء الأرض وتهجين جنس متميز، نصفه آدمى ونصفه إكسينورى ينتمى إلى الرجال السحالى، مما يجعله أصلح منهم للعيش فى كواكب أخرى مسكونة من العالم – فيصبحون قادرين على التأقلم مع الأجواء الغريبة، وتناول العديد من أصناف الطعام، ومقاومة أمراض غير معروفة وما إلى ذلك – وتكون له فى ذات الوقت نفس قوة الإكسينوريين وذكاؤهم الخارج أرضى. ويمكن لذلك الجنس المتميز الانتشار فى الفضاء وغزوه، فيأكلون ما يصادفونه فى طريقهم من سكان الكواكب الأخرى، وذلك لأن الرجال السحالى يحتاجون مساحة للتوسع ومصدرًا جديدًا للبروتين.

انطلق أسطول الرجال السحالى مهاجمًا الأرض للمرة الأولى عام ١٩٦٧، موجهًا قذائف مدمرة نحو المدن الكبرى حيث لاقى الملايين فيها حتفهم. ووسط ما شاع من رعب اتخذ الرجال السحالى أجزاء من أوراسيا وجنوب إفريقيا مستعمرات عبيد لهم، مستخدمين النساء الشابات لتجاربهم التهجينية الملعونة، ودفن جثث الرجال فى حفر هائلة بعد أن يأكلوا الأجزاء التى يفضلونها منهم. فكانوا يحبون المخ والقلب بصفة خاصة، وكذلك الكلاوى، وذلك بعد الشى الخفيف.

لكن تم قطع خطوط الإمداد الإكسينورية بأن أطلق عليها صورايخ نارية موجهة من منشآت أرضية خفية، ومن ثم حرم الرجال السحالى من المقومات الحيوية لأسلحتهم المطلقة لأشعة زورتش zorch، واستعادت الأرض قوتها وردت الهجوم – ليس فقط بقواتها الحربية، لكن بسحب من غاز مستمد من سم ضفدع هورتس الأيريسى النادر والذى استخدمه ذات مرة الناكروديون من كوكب يولينث

Nacrods of Ulinth على أسنة رماحهم، والذى اكتشف علماء الأرض أن الإكسينوريين يتأثرون به بشكل خاص. وهكذا تساوى الطرفان.

ذلك علاوة على سرعة اشتعال سراويلهم القصيرة المصنوعة من الكارشينيال إذا لامسهم صاروخ ساخن. وكان أبطال ذلك الوقت من القناصين الأرضيين ذوى البراعة فى التصويب والذين يستخدمون بنادق بعيدة المدى ذات رصاص فسفورى، ومع ذلك ثأر منهم الإكسينوريون بقسوة، إذ تعرضوا لتعذيب بالكهرباء مبرح وغير مسبوق. فالرجال السحالى لم تأخذهم رأفة لإشعال النيران فى أعضائهم الخاصة، وهو أمر مفهوم.

وبحلول عام ٢٠٦٦ هزم الرجال السحالى من الكائنات الفضائية فى بعد آخر من الفضاء حيث كان يتعقبهم رواد الفضاء المحاربون من أبناء الأرض فى مركبات فضاء مقاتلة صغيرة وسريعة يتسع كل منها لشخصين. فكان هدفهم الأسمى محو الإكسينوريين تمامًا، ربما مع الاحتفاظ ببضع عشرات منهم لعرضها فى حدائق حيوان محصنة لها نوافذ عرض غير قابلة للكسر. ومع ذلك لم يستسلم الإكسينوريون دون قتال حتى الموت. فكان لايزال لديهم أسطول قادر على المواجهة وفى جعبتهم بعض الحيل."

"هل كانت لديهم جعب؟ ظننتهم عراة الجذع تمامًا."

"ياربى، لا تكونى نيقة إلى هذا الحد. فأنت تعرفين ما أعنى.

كان ويل وبودى صديقين قديمين - محاربين محنكين مرهوبى الجانب من رواد السفن الفضائية المقاتلة، استطاعا الصمود ثلاث سنوات. ويعد هذا وقتًا طويلاً فى الخدمة على سفن الفضاء المقاتلة حيث تكثر الخسائر. وقد شاع عنهما بين قوادهما أن ما يتمتعان به من شجاعة وجرأة يفوق ما لديهما من حصافة، وإن أفلتا بسلوكهما الطائش بشن غارة جريئة إثر أخرى.

لكن مع مستهل قصتنا انطبقت عليهما مركبة فضاء إكسينورية مقاتلة تعمل بأشعة زورتش، وأمطرتهما بوابل من النيران، فأصابتهما إصابة بالغة. وأحدثت

أشعة زورتش ثقبًا فى خزان الوقود الخاص بهما، وقطعت اتصالهما بمركز التحكم الأرضى، وصهرت جهاز التحكم فى مركبتهما، وأصيب بويد إصابة بالغة فى رأسه، بينما كان ويل ينزف فى حلته الفضائية من موقع غير محدد فى المنتصف.

قال بويد: "يبدو أننا على قدرها. سيتفتت هذا الشىء فى أى لحظة. إنما كنت أتمنى لو أتيح لنا مزيد من الوقت لتفجير بضع مئات أخرى من المحرشفين الملاعين والقضاء عليهم تمامًا."

قال ويل: "نعم وأنا مثلك. حسن ابتهج يا صديقى. يبدو أنك تمتلئ بهجة – بهجة حمراء تتسرب من أصابع قدميك. ها ها."

قال بويد وهو يقطب وجهه ألمًا: "ها ها. مزحة لطيفة. لا تنقصك روح الفكاهة أبدًا." وقبل أن يرد ويل خرجت السفينة عن السيطرة تمامًا وراحت تدور مترنحة فى دوامات. ووقعا فى نطاق للجاذبية، لكن لأى كوكب؟ فلم تكن لديهما أدنى فكرة عن مكانهما. فقد تدمر جهاز بيان الجاذبية الخاص بهما، ومن ثم حجبت عنهما المعرفة.

عندما استيقظا، لم يصدقا ما تراه عيونهما. فلم يعودا فى سفينة الفضاء الحربية، ولا يرتديان حلل الفضاء الفضية الملاصقة للجسد. إنما كانا يرتديان عباءات فضفاضة خضراء من مادة لامعة، ويتكآن على أرائك ذهبية ملساء فى تعريشة كرمة مورقة. وقد شفيت جراحهما، واسترد ويل الإصبع الثالث من يده اليسرى، والذى كان قد تفجر فى غارة سابقة. وشعر كلاهما أنهما ينضجان صحة وعافية."

تتمتم: " ينضجان". يالها من كلمة."

"نعم فنحن الرجال نحب التعبيرات الخيالية من حين لآخر، فهى تضفى على النطق شيئًا من الرقى." قالها وهو يتحدث من جانب فمه مثل رجل عصابات فى أحد الأفلام.

"أهكذا؟. أستطيع تصور الأمر."

"فلنكمل. قال بويد: "لا أفهم ما حدث. أتظن أننا ميتان؟" قال ويلى: "إذا كنا ميتين سأقنع بالأمر."

"وأنا أيضًا."

وهنا أصدر ويل صفيرًا خافتًا. فتوجه ناحيتهما سيدتان خوخاتا الشكل، لم يريا مثلهما من قبل أبدًا. ولكليهما شعر فى لون سلة من أغصان الصفاف. وترتدى كلاهما عباءة طويلة أرجوانية اللون ذات مسحة زرقاء، تنسدل فى طيات رفيعة ويصدر عنها حفيف أثناء السير. وذكر ذلك ويلى أكثر ما ذكره بالأغلفة الورقية التى تشبه التنورات القصيرة التى يحيطون بها الفاكهة فى محال البقالة الراقية من الدرجة الأولى. وكانت السيدتان عاريتى الذراعين حافيتى القدمين، وتضع كل منهما على رأسها غطاء غريبًا من نسيج شبكى باهت الحمرة. وبدت بشرتهما وردية ذات ظلال ذهبية. وكانتا تسيران بحركة تموجية كأنهما منقوعتان فى شراب.

قالت الأولى: "تحيتنا إليكما، رجال الأرض."

وقالت الثانية: "أجل تحيتنا. لقد انتظرناكما طويلاً. فقد رصدنا وصولكما عبر كاميرانا التليفزيونية الفضائية."

قال ويل: "أين نحن؟"

قالت الأولى: "أنت فوق كوكب آى آى." وكان للكلمة وقع مثل تنهيدة شبع، مع شهقة صغيرة فى وسطها مثل تلك التى يصدرها الأطفال الرضع عندما يتقلبون فى نومهم. وكان وقعها أيضًا مثل نفس الاحتضار الأخير.

قال ويل: "كيف أتينا إلى هنا؟" أما بويد فكان صامتًا يقلب عينيه فوق المنعطفات الغضة الناضجة المعروضة أمامه. وقال فى نفسه: أحب أن أغرس أسنانى فى قطعة من هذه.

قالت المرأة الأولى: "سقطتما من السماء فى مركبتكما. ولسوء الحظ تحطمت المركبة. وستضطران إلى البقاء معنا."

قال ويل: "لن يشق علينا ذلك."

"ستلقيان كل الرعاية. وذلك مكافأة لكما. ففى دفاعكما عن عالمكما ضد الإكسينوريين، كنتما تدافعان عنا أيضًا."

وهنا لابد أن يلقى الحياء ستارًا على ما حدث بعد ذلك."

"أضرورى ذلك؟"

"سأفسر سريعًا. فلابد أن نضيف أن بويد وويل كانا الرجلين الوحيدين فوق كوكب آى آى، ومن ثم كانت المرأتان عذراوين بالطبع. لكن باستطاعتهما قراءة الأفكار، وبوسع كل منهما أن تدرك مقدمًا ما يرغب فيه كل من ويل وبويد. وبذلك سرعان ما أدركت كلاهما الخيالات الفاضحة الفاحشة التى كان يتصورها الصديقان.

وبعد ذلك كانت هناك وجبة شهية من شراب الفاكهة المركز، الذى يبعد الهرم والموت، كما ذكر للرجلين؛ وبعدها كانت نزهة فى الحدائق الجميلة التى تمتلئ بأنواع من الزهور لا تخطر على البال؛ ثم تم اصطحاب الرجلين إلى حجرة كبيرة تمتلئ بالغلايين، يختاران منها ما يروقهما."

"غلايين؟ أهو ذلك النوع الذى تدخنه؟"

"ليتناسب مع الحذاء الخفيف، الذى سيمنح لهما بعد ذلك."

"أعتقد أننى مشيت فى حذاء كهذا."

فقال بابتسامة ملء شدقيه: "فعلاً!

تحسنت الأمور بينهما. فكانت إحدى الفتاتين ذات جاذبية جنسية خاصة، بينما الأخرى ذات تفكير جاد وباستطاعتها مناقشة العلوم والآداب والفلسفة، ناهيك عن اللاهوت. وبدت الفتاتان تدركان ما يراد منهما فى أى لحظة، فتتحولان حسب مزاج بويد ويل وميولهما.

وهكذا مر الوقت فى توافق ووئام. وبينما تمضى الأيام كأفضل ما تكون، ازدادت معرفة الرجلين بالكوكب آى آى. أولاً لا يأكل أحد اللحوم هناك، فليس بالكوكب أكلة للحوم، وإن كان به الكثير من الفراشات والطيور المغردة. وهل أحتاج أن أضيف أن الإله المعبود فى آى آى يتخذ شكل قرعة ضخمة؟

ثانيًا ليس هناك تناسل كما هو معروف. فأولئك النسوة ينمين على الأشجار، على غصن يمر من قمة رؤوسهن، ويقطفهن أجدادهن عندما ينضجن. ثالثًا، ليس هناك موت كما هو معروف. فعندما يحن الوقت تتجه كل من النساء الخوخيات – إذا سميتهن كما سماهن بويد ويل – إلى بعثرة جزيئاتهن، والتى تجمعها الأشجار بعد ذلك فى امرأة جديدة نضرة. ومن ثم فإن المرأة الأخيرة تماثل فى مادتها وشكلها المرأة الأولى."

"كيف يعرفن أن الأوان قد حان لبعثرة جزيئاتهن؟"

"بداية عن طريق التغضنات الملساء التى تظهر على بشرة كل منهن عندما تتجاوز حد النضج. ثانيًا عن طريق الذباب."

"الذباب؟"

"ذباب الفاكهة الذى يحوم فى سحب متكاثفة حول أغطية رؤوسهن الشبكية الحمراء."

"هل هذه فكرتك عن القصة السعيدة؟"

"انتظرى. هناك المزيد."

"لم يمض وقت طويل إلا وبدأ السأم يدب فى نفس بويد وويل من تلك الحياة، على روعتها. وذلك لسبب واحد هو أن ظلت المرأتان تتفقداهما لتتأكد من أنهما سعيدان. وذلك يبعث الضجر فى النفس. وأيضًا لأن ما من شىء لا تفعله هاتان المرأتان. فهما لا تستحيان على الإطلاق، ولا حياء لديهما من أى نوع. ففى الدقيقة المناسبة يقومان بأكثر التصرفات فحشًا. فلفظ "غانية" لا يفى بوصفهما. وفى أحيان أخر تخجلان وتتحفظان، وتتكمشان وتحتشمان؛ بل إنهما أحيانًا تبكيان وتصرخان – يحدث كل هذا فى تتابع منتظم.

فى البداية وجد بويد وويل فى ذلك إثارة، لكن بعد فترة انتابهما الانزعاج.

عندما تتعرض إحدى هؤلاء النساء للضرب لا يسيل منها دماء، إنما عصارة. وإذا اشتد عليها الضرب تتحلل إلى عجينة طرية حلوة المذاق وسرعان ما تصبح امرأة خوخية أخرى. فلا يبدو أنهن يعرفن الألم كما هو معروف، وتساءل ويل وبويد إن كن لا يعرفن السرور أيضًا. فهل كانت تلك النشوة كلها أداء تمثيليًا؟

وعندما سئلن فى ذلك ابتسمن وراوغن فى الإجابة. فلا يمكن أبدًا سبر أغوار نفوسهن.

وقال ويل يومًا: "أتدرى ما أريد الآن؟"

فقال بويد: "على يقين من أنه نفس الشىء الذى أريده"

"شريحة لحم كبيرة مشوية. وكومة كبيرة من البطاطس المقلية. وقدح من البيرة المثلجة."

"وأنا كذلك. وبعدها مصارعة حامية مع أولئك المحرشفين الملاعين من إكسينور."

"فهمتنى"

وقرر الاثنان أن يقوما بتفقد المكان. ومع ما أخبروهما به من أن آى آى متشابه فى كل الاتجاهات، فلم يعثرا فيه سوى على مزيد من الأشجار والتعريشات

المظللة والطيور والفراشات والنساء ذوات البشرة الغضة، توجه الاثنان نحو الغرب. وبعد وقت طويل يخلو من مغامرات من أى نوع، صادفهما سور خفى. كان زلقًا مثل الزجاج لكنه ناعم طيع عند دفعه. وبعدها يرتد عائدًا إلى هيئته. وكان أعلى مما يمكنهما من الوصول إليه أو تسلقه. كان يشبه فقاعة بلورية ضخمة.

قال بويد: "أعتقد أننا وقعنا فى شرك داخل ثدى ضخم غير مرئى."

وجلس الاثنان أسفل السور يقهرهما يأس عميق.

قال ويل: "ذلك المكان هو السلام والوفرة. إنه فراش وثير فى المساء وأحلام حلوة، وزهور تيوليب على مائدة الإفطار المشمسة، إنه نساء ضئيلات البنية يصنعن القهوة. إنه كل ما يحلم به المرء من حب فى كل شكل وهيئة. إنه كل ما يعتقد الرجال أنهم يرغبونه عندما يخرجون للقتال فى بعد آخر من الفضاء. إنه ما يضحى رجال آخرون بحياتهم من أجله؟"

قال بويد: "لا فض فوك."

قال ويل: "لكنه رائع إلى حد لا يمكن تصديقه. فلابد أنه شرك. وقد يكون أيضًا حيلة عقلية شيطانية ابتدعها الإكسينوريون ليمنعونا من الحرب. إنه الجنة، لكن لا يسعنا الخروج منها. وأى مكان لا يسع المرء الخروج منه لهو الجحيم."

وقالت إحدى النساء الخوخيات التى كانت تتشكل من أحد أغصان شجرة قريبة: "لكنه ليس الجحيم. إنها السعادة. فلا مناص لكما من هنا. استرخيا واستمتعا. وسرعان ما تألفان الأمر."

وتلك هى نهاية القصة."

تقول: "أهذى هى النهاية؟ أتجعل هذين الرجلين محبوسين هناك إلى الأبد؟"

"نفذت ما أردت. فقد أردت السعادة. لكن بوسعى أن أبقيهما محبوسين هناك، أو أخرجهما، حسب رغبتك."

"أخرجهما إذن."

"الموت بالخارج. أتذكرين؟"

"آه، فعلاً." واستدارت على جانبها وهى تسحب معطف الفراء عليها، وتحيطه بذراعها. "لكنك مخطئ بشأن النساء الخوخيات. فهن لسن كما تظن."

"مخطئ كيف؟"

"إنك مخطئ فحسب."

الميل أند امبير، ١٩ سبتمر ١٩٣٦

جريفون يحذر من الشيوعيين فى إسبانيا

خاص للميل أند إمبير

يوم الثلاثاء الماضى ألقى رجل الصناعة البارز ريتشارد إى جريفون صاحب مصانع جريفون وتشاس الملكية المتحدة خطابًا حماسيًا أمام نادى إمبير، حذر فيه من المخاطر المحتملة التى تهدد النظام العالمى والسير السلمى للتجارة الدولية بسبب الصراع المدنى الدائر فى إسبانيا. فذكر أن الجمهوريين يتلقون أوامرهم من الشيوعيين؛ يتضح ذلك من استيلائهم على الملكيات وذبح المدنيين المسالمين، ومن الانتهاكات الوحشية التى ارتكبوها ضد الدين. فدنسوا العديد من الكنائس وأحرقوها، كما صار قتل الراهبات والقساوسة حدثًا يوميًا.

وكان من المتوقع أن يحدث رد الفعل بتدخل القوميين برئاسة الجنرال فرانكو. واحتشد الإسبان الغاضبون الشجعان من كل الطبقات للدفاع عن التقاليد والنظام المدنى، وراح العالم يتطلع بقلق نحو النتائج. فانتصار الجمهوريين يعنى أن تصبح روسيا أكثر عدوانًا، وتجد العديد من الدول الصغيرة نفسها مهددة. وتصبح ألمانيا وفرنسا؛ وإلى حد ما إيطاليا الدول الوحيدة فى أوروبا القادرة على مقاومة التيار.

وحث مستر جريفون بشدة على أن تهتدى كندا ببريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وأن تنأى بنفسها عن ذلك الصراع. فسياسة عدم التدخل سياسة صائبة ولابد من تبنيها على الفور، فلا يجب أن يطلب من المواطنين الكنديين أن يخاطروا بحياتهم فى ذلك النزاع الأجنبى. ومع ذلك فهناك بالفعل تيار باطنى من الشيوعيين المتعصبين يتوجهون إلى إسبانيا من قارتنا، ومع أنه لابد من منعهم من ذلك بالقانون، إلا أنه لابد أن تشعر دولتنا بالامتنان بأن سنحت الفرصة لتتخلص من عناصر مشاغبة باعثة على التصدع دون أن يتكلف دافعو الضرائب شيئًا.

لاقت ملاحظات مستر جريفون استحسانًا واسعًا.

القاتل الأعمى: مطعم القبعة العالية للمشويات

على مطعم القبعة العالية للمشويات لافتة بالنيون عليها قبعة عالية حمراء وقفاز أزرق يرفعها. ترتفع القبعة، ثم ترتفع ثانية؛ فهى لا تسقط أبدًا. ومع ذلك فلا رأس تحتها، إنما عين واحدة تغمز. عين رجل تفتح وتغمض؛ عين ساحر؛ مزحة ماكرة بلا رأس.

القبعة العالية هى أرقى ما فى مطعم القبة العالية للمشويات. فهما يجلسان فى إحدى مقصوراته بالخارج أمام العيان مثل سائر الناس، وأمام كل منهما شطيرة لحم، قطعة من اللحم الرمادى فوق خبز أبيض ناعم، لا نكهة لها، مع صلصة بنية يكثر فيها الدقيق فيجعلها سميكة. وإلى جانبها فاصوليا معلبة ذات لون أخضر حائل نحو الرمادى، وبطاطس مقلية طرية بالزيت. وفى المقصورات الأخرى يجلس رجال بمفردهم يعلوهم الحزن واليأس، عيونهم محمرة بها مسحة اعتذار يرتدون قمصانًا قاتمة وأربطة عنق لامعة كتلك التى يرتديها أصحاب المحال التجارية، وثنائيات قليلة من رجال ونساء مطحونين يستمتعون بأقصى استطاعتهم بليلة الجمعة، وبعض الثلاثيات من العاهرات المتعطلات عن العمل.

وخطر لها تساؤل: "ما إذا كان يذهب مع أى من العاهرات فى غيابى. وبعد: كيف أعرف أنهن عاهرات؟"

يقول: "إنه أفضل وأغلى صنف هنا." إنه يعنى شطيرة اللحم الساخنة.

"هل جربت الأصناف الأخرى؟"

"كلا، إنما عرفت ذلك بالغريزة."

"إنه صنف جيد حقًا."

يقول: "اعفينى من آداب الحفلات، لكن لن أكون بالغ الوقاحة." لم يكن مزاجه ما يطلق عليه مرحًا مبتهجًا، لكنه كان متأهبا. يقلقه شيء.

لم يكن هكذا عندما عادت من رحلاتها. إنما كان صموتًا يمتلئ حقدًا ورغبة فى الانتقام.

"ألا ترى أنه مر وقت طويل. فلنعد كالمعتاد؟"

"المعتاد من ماذا؟"

"طاخ بم"

"لماذا تشعرين بالحاجة أن تكونى بالغة الفجاجة؟"

"إنها الصحبة التى أنا معها."

ما أرادت معرفته فى تلك اللحظة هو لماذا يأكلان بالخارج. لماذا هما ليسا بحجرته. لماذا يلقى بالحذر أدراج الرياح. ومن أين أتى بالنقود.

أجاب سؤالها الأخير أولاً، وإن كانت لم تسأله.

"شطيرة اللحم التى أمامك تحية من الرجال السحالى من إكسينور. فلنشرب نخب أولئك الوحوش المحرشفين ولكل ما يباع باسمهم." ورفع قدحه من الكوكاكولا؛ وكان قد أضاف إليها بعضًا من الروم من قنينة معه. (وكان قد قال وهو يفتح لها الباب "لا يوجد هنا كوكتيل. فهذا المكان جاف مثل هذا الشىء الخاص بساحرة.)

ورفعت قدحها. وقالت: "الرجال السحالى من إكسينور؟ أهم أنفسهم؟"

"هم أنفسهم. نشرتها بإحدى الصحف. أرسلتها منذ أسبوعين فتلقفوها بشغف. ووصلنى الشيك بالأمس."

لابد أنه ذهب إلى صندوق البريد بنفسه، وصرف الشيك أيضًا، فهو يفعل ذلك فى الآونة الأخيرة. كان مضطرًا أن يفعل، فقد غابت طويلاً.

"هل أنت سعيد بذلك؟ تبدو سعيدًا."

يقول بابتسامة ملء شدقيه: "نعم بالتأكيد ... إنها من الروائع. أحداث كثيرة وكثير من الدماء التى تسيل على الأرض. ونساء جميلات. من يقاوم ذلك؟"

"هل تدور حول النساء الخوخيات؟"

"لا. فلا نساء خوخيات فى هذه القصة. إنها حبكة مختلفة تمامًا."

وأخذ يفكر: "ماذا يحدث عندما أخبرها؟ هل أقول اللعبة انتهت، أم أمنحها عهودًا أبدية، وأيهما الأسوأ؟" كانت ترتدى وشاحًا من نسيج خفيف هفهاف، لونه يقترب من الوردى ذى مسحة برتقالية. "البطيخى" هو اسم ذلك اللون. جسد نضر غض. وتذكر أول مرة رآها. وقتها اكتست بغلالة سديمية كل خيالاته عما بداخل ثوبها.

تقول: "ماذا يحدث فى رأسك؟ تبدو كثير .... هل كنت تشرب؟"

يقول: "لا. ليس كثيرًا." ونحى حبات الفاصوليا الرمادية الباهتة جانبا فى طبقه وتابع: "أنا فى طريقى إلى السفر. جواز السفر وكل شىء جاهز."

وحاولت أن تنحى نبرة الجزع بعيدًا عن صوتها وهى تقول: "آه. هكذا."

يقول: "هكذا. فلقد اتصل الرفاق. فلابد أنهم قرروا أننى أكثر نفعًا لهم هناك منى هنا. وعلى كل فبعد اللف والدوران الذى لا ينتهى، فجأة لم يسعهم الانتظار حتى أنتهى. عبء آخر ينزاح عن كاهلهم."

"هل ستكون بأمان أثناء السفر؟ فكرت..."

"بأمان أكثر من بقائى هنا. لكن ما قيل إنه لم يعد أحد يتعقبنى بشدة. يراودنى إحساس بأن الجانب الآخر يريدنى أن أرحل على الفور أيضًا. فبذلك تصبح الأمور أقل تعقيدًا بالنسبة لهم. ومع ذلك فلن أخبر أحدًا أى قطار سأستقل. فلا أحب أن أدفع إلى النزول منه بثقب فى رأسى وسكين فى ظهرى."

"ماذا عن اجتياز الحدود؟ لطالما كنت تقول..."

"الحدود الآن واهية مثل ورق التغليف الخفيف، إذا أردت الخروج إليك ذلك. فرجال الجمارك يعرفون بالفعل ما يدور، فهم يعرفون أن هناك خط أنابيب مباشر من هنا حتى نيويورك، ومنها إلى باريس. كل شيء منظم والجميع اسمهم جو. فلقد تلقى رجال الشرطة الأوامر. طلبوا منهم أن ينظروا إلى الجانب الآخر. فهم يعرفون أين تكون مصلحتهم. ومن ثم فهم لا يبالون قط."

تقول: "أتمنى لو آتى معك."

لهذا السبب آخذها للعشاء بالخارج. فقد أراد أن يخبرها بالأمر فى مكان لا تستطيع التصرف فيه بحماقة. كان يأمل ألا تثور غاضبة أمام الناس. تبكى وتنتحب وتقطع شعرها. إنه يعول على ذلك.

يقول: "نعم، تمنيت ذلك أيضًا. لكنك لا تستطيعين. فالحياة صعبة هناك."

ويدندن فى رأسه:

"الجو عاصف هناك

لا أعرف لماذا لا أزرار فى سروالى

إنما زمام منزلق"

يقول فى نفسه: "تمكنت من التعامل مع الموقف." وشعر بفوران فى رأسه مثل جعة الجنزبيل. دم يتلألأ. وشعر كأنه يطير وينظر إليها بالأسفل من الجو. يترجرج وجهها الحزين مثل صورة منعكسة فى بحيرة مضطربة؛ فهى تنهار وسرعان ما تنفجر باكية. لكن مع حزنها لم تكن بهذه الفتنة من قبل. يحيطها بريق أبيض ناعم. فلحم ذراعها حيث يمسكها ممتلئ متماسك. يتمنى أن ينتزعها بشدة ويحملها إلى حجرته، ويضاجعها بست طرق حتى يوم الأحد. وكأنما سيثبتها ذلك فى مكانها.

تقول: "سأنتظرك. عندما تعود سأخرج من الباب الرئيسى، وبعدها نذهب معًا بعيدًا."

"هل ترحلين حقًا؟ هل ستتركينه؟"

"نعم. سأفعل من أجلك. إذا أردت ذلك. سأترك كل شىء."

وكانت شظايا ضوء النيون من النافذة فوقهما تلج إلى الداخل حمراء وزرقاء ثم حمراء. وخالته جرحًا؛ إنها إحدى الطرق التى تجعله يبقى ولا يتحرك. تتمنى لو تحبسه، تقيده وتحتفظ به لها وحدها.

يقول: "اتركيه الآن"

واتسعت عيناها وهى تقول: "الآن؟ فى التو؟ لماذا؟"

"لأننى لا أطيق أن تكونى معه. لا أحتمل الفكرة."

تقول: "لا يعنى لى ذلك شيئًا."

"لكنه يعنى لى. خاصة بعد أن أرحل ولا أستطيع رؤيتك. سيدفعنى ذلك للجنون – التفكير فيه سيجننى."

تقول فى نبرة تعجب: "لكن لن يكون معى أى نقود. فأين سأعيش؟ أفى حجرة مؤجرة، بمفردى تمامًا؟" وقالت فى نفسها "مثلك". "ومن أى مورد سأعيش؟

يقول فى يأس: "يمكنك الحصول على عمل. يمكننى أن أرسل لك بعض النقود."

"أنت لا تملك نقودا، لا تملك مالاً يمكن التحدث عنه. وأنا لا أستطيع القيام بشىء. فلا أستطيع الحياكة، ولا الكتابة على الآلة الكاتبة." وفى نفسها تقول: "وهناك سبب آخر أيضًا، لكنى لا أستطيع إخباره به."

لابد وأن هناك طريقة ما. لكنه لم يضغط عليها. قد لا تكون فكرة صائبة أن تعيش بمفردها فى الخارج. أن تكون وحدها هناك فى العالم الواسع حيث يستغلها كل شخص من شتى أنحاء العالم. فإذا حدث ما لا تحمد عقباه فلن يلوم إلا نفسه.

"أعتقد الأفضل أن أبقى فى مكانى، أليس كذلك؟ ذلك من الأفضل. أنتظرك حتى تعود. فأنت ستعود، أليس كذلك؟ ستعود سالمًا؟"

يقول: "بالتأكيد."

"لأنك إن لم تفعل، لا أدرى ما سأفعل. فإذا قتلت أو حدث لك أى شىء سأتناثر شذرات." وتقول فى نفسها: "أتحدث مثل الأفلام. لكن كيف أتحدث بشكل آخر؟ لقد نسينا كيف."

يقول فى نفسه: "اللعنة. إنها ثائرة تستشيط غضبًا. ستبكى الآن. ستبكى وسأجلس أنا هنا مثل كومة العجين، فمجرد أن تنفتح امرأة فى البكاء لا سبيل لإسكاتها."

يقول بتجهم: "هيا سأحضر معطفك. أنا لا أمزح. ليس لدينا متسع من الوقت. فلنعد إلى الحجرة."

الفصل التاسع

الغسيل

أخيرًا هلَّ شهر مارس، وراحت بشائره تلوح فى الأفق كارهة. فمازالت الأشجار جرداء، والبراعم صلبة فى غلفها، لكن فى بعض الأماكن حيث تشرق الشمس يذوب الجليد. ويزول التجمد عن روث الكلاب وتذوى آثاره، فتحول خطوطه الجليدية إلى اللون الأصفر بفعل البول القديم. وتظهر بعض المساحات المزروعة متناثرة تتخللها بعض الرواسب الطينية. لابد أن البرزخ يبدو هكذا.

لدى اليوم شيء مختلف على الإفطار. صنف جديد من الحبوب القشرية أحضرته ميرا لمنحى بعض النشاط؛ وهى تعشق الكتابة على خلفية اللفائف. فبحروف واضحة متعددة الألوان كالمصاصة كتبت: "تلك الحبوب القشرية الشبيهة بالحلل القطنية المحببة الناعمة ليست مصنوعة من القمح والذرة الصناعية المشوهة، وإنما من حبوب صغيرة ليست معروفة تمامًا اسمها قديم غامض صعب النطق. اكتُشفت بذورها فى قبور ما قبل كولومبيا، وفى الأهرامات المصرية؛ وهى تفاصيل مثبتة ومؤكدة. وتلك الحبوب القشرية لا تمنحك نفحة نشاط سريعة فحسب، لكنها تنبئ بحيوية متجددة وشباب دائم وخلود." وعلى ظهر العلبة لصقت قطعة زخرفية من مطاط على شكل أمعاء وردية؛ وعلى الواجهة صورة وجه بلا عينين مرسوم بالفسيفساء من حجر اليشم، والذى من المؤكد أن مسئولى النشر لم يدركوا أنه قناع موت أزتيكى.

وتحية لذلك الصنف الجديد من الحبوب أجبرت نفسى على الجلوس إلى منضدة المطبخ فى وضع لائق وبطقم كامل من أدوات المائدة وفوطة السفرة. فأولئك الذين يعيشون بمفردهم ينزلقون إلى عادة الأكل وقوفًا: فلماذا يزعجون أنفسهم بالتزام آداب المائدة بينما لا أحد يشاركهم أو يراقبهم؟ لكن التهاون فى مجال يؤدى إلى الفوضى فى شتى المجالات.

قررت بالأمس أن أغسل الملابس متحدية الأعراف الدينية بأن أعمل يوم أحد. وليس ذلك لأن الرب لا يبالى ألبتة أى يوم من أيام الأسبوع يكون؛ فلا زمن فى الجنة أو فى العقل الباطن – أو هكذا أخبرونا. لكنى كنت حقيقة أتحدى ميرا.

فهى تقول إنه لا يجب أن أرتب الفراش، ولا أحمل سلالاً ثقيلة من الملابس المتسخة وأهبط بها درجات الدرج الآيل للسقوط إلى القبو حيث توجد الغسالة الكهربائية القديمة.

من الذى يغسل الملابس؟ ميرا بالطبع. ستقول: "طالما أننى موجودة فلابد أن أقوم بالعمل على الفور." وبعدها نتظاهر نحن الاثنتان بأنها لم تقم بالعمل. فنشترك معًا فى القصة الخيالية – أو ما سرعان أن يصبح قصة خيالية – وهى أننى أستطيع رعاية نفسى. لكن سرعان ما ينتابها التوتر فتظهر عليها علامات القلق وتشى بها.

ذلك إضافة إلى أنها تعانى من ألم الظهر. وتريد أن تنسق لامرأة غريبة مؤجرة لتأتى للقيام بكل ذلك. وعذرها أن قلبى مريض. فقد عرفت بطريقة ما معلومات عن قلبى والطبيب وأساليبه فى العلاج المشكوك فى فاعليته وتنبؤاته – أعتقد أن مصدرها فى ذلك ممرضته ذات الرأس الأحمر المصبوغ والفم المفتوح على مصراعيه. فهذه البلدة كمصفاة لا تحتفظ بشىء.

قلت لميرا إن ما أفعله بغسيلى القذر شأن يخصنى وحدى؛ سأنحى تلك المرأة مجهولة الهوية أطول فترة ممكنة. فأى قدر من الحرج يسببه ذلك لى؟ كثيرًا. فلا أريد شخصًا آخر أن ينبش فى نقائصى، وما أتركه ورائى من بقع وروائح. لا غضاضة أن تقوم ميرا بذلك، لأنى أعرفها وهى تعرفنى. فأنا صليبها الذى عليها أن تحمله، أنا ما يجعلها فى غاية الصلاح فى أعين الآخرين. فكل ما عليها فعله أن تذكر اسمى وتدير عينيها، فينهال عليها الغفران والتسامح، إن لم يكن من الملائكة، فعلى الأقل من الجيران الذين هم أصعب من الملائكة إرضاءً.

لا تسيئوا فهمى. فأنا لا أسخر من الخير، الذى هو أصعب تفسيرًا من الشر، ويساويه تعقيدًا. لكن أحيانًا يصعب احتمال ذلك.

وحيث إننى حزمت أمرى – وتوقعت ميرا تدمدم من شدة الضيق وهى ترى كومة المناشف المغسولة والمطوية وعلى وجهى ابتسامة رضا بالانتصار – بدأت

مغامرتى بالغسيل. وفتشت فى سلة الغسيل فى نطاق ضيق لأجنب نفسى الانزلاق والوقوع فيها منقلبة على رأسى، فالتقطت ما اعتقدت أن بإمكانى حمله، متجنبة الحنين إلى الملابس الداخلية التى كانت فى الماضى.(فكم كانت جميلة! لم تعد تصنع مثل هذه الأشياء ثانية؛ فلم تعد هناك تلك الملابس الداخلية ذات الأزرار المغطاة بنفسها، والمطرزة يدويًا. أو لعلها تصنع، لكنى لا أراها، أو لم أعد أستطيع دفع ثمنها، وهى لم تعد تناسبنى. فهذه الأشياء ذات حياكة من الوسط.)

وضعت مختاراتى فى السلة البلاستيكية، ورحت أهبط الدرج خطوة خطوة متنحية نحو أحد جوانبه، مثل ذات الرداء الأحمر فى طريقها إلى منزل جدتها فى العالم السفلى. وذلك فيما عدا أننى أنا نفسى جدة، وأحمل فى داخلى ذئبى الشرير. أقضم وأقضم.

هبطت إلى الطابق الأول بسلام. وسرت عبر الردهة نحو المطبخ وواصلت طريقى مهتدية بضوء القبو نحو المغامرة الجريئة المشوبة بالقلق إلى حيث البرودة والرطوبة. وسرعان ما امتلأت نفسى قلقًا وهلعًا. فلقد صارت غير آمنة دروب البيت التى كنت أرتادها بسهولة فى الماضى؛ فبدت النوافذ ذات الأطر المنزلقة مثل الشراك، توشك أن تسقط فوق رأسى، ومسند القدم ينذر بالانهيار، والأوانى الزجاجية تبدو متزعزعة فوق الأرفف العليا من الخزانات وكأنها شراك منصوبة. وفى منتصف الطريق إلى القبو، أدركت أننى ما كان يجب أن أقدم على ذلك. فقد كانت الزوايا بالغة الانحدار، والعتمة متكاثفة، والروائح كريهة كأنما تنبعث من ملاط صب حديثًا ليخفى جثة شخص قتل بالسم. وعلى الأرض بالطابق الأسفل كانت بحيرة من الظلام، عميقة متلألئة وندية كبحيرة حقيقية. ربما كانت بحيرة حقيقية؛ ربما كان ماء النهر ينبثق من الأرضية، كما رأيته يحدث فى محطة الأرصاد الجوية. فربما تخلف أى من العناصر الأربعة مواضعها فى أى لحظة؛ فتنبثق النيران من الأرض، وتنصهر الأرض وتنهار مدوية فى أذنيك، ويضربك الهواء مثل الحجارة، نازعًا السطح من فوق رأسك. ولماذا إذن لا يكون فيضانًا؟

سمعت قرقرة، قد تكون صادرة من داخلى أو لا تكون؛ فشعرت بقلبى يلهث بين ضلوعى مذعورًا. أعرف أن المياه خداع من العين أو الأذن أو العقل؛ لكن مازال من الأفضل ألا أهبط. فأسقطت الغسيل على درج القبو، وتركته. فربما عدت وأخذته لاحقًا، وربما لا. قد يقوم بذلك شخص آخر. قد تقوم به ميرا وهى تزم شفتيها. والآن وقد فعلتها، فلابد وأننى سأضطر يقينًا إلى قبول المرأة. واستدرت موشكة على السقوط، فتشبثت بالدرابزين، ثم استجمعت نفسى ونهضت ثانية، أخطو بخطى وئيدة نحو ضوء النهار الواضح فى المطبخ.

ومن النافذة بدا كل شيء وقد اكتسى باللون الرمادى، فى زى رمادى موحد لا بهجة فيه، وكذلك كانت السماء والجليد المسامى الهرم. أوصلت الغلاية الكهربائية بالمقبس؛ وسرعان ما بدأت هدهدة البخار. لقد تجاوزت الأشياء حدودها وصرنا نشعر بأن الأدوات هى التى تعتنى بنا وليس العكس. ومازلت أشعر بالراحة والطمأنينة.

أعددت قدحًا من الشاى، وارتشفته ثم غسلت القدح. فمازلت قادرة على غسل أطباقى، على أية حال. وبعدها وضعت القدح على الرف مع غيره من الأقداح التى كانت تخص جدتى أديلا والمرسومة باليد، الزنبق مع الزنبق والبنفسج مع البنفسج، والرسوم المتوافقة مع بعضها. فعلى الأقل لم يختل النظام فى خزاناتى. لكن يزعجنى منظر قطع الغسيل المطروحة ساقطة على درجات درج القبو. كل تلك المزق، وتلك النتف الجعدة، مثل جلد أبيض منزوع. مع أنه ليس ناصع البياض. لكنها تبقى للشهادة؛ صفحات خاوية كان جسدى يخربش فوقها، تاركًا دلالته المبهمة بينما هو ينقلب ظهرًا لبطن ببطء ويقين.

ربما يجب أن أحاول جمع هذه الأشياء، ثم أضعها مرتبة فى سلة الغسيل، ولن يفقه أحد للأمر. والمقصود بذلك الأحد هو ميرا.

يبدو أنه تتملكنى شهوة الترتيب.

تقول رينى: "أن نفعل الشيء متأخرين خير من ألا نفعله أبدًا"

آه يا ريني. كم كنت أتمنى أن تكوني معي. عودي وراعيني!

لكنها لن تعود. ولابد أن أرعى نفسي. أنا ولورا، كما وعدت جادة أن أفعل.

فأن أفعل متأخرة خير من ألا أفعل أبدًا.

أين أنا؟ "كان الوقت شتاء". كلا فقد انتهيت من ذلك.

كنا في الربيع. ربيع عام ١٩٣٦. تلك السنة التي نحا فيها كل شيء صوب الانهيار. واستمر في الانهيار، أعني على نحو أكثر جدية مما كان يحدث بالفعل.

تنازل الملك إدوارد عن العرش في تلك السنة؛ فقد فضل الحب على الطموح. كلا بل فضل طموح دوقة ويندسور على طموحه هو. تلك هي الحادثة التي يذكرها الناس. وبدأت الحرب الأهلية في إسبانيا. لكن تلك الأمور لم تكن قد حدثت إلا بعد ذلك بعدة شهور. بماذا عرف شهر مارس؟ كان هناك شيء. كان ريتشارد يخشخش بجريدته على مائدة الإفطار ويقول: "إذن لقد فعلها."

في ذلك اليوم لم يكن على مائدة الإفطار سوانا أنا وهو. فلورا لا تتناول الإفطار معنا سوى في عطلات نهاية الأسبوع، ثم صارت تتجنب ذلك بقدر الإمكان متظاهرة أنها نائمة حتى ساعة متأخرة من النهار. وأثناء الأسبوع كانت تأكل بمفردها في المطبخ، لأنه كان عليها الذهاب إلى المدرسة. أو ليس بمفردها؛ فقد كانت معها مسز ميورجاترويد. وبعد ذلك يوصلها مستر ميورجاترويد إلى المدرسة بالسيارة ثم يذهب إليها ليعود بها إلى المنزل، لأن ريتشارد لم يكن يحبذ فكرة سيرها. وما كان لا يحبذه حقيقة فكرة أنها ربما تضل الطريق.

كانت تتناول الغداء في المدرسة، وتحضر دروسًا في العود هناك أيام الثلاثاء والخميس، لأنه كان إجباريًا أن تتعلم آلة موسيقية. فجربت البيانو، لكن لم تخرج بشيء. ونفس الشيء تكرر مع التشيلو. وقالوا لنا إنها تكره التدريب، مع أنها كانت تخصنا في الأمسيات أحيانا بعزف نشاز للحن حزين باك على العود. كانت النغمات الشاذة تبدو متعمدة.

قال ريتشارد: "سأتحدث إليها"

فقلت: "لا يحق لنا أن نشكو، فهى تفعل ما تطلبه منها."

لم تعد لورا تتعامل بوقاحة صريحة مع ريتشارد. لكن لو دخل هو الحجرة تتركها هى.

أعود لصحيفة الصباح؛ فحيث إن ريتشارد كان يمسكها بيننا، وسعنى قراءة العناوين. فالمقصود "بهو" كان هيتلر الذى زحف إلى أرض الراين . لقد حطم القواعد، وعبر الحدود، وفعل المحظور. قال ريتشارد: "حقًا. قد يتوقع البعض قرب حدوث ذلك، لكنه فاجأ الآخرين فى أوضاع حرجة. فهو يتحداهم ويستهين بهم. إنه شخص ذكى. رأى نقطة ضعيفة فى السياج. وجد فرصة واقتنصها. إنه يستحق الإعجاب ويجب أن نسلم له بذلك".

وافقته، لكنى لم أصغ لما يقول. فألاَّ أصغى كان الأسلوب الوحيد الذى أتبعه خلال تلك الشهور من حفظ توازنى. فكان لابد أن أنعزل عن الضوضاء المحيطة تمامًا: مثل بهلوان يعبر شلالات نياجرا سائرًا على حبل مشدود، فلا أستطيع النظر حولى خشية الانزلاق. فماذا عساى أن أفعل غير ذلك عندما يكون ما أفكر فيه كل لحظة من لحظات يقظتى يبعد تمامًا عن الحياة المفترض أنى أعيشها؟ يبعد تماما عما هو موجود بالفعل على المائدة، والذى كان فى ذلك الصباح مزهرية بها زهرة نرجس ناصعة البياض كورقة بيضاء، قطفت من إناء الزهور الذى أرسلته وينفريد؛ وعليها عبارة تقول: "جميل أن تكون لدينا هذه الزهرة فى ذلك الوقت من العام. فهى فواحة مثل نفحة أمل.

كانت وينفريد لا تتوقع منى خطرًا أو إيذاء. وبتعبير آخر، كانت تظننى حمقاء بلهاء. فبعد ذلك بعشر سنوات قالت عبر التليفون حيث إننا لم نعد نتقابل شخصيًا: "تعودت أن أظنك غبية، لكنك فى الواقع شريرة. فكنت دائمًا تكرهيننا لأن والدك أفلس وأحرق مصنعه، ولمتينا على ذلك."

فقلت: "لم يحرق أبى مصنعه، بل فعلها ريتشارد، أو رتب لها."

"تلك كذبة خبيثة. فقد كان والدك مفلسًا تمامًا، ولولا التأمين على المبنى ما وجدتما شيئًا! فلقد انتشلناكما أنت وأختك البليدة الغبية من المستنقع. فلولانا لكنتما تجوبان الشوارع بدلاً من الجلوس بلا شيء تفعلانه كطفلتين مدللتين كما كنتما. فدائما يقدم لكما كل شيء، ولم تضطرا أبدًا لبذل الجهد، ولم تعترفا أبدًا بفضل ريتشارد. فلم ترفعا إصبعًا لمساعدته، ولا مرة واحدة على الإطلاق."

"لقد فعلت ما رغبتما فيه منى، أغلقت فمى وابتسمت. لقد كنت واجهة العرض المزينة. لكن لورا كانت تتجاوز الحدود. لقد كان عليه أن يبعد لورا عن ذلك."

"كان ذلك كله حقدًا وضغينة! فلم تحتملا أن تدينا لنا بكل شيء. وأردتما الانتقام منه! فقتلتماه بينكما، كأنما صوبتما بندقية إلى رأسه وجذبتما الزناد."

"فمن قتل لورا إذن؟"

"لورا هى التى قتلت نفسها، كما تعلمين جيدًا."

"نفس الشيء ينطبق على ريتشارد."

"كذب وافتراء. على كل فلقد كانت لورا مجنونة. ولا أدرى كيف تصدقين كلمة مما قالته عن ريتشارد أو أى شيء آخر. فذلك لا يصدقه عاقل!"

لم أستطع أن أقول كلمة أخرى، فأغلقت التليفون. لكنى كنت عاجزة أمامها، ففى ذلك الوقت كانت تحتجز رهينة عندها. كانت لديها إيمى.

ومع ذلك فقد كانت فى عام ١٩٣٦ لاتزال دمثة الخلق، وكنت مازلت أحظى برعايتها. فقد استمرت تجرنى من عمل إلى آخر - اجتماعات رابطة الشباب، احتفالات بمناسبات سياسية، ولجان لهذا أو ذاك - وتتركنى على المقاعد وفى الزوايا وتقوم هى بالاتصالات الاجتماعية الضرورية. أستطيع الآن أن أرى أنها لم تكن محبوبة، إنما محتملة بسبب مالها وطاقتها الفياضة؛ فمعظم النساء فى تلك الدوائر كن قانعات بأن يتركن وينفريد تقوم بنصيب الأسد فى أى عمل تشترك فيه.

وبين حين وآخر كانت إحداهن تنسل إلىّ متزحلقة وتقول إنها كانت تعرف جدتى – أو إن كانت شابة تقول إنها كانت تتمنى لو عرفتها، فى ذلك العهد الذهبى السابق على الحرب العالمية، عندما كانت الأناقة الحقيقية لا تزال ممكنة. كانت تلك هى كلمة المرور، وتعنى أن وينفريد كانت وصولية – من أرباب المال الجدد، مندفعة وسوقية – ولابد أننى أمثل مجموعة أخرى من المبادئ والقيم. فكنت أبتسم ابتسامة غامضة وأقول إن جدتى ماتت قبل مولدى بوقت طويل. وبعبارة أخرى، لا يمكن أن ينتظروا منى أى معارضة لوينفريد.

ويقلن: "كيف حال زوجك الماهر؟ متى ننتظر إعلان الحدث الكبير؟" وكان الحدث الكبير يتعلق بعمل ريتشارد السياسى، والذى لم يكن قد بدأ بشكل رسمى، لكنه كان يعد وشيكًا.

فكنت أقول مبتسمة: "آه، أعتقد أننى أول من ستعلم." ولم أكن أصدق ذلك: فأتوقع أن أكون الأخيرة.

كانت حياتنا – أنا وريتشارد – قد استقرت فيما افترضت وقتها أنه نمطها الأبدى. أو على الأحرى كانت لدينا حياتان، واحدة بالنهار وأخرى بالليل؛ وكلاهما متباينتان وثابتتان. يسودهما السكينة والنظام ووضع كل شىء فى موضعه، مع إقرار لعنف يتخذ مظهرًا لائقًا يسرى فى باطن كل شىء، مثل حذاء ثقيل قاس يدق إيقاعه على أرضية مغطاة بالبسط. ففى كل صباح أستحم لأتخلص من آثار الليل؛ لأغسل عنى المادة التى يضعها ريتشارد فى شعره – نوع من الدهان المعطر غالى الثمن. فقد كان ينتقل إلى كل جسدى.

فهل كانت تضايقه لامبالاتى بما كان يفعله بالليل، بل نفورى؟ كلا على الإطلاق. فهو يفضل الغلبة والقهر على التعاون فى كل مجالات الحياة.

ففى بعض الأحيان – وعلى نحو متزايد بمرور الوقت – كانت تظهر على جسدى كدمات، وردية ثم زرقاء ثم صفراء. وكان ريتشارد يقول مبتسمًا إنه من اللافت للنظر أننى سرعان ما تظهر الكدمات على جسدى. فهى تظهر بمجرد

اللمس. وهو لم يعرف فى حياته امرأة تظهر عليها الكدمات بهذه السهولة. ربما سبب ذلك أننى بالغة الصغر والرقة.

وكان يفضل الأفخاذ حيث لا تظهر الكدمات. فأى شىء واضح قد يقف فى طريق طموحاته.

كنت أحيانا أشعر وكأنما تلك العلامات على جسدى نوع من الشفرة، يترعرع ثم يذوى مثل حبر سرى يقرب من شمعة. لكن لو كانت شفرة، فمن يملك مفتاحها؟

كنت رملاً وجليدًا – يكتب فوقه ثم تعاد الكتابة ثم يسوى سطحه.

telegram @ktabpdf

منفضة السجائر

كان علىَّ رؤية الطبيب مرة أخرى. أوصلتنى ميرا بالسيارة إلى هناك. فقالت إن الأرض زلقة لدرجة لا أستطيع معها السير، وذلك بسبب الجليد الأسود الذى سببه ذوب الجليد المتبوع بالتجمد.

نقر الطبيب على ضلوعى، وأصغى إلى قلبى، وقطب جبينه، ثم أزال التقطيبة، وبعدها – بعد أن حزم أمره – سألنى كيف حالى. أعتقد أنه فعل شيئًا فى شعره؛ بالتأكيد فقد كان شعره خفيفًا فى المقدمة. فهل أشبع رغبته فى لصق خصلات شعر على رأسه؟ أو ربما فعل ما هو أسوأ من ذلك، فزرع شعرًا على رأسه؟ وقلت فى نفسى: آه، فرغم العدو وساقيك الخاليتين من الشعر، لقد بدأت تعانى آلام الشيخوخة. وسرعان ما تندم على جلوسك تحت الشمس لاكتساب سمرتها. فسيبدو وجهك مثل خصية.

ومع ذلك فهو يميل إلى الدعابة ثقيلة الوطأة. وهو على الأقل لا يقول: "كيف حالنا اليوم؟" فهو لا يدعونى بصيغة الجمع، كما يفعل بعضهم؛ فهو يفهم أهمية استخدام ضمير المخاطب المفرد.

قلت له: "لا أستطيع النوم، فأنا أحلم كثيرًا جداً."

فقال مداعبًا: "إذا كنت تحلمين، فلابد أنك تنامين."

قلت بحدة: "أنت تفهم ما أعنيه، فالأمر مختلف. الأحلام توقظنى."

"هل تشربين القهوة؟"

"كلا." قلتها كاذبة.

"ربما هو تعذيب ضمير." وكان يكتب وصفة طبية، لابد أنها أقراص بديلة للسكر. وابتسم لنفسه؛ فقد ظن نفسه بالغ الظرف والمرح. فبعد فترة زمنية معينة تنقلب آثار حنكة السنين فى نفوسنا إلى النقيض؛ فتكسونا البراءة مع تقدم العمر، على الأقل فى أذهان الآخرين. فعندما ينظر إلىَّ الطبيب لا يرانى سوى عجوز لا حول لها ولا قوة، ومن ثم فهى بريئة لا غبار عليها فى شىء.

جلست ميرا تقرأ مجلات قديمة فى حجرة الانتظار بينما كنت أنا فى الحرم الداخلى. وانتزعت منها مقالاً عن التعامل مع الإجهاد النفسى، وآخر عن فوائد الكرنب الطازج. وقالت سعيدة بلقيتها النافعة إنها من أجلى. فهى دائمًا تشخص حالتى. وتهتم بصحتى الجسدية بنفس قدر اهتمامها بصحتى الروحية، وهى تشعر بشعور امتلاكى خاص تجاه أمعائى.

فأخبرتها أنه من الصعب القول بأننى أعانى من الإجهاد النفسى، فهو لا ينجم من فراغ، أما فيما يتعلق بالكرنب الطازج فهو ينفخنى كبقرة ميتة، ولذلك أفضل الاستغناء عن فوائده. وقلت إننى لا أتمنى أن أستمر فى الحياة، وما بقى لى فيها، تفوح منى رائحة كريهة كبرميل الكرنب المخلل، وأصدر صوتًا كنفير شاحنة.

دائمًا ما تكبح ميرا جماحها أمام الإشارات الفجة لوظائف الجسد. فأخذت تقود السيارة صامتة طوال ما تبقى من الطريق إلى المنزل، وابتسامة تتصلب على وجهها مثل الجص الباريسي.

أخجل أحيانًا من نفسي.

وأعود إلى ما فى يدى من عمل. "يدى" كلمة مناسبة: فأحيانًا يتراءى لى أن يدى وحدها هى التى تكتب وليس سائر جسدى، فقد دبت فى يدى حياة خاصة بها، وستستمر فى الحياة حتى لو انفصلت عن سائر جسدى، مثل بعض المعبودات الوثنية المصرية المحنطة والمسحورة، أو مخالب الأرنب المجففة التى اعتاد الرجال تعليقها فى مرآة سياراتهم جلبًا للحظ. فبرغم التهاب المفاصل فى أصابعى، إلا أنه فى الآونة الآخيرة صارت يدى تلك تبدى نشاطا وحيوية ومرحا على غير المعتاد، وكأنما تضرب عرض الحائط بكل القيود والمعوقات. فمن المؤكد أنها تكتب عددًا من الأشياء ما كان يسمح لها بكتابتها لو كانت تخضع لصواب حكمى.

ولأقلب الصفحات، لأقلب الصفحات. أين توقفت؟ كان شهر إبريل عام ١٩٣٦.

فى شهر إبريل تلقينا مكالمة تليفونية من ناظرة مدرسة سانت سيسليا حيث كانت تدرس لورا. وذكرت أن الأمر يتعلق بسلوك لورا. وهو ليس بالأمر الذى يفضل مناقشته على التليفون.

كان ريتشارد مرتبطًا بأمور العمل. فاقترح أن ترافقنى وينفريد فى الذهاب، لكنى قلت إننى على يقين بأنه ما من شيء هناك، وسأتولى معالجة الأمور بنفسى، وسأعلمه بالأمر إذا اقتضت الضرورة وكان هناك ما يستدعى الاهتمام. وحددت ميعادًا لمقابلة الناظرة التى نسيت اسمها. وارتديت ملابس تمنيت أن ترهبها، أو على الأقل تذكرها بمكان ريتشارد ونفوذه؛ أعتقد أننى ارتديت معطفًا من الكشمير المزين على الأطراف بفراء حيوان الشره – دافئًا على مثل هذا الوقت من السنة لكنه مثير للإعجاب – مع قبعة عليها طائر التذرج ميتًا، أو أجزاء من جسد هذا

الطائر. كالأجنحة، والذيل، والرأس الذى كان مطعمًا بعينين حمراوين من الزجاج اللامع البراق.

كانت الناظرة أنثى وخطها الشيب، تبدو مثل مشجب خشبى للثياب – عظام هشة قصيفة تتدلى عليها أنسجة ذات مظهر رطب. كانت تجلس فى حجرة مكتبها محجوزة خلف مكتبها البلوطى، وقد احتودب كتفاها نحو أذنيها من الرعب. قبل ذلك بعام كنت سأشعر بالخوف منها كما تشعر هى بالخوف، منى أو على الأحرى بالخوف مما أمثله؛ رزمة كبيرة من الأموال. لكنى اكتسبت ثقة الآن. فقد راقبت وينفريد وهى تتصرف، وتمرنت. والآن بوسعى رفع حاجب واحد فى كل مرة.

ابتسمت هى بعصبية، فظهرت أسنانها صفراء مكتنزة مثل حبيبات على كولحة ذرة مأكول بعضها. وتساءلت ماذا فعلت لورا: فلابد أنها أتت شيئًا خطيرًا أثار الناظرة إلى درجة تحديها لريتشارد فى غيابه وقوته غير المرئية. قالت: "أخشى أننا لا نستطيعِ الاستمرار مع لورا. فلقد فعلنا ما فى وسعنا، ونحن على دراية بأن هناك ظروفًا مخففة، لكن مع أخذ كل شىء فى الاعتبار فلابد أن نفكر فى تلميذاتنا الأخريات، وأخشى أن تكون لورا ذات تأثير سيئ يعوق سلوكهن الطبيعى."

وكنت فى ذلك الوقت قد تعلمت قيمة جعل الآخرين يبررون أنفسهم. فقلت وأنا لا أكاد أفتح ما بين شفتى: "معذرة، لكنى لا أعرف عما تتحدثين. ما هى الظروف المخففة. وما هو التأثير السيئ؟" واحتفظت بيدى ساكنتين فى حجرى، وشمخت برأسى عاليًا مع ميل خفيف، وهى أفضل زاوية لقبعة طائر التدرج. وتمنيت أن تشعر الناظرة بأربع أعين تحملق فيها وليس اثنتين. ومع أن الثروة فى جانبى، إلا أن المركز والسن فى جانبها. شعرت بحر فى حجرة المكتب. كان بوسعى أن ألقى معطفى على ظهر المقعد، لكن حتى لو فعلت لظللت أتصبب عرقًا مثل عامل شحن السفن.

قالت: "إنها تشكك فى الرب فى درس المعرفة الدينية، والتى لابد أن أذكر أنها المادة الدراسية الوحيدة التى تهتم بها لورا على الإطلاق. لقد تجاوزت الحدود

حتى إنها كتبت مقالاً بعنوان "هل يكذب الرب؟" مما أشاع الغضب والاضطراب فى حجرة الدراسة."

وسألتها: "وما الإجابة التى وصلت إليها فيما يتعلق بالرب؟" لقد انتابتنى الدهشة، مع أنى لم أظهر ذلك: فكنت أعتقد أنها لم تتشدد فى مسألة الرب، لكن بدا الأمرغير ذلك.

فخفضت بصرها نحو المكتب حيث كانت مقالة لورا مفتوحة أمامها وقالت: "بالإيجاب. فهى تقتبس هنا – من الملوك الأوائل، الفصل الثانى والعشرين – الفقرة حيث يخدع الرب الملك أهاب. "انظر الآن فقد وضع الرب روحًا كاذبة فى أفواه كل أنبيائك هؤلاء" وواصلت لورا قائلة إنه لو كان الرب فعل ذلك مرة، فكيف لنا أن نعرف أنه لم يفعلها أكثر من مرة، وكيف لنا أن نميز بين النبوءات الكاذبة والصادقة؟"

قلت: "حسن، فذلك استنتاج منطقى على كل حال، فلورا تفهم الإنجيل."

فقالت الناظرة وقد استشاطت غضبًا: "يستطيع الشيطان الاقتباس من الكتب المقدسة بما يوافق أغراضه. فهى تواصل معلقة بقولها 'مع أن الرب يكذب، إلا أنه لا يخدع – فهو دائما يرسل رسولاً صادقًا كذلك، لكن الناس لا تسمع.' ففى رأيها أن الرب يشبه مذيع الراديو، وأننا أجهزة مذياع معطلة، وهى مقارنة أراها مهينة وتنطوى على عدم احترام، وذلك أقل ما يقال."

قلت: "لا تقصد لورا الإهانة وعدم الاحترام مع الرب على الإطلاق."

قالت الناظرة متجاهلة ذلك: "ليس المهم مناقشتها الجدلية المنطوية على الشك بقدر ما تهم حقيقة أنها وجدت من المناسب طرح المسألة فى المقام الأول."

قلت: "تحب لورا أن تعثر على إجابات. تحب أن تعثر على إجابات فى الأمور المهمة. ولا أرى سببًا لأن يعد ذلك مثيرًا للغضب والاضطراب."

"وجدته كذلك الطالبات الأخريات. فهن يعتقدن أنها ... تتباهى لترهبهن. وذلك بتحديها السلطة الراسخة."

قلت: "كما فعل المسيح، أو هكذا ظن بعض الناس آنذاك."

لم تطرح الناظرة الفكرة الواضحة بأن مثل هذه الأشياء تنطبق على المسيح لكنها لا تناسب فتاة فى السادسة عشرة. وقالت: "إنك لا تفهمين الأمر تمامًا". وضمت كفيها وفركتهما معًا، وهى حركة أثارت اهتمامى حيث إنى لم أكن قد رأيتها من قبل، وتابعت: "يعتقد الآخرون أنها ... يعتقدون أنها مثيرة للضحك والسخرية. أو يراها البعض كذلك. ويظنها بعض آخر بلشفية. أما الباقى فيرون فيها محض غرابة وخروجًا عن المألوف. وعلى كل حال فهى تلفت النظر نحو جوانب غير سوية."

وبدأت أفهم وجهة نظرها. فقلت: "لا أعتقد أن لورا أرادت أن تكون مثيرة للضحك."

"لكن يصعب جدًا معرفة ذلك!" وتبادلنا النظرات عبر مكتبها فى لحظة صمت. وبعدها قالت الناظرة بشىء من الحسد "لقد تكرر...، أنت تعرفين" ثم انتظرت أن أستوعب ذلك وواصلت: "إنها أيضًا مسألة غيابها. أفهم أنها تعانى من مشكلات صحية، لكن..."

فقلت: "أى مشكلات صحية؟ فلورا لا تعانى من أى اعتلال بالصحة."

"أرى أنه نظرًا لكل مواعيد الأطباء..."

"أى مواعيد للأطباء؟"

"ألم تعتمديها بتوقيعك؟" وأخرجت رزمة من الخطابات. فتعرفت على ورق كتابة الملاحظات الذى كان لى. وتفحصته، فوجدته موقعًا باسمى.

فقلت وأنا أستجمع معطفى المزين بفراء حيوان الشره وحقيبة يدى: "أدرك الأمر الآن. فلابد أن أتحدث إلى لورا. شكرًا على ما منحتيه من وقت." وصافحتُ

أطراف أصابعها. وما كان من حاجة للقول بأنه من ذلك الحين لابد أن تنسحب لورا من المدرسة.

"لقد فعلنا ما فى وسعنا." قالتها المرأة المسكينة. وكانت تبكى بالفعل. فتلك المرأة هى مس فيولنس أخرى. سيدة تقوم بعمل شاق مضجر، حسنة النوايا، لكن لا حول لها ولا قوة. فلا أحد يقدر على لورا.

وفى المساء، عندما سألنى ريتشارد عن سير الأمور أثناء مقابلتى مع الناظرة، أخبرته كيف أشاعت لورا الغضب والاضطراب بين زميلات الدراسة. وبدلاً من أن يغضب بدا مسرورًا، وأقرب ما يكون إلى الإعجاب. وقال إن بعض التمرد يظهر أن لديها طاقة وعزيمة. فهو نفسه كان يكره المدرسة وأرهق مدرسيه. لم أعتقد أن ذلك كان هدف لورا، لكنى لم أقله.

لم أذكر له الملاحظات الطبية الكاذبة؛ فذلك من شأنه أن يثير كثيرًا من المتاعب. فإزعاج المدرسين شىء والغياب من المدرسة بدون إذن شىء مختلف تمامًا. فهو سلوك يشتم فيه الانحراف الخلقى وخرق القوانين.

وقلت للورا منفردين: "ما كان يجب أن تزيفى خطى"

"لم أستطع تزييف خط ريتشارد. فهو شديد الاختلاف عن خطوطنا. أما خطك فهو أسهل كثيرًا."

"خط اليد شىء شخصى. فالأمر كالسرقة."

ظهر عليها الغضب والإحباط للحظة. "آسفة. فإنما كنت أستعيره. ما ظننتك تهتمين."

"أرى أنه لا معنى للتساؤل عن سبب فعلك ذلك؟"

قالت لورا: "لم أطلب أبدًا إلحاقى بهذه المدرسة. فكراهيتهم لى ليست بأقل من كراهيتى لهم. فهم لم يأخذونى مأخذ الجد. إنهم ليسوا جادين. فإذا اضطررت إلى التواجد هناك كل الوقت، لمرضت بالفعل."

فقلت: "ماذا كنت تفعلين عندما لا تكونين بالمدرسة؟ أين كنت تذهبين؟" فقد توجست خيفة من أن تكون تقابل أحدًا – تقابل رجلاً. فقد كانت فى بداية ذلك السن.

قالت لورا: "هنا وهناك. فكنت أذهب إلى وسط المدينة، أو أجلس فى الحدائق وما شابه. أو أتجول بلا هدف محدد. ورأيتك مرتين، لكنك لم ترينى. أظنك كنت تتسوقين." فشعرتُ بتدفق الدم إلى قلبى، وتبعه انقباض؛ فقد انتابنى رعب كأن يدا تعتصرنى فتخرسنى. ولابد أننى امتقعت.

قالت لورا: "ماذا بك؟ هل أنت بخير؟"

فى شهر مايو من ذلك العام عبرنا المحيط إلى إنجلترا على السفينة "بيرينجيريا"، ثم عدنا إلى نيويورك فى الرحلة الأولى للسفينة "كوين مارى". كانت "كوين مارى" أكبر ما شيد من عابرات المحيطات وأكثرها رفاهة على الإطلاق، أو هذا ما جاء فى كل الكتيبات الإعلانية. وقال ريتشارد إنها حدث حاسم.

صحبتنا وينفريد. وكذلك لورا. فقد قال ريتشارد إن مثل هذه الرحلة قد تفيدها كثيرًا؛ فمنذ تركها المفاجئ للمدرسة بدت معتلة نحيفة وضعيفة وليس لديها ما يشغلها. وستكون الرحلة تثقيفًا لها، من ذلك النوع الذى تستفيد منه بحق فتاة مثلها. وعلى كلٍ لم يسعنا تركها.

لم يعرف العامة من الناس ما يكفى عن السفينة "كوين مارى". فقد وصفت السفينة وصورت فى شتى جوانبها، وزينت بنفس الطريقة، بشريط من الضوء وصفائح رقيقة من البلاستيك وأعمدة محززة وسنابل الإسفندان – مظاهر باهظة براقة فى كل مكان. لكنها تتمايل كالخنزير، ويطل سطح الدرجة الثانية على سطح الدرجة الأولى، ولذلك لا يمكنك السير هناك دون أن يمتلئ السياج برقاق الحال يتفحصونك ويحملقون فى بلاهة.

أصبت بدوار البحر فى اليوم الأول للإقلاع، لكنى أصبحت على ما يرام بعد ذلك. كان هناك الكثير من الرقص. وكنت أعرف كيف أرقص آنذاك؛ أرقص جيدًا،

لكن ليس ببراعة فائقة. (كانت وينفريد تقول: "لا تفعلى شيئا ببراعة كبيرة، فذلك يبين أنك تتدربين.) رقصت مع رجال آخرين غير ريتشارد - رجال عرفهم عن طريق العمل، رجال قدمنى لهم. فكان يقول لأحدهم باسمًا وهو يربت على ذراعه: "اعتنى بإيريس لأجلى". وأحيانًا كان يرقص مع نساء أخريات، زوجات من عرفهم من الرجال. وأحيانًا كان يخرج ليدخن سيجارة أو يتجول فوق السطح، أو ذلك ما كان يقول لى إنه يفعله. لكنى أعتقد أنه كان منشغل البال أو غاضبا. فكنت أفقد أثره لساعة فى كل مرة. وبعدها يعود يجلس على مائدتنا، ويراقبنى وأنا أرقص جيدًا، ولا أدرى كم مضى عليه جالسًا هكذا.

مكتبة

رأيت أنه كان مستاء ومحبطًا، لأن تلك الرحلة لم تحقق ما تمناه وخطط له. فلم يستطع حجز العشاء الذى يريده فى مطعم فيرانا جريل، ولم يقابل الناس الذين أراد مقابلتهم. فهو شخصية معروفة وذات نفوذ على أرضه، أما على "كوين مارى" فهو شخص عادى لا شأن له على الإطلاق. وكانت وينفريد أيضًا مثله لا شأن لها على "كوين مارى": فقد أهدرت طاقتها وحيويتها. وأكثر من مرة رأيتها وقد تجاهلنها من حاولت التقرب إليهن من النساء. فتتسل عائدة إلى من أطلقت عليهن "تاسنا"، آملةً ألا يكون قد لاحظها أحد.

لم تكن لورا ترقص. فهى لم تعرف كيف، ولم تهتم؛ وعلى كل فقد كانت صغيرة جدًا على ذلك. فكانت تحبس نفسها فى كبينتها بعد العشاء، وتقول إنها تقرأ. وفى اليوم الثالث من الرحلة وعلى الإفطار بدت عيناها حمراوين ومنتفختين.

وفى منتصف النهار ذهبت للبحث عنها. فوجدتها جالسة على كرسى قابل للطى فوق سطح السفينة وقد تدثرت حتى عنقها بلفاع مربع النقش، تشاهد بفتور لعبة رمى الحلقات. جلست بجوارها. ومرت أمامنا شابة سمراء معها سبعة كلاب كل فى مقوده؛ وكانت ترتدى سروالاً قصيرًا رغم برودة الجو، وقد اكتسبت ساقاها سمرة الشمس.

قالت لورا: "يمكن أن أحصل على عمل كهذا."

"عمل كماذا؟"

قالت: "تنزيه الكلاب. كلاب الآخرين. فأنا أحب الكلاب."

"لكنك لن تحبى أصحابها."

"لن أنزه أصحابها" وكانت ترتدى نظاراتها الشمسية، لكنها كانت ترتعش.

قلت: "ماذا بك؟"

"لا شيء"

"يبدو أنك تشعرين بالبرد. أظنك ستصابين بشيء."

"لا شيء بى. لا تقلقى نفسك."

"الأمر يقلقنى بالطبع."

"لا عليك. فأنا فى السادسة عشرة. وأستطيع أن أعرف ما إذا كنت مريضة."

فقلت بجمود: "وعدت أبى أن أهتم بك، وكذلك أمى."

"حماقة منك."

"لا شك فى ذلك. لكنى كنت صغيرة، ولا أعرف ما هو أفضل. فذلك شأن حداثة السن."

نزعت لورا نظارتها الشمسية لكنها لم تنظر نحوى.

وقالت: "وعود الآخرين ليست خطأى. لقد تخلص منى أبى إليك. فلم يكن يعرف أبدًا ماذا يفعل بى – بل بنا. لكنه مات الآن. كلاهما مات، فالأمر على ما يرام. أنا أحلك من الوعد. فأنت حرة من القيد."

"لورا، ماذا حدث؟"

قالت: "لا شيء. لكن كل مرة أحاول أن أفكر – وأرتب الأمور – تقررين أننى مريضة وتبدئين الإلحاح علىَّ. فذلك يدفعنى إلى الجنون."

قلت: "ليس فى ذلك إنصاف. فلقد حاولت مرارًا، وأصدقك مهما اكتنف الشك ما تقولين، أمنحك دائمًا أقصى..."

قالت: "فلندع ذلك وشأنه. انظرى، كم هى لعبة تافهة حمقاء! أتعجب لماذا يطلقون عليها لعبة الحلقات؟"

عزوت كل ذلك إلى الحزن القديم – التفجع على أفيليون وكل ما حدث فيها. أو لعلها مازالت تشتاق إلى أليكس توماس وتحلم به؟ كان يجب أن أطرح عليها مزيدًا من الأسئلة، كان يجب أن أصر، لكنى أشك أنه حتى لو فعلت ما كانت ستخبرنى بما يزعجها حقًا.

وأكثر ما أذكره من الرحلة، بخلاف لورا، النهب الذى استمر فى كل أنحاء السفينة، يوم أبحرنا إلى الميناء. فكل ما يحمل اسم "كوين مارى" أو حروفها الأولى ذهب إلى حقائب الأوراق أو الحقائب اليدوية – من ورق كتابة، وأدوات فضية من أدوات المائدة، ومناشف، وصبانات، وكل شىء – أى شىء غير مقيد فى الأرض بسلاسل. بل إن بعض الناس فكوا مقابض الصنابير، والمرايات الصغيرة، ومقابض الأبواب. وكان رواد الدرجة الأولى أسوأ من غيرهم؛ لكن الأغنياء دائما مصابون بداء السرقة.

فما هو التبرير المنطقى لكل ذلك السلب والنهب؟ التذكار. فهؤلاء الناس يحتاجون شيئًا يذكرهم. إنه شىء غريب أن نصطاد التذكارات، فيصبح الآن آنذاك حتى وهو لايزال الآن. فلا يصدق المرء نفسه أنه هناك ومن ثم يسرق الدليل، أو أى شىء يظنه كذلك.

أنا نفسى وليت الأدبار بمنفضة سجائر.

الرجل ذو الرأس المحترق

بالأمس تناولت حبة من الدواء الذى وصفه لى الطبيب. نعم لقد جعلتنى أنام، لكنى حلمت حلمًا ليس بأفضل من تلك الأحلام التى كانت تأتينى دون استخدام الدواء.

كنت أقف على المرفأ فى أفيليون، بينما يرن كالجرس من حولى الجليد المتكسر فى النهر والضارب نحو الاخضرار، لكنى لم أكن أرتدى معطفًا للشتاء – إنما ثوبًا قطنيًا منقوشًا تغطيه رسوم الفراشات. وأرتدى أيضًا قبعة من الورود

البلاستيكية صارخة الألوان – أحمر فى لون الطماطم وأرجوانى بشع – وتضيئها من الداخل مصابيح ضوئية صغيرة.

وسألت لورا بصوتها عندما كانت فى الخامسة من عمرها: "أين قبعتى؟" ونظرت إلى الأسفل نحوها، لكنا حينئذ لم نعد أطفالاً. فقد كبرت لورا مثلى؛ وكانت عيناها كزبيبتين جافتين. أرعبنى ذلك فاستيقظت.

كانت الثالثة صباحا. فانتظرت حتى كف قلبى عن الاحتجاج، وبعدها تحسست طريقى إلى أسفل وأعددت لنفسى لبنًا ساخنًا. كانت الحكمة تقتضى ألا أعتمد على أقراص الدواء. فلا يمكن شراء تغييب الوعى بثمن بخس هكذا.

لكن فلنواصل.

بمجرد هبوطنا من السفينة "كوين مارى" قضت مجموعتنا العائلية ثلاثة أيام فى نيويورك. كان لدى ريتشارد بعض الصفقات لعقدها؛ فقال إن بإمكان بقيتنا الذهاب فى جولة لمشاهدة معالم المكان.

لم تشأ لورا الذهاب لمشاهدة فرقة الروكيتى الغنائية الراقصة the Rockettes أو الصعود إلى قمة تمثال الحرية أو مبنى الإمبير ستات the Empire State Building. ولم ترغب أيضا فى التسوق. وقالت إنها إنما تريد التجول فى الشوارع والتطلع حولها، لكن ريتشارد قال إن من الخطورة أن تفعل ذلك بمفردها، ومن ثم ذهبت معها. لم تكن صحبة تمتلئ بالحركة والحيوية والنشاط – مما أراحنى بعد وينفريد التى كانت تصر على أن تكون مفعمة بالحركة والحيوية بقدر استطاعتها.

وبعد ذلك قضينا عدة أسابيع فى تورنتو، بينما لحق ريتشارد ببعض شئونه. وبعدها ذهبنا إلى أفيليون. قال ريتشارد إن بوسعنا الإبحار إليها. وحملت نبرته تلميحًا بأن ذلك هو الشىء الوحيد الذى يصلح له المكان؛ وأيضًا بأنه كان سعيدًا بالتضحية بوقته لإطلاق العنان لنزواتنا. أو بتعبير أرق "لإرضائنا" – أى إرضائى وإرضاء لورا أيضًا.

بدا لى أنه بدأ يعتبر لورا لغزًا يشغله حله. فأضبطه ينظر إليها فى أوقات كثيرة، بنفس الطريقة التى ينظر بها إلى صفحات سوق البورصة – باحثًا عن مقابضها وطريقة لفها والوصول إليها. فوفق رأيه فى الحياة كل شىء له مقابضه وطريقة للفه. إما ذلك وإما الثمن. أراد أن يجعل لورا طوع بنانه، أراد أن يجعل عنقها تحت قدمه، وإن كان يفعل ذلك برفق. لكن لورا ليست لديها ذلك العنق. ولذلك يبدو بعد كل محاولة من محاولاته واقفًا وإحدى ساقيه معلقة فى الهواء مثل وضعة صائد الدببة فى صورة اختفى منها الدب المذبوح.

كيف كانت لورا تفعل ذلك؟ ليس بمعارضته، فهى لم تعد تفعل ذلك: لكنها كانت فى ذلك الوقت تتجنب الصدام معه وجهًا لوجه. فكانت تقاومه بالتراجع والانصراف عنه، فتجعله يفقد توازنه. وهو كان دائمًا يندفع تجاهها، دائمًا يحاول القبض عليها، ودائمًا يقبض على الهواء.

فهو إنما كان يريد موافقتها، بل إعجابها. أو ببساطة شعورها بالامتنان. شيئًا من هذا القبيل. فمع فتاة صغيرة غيرها لربما جرب الهدايا – عقدًا من اللؤلؤ، أو سترة من الكشمير – أشياء من المفترض أن تتوق إليها الفتيات فى السادسة عشرة. لكنه كان يعلم جيدًا أنه من غير الحكمة أن يجبر لورا على تلقى مثل هذه الأشياء.

رأيت أنه يحاول استنزاف الدماء من الحجارة. فلا يمكنه فهمها أبدًا. وهى لا ثمن لها، وذلك لأنه ما من شىء لديه ترغب فيه. فلو تنافست لورا على قوى الإرادة مع آخرين مهما كانت قدراتهم لراهنت عليها. فبطريقتها الخاصة هى عنيدة كخنزير.

ظننتها ستنقض لاقتناص الفرصة لقضاء بعض الوقت فى أفيليون – فقد كانت عازفة بشدة عن تركها – لكن عندما ذكرت الخطة، بدت غير مبالية. فهى لم تشأ أن تعترف بفضل ريتشارد فى شىء، أو هكذا كانت قراءتى للموقف. فلم تزد عن قولها: "على الأقل سنرى رينى."

قال ريتشارد: "يؤسفنى القول بأن رينى لم تعد تعمل لدينا. فقد طلبت منها ترك العمل."

متى حدث هذا؟ منذ فترة. فهل حدث منذ شهر أم عدة أشهر؟ كان ريتشارد غامضًا ولم يفصح. وقال إنه أمر يتعلق بزوج رينى الذى كان يسرف فى الشراب. ومن ثم لم تتم إصلاحات المنزل فى حينها، وعلى نحو يرضى أى شخص عاقل، ولم يجد ريتشارد مبررًا لدفع مبلغ كبير من المال نظير الكسل، وما يطلق عليه العصيان والتمرد.

قالت لورا: "إنه لم يرد أن تتواجد رينى معنا فى نفس وقت وجودنا بالمكان. فهو يعرف أنها ستتحيز."

كنا نتجول فى الطابق الرئيسى من أفيليون. بدا المنزل نفسه وقد انكمش حجمه؛ وغطى الأثاث بملاءات تحميه من التراب، أو ما تبقى من الأثاث – فقد أزيلت منه بعض القطع الضخمة والداكنة حسب أوامر ريتشارد على ما أظن. أتصور وينفريد وهى تقول إنه لا يمكن أن يعيش أحد بصوان سفرة مزين بإكليل من عناقيد العنب الخشبية الضخمة التى تخلو من جمال. كانت الكتب ذات الأغلفة الجلدية لا تزال فى المكتبة، لكن راودنى إحساس بأنها قد لا تبقى هناك بعد ذلك. وكانت قد أزيلت صور رؤساء الوزارات مع جدى بنيامين؛ فلابد أن أحدًا – ريتشارد بلا شك – لاحظ أخيرًا وجوههم الملونة بأقلام البستل.

فى عهد من الزمان بدت أفيليون راسخة ثابتة تستعصى على التغيير – جلمود قصير مكتنز سقط فى مجرى الزمن، واستعصى تحريكه على أى إنسان – لكنها الآن اهترأت بفعل الزمن فبدت وكأنها تعتذر عما اعتراها، وكأنما توشك على الانهيار من تلقاء نفسها. فلم تعد تتمتع بجسارة ما كان لها من غرور وخيلاء.

قالت وينفريد إن كل ما بالمنزل يثبط الهمم، فكم يغطى الغبار كل شىء، وتنتشر الفئران بالمطبخ، كما أنها رأت فضلات الطيور اليابسة وكذلك حشرات السُميكة. وكان الخادمان ميرجاترويد سيصلان فى وقت متأخر من ذلك اليوم بالقطار، ومعهما خادمان آخران أضيفا إلى حاشيتنا، وبعدها يصبح كل شىء منسقًا ومرتبًا على أكمل وجه وكأنه سفينة معدة للإبحار، ما عدا بالطبع (قالتها وهى تضحك) السفينة نفسها، والتى قصدت بها "واتر نيكسى". وكان ريتشارد وقتها فى

عنبر القوارب يتفحصها. فكان من المفترض قشط دهانها وإعادة طلائها بإشراف رينى ورون هينكس، لكن كان ذلك ضمن الأشياء التى لم تنفذ. وعجزت وينفريد عن رؤية ما يريده ريتشارد بذلك المركب القديم المتهالك - فإذا كان يتوق حقا للإبحار، فليغرق ذلك الديناصور العجوز ويشترى مركبًا آخر جديدًا.

قلت: "أعتقد أنه يظن أن لها قيمة عاطفية. أعنى بالنسبة لنا أنا ولورا."

فقالت وينفريد بابتسامتها المرحة: "وهل هى كذلك؟"

قالت لورا: "كلا. ولماذا تكون كذلك؟ فلم يصحبنا أبى أبدًا للإبحار بها. إنما صحب كالى فيتسيمونز وحدها."

كنا فى حجرة الطعام، فعلى الأقل لاتزال بها المائدة الطويلة. وتساءلت ماذا عساى أن يكون قرار ريتشارد، أو على الأحرى وينفريد، فيما يتعلق بتريستان وإيسولت وقصة حبهما الجامدة التى لا تساير العصر.

قالت لورا: "حضرت كالى فيتسيمونز الجنازة". وكنت أنا وهى بمفردنا، إذ صعدت وينفريد إلى أعلى لتحصل عما كانت تسميه راحة من أجل الجمال. ووضعت على عينيها من أجل ذلك لفائف قطنية مبللة بعصارة نباتية خاصة، وغطت وجهها بمستحضر من الصلصال الأخضر غالى الثمن.

"حقا؟ لم تخبرينى."

"نسيت، كانت رينى فى شدة الغضب منها."

"لحضورها الجنازة؟"

"لعدم حضورها مبكرًا. كانت بالغة الوقاحة معها. فقالت 'تتأخرين ساعة وأنت لا تساوين قرشًا'"

"لكنها تكره كالى! كانت دائما تكرهها عندما تأتى للإقامة! كانت تظنها عاهرة!"

"أظنها لم تكن عاهرة بما يكفى لتقبلها رينى. فلقد تكاسلت وتقاعست عن العمل."

"كعاهرة؟"

"نعم، فقد رأت رينى أنه كان عليها الاستمرار. فعلى الأقل كان لابد من وجودها عندما كان أبى يمر بتلك الصعاب. فكانت ستلهيه عما يشغله من أمور."

"أقالت رينى كل هذا؟"

"ليس بالضبط، لكن يمكن معرفة ماذا تقصد."

"وماذا فعلت كالى؟"

"تظاهرت بأنها لم تفهم. وبعدها فعلت مثلما يفعل كل من يحضر جنازة. بكت وتفوهت بالأكاذيب."

فقلت: "أى أكاذيب؟"

"قالت رغم أنهما اختلفا دائما فى الرأى السياسى، إلا أن أبى كان رائعًا، إنسانًا رائعًا. وقالت رينى: 'الرأى السياسى أيتها العاهرة' لكن من ورائها."

قلت: "أعتقد أنه حاول أن يكون كذلك. أعنى أن يكون رائعًا."

قالت لورا: "نعم، لكنه لم يجتهد فى محاولته. ألا تتذكرين ما اعتاد قوله؟ 'إننا تركنا له ليحملنا على عاتقه' وكأننا حمل من القاذورات ينوء به."

فقلت: "لكنه اجتهد قدر استطاعته."

"أتتذكرين الكريسماس الذى ارتدى فيه ملابس سانتا كلوز؟ كان ذلك قبل وفاة أمى. وكنت قد بلغت عامى الخامس فى التو."

قلت: "نعم. وهذا ما أقصده بأنه حاول."

قالت لورا: "كرهت ذلك. فأنا دائما أكره ذلك النوع من المفاجآت."

طلبوا منا الانتظار فى حجرة الثياب الخارجية. كانت الأبواب الزوجية المؤدية إلى الردهة مغطاة من الداخل بستائر شبكية رقيقة، ومن ثم لم نتمكن من النظر خلالها إلى الردهة الخارجية المربعة والتى كانت تضم مدفأة على الطراز القديم؛ وفى ذلك المكان أقيمت شجرة الكريسماس. وكنا نجلس على طرف الأريكة فى حجرة الثياب وخلفنا مرآة مستطيلة. وكانت المعاطف معلقة على المشجب المستطيل. معاطف أبى ومعاطف أمى، وفوقها القبعات – قبعاتها بريش كبير وقبعاته بريش صغير. وكانت تفوح بالمكان رائحة أحذية وقائية من المطاط، ورائحة حديثة لعرق شجر الصنوبر والأرز منبعثة من أكاليل الزهور الملتفة على درابزين السلالم الخارجية، وكانت رائحة الشمع تفوح من ألواح الأرضية الدافئة، لأن الفرن كان موقدًا: وأصدرت مشعاعات التدفئة قعقعة وهسهسة. ومن تحت عتبة النافذة كانت تهب نفحات باردة ورائحة الجليد القاسية المنعشة.

كان بالحجرة ضوء رأسى وحيد، يلقى بظل حريرى أصفر. وفى الأبواب الزجاجية كنت أرى انعكاس صورتينا: ثوبينا من القطيفة الزرقاء ذوى الياقة المزينة بشريط، ووجهينا الأبيضين، وشعرينا الأشقر الفاتح المفترق من المنتصف، وقد طوت كل منا يديها فى حجرها. وكذلك جواربنا البيضاء وأحذيتنا من ماركة مارى جينز. وكنا قد تعلمنا أن نجلس وقد تصالبت إحدى قدمينا على الأخرى – ولا نضع أبدًا ركبة فوق أخرى – وهكذا كنا نجلس. وكانت المرآة ترتفع فوقنا كأنها فقاعة زجاجية تخرج من قمة رأسينا. وكنت أسمع صوت أنفاسنا تدخل وتخرج، الأنفاس فى حال الانتظار. فكانت تبدو كأنما شخص آخر هو الذى يتنفس – شخص ضخم لكنه مختف، يختبئ داخل المعاطف فيخرج صوته مكتومًا.

وفجأة انفتحت الأبواب. وظهر رجل فى رداء أحمر، عملاق أحمر يرتفع عاليًا. ووراءه كان ظلام الليل ووهج لهب ساطع. وقد احتجب وجهه بدخان أبيض. وكان رأسه يشتعل. واندفع نحو الأمام مادا ذراعيه. ومن فمه خرج صوت زعقة أو صرخة.

جفلت للحظة، لكنى كنت كبيرة بما يكفى لأعرف مـــا يفتـــرض أن يكـــون. فالصوت قصد به أن يكون ضحكا. فما كان الرجل إلا أبى متظاهرًا بأنـــه ســـانتا كلوز، وهو لم يكن يحترق – إنما هى الشجرة المضاءة خلفه، وإكليل الشموع فوق رأسه. وكان يرتدى عباءته المنزلية الحمراء المقصبة بالخلف ووضع لحيـــة مـــن عصى من القطن.

اعتادت أمى القول بأنه لا يعرف مدى قوته: فلم يعرف أبدًا كم يبدو ضخمًا بالنسبة لأى شخص آخر. فلم يعرف كم يمكن أن يبدو مخيفًا. وقد أخاف لورا بالفعل.

قلت: "صرخت أنت وصرخت. فلم تفهمى أنه إنما يتظاهر ويمثل."

قالت لورا: "كان الأمر أسوأ من ذلك. فكنت أظنه يتظاهر سائر الوقت."

"ماذا تقصدين؟"

قالت لورا فى صبر: "تلك كانت حقيقته التى كان عليها. أى أنه كان يحترق من الداخل طوال الوقت".

"واتر نيكسى"

هذا الصباح استغرقت فى النوم لساعة متأخرة، منهكة بعد ليلة من التجول فى الظلام. كانت قدماى متورمتين، وكأننى كنت أسير مسافات طويلة على أرض صلبة؛ وشعرت برأسى مسامية رطبة. أيقظنى طرق ميرا على الباب. وكانت تردد بصوت منغم من فتحة الخطابات: "انهضى وأشرقى". ورغبة منى فى مشاكستها، لم أجب. فربما تظننى مت – زهقت روحى أثناء النوم. ولا شك أنها كانت تفكر حائرة فى أى من أثوابى ذات النقوش الوردية ستخرجنى، وترتب لأصناف الطعام التى ستقدم فى حفل الاستقبال التالى للجنازة. فلا يمكن أن يسمى ذلك إيقاظًا، فلا شيء بمثل هذه الوحشية. فالإيقاظ أن يوقظك شخص، وهو أيضًا ما يحدث للتأكد من أن الموتى موتى بالفعل قبل مواراتهم التراب.

وابتسمت للفكرة. وهنا تذكرت أن ميرا معها مفتاح. وفكرت فى أن أسحب الغطاء على وجهى لأمنحها على الأقل دقيقة واحدة من الرعب الباعث على السرور، لكنى فضلت ألا أفعل. فاعتدلت ونهضت من الفراش، وسحبت فوقى عباءتى المنزلية.

وناديت من بئر السلم: "انتظرى واكبحى جماحك."

لكن ميرا كانت قد دخلت بالفعل، ومعها كانت المرأة، عاملة النظافة. وكانت كائنا ضخمًا متين البنية عليها مسحة برتغالية، وما من سبيل لإبعادها وتحاشيها. فقد شرعت فى العمل مباشرة مستخدمة مكنسة ميرا الكهربائية – فلقد فكرا فى كل شىء – بينما كنت أتابعها هنا وهناك وأصيح مثل جنية الموت: "لا تلمسى هذا! اتركى ذلك فى مكانه! أستطيع أن أفعل ذلك بنفسى! لن أتمكن من العثور على شىء الآن!" لكنى على الأقل ذهبت إلى المطبخ قبلهما، وكان لدى الوقت كى أدفع إلى الفرن بكومة أوراقى المكتوبة فى خربشة سريعة. فمن غير المحتمل أن تضيف المرأة تنظيف الفرن إلى أعباء أول يوم عمل لها. وعلى كل فهو ليس شديد القذارة، فأنا لا أخبز شيئًا على الإطلاق.

وبعد أن انتهت المرأة من عملها، قالت ميرا: "ها هو كل شىء نظيف ومرتب. ألا يمنحك ذلك شعورًا أفضل؟"

وكانت أحضرت لى شيئًا من محل "جينجر بريد هوس" – غرسة زعفران خضراء فى لون الزمرد، ومجذوذة قليلاً على شكل رأس فتاة تبتسم على استحياء. ومن المفترض أن ينمو الزعفران من الثقوب التى بالأعلى ويخرج متفتحا فى "هالة مستديرة"؛ تلك كانت كلماتها بالضبط. وتقول ميرا إنها لا تحتاج سوى أن أرويها، وسرعان ما تصبح ظريفة كزر.

وكما اعتادت رينى القول: "للرب أساليبه الخفية فى الإتيان بالعجائب." فهل يمكن أن تكون ميرا ملاكى المنوط به حراستى؟ أم على العكس، فلعلها تكون مقدمة للمطهر؟ لكن كيف لنا أن نفرق بين الشيئين؟

في يومنا الثاني في أفيليون، ذهبت أنا ولورا لزيارة ريني. فلم يكن صعبًا معرفة مكان سكنها؛ فكل من بالبلدة كان يعرف المكان. أو كان يعرفه الناس في مطعم بيتي للوجبات السريعة حيث كانت تعمل آنذاك ثلاثة أيام في الأسبوع. لم نخبر ريتشارد ووينفريد بوجهتنا، فلا داعي لإضافة المزيد لجو البغض والنفور المحيط بمائدة الإفطار. لم يكن بوسع أحد أن يمنعنا تمامًا من الذهاب، لكن من المؤكد أننا كنا سنستدعي قدرًا مزعجًا من السخرية المقموعة.

وأخذنا معنا الدب الدمية الذي كنت قد اشتريته لطفل ريني من متجر سمبسون في تورنتو. لم يكن دمية تغري بالمعانقة والتدليل – فقد كان مشدودا ممتلئًا بالحشو وجامدًا. كان يبدو مثل موظف حكومي صغير، أو موظف حكومي من موظفي ذلك الوقت، فلا أدري كيف يبدون الآن. فعلى الأرجح أنهم يرتدون الجينز.

كانت ريني وزوجها يسكنان أحد المنازل الصغيرة المتلاصقة المبنية بالحجر الجيري، والتي كانت شيدت أساسًا للعاملين بالمصنع – منازل من طابقين ذات سطح مدبب ودورة مياه خلف الحديقة الضيقة – وهي ليست على مسافة بعيدة من حيث أعيش الآن. لم يكن لديهما هاتف، ومن ثم لم نتمكن من تنبيه ريني بقدومنا. فعندما فتحت الباب ورأتنا نحن الاثنتين بالخارج، ابتسمت ابتسامة عريضة، ثم بدأت تبكي. وبعدها بلحظة بكت لورا أيضًا. ووقفت أنا ممسكة بالدب الدمية أشعر أنني مهملة لأنني لم أكن أبكي مثلهما.

قالت ريني لنا نحن الاثنتين: "ليبارككما الرب. تفضلا لتريا الرضيعة."

سرنا عبر الممر المفروش بمشمع اللينوليوم نحو المطبخ. وكانت ريني طلته باللون الأبيض وأضافت ستائر صفراء، بنفس درجة اللون الأصفر التي كانت عليها الستائر في أفيليون. ولاحظت طقمًا من الأوعية الصغيرة باللون الأبيض أيضًا طبع عليها بالإستنسل الأصفر: دقيق، سكر، بن، شاي. لم أنتظر أن يخبرني أحد أن ريني قامت بتنسيق كل ذلك وتزيينه بنفسها. فأعدت هذه الأوعية، والستائر وكل ما تلمسه يداها. واستفادت من كل شيء أيما استفادة.

كانت الرضيعة - وهى أنت يا ميرا فلقد دخلت القصة آنذاك - ترقد فى سلة غسيل من الخوص المجدول، تحملق فينا بعينين مستديرتين لا تطرفان، تفوق زرقتهما تلك الزرقة التى تلون عيون الرضع عادة. ولأقل إنها بدت مثل بودنج دسم، لكن معظم الرضع يبدون هكذا.

أصرت رينى على أن تعد لنا قدحًا من الشاى. وقالت إننا شابتان الآن ويحق لنا تناول الشاى الحقيقى، وليس لبنا به قليل من الشاى، كما اعتدنا. زاد وزنها، فقد تهدل باطن ذراعيها، وكانا قويين مشدودين من قبل، وبينما كانت تخطو نحو الموقد كانت تتمايل بعض الشىء. كانت يداها متورمتين تغوص فيهما عقلات الأصابع.

قالت: "تأكلين لاثنين ثم تنسين أن تتوقفى. أرأيتما خاتم زواجى؟ لا أستطيع خلعه إلا إذا قص. فلابد أن أدفن به." وتنهدت فى رضا. وبدأت الرضيعة تضج، فحملتها رينى ووضعتها فوق ركبتها، ونظرت إلينا عبر المنضدة فى شىء من التحدى. وبدت المنضدة (وكانت خالية من الزينة وعليها مفرش من القماش المشمع منقوش بزهور التيوليب الصفراء) مثل شق كبير - على أحد جانبيه نحن الاثنتان، وعلى الجانب الآخر الذى صار بالغ البعد الآن رينى ورضيعتها، غير نادمة على شىء.

وعلام تندم؟ على هجرها لنا. أو هذا ما أردت الشعور به.

لاح شىء غريب فى تصرف رينى، ليس فى تصرفها مع الرضيعة، لكن فى تصرفها مع علاقتنا بالرضيعة - وكأننا ضبطناها متلبسة بشىء. ومن وقتها انتابتنى حيرة - ولتسامحينى يا ميرا فى ذكرى لذلك، وإن كان لا يجب أن تقرئى هذا لكن كما يقول المثل الشائع 'حب الاستطلاع قتل القطة' - من وقتها انتابتنى حيرة وتساءلت ما إذا كان والد تلك الرضيعة ليس رون هينكس على الإطلاق، إنما هو أبى نفسه. فقد كانت رينى الخادمة الوحيدة الباقية فى أفيليون، بعد أن رحلت أنا فى رحلة شهر العسل وكل ما حول أبى ينهار على رأسه. أفلا يمكن أن تكون

قدمت نفسها له ككمادات ملطفة، بنفس النية التى كانت تقدم له بها قدحًا من الحساء الدافئ أو زجاجة من الماء الساخن؟ كى تواسيه وتطمئنه فى البرد والظلام.

إذا كان الأمر كذلك، فأنت أختى يا ميرا. أو أنك أختى غير الشقيقة. فما من سبيل لمعرفة حقيقة الأمر، أو أننى لن أعرف أبدًا. فأقترح أن تخرجينى بعد الدفن، وتأخذى عينة من شعرى أو عظامى، أى شىء يستخدمونه، وترسلينها للتحليل. لكنى أشك فى أنك تذهبين ذلك المدى. أما الدليل الآخر الوحيد فهو سابرينا – يمكن أن تلتقيا وتقارنا شذرات نفسيكما. لكن كى يحدث هذا لابد لسابرينا أن تعود، ولا يعلم إلا الرب وحده ما إذا كانت ستعود يومًا. فربما كانت فى أى مكان. ربما ماتت. وربما كانت فى قاع البحر.

وأتساءل ما إذا كانت لورا تعرف ما حدث بين رينى وأبى؛ ذلك إذا كان هناك شىء بالفعل لتعرفه. أتساءل ما إذا كان ذلك بين العديد من الأمور التى تعرفها، لكن لم تفصح عنها أبدًا. يرجح ذلك تمامًا.

لم تمر الأيام فى أفيليون سريعًا. فكان الجو لايزال شديد الحرارة والرطوبة عالية. وانخفض منسوب المياه فى النهرين؛ فحتى الجنادل فى نهر اللفتوا كانت ثقيلة متلكئة، ورائحة كريهة تفوح من نهر الجوج.

فبقيت معظم الوقت بالمنزل جالسة على المقعد ذى المسند الجلدى فى مكتبة جدى رافعة ساقى على إحدى ذراعيه. وكانت قشور الذباب من الشتاء الماضى مازالت باقية على أعتاب النوافذ فى طبقات سميكة؛ فالمكتبة لم يكن لها الأولوية فى اهتمامات مسز ميورجاترويد. ومازالت صورة جدتى أديلا تتصدر المكان.

قضيت الأمسيات مع دفاتر الملصقات بما تحويه من قصاصات عن أنواع الشاى وزيارة الفابيانيين، والمستكشفين بعروضهم بالفانوس السحرى وحكاياتهم عن العادات المحلية الغريبة الطريفة. ولا أدرى لماذا يجد الناس غرابة فى أنهم يزينون جماجم أجدادهم. فنحن نفعل ذلك أيضًا.

وفى أحيان أخرى كنت أتصفح مجلات المجتمع، وأتذكر كم كنت يومًا أحسد الناس المكتوبة أخبارهم بها؛ أو كنت أبحث بين كتب الشعر بصفحاتها الرقيقة مذهبة الأطراف. فأجد أن القصائد التى كانت تستهوينى أيام مس فيولنس صارت تشعرنى بالسقم والمبالغة. "ياللوعتى! أضنانى الهم وأثقل كاهلى" ـــ إنها اللغة القديمة التى تعبر عن الحب غير المتبادل. فأضجرتنى تلك الكلمات التى تصف حال المحبين التعساء، والتى صرت أرى أنها تجعلهم يثيرون السخرية مثل مس فيولنس نفسها، تلك المسكينة التى لا تكف عن رثاء الذات. فهى لغة رقيقة الحواشى، غائمة وزلقة مثل قطعة حلوى سقطت فى الماء. فلاشىء ترغب فى لمسه.

ولاحت طفولتى بالفعل موغلة فى البعد – عهد قديم انقضى وذوى بحلاوته ومرارته، مثل الزهور الجافة. هل كنت أندم على فقده؟ هل تمنيت عودته؟ لا أظن ذلك.

لم تبق لورا بالمنزل. بل راحت تتنزه فى البلدة، كما اعتدنا من قبل. وارتدت ثوبًا أصفر من أثوابى فى الصيف السابق، ومعه القبعة الملائمة. وبينما كنت أتابعها من الخلف انتابنى إحساس غريب بأننى أشاهد نفسى.

لم تخف وينفريد ضجرها الذى وصل مداه. فكانت تذهب للسباحة يوميًا من الشاطئ الصغير الخاص بنا بجوار عنبر القوارب، مع أنها لم تذهب إلى مدى ذلك العمق، وإنما كانت تلهو بالماء القريب من الشاطئ مرتدية قبعة كبيرة بلون الماجنتا كتلك التى يرتديها العمال فى شرق أسيا. أرادت أن نصحبها أنا ولوْرا، لكننا رفضنا. فكلانا لا تعرف السباحة جيدًا، ذلك إضافة إلى أننا نعرف ما اعتاد الناس أن يتخلصوا منه بإلقائه فى النهر، والذى من المرجح أنه كان لايزال عالقًا به. وعندما لا تسبح أو تعرض نفسها لأشعة الشمس لاكتساب سمرتها، كانت وينفريد تطوف بالمنزل تكتب الملاحظات وتعد الرسوم التوضيحية والقوائم لما ينقص – فلابد من تغيير ورق الحائط فى الردهة الخارجية، فتحت الدرج آثار عفن جاف –

أو تذهب لنوم القيلولة فى غرفتها. فبدا أن أفيليون تستنفد طاقتها. وأراحنى أن أجد شيئًا يمكنه فعل ذلك بها.

وكان ريتشارد يتحدث فى التليفون مكالمات خارجية، أو يذهب إلى تورنتو طوال النهار. ويقضى ما بقى من الوقت دائرًا حول "واتر نيكسى"، يشرف على أعمال الإصلاح بالقارب. فذكر أن هدفه أن يجعل هذا الشىء قادرًا على الإبحار قبل رحيلنا.

كانت الجرائد تصل إلى ريتشارد يوميًا. وذات يوم قال على مائدة الغداء: "قامت حرب أهلية فى إسبانيا. على كل فقد كانت متوقعة منذ وقت طويل."

قالت وينفريد: "شىء بغيض."

فقال ريتشارد: "ليس بالنسبة لنا، طالما نظل بعيدين عنها. فليقتل الشيوعيون والنازيون بعضهم بعضًا - فسرعان ما يحترق الفريقان."

لم تكن لورا معنا على الغداء، بل كانت بالمرسى بمفردها، ليس معها سوى قدح من القهوة. فكثيرًا ما كانت تذهب إلى هناك، مما أثار قلقى وخوفى. كانت تستلقى على المرسى مدلية إحدى ذراعيها فى الماء، محملقة فى النهر كأنما سقط منها شىء وتبحث عنه فى القاع. ومع ذلك كانت المياه شديدة العتمة. فلا يرى فيها الكثير. إنما كل ما يمكن رؤيته حفنة من سمك المنو الفضى الصغير تظهر أحيانًا فى لمحات خاطفة مثل أصابع نشال.

وقالت وينفريد: "مازلت أتمنى ألا يكون ذلك قد حدث. فهو أمر مقيت جدًا."

قال ريتشارد: "يمكننا الاستفادة من الحرب. فربما تنتعش الأحوال مما يعوض الكساد. أعرف قليلاً من الناس ممن يعولون على ذلك. سيكسب البعض كثيرًا من الأموال." لم يكن أحد قد أخبرنى شيئًا عن حقيقة وضع ريتشارد المالى، لكنى كنت توصلت مؤخرًا للاعتقاد - معتمدة على كثير من التلميحات والإشارات

– أنه لا يملك القدر الكبير من المال كما ظننت من قبل. أو لعله لم يعد يملكه. فقد توقف تجديد أفيليون – أو تأجل – لأن ريتشارد لم يشأ إنفاق المزيد من الأموال. هذا حسبما ذكرت رينى.

قلت: "لماذا سيكسبون كثيرًا من الأموال؟" كنت أعرف الإجابة تمامًا، لكنى دأبت على عادة طرح أسئلة ساذجة لأرى ماذا سيقول ريتشارد ووينفريد. فلم أكن قد كففت بعد عن الاكتراث بالمقياس الانزلاقى للأخلاق الذى يطبقانه على شتى مناحى الحياة.

قالت وينفريد باقتضاب: "لأنه هكذا تسير الأمور. بالمناسبة لقد تم القبض على صديقتك."

فقلت على الفور: "أى صديقة؟"

"تلك المرأة المدعوة بكاليستا. تلك العاهرة العجوز صديقة أبيك. تلك التى تظن نفسها فنانة."

كرهت نبرة صوتها، لكنى لم أعرف كيف أقابلها. فقلت: "كانت بالغة الكرم معنا عندما كنا أطفالاً."

"بالطبع، كان لابد أن تكون هكذا، أليس كذلك؟

قلت: "كنت أحبها"

"لا شك فى ذلك. لقد تشبثت بى منذ شهرين، محاولة إقناعى بشراء بعض اللوحات القميئة أو الرسومات الحائطية أو ما شابه – مجموعة من النساء القبيحات يرتدين الأفرول. رسومات لا يمكن أن يختارها أحد لحجرة الطعام."

"لماذا يقبضون عليها؟"

"شرطة تعقب الشيوعيين، طوقوهم فى حزب شيوعى. لقد جاءت هنا، وكانت فى حالة هياج شديد. وأرادت التحدث إليك. ولم أجد سببًا لتوريطك فى الأمر، ولذلك قطع ريتشارد مسافة طويلة إلى البلدة وأخرجها بكفالة."

"ولماذا يفعل ذلك. فهو لا يكاد يعرفها."

فقالت وينفريد بابتسامة عذبة: "آه، إنما هى طيبة قلبه. مع أنه يقول دائمًا إن أولئك الناس يثيرون من المتاعب فى السجن أكثر مما يثيرونها فى الخارج، أليس كذلك يا ريتشارد؟ فهم ينبحون فى الصحف. انصفوا فى هذا واعدلوا فى ذاك. فربما هو يسدى معروفًا لرئيس الوزراء."

قال ريتشارد: "ألديكم مزيد من القهوة؟"

ويعنى ذلك أن تكف وينفريد عن الحديث فى الموضوع. لكنها واصلت: "أو لعله شعر بأنه يدين بذلك لأسرتك. فأرى أنك ربما تعتبرينها شيئًا من ميراث العائلة، مثل بعض أطقم المائدة القديمة التى تنتقل من يد إلى يد."

قلت: "أرى أن ألحق بلورا على المرسى. فهو يوم جميل."

كان ريتشارد يقرأ الجريدة طوال حديثى مع وينفريد، لكنه الآن رفع رأسه بسرعة وقال: "كلا، ابقى هنا. فأنت تشجعينها كثيرًا. اتركيها وشأنها وستتغلب على الأمر."

قلت: "أى أمر؟"

قال ريتشارد: "ما يغضبها ويفطر قلبها" والتفت برأسه ليطل عليها من النافذة، وهنا لاحظت للمرة الأولى بقعة خفيفة الشعر فى رأسه من الخلف، دائرة تظهر منها فروة رأسه وردية وسط شعره البنى. فسرعان ما يصاب بالصلع.

قالت وينفريد: "الصيف القادم سنذهب إلى موسكوكا. فلا يمكن القول بنجاح تجربة هذه الإجازة القصيرة."

وقرب نهاية إقامتنا قررت زيارة العلية. فانتظرت حتى انشغل ريتشارد بالحديث فى التليفون، ووينفريد تستلقى على مقعد قابل للطى على الشاطئ الرملى الضيق الخاص بنا وعلى عينيها منشفة مبللة بالماء. وهنا فتحت الباب المؤدى إلى سلم العلية، وأغلقته خلفى، وصعدت الدرج فى هدوء قدر الإمكان.

كانت لورا هناك بالفعل، تجلس على أحد الصناديق الكبيرة المصنوعة من خشب الأرز. ومن رحمة الله أنها قد فتحت النافذة، وإلا صار المكان خانقًا. وكانت رائحة الملابس القديمة وفضلات الفئران تعبئ المكان.

فالتفتت برأسها، دون إسراع. فلم أباغتها.

قالت: "مرحبًا. تعيش الخفافيش بالمكان."

قلت: "الأمر ليس مفاجأة لى." وكان بجوارها حقيبة ورقية من تلك المستخدمة فى حمل البقالة، فسألتها: "ماذا لديك هنا؟"

فبدأت تخرج الأشياء – أشياء صغيرة من سقط المتاع. منها إبريق الشاى الفضى الذى كان لجدتى أديلا، وثلاثة أقداح وأطباق من الصينى المرسوم باليد من صناعة دريسدن. وعدد قليل من الملاعق المحفور عليها الأحرف الأولى. وكسارة البندق التى على شكل تمساح، وزر صدفى من أزرار أكمام القمصان، ومشط على هيئة قوقعة سلحفاة مفقودة بعض أسنانه، وقداحة فضية مكسورة وحامل خال لقوارير خل المائدة.

فقلت: "ماذا تفعلين بهذه الأشياء؟ فلا يمكنك العودة بها إلى تورنتو!"

"أخفيها. فلا يمكن أن يدمرا كل شيء."

"من؟"

"ريتشارد ووينفريد. فهما على كل حال تخلصا من هذه الأشياء بإلقائها؛ فقد سمعتهما يتحدثان عن النفايات عديمة القيمة. فعاجلاً أو آجلاً سيتخلصان من كل مالا يحتاجانه. ولذلك أنقذ أشياء قليلة من أجلنا. سأتركها هنا فى أحد الصناديق الكبيرة. وهكذا تكون فى أمان، ونعرف مكانها."

قلت: "وماذا لو لاحظا ذلك؟"

فقالت: "لن يلاحظا. فلا شىء ذو قيمة حقيقية. انظرى، وجدت دفاتر تدريباتنا المدرسية القديمة. فلاتزال هنا فى المكان حيث تركناها. أتذكرين حين جئنا بها هنا إلى أعلى؟ من أجله؟"

لم تكن لورًا أبدًا بحاجة لذكر اسم أليكس توماس، فهو دائما "هو". ظللت لفترة أظنها يئست منه أو من فكرة تعلقها به، لكن اتضح الآن أنها لم تفعل.

قلت: "يصعب تصديق أننا فعلنا ذلك؛ أننا أخفيناه هنا بالأعلى، ولم يكتشف أحد أمرنا."

قالت لورا: "كنا حريصين" وشردت بتفكيرها للحظة ثم ابتسمت وقالت: "لم تصرفينى أبدًا فيما يتعلق بمستر إيرسكين. أليس كذلك؟"

أعتقد أنه كان لابد أن أكذب صراحة. لكنى فضلت الحل الوسط فقلت: "لم يعجبنى. فقد كان فظيعًا."

"لكن رينى صدقتنى. أين تظنينه موجودا؟"

"مستر إيرسكين؟"

"أنت تعرفين من." وصمتت قليلا والتفتت لتتطلع من النافذة مرة أخرى، ثم قالت: "ألازالت لديك صورتك؟"

فقلت: "لورا، لا يجب أن تتحدثى كثيرًا عنه. فلا أظنه سيعود ليظهر مرة أخرى. فهو أمر مستحيل الحدوث."

"لماذا؟ أتعتقدين أنه مات؟"

قلت: "ولماذا يمكن أن يكون مات؟ لا أظنه مات. إنما أعتقد أنه رحل لمكان آخر."

قالت لورا: "على كل، فلم يقبضوا عليه، وإلا سمعنا بالأمر. ولكانت الصحف نشرت الخبر." وجمعت دفاتر التدريبات القديمة ودستها فى الحقيبة الورقية.

أقمنا فى أفيليون فترة أطول مما ظننت، وبالطبع أطول مما أردت؛ فقد شعرت أننى محاصرة هناك، محبوسة، ولا أستطيع التحرك.

فى اليوم السابق على رحيلنا المزمع، هبطت إلى أسفل لتناول الإفطار، ولم يكن ريتشارد موجودًا؛ بل وينفريد وحدها وكانت تتناول بيضة. فقالت: "فاتنا الانطلاق الكبير."

"أى انطلاق كبير؟"

فأشارت إلى المنظر الممتد أمامنا والذى كان يظهر نهر اللفتوا من ناحية، واللوج من الناحية الأخرى. فأدهشنى رؤية لورا على واتر نيكسى تبحر فى النهر. كانت تجلس فى المقدمة كتمثال صدر السفينة. كان ظهرها ناحيتنا وريتشارد على عجلة القيادة. وكان يرتدى قبعة بحرية بيضاء بشعة المنظر.

"على الأقل لم يغرقا" قالتها وينفريد فى تلميح لاذع.

فقلت: "ألم ترغبى فى الذهاب؟"

"كلا بالطبع." وكان فى صوتها نبرة غريبة ظننت خطأ أنها الغيرة؛ فهى تحب أن تكون في مركز أى مشروع يقوم به ريتشارد.

شعرت براحة؛ فربما لانت لورا قليلاً الآن وتوقفت عن شن حملة التجميد الشديد. ربما بدأت تعامل ريتشارد على أنه إنسان وليس شيئًا خرج زاحفًا من تحت صخرة. وفكرت أن ذلك سيجعل حياتى أسهل دون شك. سيصفو الجو.

لكن ذلك لم يحدث؛ فكل ما حدث أن التوتر قد زاد، وإن صار معكوسًا: فأصبح ريتشارد الآن هو الذى يترك الحجرة عندما تدخل لورا. وبدا كأنه يخشاها.

وذات مساء بعد أن عدنا جميعا إلى تورنتو سألتها: "ماذا قلت لريتشارد؟"

"ماذا تعنين؟"

"ذلك اليوم عندما أبحرت معه على واتر نيكسى."

قالت: "لم أقل له شيئًا. ولماذا أفعل؟"

"لا أدرى."

قالت لورا: "لم أقل له شيئًا أبدًا، فلا شىء لدى لأقوله."

شجرة القسطل

أراجع ما كتبته فأعرف أنه خطأ، ليس بسبب ما خططته، لكن بسبب ما محوته. فما ليس موجودًا له حضور، مثل غياب الضوء.

تريدون الحقيقة بالطبع. تريدوننى أن أضيف اثنين إلى اثنين. لكن إضافة اثنين إلى اثنين لا يسفر بالضرورة عن الحقيقة. فاثنان واثنان يساوى صوتا خارج النافذة. اثنان واثنان يساوى الرياح. فالطائر الحى ليس هو نفسه ما تسمى به عظامه.

بالأمس استيقظت فجأة يدق قلبى بعنف. وكان صوت صلصلة يأتى من خارج النافذة؛ فكان شخص يقذف حصى على الزجاج. قفزت من الفراش وتلمست طريقى نحو النافذة، ورفعت إطارها المنزلق وتطلعت إلى الخارج. لم أكن واضعة نظارتى، لكنى كنت أرى بوضوح كاف. كان القمر بازغًا، يكاد يكون كامل الاستدارة، تعلوه خطوط معرقة كالعنكبوت مع ندب قديمة، وتحته ينعكس نحو السماء ضوء يكتنف المكان، يميل نحو البرتقالى، ينبعث من مصابيح الشارع. وأسفل النافذة بدا الرصيف مبرقشًا بالظلال نواريه فى بعض أجزائه شجرة القسطل فى الساحة الخارجية.

كنت أدرك أنه لا يجب أن توجد شجرة قسطل بذلك المكان؛ فتلك الشجرة تنتمى إلى مكان آخر، على بعد مائة ميل، خارج المنزل الذى كنت أعيش فيه مع ريتشارد. ومع ذلك فها هى الشجرة تشرع أغصانها مثل شبكة كثيفة صلبة وتضوى زهورها البيضاء كالعثة بضوء خافت.

تناهت إلىَّ صلصلة الزجاج مرة أخرى. لمحت هيئة شخص ينحنى؛ رجل يفتش فى صناديق القمامة، يهز زجاجات الخمر فى يأس راجيًا أن يكون بإحداها شىء متبق. سكير من أبناء الشوارع يدفعه الخواء والعطش. كانت حركاته مختلسة تشوبها عدوانية، وكأنه لا يبحث عن صيد إنما هو يتجسس – يفتش فى قمامتى بحثًا عن دليل ضدى.

وبعدها اعتدل وتحرك نحو جانب الطريق حيث الضوء أكثر سطوعًا، ونظر إلى أعلى. تمكنت من رؤية حاجبيه الداكنين، وتجويف محجرى عينيه، وابتسامته شق أبيض عبر وجهه البيضاوى الداكن. وأسفل فتحة العنق لمحت شحوبا؛ كان قميصا. رفع يده وحركها جانبًا. إشارة تحية أو لعلها إيماءة بالرحيل.

هو الآن يمشى مبتعدًا ولا يمكننى مناداته. فهو يعرف أننى لا أستطيع النداء. لقد رحل الآن.

شعرت بضغط خانق حول قلبى. "لا، لا، لا، لا." قالها صوت. وانهمرت الدموع على وجهى.

لكنى قلت ذلك بصوت مرتفع – صوت شديد الارتفاع، لأن ريتشارد كان قد استيقظ حينئذ. كان واقفًا بجوارى تمامًا. وكان على وشك أن يضع يده على عنقى.

حدث هذا عندما استيقظت بالفعل. رقدت ووجهى مبلل وعيناى مفتوحتان، أحملق فى الخواء الرمادى للسقف، أنتظر أن يهدأ قلبى. لم أبك كثيرًا بعد ذلك وأنا يقظة؛ إنما بضع دموع جافة بين حين وآخر. يدهشنى أن أجدنى أفعل ذلك.

فى مرحلة الشباب يظن المرء أن كل ما يفعله يمكن التخلص منه. فيتنقل من لحظة إلى لحظة على الفور، يطوى الزمن فى راحتيه ويقذف به بعيدًا. فيظن أنه هو نفسه سيارته المسرعة. يظن أن بوسعه التخلص من الأشياء والناس أيضًا – فيتركهم وراءه. لم يكن قد عرف بعد أنهم اعتادوا العودة.

الزمن يتجمد فى الأحلام. فلا يمكن أن يفلت المرء من حيث يكون.

كان هناك بالفعل صوت صلصلة، زجاج يقرع زجاجًا. قفزت من الفراش – من فراشى الحقيقى الذى أنام فيه بمفردى – وشققت طريقى نحو النافذة. كان اثنان من الراكون يفتشان بمخالبهما فى الصندوق الأزرق الخاص بالجيران عبر الشارع، يقلبان العلب والزجاجات. حيوانات قمامة تشعر بحريتها فى ساحة النفايات. نظرا نحوى إلى أعلى، بحذر ودون خوف وبدا قناعا اللصين الصغيرين أسودين فى ضوء القمر.

وقلت فى نفسى: حالفكما الحظ. خذا ما تستطيعان طالما تستطيعان أخذه. فمن يهتم إذا أصبح لكما؟ المهم ألا يضبطكما أحد.

وعدت إلى الفراش ورقدت فى الظلمة الكثيفة، أنصت إلى صوت أنفاس أعلم أنها ليست موجودة.

الفصل العاشر

ظلت لأسابيع تعانى القلق والتوتر. فذهبت لأقرب صيدلية واشترت ورق صنفرة للأظافر وطلاء شفاه برتقالى، وهى أشياء ثانوية، ثم طافت بين المجلات دون أن تلمسها، وحرصت ألا يلمحها أحد وهى تنظر، وراحت تتصفح العناوين بعينيها بحثا عن اسمه. كانت تبحث عن أى اسم من أسمائه. فهى تعرفها كلها الآن، أو تعرف معظمها؛ فقد تعودت أن تصرف له الشيكات.

"روائع القصص". "حكايات غريبة". "قصص مذهلة". مرت بعينيها عليها جميعًا. وأخيرًا عثرت على شىء. فلابد أنها هى: "الرجال السحالى من إكسينور: الحلقة الأولى المثيرة من سجلات حروب ذيكرون". وعلى الغلاف فتاة شقراء فى ملابس غريبة تقترب من الملابس البابلية، عباءة بيضاء مزمومة تحت الثديين غريبى الشكل بحزام ذى مشبك ذهبى، وعنقها محاط بالجواهر، ومن رأسها يبزغ هلال من الفضة. شفتاها نديتان، وفمها مفتوح، وعيناها واسعتان، يمسك بها كائنان ذوا مخالب ثلاثية الأصابع، وعيون أفقية البؤبؤ. لا يسترهما شىء سوى سراويل قصيرة حمراء. ووجوهما أسطوانية مسطحة، وتكسو الحراشيف جلودهما، فى ظلال لونية زرقاء مخضرة كسبائك البيوتر. يومضان ببريق أملس وكأنه دهن مصبوب؛ وتحت جلودهما الزرقاء ذات الظلال الرمادية تبرز عضلاتهم وتومض. ومن أفواههم الخالية من الشفاه تظهر أسنانهم العديدة الحادة كالإبر.

كانت تعرفهم أينما كانوا.

كيف لها الحصول على نسخة؟ ليس فى هذه الصيدلية حيث يعرفونها. فلا يمكن أبدًا أن تثير الشائعات بسلوك غريب من أى نوع على الإطلاق. وفى جولتها الشرائية التالية سلكت الطريق الأبعد إلى محطة القطار، وحددت موضع المجلة على حامل بيع الصحف هناك. قرش واحد دفعته دون أن تخلع قفازها، ولفت المجلة بسرعة ودستها فى حقيبة يدها. فرمقها البائع بنظرات غريبة، لكن هكذا يفعل الرجال.

احتضنت المجلة إلى صدرها فى السيارة الأجرة طوال الطريق إلى المنزل، وأخفتها وهى تصعد الدرج، ثم حبست نفسها معها فى الحمام. كانت يداها سترتعشان وهى تقلب الصفحات. فهى نوع من القصص يقرؤه المتشردون فوق عربات قطار البضائع، أو طلبة المدارس على ضوء مصباح الجيب. أو يقرؤها القائمون بحراسة المصانع فى منتصف الليل ليبقوا متيقظين؛ وكذلك البائعون فى الفـــنادق التى يقيمون فيها أثناء سفرهم بعد يوم غير مجدٍ، وقد فكوا أربطة العنق وفتحوا القمصان ورفعوا أقدامهم إلى أعلى وفى أيديهم الويسكى وقد صبوه فى أقداح فرش الأسنان. أو يقرؤها رجال الشرطة فى أمسية مملة. لكن لن يصل أى منهم إلى الرسالة التى هى بلا شك مخبأة فى مكان ما داخل سطور المطبوع. فهى رسالة موجهة لها وحدها.

كاد الورق لشدة نعومته يتفتت بين يديها.

هنا فى الحمام المغلق منشورة على ركبتيها فى ورق مطبوع سايكل نورن، مدينة آلاف الروائع – بألهواتها، وعاداتها، ونسجها الرائع للبسط، وأطفالها المستعبدين المقهورين وفتياتها العذارى على وشك التضحية بهن قرباناً. ببحارها السبعة، وأقمارها الخمسة، وشموسها الثلاثة؛ وجبالها الغربية ومقابرها المشئومة، حيث تعوى الذئاب وتتربص نساء جميلات لسن بأموات. ومؤامرة الانقلاب تنشر أذرعها الأخطبوطية فى أنحاء القصر، والملك ينتظر الفرصة المناسبة، بينما هو يخمن حجم القوى المتصدية له، والكاهنة الأعلى تمتلئ جيوبها بالرش.

والآن الليلة السابقة على القربان؛ والفتاة المختارة تنتظر فى فراش الموت. لكن أين القاتل الأعمى؟ ماذا حدث له ولحبه للفتاة البريئة؟ وفكرت أنه ربما يحتفظ المؤلف بذلك الجزء لما بعد.

وبعدها وبأسرع مما توقعت، هجم البرابرة الأجلاف، يستحثهم زعيمهم المهووس بفكرة واحدة. لكنهم ما لبثوا أن شقوا طريقهم داخل بوابات المدينة حتى لقيتهم مفاجأة؛ ثلاث سفن فضائية تهبط على السهل الممتد نحو الشرق. تشبه فى

هيئتها البيض المحمر أو كوكب زحل مقسومًا نصفين، وكانت آتية من إكسينور. ومنها خرج الرجال السحالى، بعضلاتهم الرمادية المتماوجة وسراويلهم القصيرة المغمورة بالمعدن وأسلحتهم المتقدمة. فلديهم بنادق إشعاعية، وحبال قنص كهربائية، وآلات طائرة تسع رجلاً واحدًا. وشتى أنماط الابتكارات الآلية الصغيرة بالغة الحداثة والترف.

غير الغزو المفاجئ أمور الحياة بالنسبة لأهالى ذيكرون. فنسى الجميع - همجيون ومهذبون، شاغلوا مناصب سياسية وثوار، أسياد وعبيد - كل ما بينهم من اختلافات وتحالفوا. فذابت الحواجز الطبقية - نبذ السانيلفارد ألقابهم القديمة، وكذلك أقنعة وجوههم وشمروا عن سواعدهم يزيلون الحواجز بينهم وبين اليوجنيرود. وصار الجميع يحيون بعضهم بعضًا باسم "تريستوك"، وتعنى تقريبًا "من تبادلت معه الدماء"، أى أخ أو رفيق. وتم اصطحاب النساء وحبسن فى المعبد حفاظًا على سلامتهن، وكذلك الأطفال. وتولى الملك المسئولية. وتم الترحيب بقوات البرابرة فى المدينة بسبب مهارتهم الفائقة فى المعارك. فصافح الملك أرباب المسرات، وهم عزموا على المشاركة فى القيادة. وقال الملك فى اقتباس لمثل قديم "قبضة اليد أكبر من مجموع أصابعها". وقبل فوات الآوان أغلقت بوابات المدينة الثمانية.

حقق الرجال السحالى نجاحًا أوليًا فى الحقول النائية عن المدينة مستفيدين فى ذلك من عنصر المفاجأة. وأسروا قليلاً من النساء وحبسوهن فى أقفاص، ومن بين القضبان سال لعاب عشرات الجنود عليهن اشتهاء. لكن حينئذ تراجع الجيش الإكسينورى؛ فقد عطلت عن العمل بنادقهم الإشعاعية التى يعتمدون عليها بسبب اختلاف قوى الجاذبية على كوكب ذيكرون، ولم تكن لحبال القنص الكهربائية فعالية سوى فى نطاق قريب، ووقتها كان سكان ساكيل نورن على الجانب الآخر من سور سميك. ولم يكن لدى الرجال السحالى ما يكفى من الآلات الطائرة ذات الرجل الواحد لنقل قوات هجومية مناسبة لاحتلال المدينة. وكانت القذائف المدفعية تنهال من خلف المتاريس على كل من يقترب من الرجال السحالى؛ فقد اكتشف أهالى ذيكرون أن السراويل المعدنية التى يرتديها الإكسينوريون قابلة للاشتعال عند درجة حرارة عالية. فكانوا يقذفونهم بكرات من القار المشتعل.

أصيب قائد السحالى بنوبة صراخ وسقط خمسة من علمائهم صرعى؛ ومن الواضح أن إكسينور ليست ديمقراطية. فشرع من بقى منهم أحياء فى العمل لحل المشكلات التقنية. وحيث إن لديهم ما يكفى من الوقت والمعدات، زعموا أن بإمكانهم إذابة أسوار سايكل نورن. وأن بوسعهم أيضا اختراع غاز يفقد الذيكرونيين الوعى. وحينئذ يمكنهم ممارسة شرورهم بحرية.

تلك هى نهاية الحلقة الأولى. لكن ماذا حدث لقصة الحب؟ أين القاتل الأعمى والفتاة مقطوعة اللسان؟ فلقد نسيت الفتاة فى غمرة الارتباك – ففى آخر ظهور لها كانت مختبئة تحت الفراش المقصب الأحمر – ولم يظهر الأعمى على الإطلاق. فعادت إلى الصفحات تفرها بسرعة، لعل شيئًا فاتها. لكن كلا لم يفتها شىء، إنما اختفى الاثنان ببساطة.

ربما تسير الأمور على ما يرام فى القصة التالية من قصص الإثارة. ربما يبعث لها رسالة فيها.

تعلم أن فى انتظارها هذا شيئا من الجنون – فهو لن يبعث لها رسالة، أو لو فعل، فلن تصلها بهذا الطريق – لكنها لا تملك من ذلك الشعور فكاكًا. فتلك الخيالات ينسجها الأمل، وذلك السراب يبعثه الشوق – فالأمل يحرك الأمل، والشوق ينتهى إلى خواء. ربما خرف عقلها، ربما تحيد عن الصواب، ربما تكون فى طريقها إلى أن تصبح بلا مفصلات. "بلا مفصلات" مثل الباب المكسور، والبوابة المتصدعة، والخزانة المعدنية الصدئة. فعندما تكون بلا مفصلات، تخرج منك أشياء يجب أن تكون محفوظة بالداخل، وتدخل إليك أشياء يجب أن تحجب بعيدًا. فتفقد الأقفال قوتها، وينام الحراس، وتفشل كلمة المرور.

وتقول فى نفسها، ربما أكون قد هُجرت. "هجرت" كلمة مستهلكة، لكنها تصف مأزقها تمام الوصف. فأن يهجرها شىء قد يخطر لها أنه يفعله. ودونما تفكير يمكن القول إنه يموت من أجلها، لكن الحياة من أجلها شىء آخر. فهو ليس موهوبًا فى تحمل الرتابة.

ورغم حصافة تفكيرها راحت تنتظر وتراقب شهرًا وراء شهر. أخذت ترتاد الصيدليات ومحطة القطار، وتتفقد كل ما يصادفها من حاملات بيع الصحف. لكن القصة التالية من قصص الإثارة لم تظهر أبدًا.

جريدة ماى فير، مايو ١٩٣٧

أخبار الناس فى تورنتو فى عز الظهر

بقلم: يورك

حل شهر إبريل هذا العام وثابًا مرحًا كالحمل، يستوحى مزاج المتعة المفعم بالحيوية، فالربيع يخفق بحفيف البهجة عند قدومه ورحيله. فقد عاد مستر ومسز هنرى رايدل من رحلة شتاء قصيرة فى المكسيك، وعاد مستر ومسز جونسون ريفز بالسيارة من معتزلهما فى فلوريدا ببام بيتش، وعاد مستر ومسز تى بيرى جرانج من جولتهما البحرية بين جزر الكاريبى المشمسة، بينما قامت مسز أر ويستر فيلد وابنتها دافنى بزيارة لفرنسا وإيطاليا كذلك "إذا سمح موسولينى"، بينما سافر مستر ومسز دبيو مكليلاد إلى اليونان الأسطورية. أما عائلة ديومنت فليتشر ففوتت موسمًا رائعًا فى لندن ودخلت إلى مسرحنا المحلى مرة أخرى، فى الموعد المحدد تمامًا لمهرجان دومينيون المسرحى وذلك لأن مستر فلتشر أحد محكميه.

وفى ذات الوقت كان هناك ظهور من نوع آخر فى إطار من المناظر الفضية والأرجوانية الفاتحة فى القاعة الأركادية حيث شوهدت مسز ريتشارد جريفون (مس أيريس مونتفورت تشاس سابقًا) فى حفل غداء أقامته أخت زوجها مسز وينفريد "فريدى" جريفون بريور. كانت السيدة الشابة مسز جريفون الجميلة دائمًا أحد أهم عرائس العام الماضى ترتدى ثوبًا أنيقًا من الحرير باللون الأزرق السماوى مع شابو باللون الأخضر النيلى وتتلقى التهانى بقدوم ابنتها أيمى أديلا.

وابتهجت أسرة بليادس بقدوم نجمتهم الزائرة، مس فرانسيس هومر، بطلة الأعمال التمثيلية المفردة الشهيرة، والتى قدمت مرة أخرى فى قاعة إيتون المسرحية مسلسل "نساء ديزنى"، حيث تجسد شخصيات نسائية من التاريخ ومدى تأثيرها على حياة شخصيات عالمية هامة مثل نابليون، وفرديناند ملك إسبانيا، وهوراشيو نيلسون وشكسبير. فتألقت مس هومر بذكاء وحيوية فى دور نيل جين؛

وكانت رائعة فى دور الملكة إيزابيلا ملكة إسبانيا، وجاء أداؤها لشخصية جوسفين مبهجًا فى دقة محاكاته للشخصية، وفى دور ليدى إيما استطاعت أن تبعث الشفقة والأسى فى نفوس المشاهدين. وفى مجمله، جاء العرض بديعًا وساحرًا.

واختتمت الأمسية بحفل عشاء بوفيه مفتوح لأسرة بليادس وضيوفها استضافته مسز وينفريد جريفون بريور فى القاعة المستديرة بسخاء.

خطاب من بيلا فيستا

مكتب المدير،

ملجأ بيلا فيستا،

أرنبرير، أونتاريو

١٢ مايو، ١٩٣٧

مستر ريتشارد إى جريفون،

رئيس ورئيس مجلس إدارة مصانع جريفون – تشاس الملكية المتحدة المحدودة

٢٠ كينج ستريت ويست، تورنتو، أونتاريو

عزيزى ريتشارد:

سعدت بلقائك فى فبراير – وإن كانت مناسبة حزينة – ومصافحتك ثانية بعد سنوات عديدة. فقد جذبتنا الحياة فى اتجاهات شتى منذ "أيام الحكم الذهبية الماضية."

وفى رسالة أشد حزنًا، يؤسفنى أن أخبرك أن حالة أخت زوجتك الشابة، مس لورا تشاس، لم تتحسن، وإن كان حدث بها تغير فقد ساءت بعض الشيء. فقد ترسخت الأوهام التى تعانى منها. وفى رأيى، أنها ما زالت خطرًا على نفسها،

ولابد من وضعها تحت ملاحظة مستمرة، مع استخدام المهدئات عند الضرورة. لم تكسر مس لورا مزيدًا من النوافذ، وإن كانت هناك حادثة استخدمت فيها المقص؛ ومع كل سنفعل قصارى جهدنا لتجنب تكرار مثل ذلك.

ومازلنا نقوم بكل ما فى وسعنا. ومتاح الآن عدة وسائل جديدة للعلاج نأمل أن يحدث تطبيقها تأثيرًا إيجابيًا، وخاصة "العلاج باستخدام الصدمات الكهربائية" والذى سنحصل على معداته قريبًا. وبعد إذنك سنستخدم هذا إلى جانب العلاج بالأنسولين. ولدينا أمل كبير أن يحدث التحسن فى النهاية، وإن كانت تنبؤاتنا الطبية تؤكد أن مس تشاس لن تسترد قوتها وعافيتها على الإطلاق.

رغم ما يبعثه ذلك من كدر وحزن، إلا أنه لا مناص من أن أطلب إليك أن تمتنع أنت وزوجتك فى الوقت الحالى عن زيارة مس تشاس أو مراسلاتها فى الوقت الحالى، حيث إنه من المؤكد أنه سيكون لاتصال أى منكما بها تأثير مثبط للعلاج. وكما تعرف، فأنت نفسك محور تعلق مس تشاس الدائم.

سأكون فى تورنتو الأربعاء من هذا الأسبوع، وأتطلع إلى حديث خاص معك - فى مكتبك، فحيث إن زوجتك الشابة حديثة عهد بالأمومة فلا يجب مضايقتها دون داعٍ بتلك الأمور المزعجة. وحينئذ سأطلب منك توقيع استمارات الموافقة اللازمة المتعلقة بسبل العلاج التى نقترحها.

ومرفق فاتورة الشهر الماضى للبت العاجل بشأنها.

المخلص

د. جيرالد بى. ويزرسبون

تشعر أنها ثقيلة وملوثة، مثل حقيبة لغسيل لم يغسل. وفى الوقت نفسه خاوية لا شيء فيها.صفحة خاوية لا يتميز عليها شيء سوى حروف مطبوعة بلا لون لتوقيع، ليس توقيعها. قد يكتشفه مخبر شرطى، أما هى نفسها فلا تهتم. لا تهتم بأن تنظر.

لم تتخلّ عن الأمل، إنما طوته؛ فهو ليس للارتداء اليومى. وفى نفس الوقت لابد من مراعاة الجسد. فلا فائدة من عدم تناول الطعام. فلابد من الاحتفاظ بحضور الذهن، والغذاء يساعد على ذلك. وكذلك أيضًا الأشياء الصغيرة التى تبهج النفس: الاستعانة بالزهور، وأولها التيوليب على سبيل المثال. فلا فائدة من التشوش. لا فائدة من الجرى فى الشارع حافية القدمين أصرخ "حريق!" فمن المؤكد أن الناس سيلاحظون أنه لا حريق بالفعل هناك.

فأفضل الطرق للاحتفاظ بسر التظاهر بأنه لا يوجد سر. وقالت للتليفون: "أنت كريم جدًا. لكن أعتذر بشدة فلا أستطيع إجراء مكالمة. فأنا مكبلة."

وفى بعض الأيام – خاصة تلك الأيام الصافية الدافئة – تشعر أنها تدفن حية. فتصبح السماء قبة من الحجر الأزرق والشمس حفرة مستديرة بها ينفذ منها ضوء النهار الحقيقى ساخرًا. ولا يعرف الآخرون ممن دفنوا معها ماذا حدث؛ فهى وحدها التى تعرف. وإذا باحت بهذه المعرفة، سيحبسونها إلى الأبد. ففرصتها الوحيدة أن تواصل وكأن الأمور تسير سيرتها المألوفة، وفى ذات الوقت لا تغفل عيناها عن السماء المسطحة الزرقاء، مترقبة الشق الكبير المنتظر أن يحدث فيها فى النهاية. وبعد، ربما يهبط هو منه على سلم من الحبال. ستشق طريقها نحو السطح، وتقفز نحوه. ويُسحب السلم إلى أعلى وقد تعلقا به هما الاثنان، يمسك كلاهما بالآخر، يتجاوزان البريجات الصغيرة والأبراج الكبيرة والقمم المستدقة، ومن الشق ينفذان إلى السماء الوهمية، تاركين الآخرين بالأسفل فوق المروج يحملقون مشدوهين فاغرى الأفواه.

تلك الحبكات القصصية ذات القوة الخارقة والنزعة الطفولية.

وتحت القبة الحجرية الزرقاء أمطرت السماء، وأشرقت، وعصفت، وصفت. فكم يقف العقل مشدوهًا أمام كيفية التنسيق بين كل هذه المؤثرات الجوية.

كان طفل على مقربة منها. يتناهى إليها بكاؤه متقطعًا، كأنما تحمله الرياح. أبواب تفتح وتغلق، يتعالى وينخفض صوت غضبها الخافت العارم. يذهلك كيف يسعها أن تزأر. أحيانًا يدنو كثيرًا أزيز تنفسها، ذلك الصوت الأجش الناعم، مثل حرير يتمزق.

ترقد في فراشها، الملاءات فوقها أو تحتها، فذلك يعتمد على أي وقت من اليوم يكون ذلك. تفضل الوسادة بيضاء، في بياض ملابس ممرضة، ومنشاة قليلاً. تسندها عدة وسائد، ويفيقها قدح من الشاي حتى لا تسقط ناعسة. تمسكه بين يديها، فإذا سقط على الأرض ستنهض. إنها لا تفعل هذا دائمًا، فهي أبعد ما تكون عن الكسل.

تأتينا أحلام اليقظة متطفلة كالفواصل الموسيقية أو الاستراحة بين فصول المسرحية.

تخيلته يتخيلها. ففي ذلك خلاصها. بروحها تطوف المدينة، تتفقد تيهها، متاهاتها العميقة المتشابكة؛ كل موعد، كل لقاء غرامي، كل باب وكل درج وكل فراش. ماذا قال، وماذا قالت، ماذا فعلا، ماذا فعلا حينها. بل حتى أوقات جدالهما، صراعهما، فراقهما، ألمهما، ومصالحتهما. كيف كانا يحبان جرح نفسيهما ليتذوق كل منهما دماء الآخر. تقول في نفسها: كم كنا مخربين معًا. لكن كيف لنا أن نحيا هذه الأيام إلا وسط الخراب؟

أحيانًا تود أن تشعل فيه عودًا من الثقاب، تنتهي منه، وتنهي ذلك الشوق الممتد بلا نهاية والذي لا طائل تحته. على الأقل ستتعهده ساعات اليوم وانحسار الطاقة في جسدها –فتنحل وتنهك قواها وينمحي ذلك المكان من عقلها. لكن لا تكفي مجاهدة الذكرى وطردها، ولا هي حاولت جاهدة في هذا السبيل. لم تكن المجاهدة هي ما تريده. إنما هي تريد تلك السعادة المرعبة، مثل السقوط من طائرة بطريق الخطأ. تريد نظرة الجوع في عينيه.

آخر مرة رأته كانت عندما عادا إلى حجرته – بدا الأمر مثل الغرق؛ فكل ما حولها يغرق فى الظلام ويزأر، لكنه فى نفس الوقت بطيئ صافٍ يكسوه لون فضى لامع. فهذا معنى أن تكون مأثورًا مفتونًا.

لعله يحمل صورة لها معه على الدوام، وكأنه يضعها فى إطار من معدن ثمين ويعلقها فى سلسلة، أو لعلها ليست صورة بالضبط إنما هى أشبه بالرسم التخطيطى. خريطة كأنما لكنز ثمين. هى كل ما يحتاجه كى يعود.

فى البداية هناك الأرض، آلاف الأميال منها، تغطيها الثلوج، مشققة ومجعدة؛ وتحيطها الصخور والجبال فى دائرة خارجية؛ تليها غابة تتشابك فوقها ما طرحته الرياح من ثمار، تشعثت جلودها وتلبدت، غابة ميتة تتعفن تحت الطحالب؛ يليها منطقة عارية جرداء تبدو غريبة. تليها أراض خلنجية ثم سهول تجتاحها الرياح، وتلال جافة حمراء تتقدم عليها الحرب. فخلف الصخور وفى كمين داخل الأخاديد التى لفحتها الشمس يربض المدافعون. وهم بارعون فى القنص.

وبعدها تأتى القرى حيث الأكواخ القذرة الكئيبة والأطفال الذين يعانون من الحول، ونساء يحملن أحزمة من العصى، وطرق ترابية داكنة من أثر تمرغ الخنازير. ثم تبدو طرق السكك الحديدية الممتدة إلى البلدان، بمحطاتها ومخازن القطارات بها، وبمصانعها ومخازنها، وحيث الكنائس ومبانى البنوك الرخامية. وتليها المدن، مساحات مستطيلة شاسعة من الظلمة والضوء، برج فوق برج. والأبراج محمية بحجر صوان. كلا: فليكن شيئًا أكثر حداثة وأقرب إلى التصديق. لكنه ليس الزنك، فمنه تصنع أحواض الغسيل التى تستخدمها النساء الفقيرات.

الأبراج مدرعة بالصلب. وهناك تصنع القنابل، وهناك تسقط القنابل أيضًا. لكنه تخطى كل ذلك ونفذ منه دون أن يمسه سوء، طوال الطريق إلى هذه المدينة، تلك التى تضمها، وتحيطها منازلها وأبراج كنائسها حيث تقيم فى أقصى الأبراج وأقربها نحو المركز، والذى لا يشبه غيره من الأبراج. فهو مخبأ للتمويه؛ قد يحسبه من يراه منزلاً. يرتجف قلبها من كل شىء، فاندست فى الفراش الأبيض. حبست نفسها بعيدًا عن الخطر، وإن كانت هى السبب وراءه جميعًا. فالأخطار

جميعًا تهدف إلى حمايتها. فهذا ما يمضون فيه وقتهم – حمايتها من كل شيء آخر. تطلعت من النافذة، لكن لا شيء يمكنه الوصول إليها، ولا يمكنها الوصول إلى شيء.

إنها دائرة مستديرة. فراغ يصف ذاته بأنه لا يوجد على الإطلاق. ولذلك لا يصلون إليها، لا يستطيعون إيذاءها. لذلك لا يستطيعون لومها على شيء. فلها تلك الابتسامة العذبة، لكنها لا تختبئ وراءها وتحتمي بها.

أراد أن يتصورها محصنة ضد الجرح والألم، أن يتصورها واقفة في نافذتها المضيئة وخلفها الباب المغلق. أراد أن يكون هناك، تحت الشجرة، يتطلع إلى أعلى. يستجمع شجاعته ويتسلق السور، يتجاوز الكرمة والعتبة الخارجية للنافذة، سعيدًا كاللص؛ يربض، ثم يرفع النافذة ويخطو قافزًا إلى الداخل. المذياع مفتوح بصوت هادئ، تنبعث منه موسيقى راقصة تعلو وتخفت، يطمس صوتها وقع الخطوات. لم يتبادلا كلمة، وهكذا بدأ ثانية البحث في ثنايا الجسد برقة ودقة. جاء صوته مكتومًا، وكان مرتبكًا وغائم الرؤية، كأنه تحت الماء.

قال لها مرة: "عشت حياة تتوفر فيها الحماية"

قالت: "يمكنك أن تسميها كذلك."

لكن كيف لها ترك حياتها تلك، إن لم يكن عن طريقه؟

الجلوب أند ميل، ٢٦ مايو، ١٩٣٧

ثأر أحمر فى برشلونة

باريس. خاص للجلوب أند ميل

رغم فرض الرقابة الشديدة على أخبار برشلونة، إلا أن أنباء تسربت لمراسلينا فى باريس عن صدامات بين الأحزاب الجمهورية المتصارعة فى المدينة. فقد شاع نبأ قيام الشيوعيين المدعومين من ستالين، والذين تمدهم روسيا بأجود الأسلحة بحملات تطهيرية ضد منافسيهم من البوم، أتباع تروتسكى المتطرفين الذين تحالفوا مع أتباع مذهب الفوضوية. بعد الأيام الأولى لحكم الجمهوريين والتى اتسمت بالقوة شاع جو من الشك والخوف، حيث يتهم الشيوعيون البوم بخيانة "الطابور الخامس". فانتشر القتال فى الشوراع مع مساعدة شرطة المدينة للشيوعيين. وشاعت أنباء بإلقاء عدد من أعضاء حزب البوم فى السجون، بينما تمكن آخرون من الهرب. وربما تورط عديد من الكنديين فى المناوشات الدائرة، لكن مازالت صحة هذه التقارير غير مؤكدة.

وعلى صعيد آخر فى إسبانيا، مازالت مدريد فى قبضة الجمهوريين، إلا أن قوات القوميين بقيادة جنرال فرانكو تحقق مكاسب عظيمة الشأن.

أمالت عنقها، وأراحت جبهتها على طرف المنضدة. كان الوقت غسقًا، وأضواء المحطة مضاءة، فبدا وجهه في الضوء ممتقعا شاحبًا. كان المكان قريبًا من أحد الشواطئ، مياه صافية الزرقة لازوردية؛ فقد تناهت إليه صيحات النوارس. قفز صاعدًا القطار وسط سحابات من بخار يحدث صفيرًا، ورفع حقيبته القماشية على الحامل؛ وانهار على المقعد، ثم أخرج الساندوتش الذى أحضره معه، فك غلافه الورقى المتجعد، ومزقه. فقد بلغ به التعب مبلغًا لا يستطيع معه تناول الطعام.

وإلى جواره كانت امرأة تغزل شيئًا أحمر اللون؛ سترة. عرف ما تغزله لأنها أخبرته به؛ وكانت ستخبره بكل ما يتعلق به لو تسنى لها ذلك، وستحكى له عن أطفالها، وأحفادها؛ ولا شك أن معها لقطات فوتغرافية لهم، لكن قصتها ليست من ذلك النوع الذى يتمنى سماعه. فلا يسعه التفكير فى الأطفال، بعد أن رأى العديد منهم موتى. فالأطفال هم من عايشهم طويلاً، بل أطول مما عايش النساء ومما عايش الرجال العجائز. كان دائما يجدهم على غير توقع؛ عيونهم الناعسة، أيديهم الشمعية وأصابعهم الرخوة، ودمية قماشية ممزقة غارقة فى الدماء. والتفت بعيدًا، يحدق فى وجهه فى النافذة الليلية، فيرى عينيه غائرتين يحدهما شعره المندى، وبدت بشرته سوداء مشوبة باخضرار يغيم عليها السخام والهياكل القاتمة للأشجار التى تندفع مارقة خلفها.

خطا نحو الممشى قافزًا من فوق ركبتى المرأة العجوز، ووقف فى الوصلة بين العربات يدخن، ويلقى عقب السيجارة، ويتأمل فى الفراغ ويفكر فى المستحيل. فتخيل نفسه يسير فى نفس الطريق بعيدًا نحو العدم. يمكن أن ينزلق ويسقط هنا ولا يعثر عليه أحد أبدًا.

طالعه أفق غائم ومستنقعات سبخة. فعاد إلى مقعده. الجو فى القطار إما رطبًا باردًا أو شديد الحرارة خانقا؛ وهو إما يتفصد عرقا أو يرتعش، أو ربما الاثنان معًا؛ فهو يحترق ويتجمد فى آن كما يحدث فى الحب. كانت حشوة ظهر المقعد خشنة وغير مريحة وتحك فى صدغيه. أخيرًا غشاه النعاس، فغفل فاغرا

فاهه ورأسه يسقط مائلاً جانبًا نحو الزجاج القذر. يسمع طقطقةِ إبر الغزل بجوار أذنيه ومن تحته قعقعة العجلات فوق السكك الحديدية مثل بندول صارم لا يهدأ.

الآن تخاله·يحلم. تخاله يحلم بها، كما تحلم هى به. وعبر سماء فى لون حجر أردوازى مبلل يطير كلاهما نحو الآخر، يخفقان بجناحين داكنين لا يريان، يبحثان ويبحثان، ثم يعودان أدراجهما يجذبهما الأمل والشوق ويعتريهما الخوف. وفى حلمهما يتلامسان، ويشتبكان فيما هو أكثر من التصادم، وهنا تكون نهاية التحليق. فيسقطان إلى الأرض، كهابطى مظلات غير بارعين، فيدوران فى زوايا أسطوانية سريعة، ويتدفق الحب خارجا منهما مثل حرير ممزق. فتنبرى لهما طلقات نارية أرضية معادية.

مر يوم، ليلة ونهار. وفى إحدى المحطات هبط، واشترى تفاحة، وكوكاكولا ونصف علبة سجائر وجريدة. كان لابد أن يحضر معه بعض الخمر أو ربما زجاجة كاملة لتساعده على النسيان. تطلع من نوافذ القطار المغبشة إلى أحمة الأشجار ونحو الحقول الممتدة فى استواء، تنتشر مثل بسط صغيرة مفروشة بالجذامة، فغشى عينيه النعاس. وفى المساء كان الغروب يزحف متلكئًا فى انحداره نحو الغرب ويذوى حائلاً من اللون الوردى إلى الرمادى. ويهبط الليل متقطعًا، وتتابع صيحات القطار الحديدية فتتعالى تارة وتتوقف تارة. وبعيدًا عن عينيه احمرار، لون أحمر لنيران ضعيفة مختزنة تبعثها انفجارات فى الهواء.

استيقظ بينما كانت السماء تصفو؛ واستطاع أن يميز الماء على أحد الجانبين، فأخيرًا لاحت البحيرة الداخلية فضية هادئة وبلاِ شطآن. وعلى الجانب الآخر من السكك الحديدية ظهرت منازل صغيرة بسيطة، يتدلى الغسيل على الحبال فى أفنيتها. وبعدها لاحت مدخنة حجرية مغطاة بالطلاء، مصنع أبيض النوافذ له مدخنة عالية، تلاه مصنع آخر طليت نوافذه المتعددة بأفتح درجات الأزرق.

وتخيلته يهبط من القطار فى الصباح الباكر، ويسير فى المحطة، داخل الردهة الطويلة ذات السقف المقنطر والأعمدة المصطفة وفوق الأرضية الرخامية. هناك يرجع الصدى ويعتم على الأصوات المنبعثة من مكبرات الصوت، فتخرج

رسالاتها مبهمة غامضة. تشتم فى الهواء رائحة الدخان - دخان السجائر والقطارات والمدينة ذاتها، وهو أشبه بالغبار. هى الأخرى تسير فى هذا الدخان أو الغبار؛ فاتحة ذراعيها ليرفعها عاليًا فى الهواء. قبضت الفرحة على عنقها، وغص بها حلقها، فهى لا تتميز عن الرعب. ولم تستطع رؤيته. دخلت شمس الفجر من النوافذ الطويلة المقنطرة، فاتقد الهواء المشبع بالغبار والتمعت الأرضية. وها هى الآن فى بؤرة الرؤية، على الطرف البعيد، تتميز كل تفاصيلها - العين والفم واليد - وإن بدت جميعها ضخمة مثل صورة منعكسة فوق بحيرة يترجرج ماؤها.

لكن لا يستطيع عقلها أن يمسك به، فلا يسعها أن تمسك بهيئته فى الذاكرة. وكأن نفحة هواء هبت فوق الماء فذهبت به فى ألوان متكسرة وموجات صغيرة؛ ثم استعاد شكله فى مكان آخر، فاسترد جسده المعهود بعد أن مر بالعمود التالى. وحوله وميض يتلألأ.

الوميض المتلألئ يمثل غيابه، لكنه يبدو لها كالضوء. فهو ضوء النهار الساطع الذى تتضح به كل الأشياء حولها. كل صباح ومساء، كل قفاز وحذاء، كل مقعد وكل صحن.

الفصل الحادى عشر

من الآن فصاعدًا ستنعطف الأحداث نحو مزيد من الحزن والكآبة. لكنكم علمتم أن ذلك سيحدث. عرفتم ذلك، لأنكم تعرفون بالفعل ما حدث للورا.

لورا نفسها لم تكن تعرف بالطبع. فهى لا تعرف شيئًا عن تجسيد دور البطلة الرومانسية المحكوم عليها من القدر. لقد صارت كذلك فيما بعد، فى إطار ما كتبته، ومن ثم فى أذهان معجبيها. أما فى سياق الحياة اليومية، فكانت مزعجة فى كثير من الأحيان، مثلها مثل أى شخص. أو أحيانًا مملة. أو مبتهجة، فكان يمكنها أن تكون هكذا أيضًا؛ وذلك إذا أحيطت بالظروف المناسبة، والتى لا يعرف سرها سواها، فهنا ينتابها سرور جارف. فومضات فرحها تلك هى أكثر ما يكدرنى الآن.

وهكذا أستحضرها فى ذاكرتى تمارس حياتها اليومية وتجول بين أنشطتها المعتادة، لا يلمح فيها من يشاهدها من الخارج ما يخرج عن المألوف – فتاة ذات شعر لامع تصعد التل مستغرقة فى أفكارها الخاصة. هناك العديد من أولئك الفتيات الجميلات المستغرقات فى التأمل، يزخر بهن المشهد الريفى، وتولد إحداهن فى كل دقيقة. وفى معظم الأحيان لا يحدث لأولئك الفتيات ما يخرق العادة. لا لهذه ولا لتلك ولا لأخرى، ومن ثم يعشن حتى يبلغن الشيخوخة. أما لورا فقد استثنيتموها من ذلك، واستثنيتها أنا أيضًا. ففى لوحة مرسومة تظهر تجمع الأزهار البرية، مع أنها قلما فعلت شيئًا من هذا القبيل فى حياتها العادية. وخلفها فى ظلال الغابة يكمن الإله الذى اتخذ وجهه من الطمى. لا يراه سوانا. ونحن وحدنا من يعرف أنه سينقض.

راجعت ما كتبته حتى الآن فبدا لى أنه غير كاف. ربما يزخر بكثير من الطيش، أو بكثير من الأمور التى ربما اعتبرها الناس طيشًا. ففيه كثير من الملابس، وأنماطها وألوانها التى قدم عهدها الآن ولا يستخدمها أحد. وكثير من حفلات العشاء، التى لم تكن جيدة دائمًا. ووجبات فطور، ونزهات طعام، ورحلات بحرية فى المحيط، وحفلات تنكرية، وصحف، وتريض بالزوارق فى النهر. فمثل

هذه العناصر لا تتناسب تمامًا مع المأساة. لكن ليست المأساة فى الحياة صرخة واحدة طويلة. إنما هى تحوى كل ما يؤدى إليها. ساعة تليها ساعة تافهة، يوم وراء يوم، عام وراء عام، ثم تأتى اللحظة المفاجأة: طعنة السكين، انفجار القنبلة، سقوط السيارة من فوق الجسر.

إنه شهر إبريل الآن. تساقطت الثلوج وانتهت، ونمت زهور الزعفران. وسرعان ما أتمكن من الاستقرار فى الشرفة الخلفية وأجلس إلى منضدتى الخشبية القديمة المخدوشة ذات اللون الفئرانى، على الأقل فى الأوقات المشمسة. ذهبت الثلوج عن الأرصفة، ومن ثم بدأت السير مرة أخرى. فلقد أضعفتنى شهور الشتاء الخالية من النشاط؛ أستطيع أن أشعر بتأثيرها فى سيقانى. ومع ذلك فأنا عازمة على استعادة الضيعات التى كانت لى فى الماضى، والعودة إلى زيارة العيون التى ترويني.

استطعت اليوم بمساعدة عصاى ومع التوقف عدة مرات فى الطريق أن أذهب إلى المقابر. وجدت الملكين الحارسين لعائلة تشاس، كليهما فى حالة مزرية وقد طمست معالمهما بعد أن قضيا الشتاء فى الثلوج؛ وأسماء أفراد العائلة ازدادت حروفها طمسا، لكن قد يكون ذلك بسبب بصرى. مررت بأصابعى على هذه الأسماء وعلى حروفها؛ فرغم صلابتها، وقابيلتها للمس، بدت تلين تحت لمس أصابعى، تذوى وتتقلقل. فقد عمل الزمن فيها أسنانه الحادة الخفية.

لقد نظف أحد الأشخاص قبر لورا من أوراق الشجر المبتلة التالفة المتبقية من الخريف الماضى. وبقيت هناك طاقة صغيرة من زهور النرجس البيضاء، سيقانها ملفوفة فى ورق الألمونيوم، وقد ذبلت بالفعل،. فالتقطتها وألقيت بها فى أقرب صندوق للقمامة. فعشاق لورا هؤلاء من يظنونه يقدر عطاياهم تلك؟ والأهم من ذلك من يظنونه سينظف المكان بعدهم؟ هم ونفاياتهم من الورود. إنهم ينثرون آيات حزنهم الزائف فى المكان.

كانت رينى تقول: "سأعاقبك بما يبكيك". ولو كنا أطفالها حقيقة لصفعتنا. لكن فى حقيقة الأمر، هى لم تفعل ذلك أبدًا، ولذلك لم نكتشف أبدًا ما يمكن أن يكون عليه ذلك العقاب.

وفى طريق عودتى توقفت عند متجر بيع الدونت. ولابد أننى بدوت متعبة كما كنت أشعر، وذلك لأنه أتتنى نادلة على الفور. وهم فى العادة لا يخدمون الموائد، بل لابد من أن تقف عند منضدة البيع وتحمل ما تريد بنفسك، لكن هذه الفتاة – وهى ذات وجه بيضاوى وشعر داكن وترتدى ما يبدو زيًا خاصاً أسود – سألتنى عما يمكن أن تحضره لى. فطلبت قهوة، وفطيرة توت على سبيل التغيير. وبعدها رأيتها تتحدث إلى فتاة أخرى، تلك الواقفة وراء منضدة البيع، فأدركت أنها ليست نادلة على الإطلاق، بل زبونة مثلى؛ فزيها الخاص الأسود ليس زيا خاصا، إنما هو سترة وسروال. كان يتلألأ عليها شيء فضى فى مكان ما، ربما كان زماما منزلقًا؛ فلم أميز التفاصيل. وقبل أن أشكرها كما يجب كانت قد ذهبت.

كم يبهج نفوسنا وينعشها أن نلمس دماثة الخلق ومراعاة الآخرين فى فتيات فى مثل هذا العمر. فهم فى أغلب الأحيان يظهرون الجحود فى طيش ولا مبالاة بالآخرين (فكرت فى ذلك وأنا أتذكر سابرينا). لكن الجحود فى طيش ولامبالاة هو الدرع الواقى للشباب؛ فبدونه كيف يتقدمون فى الحياة؟ يتمنى الكبار الخير للصغار، لكنهم أيضًا يتمنون لهم السوء؛ فيرغبون فى التهامهم، وامتصاص حيويتهم، ويظلون هم أنفسهم خالدين. فبدون الخفة والطيش والغلظة فى التعامل لسحق الماضى الصغار جميعًا – ماضى الآخرين الذى يحملونه فوق أكتافهم. فالأنانية نعمة يجدون فيها خلاصهم.

بالطبع يصدق هذا بعض الشىء.

أحضرت النادلة ذات السترة الزرقاء القهوة. وكذلك الفطيرة التى سرعان ما ندمتُ على طلبها. فلم أحرز نجاحًا كبيرًا فى الإغارة عليها. كل ما فى المطاعم

أصبح بالغ الضخامة والثقل – فالعالم المادى يكشف عن نفسه فى هيئة كتل ضخمة ندية من الفطائر.

وبعد أن رشفت من القهوة قدر ما أستطيع، شرعت فى استعادة دورة المياه. فى الوحدة الوسطى طمس الطلاء الكتابات التى أذكرها من الخريف الماضى، لكن لحسن الحظ كان موسم هذا العام قد بدأ. ففى الركن العلوى على اليمين مجموعة من الأحرف الأولى تفصح عن حبها على استحياء لمجموعة أخرى، كما هى عادتهم. وتحتها كتب باللون الأزرق: "تنبع قوة البصيرة من الخبرة، والخبرة تنبع من ضعف البصيرة." وتحت ذلك كتب بالقلم الجاف الوردى بأحرف متصلة مستديرة: "إذا أردت فتاة مجربة اتصل بأنيتا ذات الفم المكتنز، سأصعد بك إلى السماء" ثم رقم تليفون.

وتحت هذا كتب بالأحرف الكبيرة وبقلم الترقيم الأحمر: "اقترب يوم الحساب. استعدى لملاقاة مصيرك، وبذلك أعنيك أنت يا أنيتا."

أحيانًا أعتقد – كلا أحيانًا ألهو بالفكرة – أن هذه الكتابات على جدران دورة المياه هى حقيقة من فعل لورا، فهى تعمل من خلال أذرع الفتيات اللاتى يكتبنها وأيديهن وكأنما تحركها من مسافة بعيدة. تصور أحمق، لكنه ممتع، حتى أصل إلى الخطوة المنطقية الأبعد وأستنتج أنه إذا كان الحال كذلك فلابد أنها جميعًا موجهة إلىَّ، فمن غيرى لاتزال لورا تعرفه فى هذه البلدة؟ لكن لو كانت موجهة إلىَّ، فماذا تعنى بها لورا؟ فهى لا تعنى ما تقول.

فى أحيان أخر أشعر بدافع قوى للاشتراك فى تلك الكتابات، للمساهمة فيها، أرغب فى أن أضم صوتى المرتجف إلى الجوقة المجهولة للسيرانادا القصيرة، وخطابات الحب رديئة الخط، وإعلانات الدعارة، والترانيم واللعنات. وخطر لى:

"الإصبع المتحرك يكتب، وحيث إن لديه وثيقة رسمية،

فهو يواصل؛ لا يغريه كل ما لديك من ورع وفطنة على التراجع أو حذف نصف سطر،

ولا يمكن لدموعك كلها أن تمحو كلمة."

ها! سيجعلهم هذا يسهرون وينبحون.

يوما ما عندما أشعر بتحسن سأعود إلى هناك وأكتب تلك الكلمات حقيقة. فلابد أنهم سيفرحون بها جميعًا، أليس هذا ما يريدونه؟ ما نريده جميعًا؛ أن نترك خلفنا رسالة ذات أثر، ناهيك إن كان أثرًا بالغًا؛ رسالة لا يمكن محوها.

لكن يمكن أن تكون مثل هذه الرسائل خطيرة. فكر مرتين قبل أن تتمنى، وخاصة قبل أن تتمنى أن تضع نفسك بين يدى القدر.

(قالت رينى: "فكرى مرتين." وقالت لورا: "ولماذا مرتين فقط؟"

القطيطات

حل شهر سبتمبر وتبعه أكتوبر. وعادت لورا إلى المدرسة، مدرسة أخرى. وكان الزى هناك باللونين الرمادى والأزرق بدلاً من الأحمر الداكن المائل نحو البنى مع الأسود؛ وفيما عدا ذلك كانت هذه المدرسة تشبه الأخرى كثيرًا، على حد علمى.

فى شهر نوفمبر، وبعد بلوغها السابعة عشرة أعلنت لورا أن رينشارد يضيع نقوده هباء. بوسعها أن تستمر فى الذهاب إلى المدرسة إذا طلب ذلك، تضع جسدها على المقعد، لكنها لم تتعلم شيئًا مفيدًا. قالت ذلك بهدوء ودون ضغينة، والمدهش أن رينشارد استجاب لها. فقال: "حقيقة هى لا تحتاج إلى الذهاب إلى المدرسة على أى حال. فهى لا تحتاج للعمل من أجل العيش."

لكن كان لابد من شغل لورا بشىء، كما حدث معى. فتم ضمها للدفاع عن إحدى القضايا التى تتبناها وينفريد، وهى هيئة تطوعية تسمى "الوصيفات" يتعلق

نشاطها بزيارة المستشفيات. والوصيفات هن مجموعة تمتلئ حيوية ونشاطًا: فتيات من عائلات طيبة يتدربن ليصبحن وينفريد المستقبل. يرتدين مآزر عاملات مزارع الألبان مع زخرفة بزهور التيوليب على الصدر، ويطفن بعنابر المستشفيات، حيث من المفترض أن يتحدثن إلى المرضى وربما يقرأن لهم ويدخلن السرور عليهم – كيف يحدث ذلك، أمر لم يتحدد.

أثبتت لورا براعة في ذلك. وغني عن القول أنها لم تحب الوصيفات الأخريات، لكنها التزمت بارتداء المئزر. ومن المتوقع أنها انجذبت إلى عنابر الفقراء التي تميل الوصيفات الأخريات إلى تجنبها، بسبب رائحتهم الكريهة وبذاءتهم. كانت تلك العنابر تمتلئ بالمتشردين؛ نساء عجائز مختلات العقل، محاربين قدماء معدمين جانبهم الحظ، رجال مجدوعي الأنوف مصابين بمرض الزهري من الدرجة الثالثة. كانت تلك الأقسام تفتقر إلى الإمداد الكافي من الممرضات، فسرعان ما شاركت لورا في القيام بالمهمة، والتي هي على وجه الدقة أمور لا شأن لها بها. فبدا أن مراحيض الفراش والقيء أمور لم تدهشها أو تسوءها، ولا أيضًا السباب والهذيان وسلوكهم في مجمله. لم يكن هذا هو ما أرادته لها وينفريد، لكن سرعان ما تورطتا فيه.

تصورت الممرضات أن لورا ملاك (أو تصور ذلك بعضهن، أما الأخريات فظنن أنها في طريقها إلى ذلك.) وحسبما قالت وينفريد، والتي حاولت مراقبة الأمور وكانت لديها جواسيسها، فقد شاع عن لورا براعتها مع الحالات الميئوس منها. وقالت وينفريد إنه يبدو أنها لم تدرك أنهم يحتضرون. وافترضت وينفريد أنها تعاملت مع حالاتهم كحالات ليست خطيرة، بل كأشخاص طبيعيين ربما استعادوا شيئا من هدوئهم، مع أن ذلك قد لا يحدث مع العقلاء. ورأت وينفريد أن تلك القدرة أو الموهبة لدى لورا دليل آخر على طبيعتها بالغة الغرابة.

قالت وينفريد: "لابد أن لها أعصابًا من جليد. فمؤكد أنني لا أستطيع ذلك. لا أحتمله. تصوروا كل هذه القذارة."

وفى تلك الأثناء كانت وينفريد تعد الترتيبات لظهور لورا فى حفلات المجتمع للمرة الأولى. لم تكن لورا قد شاركت فى هذه الترتيبات بعد، مما جعل وينفريد تتوقع ألا يكون رد فعلها إيجابيًا. فقالت إنه فى هذه الحالة لابد من ترتيب كل شيء ثم عرضه على أنه قدر لا يمكن تغييره fait accompli؛ أو من الأفضل التخلى تمامًا عن تقديم لورا للمجتمع إذا تحقق بالفعل الهدف الأساسى منه، وهو الزواج الاستراتيجى.

كنا نتناول الغداء فى قاعة أركيديا؛ فقد دعتنى وينفريد هناك، نحن الاثنتين فقط، لوضع خطة نخدع بها لورا، على حد قولها.

قلت: "خطة نخدعها بها؟"

قالت وينفريد: "أنت تعرفين ما أقصد. ليس الأمر كارثة." وواصلت قائلة إن أفضل ما يمكن أن نتمناه للورا رجلاً ثريًا لطيفًا يستجمع شجاعته ليتحمل مساوئها ويعرض عليها الزواج، ويسوقها إلى مذبح الكنيسة. ولايزال الأفضل أن يكون رجلاً ثريًا لطيفًا على درجة من الغباء لا يرى فيها مساوئ يستحق أن يستجمع شجاعته ليتحملها حتى يفوت الأوان.

وسألتها: "أى مساوئ تقصدين؟" وتساءلت فى نفسى إن كانت تلك هى الخطة التى اتبعتها وينفريد عندما اقتنصت مستر بريير المراوغ. فهل أخفت مساوئها وطبيعتها الشرسة حتى انقضى شهر العسل ثم أطلقتها عليه على حين غرة؟ ألهذا السبب لم يظهر أبدًا سوى فى الصور الفوتغرافية؟

قالت وينفريد: "عليك أن تعترفى أن لورا أكثر من مجرد فتاة صغيرة غريبة الأطوار." وتوقفت لتبتسم لشخص خلفى وتهز أصابعها محيية. فخشخشت سوارتها الفضية؛ وكانت ترتدى العديد منها.

وسألتها بهدوء: "ماذا تعنين؟" فجمع تفسيرات وينفريد لما تعنيه صار من هواياتى الكريهة.

زمت وينفريد شفتيها. وكانت تضع طلاء شفاه برتقاليًا، وبدت شفتاها تميل نحو التغضن. قد نقول فى أيامنا هذه إن الشمس كانت شديدة، لكن لم يكن الناس آنذاك يربطون بين هذا وذاك، وكانت وينفريد تحب اكتساب اللون البرونزى؛ كانت تحب لون الزنجار المعدنى. "إنها لا تروق لكل الرجال. فهى تأتى بأمور غريبة. يعوزها... يعوزها الحذر."

كانت وينفريد ترتدى حذاءها الأخضر المصنوع من جلد الثعبان، لكنى لم أعد أراه أنيقًا؛ بل على العكس صرت أجده صارخا. فكثيرًا مما كنت أراه غامضًا وجذابًا فى وينفريد، أصبحت أراه واضحًا الآن، لا لشيء إلا لأننى عرفت الكثير. فرونقها العالى طبقة رقيقة من طلاء الميناء، وبريقها طلاء ملمع. لقد نظرت وراء الكواليس، ورأيت الحبال والعجلات الرافعة، رأيت الأسلاك والمشدات. كونت ذوقى الخاص.

سألتها: "مثل ماذا؟ ما هى الأمور الغريبة؟"

قالت وينفريد: "بالأمس قالت لى إن الزواج ليس مهما، إنما الحب هو ما يهم. وذكرت أن المسيح يتفق معها."

فقلت: "هذا هو موقفها. وهى لا تخجل منه على الإطلاق. لكنها لا تعنى العلاقة الجنسية. لا تقصد إيروس إله الحب."

عندما يستغلق شيء على فهم وينفريد فهى إما تسخر منه أو تتجاهله. وهى تجاهلت هذا. وقالت: "كلهن يقصدن الجنس، سواء عرفن أو لم يعرفن. فموقف كهذا يمكن أن يوقع فتاة مثلها فى مشكلات كثيرة."

قلت: "ستتخلص منه فى الوقت المناسب." مع أنى لم أكن أعتقد ذلك.

"لم يحدث بسرعة. فأسوأ الفتيات هن اللاتى يحلقن برؤوسهن فى السحاب – فالرجال يقتنصون الفرصة. وكل ما نحتاجه روميو صغير متأنق. فذلك يكسر شوكتها ويجعلها تغير موقفها."

"ماذا تقترحين إذن؟" قلتها وأنا أحدق فيها بنظرة خاوية. فكنت أستعين بتلك النظرة الخاوية لأخفى انزعاجى، بل وغضبى، لكن لم يكن لها من أثر سوى أن شجعت وينفريد.

"كما ذكرت، زوجيها لرجل لطيف لا يعرف ما ستكون النهاية. وهنا يمكنها العبث بمسألة الحب فيما بعد، إذا كان هذا ما تريده. فطالما أنها ستفعله فى الخفاء، فلن يستنكره أحد."

رحت أقلب عابثة ببقايا فطيرة الدجاج فى صحنى. فلقد التقطت وينفريد مؤخرًا عددًا كبيرًا من التعبيرات الدارجة. أرى أنها كانت تظنها تعبيرات حديثة؛ فكانت قد وصلت إلى السن الذى تبدأ فيه الاهتمام بأن تبدو مسايرة للحداثة.

من الواضح أنها لم تكن تفهم لورا. فمن الصعب التفكير فى أن لورا يمكن أن تفعل أى شيء كهذا فى الخفاء. أما أن تفعله على الرصيف فى وضح النهار فهو الأقرب لها. فقد ترغب فى تحدينا ولومنا على ما فعلنا. فتهرب أو تأتى بفعل لا يقل عن ذلك ميلودرامية. لتبين لنا كم نحن منافقون.

قلت: "ستحصل لورا على المال عند بلوغها الحادية والعشرين."

قالت وينفريد: "ليس كافيًا"

قلت: "ربما يكون كافيا بالنسبة للورا. ربما تريد أن تعيش حياتها الخاصة."

قالت وينفريد: "حياتها الخاصة! فكرى ما يمكن أن تفعله بها!"

لا فائدة من محاولة إقصاء وينفريد عن وجهتها، فهى مثل الساطور المحلق فى الهواء. "هل ترشحين أحدًا؟".

قالت وينفريد فى خفة وحيوية: "أحد بعينه، لكنى أفكر فى الأمر. فبعض الناس لا يمانعون فى إقامة علاقات مع ريتشارد."

فتمتمت: "لا تثيرى كثيرًا من المتاعب."

قالت وينفريد بخفة: "وماذا إذا فعلت؟"

قلت للورا: "سمعت أنك تستفزين وينفريد، وتثيرينها إلى أقصى حد وتغيظينها بما تقولين عن علاقات الحب الحرة."

قالت لورا: "لم أقل أبدًا "علاقات الحب الحرة" لكنى قلت إن الزواج مؤسسة بالية. وقلت إنه لا علاقة له بالحب، هذا كل ما فى الأمر. فالحب عطاء، بينما الزواج بيع وشراء. لا يمكن أن نحرر عقدًا للحب. وبعدها قلت إنه لا زواج فى السماء."

قلت: "نحن لسنا فى السماء، إذا كنت لا تفطنين إلى ذلك. على كل، فلقد أفزعتيها وأثرت القلق فى نفسها."

قالت وهى تنظف الجلد حول أظافرها بمبردى البرتقالى: "لم أقل سوى الحقيقة. أعتقد أنها ستبدأ الآن فى تقديمى للناس. هى دائمًا تتدخل فيما لا يعنيها."

"إنما هى تخشى أن تفسدى حياتك. أقصد إذا تمسكت بالحب وسعيت إليه."

"هل يحول الزواج بينك وبين أن تفسد حياتك؟ أم أن الوقت لايزال مبكرًا لأن نعرف؟"

تجاهلت نبرة صوتها وقلت: "ومع ذلك فما رأيك؟"

"تضعين عطرًا جديدًا. هل أحضره لك ريتشارد؟"

"أقصد رأيك فى فكرة الزواج."

"لا شىء" وكانت آنذاك تمشط شعرها الأشقر بالفرشاة، بفرشاة الشعر الخاصة بى، جالسة إلى منضدة التزين الخاصة بى. فكانت تهتم اهتماما متزايدا بمظهرها الشخصى فى الآونة الأخيرة؛ وقد بدأت ترتدى ما يساير الموضة، سواء فيما ترتديه من ملابسها أو من ملابسى.

وسألتها: "أتقصدين أنك لا تفكرين كثيرا فى الموضوع؟"

"كلا. فأنا لا أفكر فيه على الإطلاق."

"ربما يتحتم عليك التفكير فيه. ربما عليك أن تمنحى مستقبلك ولو دقيقة من تفكيرك. فلا يمكن أن تظلى تتبخترين هنا وهناك دون..." أردت القول "دون أن تفعلى شيئًا"، لكن لو قلت ذلك لوقعت فى الخطأ.

قالت لورا: "لا مستقبل بالنسبة لى." وكانت قد اكتسبت عادة التحدث إلى وكأننى أنا أختها الصغرى وهى الأخت الكبرى؛ وكأن عليها أن تتهجى لى أسماء الأشياء. ثم قالت أكثر أشيائها غرابة: "إذا كنت بهلوانًا يسير على الحبل معصوب العينين، وتعبرين شلالات نياجرا على حبل مرتفع، فما أكثر ما تلتفتين إليه – الجموع المحتشدة على الشاطئ البعيد، أم قدميك؟"

"أعتقد أنى سألتفت لقدمى. أرجو ألا تستخدمى فرشاة الشعر الخاصة بى. فذلك غير صحى."

"لكن إذا التفت كثيرا لقدميك ستسقطين. وإذا التفت كثيرًا إلى الجموع المحتشدة ستسقطين أيضًا."

"فما هى الإجابة الصحيحة؟"

"إذا مت، هل ستظل فرشاة الشعر هذه ملكًا لك؟" قالتها وهى تنظر إلى هيئتها الجانبية بجانبى عينيها. وأضفى ذلك تعبيرًا خبيثًا على صورتها المنعكسة فى المرآة، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لها. ثم أضافت: "فهل يمتلك الموتى الأشياء؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما الذى يجعلها تخصك الآن؟ فهل طبعت عليها حروف اسمك الأولى؟ أم أنها تحمل جراثيمك؟"

"كفى عن إغاظتى يا لورا!"

قالت لورا وهى تضع فرشاة الشعر: "أنا لا أغيظك. إنما أفكر. وأنت لا تعرفين الفرق أبدًا. لا أدرى لماذا تصغين إلى كل ما تقوله وينفريد. فالأمر أشبه بالإصغاء إلى مصيدة فئران." وأضافت: "مصيدة بلا فأر فيها."

لقد اختلفت لورا فى الآونة الأخيرة: فأصبحت باردة المشاعر لا تبالى بالآخرين ومستهترة على غير عادتها. شككت فى أنها تدخن من خلف ظهرى؛ فقد شممت رائحة التبغ تفوح منها مرة أو مرتين. التبغ أو شىء آخر؛ شىء واسع الشهرة بالغ القدم. فلابد أن أعير مزيدًا من الانتباه لما يعتريها من تغيرات، لكنى مشغولة الذهن بأمور أخرى كثيرة.

انتظرت حتى نهاية أكتوبر لأخبر ريتشارد أننى حامل. قلت له إنني أردت التأكد. أبدى فرحًا تقليديًا وقبل جبينى. قال: "فتاة طيبة!" لم أكن أفعل سوى ما هو منتظر منى.

ومن فوائد ذلك أنه كان بالغ الحرص أن يدعنى وشأنى بالليل. فقال إنه لا يريد أن يفسد شيئًا. قلت له إن ذلك منتهى الاهتمام منه. وقال وهو يهز إصبعه فى وجهى بطريقة وجدتها تنذر بسوء: "عليك الإقلال من الجين من الآن فصاعدًا." كان يخيفنى فى لحظات مرحه أكثر من سائر الأوقات؛ فكأننى أرقب سحلية تتقافز مرحًا. وأضاف قائلاً: "سنتعامل مع أفضل الأطباء، دون النظر إلى التكاليف." فقياس الأمور بمقاييس مادية تجارية كان يبعث الطمأنينة فى نفس كلينا. ومع وجود المال فى الملعب، كنت أعرف أين أقف؛ فأنا ببساطة أحمل طردًا بالغ الثمن.

أما وينفريد، فبعد صرخة صغيرة يبعثها خوف حقيقى، أبدت صخبًا زائفًا. حقيقة لقد أفزعها الأمر. فاعتقدت (محقة فى ذلك) أن كونى أمًا لابن أو وريث، بل حتى لوريث فحسب، يمنحنى مكانة عند ريتشارد أعلى مما كنت عليها بالفعل، وأكثر بكثير مما أستحق. ترتفع مكانتى بينما تنقص مكانتها. ولن تعييها الحيل لتحجيمى والإقلال من شأنى؛ فتوقعت أن تظهر فى أى لحظة ومعها خطة مفصلة لتصميم حجرة الطفل وتزيينها.

كانت تسأل: "متى ننتظر الحادث السعيد؟" ووجدتنى أتلقى منها جرعة مطولة من اللغة الحيية. فيصبح الأمر الآن: "القادم الجديد وهدية أبو حديج

والغريب الصغير، وهكذا دون توقف. فباستطاعة وينفريد أن تجيد المداعبة وهى شديدة الحرص على التفاصيل فى الموضوعات التى توترها وتثير قلقها.

فقلت: "أعتقد فى إبريل. أو مارس. فلم أذهب لطبيب بعد."

فقالت وهى تقوس حاجبيها إلى أعلى: "لكن لابد أن تعرفى."

فقلت فى غضب: "لا يبدو أننى فعلت ذلك من قبل. ولا يبدو أننى كنت أتوقعه. فلم أكن منتبهة."

وفى إحدى الأمسيات ذهبت إلى حجرة لورا لأخبرها بنفس الأخبار. طرقت الباب؛ وعندما لم تجب، فتحته بهدوء معتقدة أنها نائمة. لكنها لم تكن نائمة. بل كانت راكعة بجوار فراشها فى رداء نومها الأزرق، ورأسها منحن إلى أسفل، وشعرها مهوش كأنما شعثته ريح لا تتحرك، وذراعاها مبسوطتان، وكأنما قذف بهما هناك. فى البداية ظننتها تصلى، لكنها لم تكن كذلك، أو أننى لم أسمع صلاتها. وعندما انتبهت أخيرًا لوجودى نهضت دون أن تبدى انفعالاً، كأنها كانت تكنس المكان من الغبار، وجلست على المقعد المزخرف بالأهداب الخاص بمنضدة تزيينها.

وكالعادة أدهشتنى العلاقة بين لورا نفسها وبين الأشياء المحيطة بها، تلك الأشياء التى اختارتها لها وينفريد – الصور الأنيقة، الشرائط على هيئة براعم الزهور، منسوجات الأورجاندى، والأهداب المزخرفة. لقطة فوتغرافية لهذا المشهد لا تكشف سوى عن تناغم بينهما. أما أنا فرأيت التنافر بينهما كثيفًا إلى حد الغرابة. فكانت لورا حجر صوان فى مصيدة من زغب الشوك.

أقول "حجر صوان" وليس "حجر": فالصوان له قلب من نار.

قلت: "لورا، أردت أن أخبرك بأننى سأرزق طفلاً."

فاستدارت نحوى بوجه ـبيض أملس مثل صحن من البورسلين، احتبس التعبير فى داخله. لكن لم تبدُ عليها الدهشة، ولا هى هنأتنى. إنما قالت: "أتذكرين القطيطة؟

قلت: "أى قطيطة؟"

"القطيطة التى أنجبتها أمى. تلك التى قتلتها."

"لم تكن قطيطة يا لورا."

قالت لورا: "أعرف."

منظر جميل

عادت رينى. لم تكن مسرورة منى على الإطلاق. "حسن أيها الشابة، ماذا يجب أن تقولى لنفسك؟ ماذا فعلت للورا؟ ألا تتعلمين أبدًا؟"

ما من إجابات لمثل هذه الأسئلة. فالإجابات متشابكة مع الأسئلة، معقدة ومتعددة الخيوط مما يستحيل معه أن تكون إجابات على الإطلاق.

تحاكموننى فى هذا. أعرف ذلك. أعرف ما سرعان أن يطرأ على أذهانكم. سيكون نفس الشىء الذى أفكر فيه؛ هل كان علىَّ التصرف على نحو مختلف؟ بلا شك أنكم تظنون ذلك، لكن هل كنت أملك خيارات أخرى؟ أملك هذه الخيارات الآن، لكن الآن ليس حينئذ.

هل كان يجب أن أكون قادرة على قراءة عقل لورا؟ هل كان يجب أن أعرف ما الذى يحدث؟ هل كان يجب أن أتنبأ بما سيحدث بعد ذلك؟ هل كنت حارسة على أختى؟

"كان يجب" كلمة لا طائل منها. فهى تشير إلى ما لم يحدث. إنها تنتمى إلى عالم مواز. إنها تنتمى إلى بعد آخر من الفضاء.

فى يوم أربعاء من شهر فبراير، هبطت الدرج بعد قيلولتى فى منتصف الظهيرة. وكنت أذهب للقيلولة كثيرًا آنذاك: فكنت حاملاً فى الشهر السابع، وينتابنى قلق فى النوم أثناء الليل. وكان الأمر متعلقًا أيضًا بضغط الدم؛ فكان كاحلاى متورمين، ونصحنى الأطباء بالرقود رافعة قدمى قدر ما أستطيع. كنت أشعر بأننى حبة عنب ضخمة، منتفخة لحد الانفجار بالسكر وعصير أرجوانى؛ شعرت بأننى قبيحة وثقيلة الحركة.

أذكر أن الجليد كان يتساقط فى ذلك اليوم، فى ندف كبيرة ملساء ندية؛ فقد تطلعت من النافذة بعد أن نهضت على قدمى، ورأيت شجرة القسطل، يكسوها البياض مثل مرجان عملاق.

كانت وينفريد هناك، فى حجرة الاستقبال المطلية بلون السحاب. لم يكن هذا أمرا خارقًا للعادة – فكانت تأتى وتذهب وكأنما ملكت المكان – لكن ريتشارد كان حاضرًا أيضًا. وكان من عادته أن يكون فى مكتبه فى مثل هذا الوقت من اليوم. وكان كل منهما يحمل شرابا فى يده. وكلاهما يبدو عابسًا وفى مزاج سيئ.

قلت: "ما هذا؟ ماذا حدث؟

قال ريتشارد: "اجلسى هنا بجانبى." وربت على الأريكة.

قالت وينفريد: "سيكون هذا صدمة. يؤسفنى أن تحدث فى هذا الوقت الحرج الحساس."

وأدارت هى الحديث. وأمسك ريتشارد بيدى ونظر إلى الأرض. ومن حين لآخر كان يهز رأسه، وكأنه يجد قصتها إما عصية على التصديق أو بالغة الصدق.

وها هو فحوى ما قالت:

لقد طرقع عقل لورا. قالت "طرقع" وكأن لورا حبة فول. وقالت: "كان لابد للفتاة المسكينة أن تتلقى المساعدة على الفور، لكننا اعتقدنا أن حالتها تستقر. لكن اليوم فى المستشفى حيث كانت تقوم بزيارتها الخيرية، خرجت لورا عن السيطرة. ومن حسن الحظ أن أحد الأطباء كان حاضرًا، وتم استدعاء طبيب آخر متخصص. وخلاصة القول أنه تقرر خطورة لورا على نفسها وعلى الآخرين، ولسوء الطالع اضطر ريتشارد لإيداعها رعاية إحدى المؤسسات.

"ماذ تقولين؟ ماذا فعلت؟"

وانتحلت وينفريد نظرة الشفقة فى عينيها وقالت: "هددت بأن تؤذى نفسها. وقالت أيضًا أشياء كانت – حسن فمن الواضح أنها تعانى من أوهام خادعة."

"ماذا قالت؟"

"لست على يقين من أنه يجب أن أخبرك."

قلت: "لورا أختى، ومن حقى أن أعرف."

"اتهمت ريتشارد بأنه يحاول قتلك."

"بتلك الكلمات؟"

قالت وينفريد: "كان قصدها واضحًا."

"لا، أرجوك، أخبرينى بالضبط."

"وصفته بأنه تاجر رقيق كاذب وخائن ووحش منحط يعبد المال."

"أعرف أن لها أحيانًا آراء متطرفة، وأنها تميل للتعبير عن نفسها بأسلوب مباشر. لكن لا يمكن أن نودع شخصًا مستشفى الأمراض العقلية لقوله مثل هذا."

قالت وينفريد بحزن: "هناك المزيد."

وفى محاولة لتهدئتى قال ريتشارد إنها ليست مؤسسة تقليدية – ليست على طريقة العصر الفيكتورى. إنها عيادة خاصة، على أجود طراز، وواحدة من أفضل العيادات المتخصصة. إنها عيادة بيلا فيستا. سيولونها أفضل رعاية هناك.

"ما هو المنظر؟"

"عفواً؟"

""بيلا فيستا" تعنى المنظر الجميل. فما هو هذا المنظر؟ ماذا سترى لورا عندما تطل من النافذة؟"

قالت وينفريد: "أرجو ألا تكون تلك هى فكرتك عن المزحة."

"كلا. فالأمر بالغ الأهمية. فهل هو مرج مزروع، أم حـــديقة، أم نافورة أم ماذا؟ أم أنه زقاق قذر؟"

لم يستطع كلاهما إخبارى. فقال ريتشارد إنه على يقين من أنها بيئة طبيعية بشكل أو آخر. وأضاف أن بيلا فيستا تقع خارج المدينة. وهناك أراض ريفية ذات مناظر طبيعية.

"هل ذهبت إلى هناك؟"

فقال: "أعرف أنك غاضبة يا حبيبتى. ربما عليك الذهاب لقيلولة قصيرة."

"لقد أخذت قيلولة بالفعل. أرجوك أخبرنى."

"كلا، لم أذهب إلى هناك. بالطبع لم أذهب."

"إذن فكيف تعرف؟"

قالت وينفريد: "والآن يا أيريس ما أهمية ذلك؟"

"أريد أن أراها." كنت قد مررت بأوقات عصيبة اعتقدت فيها أن لورا تنهار فجأة، لكنى كنت تعودت حينئذ على عاداتها الشاذة الغريبة حتى إننى لم أعد أرى

فيها غرابة. كان سيسهل علىَّ مراقبة الانزلاق – مؤشرات الخلل العقلى، مهما كانت.

وحسبما قالت وينفريد، نصحنا الأطباء بعدم زيارة لورا فى الوقت الحالى، وهو أمر لا يقبل المناقشة. وشددوا عليه إلى أبعد مدى. فقد جنت لورا إلى أقصى حد، بل وأصبحت عنيفة أيضًا. أضف إلى ذلك أنه لابد من مراعاة حالتى.

شرعت فى البكاء. فناولنى ريتشارد منديله. وكان منشيا قليلاً وتفوح منه رائحة العطر.

قالت وينفريد: "هناك شىء آخر لابد أن تعرفيه. وهو الأكثر حزنا." فقال ريتشارد فى صوت خافت: "ربما علينا أن نترك هذا الجزء إلى وقت لاحق."

"شىء شديد الإيلام" قالتها وينفريد فى إحجام زائف، مما جعلنى أصر أن أعرف فى التو واللحظة.

قالت وينفريد: "تزعم الفتاة المسكينة أنها حامل. مثلك تمامًا."

فكففت عن البكاء. "أحقًا؟ هل هى كذلك؟"

قالت وينفريد: "بالطبع لا، وكيف لها ذلك؟"

"من الأب؟" فلم أستطع تصور أن لورا تختلق مثل هذا الأمر دون سند من الحقيقة. أقصد من الذى تخاله الفاعل؟

قال ريتشارد: "ترفض الإفصاح عنه."

قالت وينفريد: "إنها فى حالة هيستريا بالطبع، فاختلطت لديها كل الأمور. فيبدو أنها تعتقد أن الطفل الذى ستنجبيه أنت هو فى الحقيقة طفلها، بطريقة لا تستطيع تفسيرها. فهى تهذى بالطبع."

هز ريتشارد رأسه وتمتم: "شيء محزن للغاية" قالها فى نبرة خافتة جليلة كمتعهد جنازات: نبرة مكتومة مثل بساط بنى ثقيل.

قالت وينفريد: "قال الطبيب المختص – المختص فى الأمراض العقلية – إنه لابد أن لورا تغار منك بجنون. فهى تغار من كل ما هو لك – فتريد أن تعيش حياتك، وتريد أن تكون أنت، فاتخذ الأمر هذا الشكل. وقال إنه يجب إبعادك عن طريق الخطر." وارتشفت رشفة صغيرة من مشروبها وأضافت: "ألم ترتابى فى الأمر؟"

باستطاعتكم أن تعرفوا كم كانت امرأة ماهرة.

ولدت إيمى فى أوائل شهر إبريل. فى تلك الأيام التى كانوا يستخدمون فيها الإثير، ولذلك لم أكن واعية أثناء الولادة. أخذت شهيقًا ثم غامت الرؤية، واستيقظت لأجد نفسى أضعف وأنحف. لم يكن المولود معى. كان فى حجرة المواليد مع الباقين. كانت فتاة.

قلت: "هل هى سليمة، أليس بها شيء؟" وكنت بالغة القلق من ذلك.

قالت الممرضة فى مرح: "عشرة أصابع فى يديها وعشرة فى قدميها، وليس بها شيء زائد عما يجب أن يكون."

أحضرت الرضيعة بعد ذلك فى المساء، ملفوفة فى بطانية وردية. وكنت قد سميتها بالفعل فى عقلى. إيمى تعنى "المحبوبة"، وكنت بالفعل أتمنى أن يحبها شخص ما. فقد انتابتنى الشكوك فى قدرتى على حبها، أو أن أحبها بالقدر الذى تحتاجه. فكنت أشعر أننى بلغت من الإنهاك مبلغه وتكالبت على الهموم، وكنت أعتقد أنه لم يعد لدىّ ما يكفى.

بدت إيمى مثل أى طفل حديث الولادة – فلها ذلك الوجه المضغوط، وكأنها ارتطمت بالحائط بسرعة عالية. وكان شعر رأسها طويلاً وداكنا. وتتطلعت إلىّ ترمقنى بنظرة شك من عينين يكاد إغماضهما أن يكون كاملاً. فخطر لى كم هى قاسية تلك الضربة التى نتلقاها عند الميلاد؛ وكم تسوءنا مفاجأة قسوة اللقاء الأول

مع الهواء الخارجى. شعرت بالأسى لذلك الكائن الصغير؛ وتعهدت بأن أبذل أقصى ما أستطيع من أجلها.

وبينما كانت كل منا تتفحص الأخرى، وصل ريتشارد ووينفريد. فى البداية ظنت الممرضة خطأ أنهما والدى. فقالت وينفريد: "كلا، فهذا هو الأب الفخور." وضحك الجميع. كان كلاهما يحمل زهورًا وشتى مستلزمات الوليد فى أدق تفاصيلها، من أعمال الكروشيه الأنيقة باهظة الثمن وأنشوطات من الستان الأبيض.

قالت وينفريد: "جميلة وحبوبة. لكن، ياربى، كنا نتوقعها شقراء. إنها داكنة جدًا. انظروا إلى شعرها!"

قلت لريتشارد: "آسفة. أعلم أنك كنت تنتظر صبيًا."

"المــرة القادمة يا حبيبتى." قــالها دون أن يبدو عليه الضجر أو الانزعاج.

قالت الممرضة لوينفريد: "إنه شعر الولادة فحسب. فمعظم الأطفال يولدون هكذا، ويصل طوله فى بعضهم إلى الظهر. وهو يسقط لينمو مكانه الشعر الحقيقى. احمدوا ربنا أن ليس لها أسنان أو ذيل، كما يحدث لبعضهم."

قلت: "كان جدى بنيامين داكن البشرة والشعر قبل أن يخطه الشيب، وكذلك أيضًا كانت جدتى أديلا، وأبى بالطبع، وإن كنت لا أعلم شيئًا عن أخويه. فالجانب الأشقر في عائلتى من ناحية أمى؟" قلت ذلك بنبرة صوتى المعتادة فى الحديث، وأراحنى أن ريتشارد لم يكن منتبهًا.

هل كنت ممتنة لعدم وجود لورا؟ لأنها محبوسة فى مكان بعيد لا يمكننى الوصول إليها فيه؟ ولا يمكنها هى أيضًا الوصول إلىَّ؛ فلا يمكنها الوقوف بجوار فراشى مثل جنية فى حفل تعميد لم تدعَ إليه، وتقول: "عما تتحدثين؟"

كانت ستعرف بالطبع. كانت ستعرف على الفور.

بالأمس شاهدت امرأة شابة تشعل النار فى نفسها؛ شابة نحيفة فى ملابس فضفاضة من نسيج شبكى شفاف قابل للاشتعال. كانت تفعل ذلك احتجاجًا على ظلم أو ما شابه؛ لكن لماذا تظن أن حرق نفسها سيحل شيئًا؟ أردت أن أقول لها: "لا تفعلى ذلك. لا تحرقى حياتك. فمهما كان السبب فهو لا يستحق." لكن من الواضح أنه يستحق فى نظرها.

ماذا يتملكهن أولئك الفتيات الصغيرات الموهوبات فى قتل أنفسهن حرقا؟ فهل يفعلن ذلك ليظهرن أن الفتيات يتمتعن بالشجاعة أيضًا، وأن بوسعهن القيام بما هو أكثر من البكاء والنواح، إنهن يستطعن مواجهة الموت بخفة ومهارة وتباهٍ؟ ومن أين يأتيهن الدافع؟ فهل يبدأ بالتحدى، وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يتحدين؟ هل يتحدين النظام العظيم للأشياء الخانق بصرامته وكآبته، المركبة الحربية الكبيرة ذات العجلات المسننة، الطغاة العميان، أمِ الإلهة العمياء؟ فهل بلغ الطيش أو التعجرف بأولئك الفتيات مبلغًا جعلهن يعتقدن أن بإمكانهن اعتراض سبيل تلك الأشياء بالتضحية بأنفسهن قربانًا على مذبح نظرى، أم أنه نوع من الاختبار؟ تستحق أبلغ الإعجاب إذا بهرتك فكرة تستحوذ عليك. وتصل إلى أقصى درجات الشجاعة أيضًا. لكن لا جدوى من ذلك على الإطلاق.

ينتابنى القلق على سابرينا من هذا المنطلق. فما الذى تنوى فعله هناك فى أطراف الأرض؟ هل جرفتها الأفكار المسيحية أم البوذية، أم تسكنها أفكار مجنونة أخرى؟ "طالما أنك تنزل عقابك على أهون هؤلاء شأنًا، أنزله بى." هل كتبت تلك الكلمات على جواز سفرها عبثًا؟ فهل تريد التكفير عن خطايا أسرتها البائسة التى سحقها وحطمها المال؟ أرجو ألا يكون الأمر كذلك.

حتى إيمى كان فيها شيء من هذا، لكنه كان معها أبطأ وأكثر التواء. سقطت لورا من على الجسر حين كانت إيمى فى الثامنة، ومات ريتشارد عندما كانت فى العاشرة. لم تمر هذه الأحداث إلا وتركت تأثيرها عليها. وبعدها تمزقت وانهارت بينى وبين وينفريد. لم تكن وينفريد لتكسب تلك المعركة الآن، لكنها كسبتها آنذاك.

فسرقت إيمى منى وأبعدتها عنى، وحاولت قدر استطاعتى لكنى لم أتمكن من استعادتها أبدًا.

فلا عجب أنه عندما بلغت إيمى سن الرشد ووضعت يدها على النقود التى تركها لها ريتشارد قفزت من السفينة، ولجأت لشتى أنواع العقاقير التى تمنح السعادة، وتعرت مع رجل بعد آخر. (فمن على سبيل المثال والد سابرينا؟ من الصعب معرفة ذلك، وإيمى لم تذكره أبدًا. كانت تقول "فلنجعل العجلة تدور ونختار."

حاولت أن أبقى على اتصال بها. ولم أتخل عن الأمل فى إعادة العلاقات بيننا، فهى ابنتى على كل حال، وأشعر بالذنب تجاهها، وأرغب فى أن أعوضها – أعوضها عما صادفته من صعاب فى طفولتها. لكنها فى ذلك الوقت كانت قد انقلبت ضدى – وضد وينفريد أيضًا، مما حمل لى شيئًا من العزاء. لم ترغب فى كلينا بجانبها أو بجانب سابرينا – وبالأخص سابرينا. فلم تشأ لها أن تتلوث بنا.

غيرت منزلها مرارًا فى حالة من القلق. ألقى بها إلى الشارع مرتين، لعدم دفعها الإيجار؛ كما تم القبض عليها لتسببها فى الإزعاج. ودخلت المستشفى عدة مرات. أرى أنكم لابد وأن تصفوها بأنها مدمنة كحوليات، وإن كنت أكره هذا التعبير. كان لديها ما يكفى من المال، ولذلك لم تعمل أبدًا، وهو من فضائل الأمور، فليس فى استطاعتها الاستمرار فى عمل. أو لعله ليس من فضائل الأمور. فربما اختلفت الأمور لو لم يكن بوسعها الانجراف من شىء لآخر؛ لو اضطرت للتركيز على وجبتها الغذائية القادمة، بدلاً من أن تركز تفكيرها فى ما تشعر أنه إساءة منا إليها. فالدخل الذى لا يعمل المرء لكسبه يشجع على رثاء الذات عند من ينزعون إلى ذلك.

آخر مرة زرت فيها إيمى كانت تسكن أحد المنازل المتجاورة الفقيرة بجوار شارع البرمان فى تورنتو. رأيت طفلة، خمنت أنها لابد وأن تكون سابرينا، تجلس القرفصاء فى مربع ترابى بجوار الرصيف الخارجى – طفلة صغيرة قذرة ورثة الهيئة ترتدى سروالاً قصيرًا بلا سترة من أعلى. كان معها قدح قديم من الصفيح

تجرف فيه الحصى بملعقة ملتوية. كانت كائنًا صغيرًا واسع الحيلة وعلى قدر من الدهاء. سألتنى قطعة بربع دولار. هل أعطيتها؟ غالبًا. قلت لها: "أنا جدتك." فرمقتنى محدقة نحوى إلى أعلى، وكأننى مجنونة. فمما لا شك فيه أن أحدا لم يخبرها قط عن وجود مثل هذا الشخص.

تلقيت لومًا غاضبًا من أحد الجيران فى تلك المرة. بدا أنهم ناس كرماء، أو كرماء لدرجة إطعام سابرينا عندما تنسى إيمى أن تعود إلى المنزل. وحسبما أذكر كانوا يحملون لقب كيلى. وهم الذين استدعوا الشرطة عندما عثر على إيمى مكسورة العنق أسفل الدرج. فهل سقطت، أم دفعها أحد، أم قفزت، لم نعرف ذلك أبدًا.

كان يجب أن أخطف سابرينا فى ذلك اليوم وأهرب بها. أتوجه بها إلى المكسيك. كنت سأفعل ذلك لو علمت ما سيحدث - أن وينفريد ستسرقها وتحبسها بعيدًا عنى، تمامًا كما فعلت مع إيمى.

هل كانت سابرينا ستصبح أسعد حالاً معى منها مع وينفريد؟ ما الذى كان سيروقها أفضل، أن تنشأ مع عجوز ثرية حقود وقميئة، بدلاً من عجوز فقيرة حقود وقميئة، أى معى أنا؟ لكنى كنت سأحبها. وأشك أن وينفريد أحبتها يومًا. فهى إنما تمسكت بسابرينا لإغاظتى؛ لمعاقبتى؛ ولتبين أنها انتصرت علىّ.

لكنى لم أخطف طفلاً ذلك اليوم. طرقت الباب، وعندما لم تأتنى إجابة فتحته ودخلت، وبعدها صعدت الدرج الضيق منحدر الدرجات إلى شقة إيمى بالدور الثانى. كانت إيمى فى المطبخ تجلس إلى المنضدة الصغيرة المستديرة، تنظر إلى يديها حيث تمسك بهما قدحًا من القهوة عليه وجه ضاحك. كانت ترفع القدح قريبًا من عينيها وتحركه بين اتجاه وآخر. كان وجهها شاحبا وشعرها مشعثًا. لا أقول إنى وجدتها بالغة الجمال. وكانت تدخن سيجارة. من المرجح أنها كانت تحت تأثير نوع من المخدر ممزوج بالكحول؛ فقد شممت رائحته فى الحجرة تمتزج برائحة دخان قديم، وحوض قذر ودلو قمامة لم ينظف.

حاولت التحدث معها. بدأت كلامى برفق وهدوء، لكنها لم تكن فى حالة مزاجية تسمح بالإصغاء. قالت إنها سئمت ذلك، سئمتنا جميعًا. والأغلب أنها سئمت الإحساس بإخفاء أشياء عنها. فقد عتمت عليها الأسرة؛ فما من أحد يخبرها بالحقيقة؛ فأفواهنا تفتح وتغلق وتخرج منها الكلمات، لكنها كلمات لا تقول شيئًا ولا تؤدى إلى شىء.

ومع ذلك فقد فهمت كل شىء. لقد سرقت وحرمت من ميراثها، لأننى لست أمها الحقيقية وريتشارد ليس أباها الحقيقى. فكل شىء مكتوب فى كتاب لورا، حسبما قالت.

سألتها ماذا تعنى بحق. قالت إن الأمر واضح؛ فلورا هى أمها الحقيقية، وأبوها الحقيقى هو ذلك الرجل، ذلك الموجود فى رواية "القاتل الأعمى". كانت خالتى لورا تحبه، لكننا أحبطناها - فتخلصنا من ذلك الحبيب المجهول بطريقة ما. أفزعناه فهرب، أو رشوناه ليبتعد، أو تخلصنا منه، أو شىء من هذا القبيل؛ فلقد عاشت فى منزل وينفريد فترة كافية لترى كيف يدير أمثالنا الأمور. وبعدها عندما ظهر أن لورا حملت منه، أرسلناها بعيدًا للتعتيم على الفضيحة، وعندما مات طفلى عند الولادة سرقنا الطفل من لورا وتبنيناه، واتخذناها ابنتنا.

لم تكن أقوالها مترابطة، لكن هذا فحواها. يمكنكم رؤية كم تروق لها تلك القصة الملفقة؛ فمن لا يريد أن تكون أمه كائنًا أسطوريًا بدلاً من ذلك النوع الحقيقى البالى؟ وها هى قد واتتها الفرصة.

قلت لها إنها مخطئة تمامًا، فقد اختلطت عليها الأمور، لكنها لم تصغ. وقالت إنه لا عجب أنها لم تشعر بالسعادة أبدا معى أنا وريتشارد. فلم نتصرف أبدًا كوالدين حقيقيين لها، وذلك لأننا لم نكن فى الواقع والديها الحقيقيين. ولا عجب أن ألقت خالتى لورا بنفسها من فوق الجسر - وذلك لأننا حطمنا قلبها. وربما تركت لورا رسالة لإيمى تشرح كل ذلك، لتقرأها عندما تكبر، لكن لابد وأن مزقتها أنا وريتشارد.

وواصلت أن لا عجب إن كنت أمًا فظيعة. فلم أحبها أبدًا فى الواقع. فلو فعلت لجعلتها قبل كل شىء آخر. لراعيت مشاعرها. وما كنت تركت ريتشارد.

قلت: "ربما لم أكن أمًا مثالية. أعترف بذلك، لكنى فعلت كل ما فى وسعى فى ظل الظروف – الظروف التى لا تعرفين عنها حقيقة سوى القليل." وواصلت فسألتها ماذا تفعل هى مع سابرينا؟ تتركها تجرى هنا وهناك خارج المنزل بهذا الشكل قذرة وبلا ملابس كشحاذة؛ فذلك إهمال، ويمكن أن تختفى الطفلة فى أى لحظة، فالأطفال يختفون كثيرًا. وأنا جدة سابرينا ويسعدنى أن أكفلها عندى، و...

فقالت إيمى: "أنت لست جدتها" وواصلت وهى تبكى: "جدتها هى خالتى لورا. أو كانت جدتها. فقد ماتت وأنت التى قتلتيها!"

قلت: "لا تكونى غبية." وكان ذلك رد فعل خاطئ: فكلما تحمسنا فى نفى مثل هذه الأمور، كلما رسخ صدقها. لكن غالبًا ما يأتى رد الفعل خاطئًا عندما يخاف المرء، وإيمى أخافتنى.

وعندما نطقت بكلمة "غبية"، بدأت هى تصرخ فى وجهى. وقالت أنا لست غبية. أنا كنت غبية إلى حد الخطر، كنت بالغة الغباء حتى إننى لم أدرك قدر غبائى. وتفوهت بكثير من الكلمات لن أكررها، ثم التقطت القدح ذا الوجه المبتسم وألقتنى به. ثم هجمت على وهى تترنح، وتصرخ وتنشج بالبكاء نشيجًا يقطع نياط القلب. كان ذراعاها ممدودتين فى تهديد، عما أعتقد. كنت غاضبة ومصدومة. فتراجعت للوراء، أقبض على الدرابزين وأتفادى أشياء أخرى – فردة حذاء، وصحن فنجال. وعندما وصلت إلى الباب الخارجى أسرعت بالفرار.

ربما كان على أن أمد ذراعى نحوها، أن أحضنها. كان يجب أن أبكى. وبعدها أجلس معها وأخبرها بتلك القصة التى أحكيها لكم الآن. لكنى لم أفعل ذلك. فاتتنى الفرصة، وأندم عليها بمرارة.

لم يمض سوى ثلاثة أسابيع على ذلك وسقطت إيمى من الدرج. نعيتها بالطبع. فهى ابنتى. لكن لابد وأن أعترف أنى نعيت النفس التى كانتها فى عمر

أصغر. نعيت ما كان يمكن أن تكونه؛ نعيت فرصها الضائعة. وفوق كل شيء نعيت فشلي.

بعد أن ماتت إيمى، نشبت وينفريد مخالبها فى سابرينا. فالامتلاك تسعة أعشار القانون؛ وصلت هى إلى مسرح الأحداث أولاً. فانتزعت سابرينا بسرعة ورحلت بها إلى قصرها المنمق فى روزدال، وبأسرع من طرفة عين أعلنت نفسها واصية شرعية عليها. فكرت فى الحرب، لكن كان ذلك سيكون صراعًا على إيمى من جديد – ذلك الصراع الذى قدر لى أن أخسره.

عندما تولت وينفريد مسئولية سابرينا، لم أكن قد بلغت الستين بعد، وكنت لا أزال قادرة على قيادة السيارة. فمن حين لآخر كنت أسافر إلى تورنتو وأتتبع سابرينا، مثل مخبر خاص فى قصة بوليسية قديمة. فكنت أحوم حول مدرستها الابتدائية – تلك المدرسة الجديدة، مدرستها الابتدائية الجديدة المتميزة –لألمحها وأطمئن أنها بخير رغم كل شيء.

وعلى سبيل المثال كنت فى المتجر ذلك الصباح الذى اصطحبتها فيه وينفريد إلى متجر إيتون لتشترى لها حذاء مناسبًا للحفلة، بعد أن أخذتها ببضعة شهور. ولا شك أنها اشترت لسابرينا ملابس أخرى دون استشارتها – فتلك كانت طريقتها – لكن الأحذية تحتاج إلى تجربتها، ولسبب من الأسباب لم تثق وينفريد فى أن تعهد بتلك المهمة للخدم.

كان وقت الكريسماس – فتزينت أعمدة المتجر بنماذج صناعية من نبات الآس البرى، وأكاليل من ثمار الصنوبر المرشوشة باللون الذهبى تلتف حولها، كما تعلقت على المداخل شرائط من القطيفة الحمراء مثل هالات من الشوك – وحوصرت وينفريد بأغنيات الكريسماس، وهى أكثر ما يزعجها. وكنت فى الممر المجاور. ولم تكن ملابسى كالمعتاد – فكنت أرتدى معطفًا قديمًا من التويد وغطاء رأس مسحوبًا نحو جبهتى إلى أسفل – ومع أنها نظرت نحوى مباشرة، إلا أنها لم ترنى. فربما رأت عاملة نظافة، أو مهاجرة تتصيد الشراء بأسعار رخيصة.

وكانت هي في أبهى زينتها وأناقتها كالعادة، ومع ذلك غير مهندمة وفى حال سيئة. نعم فلابد أنها كانت تقترب من السبعين، وبعد مرحلة من العمر يؤدى أسلوبها فى استخدام أدوات الزينة إلى أن يجعلها تبدو محنطة. فلم يكن عليها أن تستمر فى استخدام طلاء الشفاه البرتقالى، فهو صارخ جدًا بالنسبة لها.

استطعت أن أرى الخطوط العابسة بين حاجبيها والمغطاة بالبودرة، والعضلات المشدودة لفكها المتصلب. وكانت تسحب سابرينا بذراع واحدة محاولة أن تدفعها بين جوقة رواد المتجر المرتدين لمعاطف الشتاء؛ لابد أنها كرهت طريقتهم الحماسية غير المدربة فى الغناء.

ومن ناحية أخرى أرادت سابرينا الاستماع إلى الموسيقى. فكانت تحبطها بأن تثقل جسدها على طريقة الأطفال – فى مقاومة لا تظهرها. كانت ذراعها مشدودة إلى أعلى، وكأنها فتاة نجيبة تجيب سؤالاً فى المدرسة، لكنها كانت متجهمة كجنى صغير. لابد أنه كان يؤلمها ما تفعله. أن تتخذ موقفًا، وتصرح به. وتتمسك به.

كانت الأغنية "الملك وينسلاس الطيب"، وكانت سابرينا تعرف الكلمات؛ فكنت أرى فمها الصغير يتحرك معها. فكانت تغنى: "تألق القمر ساطعًا تلك الليلة، رغم قسوة الثلوج، عندما ظهر رجل فقير يجمع وقود الشتاء."

إنها أغنية عن الجوع. كنت أعرف أن سابرينا تفهمها – فلابد أنها كانت لاتزال تتذكر كيف يكون الجوع.

جذبتها وينفريد من ذراعها بشدة ونظرت حولها بغضب. لم ترنى، لكنها شعرت بوجودى، كما تشعر البقرة فى حقل محكم السياج بوجود الذئب. وحتى لو كان الأمر كذلك فالبقر لا يشبه الحيوانات المفترسة؛ فلقد تعودت أن تكون محمية. كانت وينفريد جفولة، لكنها لم تخف. فلو خطرت على بالها على الإطلاق، فلا شك أنها تظننى فى مكان ناءٍ بعيد، فى الفضاء المظلم حيث أودعتنى، ومن رحمة القدر أنها لا ترانى.

اجتاحنى دافع قوى أن أخطف سابرينا بين ذراعى وأفر بها بعيدًا. وتخيلت صرخات وينفريد المرتعشة وأنا أشق طريقى مندفعة بين جموع المغنيين غير المبالين والذين يرفعون أصواتهم فى راحة فى مقطع من الأغنية يتحدث عن قسوة الجو.

كنت سأحكم قبضتى عليها، ولا أتعثر ولا أدعها تسقط من بين يدى. لكنى أيضًا لم أكن لأتمكن من الذهاب بها بعيدًا. فكانوا سيلحقون بى على الفور.

خرجت إذن إلى الشارع بمفردى، ورحت أسير وأسير عبر أرصفة وسط المدينة مطأطأة الرأس رافعة ياقة معطفى إلى أعلى. كانت الرياح تهب من البحيرة والجليد يتساقط فى دوامات. كان الوقت صباحًا، لكن بسبب السحب المنخفضة والجليد كان الضوء معتمًا؛ والسيارات تسير متثاقلة بطيئة عبر الشوارع غير الممهدة، ومصابيحها الخلفية الحمراء تتراجع مبتعدة عنى مثل عيون وحش أحدب يجرى متقهقرًا بظهره.

كنت أمسك بلفة – نسيت ماذا اشتريت – وبلا قفازين. لابد أنى أسقطتهما فى المتجر بين أقدام الجموع المتزاحمة. لم أشعر بافتقادهما. كانت تلك هى المرة الأولى التى استطعت أن أسير فيها فى عاصفة ثلجية ويدى عاريتين ولم أشعر بذلك. لا يفعل ذلك بالمرء سوى الحب أو الكره أو الرعب أو مجرد الغضب.

تعودت أن ينتابنى حلم يقظة عن نفسى – ومازال ذلك يحدث لى، وسأعود إلى الحديث عنه. حلم يقظة مثير للضحك والسخرية، وإن كان يأتى غالبًا فى صور نشكل فيها مصائرنا. (ستلاحظون كم أنجرف بسهولة لاستخدام لغة طنانة فضفاضة مثل "نشكل مصائرنا" بمجرد أن أجول حرة فى ذلك الاتجاه. لكن لا عليكم.)

فى حلم اليقظة هذا أرى وينفريد وأصدقاءها، وقد ارتدوا أكاليل من النقود فوق رؤوسهم، يجتمعون حول فراش سابرينا الأبيض كثير الطيات الزخرفية بينما هى نائمة، ويناقشون ما سيمنحونه لها. فقد منحتها أسرة بيرك بالفعل الكأس الفضية المنقوشة بالحفر، وورق الحائط الخاص بحجرة الأطفال مع الطنف الجدارية ذات

رسوم الدببة المستأنسة، واللآلئ الأولى لقلادتها اللؤلؤية ذات الجديلة الواحدة، وسائر الهدايا الذهبية الأخرى، التى تلائم المستوى الاجتماعى، والتى ستتحول إلى فحم مع شروق الشمس. وهم الآن يرتبون لطبيب الأسنان المتخصص فى التقويم، ودروس التنس والبيانو والرقص ومعسكر الصيف المتميز. فماذا تأمل فى أكثر من ذلك؟

وفى تلك اللحظة أظهر أنا فى ومضة من الضوء الكبريتى ونفخة من الدخان أخفق بجناحين من الجلد الأسود الفاحم، الأم الروحية المنبوذة التى لا يدعوها أحد. وصحت: "أحب أنا أيضاً أن أمنحها هدية، فهذا من حقى."

فضحكت وينفريد وطاقمها وأشارت نحوى. "أنت؟ لقد تم نفيك منذ زمن بعيد! هل طالعت نفسك فى المرآة مؤخرًا؟ لقد تركت نفسك تنفلتين، فتبدين فى الثانية بعد المائة. عودى إلى كهفك القذر الرث القديم! ماذا يمكن أن يكون لديك لتقدميه؟"

قلت: "أقدم الحقيقة. فأنا آخر من يستطيع ذلك. فهى الشىء الوحيد فى هذه الحجرة الذى سيبقى فى النهار.

مطعم بيتى للوجبات السريعة

مرت الأسابيع، ولم تعد لورا. أردت الكتابة إليها، أو محادثتها بالتليفون، لكن ريتشارد قال إن ذلك سيضرها.

فلا يجب أن نقاطعها بأصوات من الماضى. فهى تحتاج أن تركز انتباهها على وضعها الحالى – أى على العلاج المتاح. فهذا ما نصحونا به. أما عن طبيعة هذا العلاج، فهو ليس طبيبًا ولا يتظاهر بفهمه لمثل هذه الأمور. فمن الأفضل تركها للخبراء.

عذبت نفسى بأن أتخيلها محبوسة، تصارع للخروج وقد وقعت فى شرك من قصة خيالية مؤلمة من صنعها هى، أو فى شرك من قصة خيالية أخرى لا تقل إيلاما، ليست من صنعها على الإطلاق، لكن من نسج أولئك المحيطين بها. لكن

متى تصبح إحداها الأخرى؟ وأين العتبة الفاصلة بين العالمين الداخلى والخارجى؟ فكل منا يروح ويجيء من هذه البوابة كل يوم دون تفكير، فنستخدم كلمات المرور التى تمنحها لنا قواعد النحو – "أقول، أنت تقول، هو يقول وهى تقول، وعلى الجانب الآخر، هى لا تقول وهو لا يقول – فندفع ثمنًا لميزة العقل عملة مشتركة، معان نتفق عليها.

لكن حتى فى طفولتها لم تتفق لورا مع الآخرين أبدًا. فهل هنا تكمن المشكلة؟ إنها تتمسك بقول "لا" عندما يتطلب الأمر قول "نعم"؟ والعكس بالعكس.

أخبرونى أن لورا تتحسن؛ فهى تحرز تقدمًا. وبعدها يقولون إنها لم تتحسن كثيرًا، فقد حدثت لها انتكاسة. فى أى الأشياء تحرز تقدمًا وفى أيها يحدث لها انتكاسة؟ لا يجب أن أحادثها، فذلك سيزعجنى، والمهم أن أحافظ على طاقتى، كما يجب أن تفعل الأم الصغيرة. قال ريتشارد وهو يربت على ذراعى: "سرعان ما ستخور قواك مرة أخرى." فقلت: "لكنى لست مريضة بحق." فقال: "تعرفين ما أعنى. عودى إلى طبيعتك." وابتسم ابتسامة ولعة، بل تحمل كثيرًا من الشبق. كانت عيناه تضيق أو يتحرك اللحم حولهما نحو الداخل مما يضفى عليه مسحة ماكرة. كان يفكر فى الوقت الذى يستطيع أن يعود فيه إلى حيث ينتمى: بالأعلى. وكنت أفكر أنه سيعتصر أنفاسى. فكان وزنه يزداد؛ فقد كان يأكل كثيرًا بالخارج. فكان يلقى كلمات خطابية فى النوادى أمام جموع من ذوى الوزن والشأن والمكانة. جموع متثاقلة، يتقابل فيها رجال من ذوى الوزن والشأن والمكانة يمعنون الفكر، فجميعهم يرتابون فى صعوبات يتشبع بها جو الأيام القادمة.

إلقاء كل هذه الكلمات ينفخ الرجال. فلقد راقبت تلك العملية مرات عديدة حتى الآن. إنه نمط الكلمات التى يستخدمونها، ذلك النمط الذى يستخدمونه فى الخطب. فتأثيره على المخ كتأثير الخميرة على العجين. ويمكن رؤية هذا فى التلفاز أثناء إذاعة البرامج السياسية – فتخرج الكلمات من أفواههم مثل فقاعات الغاز.

قررت أن أمرض بقدر الإمكان لأطول فترة ممكنة.

انتابنى قلق واضطراب متزايد بشأن لورا. ورحت أقلب قصة وينفريد عنها على هذا الجانب وذاك، ناظرة إليها من كل الزوايا. لم أستطع أن أصدقها تمامًا، لكنى لم أستطع أن أنكرها أيضًا.

تميزت لورا دائمًا بقدرة ضخمة؛ القدرة على تحطيم الأشياء دون قصد. ولم تكن تحترم أبدًا الملكيات الخاصة. فما لى هو لها؛ قلمى الحبر، عطرى، ثوبى الصيفى، قبعتى، وفرشاة شعرى. فهل اتسعت تلك القائمة لتضم طفلى الذى لم يكن ولد بعد؟ ومع ذلك إذا كانت تعانى من الأوهام الخادعة – إذا كانت إنما تختلق الأشياء – فلماذا اختلقت هذا الأمر دون سواه؟

لكن فلنفترض من ناحية أخرى أن وينفريد كانت تكذب. ولنفترض أن لورا كانت عاقلة كما كانت دائمًا. فى تلك الحالة لورا كانت تقول الحقيقة. وإذا كانت لورا تقول الحقيقة، إذن لورا كانت حاملاً. وإذا كان سيكون هناك طفل بالفعل، فما مصيره؟ ولماذا لم تخبرنى بذلك، بدلاً من أن تخبر به أحد الأطباء، وهو شخص غريب؟ لماذا لم تطلب منى أن أساعدها؟ خطر لى ذلك أحيانًا. قد تكون هناك عدة أسباب وجيهة. وربما كانت حالتى الحرجة من بينها.

أما بخصوص الأب، سواء كان حقيقة أم خيالاً، فشخص واحد هو المحتمل على الإطلاق. فلابد أنه أليكس توماس.

لكن هذا غير ممكن؟ وكيف يمكن؟

لم أعد أعرف كيف كانت لورا ستجيب عن هذه الأسئلة. فلقد أصبحت مجهولة بالنسبة لى، تمامًا كما يصبح داخل قفازك مجهولاً لديك عندما تكون يدك بداخله. كانت معى طوال الوقت، لكنى لم أستطع النظر إليها. إنما كنت أشعر بهيئة حضورها؛ هيئة فارغة تمتلئ برؤى خيالى.

مرت الأشهر. فكان شهر يونيو، تبعه يوليو ثم أغسطس. وقالت وينفريد إنى أبدو شاحبة منهكة. ولابد من قضائى وقتًا أطول بالخارج. فإذا لم أمارس التنس أو الجولف، كما كانت تقترح علىَّ مرارًا – حيث إنه قد يعالج ما أعانيه من تعب

بسيط بالمعدة والذى لابد من الانتباه إليه قبل أن يصبح مزمنا – فلأعمل على الأقل فى حديقتى الصخرية. فهو عمل يتناسب تماما مع مسئوليات الأمومة.

لم أكن مولعة بحديقتى الصخرية، والتى كانت لى بالاسم فقط، مثل أشياء أخرى كثيرة (مثلها مثل "طفلتى" إذا فكرتم فى الأمر؛ فهى بلاشك شىء يتحدى، شىء تركه الغجر وراءهم؛ فقد أخفيت طفلتى الحقيقية – تلك التى تبكى قليلا وتبتسم كثيرًا، ولا تميل كثيرًا إلى الحدة فى الطباع.) وبالمثل قاومت الحديقة الصخرية كل ما كنت أبذله لها من عون؛ فلم يسعدها شىء مما فعلته لها. كانت صخورها جميلة المنظر _ فبها الكثير من أحجار الجرانيت الوردية مع الحجر الجيرى – لكنى لم أستطع أن أجعل شيئًا ينمو فيها.

اكتفيت بالكتب – مثل "النباتات المعمرة للحديقة الصخرية" ونباتات الصحراء العصارية للأجواء الشمالية" وغيرها. قرأت تلك الكتب ورحت أعد القوائم سواء بما يمكن لى زراعته أو بما زرعته بالفعل، وبما كان يجب أن ينمو فيها لكنه لم يحدث. "دماء التنين"، "ثلوج فوق الجبل"، و"دجاجات وكتاكيت". أعجبتنى الأسماء، لكنى لم أهتم كثيرًا بالنباتات نفسها.

قلت لوينفريد: "لست بارعة فى الزراعة. فأنا لست مثلك." أصبح تظاهرى بالعجز طبيعة تلازمنى، لا أحتاج إلى التفكير فيها. ومن جانبها كفت وينفريد عن اعتبار عدم براعتى فى شىء صفة مناسبة لى. فقالت: "الأمر يحتاج منك إلى بعض المجهود بالطبع." وهنا قدمت قوائمى المعدة بعناية عن النباتات الميتة. وقلت: "الصخور جميلة. هل يمكن أن نعتبرها مجرد أعمال نحتية فحسب؟"

فكرت فى أن أذهب وحدى لرؤية لورا. بوسعى أن أترك إيمى مع المربية الجديدة، والتى ظننتها مثل مس مورجاترويد – فكل خدمنا فى رأى مس مورجاترويد، يتآمرون سرًا. لكن كلا، فالمربية ستخبر وينفريد. يمكننى تحديهم جميعًا؛ يمكننى التسلل خارجة صباح أحد الأيام، وأن آخذ إيمى معى؛ يمكن أن نذهب بالقطار. لكن نذهب بالقطار إلى أين؟ فأنا لا أعرف مكان لورا – لا أعرف أين أخفوها. يقولون إن مصحة بيلا فيستا فى مكان ما نحو الشمال، لكن الشمال

يضم العديد من المناطق. ففتشت فى مكتب ريتشارد، ذلك الموجود فى حجرة مكتبه بالمنزل، لكنى لم أعثر على خطابات من هذه المصحة. فلابد أنه يحتفظ بها فى مكتبه بالعمل.

وذات يوم حضر ريتشارد إلى المنزل مبكرًا. وكان بالغ القلق والانزعاج. وقال إن لورا لم تعد فى بيلا فيستا.

فسألته: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟"

فقال إن رجلاً حضر إلى المكان وادعى أنه محامى لورا، أو أنه يعمل لصالحها. قال إنه وصى – وصى على ودائع الائتمان الخاصة بمس تشاس. وأعلن تحديه للسلطة التى أودعتها بيلا فيستا. وهدد برفع دعوى قانونية. فهل كنت أعرف شيئًا عن مجرى تلك الأحداث؟

"كلا، لا أعرف" (وأبقيت يدى مطويتين فى حجرى. وأبديت دهشة واهتمامًا معقولاً. لكنى لم أبد بهجة وانشراحًا.) وسألت: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

كان مدير بيلا فيستا غائبًا، وارتبك فريق العمل. فتركوها تذهب فى رعاية ذلك الرجل. فقد أدركوا أن الأسرة تود أن تتجنب انتشار الأمر بلا داع. (فلقد هدد المحامى بشىء من هذا.)

قلت: "حسنًا، أظنهم فعلوا الصواب."

قال ريتشارد: حقًا بلا شك؛ لكن هل لورا فى كامل قواها العقلية "compo mentis" ؟ فلصالحها ولسلامتها، لابد أن نحدد ذلك على الأقل. فرغم أنها تبدو هادئة من الخارج، إلا أن فريق العمل فى بيلا فيستا لديهم شكوكهم. فمن يدرى أى خطر قد تشكله لنفسها وللآخرين إذا سمح لها بالتجول فى حرية؟

فهل وصلنى شىء عن مكان وجودها؟

"لم يصلنى."

ألم تأتنى أخبار عنها؟

"لم تأتنى أية أخبار."

ألن أتردد فى إعلامه إن حدث ذلك؟

"لن أتردد". كانت تلك هى كلماتى نفسها. كانت جملة بلا مفعول به، ومن ثم لم تكن كذبًا على وجه التحديد.

انتظرت أن تمضى فترة معقولة من الزمن سافرت بعدها إلى بورت تيكونديروجا بالقطار لمشورة رينى فى الأمر. اخترعت مكالمة هاتفية؛ وفسرت الأمر لريتشارد بأن صحة رينى ليست على ما يرام، وهى ترغب فى رؤيتى قبل أن يحدث شىء. وأعطيته انطباعًا أنها على فراش الموت. وقلت له سيسعدها أن ترى صورة لإيمى؛ وقلت إنها تريد أن تتجاذب الحديث معى حول الأيام الجميلة الماضية. وهذا أقل ما أقدمه لها. فرغم كل شىء من المؤكد أنها قامت على تربيتنا. قامت على تربيتى، قلتها مصوبة لأصرف انتباه ريتشارد عن التفكير فى لورا.

رتبت للقاء رينى فى مطعم بيتى للوجبات السريعة. (كان لديها هاتف آنذاك، فقد كانت تشق طريقها دون توان.) فقالت إن ذلك أفضل. وكانت لا تزال تعمل هناك بعض الوقت، لكن كان بوسعنا اللقاء بعد انتهاء ساعات عملها. فقالت إنه أصبح للمكان ملاك جدد، فما كان الملاك القدامى ليسمحوا لها بالجلوس فى أماكن الزبائن، حتى لو كانت تدفع، أما الملاك الجدد فقد قرروا حاجتهم لكل من يستطيعون الحصول عليه من الزبائن.

كان مطعم بيتى يغوص مسافة بعيدة أسفل التل. وقد أزيلت عنه المظلة المخططة، وبدت الحجيرات الداكنة مخدوشة ورديئة. ولم تعد تفوح منه رائحة الفانيليا الطازجة، إنما رائحة دهن زنخ. أدركت أننى كنت مبالغة فى ملابسى. فما كان يجب أن أرتدى لفاع الرقبة المصنوع من فراء الثعلب. فما جدوى التباهى فى مثل تلك الظروف؟

لم يعجبنى منظر رينى، كانت منتفخة جدًا، وممتقعة جدًا ونفسها ثقيل بعض الشيء. ربما أنها لم تكن حقًا على ما يرام، واحترت ما إذا كان يجب أن أسألها عن السبب. وبينما كانت تدلف متثاقلة إلى الحجيرة لتجلس أمامى قالت: "من الخير أن أخف الحمل عن قدمى."

كانت ميرا معها – كم كان عمرك يا ميرا؟ لابد أنك كنت فى الثالثة أو الرابعة، فلقد اختلط علىّ الأمر. كانت وجنتاها حمراوين من الإثارة، وعيناها مستديرتين وتبرزان إلى الخارج قليلاً، وكأنها تشنق برفق.

قالت رينى فى ود وحنان: "أخبرتها بكل شىء عن كليكما." وأذكر أن ميرا لم تهتم بى إنما شغلتها الثعالب حول عنقى. فالأطفال فى مثل عمرها يحبون دائمًا الحيوانات ذات الفراء، حتى وإن كانت ميتة.

قلت: "هل قابلت لورا أو تحدثت معها؟"

"أقل ما يقال سرعة إصلاح الأمر." قالتها رينى وهى تنظر حولها، وكأنما حتى فى هذا المكان قد يكون للجدران آذان. ولم أجد ضرورة لهذا الحذر.

قلت: "أظنك أنت من رتب أمر المحامى؟"

بدت الحكمة على رينى وهى تقول: "فعلت ما اقتضاه الحال. وعلى كل، فهذا المحامى هو زوج إحدى قريبات أمك، فهو من الأسرة بحال. ومن ثم فطن للأمر، بمجرد علمى بما كان يجرى، وهذا كل شىء."

"كيف عرفت؟" وكنت أدخر سؤالى "ماذا عرفت؟" لوقت لاحق.

قالت رينى: "كتبت لورا إلى. وقالت إنها كتبت إليك لكن لم يصلها رد منك على الإطلاق. لم يكن مسموحًا لها بإرسال أية خطابات من هذا النوع، لكن الطباخة ساعدتها فى الخروج. وأرسلت لها لورا المال المطلوب بعد ذلك مع بعض الزيادة."

قلت: "لم تصلنى أية خطابات."

"هذا ما خمنته. فلقد توقعت أنهم عملوا على ذلك."

كنت أعرف من تقصد ب"هم". فقلت: "أرى أنها أتت إلى هنا."

قالت ريني: "وإلى أين سوى إلى هذا المكان يمكن لتلك المخلوقة المعذبة أن تذهب، بعد كل ما مرت به؟"

"وما الذى مرت به؟" أردت بشدة أن أعرف، وفى ذات الوقت كنت أخشى تلك المعرفة. وقلت فى نفسى قد اختلقت لورا الحكايات. فربما هى تعانى من الأوهام. ولا يمكن استبعاد ذلك.

لكن ريني استبعدته؛ وبغض النظر عن القصة التى أخبرتها بها لورا، فقد صدقتها. أشك أنها نفس القصة التى سمعتها. بل وأشك بصفة خاصة فى أنها تتناول طفلاً فى أى شكل أو هيئة. قالت: "يحضرنا أطفال، ولذلك فلن أخوض فى الموضوع." وأومأت إلى ميرا، التى كانت تلتهم شريحة من الكعك بلون وردى قمىء وتحملق فىّ كأنما تريد أن تلعقنى. وأضافت: "إذا أخبرتك بكل شىء فلن تنامى الليل. لكن العزاء الوحيد أن لا يد لك فى الأمر. هذا ما قالته."

"أهى قالت هذا؟" أراحنى سماع ذلك. فمما لاشك فيه أنها صورت كلاً من ريتشارد ووينفريد على هيئة وحشين، بينما التمست لى الأعذار من منطلق الضعف الأخلاقى. مع أنه كان بوسعى التأكد من أن ريني لم تسامحنى تمامًا لكونى على قدر من الإهمال أسفر عن كل ما حدث. (بمجرد أن سقطت لورا من الجسر تضاءلت مسامحتها لى. فهى ترى أننى لابد وأن أكون ضالعة فى الأمر. ومن ثم عاملتنى بجفاء بعد ذلك. وماتت كمدًا.)

قالت ريني: "فتاة صغيرة مثلها، ما كان يجب إيداعها مكانًا كهذا على الإطلاق، مهما كان الأمر. فالرجال يجولون وسراويلهم مفتوحة، ويأتون شتى الفواحش. أمر مخجل."

"هل سيعضوننى؟" قالتها ميرا وهى تلمس ثعالبى.

قالت ريني: "لا تلمسى هذا بأصابعك الصغيرة اللزجة."

قلت: "لا. فهى ليست حقيقية. انظرى إن لها عيونا زجاجية. وهى لا تعض سوى أذيالها."

قالت رينى: "قالت إنك لو كنت تعرفين، ما تركتيها هناك أبدًا. وعلى فرض أنك كنت تعلمين. وقالت شيئا من قبيل أنك لست متحجرة القلب." وقطبت جبينها وهى تنظر جانبًا نحو كوب الماء. فقد ساورتها الشكوك بهذا الصدد. وأضافت: "يأكلون البطاطس فى أغلب الأحيان. مهروسة أو مسلوقة. يقترون على الطعام، فينزعون اللقمة من أفواه المرضى العقليين والمجانين هناك. ويحشون جيوبهم على ما أعتقد."

"أين ذهبت؟ أين هى الآن؟"

قالت رينى: فليكن ذلك بينى وبينك لا يتجاوزنا. فقد قالت إنه من الأفضل ألا تعرفى."

"هل بدت... هل هى ..." أردت أن أسأل ما إذا كانت مجنونة بالفعل.

قالت رينى: "كانت مثلما كانت دائمًا، بلا زيادة أو نقصان. فهى لم تبد كالمجانين، إذا كان هذا ما تقصدين. لكنها أنحف – فتحتاج إلى استعادة وزنها – ولم تتحدث كثيرًا عن الرب. وكل ما أرجوه أن يساندها الآن، عل سبيل التغيير."

قلت: "شكرًا جزيلاً لك يا رينى على كل ما فعلت."

ردت رينى بجفاء: "لا داعى لشكرى، فما فعلت سوى الصواب."

وهى تعنى بذلك أننى لم أفعله. "هل يمكننى الكتابة إليها؟" وكنت أبحث عن منديلى. فقد شعرت برغبة فى البكاء. شعرت أننى مجرمة.

"قالت الأفضل ألا تفعلى. لكنها طلبت منى أن أبلغك أنها تركت لك رسالة."

"رسالة؟"

"تركتها قبل أن يأخذوها إلى ذلك المكان. وقالت إنك تعرفين أين تجدينها."

"هل هذا منديلك. هل أصابك برد؟" قالتها ميرا وهى تلاحظ تنشق باهتمام.

فقالت لها رينى: "إذا أكثرت من الأسئلة سيسقط لسانك."

"كلا لن يحدث." قالتها ميرا برضا. وأخذت تدندن نشازًا وترفس ركبتى بساقيها المكتنزتين من تحت المنضدة. بدا أن لديها ثقة بالذات تملؤها بهجة، ولم يكن من السهل إخافتها – وهى صفات فيها طالما وجدتها مزعجة، لكنى أصبحت ممتنة لها. (قد يكون ذلك خبرًا سارًا لك يا ميرا. فلتقبليها صفة تستحق الثناء إذا سنحت الفرصة. فهى أمر نادر فى هذا العالم.)

قلت لرينى: "أرى أنك ربما تودين مشاهدة صورة لإيمى." فلم يكن بحوزتى سوى هذا الإنجاز أقدمه لتبرئة ساحتى فى نظر رينى.

تناولت رينى الصورة وقالت: "ياه، إنها كائن أسمر صغير، أليس كذلك؟ لا يمكن أن نعرف من سيشبهه الطفل."

قالت ميرا وهى تنزعها بمخالبها اللزجة بالسكر: "أحب أن أرى أنا أيضًا."

"بسرعة إذن، ولنذهب. فقد تأخرنا على والدك."

قالت ميرا: "لا."

"مهما كان متواضعًا، فلا مكان كالمنزل." غنتها رينى وهى تمسح بقايا الثلج الوردية من على أنف ميرا الصغير بمنشفة ورقية.

قالت ميرا: "أريد أن أبقى هنا" لكنها جذبت من معطفها، وكبست على أذنيها قبعتها المغزولة من الصوف، وسحبت جانبًا إلى خارج الحجيرة.

"اعتنِ بنفسك." قالتها رينى، ولم تقبلنى

أردت أن ألقى ذراعى حولها وأنفجر بالبكاء والعويل. أردتها أن تواسينى وتطمئنى. رغبت أن أكون أنا من تذهب معها.

عندما كانت فى الحادية أو الثانية عشرة قالت لورا ذات يوم: ""لا مكان كالمنزل" رينى تغنى ذلك. أعتقد أنه غباء."

قلت: "ماذا تقصدين؟"

فكتبتها على هيئة معادلة: "انظرى. لا مكان = المنزل. إذن المنزل = لا مكان. إذن المنزل لا يوجد."

المنزل حيث يكون القلب، خطر لى ذلك وأنا ألملم شتات نفسى فى مطعم بيتى للوجبات السريعة. لم يعد لدى قلب، فلقد حطم؛ أو لعله لم يتحطم إنما لم يعد موجودًا فحسب. فلقد نزِع منى بمغرفة صغيرة وبأسلوب منمق مثلما ينزع الصفار من بيضة مسلوقة، تاركًا سائر جسدى جافًا أجوف بلا دماء.

وقلت فى نفسى إننى بلا قلب. إذن فأنا بلا منزل أو مأوى.

telegram @ktabpdf

الرسالة

بالأمس بلغ منى التعب مبلغًا لم أستطع معه سوى أن أرقد فوق الأريكة. فأصبح من عاداتى غير المنتظمة أن أشاهد برنامجًا حواريًا صباحيًا، من ذلك النوع الذى يفشون فيه الأسرار. فقد أصبح إفشاء الأسرار موضة الآن؛ فالناس يفشون أسرارهم وأسرار الآخرين، فيفشون كل ما لديهم من أسرار، بل حتى تلك التى ليست لديهم. وهم يفعلون ذلك بدافع الشعور بالذنب والعذاب، ومن أجل جلب السرور إلى أنفسهم، لكنهم يفعلونه غالبًا لأنهم يرغبون فى فضح أنفسهم، ويرغب آخرون فى مشاهدتهم يفعلون ذلك. ولا أستثنى نفسى من هذا؛ فأنا أستعذب تلك الآثام القذرة الصغيرة، تلك الأمور الأسرية الحقيرة المتشابكة، تلك الصدمات والجروح التى نعتز بها ونرعاها بحدب. أستعذب شعور الانتظار الذى يبلغ منتهاه عندما تفتح عنوة علبة الديدان وكأنها هدية مدهشة لعيد ميلاد، يتبعه إحساس الهبوط من القمة ينعكس فى وجوه المشاهدين؛ الدموع المفتعلة الشحيحة، والشفقة التى تظهر التشفى، والاستحسان من منطلق الواجب وإعطاء إشارة البدء. ولا بد أنهم يقولون فى أنفسهم: "أهذا كل ما فى الأمر؟ ألا يمكن أن يكون جرحكم هذا المحفور فى اللحم شيئًا يبعد قليلاً عن المألوف، وأكثر قذارة وملحمية وأكثر كدرًا وإدماء للقلوب؟ فلتحكوا لنا المزيد! أفلا يمكننا زيادة الألم لو سمحتم؟"

أتساءل أيهما أفضل – أن يقضى المرء حياته مثقلا بأسراره منفوخًا بها حتى ينفجر من ضغطها عليه، أم يجعلها تمتص خارجة منه مع كل فقرة وكل جملة وكل كلمة منها، وبذلك يستنفد كل ما كان يومًا ثمينًا لديه عزيزًا عليه مثل ذهب مكتنز وقريبًا منه كجلده – كل ما كان من أهم الأمور لديه، كل ما كان يجعله ينكمش فى نفسه ويتمنى إخفاءه، كل ما كان ينتمى إليه وحده – وتقضى ما تبقى من حياتك مثل زكيبة خاوية تضطرب فى الهواء، زكيبة خاوية موسومة بعنوان كتب بالفلورسنت حتى يعرف الجميع أى نوع من الأسرار كانت بداخلك؟

لا أحمل توجيهات بالأفضل أو الأسوأ.

"أطراف غير محكمة الإغلاق تغرق السفن" هكذا تقول اللوحة الإعلانية وقت الحرب. وعلى كل ستغرق السفن جميعًا عاجلاً أو آجلا.

بعد أن شبعت استغراقًا فى هذا الأمر، تجولت فى المطبخ، حيث تناولت نصف موزة مسودة وقطعتين من بسكويت الصودا. وتعجبت ما إذا كان شيئًا – أقصد نوعًا من الطعام – سقط خلف وعاء القمامة – فقد تناهت إلىّ رائحة لحم – لكن لم يسفر التفقد السريع عن شىء. ربما كانت تلك رائحتى. لا أستطيع مغالبة الإحساس بأن جسدى تنبعث منه رائحة مثل رائحة طعام القطط، رغم العطر الراكد الذى رششت نفسى به هذا الصباح – كان من نوع توسكا، أوماجريف، أوربما جى ريفنز؟ فعندى بقايا من تلك الأنواع مازلت أستخدمها. أشياء كثيرة لأكياس القمامة الخضراء؛ متى ستحصلين عليها يا ميرا؟

تعود ريتشارد أن يمنحنى عطورًا عند شعوره بضرورة استرضائى وملاينتى. فيأتينى بالعطور، والأوشحة الحريرية، والدبابيس المزينة بالجواهر على هيئة حيوانات أليفة، وطيور فى أقفاص، وسمك الشبوط. نفس ذوق وينفريد فى الاختيار، ليس لنفسها إنما لى.

وفى القطار أثناء عودتى من بورت تيكونديروجا وبعد ذلك بعدة أسابيع، رحت أمعن الفكر فى رسالة لورا، تلك التى ذكرت رينى أنها تركتها لى. لابد أنها كانت تعلم آنذاك أنه مهما كانت تزمع قوله للطبيب الغريب بالمستشفى قد تكون له عواقبه. لابد أنها كانت تعلم مدى انطواء ذلك على مغامرة، فاحتاطت للأمر. ومن ثم تركت لى بطريقة من الطرق وفى أحد الأماكن رسالة أو إشارة أستدل بها، مثل المنديل الملقى أو أثر من الحصى الأبيض فى الغابات.

وتصورتها تكتب هذه الرسالة، بطريقتها المعتادة فى الكتابة. فلاشك أنها مكتوبة بالقلم الرصاص، قلم رصاص مضغ طرفه. فكانت دائمًا تمضغ أطراف أقلامها الرصاص؛ وكما يحدث للأطفال كانت تفوح من فمها رائحة خشب الأرز، وإذا كان قلمًا من أقلام الرصاص الملونة تتلون شفتاها بالأزرق أوالأخضر أوالأرجوانى. كانت تكتب فى بطء بخط طفولى، حروفه كبيرة ومستديرة وممتدة فى ارتعاش. تضع النقط فوق الحروف مستديرة تميل إلى أقصى اليمين، وكأن كلا منها بالونة سوداء مربوطة بخيط غير مرئى. وجلست بجوارها فى الخيال لأرى ما ستفعله بعد ذلك.

تنهى الرسالة، ثم تضعها فى مظروف وتغلقه، ثم تخفيه، بنفس الطريقة التى أخفت بها صرتها من النتانيش الصغيرة فى أفيليون. لم تكن قد اقتربت من المكان قبل أن يأخذوها بوقت قريب.

كلا لابد أن تكون الرسالة فى المنزل بتورنتو. فى مكان لا يبحث فيه أحد سواى – فلا ريتشارد ولا وينفريد ولا أحد من عائلة مورجاترويد. بحثت فى عدة أماكن – قاع الأدراج، خلف خزانات الملابس، وجيوب معاطفى الشتوية، وكل ما لدى من حقائب يد، بل حتى داخل قفازاتى الشتوية الخالية من الأصابع – لكننى لم أعثر على شىء.

وهنا تذكرت أن صادفتها مرة فى حجرة مكتب جدى عندما كانت فى العاشرة أو الحادية عشرة. وكانت تفتح إنجيل العائلة مشرعا أمامها، نسخة جلدية ضخمة، وكانت تقص أجزاء منه بمقص الخياطة القديم الخاص بوالدتى.

فقلت: "ماذا تفعلين يا لورا؟ إنه الإنجيل!"

"أنزع الأجزاء التى لا أحبها."

وأخرجت الصفحات التى ألقت بها فى سلة المهملات وفردتها؛ وكانت مقاطع من سفر الأخبار، وصفحات وصفحات من الكتاب الثالث “Leviticus” الذى يضم قوانين تتعلق بالقساوسة وأبناء قبيلة ليفى، ونتفًا صغيرة من سانت ماثيو والتى يلعن فيها المسيح شجرة التين الجرداء. تذكرت الآن أن لورا تغضب لأجل شجرة التين تلك فى الأيام التى كانت تذهب فيها لمدرسة الأحد. كانت ثائرة لأن المسيح يحمل ضغينة لشجرة. "نتعرض جميعًا لأيام سيئة" قالتها رينى معلقة وهى تخفق بياض البيض بهمة فى وعاء أصفر.

قلت لها: "لا يجب أن تفعلى ذلك."

فردت لورا وهى مستمرة فى القص: "إنها مجرد أوراق. والأوراق لا تهم، إنما المهم الكلمات المكتوبة عليها."

"ستقعين فى ورطة كبيرة."

قالت: "لا، لن يحدث. فما من أحد يفتحه على الإطلاق. إنما هم ينظرون فى الصفحات الأمامية وحدها فى مناسبات الميلاد والزواج والموت."

وكانت محقة فى ذلك أيضًا، فلم يكتشفها أحد.

كانت تلك الذكرى هى ما جعلنى أخرج ألبوم زفافى، حيث تحفظ صور هذه المناسبة. من المؤكد أن وينفريد لم تكن لتهتم بهذا المجلد، ولم يشاهد ريتشارد أبدًا يقلب فى صفحاته بحب. لابد أن لورا عرفت ذلك، ولابد أنها عرفت أنه سيكون آمنًا. لكن ما الذى ظنته يجعلنى أنظر فيه أنا نفسى؟

إذا كنت أبحث عن لورا سأفعل. ربما أدركت هى ذلك. ففيه العديد من صورها ملصقة على الصفحات البنية بمثلثات سوداء على الأركان؛ صور لها وهى تقطب جبينها وتنظر إلى قدميها، مرتدية ثوب وصيفة العروس.

عثرت على الرسالة، وإن لم تكن بالكلمات. ففى يوم زفافى ذهبت لورا إلى البلدة بمواد التلوين اليدوى، أنابيب الألوان الصغيرة التى كانت اختلستها من مكتب إليوود ميوراى الصحفى وعادت بها إلى بورت تيكونديروجو. فلابد أنها كانت تحتفظ بها مخبأة كل هذا الوقت. فبالنسبة لشخص يدعى احتقار العالم المادى مثلها، لورا لا تجيد التخلص من الأشياء بإلقائها.

كانت غيرت صورتين فقط. الأولى لقطة جماعية لحفل الزفاف. وفيها طمست شبينات العروس وأشابين العريس بطبقة سميكة من النيلة – ونزعتهم من الصورة تمامًا. وتركتنى أنا وريتشارد ولورا نفسها ووينفريد التى كانت شبينة الشرف. ولونت وينفريد بالأخضر الصارخ، وكذلك ريتشارد. ومنحتنى أنا مسحة من الأزرق الفاتح. أما لورا نفسها فكانت بلون أصفر زاه، ليس ثوبها فحسب، لكن وجهها ويداها أيضًا. ماذا يعنى ذلك التألق؟ فقد كان تألقًا وكأن لورا تتوهج من الداخل، مثل مصباح زجاجى أو فتاة من الفسفور. لم تكن تنظر إلى الأمام مباشرة، لكن جانبًا، وكأن محور تركيزها لم يكن فى الصورة على الإطلاق.

والصورة الثانية كانت اللقطة التقليدية للعريس والعروس، التقطت أمام الكنيسة. تلون وجه ريتشارد باللون الرمادى، ذلك الرمادى القاتم حتى طمست ملامحه كلها. وكانت يداه حمراوين، وكذلك ألسنة اللهب التى تندلع من حوله ومن مكان ما من رأسه، وكأنما جمجمته تحترق. أما ثوب زفافى أو قفازى أو خمارى أو الورود فكلها زخارف زينية لم تهتم بها لورا. إنما تعاملت مع وجهى – فقد بيضته حتى بدت غشاوة ضبابية على العينين والأنف والفم، تشبه تلك التى تغطى النوافذ فى يوم بارد ندى. وطمست الخلفية تمامًا بالسواد بل وأيضًا سلالم الكنيسة تحت أقدامنا، تاركة جسدينا كأنما يسبحان فى الفضاء فى قلب أحلك الليالى ظلمة.

الفصل الثاني عشر

مكتبة القاتل الأعمى

جريفون يشيد باتفاق ميونخ

خاص بالجلوبل أند ميل

فى خطبة قوية لاذعة بعنوان "التركيز على شئوننا الخاصة"، ألقيت فى اجتماع الأربعاء بنادى إمبير فى تورنتو، مدح مستر ريتشارد جريفون، رئيس مجموعة مصانع جريفون تشاس الملكية المتحدة المحدودة ورئيس مجلس إدارتها، الجهود المتميزة لرئيس الوزراء البريطانى، مستر نيفل تشامبرلان، والتى أسفرت عن اتفاق ميونخ الأسبوع الماضى. وقال مستر جريفون إنه من حسن الخط أن ابتهجت كافة الأحزاب فى مجلس العموم البريطانى ورحبت بها، وأعرب عن أمله فى أن ترحب بها أيضًا كافة الأحزاب فى كندا، حيث إنه من شأن هذه الاتفاقية أن تنهى حالة الكساد وتمهد "لحقبة ذهبية جديدة" من السلام والرخاء. كما أظهرت تلك الاتفاقية أيضًا قيمة الحنكة السياسية والدبلوماسية وكذلك التفكير الإيجابى والحس الواقعى المباشر فى ممارسة الأعمال والذى عرفناه منذ القدم. وقال: "إذا قدمنا القليل، كسبنا جميعًا الكثير."

وردًا على أسئلة حول الوضع فى تشيكوسلوفاكيا فى ظل الاتفاق، صرح بأنه يرى أن مواطنى هذه الدولة قد حصلوا على ضمانات كافية لحمايتهم. وقال إن ألمانيا القوية العفية تهتم بالغرب، وخاصة بجانب الأعمال، وستعمل على "أن يظل البلاشفة بعيدًا وبمنأى عن باى ستريت." أما الشىء الآخر المرجو فهو اتفاقية تجارية ثنائية، وأكد أنها فى الطريق. ويمكن أن يتحول الاهتمام الآن من التهديد والتلويح باستخدام القوة العسكرية إلى توفير المؤن من البضائع للمستهلكين، وبذلك تتاح فرص العمل ويعم الرخاء فى أكثر البقاع احتياجًا إليها – "فى أفنيتنا الخلفية".

مكتبة القاتل الأعمى

وذكر أن السنوات السبع العجاف يمكن أن يتبعها الآن سبع سمان، وأن نشهد مشاهد الطبيعة الذهبية تمتد على مدى الأربعينيات.

ومن الشائع أن مستر جريفون على وفاق مع قيادات الحزب المحافظ وأنه يتطلع إلى مكانة موجه الدفة. وقد لاقت خطبته استحساناً واسعًا.

ماى فير، يونيو ١٩٣٩

أبهة الحياة الملكية فى حفل بالحديقة الملكية

بقلم: سينثيا بيرفيس

وقف خمسة آلاف من أصحاب الفخامة من ضيوف أصحاب السمو، لورد وليدى تويدسمير، مفتونين مسحورين فى متنزهات الحديقة حيث يقام حفل عيد ميلاد جلالته فى الدار الحكومية فى أتوا، بينما يقوم جلالتهما بجولتهما الكريمة.

ففى الرابعة والنصف برز جلالتهما من الدار الحكومية بجانب المتحف الصينى. كان الملك فى رداء صباحى؛ واختارت الملكة اللون البيج مع فراء ناعم وحبات من اللؤلؤ، وقبعة مرتفعة قليلاً، وعلا وجهها حمرة خفيفة، بينما لمعت ابتسامة دافئة فى عينيها الزرقاوين. فتن الجميع بأسلوب دخولها.

وخلف جلالتهما كان يسير المحافظ العام وليدى تويدسمير، فكان سموه مضيفًا ودودًا كريمًا، وبدت سموها واثقة وجميلة. وقد أبرز جمال ثوبها الأبيض فراء ثعلب من القطب الشمالى بكندا وزاد من جاذبيته لمسات من التركواز فى قبعتها. وقدم لجلالتهما كولونيل إف فيلان وحرمه من مونتريال؛ وكانت ترتدى ثوبًا من الحرير المنقوش بزهور صغيرة متفتحة فى حيوية، وزينت أطراف قبعتها الأنيقة بحافة كبيرة من السلوفان. وكرم أيضًا اللواء جنرال دبيو إتش إل إيلكنس وحرمه وابنته جوان وكذلك مستر ومسز جلادستون ميوراى.

وقد تميز كل من مستر ومسز ريتشارد جريفون؛ فكانت عباءتها من فراء الثعلب الفضى حيث وضع الفراء على شيفون أسود فى صورة أشعة، وكانت ترتديها فوق ثوب مزين بزهور الأوركيد. وكانت مسز دوجلاس وات ترتدى ثوبًا من الشيفون بلون أخضر زاه مع جاكيت بنى من القطيفة؛ وتألقت مسز إف رايد بجمال وجاذبية فى ثوب من نسيج الدانتيلا الأورجاندى والفالينسين.

لم تسمع همسات أثناء تناول الشاى حتى لوح الملك والملكة مودعين، وطقطقت الكاميرات وومضت فلاشاتها وارتفعت الأصوات تهتف "عاش الملك". وبعد ذلك احتلت كعكات عيد الميلاد منتصف المسرح ... كعكات ضخمة بيضاء عليها ندف ثلجية. أما الكعكة التى قدمت للملك بالداخل فلم تتزين بالورود ونبات النفل البرى والحسك فحسب، إنما زينت أيضًا بأسراب من الحمام الصغير المصنوع من السكر تحمل فى مناقيرها رايات مثلثة بيضاء رمزًا للسلام والأمل.

القاتل الأعمى: حجرة المغضبات

إنه منتصف الظهيرة، الجو ملبد بالغيوم والرطوبة عالية وتغطى اللزوجة كل شيء: فقفازها القطنى الأبيض تلطخ من مجرد الإمساك بالدرابزين. الجو حولها ثقيل، بل بالغ الثقل؛ ويجاهد قلبها فى دفعه كأنما يدفع حجرًا. يواجهها الهواء الخانق الراكد. ولا شيء يتحرك.

وهنا يصل القطار، وهى تنتظر عند البوابة كما هو مطلوب منها، ويدلف هو منها كأنما ينجز وعدًا. يراها، فيتجه نحوها، ويتلامسان سريعا، فيتصافحان، كأنهما قريبان من بعيد. تقبله قبلة خاطفة على إحدى وجنتيه، فهو مكان عام، ولا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث، ويسيران معًا عبر المنحدر نحو المحطة الرخامية. تشعر معه بشيء غير مألوف، بتوتر؛ لم تكد تواتيها فرصة للنظر إليه. من المؤكد أنه صار أنحف. وماذا أيضًا؟

"عانيت الأمرين فى طريق عودتى. فلم يكن معى ما يكفى من النقود. فركبت سفن المشردين على طول الطريق.

تقول: ""كان لابد أن أرسل لك بعض النقود."

"أعرف. لكن لم يكن لدى عنوان."

يترك حقيبته القماشية فى مكتب حفظ الأمتعة، ويحمل حقيبة أوراقه الصغيرة وحدها. يقول إنه سيأخذ الحقيبة فى وقت لاحق، لكنه فى الوقت الحالى لا يريد أن يعوقه شيء. يتوافد الناس حولهما، فتسمع أصوات ووقع خطوات؛ أما هما فيقفان حائرين؛ لا يعرفان أين يذهبان. كان عليها أن تفكر فى الأمر، أن ترتب شيئًا، فهى تعرف بالطبع أن لا حجرة له، ليس بعد. وتذكرت أنها على الأقل أحضرت معها زجاجة سكوتش، دستها فى حقيبة يدها.

لابد لهما من الذهاب إلى أى مكان، فيذهبان إلى فندق رخيص يتذكره. إنها المرة الأولى التى يفعلان فيها ذلك، وهى مخاطرة، لكن بمجرد رؤيتها للفندق

تدرك أن ما من أحد فيه يتوقع أن يكونا سوى اثنين غير متزوجين؛ أو لو كانا متزوجين، فليس من بعضهما البعض. ارتدت معطف المطر الصيفى الخفيف، والذى كان لها منذ عامين، وسحبت وشاحًا على رأسها. كان الوشاح من الحرير، لكن كان ذلك أسوأ ما يمكنها فعله. ربما يظنونه يدفع لها. تأمل هذا. فبذلك لا يلاحظها أحد.

على امتداد الممشى الجانبى بالخارج زجاج مكسور، وأثر قىء، وشىء يبدو مثل دم جاف. يطلب منها ألا تخطو فوقه.

يوجد بار فى الطابق الأرضى، مع أنه يسمى حجرة المشروبات. مسموح بالدخول للرجال فقط، والسيدات بصحبة مرافق. وبالخارج لافتة بالنيون الأحمر، كتبت عليها الحروف أفقيًا وسهم يهبط منحرفًا ليشير رأسه نحو الباب. طمست بعض حروف اللافتة واختلطت؛ فتقرأ "حجرة المغضبات". تومض مصابيح صغيرة مثل أضواء الكريسماس، وتهبط منسابة على اللافتة مثل نمل يهبط إلى ماسورة المجارى.

حتى فى مثل هذه الساعة يحوم بعض الرجال حول المكان ينتظرون أن يفتح. أمسك بمرفقها بينما يمران، ليحثها قليلاً. ومن ورائهما أصدر أحد الرجال صوتًا مثل قط يموء.

أما الفندق نفسه فله باب منفصل. وفى المدخل يحيط بلاط الفسيفساء الأبيض والأسود بما ربما كان يومًا أسود أحمر، لكنه تآكل كأنما بفعل عثة تأكل الأحجار، ومن ثم فهو الآن أشبه بحيوان الحليمة البحرى مسحوقًا. وبدت الأرضية المغطاة بمشمع اللينوليوم الأصفر المشبع بالاحمرار لم تدعك منذ زمن؛ فتغطيها لطخ من القاذورات وكأنها زهور رمادية مضغوطة.

سجل اسمه فى دفتر النزلاء ودفع؛ وبينما هو يفعل ذلك، تقف هى آملة أن يبدو عليها الملل، تحتفظ بوجهها ساكنا، رافعة ناظريها متجاوزة موظف الاستعلامات المتجهم ترقب الساعة. وهى ساعة خالية من الزخارف واضحة فى

ثقة دون ادعاء بعظمة، عملية مثل ساعة محطة السكة الحديد. "هذا هو الوقت، طبقة واحدة لا غير."

لديه المفتاح الآن. الطابق الثانى. هناك مصعد أشبه بتابوت واه، لكنها لا تحتمل مجرد التفكير فى استخدامه، فهى تعرف ما ستكون رائحته، جوارب قذرة وأسنان مسوسة، وهى لا تحتمل أن تكون به وجهًا لوجه معه، قريبة جدًا ووسط هذه الرائحة. صعدا السلالم. بساط كان يومًا باللونين الأزرق الغامق والأحمر. ممر كانت تنتشر فيه الزهور، لكنها ذوت الآن ولم يبق سوى الجذور.

قال: "أنا آسف. كان يجب أن يكون أفضل"

تقول: "تحصل على قدر ما تدفع" وهى تنوى إشاعة البهجة، لكنه قول غير مناسب، فربما يظنها تعلق على افتقاره للمال. "ومع هذا فهو تمويه جيد" تقولها محاولة الإصلاح. لم يجبها. إنها تتحدث كثيرًا، بوسعها أن تسمع نفسها، وليس ما تقوله جذابًا أو مسليًا على الإطلاق. فهل صارت مختلفة عن ذكرياته عنها، هل تغيرت كثيرًا؟

وفى الممر ورق حائط كلح لونه. الأبواب من الخشب الداكن، مصدعة ومخدوشة ومقشودة الطلاء. يعثر على الرقم، ويدير المفتاح. مفتاح طويل عتيق الطراز، كأنما لصندوق قوى قديم. الحجرة أسوأ من أى حجرة مفروشة قطناها من قبل؛ فالحجرات السابقة كانت تدعى النظافة على السطح. فراش مزدوج يغطيه مفرش زلق، لحاف من الستان المقلد، وردى باهت حائل نحو الاصفرار مثل باطن القدم. مقعد واحد، تتسرب حشوة قعدته التى تبدو أنها محشوة بالغبار. منفضة سجائر من الزجاج البنى المجذوذ. دخان سجائر، بيرة مسكوبة، ووراء ذلك رائحة أكثر إثارة للانزعاج، ملابس داخلية لم تغسل من فترة طويلة. وفوق الباب نافذة طلى زجاجها المحبب غير المستوى باللون الأبيض.

خلعت قفازيها وألقتهما على المقعد مع معطفها ووشاحها، وأخرجت الزجاجة من حقيبة يدها. لا توجد أقداح على مرأى منهما، سيضطران للتجرع من الزجاجة مباشرة.

تقول: "هل النافذة مفتوحة؟ نحتاج بعض الهواء النقى.

اتجه نحو النافذة ورفع الإطار المنزلق فاندفعت إلى الداخل نسمة ثقيلة. تسمع بالخارج قعقعة عجلات حافلة عامة تمر بالطريق. يستدير ولايزال عند النافذة يتكئ عليها بظهره ساندًا يديه خلفه على عتبتها. على الضوء القادم من خلفه، لم تستطع أن تميز سوى هيئته. قد يكون أى شخص.

يقول: "حسن ها نحن مرة أخرى." يبدو بالغ التعب. ويبدو لها أنه لا يريد أن يفعل شيئًا فى هذه الحجرة سوى أن ينام.

ذهبت إليه وسلت ذراعيها تحيط خصره. تقول: "وجدت القصة"

"أى قصة؟"

"الرجال السحالى من إكسينور. بحثت عنها فى كل مكان، كان لا بد أن ترانى وأنا أفتش بلهفة عند أكشاك الصحف، لابد أنهم حسبونى مجنونة. رحت أبحث وأبحث."

يقول: "آه تلك القصة. أتقرئين هذا الهراء؟ لقد نسيت."

لم تبد فزعًا. لم تبد حاجة ملحة. لم تقل إنها كانت دليلاً يثبت وجوده؛ دليل إثبات مهما كان سخيفًا وغير معقول.

"قرأتها بالطبع. وبقيت فى انتظار الحلقة التالية."

يقول: "لم أكتبها. كنت شديد الانشغال بكونى مستهدفًا من الجانبين. علقت جماعتنا فى المنتصف. كنت أهرب من الرجال الطيبين. أى فوضى تلك."

يحيطها بذراعيه متأخرًا. تفوح منه رائحة حبوب الشعير. يريح رأسه على كتفها، ويحتك زغب صدغه الشبيه بورق الصنفرة بجانب عنقها. تلقاه سالمًا، على الأقل فى هذه اللحظة.

يقول: "أريد شرابًا"

تقول: "لم تنم. لم تنم بعد. تعال إلى الفراش."

ينام ثلاث ساعات. الشمس تتحرك، والضوء يخفت. تدرك أن عليها أن تذهب، لكنها لا تحتمل أن تفعل ذلك، ولا أن توقظه. أى عذر ستقدمه بمجرد عودتها؟ تخترع قصة سيدة عجوز تتعثر فتسقط من على الدرج، سيدة عجوز تحتاج أن ينقذها أحد؛ تختلق سيارة أجرة ومشوارًا إلى المستشفى. كيف تتركها ترعى نفسها، تلك العجوز المسكينة؟ ترقد على الرصيف دون صديق فى هذا العالم. ستقول إنها تعرف أنه كان عليها الاتصال تليفونيًا، لكن لم يوجد تليفون بالقرب منها، وكانت السيدة العجوز تعانى أشد الألم. تعد نفسها للمحاضرة التى ستلقى عليها حول الاهتمام بشئونها الخاصة وعدم التدخل فى شئون الآخرين؛ هز الرأس، فكيف يمكن التصرف معها؟ متى تتعلم ألا تتدخل لتغيير أمر من الأمور حتى لا تفسده؟

وبالأسفل تدق الساعة معلنة الدقائق. وفى الممرات تسمع أصواتًا آدمية، وأصوات هرولة وخفقات أحذية مسرعة. إنها أعمال الدخول والخروج. ترقد يقظة بجواره، تصغى إليه نائمًا، وتتساءل أين ذهب. ويحيرها أيضًا قدر ما يجب أن تخبره به – ما إذا كان عليها أن تخبره بكل ما حدث. إذا طلب منها أن تهرب معه، هنا يكون عليها أن تخبره. وفى غير ذلك من الأفضل ألا تفعل. أو ليس الآن.

عند استيقاظه طلب مشروبًا آخر وسيجارة.

تقول: "أعتقد أننا لا يجب أن نفعل ذلك. أن ندخن فى الفراش. سنحترق. سنحرق أنفسنا."

لم يقل شيئًا

تقول: "كيف كان هذا؟ لقد قرأت الصحف، لكنه ليس نفس الشيء."

يقول: "لا، ليس نفسه."

"كنت قلقة جدًا عسى أن تكون قد قتلت."

قال: "كاد ذلك أن يحدث. الشيء الطريف، أن كنت فى جهنم، لكنى اعتدت عليها، والآن لا يمكننى اعتياد هذا. لقد زاد وزنك قليلاً."

"آه، هل أنا سمينة جدًا؟"

"لا. إنه جميل. شيء يستحق أن تتمسكى به."

عم الظلام الآن. ومن الطابق السفلى أسفل النافذة حيث باب الخروج من حجرة المشروبات إلى الشارع، تتناهى مقتطفات من أغنية نشاز، وصيحات وضحك؛ وبعدها صوت زجاج يتحطم. لقد حطم أحد الأشخاص زجاجة. تبعه صوت امرأة تصرخ.

"لديهم احتفال."

"بماذا يحتفلون؟"

"بالحرب."

"لكن ليس هناك حرب. لقد انتهت."

يقول: "إنهم يحتفلون بالحرب التالية، إنها بالطريق. ينكرها من يعيشون فى المثاليات والأحلام المستحيلة، لكن بالأسفل على أرض الواقع تستطيعين تشممها آتية فى الطريق. فالتصويب على إسبانيا وتحويلها إلى جحيم كتدريب عملى على الهدف، ينبئ بأنهم سيبدأون فى العمل الجاد فى وقت قريب. إنه مثل الرعد فى الجو يستثيرهم، ويشعل حماستهم. وهذا سبب تحطم كل الزجاجات. إنهم يريدون أن يكون لهم فضل السبق بالبداية."

تقول: "بالطبع لا. لا يمكن أن تكون هناك حرب أخرى. لقد عقدوا المعاهدات وكل شيء."

يقول في سخرية: "سلام في زماننا. هراء وعبث. فما يرجون شيئًا سوى أن يقطع العم جو وأدولف بعضهما البعض إربًا، وأن يتخلصوا من اليهود ضمن الصفقة، بينما هم جالسون على عجيزتهم يجمعون الأموال."

"أنت شكاك كعهدك دائمًا"

"وأنت ساذجة"

"تقول: "ليس تمامًا. دعنا من الجدل. فلن نتفق." لكن هذا أشبه به، أشبه بأسلوبه الذي كان عليه، ولذلك تشعر ببعض التحسن.

يقول: "كلا. أنت على حق. لن نتفق. فما نحن إلا شخصان لا شأن لهما."

تقول: "لكنك ستذهب إلى أي مكان. ذلك إذا بدأت ثانية. سواء كنت شخصًا لا شأن له أم لا."

نظر إليها: "وماذا أفعل غير ذلك؟"

لم يعرف لماذا هي تبكي.تحاول ألا تفعل. تقول: "أتمنى لو كنت قد جرحت. فعندها كنت ستبقى هنا.

يقول: "وكان سيعود عليك ذلك بكثير من الخير. تعالى هنا."

وبعد أن تركته، لم تكد ترى. فتسير بمفردها قليلاً لتهدأ، لكن الظلمة حالكة، وكثير من الرجال على جانب الطريق، ولذلك تستقل عربة أجرة. وبينما تجلس في المقعد الخلفي تصلح فمها ومكياج وجهها. وعندما يتوقف تفتش في حقيبتها، وتدفع الأجرة، ثم تصعد درجات الدرج الحجرية وتمر من المدخل المقوس وتغلق الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط، وتتدرب في رأسها على القول: "آسفة تأخرت، لكنكم لم تصدقوا ما حدث لي. لقد قمت بمغامرة صغيرة مثيرة.

كيف زحفت الحرب؟ كيف استجمعت نفسها واحتشدت؟ مما صنعت؟ من أى أسرار وأكاذيب وخيانات؟ أى أنماط من الحب والكراهية؟ كم من المال وكم من المعادن؟

مكتبة

يلقى الأمل بستار من الدخان. يدخل الدخان فى عينيك، ولم يستعد له أحد، لكنه يظهر فجأة، مثل نيران موقدة فى الهواء الطلق تخرج عن السيطرة – مثل قتل يتضاعف. إنها تتدفق فى فيض شديد.

تحدث الحرب بالأبيض والأسود. هى هكذا لمن لا ينخرطون فيها. أما بالنسبة لأولئك الضالعين فيها بحق المتأثرين بها، فلها عدة ألوان، كثيفة وافرة، عالية البريق، ساطعة الاحمرار والبرتقالية، بالغة السيولة والتوهج، أما بالنسبة للآخرين فالحرب مثل شريط الأخبار – صورة مشوشة، مطموسة المعالم، تصحبها انفجارات ذات دوى متقطع، أعداد غفيرة من أناس رمادى البشرة يتدافعون أو يتقدمون فى جهد ومشقة، أو يسقطون، كل شىء يحدث فى مكان آخر.

تذهب لقراءة شرائط الأخبار فى قاعات السينما. تقرأ الصحف. تعرف أنها تحت رحمة الأحداث، وهى تعرف الآن أن الأحداث لا تعرف الرحمة.

استجمعت أمرها وعقدت العزم. لقد قررت الآن أن تضحى بكل شىء وكل شخص. لن يقف فى سبيلها شىء أو أحد.

هذا ما ستفعله. لقد خططت كل شىء. ستترك المنزل يومًا كأنه أى يوم آخر. سيكون معها نقود، نقود فى أى صورة. ذلك الجزء غير واضح، لكن من المؤكد أن هناك شيئا محتملاً. ماذا يفعل الآخرون؟ يذهبون إلى مكاتب الرهونات، وهذا ما ستفعله أيضا. ستحصل على النقود برهن بعض الأشياء: ساعة ذهبية، ملعقة فضية، أو معطف من الفراء. سترهنها قطعة قطعة، ولن يفتقدها أحد.

لن تكون نقودا كافية، لكن يجب أن تكفى. ستستأجر حجرة، حجرة ليست باهظة، لكنها ليست قذرة مهملة – فلا شىء لا يحيه طبقة طلاء. وستكتب رسالة

تقول فيها إنها لن تعود. سيرسلون مبعوثين وسفراء ثم محامين، سيهددون ويفرضون العقوبات، وستبقى خائفة طوال الوقت، لكنها ستتماسك وتظل على موقفها. ستحرق كل الجسور إلا الجسر إليه مهما كان هذا الجسر واهيًا. قال " سأعود" لكن كيف يكون متأكدًا؟ فما من شيء يضمن مثل هذه الأشياء.

ستعيش على التفاح وبسكويت الصودا، وأقداح الشاى وأكواب الحليب. ومعلبات الفاصوليا المطبوخة واللحم البقرى المحفوظ. وكذلك على البيض المحمر، إذا توفر لها ذلك، وشرائح الخبز المحمص، والذى ستأكله فى مقهى على الناصية حيث يأكل بائعو الصحف وسكارى بداية اليوم. وسيأكل هناك أيضا المحاربون القدماء، وتتزايد أعدادهم كلما مرت الشهور؛ رجال فقــدوا أيديهم، أو أذرعهم، أو سيقانهم أو آذانهم أو أعينهم. ستتمنى الحديث معهم، لكنها لن تفعل لأن إظهار أى اهتمام منها بهم، لابد وأن يساء فهمه. وكالعادة سيحول جسدها بينها وبين الحديث الحر. ومن ثم ستسترق السمع فقط.

وفى المقهى سيدور الحديث حول نهاية الحرب، التى يقول الجميع إنها وشيكة. سيقولون إنها مجرد مسألة وقت قبل أن ينتهى كل شيء ويعود الأولاد. من سيقول ذلك من الرجال غرباء عن بعضهم البعض، لكنهم سيتبادلون هذه التعليقات رغم ذلك، لأن توقع الانتصار سيجعلهم يثرثرون. وسيحوم فى الجو شعور مختلف، يجمع بين التفاؤل والخوف. ستأتى السفينة فى أى يوم الآن، لكن من يستطيع التنبؤ بما قد يكون على متنها.

ستكون شقتها فوق محل للبقالة، وبها مطبخ صغير وحمام صغير. ستشترى نبات ظل – بيجونيا أو سرخس. ستتذكر أن تروى ذلك النبات ولن يموت. ستكون المرأة التى تدير محل البقالة داكنة الشعر ومكتنزة وذات نزعة أمومية، وستتحدث عن نحافتها وحاجتها لتناول المزيد من الطعام، وعما يمكن فعله لعلاج نزلة برد بالصدر. ربما تكون يونانية؛ يونانية أو ما شابه ذلك، ذراعاها على قدر من الضخامة، وشعرها مفروق من المنتصف وينعقص فى الخلف. سيكون زوجها

وابنها خارج البلاد؛ وسيكون لديها صور لهم مؤطرة فى أطر من الخشب الملون وملونة باليد، تضعها بجانب آلة تسجيل استلام النقود.

سيقضى كلاهما – هى وهذه المرأة – كثيرًا من الوقت يصغيان؛ لوقع خطوات، أو مكالمة تليفونية، أو طرقة على الباب. يصعب النوم فى ظل هذه الظروف؛ فيناقشان علاجًا للأرق. ومن حين لآخر تدس المرأة فى يدها تفاحة، أو قطعة حلوى خضراء من الوعاء الزجاجى على منضدة البيع. وستشرح مثل هذه الهدايا صدرها بما يفوق ثمنها الضئيل.

كيف سيعرف أين يجدها؟ وها هى الآن قد احترقت كل جسورها. لكنه سيعرف. سيعثر عليها بطريقة من الطرق، لأن الرحلات تنتهى بلقاء المحبين. ولابد لهما من ذلك. لابد أن يحدث حتمًا.

ستخيط ستائر للنوافذ، ستائر صفراء فى لون الكناريا أو صفار البيض. ستائر مبهجة مثل ضوء الشمس. لا يهم أنها لا تعرف الحياكة، لأن المرأة التى بالأسفل ستساعدها. ستنشى الستائر وتعلقها. ستركع على ركبتيها ومعها مكنسة دقيقة الشعرات تنظف بها فضلات الفئران والذباب الميت تحت حوض المطبخ. ستعيد طلاء مجموعة من الأوعية الصغيرة ستجدها فى متجر لبيع السلع المستعملة، وستكتب عليها بحروف الستنسيل: شاى، قهوة، سكر، دقيق. وستدندن لنفسها وهى تقوم بذلك. ستشترى منشفة جديدة، بل مجموعة من المناشف الجديدة. وأيضًا ملاءات، فهذا مهم، وكذلك أكياسًا للوسائد. وستمشط شعرها مرارًا.

تلك هى الأشياء الممتعة التى ستؤديها بينما هى تنتظره.

ستشترى مذياعًا، جهازًا صغيرًا مستعملاً، من مكتب الرهونات؛ وستستمع للأخبار لتواكب الأحداث الجارية. وسيكون لديها أيضًا تليفون، فالتليفون سيكون مهمًا على المدى الطويل، وإن كان لن يطلبها أحد عليه، ليس بعد. ستلتقط سماعته أحيانًا لتسمع رنته. أو ستجد عليه أصواتًا تتحدث فيما بينها على خط التليفون

الجماعى. ستكون غالبًا محادثة بين نساء يتبادلن التفاصيل حول وجبات الطعام والطقس وصفقات الشراء والأطفال، والرجال الذين هم فى مكان آخر.

لا يحدث شيء من ذلك بالطبع. أو أنه يحدث، لكن ليس بما يمكن أن تلاحظوه. فهو يحدث فى بعد آخر من الفضاء.

القاتل الأعمى: البرقية

سلمت البرقية بالطريقة المعتادة، سلمها رجل فى زى رسمى داكن لا تشى ملامح وجهه بأخبار سارة. فعندما يوظفونهم فى هذا العمل يعلمونهم كيف تشى ملامحهم بذلك التعبير، الفتور والانعزال بل والحزن أيضًا، مثل جرس داكن بلا صوت. وكيف تبدو نظرتهم مثل نعش مغلق.

وصلت البرقية فى مظروف أصفر له نافذة شفافة، وتقول ما تقوله دائمًا مثل هذه البرقيات – الكلمات بعيدة مثل كلمات غريب أو متطفل يقف فى طرف قصى من حجرة طويلة خاوية. ليست بها كلمات عديدة، لكن كل كلمة واضحة جلية: "نخبر، فقد، نأسف" كلمات محايدة تتوخى الحرص، يتوارى خلفها سؤال: "ماذا كنتم تنتظرون؟"

تقول: "ماذا فيها؟ من هذا؟ آه. أتذكر. إنه هو. ذلك الرجل. لكن لماذا يرسلونها إلى؟ فأنا لست من أقرب أقربائه!"

يقول أحدهم: "أقرباؤه؟ وهل كان له أحد؟" يقصد أن تكون مزحة.

تضحك. "الأمر لا يخصنى." تجعد البرقية، التى تسلم بأنهم قرأوها خلسة قبل أن يسلموها إليها. فهم يقرأون كل البريد؛ فهذا مفهوم وواضح. تجلس على نحو مفاجئ بعض الشيء. تقول: "آسفة."أشعر فجأة بأننى بالغة الغرابة.

"فلتذهبى. سيهدئك هذا. اشربيه عن آخره، ها هى التذكرة."

"شكرًا. لا علاقة لى بالأمر، لكنها صدمة مع ذلك. الأمر يشبه أحدًا يمشى فوق قبرك." وترتجف.

"هونى على نفسك. يبدو أنك صغيرة بلا خبرة. لا تأخذى الأمر على محمل شخصى. ربما كان خطأ. ربما اختلط عليهم العنوان."

"قد يحدث هذا. أو ربما هو فعلها. ربما كانت تلك هى فكرته عن المزحة. فقد كان شخصية غريبة حسبما أذكر."

"أغرب مما ظننا. فكم هو قذر وسخيف أن يفعل ذلك. إذا كان حيًا فلنقاضيه على عبثه."

"ربما كان يحاول أن يجعلك تشعرين بالذنب. فهذا ما يفعله أمثاله. جميعهم يشعرون بالحسد. لا منهم ولا كفاية شرهم. لا تدعى الأمر يقلقك."

"ليس الأمر لطيفًا، بغض النظر عن كيف تنظرون إليه."

"لطيفا؟ ولماذا يكون لطيفًا؟ فهو لم يكن أبدًا ما يمكن وصفه بأنه "لطيف"."

"أرى أن بوسعى الكتابة للضابط الأعلى. أطلب منه تفسيرًا."

"ولماذا يعرف شيئًا عن الأمر؟ فلا يتحتم أن يكون هو، بل موظفًا يؤدى هذه المهام الروتينية. وهم إنما يستخدمون ما هو مدون فى السجلات. سيقول إنه خطأ، وهو أول ما أسمعه."

"على كل فلا معنى لإثارة ضجة حول الأمر. فقد يجذب ذلك الانتباه، ومهما فعلت فلن تكتشفى أبدًا لماذا فعلها."

"كلا، إلا إذا سار الموتى." عيونهم تبرق، جميعهم يراقبونها، ويتأهبون. مما يخافون؟ ما الذى يخشون أن تفعله؟

تقول فى قلق: "أتمنى ألا تستخدموا هذه الكلمة."

"أى كلمة؟ آه. تقصد "الموتى". ربما أيضًا تسمون المجراف مجرافًا. فلا معنى ألا تفعلوا. والآن لا تكونوا...."

"لا أحب المجارف. لا أحب ما تستخدم فيه – حفر فجوات فى الأرض."

"لا تكونى كئيبة."

"أحضروا لها منديلاً. فلا وقت للإلحاح عليها. يجب أن تصعد إلى أعلى لتستريح. وبعدها تتعافى تمامًا."

"لا تدعيه يكدرك."

"لا تتأثرى به كثيرًا."

"انسيه."

القاتل الأعمى: تدمير سايكل نورن

فى الليل تستيقظ فجأة، قلبها يدق بشدة. تنسل من الفراش وتشق طريقها فى صمت نحو النافذة، وترفع الإطار المنزلق عاليًا، وتطل منها. القمر ساطع، يكاد يكون مكتملاً، تتشابك خيوطه العنكبوتية مع ندب قديمة، ويحيط به من الأسفل الوهج شبه البرتقالى المنعكس نحو السماء من مصابيح الشارع. وبالأسفل الرصيف مرقط بالظلال، تواريه فى أجزاء منه شجرة القسطل بالفناء، تنتشر فروعها مثل شبكة كثيفة صلبة، وتلمع فى خفوت زهورها العثية البيضاء.

هناك رجل يتطلع إلى أعلى. بوسعها أن ترى الحاجبين الداكنين، وفجوتى محجر العينين، والابتسامة على هيئة شق أبيض عبر وجهه البيضاوى. وعند الهرم المقلوب أسفل حنجرته شحوب؛ إنه قميص. يرفع يده فى إشارات توصيلية؛ يريدها أن تلحق به – تنسل من النافذة، وتتسلق هابطة الشجرة. تشعر بخوف. تخشى أن تسقط.

الآن هو على عتبة النافذة من الخارج، وها هو داخل الحجرة. تومض زهرات شجرة القسطل؛ وعلى ضوئها الأبيض تستطيع أن ترى وجهه، وبشرته فى ظلال متفاوتة من الرمادى؛ ترى اللون فى بعدين، مثل الصورة الفوتغرافية، وإن كان مشوشًا. تفوح فى الجو رائحة لحم خنزير يحترق. لم ينظر إليها، ليس إليها مباشرة؛ يبدو الأمر كأنه ظلها وهو ينظر إليه. ينظر إلى حيث تكون عيناها إذا استطاع ظلها أن يرى.

تتوق إلى أن تلمسه، لكنها تتردد: فمن المؤكد أنها لو احتضنته بين ذراعيها لتشوشت هيئته، وتحلل إلى مزق من النسيج، وإلى دخان، وإلى جزيئات وذرات. تستطيع أن تخترقه بيديها.

"قلت سأعود"

"ماذا حدث لك؟ ماذا بك؟"

"ألا تعرفين؟"

وهنا يصبحان بالخارج، فوق السطح فيما يبدو، ينظران بالأسفل نحو المدينة، لكنها لا تشبه أى مدينة رأتها من قبل. يبدو وكأن قنبلة ضخمة سقطت عليها، فاندلعت فيها النيران وشب الحريق فى كل شىء – المنازل والشوارع والقصور والينابيع والمعابد – وعمت الانفجارات مثل الألعاب النارية. لم يكن هناك صوت. بل راح الحريق يسرى فى صمت وكأنه فى صورة – أبيض، أصفر، أحمر، وبرتقالى. لم يسمع صراخًا؛ فما من أحد بالمدينة؛ فلابد أنه مات كل من كان بها. وارتجف هو بجانبها فى الضوء الوامض فى ارتعاش.

يقول: "لن يبقى شىء منها، سوى حفنة من أحجار وبضع كلمات قديمة. لقد ذهبت الآن وطمست معالمها. ولن يتذكرها أحد."

تقول: "لكنها كانت آية فى الجمال!" وصارت تبدو لها الآن كمكان عرفته؛ بل ألفته جيدًا كما تعرف ظهر يدها وتألفه. وفى السماء بزغت ثلاثة أقمار. فتقول فى نفسها: "ذيكرون. ذلك الكوكب المحبوب، موطن قلبى. ذلك المكان حيث كنت

سعيدة فى الماضى البعيد. ضاع كل شىء الآن وتحطم." ولم تحتمل النظر إلى ألسنة اللهب.

يقول: "جميلة فى أعين البعض. تلك هى المشكلة دائمًا."

"ماذا أصابها؟ من فعل هذا؟"

"المرأة العجوز."

"ماذا؟"

“L’histoire, cette vieille dame exaltee et menteuse.”

يلمع مثل الصفيح. عيناه شقان رأسيان. هو ليس كما تذكره. فقد احترق فيه كل ما كان يجعله متفردًا. يقول: "لا عليك. سيشيدونها مرة أخرى. فهم دائما يفعلون ذلك."

هى الآن خائفة منه. تقول: "لقد تغيرت كثيرًا جدًا. كان الموقف حرجًا. كان علينا أن نحارب النار بالنار."

"كسبت. أعرف أنك كسبت!"

"لم يكسب أحد."

هل ارتكبت خطأ؟ من المؤكد أنه كانت هناك أنباء عن الانتصار. تقول: "كان هناك استعراض عسكرى. سمعت عنه. وعزفت فيه الموسيقى النحاسية."

يقول: "انظرى إلى."

لكنها لم تستطع. لم تستطع أن تركز عليه، فهو لم يقف ثابتًا. لم يكن واضح المعالم، بل يتذبذب مثل شعلة شمعة، وإن كان بلا ضوء. لم تستطع أن ترى عينيه.

إنه ميت بالطبع. بالطبع هو ميت، أفلم تتلق البرقية؟ لكن كل هذا محض اختلاق. فما هو إلا بعد آخر من الفضاء. لماذا إذن مثل هذا الخراب والدمار؟

يتحرك مبتعدًا الآن، ولا تستطيع أن تناديه، فحلقها لا يصدر صوتًا. لقد ذهب الآن.

تشعر بضغط خانق حول قلبها. "لا، لا،، لا" قالها صوت فى رأسها. تنساب الدموع على وجهها.

وهنا تستيقظ بالفعل.

الفصل الثالث عشر

السماء تمطر اليوم، ذلك الرذاذ الخفيف المتعفف الذى يسقط فى بدايات شهر إبريل. ونباتات السيلا الزرقاء تشرع فى الإزهار، وتشق زهور النرجس الأرض بخطامها، وتزحف عاليًا أزهار لا تتسانى ذاتية البذور، متأهبة للاستحواذ على الضوء. ها هى تهل – سنة جديدة من التزاحم والتدافع بين النباتات. ويبدو أنها لا تسأم ولا تكل من ذلك أبدًا؛ فلا ذاكرة للنباتات، وهنا يكمن السبب. فهى لا تستطيع أن تتذكر أنها فعلت ذلك مرارًا من قبل.

يجدر بى الاعتراف بدهشتى لأن أجد نفسى مازلت هنا، ومازلت أتحدث إليكم. فأنا أفضل أن أعتبره حديثًا، وإن كان بالطبع غير ذلك: فلا أنا أقول شيئًا، ولا أنتم تسمعون شيئًا. وما بيننا من شيء سوى هذا السطر الأسود؛ خيط ملقى فوق الصفحة الخاوية، وفى الهواء الخاوى.

كادت ثلوج الشتاء أن ترحل عن نهر لوفتوا جورج، بل وأيضًا عن الشقوق الثلجية الظليلة فى الأجراف. فالمياه تهطل ساقطة، بين سواد وبياض، وسط وهاد من الحجر الجيرى، وفوق الصخور العاتية، فى سهولة ويسر، كعهدها دائمًا. يهدر صوتها عنيفًا، لكنه فاتن يبعث على السكينة فى أغلب الأحيان. بوسعكم أن تشاهدوا مدى انجذاب الناس إليه. فهم ينجذبون إلى الشلالات، وإلى الأماكن الشاهقة، وإلى الصحارى والبحيرات العميقة – تلك البقاع التى لا عودة منها.

لم تظهر هذا العام فى النهر سوى جثة واحدة حتى الآن، وهى لامرأة من تورنتو أنهكتها المخدرات. فتاة أخرى متعجلة. إهدار آخر للزمن، زمنها هى. لديها أقارب هنا، خالة وعم. صارا الآن عرضة للنظرات الجانبية، كأنهما ضالعان فى الأمر؛ وبالفعل سلما عن وعى كامل ببراءة الفتاة وما انتابها من غضب وإحساس بتضييق الخناق عليها. أجزم بأنه لا لوم عليهما، لكنهما أحياء، ومن يبق حيًا يقع عليه اللوم. تلك هى القاعدة فى مثل هذه الأمور. لا إنصاف فيها، لكنها قائمة.

صباح أمس حضر والتر للقيام بعمليات الضبط اللازمة للربيع. فهكذا يسمى عمليات الإصلاح المنزلية التى يقوم بها لأجلى كل عام. فأحضر صندوق عدته، ومنشاره اليدوى الذى يعمل بالكهرباء، والمفك الكهربائى اللازم لتثبيت المسامير اللولبية؛ فهو لا يحب شيئًا أكثر من أن يزن ويدوى وكأنه جزء من محرك. وضع كل تلك الأدوات فى شرفة المدخل الخلفى، ثم أخذ يدور حولَ المنزل من الخارج بخطى ثقيلة. وعندما عاد كان على وجهه تعبير بالرضا. وقال: "بوابة الحديقة تنقصها إحدى الرقائق. أستطيع وضعها اليوم، وأطليها عندما تجف."

فأقول كما أفعل كل عام: "لا تزعج نفسك فكل شيء هنا ينهار، لكنه سيبقى بعد أن أرحل."

يتجاهل والتر هذا، كما يفعل دائمًا ويقول: "ودرجات السلم الأولى أيضًا تحتاج إلى طلاء. تحتاج إحداها للتغيير – سأضع واحدة جديدة فوقها. لقد تركتَيها دون إصلاح فترة طويلة، فتسربت إليها المياه ثم حدث العطن. وقد أغطى بالصبغة عتبة الشرفة أيضًا، فذلك أفضل بالنسبة للخشب. يمكن أن نغطى أحرف درجات السلم بخطوط رفيعة من لون مختلف، حتى يستطيع الناس الرؤية أفضل. فإذا تركت كما هى قد لا يجدون موطئ القدم فيجرحوا أنفسهم." وهو يستخدم ضمير الجمع على سبيل الفخر وبالناس يعنينى أنا. وأضاف: "يمكن أن أحضر الدرجة الجديدة فى وقت متأخر اليوم."

قلت: "سيبتل كل شيء، فمحطة الأرصاد الجوية تقول الكثير بهذا الخصوص."

"هراء، سيصفو الجو." قالها دون أن ينظر إلى السماء.

خرج والتر لإحضار ما يلزم – أعتقد أنها بعض الألواح الخشبية – وقضيت الوقت حتى عودته متكئة على الأريكة فى حجرة الجلوس، مثل بطلة فى رواية

خيالية، نسيت فى صفحات كتابها وتركت لتتعرض للاصفرار والتعفن والتجعد مثلها مثل الكتاب ذاته.

ستقول ميرا: "صورة عليلة"

وسأرد: وماذا تقترحين غير ذلك؟"

الحقيقة أن قلبى بدأ يشاغب من جديد. "يشاغب" تعبير غريب. إنه ما يقوله الناس للتقليل من خطورة حالتهم. إنه يشى بأن الجزء المسىء (سواء كان القلب، أو المعدة، أو الكبد، أو ما شابه) طفل مشاكس غاضب يمكن تصويبه بصفعة أو كلمة قاسية. وفى الوقت نفسه فما هذه الأعراض – من ارتعاش وألم واهتزاز – إلا استعراضات مسرحية، وأن العضو المشار إليه سرعان ما سيكف عن التواثب مرحًا هنا وهناك وعن أن يجعل من نفسه مثارًا للضحك والسخرية، ويستعيد وجوده الهادئ البعيد عن خشبة المسرح.

لم يكن الطبيب مبتهجًا. فكان يغمغم حول إجراء الفحوصات والمسوح، والقيام برحلات إلى تورنتو حيث يوجد الإخصائيون، تلك الفئة القليلة التى لم تهرب بعد إلى مروج أكثر ثراء وريعانًا. غير الطبيب لى أقراص الدواء، وأضاف أخرى إلى الترسانة. بل اقترح أيضًا إمكانية إجراء عملية جراحية. فسألته عما سيحتاجه الأمر وعما يمكن إنجازه. فى حالة التنفيذ فالأمر يحتاج إلى الكثير من ناحية، ومن الناحية الأخرى لن يتحقق ما يكفى من النتائج المرجوة. فهو يرى أن الأمر لا يجدى دون وحدة جديدة كاملة – فهذا تعبيره، وكأننا نتحدث عن غسالة أطباق. وعلىّ أيضًا أن أنتظر فى الصف، انتظارًا لوحدة من شخص آخر، وحدة لم تعد هناك حاجة إليها. والمعنى صراحة دون تزيين وتلميع، أن أنتظر قلب شخص آخر، نزع من شاب؛ فلعلك لا ترغبين فى تركيب قلب معتل شائخ كذلك الذى تنوين التخلص منه. فما تحتاجينه شىء طازج يمتلئ حيوية.

لكن من يدرى من أين يحصلون على هذه الأشياء. خطر لى أطفال الشوارع فى أمريكا اللاتينية؛ أو هكذا تنتشر الشائعات الناتجة عن الوسواس والشك

المرضى. قلوب مسروقة، قلوب تباع فى السوق السوداء، انتزعت من بين ضلوع مكسورة، دافئة تنزف، يقدمونها للإله الزائف. من هو الإله الزائف؟ نحن. نحن وأموالنا. هذا ما كانت ستقوله لورا. وكانت رينى ستقول: "لا تلمسوا تلك الأموال. فأنتم لا تعرفون أين كانت."

فهل أستطيع التعايش مع نفسى وأنا على علم بأننى أحمل قلب طفل ميت؟

وإذا لم أستطع، فما العمل؟

أرجوكم لا تخلطوا بين هذا الاستطراد المتشعب وبين الجلد والمثابرة. فأنا أتناول أقراصى الدوائية، وأتابع سيرى الذى تتخلله وقفات كثيرة، لكن لا حيلة لى فيما أشعر به من فزع ورعب.

عاد والتر بعد الغداء - وكنت تناولت قطعة جبن جافة، وكوبًا من اللبن مشكوكًا فى أمره، وجزرة رخوة، فلم تملأ ميرا ثلاجتى هذا الأسبوع، وهى مهمتها التى ألزمت نفسها بها. وقام بعمليات القياس، والنشر والدق، وبعدها طرق الباب الخلفى ليقول إنه يأسف على الضوضاء، لكن كل شىء صار فى كامل هيئته.

قلت: "أعددت لك بعض القهوة." وهو طقس اعتدناه فى مثل هذه الأوقات من شهر إبريل. هل أحرقتها هذه المرة؟ لا يهم. فقد اعتاد قهوة ميرا.

"لا مانع" وخلع حذاءه المطاطى ذا الرقبة العالية بعناية ووضعه على عتبة الباب الخلفى - فقد دربته ميرا جيدًا، فلا يسمح له أن يترك ما تسميه "قذارته" على ما تسميه "بسطها" - وخطى على أطراف أصابعه بجوربه الضخم على أرضية مطبخى؛ والتى صارت ناعمة كالحرير وزلقة كنهر جليدى بفضل عمليات الدعك والتلميع النشطة التى قامت بها المرأة التى أحضرتها ميرا. وكانت تكسوها من قبل قشرة لاصقة من الغبار والقاذورات كأنها طبقة رفيعة من الصمغ، لكن لم يعد لها وجود الآن. والحق أنه لابد أن أنثر عليها بعضًا من حبيبات الحصى الخشن وإلا انزلقت وجرحت.

امتلأت بهجة لرؤية والتر يخطو على أطراف أصابعه – وكأنه فيل يسير على بيض. وصل إلى منضدة المطبخ، ووضع عليها قفازه الجلدى الأصفر الخاص بالعمل، فبدت فردتاه كأنهما مخلبان زائدان لعملاق.

قلت: "قفاز جديد" فكان جديدًا جدًا ولامعًا. ولا خدش به أيضًا.

"أحضرته ميرا. فهناك شاب يقطن على بعد ثلاثة شوارع منا قطع أطراف أصابعه بمنشار زخارف، فأثارها الأمر وخافت أن يحدث لى مثله أو أسوأ منه. لكن ذلك الرجل معتوه، فقد انتقل من تورنتو إلى هنا، وكان يجب ألا يسمح له بأن يعبث بالمناشير، فكان من الممكن أن يطير رأسه وهو يعمل، ولن يخسره العالم. قلت لها لابد أن تكون خبرتى بالعمل أقل من ذلك عشر مرات لأقوم بمثل هذا الفعل الأحمق، وعلى كل فأنا لا أملك منشار زخارف. لكنها مع ذلك تصر أن أصحب هذا الشىء اللعين معى أينما ذهبت. فكل مرة أخرج فيها من الباب تصيح: "تعال، خذ قفازك".

قلت: "يمكن أن تضيعه."

فقال بتجهم: "ستشترى غيره".

"اتركه هنا. وقل إنك نسيته، وستأتى لأخذه فيما بعد. ولا تأخذه." وتخيلت نفسى فى الليالى التى أقضيها وحيدة ممسكة بإحدى يدى والتر الجلدية الخاوية؛ سيكون فيها شىء من الصحبة. أمر محزن يثير الرثاء. ربما يجب أن أشترى قطة أو كلبًا صغيرًا. شيئًا دافئًا لا ينتقدنى وله فراء – كائن يرافقنى ويساعدنى على الرؤية بالليل. فنحن نحتاج أن نتقارب مع الثدييات؛ فكثير من الوحدة يضر النظر. لكن لو أحضرت شيئًا كهذا لربما تعثرت فيه وكسرت عنقى.

انتفض فم والتر، وظهرت أطراف أسنانه العليا؛ إنها ابتسامة. وقال: "يتفق الأذكياء فى التفكير، أليس كذلك؟ وبعدها ربما تلقينها فى الزبالة مصادفة عن عمد."

فقلت: "والتر أنت خبيث." فاتسعت ابتسامته، وأضاف خمس ملاعق سكر لقهوته، واحتساها، ثم وضع كلتا يديه على المنضدة وارتفع منتصبًا فى الهواء، مثل مسلة ترتفع بالحبال. وفى حركته تلك تنبأت فجأة بآخر ما سيقوم به لأجلى؛ سيرفع أحد قوائم نعشى.

هو أيضًا يعلم ذلك، ويبقى متأهبًا. فإجادته للعمل اليدوى ليست دون جدوى. فلن يثير اضطرابًا، ولن يسقطنى، وسيتأكد أننى أرحل فى استواء، فى وضع أفقى آمن فى رحلتى الأخيرة القصيرة تلك. سيقول "فلتصعد للسماء." وإلى السماء سوف أصعد.

موقف كئيب متجهم. أعرف ذلك؛ بل ومؤثر أيضًا. لكن رجاء احتملونى وصابروا معى. فالمحتضرون يسمح لهم بقدر من الحرية، مثل الأطفال فى أعياد ميلادهم.

نيران المنازل

بالأمس شاهدت الأخبار فى التليفزيون. لا يجب أن أفعل ذلك، فهو ضار بالهضم. اندلعت حرب أخرى فى مكان ما، يصفونها بأنها صغيرة ثانوية، مع أنها بالطبع ليست صغيرة ثانوية بالنسبة لمن يعايشونها ويعانون ويلاتها. إنهم ينظرون إلى تلك الحروب نظرة شاملة – يجتمع فيها الرجال فى ملابس للتمويه يلفون أفواههم وأنوفهم بالأوشحة، وركام الدخان، والأبنية الخربة المهدمة، والباكون المحطمون من المدنيين. أعداد لا حصر لها من الأمهات يحملن أعدادًا لا حصر لها من الأطفال الجرحى الملطخة وجوههم بالدماء؛ ورجال عجائز لا حصر لهم يسيرون حيارى مشدوهين. يحملون الشباب من الرجال بعيدًا ويقتلونهم منعًا للانتقام، كما فعل الإغريق فى حرب طروادة. وهو عذر هتلر أيضًا لقتل أطفال اليهود، حسبما أذكر.

اندلعت الحرب وخمدت، لكن لم تزل شرارتها متقدة فى مكان آخر. حطمت البيوت وكسرت لفتحها مثل البيض، وسرقت محتوياتها أو أشعلت فيها النيران أو سحقتها الأقدام فى حقد منتقم؛ وتعرض اللاجئون لقذف من طائرات على ارتفاع منخفض. وفى ملايين الأقباء تواجه الأسرة المالكة بوجوه حائرة فرقة الإعدام رميًا بالرصاص؛ فلا تحميهم الجواهر المخاطة فى مشدات خصورهم. وتتفقد جيوش هيرود ألف شارع؛ وفى الجوار مباشرة يهرب نابليون بالأوانى الفضية. وفى أعقاب الغزو، أى غزو تمتلئ الخنادق بالنساء المغتصبات. وللإنصاف فهى تمتلئ أيضًا بالرجال المغتصبين. بل وبالأطفال المغتصبين والكلاب والقطط المغتصبة أيضًا. فالأمور تخرج عن السيطرة.

لكن ليس هنا؛ ليس فى تلك البركة الهادئة الرتيبة؛ ليس فى بورت تيكونديروجا، رغم وجود مدمن أو اثنين فى الحدائق، ورغم حوادث السطو على المنازل التى تحدث من حين لآخر، ورغم العثور أحيانًا على جثة تطفو مع التيار. فنحن هنا نجلس القرفصاء، ونتناول مشروب ما قبل النوم، ونقضم على مهل وجباتنا الخفيفة قبل النوم، ونحملق فى العالم كأنما من نافذة سرية، وعندما نكتفى نغلقها. "كثير أن يحدث هذا فى القرن العشرين" نقولها ونحن نشق طريقنا إلى الطابق العلوى. لكن يتناهى إلينا زئير من بعيد كموجة مد تتسارع نحو الشاطئ. فها هو القرن الحادى والعشرين يندفع محلقًا فوق رؤوسنا مثل سفينة فضاء تمتلئ بكائنات فضائية لا تعرف الرحمة عيونها كعيون السحالى، أو بزواحف مجنحة معدنية عملاقة منقرضة. طال الأمد أم قصر ستتشمم وجودنا وتحطم أسطح جحورنا الصغيرة الواهية بمخالبها الحديدية، وعندها نصبح مثل الباقين، عراة مرضى يائسين نرتجف ونتضور جوعًا.

اغفروا لى ذلك الاستطراد. ففى مثل عمرى ينغمس المرء فى تلك الرؤى التى تتكهن بنهاية العالم. فيقول "نهاية العالم وشيكة". ويكذب على نفسه – بأن يقول: "يسرنى أنى لن أكون موجودًا لأشهدها" – مع أنه حقيقة لا يحب شيئًا أفضل

من مشاهدتها، طالما أنه يشاهدها عبر النافذة الصغيرة السرية، وطالما أنه ليس متورطًا فيها.

لكن لماذا نزعج أنفسنا بنهاية العالم؟ فنهاية العالم يشهدها كل يوم أحد الأشخاص. فالزمن يرتفع ويرتفع، وعندما يصل إلى مستوى العينين تغرق.

ماذا حدث بعد ذلك؟ أفقد الخيط للحظة، ويصعب على التذكر، لكنى أستعيده بعد ذلك. كانت الحرب بالطبع. لم نكن مستعدين لها، لكن فى الوقت نفسه كنا نعرف أننا مررنا بها من قبل. فهى نفس القشعريرة، القشعريرة التى تكاثفت مثل الضباب، القشعريرة التى ولدت فيها. فوقتها كست رجفة القلق كل شىء – المقاعد، والمناضد، والشوارع، ومصابيح الشارع، والسماء والهواء. فبين عشية وضحاها تلاشت ببساطة أجزاء كاملة مما تعارفنا على أنه الحقيقة. هذا ما يحدث عندما تقوم الحروب.

لكنكم صغار جدًا على أن تتذكروا أى حرب كانت. فكل حرب هى "الحرب" لمن عاشوها. والحرب التى أشير إليها هى تلك التى بدأت فى أوائل سبتمبر عام ١٩٣٩، واستمرت حتى انتهت فى ... حسن، إنه مذكور فى كتب التاريخ. يمكنكم الرجوع إليها.

"ابقوا نيران المنازل مشتعلة"، كان ذلك من شعارات الحرب القديمة. اعتدت كلما سمعت ذلك أن أتخيل زمرة من النساء مشعثات الشعور متقدات العيون يشققن طريقهن خفية تحت ضوء القمر فرادى أو ثنائيات يشعلن النيران فى منازلهن.

فى شهور ما قبل بداية الحرب كان زواجى من ريتشارد ينهار بالفعل، وإن كان يمكن أن يقال إنه انهار منذ البداية. سقط حملى مرة بعد أخرى. ومن جانبه اتخذ ريتشارد عشيقة ثم أخرى، أو هكذا ظننت – وكان ذلك حتميًا (كما قالت وينفريد بعد ذلك) نظرًا لسوء حالتى الصحية ورغبات ريتشارد الملحة. كان للرجال رغباتهم الملحة فى تلك الأيام؛ وكانت عديدة تلك الرغبات؛ فهى تعيش متخفية فى الزاوية المظلمة من كيان الرجل، ومن حين لآخر تستجمع قواها

وتنطلق من مكمنها، مثل طاعون الفئران. وهى فى غاية المكر والقوة، فكيف ينتظر أن يهزمها رجل حقيقى؟ كان ذلك هو المذهب الذى تعتنقه وينفريد، بل ويعتنقه كثيرون غيرها، إحقاقًا للحق.

كانت عشيقات ريتشارد هن سكرتيراته (افترضت ذلك)، يتخذهن دائمًا فتيات صغيرات السن، جميلات ومهذبات. فهو يوظفهن فور تخرجهن من الأكاديميات التى يتخرجن فيها. كن لفترة من الوقت يتعاملن معى عبر التليفون بتعال وتوتر عندما أطلبه فى المكتب. وكان يرسلهن لشراء الهدايا لى أو إرسال الزهور. فكان يحب أن يدركن الأهم فالمهم؛ فأنا الزوجة الرسمية وهو لا ينوى تطليقى على الإطلاق. فالمطلقون لا يتولون المناصب القيادية فى بلادهم؛ ليس فى ذلك الزمان. أعطانى هذا الموقف قدرًا من القوة، لكنها قوة فقط فى حال عدم استخدامى لها. فهى فى حقيقة الأمر قوة فقط فى حال تظاهرى بأنى لا أعرف شيئًا. فكان يشعر بتهديد دائم يلازمه بأننى قد أكتشف الأمر؛ وأننى قد أفضح ما كان بالفعل سرًا مفضوحًا، وأطلق سراح شتى الشرور.

هل كنت أهتم للأمر؟ نعم، إلى حد ما. لكن كنت أقول لنفسى إن نصف رغيف أفضل من لا شىء، وريتشارد كان رغيفًا على قدر من الجودة. فكان بمثابة الخبز على المائدة لإيمى، ولى أيضًا. اعتادت رينى أن تقول: "تجاوزى الأمر وارتفعى فوقه" وحاولت أن أفعل. حاولت أن أتجاوزه وأرتفع بعيدًا فى السماء، مثل بالون مارق، وكنت أنجح أحيانًا.

شغلت وقتى، وكنت تعلمت كيف أفعل ذلك. فأخذت البستنة مأخذ الجد، وكنت أحقق بعض النتائج. فلم يمت كل ما زرعته. وخططت لزراعة حديقة نباتات ظل معمرة.

كان ريتشارد يحافظ على المظاهر، وكذلك أنا. فكنا نحضر حفلات الكوكتيل والعشاء وندخل ونخرج معًا وهو يمسك مرفقى بيده. وكنا نتعمد احتساء قدحين أو ثلاثة من الشراب قبل العشاء؛ وكنت مغرمة بعض الشىء باحتساء الجين مع خلطه بهذا الشىء أو ذاك، لكنى لم أقترب كثيرًا من حافة السكر طالما أشعر بقدمى

وأصابعى وأحفظ لسانى. كنا لانزال ننزلق على سطح الأشياء – على قشرة رفيعة جليدية من آداب السلوك، والتى تخفى تحتها بحيرة داكنة المياه؛ فإن ذابت غرقنا.

نصف حياة أفضل من لا شيء.

عجزت عن نقل صورة حية لشخصية ريتشارد، فبقيت صورة من ورق مقوى، أعرف ذلك. فلا يسعنى وصفه حقيقة، لا أستطيع التركيز عليه بدقة، فملامحه مشوشة مثل وجه فى صفحة جريدة مبللة مطروحة جانبًا. حدث ذلك حتى حين بدا لى أصغر من الحياة، وإن كان أكبر منها أيضًا. والسبب امتلاكه قدرًا كبيرًا من المال وبلوغه مكانة كبيرة فى العالم – مما يغرى المرء بأن ينتظر منه أكثر مما هو متاح بالفعل، ومن ثم بدت جوانبه التى تماثل غيره من الناس كأنها نقص فيه. كان قاسيًا لا يرحم، لكن ليس كالأسد؛ بل أشبه بحيوان ضخم من القوارض. فهو يحفر الأنفاق تحت الأرض؛ ويقتل الأشياء بمضغ جذورها.

كانت لديه الثروة التى يحقق بها بصمة مؤثرة، ويقوم بأعمال على درجة كبيرة من الكرم والسخاء، لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك. فأصبح مثل تمثال من نفسه؛ ضخم، معروف بين الجميع، مهيب، وأجوف. لا يعنى ذلك أنه كان بالغ الفخر بنفسه؛ فلم يكن فخورًا بها بقدر كاف. هذا كل ما فى الأمر بإيجاز.

مع اندلاع الحرب وقع ريتشارد فى مأزق. فقد كان على علاقات ود وصداقة مع الألمان فى صفقاته التجارية، وكثير الإشادة بهم فى خطبه. ومثله مثل كثيرين من أنداده، تغاضى عن انتهاكاتهم الوحشية للديمقراطية؛ تلك التى ندد بها كثير من زعمائنا على الملأ واعتبروها غير عملية، ثم صاروا يتمسكون الآن بالدفاع عنها.

وخسر ريتشارد أيضًا أموالاً كثيرة حيث إنه لم يعد قادرًا على ممارسة أعمال تجارية مع أولئك الذين صاروا أعداء بين عشية وضحاها. فكان عليه تسلق الأماكن الوعرة، وتقديم فروض الطاعة والولاء؛ لم يناسبه ذلك لكنه فعلها. استطاع أن ينقذ موقفه وأن يتسلق عائدًا إلى حيث يحظى بالرضا – حسن فلم يكن وحده متسخ اليدين ومن ثم كان من الأفضل للآخرين ألا يشيروا إليه بأصابعهم الملوثة. وسرعان ما عملت مصانعه بكامل طاقتها من أجل المجهود الحربى، ولم يصبح هناك من هو أكثر منه وطنية. ومن ثم لم يحسب الأمر ضده عندما دخلت روسيا

فى جانب الحلفاء، وفجأة أصبح جوزيف ستالين العم المحبوب من الجميع. حقًا كان ريتشارد قد تفوه بالكثير ضد الشيوعيين، لكن كان ذلك فى سالف العصر والأوان. واختفى الآن وأسدل عليه الغطاء، أفليس أعداء عدوك أصدقاءك؟

وفى تلك الأثناء كنت أقضى أيامى متثاقلة الخطى، ليس كالمعتاد – فلقد تغير المعتاد – لكن بقدر استطاعتى. "مثابرة" هى الكلمة التى أفضل استخدامها الآن لوصف نفسى آنذاك. أو "مشدوهة خدرة الحس" فهى تخدم المعنى أيضًا. فلم تعد هناك حفلات فى الحدائق أسعد بها، ولم تعد هناك جوارب حريرية إلا فى السوق السوداء. وتم ترشيد استهلاك اللحم والزبد والسكر؛ فمن أراد المزيد من تلك الأشياء، أى أكثر مما يحصل عليه الآخرون، عليه بإقامة بعض الاتصالات. لم تعد هناك رحلات بحرية عبر المحيط على خطوط ملاحة متميزة – لقد صارت "كوين مارى" سفينة حربية. وكف المذياع عن كونه جهازًا موسيقيًا محمولا، وصار هاتفًا مجنونًا للمغيب؛ أديره كل مساء لأسمع الأخبار، والتى كانت دائمًا سيئة فى البداية.

استمرت الحرب، يديرها محرك لا يعرف الرحمة. أنهكت الناس بما أصابتهم به من توتر مستمر موحش وكئيب. كانت أشبه بأن تصغى إلى شخص يصر على أسنانه، ساعة الغسق قبل الفجر، بينما أنت ترقد مؤرقًا فى الفراش ليلة بعد ليلة بعد أخرى.

ومع ذلك، فثمة فوائد فى أن يتعرض المرء للخديعة، فقد تركنا مستر ميورجاترويد للالتحاق بالجيش. وفى ذلك الوقت تعلمت أنا القيادة. فأخذت إحدى السيارات، أعتقد أنها كانت البينتلى، وسجلها ريتشارد باسمى – ومنحنا ذلك حصة أكبر من البنزين. (كان استهلاك البنزين مرشدًا بالطبع، وإن لم يطبق ذلك بصرامة على أناس مثل ريتشارد.) منحنى ذلك أيضًا قدرًا أكبر من الحرية، وإن كانت تلك الحرية التى لم تعد تجدى لى كثيرًا.

أصبت ببرد، تحول إلى نزلة شعبية – فقد أصيب الجميع ببرد فى ذلك الشتاء. استغرقنى الشفاء منها ثلاثة شهور. فقضيت وقتًا طويلاً فى الفراش، أشعر بالحزن. كنت أسعل وأسعل. لم أعد أذهب لمشاهدة شرائط الأخبار – الخطب،

والحروب، القذف بالقنابل والتدمير والتخريب، والانتصارات، بل وأعمال الغزو أيضًا. أوقات تمتلئ بالإثارة، أو هكذا قالوا لنا، لكنى كنت قد فقدت الرغبة فى ذلك.

اقتربت نهاية الحرب. وأخذت تدنو وتدنو. وبعدها حدثت. تذكرت الصمت الذى تبع نهاية الحرب الأخيرة، ثم تعالت بعده دقات الأجراس. كان ذلك فى نوفمبر، والجليد يغطى برك المياه، والآن نحن فى الربيع. كانت هناك استعراضات عسكرية. وأعلنت التصريحات الرسمية. ونفخت الأبواق.

ومع ذلك لم يكن من السهل إنهاء الحرب. فالحرب نيران ضخمة، ينجرف رمادها بعيدًا ويخمد بطيئًا.

ديانا سويتس

سرت اليوم حتى جسر جوبيلى، ثم واصلت السير حتى محل الدونت، حيث تناولت ما يقرب من ثلث لفيفة برتقال، وهى كتلة كبيرة من الدقيق والسمن تفترش شراييني مثل الطمى.

بعدها ذهبت إلى دورة المياه. كانت الوحدة الوسطى مشغولة، فانتظرت متجنبة المرآة. التقدم فى العمر يرقق الجلد، فتظهر العروق وأربطة العضلات واضحة للعيان. وهو أيضًا يثقل المرء. فيتعذر العودة إلى حيث كنت من قبل، عندما كنت بلا جلد.

أخيرًا انفتح الباب وخرجت فتاة – سمراء فى ملابس قاتمة، يحيط السواد بعينيها. وصدرت عنها صرخة صغيرة ثم ضحكة وقالت: "آسفة، لم أرك." كانت لهجتها أجنبية، لكنها تنتمى إلى هنا؛ فهى تحمل جنسية الشباب. فأنا الغريبة الآن.

كانت أحدث الرسائل بقلم الترقيم الذهبى: "لا يمكن أن تذهب إلى الجنة بدون الرب." وكان المعلقون يقومون بعملهم أيضًا؛ فشطبت كلمة "الرب" وكتب فوقها

"الموت" بالقلم الأسود. وتحت ذلك كتب بالبرتقالى: "الجنة فى كوكب إكسينور." لورا تشاس.

اقتباس خاطئ آخر.

انتهت الحرب رسميًا فى الأسبوع الأول من مايو – أعنى الحرب فى أوروبا. وكان ذلك جزءها الوحيد الذى يهم لورا.

بعد ذلك بأسبوع اتصلت بى تليفونيًا. جعلت مكالمتها فى الصباح، بعد الإفطار بساعة، فلابد أنها كانت تعلم أن ريتشارد لا يتواجد فى المنزل فى ذلك الوقت. لم أتعرف على صوتها، فقد يئست من انتظارها. ظننتها فى البداية إحدى العاملات عند حائكة ملابسى.

قالت: "إنها أنا"

فقلت بحذر: "أين أنت؟". فلابد أنكم تذكرون أننى فى ذلك لم يسعنى التنبؤ بسلوكها – فربما كنت أشك فى مدى اتزانها.

قالت: "أنا هنا، بالمدينة." ولم تخبرنى بمكان إقامتها، إنما حددت ناصية شارع أقابلها عندها فى وقت متأخر من ذلك المساء. فقلت إنه عندئذ يمكننا تناول الشاى معًا. وكان "ديانا سويتس" هو المكان الذى أنوى اصطحابها إليه. كان آمنًا ومنعزلاً، ويروق كثيرًا للنساء؛ وهم يعرفوننى هناك. وقلت إننى سأصطحب سيارتى.

"آه أصبح لديك سيارة الآن؟"

قلت واصفة إياها: "يعنى شىء كهذا."

فقالت بخفة: "يبدو أنها كالعجلة الحربية."

كانت لورا تنتظر عند ناصية شارع "كينج أند سبانيا"، تمامًا حيث قالت إنها ستكون. ولم يكن من أفضل الأحياء، لكنها لم تبد استياء لذلك. أطلقتُ نفير السيارة،

فلوحت لى ثم جاءت وقفزت إلى الداخل. فملت تجاهها وقبلتها على وجنتيها. وعلى الفور شعرت بالغدر.

قلت: "لا أصدق أنك حقًا هنا."

"لكن ها أنا ذا."

وفجأة أوشكت أنا على البكاء؛ ولم يبد عليها اهتمام. كانت وجنتاها باردتين. كانتا باردتين ونحيفتين.

قالت: "أرجو ألا تكونى ذكرت شيئًا لريتشارد عن وجودى هنا." وأضافت: "أو وينفريد، لأنه نفس الشيء."

قلت: "لم أكن لأفعل ذلك." فلم تعلق.

وحيث إننى كنت أقود السيارة، فلم أستطع النظر إليها مباشرة. فكان على انتظار ذلك حتى صففت السيارة، ثم سرنا إلى ديانا سويتس، وبعدها حتى جلسنا فى مواجهة بعضنا البعض. وأخيرًا استطعت أن أرى كل شىء فيها.

كانت ولم تكن لورا التى أذكرها. كانت أكبر سنًا بالطبع – كنا كذلك نحن الاثنتين – لكن كان بها ما هو أكثر من ذلك. كانت ترتدى ثوبا أنيقًا بسيطًا فى لون أزرق داكن مخاط من الوسط وتكسوه طيات على الصدر وأزرار صغيرة من الأمام؛ وشعرها معقود إلى الخلف فى عقصة محكمة. بدت منكمشة، تسقط داخل نفسها، وقد امتقع لونها، لكنها فى ذات الوقت بدت شفافة للضوء – وكأن مسامير صغيرة من الضوء تطل من داخل جلدها، وكأنما تنطلق منها أشواك من الضوء فى هالة شوكية، مثل نبتة شوك مرفوعة نحو الشمس. وقع شعورى ينأى عن الوصف. (وينأى أيضا عن أن تعيروه اهتمامًا كبيرًا: فكان بصرى آنذاك يضعف بالفعل، وكنت حقيقة بحاجة إلى نظارة طبية، مع أنى لم أكن قد عرفت ذلك بعد. فربما كان الضوء المشوش حول لورا ما هو إلا نتيجة لكلل بصرى.)

طلبنا ما نريد. فرغبت هى فى قهوة وليس شايًا. فحذرتها من أن القهوة قد تكون رديئة، فيصعب الحصول على قهوة جيدة فى مكان كهذا بسبب الحرب. لكنها قالت: "تعودت على القهوة الرديئة."

ساد صمت بيننا. لم أكد أعرف من أين أبدأ. فلم أكن تأهبت بعد لأسألها ماذا تفعل بعد أن عادت إلى تورنتو. وسألتها: أين كانت طوال هذه المدة؟ وماذا كانت تفعل؟

قالت: "كنت فى أفيليون فى البداية"

"لكنها كانت مغلقة تمامًا" كانت هكذا طوال الحرب. فلم نعد إليها لأعوام. وواصلت: "كيف دخلت إليها؟"

قالت: "آه، تعرفين أن باستطاعتنا دائمًا الدخول إليها وقتما نريد."

وتذكرت المجرى المائل لإسقاط الفحم، والقفل غير المحكم على أحد أبواب القبو. لكن كان ذلك قد تم إصلاحه منذ زمن. فسألت: "هل كسرت نافذة؟"

قالت: "لم أضطر إلى ذلك. فرينى تحتفظ بمفتاح. لكن لا تذكرى ذلك لأحد."

قلت: "لا يمكن إشعال الفرن. فلم يكن هناك أى مصدر للحرارة."

قالت:"لم يكن هناك مصدر للحرارة. لكن كان هناك الكثير من الفئران."

وصلت القهوة. كان مذاقها مثل كسرات محروقة من الخبز المحمص والشيكوريا المشوية، ولا عجب فى ذلك إذا كان هذا ما يضعونه فيها.

قلت: "هل تريدين بعض الكعك أو شيء آخر؟ الكعك هنا ليس رديئًا." كانت بالغة النحافة، فشعرت أن بوسعها تناول بعض الكعك.

"كلا، شكرًا"

"وبعد ماذا فعلت؟"

"وبعد بلغت الحادية والعشرين، وبذلك حصلت على بعض المال، ميراثى من أبى. وبذلك ذهبت إلى هاليفاكس."

"هاليفاكس؟ ولماذا هاليفاكس؟"

"كانت المكان الذى تصل إليه السفن."

لم ألح فى الأمر. فهناك سبب وراء ذلك، فلورا لها أسبابها دائمًا؛ وهو سبب أجفل من سماعه. "لكن ماذا كنت تفعلين هناك؟"

قالت: "أشياء مختلفة. حاولت مساعدة الآخرين" وهذا كل ما قالته فى هذا الشأن. وفكرت أنه ربما شملت هذه الأشياء مطبخًا لطهى الحساء أو ما شابه. وتنظيف المراحيض فى مستشفى، أو شيئًا من هذا القبيل. "ألم تصلك رسائلى؟ تلك التى أرسلتها من بيلا فيستا؟ ذكرت رينى أنها لم تصلك."

قلت: "لا، لم تصلنى أية خطابات على الإطلاق."

"أعتقد أنهم سرقوها. ولم يكونوا ليدعوك تتصلين بى أو تأتين لرؤيتى؟"

"قالوا إن ذلك ضار بك"

ضحكت قليلاً. وقالت: "كان سيكون ضارًا بك أنت. ما كان يجب أن تظلى فى ذلك المنزل. ما كان يجب أن تظلى معه. فهو شرير جدًا."

قلت: "أعرف أنك طالما شعرت بذلك، لكن ماذا عساى أن أفعل غير ذلك؟ فهو لم يطلقنى أبدًا. وأنا لا أملك مالاً."

"هذا ليس عذرًا."

"قد لا يكون كذلك بالنسبة لك. فقد حصلت على أموال الائتمان التى ورثتيها عن أبى، أما أنا فلا أملك شيئًا كهذا. ثم ماذا عن إيمى؟"

"يمكنك اصطحابها معك."

"الكلام أسهل من الفعل. ربما لا ترغب هى فى أن تأتى معى. فلمعلوماتك هى متعلقة بريتشارد فى ذلك الوقت."

قالت لورا: "ولماذا هى كذلك؟"

"إنه يتملقها. فهو يمنحها أشياء كثيرة."

فقالت لورا مغيرة الموضوع: "كتبت إليك من هاليفاكس."

"لم تصلنى تلك الخطابات أيضًا."

قالت لورا: "أعتقد أن ريتشارد يقرأ بريدك."

قلت: "أعتقد ذلك." كان الحديث يتجه اتجاهًا لم أتوقعه. فقد فكرت أننى سأواسى لورا، وأرثى لحالها، وأسمع منها حكاية حزينة، لكنها على غير ذلك كانت تحاضرنى. فكم انزلقنا بسهولة عائدين إلى أدوارنا القديمة.

وهنا قالت: "ماذا قال لك عنى؟ عن إيداعى ذلك المكان؟"

ها هى القضية مطروحة مباشرة. ها هو مفترق الطرق: فإما أن لورا كانت مجنونة، وإما أن ريتشارد كان يكذب. فلا يمكننى تصديق الاثنين معًا. فقلت مراوغة: "احكِ لى الحكاية."

"أى حكاية؟ لا تنزعجى، فلن أغضب. إنما أريد فقط أن أعرف."

"قال إنك ... حسن، مضطربة العقل."

"بالطبع كان سيقول هذا. وماذا قال أيضًا؟"

"قال إنك ظننت أنك حامل، ولم يكن الأمر سوى وهم"

قالت لورا: "كنت حاملا. هذا كل ما فى الأمر – ولهذا السبب أزاحانى بعيدًا عن الأنظار بتلك السرعة. هو ووينفريد – فكانا يتجمدان رعبًا. العار والفضيحة –

بوسعك أن تتخيلى ما يمكن أن يكون خطر لهما من مدى تأثير ذلك على فرصه الضخمة الوافرة."

"نعم أستطيع إدراك ذلك." ما استطعت إدراكه أيضًا اتصال الطبيب سرًا، والرعب، والمؤتمر العاجل بين الاثنين، والخطة وليدة اللحظة. وبعدها الرواية الأخرى للأحداث، الرواية المزيفة التى اختلقوها لأجلى فحسب. وكانت عادتى أن أكون لينة العريكة سهلة الانقياد، لكن لابد أنهما كانا يعرفان أن هناك خطا فاصلاً فى مكان ما. لابد أنه كان يخيفهما ما يمكن أن أفعله إذا اجتازاه."

"على كل، فلم أحتفظ بالطفل. فهذا ضمن ما فعلوه فى بيلا فيستا."

"ضمن ما فعلوه؟" وكنت أشعر أننى شديدة الغباء.

قالت: "أقصد إلى جانب الطقوس الخاوية من المعنى والأقراص والأجهزة. إنهم يقومون بعمليات انتزاع. وهم يستنفذون طاقتك بكل هذا، مثل طبيب الأسنان. وهنا يخرجون الأطفال. وهنا يقولون لك إنك اختلقت القصة بأكملها. وعندما تتهمينهم بذلك، يقولون إنك خطر على نفسك وعلى الآخرين."

كانت بالغة الهدوء، شديدة الإقناع. فقلت: "لورا؟ هل أنت متأكدة؟ أقصد فيما يتعلق بالطفل. هل أنت متأكدة أنه كان هناك طفل بالفعل؟"

قالت: "بالطبع متأكدة. فلماذا أختلق شيئًا كهذا؟"

كانت هناك مساحة للشك، لكنى صدقت لورا تلك المرة. وهمست، فتلك الأمور تتطلب الهمس : "كيف حدث هذا؟ من كان الأب؟"

قالت لورا: "إذا كنت لا تعرفين حقًا، فلا أرى أن بإمكانى أن أخبرك."

اعتقدت أنه لابد وأن يكون أليكس توماس. فأليكس كان الشخص الوحيد الذى أظهرت لورا اهتمامًا به – بعد أبى، وبالطبع بعد الرب. كرهت الاعتراف بمثل هذا الاحتمال، لكن حقيقة لم يكن هناك خيار سواه. فلابد أنهما تقابلا فى تلك

الفترة التى كانت تلعب فيها الهوكى، عندما كانت فى مدرستها الأولى بتورنتو، ثم بعد ذلك عندما لم تعد تذهب إلى أى مدرسة على الإطلاق؛ عندما كان من المفترض أنها تسرى عمن أنهكتهم الشيخوخة والمرض من المعوزين فى المستشفى، مرتدية مئزرها الذى يشى بالالتزام والتقوى، منحية عقلها طوال الوقت. فلا شك أنه استوحى قصة بوليسية رخيصة من المئزر، فهو من اللمسات الغريبة التى تروق له. ربما لهذا تركت الدراسة – لتقابل أليكس. كم كان عمرها آنذاك – الخامسة عشرة، أو ربما السادسة عشرة؟ كيف وسعه أن يفعل ذلك؟

قلت: "هل كنت تحبينه؟

قالت لورا: "أحبه؟ من؟"

قلت: " تحبين – أنت تعرفين." فلم أستطع نطق الاسم.

قالت لورا: "كلا على الإطلاق. كان أمرًا بشعًا، لكنى اضطررت لفعله. فكان علىَّ أن أضحى. كان علىَّ أن أتحمل الألم والمعاناة. فهذا ما وعدت به الرب. كنت أعرف أننى إن فعلت هذا أنقذت أليكس."

"ماذا تقصدين بحق السماء؟" وأخذت ثقتى الوليدة فى سلامة عقل لورا تتداعى: وعدنا إلى عالمها الميتافيزيقى المجنون. وواصلت: "تنقذين أليكس من أى شىء؟"

"من أن يقبض عليه. فكان يمكن أن يقتلوه رميًا بالرصاص. كالى فيتسيمونز كانت تعرف مكانه، وأخبرت بذلك. أخبرت ريتشارد."

"لا أستطيع أن أصدق هذا."

قالت لورا: "وشت به كالى. هذا ما قاله ريتشارد – قال إن كالى أخبرته. أتذكرين عندما كانت بالسجن وأخرجها ريتشارد؟ لهذا هو فعل ذلك. فهو مدين به إليها."

وجدت هذا البناء من الأحداث بالغ الدهشة والإثارة. وهو أيضًا جائر وتشوبه مغالطات فاحشة، وإن خالطه احتمال ضئيل، بل بالغ الضآلة، فى إمكانية

صحته. لكن إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن كالى كانت تكذب. فكيف أمكنها أن تعرف مكان أليكس؟ فقد كان كثير الترحال.

ومع ذلك فربما ظل على اتصال بكالى. ربما فعل ذلك. فربما كانت من بين من وثق بهم.

قالت لورا: "التزمت بالصفقة من جانبى، وكان ذلك مجديًا. فالرب لا يخدع. لكن بعدها ذهب أليكس إلى الحرب. أقصد بعد أن عاد من إسبانيا. هذا ما قالته كالى – هى أخبرتنى بذلك."

لم أستطع استيعاب ذلك. فكنت أشعر بدوار شديد.

قلت: "لورا لماذا أتيت إلى هنا؟"

قالت لورا بصبر: "لأن الحرب انتهت. وسيعود أليكس قريبًا. وإذا لم أكن هنا، فلن يعرف أين يجدنى. فهو لا يعرف شيئًا عن بيلا فيستا، ولا يعرف أننى ذهبت إلى هاليفاكس. فعنوانى الوحيد الذى سيكون معه هو عنوانك. وهو سيبعث لى رسالة بطريقة ما." وكانت تتحدث بثقة واطمئنان راسخ كالحديد مثل مؤمن صادق الإيمان.

أردت أن أمسك بها وأهزها بعنف. لكنى أغمضت عينى للحظة. فتراءت لى البحيرة فى أفيليون، والحورية الحجرية تغطس فيها أصابع قدميها؛ رأيت الشمس المحرقة تومض متلألئة على أوراق الأشجار الخضراء المطاطية فى ذلك اليوم التالى لجنازة أمى. كنت أشعر بالغثيان من كثرة تناول الكعك والسكر. وكانت لورا تجلس بجانبى على مقعد صخرى تدندن مع نفسها راضية آمنة، مطمئنة إلى اعتقادها بأن كل شىء على ما يرام وأن الملائكة تساندها، وذلك لأنها أخذت على الرب عهدًا سريًا غريبًا.

اجتاحنى غضب شديد جعلنى أشعر بحكة فى أصابعى. كنت أعرف ما حدث بعد ذلك. فقد دفعتها بعيدًا.

والآن أتناول الجزء الذى مازال يلازم خاطرى. وقتها كان لابد أن أبتلع لسانى، وأن أخرس فمى. من منطلق الحب، كان يجدر بى أن أكذب أو أقول شيئًا

آخر: أى شيء ما عدا الحقيقة. كانت رينى تقول: "إياك ومقاطعة السائر أثناء نومه، فربما قتلته الصدمة."

قلت: "أكره أن أقول لك ذلك يا لورا، لكن مهما كان ما فعلتِيه، فهو لم ينقذ أليكس. فأليكس مات. قتل فى الحرب منذ ستة أشهر. فى هولندا."

ذوى الضوء المحيط بها. وامتقع لونها امتقاعًا شديدًا. وصارت لمن يشاهدها مثل شمع بارد.

"كيف عرفت؟"

قلت: "تسلمت البرقية. أرسلوها إلىَّ. فقد أدرجنى كأقرب أقربائه." حتى عندئذ كان لابد أن أغير مجرى الأحداث؛ كان بوسعى القول: "لابد أنهم أخطأوا، فلابد أنك أنت المقصودة." لكنى لم أقل ذلك، بل قلت: "لم يكن هذا لائقًا منه، ما كان يجدر به أن يفعل ذلك، نظرًا لوجود ريتشارد. لكن لم تكن له عائلة، وكنا عاشقين – فى الخفاء لفترة طويلة جدًا – فمن له سواى ؟"

لم تقل لورا شيئًا، إنما رمقتنى بعينيها. تخللتنى بناظريها. والرب وحده يعلم ماذا رأت. سفينة تغرق، مدينة تندلع فيها النيران، سكينًا فى الظهر. ومع كل، تعرفت على تلك النظرة؛ كانت هى نظرتها فى ذلك اليوم الذى كادت أن تغرق فيه فى نهر اللفتوا، وهى تغوص نحو القاع –نظرة تجتمع فيها البرودة والرعب مع الطرب والسرور. تلمع لمعان الصلب.

بعد برهة نهضت واقفة، ومدت يدها عبر المنضدة، والتقطت حقيبة يدى، بسرعة ورقة، وكأنما تحوى شيئًا هشًا قابلا للكسر. وبعدها استدارت وخرجت من المطعم. لم أتحرك لأوقفها. أقعدتنى الدهشة، وحين تركت مقعدى كانت لورا قد ذهبت.

اجتاحنى شيء من الحيرة بشأن دفع فاتورة الحساب –فلم يكن معى نقود سوى ما كان فى الحقيبة، التى أخذتها أختى بطريق الخطأ -- هكذا فسرت لهم الأمر. ووعدت بالسداد فى اليوم التالى. وبعد أن سويت ذلك الأمر هرعت إلى

حيث صففت سيارتى. فوجدتها قد ذهبت. فمفاتيح السيارة كانت أيضًا فى الحقيبة. ولم أكن أدرك أن لورا تعلمت القيادة.

سرت مسافة متجاوزة عدة بنايات، وكنت أختلق الروايات فى ذهنى. فلم أكن لأستطيع أن أخبر ريتشارد ووينفريد بما حدث حقيقة لسيارتى؛ فربما اتخذوه دليلاً جديدًا ضد لورا. عزمت القول بأن السيارة تعطلت وتم قطرها إلى الجراج، وأحضروا لى سيارة أجرة، وركبت فيها وسارت السيارة طوال الطريق إلى المنزل ولم أدرك أننى تركت حقيبتى فى السيارة بطريق الخطأ. وعزمت القول أن ما من شىء يدعو إلى القلق، وأن كل شىء ستتم تسويته فى الصباح.

وهنا استدعيت بالفعل سيارة أجرة. فمسز ميورجترويد ستكون بالمنزل لتفتح لى وستحاسب السيارة.

لم يكن ريتشارد بالمنزل على العشاء، بل فى أحد الأندية يتناول عشاء سيئًا ويلقى خطبة. كان وقتها يهرول مسرعًا فالهدف واضح أمام ناظريه. أعرف الآن أن ذلك الهدف لم يكن ثروة أو سلطة. فما أراده كان الاحترام - الاحترام برغم ثرائه الحديث. كان تواقًا إليه، متعطشًا؛ يرجو حيازته واستخدامه، ليس فقط كمطرقة وإنما أيضًا كصولجان. وهى رغبات ليست بمقيتة فى ذاتها.

كان النادى الذى أتحدث عنه للرجال فقط؛ وإلا كان يجدر بى أن أكون هناك، أجلس فى الخلفية، أبتسم وأصفق فى النهاية. فى مثل تلك الأوقات كنت أعفى مربية إيمى من العمل بالليل، وأقوم بأخذها إلى الفراش بنفسى. فأشرفت على حمامها، وقرأت لها ووضعتها فى الفراش. فى تلك الليلة خاصة تباطأت فى النعاس على غير عادتها؛ فلابد أنها شعرت بقلقى لشأن ما. فجلست بجوارها، أمسك يدها وأربت على جبينها، وأتطلع من النافذة حتى غشاها النعاس.

أين ذهبت لورا، أين كانت تقيم، ماذا فعلت بالسيارة؟ كيف أصل إليها، وماذا عساى أن أقول لأضع الأمور فى نصابها؟

وكانت بقة يونيو تتخبط مصطدمة بالنافذة، يجذبها الضوء. فارتطمت بالزجاج مثل إبهام أعمى. وبدت غاضبة محبطة لا حيلة لها.

جرف وعر

اليوم داهمنى عقلى بفراغ مفاجئ؛ ابيضاض كامل، كأنما غشاه الجليد. لم يكن ما اختفى منه اسم شخص – وإن كان أمرا معتادًا – إنما كلمة انقلبت رأسًا على عقب وفرغت من معناها مثل قدح من الكرتون نفخه الهواء.

تلك الكلمة كانت "الجرف". لماذا فرضت نفسها؟ "الجرف"، "الجرف"، كررتها ورفعت صوتى بها، لكنها لم تستدع صورة لها. فهل هى شىء، فعل، حالة ذهنية، أم نقص جسدى؟

لاشىء من هذا. لعلها تعنى دوار الارتفاعات، وترنحت على الحافة أقبض على الهواء، وأخيرًا لجأت إلى المعجم. "الجرف" تعنى: تحصين رأسى أو جانب جرف منحدر.

كنا نؤمن أنه فى البدء كانت الكلمة. فهل كان الرب يدرك كم يمكن للكلمة أن تكون واهية؟ كم هى ضعيفة، وكم يسهل محوها؟

ربما هذا ما حدث للورا – دفعها حقيقة نحو الحافة. فالكلمات التى اعتمدت عليها، وشيدت فوقها بيتها الكرتونى، معتقدة فى صلابتها، انقلبت وكشفت لها عن مراكزها الجوفاء، ثم فرت مبتعدة عنها مثل أوراق كثيرة مهملة.

"الرب. الثقة. التضحية. العدل.

الإيمان. الأمل. الحب."

ناهيك عن كلمة "أخت". أجل. يحدث هذا دائمًا.

فى صباح اليوم التالى لتناولى الشاى مع لورا فى دايانا سويتس أخذت أحوم حول الهاتف. ومرت الساعات دونما كلمة. وكنت على موعد لتناول الغداء فى قاعة أركيديا مع وينفريد واثنتين من عضوات لجنتها. وكان من الأفضل دائمًا

الالتزام بالخطط المتفق عليها مع وينفريد – وإلا ثار فضولها – ومن ثم ذهبت للغداء.

وعلمنا بآخر مغامرات وينفريد، وهى عرض موسيقى راقص بأحد الملاهى الليلية لمساعدة جرحى الحرب. ويضم العرض رقصًا وغناء، وستؤدى بعض الفتيات رقصة الكان كان، فعلينا جميعًا أن نشمر عن سواعدنا ونعمل معًا ونبيع التذاكر. فهل وينفريد نفسها سترفس بقدميها عاليًا مرتدية قميصا داخليًا ذا طيات وجوربًا أسود؟ تمنيت من كل قلبى ألا يحدث هذا. فكانت حينئذ على نحافة مقيتة.

قالت وينفريد وهى تميل برأسها جانبًا: "يبدو عليك بعض الشحوب والتعب يا أيريس."

"حقا؟" قلتها بلطف. وكانت فى الآونة الأخيرة تقول لى إننى لست على ما يرام. وكانت تقصد أننى لا أفعل ما بوسعى لدعم ريتشارد، لأدفعه إلى الأمام فى طريقه نحو المجد.

قالت: "نعم، ذابلة بعض الشىء. أيجهدك ريتشارد؟ ذلك الرجل لديه طاقة عالية تحتاج أن يحرقها!" فكانت روحها المعنوية مرتفعة. وكان لابد لخططها من أجل ريتشارد أن تسير على ما يرام بالرغم من تهاونى.

لكنى لم أستطع أن أعيرها انتباهًا كبيرًا؛ فكنت شديدة القلق لأجل لورا. فماذا أفعل لو لم تظهر قريبًا؟ لا يمكننى الإبلاغ عن سرقة سيارتى؛ فلا أريد أن يقبض عليها. ولم يكن ريتشارد ليريده أيضًا. فذلك ليس فى مصلحة أحد.

وعدت إلى المنزل لأجد مسز ميورجاترويد تخبرنى أن لورا كانت هناك أثناء غيابى. فقد صادفتها فى الردهة الخارجية، فهى لم تدق جرس الباب الخارجى. كانت صدمة أن أرى مس لورا شخصيًا بعد كل تلك السنوات، فبدا لى كأننى أرى شبحًا. لا، هى لم تترك أى عنوان. لكنها قالت شيئًا: "أخبرى أيريس أننى سأحادثها فيما بعد." شيئًا كهذا. وتركت مفاتيح المنزل على رف الخطابات؛

قائلة إنها أخذتها بطريق الخطأ. شيء مضحك أن تأخذ شيئًا كهذا بطريق الخطأ. قالتها مسز ميورجاترويد وقد اشتمت رائحة مريبة فى الأمر بأنفها الذى يشبه أنف كلب البج فى حساسيته. ولم تعد تصدق روايتى عن الجراج.

شعرت بارتياح: فرغم كل شيء ربما تحسنت الأمور. فلورا مازالت بالبلدة، وستحادثنى لاحقًا.

لابد أن تفعل، وإن كانت تميل إلى تكرار نفسها، كما هى عادة الموتى. فيقولون لك كل ما سبق أن قالوه فى حياتهم، وقلما يقولون جديدًا.

كنت أغير ثوبى الذى كنت أرتديه على الغداء عندما وصل رجل الشرطة يحمل أنباء عن الحادث. اخترقت لورا حاجزًا خطرا، ثم سقطت من فوق جسر سانت كلير أفينو نحو الوادى الضيق الواقع أسفله بمسافة بعيدة. كان ارتطامًا مروعًا، قالها الشرطى وهو يهز رأسه فى أسى. كانت تقود سيارتى؛ عرفوا ذلك من تتبعهم للرخصة. فقد ظنوا بداية بالطبع أنه لابد أن أكون أنا نفسى المرأة التى عثروا عليها محترقة وسط الحطام.

الآن ستثور المشكلات.

بعد مغادرة الشرطى حاولت التوقف عن الارتجاف. فكنت بحاجة إلى الاحتفاظ بهدوئى وإلى أن أجمع شتات نفسى. "تحملى تبعة أفعالك، وواجهى الموسيقى." هكذا اعتادت رينى أن تقول، لكن أى نوع من الموسيقى كانت تقصد؟ لم تكن موسيقى راقصة. إنما جوقة موسيقى نحاسية صاخبة، نوع من الاستعراض الحافل تصطف له جموع الناس على الجانبين يومئون ويسخرون. ومنفذ لحكم الإعدام يقف فى نهاية الطريق يحشد طاقته للحرق.

بالطبع سيستجوبنى ريتشارد استجوابًا دقيقًا. يمكن أن تبقى روايتى عن الجراج والسيارة على قوتها إذا أضفت إليها أننى تناولت الشاى مع لورا ذلك اليوم، لكنى لم أخبره لأننى لم أشأ إغضابه بلا داعٍ قبيل ذهابه لإلقاء خطبة حاسمة

وهامة. (كل خطبه كانت هامة وحاسمة آنذاك؛ فكان يقترب من دائرة أصحاب المكانة والنفوذ.)

واعتزمت القول إن لورا كانت معى فى السيارة حين تعطلت، وصحبتنى إلى الجراج. ولابد أنها التقطت حقيبتى عندما تركتها، ولابد أنها أرادت مداعبتى بأن ذهبت صباح اليوم التالى وطالبت بالسيارة، دافعة فاتورتها بشيك مزور من دفتر شيكاتى. وسأنزع الشيك لتأكيد الواقعة؛ وإذا تعرضت للضغط للإدلاء باسم الجراج، سأقول إننى نسيت. وإذا زاد الضغط سأبكى. وسأقول كيف ينتظر منى تذكر تفاصيل تافهة كهذه فى وقت كهذا.

وصعدت إلى الطابق الأعلى لأغير ملابسى. فلزيارة المشرحة أحتاج إلى قفاز وقبعة بخمار. فقد يكون هناك بالفعل مراسلو صحف ومصورون. وفكرت أن أقود سيارتى إلى هناك، وهنا تذكرت أن سيارتى صارت خردة الآن. فلابد من استدعاء سيارة أجرة.

وأيضًا يجب أن أخبر ريتشارد فى مكتبه؛ فبمجرد أن يشاع الخبر سيحيط به الذباب الذى يجتمع على الجثث. فهو شخصية مرموقة للغاية ولا يمكن أن يحدث معه غير ذلك. فربما أراد أن يعد كلمة تأبين.

أجريت المكالمة. وردت على التليفون أصغر سكرتيرات ريتشارد. فأخبرتها أن الأمر هام، ولا يمكن نقله إلى ريتشارد عن طريقها. فلابد أن أحادث ريتشارد شخصيًا.

ساد صمت أثناء تحويل المكالمة إلى ريتشارد. قال: "ماذا حدث" فهو لم يحبذ أبدًا الاتصال به فى المكتب. قلت: "وقع حادث مروع. إنها لورا. سقطت السيارة التى كانت تقودها من فوق الجسر."

لم يقل شيئًا.

"كانت سيارتى."

لم يقل شيئًا

قلت: "يؤسفني القول إنها ماتت."

"يا ربى" وصمت قليلاً ثم أضاف: "أين كانت كل تلك المدة؟ متى عادت؟ وماذا كانت تفعل فى سيارتك؟"

قلت: "رأيت أنك يجب أن تعلم على الفور قبل أن يصل الخبر إلى الصحف."

قال: "نعم. تصرف حكيم."

"الآن يجب أن أذهب إلى المشرحة."

قال: "المشرحة؟ مشرحة المدينة. لماذا بحق الجحيم؟"

"إنها المكان الذى يضعونها فيه."

قال: "حسن. أخرجيها من هناك. خذيها إلى مكان لائق. مكان أكثر..."

قلت: "أكثر خصوصية. نعم سأفعل ذلك. يجب أن أخبرك أنه كانت هناك بعض التلميحات - من جانب الشرطة، فكان أحدهم هنا منذ قليل - بعض الإشارات إلى ..."

"ماذا؟ بماذا أخبرتيهم؟ أى تلميحات؟" وبدا بالغ الرعب والانزعاج.

"لا شيء سوى أنها فعلتها متعمدة."

قال: "هراء. لابد أن تكون حادثة. أرجو أن تكونى قلت ذلك."

"بالطبع. لكن كان هناك شهود. فقد رأوا..."

"هل هناك دليل؟ لو كان هناك أحرقية."

"اثنان، محامٍ وموظف ببنك. كانت ترتدى قفازًا أبيض. شاهداها وهى تدير عجلة القيادة."

قال: "خداع بصرى بسبب الإضاءة. أو كانا مخمورين. سأتصل بالمحامى. سأعالج الأمر."

وضعت سماعة التليفون. وذهبت إلى حجرة ارتداء ملابسى؛ سأحتاج ثوبًا أسود، ومنديلا. وفكرت أنه يجب أن أخبر إيمي. سأقول إنه الجسر. سأقول إن الجسر انهار.

فتحت الدرج حيث كنت أحتفظ بجواربى، وهناك وجدت الدفاتر – خمسة منها، دفاتر رخيصة للتدريبات المدرسية تعود إلى أيامنا مع مستر إيرسكين، مربوطة مع بعضها بحبل من ذلك النوع المستخدم فى المطبخ. كان اسم لورا مكتوبًا على الغلاف الخارجى بالقلم الرصاص – بحروف مكتوبة بخطها الطفولى. وتحت الاسم كتب "رياضيات". كانت لورا تكره الرياضيات.

فكرت أنها واجبات مدرسية قديمة. لا؛ واجبات منزلية قديمة. لماذا تركتها لى؟

كان يمكن أن أتوقف عند ذلك. كان يمكن أن أختار الجهل، لكنى فعلت ما كان يمكن أن تفعلوه – وما فعلتموه بالفعل، إذا وصلتم إلى هذا الحد فى القراءة. اخترت المعرفة بدلاً من الجهل.

معظمنا سيفعل ذلك. سنختار المعرفة مهما كانت، وسننزل بأنفسنا جروحًا غائرة وعاهات فى الطريق إليها، وسنلصق أيدينا بألسنة اللهب من أجلها إذا لزم الأمر. وليس الفضول وحده دافعنا إلى ذلك؛ إنما يحثنا الحب أو الحزن أو اليأس أو الكراهية. سنتجسس بلا رأفة على الموتى؛ نفتح خطاباتهم، نقرأ مذكراتهم، نفتش فى نفاياتهم آملين فى العثور على إشارة، كلمة أخيرة، وتفسير من أولئك الذين هجرونا – أولئك الذين تركونا نحمل الحقيبة، والتى تكون غالبًا أكثر خواء مما توقعنا.

لكن ماذا عن أولئك الذين غرسوا لنا المفاتيح لنتعثر فيها؟ لماذا يزعجون أنفسهم بذلك؟ هل هى الأنانية؟ الشفقة؟ الانتقام؟ مجرد التمسك بالوجود، مثلما ينقش

المرء حروفه الأولى على جدار فى دورة مياه؟ جمع بين الحضور والإغفال – اعتراف دون توبة، حقيقة دون عواقب – فلها مفاتنها الجاذبة. أن تنظف يديك من الدماء بطريقة أو بأخرى.

من يتركون مثل هذه الدلائل خلفهم لا يمكنهم الشكوى على الإطلاق إذا جاء غرباء بعد ذلك ودسوا أنوفهم فى كل صغيرة وكبيرة مما كان ليس من شئونهم فى الماضى. ليس الغرباء وحدهم، إنما أيضًا الأحباء والأصدقاء والأقارب. فكلنا يستمتع باختلاس الرؤية إلى خصوصيات الآخرين. لماذا نسلم بأن أى شىء من الماضى هو لنا بوضع اليد لمجرد أننا عثرنا عليه؟ كلنا لصوص مقابر، لأننا نفتح الأبواب التى أغلقها آخرون.

لكنها مغلقة فحسب. وقد تركت الحجرات بمحتوياتها سليمة لم تمس. فإذا كان من تركوها ينشدون النسيان، فالنيران موجودة دائما.

الفصل الرابع عشر

لا بد أن أسرع الآن، فالنهاية تلوح أمامي واضحة عن بعد، وكأنها فندق صغير على جانب الطريق، في ليلة مطيرة ظلماء. فندق صغير في فترة ما بعد الحرب هو الملاذ الأخير، لا تطرح فيه الأسئلة، والأسماء المدونة في دفتر التسجيل بمكتب الاستقبال كلها غير حقيقية، والحساب يدفع مقدمًا. والمكتب مزين بمصابيح شجرة كريسماس قديمة، وخلفه أجمة من أكواخ صغيرة معتمة، والوسائد تفوح منها رائحة عفن الرطوبة، وبالخارج مضخة غاز مستديرة كالقمر. لكنها خاوية، فقد نفد منها الغاز منذ عقود مضت. هنا تتوقفون.

إنها النهاية، مرفأ دافئ آمن. إنها حيث نستريح. لكني لم أبلغها بعد، فأنا عجوز منهكة، أنهض على قدمي وأتابع سيري عرجًا. فقدت طريقي في الغابات، ولا أملك حصوات بيضاء أستدل بها على معالم الطريق، والأرض كلها زلقة خطرة.

أناشدك أيتها الذئاب! وأستدعيكن أيتها النساء الموتى ذوات الشعور الأزوردية وعيون مثل جحور تملؤها الثعابين! فلتساندوني الآن، بينما أقترب من النهاية! قودوا أصابعي الملتهبة المرتجفة، وقلمي الجاف الرث؛ ولتساعدوا قلبي العليل الذي تتسرب منه الحياة على الطفو بضعة أيام أخر، حتى أضع الأمور في نصابها. فلتكونوا رفقتي وعوني وأصدقائي؛ وثانية، أضيف، ألم نتعارف جيدًا في الماضي؟

لكل شيء مكانه، على حد قول ريني؛ أو كما اعتادت أن تقول لمسز هيلكوت حين يزداد مزاجها اعتلالا "لا ورد بلا شوك". كان إيرسكين علمني بعض الحيل النافعة. ابتهال بالغ الإتقان لربات الثأر قد ينفع عند الحاجة. وذلك عندما تكون المسألة قضية ثأر في الأساس.

اعتقدت في البداية أني لا أرغب في شيء سوى العدل. ظننت قلبي صافيا. فنحن نجنح إلى حسن الظن بدوافعنا عندما ننوي إنزال الأذى بشخص آخر. لكن كما

أشار أيضًا مستر إيرسكين فايروس بقوسه ورماحه ليس وحده الإله الأعمى. لكن جستيشيا، إلهة العدل، هى الأخرى عمياء. إلهة حمقاء تحمل أسلحة حادة؛ فجستيشيا تحمل سيفًا، هو إضافة إلى عصابة عينيها يصنع وصفة جيدة ليجرح المرء نفسه.

ترغبون بالطبع فى معرفة ما كان فى دفاتر لورا. إنها على حالها التى تركتها عليها، مربوطة بحبلها البنى المتسخ، متروكة لكم فى حقيبتى الكبيرة مع سائر الأشياء الأخرى. فلم أغير شيئًا. يمكنكم أن تتأكدوا من ذلك بأنفسكم. والصفحات المنزوعة منها، لم أكن أنا التى نزعتها.

ماذا كنت أنتظر أن أجد فى ذلك اليوم المفعم بالرعب من أيام شهر مايو عام ١٩٤٥؟ اعترافات، أم لومًا؟ أم مذكرات تذكر تفاصيل اللقاءات الغرامية بين لورا وأليكس توماس؟ لا شك فى ذلك، لا شك. كنت مستعدة للجراح. وتلقيتها، وإن لم تكن بالطريقة التى تخيلتها.

قطعت الحبل، ونشرت الدفاتر. كانت خمسة؛ رياضيات، وجغرافيا، ولغة فرنسية، وتاريخ، ولغة لاتينية. إنها كتب المعارف.

على ظهر غلاف إحدى طبعات رواية "القاتل الأعمى" كتبوا عن لورا "إنها تكتب كملاك". كانت طبعة أمريكية، حسبما أذكر، على غلافها نقش ذهبى للفائف ورقية؛ فهم يعولون كثيرًا على الملائكة فى تلك البلاد. والحقيقة الواقعة أن الملائكة لا يكتبون كثيرًا. فهم يسجلون الخطايا وأسماء الأشقياء الملعونين والأبرار الناجين، أو يظهرون كأيادٍ خفية لا جسد لها يخربشون بخطوط رديئة غير متقنة تحذيرات على الجدران. أو يبعثون رسائل، قليل منها يحمل أنباء طيبة: "الرب معك" ليست نعمة لا تشوبها شائبة.

بالنظر إلى كل هذا تكون لورا حقًا تكتب كملاك. وبتعبير آخر، لا تكتب كثيرًا جدًا. إنما فى صميم الموضوع.

كان دفتر اللاتينية أول ما فتحت. وكان معظم ما تبقى به من صفحات خاويًا؛ وظهرت حروف مشرشرة حيث نزعت لورا واجباتها المنزلية القديمة. ولم

تترك سوى صفحة واحدة تحوى ترجمة للأبيات الختامية من الكتاب الرابع لإلياذة فيرجيل – أنجزتها بمساعدتى، وأيضا بالاستعانة بالمكتبة فى أفيليون. طعنت ديدو نفسها فوق المحرقة المشتعلة أو المذبح الذى أعدته من كل متعلقات حبيبها أنياس، الذى أبحر بعيدًا ليلقى مصيره فى الحرب. مع أنها كانت تنزف مثل خنزير مقيد بالعصى، إلا أن ديدو عانت احتضارًا قاسيًا. فكانت كثيرة التلوى. وحسبما أذكر استمتع مستر إيرسكين كثيرًا بهذا الجزء.

أذكر اليوم الذى كتبته فيه. كان ضوء الشمس فى آخر النهار يتسرب إلى الداخل من نافذة حجرة نومى. وكانت لورا ترقد على الأرض ترفس فى الهواء بقدميها المكتسيتين بجورب، تنسخ بعناء فى دفترها ما تعاونا معًا فى كتابته فى عجلة وبخط رديئ. وكانت تفوح منها رائحة صابون من ماركة "أيفورى" وقشارة القلم الرصاص.

"وهنا شعرت ملكة السماء جونو بالأسى لمعاناتها الطويلة ورحلتها المتعسرة، فأرسلت أيريس من جبل الأولمب لتفصل الروح المعذبة عن الجسد الذى لا يزال متعلقا بها. كان لابد لذلك أن يحدث لأن ديدو لم تكن تموت ميتة طبيعية، أو بفعل أناس آخرين، إنما كانت تموت يأسا يحركها نحوه دافع مجنون. وعلى كل لم تكن بروزيربين قد قطعت بعد الخصلة الذهبية من رأسها أو أرسلتها إلى العالم السفلى.

وحينئذ عم الضباب، وطارت أيريس نحو الأسفل بجناحين صفراوين فى لون الزعفران، تسحب خلفها ألف لون من ألوان قوس قزح التى كانت تتلألأ فى ضوء الشمس، وبينما كانت ترفرف حول ديدو قالت:

"كما أمرت أن أفعل، فأنا آخذ ذلك الشيء المقدس الذى يخص إله الموت؛ وأحررك من جسدك."

وهنا توقف الدفء دفعة واحدة، وتلاشت حياتها فى الهواء."

قالت لورا: "لماذا كان يجب على تلك المدعوة أيريس أن تقطع جزءًا من شعرها؟"

فقلت: لا أعرف على الإطلاق. إنه مجرد شيء كان عليها أن تفعله. شيء يشبه القربان." وكنت سعيدة باكتشافى أننى أحمل اسم شخصية فى قصة، وأننى لم أسمّ فقط على اسمّ زهرة، كما ظننت دائمًا. فكان استخدام الموتيف النباتى للفتيات قويا فى عائلة أمى.

قالت لورا: "ساعد ذلك ديدو على الخروج من جسدها. فكشف عنها تعاستها، وبذلك كان ما فعلته صوابًا، أليس كذلك؟"

قلت: "أعتقد ذلك." فلم أكن بالغة الاهتمام بتلك المسائل الأخلاقية الدقيقة، فأشياء غريبة تحدث فى القصائد، ولا جدوى من محاولة فهم معناها. وإن كنت أتساءل أيضًا ما إذا كانت ديدو شقراء؛ ففى سائر القصة بدت لى أكثر ميلاً لأن تكون سوداء الشعر.

"من هو إله الموت؟ ولماذا يريد خصلة الشعر؟"

قلت:"يكفى هذا عن الشعر. لقد انتهينا من اللاتينية. والآن فلنته واجب الفرنسية. فقد أعطانا مستر إيرسكين واجبات كثيرة كالمعتاد والآن:

"Il ne faut pas toucher aux idols: la dorure en reste aux mains."

" ماذا لو قلنا: لا تعترضوا طريق الآلهة الزائفة، وإلا كسا الطلاء الذهبى أيديكم؟"

"ليس بها شيء عن الطلاء."

"لكن هذا معناها حقيقة."

"أنت تعرفين مستر إيرسكين. فهو لا يعبأ بما تعنيه حقيقة."

"أكره مستر إيرسكين. أتمنى لو عادت إلينا مس فيولنس."

"وأنا كذلك. أتمنى لو عادت أمى إلينا"

"وأنا كذلك."

وجد مستر إيرسكين ترجمة لورا لتلك الفقرة من اللاتينية ترجمة سيئة. فشطب عليها كلها بخط من قلمه الرصاص الأحمر.

كيف لى أن أصف بركة الحزن التى كنت أسقط فيها آنذاك؟ لا يمكننى وصفها، ولذلك فلن أحاول.

تصفحت الدفاتر الأخرى. كان دفتر التاريخ خاويًا إلا من صورة لصقتها لورا به – وهى صورتها مع أليكس توماس فى نزهة مصنع الأزرار، وقد لونت كليهما بالأصفر الفاتح، وتظهر إحدى يدىّ منفصلة وملونة باللون الأزرق تزحف نحوهما عبر المرج. ولا يحوى دفتر الجغرافيا شيئًا سوى وصف موجز لبورت تيكونديروجا كان مستر إيرسكين كلفنا به. وتقول لورا فى جملتها الأولى: "تقع تلك البلدة متوسطة الحجم عند التقاء نهرى اللفتوا والجوج، وتشتهر بالحجارة وغيرها." أما دفتر اللغة الفرنسية فقد أزيل منه كل ما يتعلق باللغة الفرنسية. ولم يضم الدفتر سوى قائمة الكلمات الغريبة التى تركها أليكس توماس وراءه فى علية منزلنا والتى تبينت الآن أن لورا لم تكن قد أحرقتها.

“Anchoryne, berel, carchineal, diamite, ebonort …”

لغة أجنبية حقًا، لكنها لغة كنت تعلمت أن أفهمها أفضل مما فهمت الفرنسية فى أى وقت مضى.

وضم دفتر الرياضيات عمودًا طويلاً من الأرقام يواجه بعضها كلمات. استغرقنى الأمر بضع دقائق لأدرك أى نوع من الأرقام كانت. كانت تواريخ. وافق التاريخ الأول موعد عودتى من أوروبا، وكان الثانى قبل رحيل لورا من بيلا فيستا بثلاثة أشهر أو نحوها. وكانت الكلمات كالتالى:

"أفيليون، كلا. كلا. كلا. صنى صايد. كلا. إكسانادو، كلا. كلا.

كوين مارى، كلا، كلا. نيويورك، كلا. أفيليون. كلا فى البداية.

"مفتون.". Xواتر نيكسى

X تورنتو ثانية.

X X. X. X. .

"كثيرًا

كانت تلك هى الحكاية كلها. فقد افتضح كل شىء. كان يحدث طوال الوقت، مباشرة أمام عينى. كيف كنت بهذا العمى؟

ليس أليكس توماس إذن. لم يكن أليكس أبدًا. فأليكس انتمى للورا فى بعد آخر من الفضاء.

النصر يجيئ ويذهب

بعد أن تصفحت دفاتر لورا، أعدتها إلى درج جواربى. فقد افتضح كل شىء. وإن كان لا يمكن إثبات أى شىء. واتضح الكثير.

لكن هناك دائمًا أكثر من طريقة لسلخ القطة، كما اعتادت رينى أن تقول. فإذا تعذر اختراق الشىء، در حوله.

انتظرت حتى انتهت الجنازة، وبعدها انتظرت أسبوعًا. لم أشأ التصرف باندفاع وتهور بالغ. السلامة خير من الندامة، حسبما اعتادت رينى أن تقول أيضًا. وهو مبدأ مشكوك فى صحته: فغالبًا يحدث الاثنان معًا.

رحل ريتشارد فى رحلة إلى أتوا، وهى رحلة مهمة. وقد ألمح إلى أن الناس من ذوى المكانة ربما يثيرون المسألة؛ وإن لم يكن .الآن ففى القريب العاجل. فأخبرته هو ووينفريد أننى سأنتهز الفرصة وأذهب إلى بورت تيكونديروجا مع

رفات لورا فى صندوقها الفضى الملون. فقلت إننى أريد أن أنثر ذلك الرفات، وأن أتفقد النقوش على المكعب التذكارى لعائلة تشاس. وهو أمر مقبول ولائق.

"لا تلومى نفسك." قالتها وينفريد وهى تتمنى أن أفعل ذلك – فإذا ألقيت كثيرًا من اللوم على نفسى، فلم يسعنى إلقاء اللوم على شخص آخر. "بعض الأشياء لا تحتمل الإمعان فيها." وإن كنا نمعن فيها، على كل حال. فلا نقدر على كبح أنفسنا.

بعد أن تأكدت من سفر ريتشارد، منحت الخدم عطلة فى المساء. وقلت لهم إننى سأتولى تدبير الأمور. وكنت أفعل ذلك كثيرًا فى الآونة الأخيرة – فكنت أحب البقاء وحدى فى المنزل دون أحد معى سوى إيمى، عندما تكون نائمة – وبذلك لا يرتاب أحد فى شىء ولا حتى مسز ميورجاترويد. وبمجرد أن خلت الساحة تحركت بسرعة. وكنت بالفعل قد قمت بحزم تمهيدى لأمتعتى فى سرية – و منها صندوق مجوهراتى، وصورى، وكتاب "النباتات المعمرة للحدائق الصخرية" – وحينئذ حزمت الباقى. فجمعت ملابسى، وإن لم تكن كلها على الإطلاق؛ وبعض الأشياء لإيمى، وإن لم تكن كلها على الإطلاق أيضًا. وضعت كل ما أستطيع فى حقيبة السفر الكبيرة، هى الحقيبة نفسها التى ضمت جهاز عرسى فى الماضى، وفى الحقيبة المتشابهة معها. وحضر عمال من السكك الحديد لحمل حقائبى حسبما رتبت للأمر. ومن ثم كان من اليسير أن أخرج أنا وإيمى فى اليوم التالى إلى محطة يونيون ستاشن فى سيارة أجرة، تحمل كلانا حقيبة صغيرة لقضاء يوم واحد، ولم يفطن أحد للأمر.

تركت خطابًا لريتشارد. قلت فيه إنه نظرًا لما فعل – أى ما أعرف الآن أنه فعله – فلا أريد رؤيته أبدًا. وتقديرًا لطموحاته السياسية، فلن أطلب الطلاق، وإن كنت أملك دليلاً دامغًا على تصرفه الفاحش المشين متضمنًا فى دفاتر لورا – وذكرت كاذبة أنها محفوظة فى خزانة فولاذية لحفظ الودائع. وأضفت أنه إذا راودته نفسه أن يضع يديه القذرتين على إيمى، فلابد أن يحجم عن ذلك لأننى وقتها سأسبب له فضيحة بالغة الضخامة، كما أنوى فعله أيضًا فى حال عدم استجابته لمطالبى المادية. وهى ليست

كبيرة: فكل ما أريده ما يكفى من النقود لشراء منزل صغير فى بورت تيكونديروجو، وتأمين نفقات إعالة إيمى. أما احتياجاتى الخاصة فسأوفرها بسبل أخرى.

ووقعت الخطاب بالمخلصة، وبينما كنت ألصق طرف المظروف تساءلت ما إذا كنت تهجيت لفظ "الفاحش المشين" هجاء صحيحًا أم لا.

وقبل تركى تورنتو بعدة أيام كنت سعيت باحثة عن كاليستا فيتسيموندز. وكانت قد تخلت عن صناعة التماثيل وتعمل فى رسم الصور الجدارية. وجدتها تعمل فى المكتب الرئيسى لشركة تأمين حيث حصلت على تكليف بالعمل. وموضوعه إسهام المرأة فى المجهود الحربى – وكان قد أصبح موضوعًا قديمًا آنذاك حيث إن الحرب كانت قد انتهت (وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن قد عرف بعد، إلا أن الصورة سرعان ما تظهر فى ظلال لونية هادئة تجمع بين الرمادى والبنى دون إثارة).

وكانوا قد منحوها جدارًا بطوله لتنفيذ الصورة. وضم المشهد ثلاث نساء من العاملات فى المصانع يرتدين ملابس العمال (الأفرول) يصنعن القنابل، وتعلو وجوههن ابتسامة شجاعة؛ وفتاة تقود سيارة إسعاف؛ واثنين من معاونى الزراعة يحملان معاول وسلة من الطماطم؛ وامرأة فى زى عسكرى تستخدم آلة كاتبة؛ وفى ركن جانبى أسفل الصورة تظهر أم فى مئزر تخرج رغيف خبز من الفرن، وبجوارها طفلان يتطلعان إليها فى استحسان ورضا.

دهشت سالى لرؤيتى. فلم أكن قد نبهتها لزيارتى على الإطلاق. فلم أشأ أن تتهرب منى. وكانت تشرف على الرسامين وقد رفعت شعرها بإيشارب صغير، بينما ترتدى سروالاً فضفاضًا وحذاءً رياضيًا، وتتجول فى المكان بخطى سريعة ويديها فى جيبيها وسيجارة ملتصقة بشفتها السفلى.

كانت قد سمعت بموت لورا، فقد قرأت عنه فى الصحف – تلك الفتاة الجميلة، كم كانت متميزة فى طفولتها، ياللعار. بعد تلك المقدمات، شرحت لها ما أخبرتنى به لورا، وسألتها عما إذا كان حقيقة.

كانت كالى ساخطة ناقمة. واستخدمت كلمة "كذب وافتراء" كثيرا. حقا ساعدها ريتشارد عندما قبضت عليها شرطة مطاردة الشيوعيين بتهمة إثارة الشغب، لكنها ظنت أن ذلك مراعاة منه للعلاقات الأسرية الماضية. وأنكرت أنها أخبرت ريتشارد بأى شىء على الإطلاق، سواء عن أليكس أو غيره من الشيوعيين أو الرفقاء المسافرين. ما هذا الكذب والافتراء! فأولئك كانوا أصدقاءها! أما فيما يتعلق بأليكس فقد ساعدته على الخروج فى البداية عندما كان فى ورطة كبيرة، لكنه اختفى بعدها، وكان مدينا لها ببعض المال فى حقيقة الأمر، وبعد ذلك سمعت أنه كان فى إسبانيا. فكيف يمكن أن تشى به وهى نفسها لا تعلم مكانه؟

لم أخرج بشىء. ربما كذب ريتشارد على لورا فى ذلك، كما كذب علىَّ فى كثير من الأمور الأخرى. وعلى جانب آخر ربما تكون كالى هى الكاذبة. لكن إذا كان الأمر كذلك، فماذا كنت أنتظر منها أن تقول غير ما قالت؟

لم تحب إيمى الحياة فى بورت تيكونديروجا. كانت تريد أباها. كانت تريد كل ما ألفته، كعادة الأطفال. كانت تريد استعادة حجرتها. آه، ألا نريد ذلك جميعًا.

شرحت لها أننا مضطرون للإقامة فى ذلك المكان فترة قصيرة. ما كان يجب أن أقول "شرحت" فالأمر لم يتضمن أى شرح. فماذا كان يمكن أن أقول لأقنع طفلة فى الثامنة؟

تغيرت بورت تيكونديروجا آنذاك؛ فكانت الحرب قد أكسبتها قوة وازدهارًا. فأعيد فتح عدد من المصانع أثناء الصراع – أنتجت النساء العاملات مقابس الكهرباء – لكن كان يعاد إغلاقها ثانية فى ذلك الحين. فربما كانت تنوى أن تتحول لإنتاج ما يتطلبه عهد السلام، بمجرد أن يتحدد تمامًا ما يحتاج الرجال العائدون من الخدمة شراءه لمنازلهم وعائلاتهم. وفى تلك الأثناء كان هناك العديد من العاطلين عن العمل، فصارت المسألة انتظارًا وترقبًا.

كثرت الأماكن الشاغرة. فلم يعد إليود ميوراى يدير الصحيفة؛ فسرعان ما تحول إلى اسم لامع على نصب الحرب التذكارى، وذلك أنه التحق بالقوات البحرية

وعرض نفسه للموت بقذيفة متفجرة. كان الحديث عمن قتل من رجال البلدة أو من عرضوا أنفسهم للقتل أمرًا مثيرًا للدهشة والاهتمام، وكأنه عمل أحمق، أو تصرف مقصود، وإن كان ثانويًا بعض الشيء - شيء يشترى، كأن تذهب للحصول على قصة شعر جديدة. "حاز الكعكة" كان أحدث التعبيرات الدارجة بهذا الشأن وأكثرها شيوعًا بين الرجال. ولتتساءلوا في أي خباز يفكرون.

لم يدرج رون هينكس زوج ريني ضمن تلك الزمرة العشوائية ممن يشترون الموت. فقد قيل عنه في رصانة إنه قتل في صقلية، ضمن مجموعة من الرجال من بورت تيكونديروجا ممن التحقوا باللواء الكندي الملكي. حصلت ريني على معاشه، وإن لم يكن لديها كثير سواه، فأجرت حجرة في منزلها الصغير؛ وكانت أيضا لا تزال تعمل في مطعم بيتي للوجبات السريعة، مع أنها ذكرت أن ظهرها يؤلمها ألمًا قاتلاً.

لم يكن ظهرها الذي يؤلمها ألمًا قاتلاً، كما اكتشفت بعد قليل. وإنما كانت كليتاها، وقد توقفتا عن العمل بعد عودتي بستة أشهر. إذا كنت تقرنين ذلك يا ميرا، فأريدك أن تعلمي كم كان ذلك ضربة قاسية. فكنت أعتمد على وجودها - ألم تكن موجودة دائمًا؟ - والآن فجأة لم تعد موجودة. وبعدها تزايد حضورها، فصوت من غيرها أسمع عندما أحتاج تعليقًا مواكبًا للأحداث؟

ذهبت إلى أفيليون بالطبع. كانت زيارة صعبة. كانت الأرض مهجورة مهملة، والحدائق تكسوها الأعشاب الضارة؛ والمستنبت الزجاجي يسوده الخراب بألواحه الزجاجية المكسورة، والنباتات الجافة الذابلة في أصائصها. لا بأس فمثل هذه الأشياء كانت تحدث حتى في أيامنا. وعلت تماثيل أبو الهول الحارسة نقوشًا من قبيل "جون يحب ماري" وتنويعاتها. وقد انقلب أحدها. وغصت بركة الحورية الحجرية بأعشاب ميتة وحشائش ضارة. وكانت الحورية نفسها لا تزال منتصبة، وإن فقدت بعض أصابعها. ولاتزال ابتسامتها على حالها، وإن كانت خافتة شاردة وغير مكترثة.

لم أكن مضطرة لاقتحام المنزل ذاته: فكانت ريني لا تزال على قيد الحياة، ولا تزال تحتفظ بمفتاحها السري. كان المنزل في حالة يرثى لها؛ فالغبار وفضلات

الفئران فى كل مكان، وحيث سقط تسريب للمياه تنتشر البقع على الأرضية الباركية التى بهت لونها. ومازالت مشاهد من قصة حب تريستان وإيسولت تتصدر حجرة الطعام الخاوية، وإن تعرض هارب إيسولت لبعض الضرر، وقد عشش اثنان من طيور السنونو على النافذة الوسطى. ومع ذلك لم يكن بالمكان أثر لأعمال سلب وتخريب؛ فمازالت نفحات اسم تشاس تهب محيطة بالمنزل، وإن كانت خافتة، ولابد أن هالة خابية من السلطة والمال كانت لا تزال تحوم حول المنزل.

تجولت فى أنحاء المنزل. كانت تسوده رائحة العطن. تفقدت حجرة المكتبة، حيث مازالت رأس ميدوس تسيطر على المدفأة. وكانت جدتى أديلا أيضًا لا تزال فى مكانها، وإن كانت قد نحت نحو الانزواء؛ حمل وجهها آنذاك تعبير مكر المقهورين وإن كان لا يخلو من سرور. وقلت فى نفسى محدثة إياها: أراهن أنك تطوفين بالمكان. أراهن أن حياة سرية تدب فى أوصالك وتحركك.

فتشت بين الكتب وفتحت أدراج المكتب، فى إحداها وجدت صندوقًا لعينات الأزرار من أيام جدى بنيامين؛ تلك الدوائر من العظام البيضاء التى تحولت إلى ذهب بين يديه، والتى ظلت ذهبًا لعدة سنوات، لكنها عادت الآن عظامًا مرة أخرى.

وفى العلية وجدت العش الذى لابد وأن أعدته لورا لنفسها هناك بعد أن تركت بيلا فيستا؛ الألحفة من صناديق التخزين، والبطاطين من فراشها بالأسفل – وهو دليل يشى بها لو كان أحد تفقد المنزل بحثًا عنها. وفى خزانة الإزار الخشبى أسفل الجدار خبئت حقيبة النتانيش التى كانت قد أخفتها هناك ذاك الصيف الذى أتينا فيه من أجل "واتر نيكسى": وبها إبريق الشاى الفضى، والأقداح الصينى وأطباقها، والملاعق المحفور عليها الأحرف الأولى. وأيضًا كسارة البندق على شكل تمساح، وزر كم القميص الصدفى، والقداحة المكسورة، وحامل قوارير الخل الخالى.

وقلت فى نفسى، سأحضر لاحقًا لأعثر على المزيد.

لم يظهر ريتشارد بشخصه، وهو دليل (فى نظرى) على ذنبه. فأرسل وينفريد نيابة عنه. استهلت قذائفها قائلة: "هل أنت مجنونة؟" (كان ذلك فى مقصورة بمطعم بيتى للوجبات السريعة؛ فلم أشأ أن تحضر إلى منزلى الصغير المستأجر، فلا أريدها فى أى مكان قريبًا من إيمى.)

قلت: "لا، ولم تكن لورا كذلك أيضًا. أو لعلنى لم أجن بعد كما تدعيان أنتما الاثنان. فأنا أعرف ما فعله ريتشارد."

قالت وينفريد: "لا أعرف عما تتحدثين." وكانت ترتدى لفاعًا من فراء المنك مكون من ذيول لامعة، وكانت تخلع قفازيها.

"أرى أنه عندما تزوجنى ظن أنه حصل على صفقة – اثنان بثمن واحدة، اشترانا بثمن بخس لا يزيد على أغنية."

قالت وينفريد، وإن بدت خائفة: "لا تكونى سخيفة، فيدا ريتشارد نظيفتان تمامًا، مهما قالت لورا. هو نقى كالثلج المنجرف. لقد أخطأت خطأ فادحًا فى الحكم. لقد أرادنى ريتشارد أن أقول لك إنه مستعد للتغاضى عن هذا – التجاوز من جانبك. فإذا عدت فهو مستعد تمامًا لأن يسامح ويغفر."

قلت: "لكنى لن أعود. ربما يكون نقيًا كالثلج، لكنه ليس الثلج الذى نعرفه. إنها مادة أخرى مختلفة تمامًا."

همست: "اخفضى صوتك، فالناس يتطلعون."

قلت: "إنهم سيتطلعون على أى حال وأنت فى كامل زينتك مثل فرس ليدى أستور. فهذا اللون الأخضر لا يناسبك على الإطلاق، خاصة فى عمرك الحالى. حقيقة هو لم يناسبك أبدًا. فيضفى عليك اصفرارًا وشحوبًا."

أصاب ذلك الهدف. فوجدت وينفريد صعوبة فى الاستمرار؛ فهى لم تتعود منى على ذلك الأسلوب الجديد الخبيث. فقالت: "ماذا تريدين 'بالضبط'. ولا يعنى ذلك أن ريتشارد ارتكب شيئًا على الإطلاق. إنما هو لا يريد ضجيجًا وجلبة."

قلت: "أخبرته بما أريد 'بالضبط' وأوضحته تمامًا. والآن أريد الشيك."

"هو يريد أن يرى إيمى."

قلت: "مستحيل أن أسمح بشيء كهذا على الإطلاق. فهو يشتهى الفتيات الصغيرات. وكنت تعرفين ذلك، عرفتيه دائمًا. حتى فى عمر الثامنة عشرة كنت أقترب من الحد الأقصى. واستهواه كثيرًا وجود لورا فى نفس المنزل، أدرك ذلك الآن. فلم يستطع أن يكف يديه عنها. لكنه لن يضع يديه على إيمى."

قالت وينفريد وقد استشاطت غضبًا، فبدت بقعًا حمراء خلف مساحيق زينتها: "لا تكونى مثيرة للاشمئزاز. فإيمى ابنته."

كدت أقول: "كلا، هى ليست ابنته." لكنى أدركت أن ذلك سيكون خطأ يضر بخططى المستقبلية. فقانونًا هى ابنته؛ ولم يكن بمقدورى إثبات غير ذلك، فلم يكونوا قد اخترعوا بعد كل تلك الجينات وأمثالها. وإذا عرف ريتشارد الحقيقة، ازداد شغفه بأن ينتزعها بعيدًا عنى. كان سيحتفظ بها رهينة، وسأخسر كل المزايا التى حصلت عليها حتى ذلك الوقت. كانت لعبة قذرة. قلت: "هو لا يوقفه شيء. ولا حتى إيمى. وبعدها سيشحنها إلى مزرعة سرية للإجهاض، كما فعل مع لورا."

قالت وينفريد وهى تجمع قفازيها ولفاعها وحقيبة يدها المصنوعة من جلد الثعبان: "أرى لا جدوى من الاستمرار فى المناقشة أكثر من ذلك."

تغيرت الأمور بعد الحرب. فهى تتغير وفق نظرتنا إليها. فبعد فترة خفتت حدة الألوان الرمادية وتلاشت ظلالها اللونية. وحل محلها وهج الظهيرة الكامل – ضوء مبهر بلا ظلال. ألوان قرمزية ساخنة، وزرقاء بنفسجية، وأحمر وأبيض فى لون كرات الشاطئ، وأخضر فلوروسنتى كالمستخدم فى المصنوعات البلاستيكية، وألقت الشمس بأشعتها المبهرة وكأنها بؤرة ضوئية.

وحول أحزمة البلدان والمدن هامت البلدوزرات، وانقلبت الأشجار، وحفرت الأرض فى فجوات كبيرة، وكأنما سقطت عليها القنابل. وامتلأت الشوارع

بالحصى والطين. وبدت المروج جرداء سوى من شجيرات نحيلة هزيلة؛ شاع منها شجر السندر متدلى الأغصان. وبدا أفق السماء بالغ الاتساع.

وبدا اللحم، تلمع قطعه الكبيرة وكتله وشرائحه فى نوافذ عرض الجزارين. وظهرت ثمار البرتقال والليمون تلمع كشعاع الشمس عند إشراقها، وكانت هناك أكوام من السكر وجبال من الزبدة الصفراء. راح الجميع يأكلون ويأكلون. فملأوا البطون بكل ما نالته أيديهم من شتى ألوان اللحوم ومختلف أصناف الطعام، وكأن الغد ليس بآت.

لكن الغد كان آتيًا. فلم يكن هناك سوى الغد. وما تلاشى كان الأمس.

أصبحت آنذاك أملك قدرًا كافيًا من المال سواء مما حصلت عليه من ريتشارد أو ورثته من تركة لورا. اشتريت منزلى الصغير. كانت إيمى لا تزال غاضبة منى لسحبها بعيدًا عن حياتها الرغدة السابقة، لكن بدا أنها استقرت، وإن كنت من حين لآخر ألمحها ترمقنى بنظرة باردة: فكانت تحكم علىَّ بأنى أم لا ترضيها. وعلى الجانب الآخر كان ريتشارد يحصد مزايا الابتعاد، فازداد بريقه فى نظرها حيث إنه لم يعد موجودًا. ومع ذلك تناقص سيل هداياه حتى صار قطرة، ومن ثم لم يتح أمامها كثير من الاختيارات. أخشى أن أكون توقعت منها جلدًا ومثابرة أكثر مما تستطيع.

وفى تلك الأثناء كان ريتشارد يتأهب لرداء السلطة، والذى كاد أن يكون ملك يمينه – حسبما تذكر الصحف. وحقيقة كنت عقبة فى سبيله، وإن توقفت الشائعات حول انفصالنا. فشاع أننى "فى البلد" وأفاد ذلك قليلاً، طالما أننى كنت مستعدة للإقامة هناك.

وعلى غير علمى كانت تنتشر شائعات أخرى؛ تقول إننى مضطربة العقل؛ وأن ريتشارد يعولنى ماديا بالرغم من حماقتى، وأنه قديس. فلا ضرر من زوجة مجنونة، إذا أحسن التصرف معها؛ وبذلك يكتسب الأقوياء بفضل زوجاتهم مزيدًا من التعاطف مع قضاياهم.

عشت فى بورت تيكونديروجا حياة على قدر كبير من الهدوء. فكلما خرجت يحيطنى بحر من كلمات الاحترام الهامسة؛ تسكت الأصوات عندما أقترب من مرمى السمع، ثم تبدأ من جديد. فقد اتفق الجميع أنه مهما حدث مع ريتشارد، فلابد أن أكون أنا الجانب المساء إليه. فقد حالفنى سوء الطالع، لكن حيث إنه لا يوجد عدل ولا أدنى درجات الرحمة، فلا يمكن لأحد أن يفعل لى شيئًا. كان ذلك بالطبع قبل ظهور الكتاب.

مر الوقت. كنت أمارس البستنة وأقرأ وما إلى ذلك. وكنت قد بدأت بالفعل تجارة التحف المستعملة – على نطاق ضيق، بادئة بقطع المجوهرات القليلة على شكل حيوانات والتى كان أهداها لى ريتشارد – وكما اتضح لاحقًا، نفعنى ذلك عند الحاجة فى عشرات السنوات التالية. وكانت الحياة قد استقرت فيما يشبه الألفة.

لكن دموعًا لا نذرفها تملؤنا بالزنخ. وهكذا تفعل الذكريات. وهكذا يكون شأن الإحجام عن الكلام. وبدأت أمر بليال سيئة. يجافينى فيها النوم.

على الجانب الرسمى كان قد تم التعتيم على لورا.وبضع سنوات أخرى وكانت ستصبح وكأنما لم توجد أبدًا. فقلت فى نفسى لا يجب أن ألتزم الصمت. ماذا أردت؟ ليس كثيرًا. إنما شيئًا مثل النصب التذكارى. لكن ما عسى أن يكون النصب التذكارى فى حقيقته سوى تخليد لجراح تحملها المرء وعاناها؟ تحملها وعاناها، ومقتها. فبدون الذكرى لا يكون الانتقام.

تقول صيحات الأشباح العطشى: "حتى لا ننسى. اذكرونى. نلقى بها إليكم بأياد عاجزة."

وجدت أنه لا شىء أصعب من فهم الموتى؛ لكن لا شىء أخطر من تجاهلهم.

كومة الحصى

أرسلت الكتاب. وفى الموعد تلقيت خطابًا بالرد. رددت عليه. وسارت الأمور فى مجراها.

وصلت نسخ المؤلف قبل النشر. وعلى الحاشية الداخلية للغلاف نبذة مؤثرة عن حياة المؤلفة تقول:

"كتبت لورا تشاس روايتها "القاتل الأعمى" قبل بلوغها الخامسة والعشرين. وهى روايتها الأولى؛ وللأسف ستكون الأخيرة أيضًا، حيث لقيت المؤلفة مصرعها فى حادث سيارة عام ١٩٤٥. ونفخر بأن نقدم عمل هذه الكاتبة الشابة الموهوبة فى باكورة تألقها المدهش."

وفوق تلك الكلمات نسخة رديئة من صورة لورا؛ تظهر فيها مشوشة وغير واضحة. لكنها أصابت الهدف.

عندما ظهر الكتاب، ساد الصمت فى البداية. فلم يعد كتابًا صغيرًا يصعب أن تحقق مادته أعلى المبيعات؛ ومع أنه استقبل استقبالاً حافلاً فى الدوائر النقدية فى نيويورك ولندن، إلا أنه لم يحقق أثرًا كبيرًا هنا؛ ليس فى البداية. وبعدها أمسك به الأخلاقيون والوعاظ الناقدون فوق المنابر، كما دلف إلى المشهد مثيروا الضجيج من أبناء البلد، وبدأت الجلبة والضجيج. وبمجرد أن ربط الذباب المتهافت على الجثث بين الأمور وأدركوا أن لورا هى الأخت المتوفاة لزوجة ريتشارد جريفون، تهافتوا على القصة كالطفح الجلدى. ففى ذلك الوقت كان لريتشارد الكثير من الأعداء السياسيين. وبدأ الهمز واللمز ينهمر.

وصعدت إلى السطح مرة أخرى الرواية بأن لورا انتحرت، والتى كانت خمدت تمامًا آنذاك. كان الناس يتحدثون، ليس فى بورت تيكونديروجا وحدها، لكن فى الدوائر المعنية. فإذا كانت فعلتها، فما السبب؟ اتصل شخص مجهول تليفونيًا – أسأل من يكون؟ – ودخلت مصحة بيلا فيستا إلى الصورة. أدت شهادة موظف سابق (قيل إن إحدى الصحف دفعت له مبلغا كبيرًا) إلى تحقيق كامل حول ما يجرى هناك من ممارسات قذرة غير أخلاقية ولا قانونية أسفرت عن كشف كل الخفايا وإغلاق المكان بأكمله. تفحصت صورها باهتمام: فقبل أن تصبح مصحة كانت قصرًا لأحد رجال الأعمال العاملين فى تجارة الأخشاب من ذوى المكانة

والنفوذ، وقيل إن كان فى حجرة الطعام نوافذ بديعة ذات زجاج ملون معشق، لكنه ليس بالغ الإبداع كنوافذ أفيليون ذات الزجاج الملون المعشق.

وكانت بين ريتشارد ومدير المصحة بعض المراسلات مما كان له بالغ الأثر فى تدميره.

يتراءى لى ريتشارد بين حين وآخر سواء بعين الخيال أو فى حلم. يبدو أشيبَ، لكن يغمره بريق متعدد الألوان كالزيت فوق بركة. يرمقنى بنظرة ماكرة. إنه شبح آخر لوام.

قبيل إعلان الصحف خبر تقاعده عن ممارسة السياسة الرسمية بوقت قصير، تلقيت منه مكالمة تليفونية، كانت الأولى منذ رحيلى. كان ناقمًا يستشيط غضبًا. فقد أخبروه أنه نظرًا للفضيحة لم يعد مرشحًا لمنصب قيادى، والآن لا يرد ذوو المناصب المهمة على مكالماته. فقد تجاهلوه وجفوه. وقال إننى فعلت ذلك عامدة لتدميره.

قلت: "ماذا فعلت؟ أنت لم تدمر. فمازلت بالغ الثراء."

قال: "ذلك الكتاب! لقد أجهزتى علىَّ ودمرتيننى! كم دفعت لهم لينشروه؟ لا يمكننى أن أصدق أن لورا كتبت ذلك العمل القذر الذى يصلح للقمامة.!"

قلت: "أنت لا تريد أن تصدق لأنك مفتون بها. لا تستطيع أن تواجه الاحتمال بأنه طوال الوقت الذى كنت تستمتع فيه بنذواتك الصغيرة الـقذرة معها، كانت هى تتردد على فــراش رجل آخــر – رجل أحبته ويختلف عنك. أو لعلنى أسلم بأن هذا ما يعنيه الكتاب – أليس كذلك؟"

"كان ذلك الشيوعى، أليس كذلك؟ ذلك الوغد الداعر – الذى كان فى نزهة الطعام!" لابد أنه كان فى شدة الغضب، فليس من عادة ريتشارد أن يسب إلا قليلاً.

قلت: "كيف لى أن أعرف؟ فلم أكن أتجسس عليها. لكنى أوافقك أن علاقتهما لابد وأن بدأت فى نزهة الطعام. ولم أخبره أنه كانت هناك نزهتان للطعام

حضرهما أليكس؛ إحداهما مع لورا، والأخرى بدونها، بعدها بعام بعد أن صادفت أليكس ذلك اليوم فى شارع كوين ستريت. تلك النزهة التى تناولنا فيها البيض المسلوق.

قال ريتشارد: "كانت تفعل ذلك حقدًا وضغينة علىّ. كانت تفعله فقط لترد لى الإيذاء."

قلت: "لا يدهشنى ذلك. فلابد أنها كانت تكرهك. ولماذا لا تفعل؟ فقد اغتصبتها."

"هذا ليس صحيحًا. فأنا لم أفعل شيئًا بغير رضاها!"

"رضاها؟ أهكذا تسميه؟ أنا أسميه ابتزازًا."

أغلق التليفون فى وجهى. إنها صفة عائلية ملازمة لهم. فقد فعلته وينفريد أيضًا عندما اتصلت بى فى وقت سابق لتعنفنى وتشكو.

وبعد ذلك اختفى ريتشارد، وتم العثور عليه بعدها فى واتر نيكسى – أجل فأنتم تعرفون كل ذلك. فلابد أنه تسلل إلى البلدة، وتسلل إلى حدائق أفيليون، وقفز خلسة إلى القارب الذى كان فى عنبر القوارب، وبالمناسبة، لم يكن مربوطا إلى رصيف الميناء، كما ذكر خطأ فى الصحف. كان ذلك ستارًا: فجثة على قارب فى الماء شيء على درجة من الألفة، لكن جثة فى عنبر القوارب شيء غريب. لم تشأ وينفريد أن يسود الظن بأن ريتشارد فقد صوابه وجن جنونه.

فماذا حدث حقيقة آنذاك؟ لست على يقين. فبمجرد العثور عليه تولت وينفريد مسار الأحداث، وجملت وجه الأمور كأفضل ما يكون. كانت روايتها أنه أصيب "بسكتة دماغية". فقد تم العثور عليه وكتاب بجانبه. هذا كل ما أعرفه، لأن وينفريد اتصلت بى وهى فى حالة هياج هيستيرى وأخبرتنى بذلك. وقالت: "كيف تفعلين ذلك به؟ لقد دمرت حياته العملية فى السياسة، ثم دمرت ذكرياته عن لورا. لقد أحبها! كان مولعا بها! لم يحتمل وفاتها!"

فقلت ببرود: "يسرنى أن أسمع أنه شعر ببعض الندم، فلم ألحظ عليه شيئًا منه وقتها."

كانت وينفريد تلومنى بالطبع. وبعد ذلك صارت حربًا مفتوحة بيننا. ففعلت بى أسوأ ما يصل تفكيرها إليه. أخذت إيمى.

أرى أنكم تعلمتم الحقائق المنزلة وقناعاتكم الراسخة حسبما ترى وينفريد. ففى رواياتها لابد أن أكون سكيرة ومتشردة وعاهرة وأمًا سيئة. ولا شك أنها بمرور الوقت صارت تنعتنى بالشكسة رثة الهيئة، والشمطاء المجنونة، وبائعة الكراكيب الرثة القديمة. ومع ذلك أشك أنها قالت لكم إننى قتلت ريتشارد. فإذا كانت أخبرتكم بذلك، فكان عليها أيضًا أن تقول من أين واتتها الفكرة.

قد يحمل لفظ "الكراكيب" وصمة وإهانة؛ حقًا اشتريت رخيصا وبعت غاليًا – ومن لا يفعل فى تجارة التحف القديمة؟ – لكن كانت لى عين فاحصة ولم ألوِ ذراع أحد. وأعترف أننى أفرطت فى الشراب لفترة، لكن لم يحدث ذلك حتى رحيل إيمى. أما فيما يتعلق بالرجال، فكان هناك بعض منهم أيضًا. لم تكن أبدًا مسألة حب، بل كانت أشبه بشىء من التضميد الوقتى للجراح. فكنت منقطعة تمامًا عن كل ما حولى، لا أستطيع التواصل أو التلامس؛ وفى الوقت نفسه شعرت أننى مكشوطة حتى التقرح. فكنت أحتاج المواساة من جسد آخر.

تجنبت الرجال من الأوساط الاجتماعية المحيطة بى سابقًا، وإن ظهر بعض منهم، كذباب الفاكهة، بمجرد أن شموا أخبارًا عن وحدتى وما يمكن أن أكون عليه من فساد. ورجال كهؤلاء لابد وأن لقوا تشجيعًا من وينفريد، فلا أشك فى ذلك. التصقت بالغرباء، ألتقطهم فى طريقى إلى البلدان والمدن المجاورة بحثًا عما يسمونه الآن "مجموعات". لم أبح باسمى الحقيقى أبدًا. لكنى فى النهاية لم أصمد أمام إلحاح وينفريد ودأبها. فكل ما أرادته رجلاً واحدًا، وحصلت عليه بالفعل. صور باب الحجرة فى الفندق الصغير، أدخل إليها وأخرج منها؛ التوقيع المزور فى سجل النزلاء؛ شهادة المالك، الذى رحب بالمال. قال محامى الخاص "يمكنك النضال فى المحكمة، لكنى لا أنصحك بذلك. سنحاول الحصول على حقوق

الزيارة، فهذا أقصى ما يمكن أن تتوقعيه. لقد أعطيتهم الذخيرة فاستخدموها." وكان يرمقنى باستنكار، لا لأفعالى المشينة أخلاقيًا إنما لحماقتى.

وكان رينشارد فى وصيته قد عين وينفريد وصية على إيمى، وجعلها الأمينة الوحيدة على ودائعها الائتمانية التى لا يستهان بها. ومن ثم استغلت ذلك لصالحها أيضًا.

أما فيما يتعلق بالكتاب، فلورا لم تكتب كلمة منه. لكن لابد أنكم كنتم تدركون هذا لوقت طويل. فقد كتبته أنا فى أمسياتى الطويلة التى كنت أقضيها وحيدة، أنتظر عودة أليكس، وبعد ذلك عندما علمت أنه لم يعد. لم أفكر فيما كنت أقوم به على أنه كتابة – إنما محض تدوين. أدون ما تذكرته، وأيضًا ما تخيلته، والذى كان حقيقة كذلك. ظننتنى أسجل. كنت يدًا لا تتصل بجسد تدون بخط سريع على جدار.

أردت نصبًا تذكاريًا. تلك كانت البداية. أردت نصبًا تذكاريًا لأليكس، لكن لنفسى أنا أيضًا.

لم يبعد ذلك كثيرًا عن وضع اسم لورا كمؤلفة للكتاب. فربما ترون أن ما ألهمنى بذلك قد يكون الجبن، أو افتقارى إلى الشجاعة – فلم أكن مولعة أبدًا بالأضواء الكاشفة. أو لعلها مجرد حصافة وحذر: فوضع اسمى كان سيحتم فقدى لإيمى، والتى فقدتها على أى حال؛ لكن عند إمعان الفكر بدا الأمر محض إحقاق للعدل، لأنه لا يسعنى القول إن لورا لم تكتب كلمة منه. فمن الناحية العملية ذلك حقيقى وصحيح، لكنه بمفهوم آخر – والذى كانت لورا ستسميه المفهوم الروحى – يمكنكم القول إنها شريكتى. فالمؤلفة الحقيقية ليست أيا منا؛ فقبضة اليد أكثر من عدد ما بها من أصابع.

أذكر لورا عندما كانت فى العاشرة أوالحادية عشرة تجلس إلى منضدة الكتابة الخاصة بجدى فى حجرة المكتبة بأفيليون. وقد نشرت أمامها صفحة من الورق، وراحت تشغل نفسها بترتيب المقاعد فى السماء. فقالت: "يجلس المسيح إلى يمين الرب. فمن يجلس إلى يسار الرب إذن؟"

فقلت لأغيظها: "ربما ليس للرب يسار أو يد يسرى. من المفترض أن تكون الأيادى اليسرى سيئة، ومن ثم قد لا تكون له يد يسرى، أو لعل يده اليسرى قطعت فى حرب من الحروب."

قالت لورا: "خلقنا الرب على صورته، ونحن لنا أياد يسرى، ولذلك لابد للرب أن تكون له يد يسرى أيضا." وعادت إلى رسمها التوضيحى وهى تمضغ طرف قلمها الرصاص، وقالت: "أعرف! فلابد أن تكون المنضدة مستديرة! ومن ثم يجلس كل الناس إلى يمين بعضهم البعض فى شكل دائرى."

قلت: "والعكس بالعكس"

كانت لورا يدى اليسرى، وكنت لها كذلك. فكتبنا الكتاب معًا. فهو كتاب أيسر مكتوب باليد اليسرى. وهذا هو السبب فى أن إحدانا تغيب دائمًا عن الرؤية فى أى اتجاه تنظرون منه.

عندما بدأت ذلك السرد لحياة لورا – ولحياتى – لم أفكر ألبتة فى سبب كتابتى، أو فيمن أتوقع أن يقرأ ما كتبت بمجرد انتهائى منه. لكن اتضح الأمر أمامى الآن. فكنت أكتبه لك، يا عزيزتى سابرينا، لأنك أنت من يحتاجه الآن، بل إنك الشخص الوحيد الذى يحتاجه الآن.

وحيث إن لورا لم تعد من ظننتيها، فأنت أيضًا لم تعدى ما تظنينه أيضًا. قد يصدمك ذلك، لكنه قد يريحك أيضًا. فعلى سبيل المثال أنت لا تمتين بصلة على الإطلاق لوينفريد ولا لريتشارد. فلا تحملين فى داخلك ذرة من عائلة جريفون على الإطلاق؛ فيداك نظيفتان فى هذا الشأن. جدك الحقيقى هو أليكس توماس، أما فيما يتعلق بمن كان أبوه فلا حدود لذلك. ربما كان غنيًا، أو فقيرًا، شحاذًا، أو قديسًا، يعود أصله إلى عديد من البلدان، أو عشرات الخرائط الملغاة، أو مائة قرية سويت بالأرض – اختارى ما تشائين. فقد ورثت عنه عالمًا من الحدس بلا حدود. ولك الحرية فى إعادة صياغة نفسك وفقما تريدين.

الفصل الخامس عشر

القاتل الأعمى مكتبة

لديها صورة وحيدة له بالأبيض والأسود. حافظت عليها بعناية، فهى كل ما تبقى لديها منه. يظهران فى الصورة معًا، هى وهذا الرجل، فى نزهة طعام. مكتوب على ظهر الصورة "نزهة طعام" – ليس اسمها أو اسمه، إنما فقط "نزهة طعام". تعرف الأسماء، ولا تحتاج إلى تدوينها.

يجلسان تحت شجرة؛ لابد وأن كانت شجرة تفاح. كانت ترتدى تنورة واسعة تدسها حول ركبتيها. كان يومًا حارًا. لا تزال تشعر بحرارته تنبعث من الصورة وهى تتحسسها بيديها.

كان يرتدى قبعة فاتحة اللون، تخفى جانبًا من وجهه. وكانت تلتفت إليه نصف التفاتة، وتبتسم ابتسامة لا تذكر أن ابتسمتها لأحد منذ ذلك الحين. تبدو صغيرة جدا فى الصورة. كان يبتسم هو الآخر، لكنه يرفع إحدى يديه بينه وبين الكاميرا، وكأنما يتقيها. وكأنما يتقيها هى أيضًا عندما تعاود النظر إلى صورتهما فى المستقبل. وكأنما يحميها. وكان بين أصابعه عقب سيجارة.

تستعيد الصورة عندما تكون بمفردها وتبسطها على المنضدة وتميل عليها محملقة. تتفحص كل صغيرة وكبيرة من تفاصيلها: أصابعه التى يخرج من بينها الدخان، وطيات ملابسهما الحائل لونها نحو البياض، والتفاحات غير الناضجة المتدلية من الشجرة، والعشب الذابل فى المشهد الممتد أمامهما. وأيضًا وجهها المبتسم.

كانت الصور قد قصت؛ قص ثلثها. ففى ركنها الأسفل من اليسار تظهر يد، ترتاح على العشب، قطعت بالمقص عند الرسغ. إنها يد الأخرى، تلك التى تكون فى الصورة دائمًا، سواء ظهرت فيها أم لم تظهر. اليد التى ستدون وتسجل.

تقول فى نفسها: كيف استطعت أن أكون بهذا الجهل؟ شديدة الغباء، عاجزة عن الرؤية، أستسلم لعدم الاكتراث واللامبالاة. لكن كيف لنا أن نحيا بدون هذا الجهل وعدم الاكتراث؟ فإذا عرف المرء ما سيحدث فيما بعد – إذا أدرك عواقب

تصرفاته مقدمًا – كان مصيره الهلاك. وصار حجرًا. فلا يأكل أبدًا أو يشرب أو يضحك أو ينهض من فراشه فى الصباح. ولا يحب شخصًا بعد ذلك أبدًا. فلن يجرؤ على ذلك على الإطلاق.

وحيث إنها غرقت الآن – وكذلك الشجرة، والسماء، والرياح، والسحب. فلم تترك شيئًا وراءها سوى الصورة. وأيضًا حكايتها.

الصورة لقطة للسعادة، أما الحكاية فغير ذلك. السعادة حديقة مسورة بالعشب: فلا سبيل للدخول إليها أو الخروج منها. فى الجنة لا توجد حكايات، لأنه ليس بها رحلات. فبالفقد، والندم، والتعاسة، والشوق تتقدم الحكاية فى طريقها كثير من المنعطفات والمنحنيات.

بورت تيكونديروجا هيرالد أند بانر، ٢٩ مايو، ١٩٩٩

أيريس تشاس

سيدة لا تنسى

بقلم: ميرا ستيرجيس

رحلت فجأة يوم الأربعاء الماضى فى منزلها ببورت تيكونديروجا مسز أيريس تشاس، عن عمر يناهز ٨٣ عامًا. وقالت مسز ميرا ستيرجيس، وهى صديقة قديمة للعائلة، "رحلت فى منتهى السلام بينما كانت تجلس فى الحديقة الخلفية لمنزلها. ولم يكن ذلك غير متوقع، حيث كانت تعانى من مشكلة فى القلب. كانت شخصية متميزة ومعلما من معالم التاريخ، وإنسانة رائعة بالنسبة لزمنها. سنفتقدها جميعًا، ومن المؤكد أن سنظل نذكرها طويلاً."

كانت مسز جريفون أخت المؤلفة المعروفة لورا تشاس ابنة بلدتنا. ذلك إضافة إلى كونها ابنة كابتن نورفال تشاس الذى ستذكره هذه البلدة طويلاً، وحفيدة بنيامين تشاس، مؤسس صناعات تشاس التى أنشأت مصنع الأزرار وغيره. وكانت أيضًا زوجة الراحل ريتشارد إى جريفون، رجل الصناعة البارز والشخصية السياسية المعروفة، زوجة شقيق وينفريد جريفون بريور، سيدة الإحسان من

تورنتو التى رحلت العام الماضى تاركة تركة سخية لمدرستنا العليا. ولها على قيد الحياة حفيدتها سابرينا جريفون، التى عادت لتوها من الخارج ومن المتوقع أن تزور هذه البلدة قريبًا لتفقد شئون جدتها. ومن المؤكد أنها ستلقى ترحيبًا حارًا وكل ما نستطيع أن نمده لها من عون ومساعدة.

ووفق رغبة مسز جريفون سيكون قداس الجنازة قداسًا خاصًا، مع دفن رماد الجثة عند النصب التذكارى لعائلة تشاس فى مدافن مونت هوب. ومع ذلك سيقام قداس تذكارى فى كنيسة جوردان فيونيرال هوم فى الثالثة مساء من يوم الثلاثاء القادم، اعترافًا بالمآثر العديدة لعائلة تشاس على مدى الزمن، وبعد ذلك ستقدم المرطبات فى منزل ميرا ووالتر ستيرجيس، ومرحبًا بالجميع.

العتبة

اليوم يسقط المطر؛ مطر ربيعى دافئ. تلمع قطراته فى الجو ببريق متغير الألوان. وترتطم الجنادل مدوية أعلى الجرف وفوقه – ترتطم مثل الرياح، لكن دونما حركة، مثل بصمات الأمواج فوق الرمال.

أجلس إلى المنضدة الخشبية بالشرفة الخلفية، فى ظل طنف السقف البارز من الجدار، أحملق بعيدًا نحو الحديقة التى طال اعتراشها المشعث. كان الوقت غسقًا. وزهور الفلوكس تتفتح، أو لعلنى أظنها زهور الفلوكس؛ فلم أرها بوضوح. شىء أزرق يلمع بعيدًا عند نهاية الحديقة، إنه الوميض الفسفورى للجليد فى الظل. وفى أحواض الزهور تشق السوق طريقها متدافعة إلى أعلى، على هيئة أقلام الطباشير الملونة، أرجوانى، وأزرق مائل لاخضرار، وأحمر. تغشانى رائحة التربة الرطبة والنماء الجديد، ندية زلقة لها مذاق حمضى مثل لحاء الشجر. رائحتها مثل الشباب؛ رائحتها كانفطار القلب.

تدثرت بلفاع: الجو دافئ فى المساء بالنسبة لذلك الفصل من العام، لكننى لا أشعر به دفئًا، إنما محض غياب للبرد. أرى العالم واضحًا من هنا – "هنا" حيث المشهد الطبيعى الممتد ينظر إليه المرء من أعلى موجة، قبل أن تجرفه تحتها

الموجة التالية: ما أصفى زرقة السماء، وما أروع خضرة البحر، وما أتم مشهد الطبيعة.

إلى جوارى كومة الأوراق التى أضيف إليها بعناء شهرًا وراء شهر. عندما أنتهى – عندما أكتب الصفحة الأخيرة – سأجذب نفسى لأنهض من هذا المقعد وأشق طريقى نحو المطبخ، وأنبش باحثة عن شريط مطاطى أو قطعة حبل أو شريط قديم من شرائط الشعر. سأربط الأوراق معًا، ثم أرفع غطاء حقيبة السفر الكبيرة وأزج بهذه الرزمة فوق كل الأشياء الأخرى. وفيها ستبقى إلى حين عودتك من السفر، إذا كنت يومًا ستعودين. المحامى لديه المفتاح، وتعليمات منى.

لابد أن أعترف أنى رأيتك فى حلم يقظة.

ذات مساء سأسمع طرقة على الباب وستكونين أنت. ستكونين مرتدية للسواد وتحملين حقيبة صغيرة على ظهرك كتلك التى يستخدمونها الآن بدلاً من حقائب اليد. سيكون الجو مطرًا، كما هو هذا المساء، لكن لن يكون معك مظلة، لأنك تحتقرين المظلات؛ فالشباب يحبون أن تهطل عناصر الطبيعة على رؤوسهم، فهم يجدون فيها قوة وانتعاشًا. ستقفين عند الشرفة الخارجية فى سديم من الضوء الرطب؛ شعرك اللامع مبلل وملابسك السوداء مشبعة بالماء، وقطرات المطر تتلألأ على وجهك وملابسك مثل حبات الترتر.

ستطرقين. وسأسمعك، وسأسير متثاقلة أجرجر خطاى عبر الردهة الخارجية، وسأفتح الباب. سيقفز قلبى ويرفرف؛ سأحدق فيك وأمعن النظر، ثم أتعرف عليك: أمنيتى العزيزة وآخر ما تبقى لدى من أمنيات. سأقول فى نفسى إننى لم أر فى حياتى أحدًا بهذا الجمال، لكننى لن أقول ذلك؛ فلا أريدك أن تظنى أنى صرت طائشة حمقاء. وبعدها سأرحب بك، سأمد ذراعى نحوك، وسأقبلك على وجنتيك سريعًا، فمن غير اللائق أن أطلق العنان لنفسى. سأبكى بقليل من الدمع، قليل من الدمع فحسب، لأن عيون العجائز قاحلة.

سأدعوك للدخول. وستدخلين. ولن أحبذ أن تعبر فتاة شابة عتبة مكان كمكانى، يقطنه شخص مثلى - امرأة عجوز، امرأة طاعنة فى السن، تعيش بمفردها فى كوخ متحجر، شعرها مثل نسيج العنكبوت المحترق ولها حديقة كثيرة الأعشاب الضارة، تمتلئ بما لا يعلمه إلا الرب. تحيط بمثل هذه الكائنات نفحة كبريتية: فربما شعرت بشىء من الخوف منى. لكنك ستكونين أيضًا على شىء من التهور والاستهانة بالمخاطر، مثل نساء عائلتنا جميعًا، ولذلك ستدخلين على أى حال. وستنادينني "جدتى"؛ وبتلك الكلمة الواحدة لم أعد ينكرنى أحد أو يتبرأ منى.

سأجلسك إلى منضدتى، وسط الملاعق الخشبية وأكاليل الأغصان، والشمعة التى لا تشتعل أبدًا. سأجدك ترتعشين، فسأعطيك منشفة، وأدثرك فى بطانية، وأعد لك بعض الكاكاو.

وبعدها سأروى لك حكاية. سأحكى لك هذه الحكاية: قصة كيف حدث أن تكونى هنا، تجلسين فى مطبخى، وتصغين إلى الحكاية التى أرويها لك. إذا حدثت معجزة وتحقق ذلك فلن تكون ثمة حاجة لهذه الكومة المختلطة من الأوراق.

ماذا أريد منك؟ ليس الحب: فهو أكثر من أن أطلبه. وليس العفو، الذى لا تملكينه لتمنحيه. إنما ربما أريد من يصغى؛ من يرانى. فمهما فعلت لا تغيرى منى شيئًا: فلا أتمنى أن أصبح جمجمة مزينة.

لكنى أترك نفسى بين يديك. فأى خيار لى؟ وقتما تقرئين هذه الصفحة الأخيرة سيكون ذلك هو مكانى الوحيد - لو كان لى أن أكون فى أى مكان.

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

المؤلفة فى سطور:

مارجريت أتوود

- ولدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ فى مدينة أتوا بكندا.
- حصلت على ليسانس آداب قسم اللغة الإنجليزية من جامعة تورنتو عام ١٩٦١.
- حصلت على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى من جامعة هارفارد عام ١٩٦٢.
- عملت بتدريس الكتابة الإبداعية فى جامعات كولومبيا البريطانية وكونكورديا فى مونتريال وألبيرتا وجامعتى يورك وتورنتو فى تورنتو وغيرها. كما عملت فى مجالات الرسوم المتحركة والتليفزيون والمسرح والفنون البصرية.
- بدأت تمارس الكتابة الإبداعية منذ كانت فى السادسة عشرة. وصلت أعمالها منذ بدأت النشر عام ١٩٦١ إلى أكثر من ثلاثين كتابًا تتنوع بين الشعر والرواية ومجموعات القصص القصيرة، بالإضافة إلى إسهاماتها فى الكتابة للأطفال.
- ترجم كثير من أعمالها إلى أكثر من ٣٥ لغة عالمية، كما أدرجت ضمن مناهج تدريس الأدب فى المدارس والجامعات، وأصبحت مادة للحوارات الأدبية والمراجعات النقدية وأبحاث التخرج فى أقسام الأدب حول العالم.
- حصلت على العديد من الجوائز الأدبية العالمية أهمها جائزة بوكر الأدبية عام ٢٠٠٠ عن روايتها القاتل الأعمى The Blind Assassin.

من أهم أعمالها الروائية:

- امرأة للأكل The Edible Woman (١٩٦٩).

- السيدة أوراكل Lady Oracle (١٩٧٦).
- الحياة قبل الرجل Life before Man (١٩٧٩).
- حكاية خادمة The Handmaid's Tale (١٩٨٥).
- عين القطة Cat's Eye (١٩٨٨).
- العروس اللصة The Robber Bride (١٩٩٣).
- ألياس جراس Alias Grace (١٩٩٦).
- القاتل الأعمى The Blind Assassin (٢٠٠٠) وفازت بجائزة بوكر لنفس العام.
- أوريكس وكراك Oryx and Crake (٢٠٠٣)

من أهم أعمالها فى الشعر:

- توءم برسفونى Double Persphone (١٩٦١)
- اللعبة الدائرية The Circle Game (١٩٦٦) ونالت عنها جائزة Governor- General Award الكندية للشعر فى نفس العام.
- حيوانات هذه المدينة The Animals in that Country (١٩٦٨)

من أعمالها النقدية:

- مفاوضات مع الموتى: تأملات كاتب حول الكتابة
- Negotiating with the Dead: A writer on Writing (2002)

المترجمة فى سطور:

عـــزة مـــــازن

- من مواليد القاهرة.
- تخرجت فى كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزيـــة، جامعـــة عـــين شـــمس (١٩٨٣).
- حصلت على دبلوم الترجمة الإنجليزية من قسم اللغـــة الإنجليزيـــة، كليـــة الآداب، جامعة القاهرة (١٩٨٧).
- حصلت على ماجستير الترجمة والأدب المقارن من قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٩٥).
- حصلت على دكتوراة الأدب الإنجليزى من قسم اللغة الإنجليزيـــة، كليـــة الآداب جامعة عين شمس (٢٠٠١).
- كاتب صحفى ونائب رئيس تحرير بمجلة الإذاعة والتليفزيون.
- تقوم بتدريس الأدب الإنجليزى والترجمة.
- شاركت فى ترجمة المجلد التاسع من "موسوعة كمبريدج فى النقد الأدبى" (المشروع القومى للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥).
- ترجمت كتاب مارجريت أتوود "مفاوضات مع الموتى: تأملات كاتب حول الكتابة" (المشروع القومى للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥).
- لها بعض المقالات الأدبية النقدية المنشورة بمجلة الهلال الثقافية الـــشهرية ومجلة الإذاعة والتليفزيون.
- لها بعض القصص القصيرة المترجمة المنشورة فـــى مجـــلات "ســـطور" و"شموع" و"الإذاعة والتليفزيون" وفى جريدتى الحيـــاة اللنديـــة والأهـــرام ويكلى.

مكتبة ٣٣٣

استحقت رواية "القاتل الأعمى" للأديبة الكندية المتميزة مارجريت أتوود الفوز بجائزة بوكر الأدبية عام 2000. فهى بحق رائعة أدبية وملحمة إنسانية بديعة. فى مستهل الرواية تطالعنا أيريس تشاس تسترجع ذكرياتها عن حادثة سقوط أختها لورا من فوق الجسر عام 1945. يتبعها تقرير صحفى عن الحادثة. ولكن بمجرد أن يستعد القارئ للاستغراق فى قصة لورا، تنقله أتوود إلى رواية أخرى بعنوان "القاتل الأعمى"، متضمنة فى الرواية الأساسية، وهى من نوع الخيال العلمى يرويها عاشقان فى حجرات معتمة بالشوارع الخلفية. وعندما نعود إلى إيريس يكون عام 1947، وذلك ضمن مقال صحفى عن اكتشاف قارب بحرى يحمل جثة زوجها المتوفى، رجل الصناعة المعروف ريتشارد جريفون. وبذلك تلقى أتوود فى مستهل الرواية بخيوط السرد الرئيسية لتشحذ ذهن القارئ للبحث عن العلاقة بينها.

"القاتل الأعمى" رواية متعددة الطبقات بسخاء وتميز؛ فتتشابك فيها الخطوط والأحداث متتابعة فى سرعة. وبمجرد أن تتلاقى الأحداث والخطوط يكتشف القارئ أن ما ترويه أتوود ليس مجرد ما يبدو عليه، بل يفوق ذلك بكثير.

telegram @ktabpdf